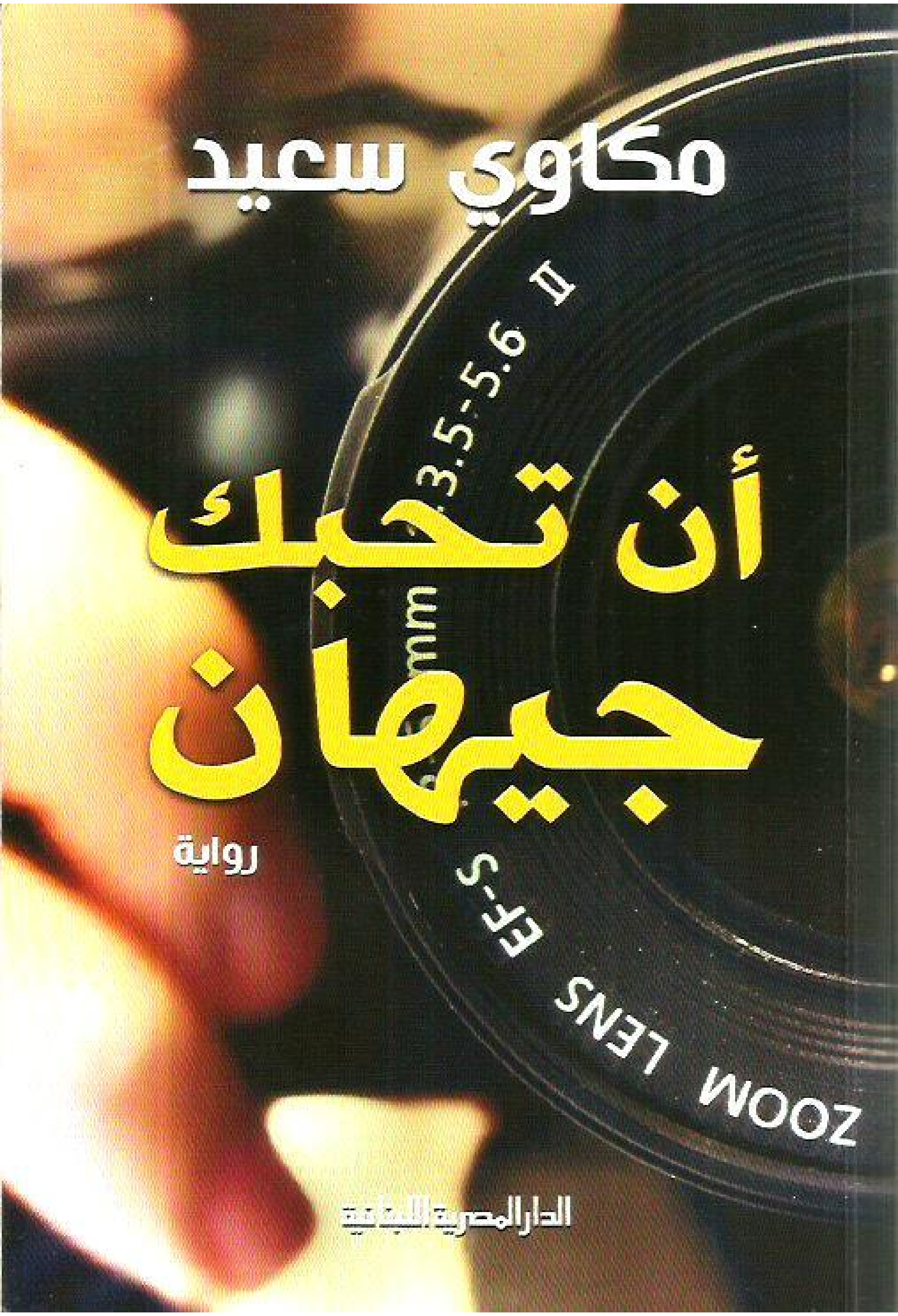

مكاوي سعيد

أن تحبك جيهان

رواية

الدار المصرية اللبنانية

أن تحبك جيهان

رواية

سعيد، مكاوي.
أن تحبك جيهان: رواية / مكاوي سعيد. - ط1.
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
704 ص؛ 20 سم.
تدمك: 1 - 991 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية
أ - العنوان. 813
رقم الإيداع: 10765 / 2015

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: رجب 1436هـ - مايو 2015م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

مكاوي سعيد

أن تحبك جيهان

رواية

الدار المصرية اللبنانية

تصدير

«اللهم افضحنا ولا تسترنا حتى يتبين لنا الخبيث من الطيب»

الإمام زين الدين وحجة الإسلام
أبو حامد محمد الغزالي الطوسي الشافعي

أحمد الضوي

كلما أوغلنا في الطريق كانت قطرات المطر تزداد حدة وتتسع البقع التي تخلِّفها على الزجاج الذي لم تفلح المسَّاحة البائسة في جعله صالحًا للرؤية، رغم جهادها الشديد لإزالة الأتربة العالقة به ومخلفات الطير التي لم يهتم السائق بإزالتها كاهتمامه بنظافته، فقد كان حليق الذقن، يرتدي «جاكيت» مقلدًا من جلد الشامواه المنحول وبره، ورجَّحت أنه يعمل على السيارة، وكانت المسَّاحة تبطئ حركتها مخلفة آثارًا على الزجاج على هيئة خطوط متعرجة، وقلقت بلا سبب خوفًا من أن تكون السيارة معطوبة أو محركها وفراملها ليسا على ما يرام فتكون هذه الرحلة هي ختامنا.. الخوف والقلق اللذان حلَّا بي الآن ليسا جديدين عليَّ، فهما يحلَّان بي دائمًا في المشاوير التي لا أرغب في عملها، أو يُفرض عليَّ أن أؤديها.. وكانت «ريم» في وادٍ آخر تثرثر مع السائق، وفي الوقت نفسه راحة يدها اليمنى تتحسس فخدي وتربِّته، ثم تحرك بنصرها وإبهامها للضغط على أعلى الفخذ، بينما فمها وشطر من وجهها مائلان نحو السائق دون النظر تجاهي أو تجاه يدها، كأن تلك اليد التي تعبث بجسدي لا تنتمي لها، وكان ضيقي يزداد من مجرد فكرة وجودي في الخارج في هذا الجو المترب، العاصف، الماطر، التي تزيده رعبًا أضواء

كشَّافات السيارات التي تمر من جانبنا وهي تومض كالبرق الخاطف الذي صاحب خروجنا من المنزل.. المنزل الذي ربما لن أعود إليه به لفترة طويلة لا يعلم نهايتها إلا الله، المنزل الذي أخرج منه قرب منتصف الليل لأركب سيارة أجرة عتيقة تصادف أن مرت بهذه البقعة الهادئة كي أذهب إلى موعد لم أحدده، ولم أرغب في حضوره لألتقي رجلًا لا يعرفني ولا يرغب في معرفتي، وكلانا لم يرَ الآخر، من أجل أن أتسلَّم منه طفلة لا تمت لي بصلة نسب أو دم أو قرابة أو جيرة.. طفلة هي ابنته الوحيدة التي سيتخلى عنها مؤقتًا لبضعة أسابيع أو شهور حتى يرتب أموره في الخليج ثم يعود لأخذها.. وأنا أمتثل للأمر لأن صاحبة اليد التي تعبث بأسفل جسدي وقد تجاوزت خطوطًا حمراء كثيرة وهي ترشوني.. هي أم الطفلة.. وفي الوقت ذاته طليقته وعشيقتي.. وهي نفسها التي اندست بفراشي بعد قيلولتي ووهبتني ساعتين من المتعة الخالصة، ثم حممتني وألبستني الزي الذي تفضله، وضمَّختني بالعطر الذي يثيرها، وتقول عنه إنه يتحد مع رائحة جسدي فيسبب لها هياجًا ودوارًا، ثم جعلتني ألقي نظرة وداع على غرفة نومنا بعد أن أخفت كل ما ينتمي إلينا، وشفتاها تمسان شفتي وهي تهمس: «بَردون!»، رغم حيرتي أومأت لها برأسي معلنًا أنني أتفهم موقفها.. وقبلت الذهاب معها في الموعد الذي اختلفنا بسببه كثيرًا في الأسبوع الأخير.. لكنني في النهاية رضخت.. مدفوعًا بماذا؟ بأشياء كثيرة.. من المؤكد أنها أشياء جعلتني أُساق هكذا داخل سيارة لا يتوقف سائقها عن الكلام، بينما تتخبط عجلاتها في مطبات وحفر أخفتها المياه الموحلة، وخلال طقس أكرهه.. من أجل أن تنعم حضرتها بوجودي بقربها في لحظة حاسمة في حياتها كما ظلَّت تردد هذه الجملة كثيرًا في الفترة الأخيرة.. وكما هددتني

ضمنيًّا بأن حياتي معها في كفة وعدم صحبتي لها في هذا اللقاء في الكفة الأخرى؛ والكفتان متباعدتان بُعد السماء والأرض، كل هذا من أجل ماذا؟

لماذا إصرارها على وقوف الغريمين وجهًا لوجه كأسدين ضاريين يستعرضان قوتهما في الأحراش أمام لبؤتهما الأثيرة؟ زأرت السيارة عند اقترابها من منطقة وسط البلد بعد أن اعتدل الطريق أمامها وتوارت سوءاته.. ولم يرفع السائق يده من على نفيرها حتى صرخت فيه برفع يده.. ربّتت يدي وهي تنظر نحوي بنظرة العليم التي أمقتها.. والتي شممت فيها إحساسًا بتوتري، ثم سكنت وأنا أرنو خلف الزجاج الأمامي للسيارة وأرى أنوار أعمدة الشوارع الصفراء تتقاطع مع قطرات المياه، ثم هدَّأت السيارة من سرعتها عقب إشارتها له بالتوقف في مواجهة المسرح الذي كان رصيفه خاليًا في ذلك الوقت.

أخرجت يدها من السيارة للتأكد من استمرار سقوط الأمطار من عدمه، ثم فتحت مظلتها وخرجت، فتحت الباب وخرجت مندفعًا فلم تلحقني إلا بعض القطرات الخفيفة، ووقفت أنتظرها في المدخل، كانت منحنية تكلم السائق فتحرك بالسيارة إلى الأمام وإلى الخلف حتى يركنها باستقامة الرصيف، لحقت بي ووقفت بجواري أمام باب المسرح الحديدي الموارب الذي لا تسمح فتحته بدخول أحد، حاولت دفعه بكفي لكنه كان ثقيلًا، وهممت بدفعه بكتفي لكنها انتبهت للصدأ والتراب العالقين به، فجذبتني من يدي وناولتني المظلة لكي أضعها كوسادة بين كتفي والباب حتى لا تتسخ ملابسي، دفعُ الباب أحدث صريرًا مزعجًا لم يتوقف حتى اتسعت الفتحة وسمحت لنا بالدخول إلى بهو المسرح دون أن تتأذى ملابسها الفاخرة، لم تحرك الضجة التي أحدثها دخولنا العشوائي في ظل

الأضـواء الضعيفـة بالداخل الحارس، وهـو يغطُّ في النوم علـى مقعده بين نافـذة حجـز التذاكر والبـاب المفضي إلى خشـبة المسـرح، وكان في تلك اللحظـة مغلقًا على حركات وأصوات موسـيقى تنفلـت أحيانًا من بين ثناياه لتهدهـد الحارس، تأملته لحظات ثم عبرته بعـد أن هزني تدثره الثقيل وفمه المفتوح على المطلق وسـط تجاعيد وجهه التي تشـي بعمره الكبير، لم أشأ إفسـاد راحتـه بينما أصرَّت «ريم» على النداء عليـه ودفعه في كتفه بإصبعها، ثـم لكزه حتى انتبـه وأفاق ونهض مرتبـكًا.. ثم تحول هذا الوجـه المتثائب المجهد إلى النقيض عندما تفرَّس فيها وعرفها.. نفض كسله وبرده وابتسم وهـو يخاطبهـا باسـمها مضيفًا إليه لقـب هانم وفنانـة، ويداه بجـوار جانبيه كالموظـف الصغير في حضرة مديره، ثم مدَّ يده بتزلُّفٍ نحوي وهو يمنحني لقـب بـك في أثناء إشـارته تجاه خشـبة المسـرح ويخبرنا بأن البيـه والهانم الصغيرة بالداخل، وأسـرع بهرولة يدفع البـاب المنزلق حتى تدخل الهانم، ولـم يصبـر حتى أدخل فكاد يصطـدم الباب بي عند ارتـداده، حدجته بنظرة قاسية وهو يعتذر بمسكنة في همس.

كان الضوء بالداخل خافتًا جدًّا، وكنت مندهشًـا من ذلك، فالمسـرحية الأصليـة التي تُعرض في هذا المسـرح قـد انتهت منذ قليلٍ حسـب موعدنا الذي سيتم بعد انتهاء عرضها.. بينما قاعة المسرح ليست خالية، ولا الأنوار مضـاءة كي تعلـن انتهاءها، ولا مظلمة تمامًا تشـي بأن عرضًا على الخشـبة مـا زال يُقـدَّم، وبعد لحظات من خـلال هذه الإضاءة الشـحيحة وجدتها ما تزال واقفة مثلي في مؤخرة المسـرح وتتقدمني بمسـافة صغيرة، وفي الأمام بقعة ضوئية تتحرك يمينًا ويسـارًا على خشـبة المسـرح، تظلـل قزمة صغيرة تشوح بيديها وتدبدب بقدميها وتقفز أحيانًا، وتسقط على الخشبة، وقدماها

كطر في المقص مثل لاعبات الباليه، ويخرج من فم تلك القزمة صوت رفيع غير ناضج تلاحقه موسيقى جهورية تزيدها السماعات الكثيرة المتناثرة في أرجاء المسرح ضجيجًا.

اختلست النظر إلى «ريم» فوجدت انتباهها كله منصبًّا على القزمة التي تعتلي المسرح، تقدَّمت مقتربًا منها لكنها كانت في عالم آخر، خطفت نظرات في شتى الاتجاهات ثم مددت كفي لامسًا ردفها، انتفضت كأن حية لامستها والتفتت بوجه غاضب وعيون نارية، أدرت وجهي خجلًا واستياءً بينما تقدَّمت هي إلى الأمام بخطوات سريعة كأن كفي أدارت زمبلك الحركة لديها.. وفي منتصف المسافة التفتت تجاهي، وعندما وجدتني لم أتحرك قطَّبت جبينها ثم أكملت سيرها، كنت حائرًا بين أن أتبعها كالبهيمة أو أن أتغابى وأظل في مكاني حتى ينتهي العرض الذي يشاهدونه، ويحين موعد العرض الذي سأشارك فيه بعد تورطي، أو أن أتناول حبوب الشجاعة وأخرج.. غير أنني كنت أجبن من أن أخرج، وأعقل من أن أظل في مكاني بينما أنا متورط تمامًا في مؤازرتها، لذا تبعتها، وبمجرد اقترابي من الصف الثاني الذي كانت تجلس فيه وجدتها تنظر تجاهي وتبتسم وتشير لي بالجلوس بجوارها.. كنت متضايقًا من بسمة انتصارها لكني بالرغم من ذلك جلست وصفقت معها فور انتهاء المونولوج الذي أدته الطفلة، واستسلمت وهي تشدني من يدي حتى أنهض وأحيي الطفلة القزمة، والأضواء تسطع عليها معلنة عن مولد نجمة كبيرة على خشبة المسرح العملاق.. وسط جمهور قليل من فناني وعمال المسرح والبوفيه وأفراد غالبيتهم ينتمون بصلة ما لهذه الطفلة..

كانـت الممثلة المخضرمة بطلة العرض الرئيسـي في تلك الفترة تتصدر الصـف الأول، وقبـل أن يخفـت صـوت التصفيق نهضـت وتقدمت خطوة وضعتها في مواجهة منتصف الخشبة، وحيَّت الطفلة الصغيرة بتصفيق حركي مبالغ فيه بأقل صوت ممكن.. وردَّت الطفلة بانحناءة بسـيطة ثم اقتربت من حافـة الخشـبة وألقت نفسـها بين أحضـان النجمـة، التي التقطتهـا بصعوبة وبالـكاد احتضنتها وقبَّلتها لبضـع ثوانٍ، ثم أنزلتها بسـرعة قبل أن «يتخدَّل» ذراعاهـا.. تحركـت الطفلـة تجـاه أبيهـا مخرج المسـرح المغتـرب والذي يجاملـه زمـلاؤه الآن بمشـاهدة أداء طفلتـه، قبَّلها الأب ورفعهـا عاليًا وهي «تشـوِّح» بيدها في اتجاهات مختلفـة، وعندما لمحت أمها تحولت تجاهها بابتسـامة، ثم انحنت تقبل رأس الأب حتى أنزلها إلى الأرض، خرجت الأم من مجرى الصف الثاني لتتلقاها بين ذراعيها وتقبلها، وكنت خلفها، وحين رأتنـي الطفلة من أعلـى ثبتت نظراتها نحوي وبادلتهـا النظرة بنظرة حتى إن عيوننـا ظلت معلقة فـي الهواء فتـرة.. الحيرة التي صاحبت نظرات الطفلة اختفت تمامًا حين قدمتني أمها إليها وحلَّت محلها بسمة طفيفة زاد مقدارها قليـلًا وأنا أثني على أدائها.. وعندما تورطت فـي المجاملة قليلًا واعتذرت للطفلـة لأني لـم أحضر العرض منذ بدايته، أدارت لـي ظهرها بجلافة وهي تقول لأمها بصوت حرصت تمامًا على أن أسمعه: «عرض إيه يا مامي.. هو عمو مش من هنا؟»

أوقفتهـا أمها بنظرة حادة فسـكتت البنت، ثم وجـدت الأب يربت كتفي وهو يمد لي يده مبتسمًا ويعرف نفسه بتهذيب حيرني، قدمت له نفسي بحياد

وسرت معهم تجاه باب الخروج، كانت الأم مشغولة بتحية مَن تعرفهم من الممثلين وبابنتها، وكان الأب منشغلًا بصديقته نجمة العرض الحالي على هذا المسرح، وكانت النجمة تتبختر وهي تسير بين الأفيشات التي لا تكاد تظهر فيها المادة المكتوبة من تغول صورتها عليها، وبدأ إحساسي بالوحدة يزيد وشعرت بأنني بين طقوس عزاء ثقيل لا أعرف أحدًا من معزييه، ثم انتبهت إلى الحارس وهو يتقدم في تمام يقظته ويسلِّم على الأب ويدعو له بالصحة ويقسم بأن هذا المسرح العريق افتقد مسرحياته المهمة، التي لم أشاهدها ولا أعرف حتى أحد أسمائها ولا عددها ولم يصدف أن مرَّ اسمه كمخرج على ذهني مطلقًا لا عبر الأثير ولا من خلال الصحف والمجلات كالأعمال التي مثلتها ريم تمامًا.. وكانت الورقة المالية التي دسَّها الأب في يد الحارس قد أرضته وجعلته يغالي في الدعاء مما كاد يخرج الممثلة عن شعورها، والتفتت إليه بغضب فتحول اتجاه التحيات والدعوات نحوها.. وعندما خرجنا إلى الشارع كان المطر قد خف تمامًا، وكانت النقود قد نفضت البرد عن الحارس وفردت طوله وجعلته يهرول ليفتح باب سيارة حديثة تخص الأب، بينما كان سائق سيارة الأجرة قد اقترب بالسيارة عند رؤيتنا وتوقف عند حرم المنطقة التي نقف عندها، وفتح الأب حقيبة سيارته بالريموت وظل يشير إلى ما بداخلها والحارس يتبع إشارته ويحمل الأغراض المشار إليها وهو ينقلها بخفة النمر إلى حقيبة سيارة الأجرة، ثم نظرت الابنة إلى سيارتنا باستياءٍ وحينها اقترب منها الأب فحضنته حضنًا سينمائيًّا ودراميًّا، بعدها أمسكت يديه بكلتا يديها وظلَّت تؤرجحهما للأمام والخلف بثباتٍ كأنها لن تفلتهما إلا يوم القيامة، لكن الأم بحسم وثبات

وهـدوء قالت كلمة واحـدة فقط: «ملك»، تخاذلت يدا الفتاة بمجرد سـماع اسمها، واسـتدارت نحونا بوجه جاهدت أن يبدو بشوشًا وهرولت لتمسك بيـد الأم التـي كانت توجِّه الحارس والسـائق فـي أثناء وضعهمـا الحقائب فـي صندوق السـيارة الخلفي، ووجـدت الأب يربِّت ظهـري وهو يوصيني بابنته ويعتذر مسـبقًا عن الإزعاج الذي قد تسـببه لي، والذي يبدو في بعض الأحيان كالدلع الممقوت - على حد قوله - وكانت لمسته حميمية جعلتني أعيـد النظر في الآراء التي كوَّنتها عنه بنـاءً على كلام «ريم» فيما يخص أدق التفاصيل التي كانت بينهما، وتسـلل إلى داخلي شـيء مـن العطف تجاهه، وبعض من تأنيب الضمير، فربتُّ يده وهمسـت: «اطمئن»، وتبادلنا الابتسام وافترقنـا؛ هو إلى سـيارته التـي أضاء كشـافاتها وصالونهـا الداخلي فغدت كماسـة صناعيـة، وأنـا إلى التـي يُطلـق عليها مجازًا سـيارة، والتـي تحاول أضواؤها السـطوع فتعجز لفسـاد الوصلات الكهربية أو قذارة الكشـافات، «ريم» لـم تصرف عينيها عنَّا حتى افترقنا وجلسـت في مقدمة السـيارة بجوار السـائق، بينمـا هي مـع ابنتها في الكنبـة الخلفية وقد اختـارت الموقع الذي خلف كرسـي السـائق حتـى لا تضايقني بركبتهـا الطويلة التي تسـتلزم حيزًا أكبر، وجلسـت الطفلـة بجوارها في البـراح خلفي بالضبـط، كنت في تلك اللحظة أنظر إليهما متوقعًا أن تشـكرني أو تمتدحني أمام الابنة أو أي شـيء من هذا القبيل، غير أنها فاجأتني وهي تقول بهدوءٍ مستفز: «يا خسارة الوقت متأخر ومفيش قهوة قريبة مفتوحة دلوقتي كنتوا قعدتوا فيها شـوية مع بعض تدردشوا وتتصاحبوا»، وجدت أنه من العبث الرد على هذا الحوار السخيف في وجود سائق غريب، وأومأت بعيني تجاه السائق حتى تخرس، وأنا أشير

له بالتحرُّك، واستفزَّني عندما التفت تجاهها كي يأخذ الإذن منها، وأومأت إليه فتحرك على الفور، ثم عذرته.. فقد رآها تأمر وتشخط وتنطر وتخرج نقودًا من حقيبتها دون أن تعدها وتعطي وتجزل في العطاء، كما أنها التي عقدت الاتفاق معه، ثم ما علينا.. ها أنا أشغل نفسي بالتوافه.. دون أن أفكر في حقيقة ما قالته عن طليقها، ذلك الرجل القاسي الغبي المحبط الذي بطّط أحلامها وأفشل طموحاتها، تتكلم عن هذا الأب المدكوك.. الذي سلَّم عليَّ بوداعة وربَّت ظهري بحنان وأمَّنني على ابنته.. هل من الممكن أن يكون سببًا في كل آلامها النفسية والجسدية؟ هل من الجائز فعلًا أن يكون وحشًا غير آدمي أخفى شراسته حتى تنتهي حاجته، عاشرتها طوال شهور كثيرة ولم أشغل نفسي بتصديقها أو تكذيبها يومًا، وربع ساعة فقط مع طليقها جعلتني أميل إلى تصديقه، يبدو أن ثمة خللًا في علاقتنا، ظهر جليًّا أمامي الآن وعليَّ تبينه بأسرع ما يمكن، فكلما توغلت فيها بتُّ عاجزًا عن الانفلات، تُرى ماذا قالت له عني عندما تهاتفا واتفقا على الصفقة؟ وما هي تصوراته عني؟ زوج محتمل.. عاشق هيمان.. صاحب أو رفيق.. أم شخص أجرته لتكديره؟ أووف من ثرثرة هذه الصغيرة عن محال اللعب والملاهي في الخليج.. وعن الأطعمة والشوارع.. هذا بخلاف دبدبات قدميها في ظهر الكرسي الذي أجلس عليه، والتي تصلني كحد الخناجر، ويبدو أنها تتعمدها، وأنا غير قادر على تحويل رأسي تجاههما، فقد تتسلل قسمات غير مريحة إلى وجهي وتلمحها الأم بعينيها اللتين تشبهان عيني صقر متربص، وتتصور أني لست سعيدًا بوجود البنت فترة قصيرة في حياتنا.. آه! الطريق ما زال ممتدًّا ونحن نعبره فوق جسور من الثرثرة والتوافه.

منذ أسبوع مضى كان الحال غير الحال عندما ألحت عليَّ، طالبة مني التواجد بقربها في لحظة التسليم والتسلُّم، لم أرغب لكني اعتبرت إلحاحها من قبيل الحميمية، وسألتها: «هل أخبرته بعلاقتنا؟»، نظرت إليَّ بدهشة وقالت إنها مجرد مكالمات تليفونية يخبرها بموعد وصوله أو يتناقش معها بخصوص البنت، ثم مكالمات محلية حتى اتفقا على اللقاء.. وإنه من غير المنطقي أن تتخلل تلك المكالمات أحاديث أخرى عن الرجال الذين دخلوا حياتها بعده، وعقَّبت بحسم: «ثم ما أهمية أن يعرف ذلك أو يجهله! هذه علاقة خاصة لا يجرؤ أحد في الكون على الخوض في تفاصيلها»، وبعد يومين عندما سألتها كيف ستقدمني إليه؟ عاودتها تلك النظرة وقالت بحدة: «عرَّفته اسمك وشغلك وبس»، ولما تكدرت من ردها وانسحبت إلى الغرفة الأخرى.. دخلت بعدي بقليل، وقعدت على حجري وهمست في أذني وهي تقبلني: «أكيد شم ريحتك في أنفاسي وأنا بكلمه».

وصلنا أخيرًا، وها نحن أمام المصعد والسائق يضع الحقائب بداخله، ثم يخرج إلى الشارع في انتظار أن يقلني إلى بيتي، و«ريم» تفتح باب الشقة، والطفلة تندفع للداخل وهي «تشوح» بيدها: «باي يا عمو».. بينما «ريم» تتلفت تجاهي، ثم تمد رأسها إلى الداخل وتطمئن إلى اختفاء الطفلة بالداخل فتقبلني بسرعة وهي تطلب عودتي في الصباح كي نفطر سويًّا، وتحذرني من الغياب وهي تقول إنها لن تغفر لي ذلك أبدًا حتى لو كان التغيب بسبب كوارث كونية.. وعادت البنت في تلك اللحظة لتقول في استياء: «الشقة صغيرة يا ماما».. ثم أمسكت بيد أمها حتى يدخلا الشقة معًا.. ووقفت معها بالداخل وهي تراوح النظر بيني وبين أمها بقلة صبر وبترقب كأنها تحرص على ألا نتبادل أي نظرة ودية..

خرجت من المبنى تجاه السيارة الأجرة التي رفضت أن أركب بدلًا منها ليموزين حديثة، كما اقترحت «ريم»، بحجة أنني لن أتباهى بسيارة مؤجرة وأنا أقابل طليقها.. وأشرت إلى أول سيارة أجرة مرَّت بنا.. وكانت هذه السيارة من نصيبنا.. والله أعلم هل سينجح سائقها في الوصول بي إلى منزلي سالمًا بأعطابها وهدير محركها.. رددت باقتضاب واصفًا المكان الذي سيوصلني إليه، وبعد أن سار عدة أمتار قال بصوت اعتبرته من قبيل السخرية: «على فكرة المدام دفعت كل حاجة»، كدت أسبه لكني ألجمت لساني.

الصباح التالي كان أقرب مما توقعته، وفي تمام الحادية عشرة بالضبط كنت قبالة الشقة التي أصبحت تخصهما الآن، وكل الذي نمته بضع ساعات قليلة كانت كفيلة فيما مضى بمشاكستي لخلق الله وارتكاب عدد لا بأس به من جرائم القذف، لكني ضبطت نفسي هادئًا، أرن جرس الباب بلمسة بسيطة ولا أتعجل فتحه، ولم أبدُ متأثرًا من طلبها بألا أفتح الباب بمفتاحي في وجود الابنة، وها أنا أمتثل مع أن الطبيعي جدًّا أن أخطئ في أول الأمر وأتحجج بأنني لم أعتد وجود أحد غيري بداخل هذا الحيز المكاني، لكني نجحت في أول اختبار، وظهر جليًا على وجهي المرح والانبساط، كأن سيف الحرمان من «ريم» لفترة مبهمة قد اختفى، وكأني نفضت يديَّ من عبء وجود الطفلة، ووقفت «ريم» على مسافة وهي تفتح الباب فأدركت أن الطفلة مستيقظة، أبطأت سيري كزيارة ضيف غير مقيم، وتعثرت بفرع نبات «الأكاسيا» الذي لم يتغير موضعه منذ وجودي في هذا المكان، انحرفت إلى اليسار مرتبكًا بينما «ريم» تنظر إليَّ بدهشة، وفي الصالة المكدسة بالأرائك

والخُدّديات العربية، جلست في الركن الذي أفضله بعد أن خلعت حذائي ووضعته في الجزَّامة، بينما «ريم» وهي تضع منفضة السجائر بجواري أخبرتني بأنها ستجفف شعر «ملك»، ثم تعد طعام الإفطار، وانصرفت دون أن تطلب مني مساعدتها في طهي البيض بطريقتي التي تحبها، أو إعداد النيسكافيه والوقوف بجوارها لنتحدث، انشغلت بالجريدة، ثم أتت «ملك» تعدو وتباغتني بالقفز على حجري وتقبيلي على خدي وجبيني، أفلتُّ جريدتي من أسفل مقعدتها بصعوبة محاولًا إكمال حل «السودوكو»، بينما «ملك» تسألني عما أفعله، ولماذا أكتب الأرقام بالعربي وليس بالإنجليش، وتطالبني بأن أعلمها هذه اللعبة، ثم دخلت «ريم» ووجدتها على حجري وأنا بالكاد أضع الأرقام في الخانات المخصصة لها والجريدة على ظهرها بعد أن اتخذته مسندًا، نهرتها وهي تضع الغلاية والأكواب على مقربة منَّا، وقفزت الابنة وجلست بعيدة عني، ثم رجت أمها أن تذهب معها إلى المطبخ، رفضت الأم بحسم وهي تخيرها بين انتظار الإفطار في صمت أو إحضار إحدى لعبها واللعب بها دون ضجة إلى أن يتم تجهيز الطعام، نطَّت البنت خارج الغرفة وعادت بعد دقائق وبيدها ما قدرت على حمله من لعب ودمى، كان من ضمنها مجموعة من كرات البلاستيك الصغيرة الملونة، رصتها أمامها ثم ظلت تحركها بنظام التوافيق والتباديل، وأنا أضع رقمًا ثم أتلصص عليها، لكنها قنصت نظرتي في إحدى المرات وقالت لي بابتسامة: «تعرف انت أي لون من دول؟»، ابتسمت وقلت: «لا..تعرفي انتي؟»، أومأت برأسها وهي تجيب: «الأصفر»، في تلك اللحظة دخلت الأم ببعض أطباق السلطة وسألتني عن الحوار الذي يدور بيننا، أخبرتها بأن «ملك» اختارت لي اللون الأصفر، تكدَّرت الأم وهي تنظر تجاه الابنة بتأنيب، بينما

هربـت الابنـة من نظراتها بملاعبـة دبدوبها، قادني الفضول إلى سـؤال الأم عن سـبب ضيقها، فهمسـت لي بأنه أسـوأ الألوان لديها، ابتسمت مضطرًّا، فعـادت إلى المطبخ وبمجـرد غيابها عنَّا تحولت الطفلـة كليًّا إليَّ.. تداعب الكـرات الصغيرة وتنظر نحوي، ورجعـتُ إلى الجريدة لبضع ثوانٍ وبوغتُّ بكرتها في طريقها إلى فقء عيني من قوة الرمية، نجحت في تفاديها برشـاقة لكنها مسَّـت جانبًا من أذني وآلمتنى قليلًا وأغضبتني، في ذات الوقت الذي دخلت فيه «ريم» علينا وأدركت بسـرعة ما حدث فهرولت دون حسـابات، وفحصـت أذني، ثم توجهت تجاه الابنة التي كانـت قد تجمَّدت في مكانها تمامًـا، ورفعـت البنت من تحـت إبطيها واتجهـت بها نحو الشـرفة والبنت ترفِّص وتركل وتصرخ في جنون، وأنا شبه مغيب مذهول لما يحدث أمامي، الطفلة مدلاة من الشـرفة وأمها تمسـك بقدميها، ولا أرى غير نصف الطفلة السـفلي. وأنا في رعب من أن يغلب ثقل جسدها ذراعي الأم فتهوي الطفلة مـن الطابـق الرابـع - حيث نكـون - إلى سـقف الجمالون الخـاص بمحل الخضراوات الذي سبق أن لقيت «صابرين» مصرعها فوقه.

قـد أكون نجحـت في الوقوف وأنا أناشـدها إعادة الطفلـة إلى الداخل، وقـد أكون بقيـت على حالي ألعن مَـن عرفني على تلـك المجنونة وربطني بهـا.. الذي أذكره أن البنت لم تجد ملجئًا بعد إخراجها من الشـرفة والقائها علـى بلاط الشـقة غيـري.. جرت ورمت نفسـها فـي حضنـي وعيناها مثل كاسـات الـدم، ومخاطها التقـى بدمعها على قميصي، ولـم يصـدر عنها غير نحيـب.. ظللـت أربت رأسـها وأقبله حتى تماسـكت وهي تتأسـف وتكرر أسـفها برتم واحد كشـريط التسـجيل عندما يسـف: «مش هاعمل كدا تاني

يا عمو».. بينما جلست «ريم» بهدوء تشعل سيجارة وتنفث دخانها بكثافة وتقول وهي تتأملنا: «ماتصدقهاش دي بنت أبوها»، همست بغيظ: «هو ينفع اللي عملتيه ده؟».. قالت ببرود: «اليابانيين بيعملوا كدا عشان ولادهم الصغيرين ما يعملوش بِيبِّي.. بيقلعوهم ملط ويخوفوهم وبكده بيبطلوا يعملوا بِيبِّي في السرير»، كانت كل قدراتي على الجدال والحوار مع كائنات غير منطقية قد تسربت مني، سكت ثم بعد بضع دقائق، وعندما تم تجهيز الطعام بدأت في الأكل بلا شهية، كسرت لي بيضة مسلوقة فتناولتها بلا ملح ولا بهار، وأكلت ساندوتش المربى دون استطعام.. وكلما اختلست النظر إليهما وجدتهما يأكلان بشهية غير عادية، بل يطعمان بعضًا بالتناوب، ويتذكرنني أحيانًا فتضع الطفلة بعض حبات الشيبسي في فمي وتصر «ريم» على أن أتناول منها قطعة الزبد.. توقفت عن الأكل ومسحت فمي وأخذت منها كوب النسكافيه.. ثم لفت نظري أن الطفلة تنظر إليَّ نظرات طويلة.. عجزت عن تحليل هذه النظرات، لكنني شعرت بخوف من حدقتي عيني الطفلة.. لم تكنا حدقتي عيني طفلة مطلقًا.. كانتا حدقتي عيني امرأة عجوز خبرت الحياة وعاشتها بالمكر والدهاء، ولأول مرة ينتابني إحساس شبه يقيني بأنه لا مستقبل لعلاقتي مع «ريم»، بسبب تلك الطفلة التي بعيني عجوز.

***

لم أجد أحدًا بمقر شركتي الصغيرة، حتى السكرتيرة أو عامل البوفيه، وشعرت بالغضب لتكدس الصالة بالدوائر الكرتونية المتناثرة التي تخرج منها الخرائط والرسوم المعمارية، والاسكتشات المتساندة على بعضها في غير انتظام، هذا غير الكراسي الإضافية التي تم سحبها من الغرف

ووضعها في الصالة لاستضافة العملاء، خنقني هذا الزحام الذي افترضوا أنه يعطي العميل ثقة في هذا المكتب الهندسي، مررت على باقي الغرف التي كانت كلها مغلقة وفي صدرها لوحات نحاسية صغيرة بأقسام شاغليها (قسم العمارة.. قسم التنفيذ.. الإدارة المالية) وفي حقيقة الأمر لا يعمل بمكتبي الصغير غير مهندس معماري ومهندس تنفيذ، ومشرف معماري وآخر للتنفيذ - غير متفرغين - ومحاسب مالي وسكرتيرة.. هذا بخلافي أنا الذي أشغل وظيفة المدير العام، وحظيت باللقب لأني مالك الشركة، أعمالنا لا بأس بها، تبلغ أحيانًا الذروة، وأحيانًا أخرى ندبر بصعوبة الرواتب والأجور، حين كنت متفرغًا لها كانت تحقق طفرات كبيرة، وحين انشغلت بغيرها وجدت نفسي غير راضٍ عن أدائها لكني لم أقلص أعمالها الخاسرة أو أغلقها طالما أن عائدها الشهري يفي بالمتطلبات ويفيض عنه ربح لا بأس به.. في كل أسبوعين أمر عليها في أوقات مختلفة لمتابعة الأعمال، وغالبًا ما أخرج من المكان وأنا لست راضيًا عنه، وعندما أدخل إلى مقر الشركة أبدو كالزوج العائد من سفرية طويلة مع عشيقته، ورغم استمتاعته بالخيانة إلا أن ضميره أثقل كاهله بمجموعة ضخمة من الشكوك والظنون تجاه زوجته، أفتح باب غرفتي فأجدها نظيفة ومرتبة إلا أني أشم رائحة التراب المستتر خلف رائحة العطر الفجة، أدخل حمامي الخاص الملحق بالغرفة وأفحص مصفاة الحوض فلا أجد شعرًا نسائيًا عالقًا بها، أتحسس جدران البانيو فأجده جافًا ونظيفًا.. ألقي نظرة على مرطبات الجسم والكريمات فأجدها على حالها كما تركتها، أتأكد من أن السكرتيرة الوحيدة التي لديها نسخة من مفتاح غرفتي والحمام لم تستخدمه واستوعبت الدرس، حينما اكتشفت مرة في بداية عملها أنها استخدمته وعاقبتها عقابًا شديدًا.. ثم

أتشـكك وأظن أنها اسـتخدمته لكن لديهـا من الحذق والمهـارة ما يجعلها تنجـح تمامًا في إزالة آثار الجريمة، محمولي يرن وكنت أظنها «ريم» لكنني وجـدت المتصل «عمـاد»، طلب مني المـرور عليه في عمله فلـم أتردد في الموافقة لزهقي ولقرب المسـافة بين شركتي ومقر عمله، وقبل الخروج من الشـركة اتصلت بالسـكرتيرة فأخبرتني بأنهم انتهوا من صبِّ سـقف الطابق الأخيـر بعمارة منشـية البكري.. لذا منحهـم «طلعت» مهنـدس التنفيذ هذا اليوم إجازة مكافأة على تعبهم وجهدهم في الأيام الأخيرة، لم أشـأ أن أكلم «طلعـت» الذي عينته نائبًا لي حتى لا يبدو الأمـر وكأنني ألاحقه، وانطلقت تجاه «عماد صدقي»، كنت في حاجة إلى سـماع سـخافاته وهزله وشكاويه التافهـة، أو قصائـده الغنائية، وحكاياته عن الملحنين والمطربين المشـاهير أو المغموريـن الذين يعدونه بغنائها وعندمـا ينهي لهم حاجتهم يتجنبونه أو يجيبونـه بكلمة صار يمقتها: «بإذن الله حتسـمعها فـي الألبوم الجاي»، هذا بخـلاف حكاياته الأثيرة مع المرأة التي قلبت كيانه وجعلته أحيانًا ينسـى أن يضع الطبنجة في جرابه ويضع بدلًا منها المشـط، تلك السـيدة التي تناسب ذوقـه كمـا عرفتـه.. فهي بيضـاء تكاد تضـيء.. وبضة علـى حافـة البدانة.. ملابسـها تقليدية يغلب عليها اللون الأسود.. في المرات القليلة التي التقينا فيهـا ولفتُّ نظر «عماد» إلى ذلك، بدا مندهشًـا مـن الملاحظة وذكر لي أنها ترتديه حزنًا على زوجها، اندهشت لأني لم أقابل امرأة مطلقًا ترتدي الأسود حدادًا لأكثر من ثلاث سـنوات، ورجّحت أن شـخصًا مـا خدعها بأن اللون الأسـود يزيدها فتنة، أو أنها تحب ارتداء ما يعكس نفسـيتها السـوداء، طبعًا لـم أخبر «عماد» بالملاحظـة الأخيرة، فقد كان متيمًا بتلـك المرأة، رغم أنه يسـتحق أفضل منها، فهو ممشوق القوام وعضلاته مفتولة وعيناه خضراوان

بخلاف منصبه الذي يبهر العوام، لم أمِل إلى هذه المرأة عندما تقابلنا رغم أنها قابلتني بترحاب ومودة، لأنها بمجرد علمها بأني مهندس وأعمل في مجال المقاولات داهمتني بحركات أولاد السوق وهي تريني كل قطع الأثاث التي بداخل محل الموبيليا الذي تمتلكه، وكان محلًّا كبيرًا يشغل نصف مساحة العمارة الضخمة التي فيها، وله امتداد ثانٍ بنفس المساحة في الطابق الأعلى، به القطع الضخمة والمخزن ومكتب خاص بها استضافتنا فيه - أنا و«عماد» - أكثر من مرة، وبعد أن ذكرت لها بعض عبارات المجاملة عن رهافة ذوقها وحداثة أثاثها، طلبت مني أن أسوِّق منتجاتها عبر شركتي، واعتذرت لها بأني متخصص في الهياكل الخرسانية ولا أعمل في مجال التشطيبات ولا الديكور، ابتسمت ابتسامة تجار السوق وهي تقول: «إديهم الكارت بتاع المحل واضمني عندهم ونسبتك محفوظة»، لولا أني أحب «عماد» وموقن من أنه غارق في حب هذه المرأة لعنفتها، لكن إكرامًا للصداقة ولخدماته، قلت لها بحروف مضغومة: «إن شاء الله».

استلمني أمين شرطة من عند البوابة وسلمني لآخر كان ينتظرني داخل مصعد القيادات، هذا الآخر أدخلني غرفة «عماد» ثم ضرب الأرض بقدمه وهو يحييه وينصرف، أفسح «عماد» ركنًا بجواره على الأريكة وصافحني وهو جالس وعيناه مشدودتان إلى شاشة التلفزيون الذي كان يبث في تلك اللحظة فيلم «العتبة الخضراء» بطولة إسماعيل ياسين، ورغم أن الفيلم أبيض وأسود إلا أنه كان منتبهًا جدًّا لمشاهده كأنه لم يشاهده من قبل، ولا يتحكم في فكِّه الذي يقهقه ولا جسده الذي يتحرك أمامًا وخلفًا كبندول الساعة، كان إسماعيل ياسين في تلك اللحظة يطالب ضابط القسم بقيمة إيجار القسم المتأخر والدموع تكاد تطفر من عيني «عماد» الضاحكتين

عندما لكزته في كتفه فانتبه لي ثم صرخ باسم عسكري المراسلة، الذي دخل الغرفة بسرعة فبادره بطلب كوبين من عصير القصب دون أن يأخذ رأيي، وعندما هممت بالاعتراض قاطعني بنفاد صبر: «اشرب العصير الأول وبعدين القهوة واحنا بنتكلم في الموضوع اللي عايزك فيه».

شاهدت الفيلم حتى تترات النهاية وشربت العصير والقهوة وأكلت ساندوتشات مكتظة بالكبدة والمخ طلبها «عماد» من المحل المجاور للمديرية، وافقت على الذهاب معه لمقابلة العبقري الفلكي بكل بساطة، ولم أُبدِ اعتراضًا ولا سخفت من طلبه ولا قدمت حججًا وذرائع تمنعني من الذهاب، كنت أحس بفراغ شديد لذا ابتسمت وضحكت ووافقت وأنا أسخر من لجوئه إلى الخرافة والجهل، لكنه لم يأبه لسخريتي، فقط طلب مني بجدية ألا أتورط في الحديث مع الرجل فيعرف أن «عماد» ضابط شرطة، حتى لا يخاف أو يتحوط أو يتحفظ أو يتراجع عن خدمته، أخبرته بأنني لن أدخل معه وسأنتظره خارج المكتب، لكنه ألح في تواجدي بحجة أن كلام الناس «الواصلين دول» - على حد قوله - أحيانًا يبدو غامضًا، وأنه يرغب في وجودي حتى لا تفوته كلمة أو نصيحة من العبقري، شدني الفضول لرؤية هذا الرجل فوقفت كي نذهب للقائه، لكن «عماد» نظر إلى ساعته وطلب إمهاله بعض الوقت حتى ينتهي من الأوراق التي أمامه، الأوراق التي بها حيوات ومصائر بشر آخرين مثلنا، كان يؤشر ويوقع على الورق وهو يتكلم بصوت منخفض لكنه يصلني: يُحفظ.. تستمر المراقبة أسبوعًا آخر.. يُسأل (ص) عن ذلك.. تؤجل المداهمة حتى يرد مكتب الوزير.. أرى ألا يتدخل حرس الجامعة في هذا الموضوع ويهمل رأي عميد الكلية» وأصابتني الحيرة: «هل من عادته الكلام أثناء عمله؟ أم

يريد إيصال تأكيد أننا صرنا أصدقاء ولا خوف مني؟ أم أن الحب دهوله تمامًا فأصبح غير منتبه إلى عمله لدرجة أنسته أبسط قواعد الأمان؟ أم أنه لا خوف مني البتة.. أُساق مع ريم لمقابلة طليقها.. وأُساق مع عماد لمقابلة دجال.. ولست أدري ما الذي سأساق إليه في المستقبل؟!»

بعد أن بدل «عماد» بملابسه الملابس المدنية بدا متأنقًا جدًّا ورائحة برفانه تشي بأنه في الطريق إلى لقاء عاطفي، وكنت قد أفلتُّ بصعوبة من رشاشة زجاجة عطره التي طاردني بها في المكتب محاولًا تعطيري بدعوى أنها تضيف جاذبية جنسية للمتعطر بها، وقد كان لديَّ اعتقاد ضعيف بأن الرجل المُتحزِّم بسلاح يتسبب ثقل هذا السلاح في أن يخف عقله، وقد أدركت سلامة هذا الاعتقاد الآن.

عندما انتهى عسكري المراسلة من تنظيف سيارة «عماد» الخاصة، أمره بالدخول إلى صالون السيارة ورفع جاكت الخدمة المزين بالرتب، والذي كان معلقًا في صدر نافذة خلفية السيارة، وإخفاء القبعة العسكرية، ثم انطلقنا بالسيارة في طريقنا إلى العبقري الفلكي.

كان كل تصوري عن وكر هذا الرجل بعيد تمامًا عن الواقع، فلا هو كهف صغير بلا علامات تميزه يقبع داخله شيخ مُسن بلحية بيضاء كالقطن، ولا هو يبسمل ويحوقل ويتلو أوراده بين دخان بخور الصندل وهو ينظر إلى بلُّورة من الكريستال، ولا هو يدير أعماله من داخل غرفة منزلية بإحدى شقق وسط البلد بين غرف الحياكة وورش الأحذية ومعامل اللغات غير الرسمية التي تدرس الإسبانية والإيطالية واليابانية والصينية، ولا هو بين

عيادات الترقيع والتفريغ ومراكز التفاوض على بيع الأعضاء، ولا هو يعمل في الخفاء، بل على العكس تمامًا، مركزه في عمارة ضخمة تقع أمام كلية طب القصر العيني، وهناك لافتة ضخمة على شرفة الطابق الأول توضح اسمه وعمله في العلاج الروحي والتنويم المغناطيسي، وعلى جرانيت الجدران الذي يزين المدخل أسهم خشبية عريضة محشوة باسمه تشير إلى مكانه بالدور الأول.

ومركزه عبارة عن شقة كبيرة بابها مفتوح على مصراعيه، وبهوها ضخم فاض بزبائنه الذين تكدسوا على أرائكه وجلس بعضهم على كراسي خشبية في مواجهة سكرتيرة حسناء، بمجرد دخولك تستفسر منك السكرتيرة عن اسمك وتاريخ الحجز، وتشير إليك بالجلوس إن كانت هناك كراسي خالية، وتعطيك رقمًا للمقابلة، ثم يمر عليك ساعٍ نشيط بصينية فوقها الماء والمشروبات، وديكور المكان بائس بآنيات الزهور الفخمة التي تحوي زهورًا صناعية متراصة أسفل مستنسخات بعض اللوحات العالمية الشهيرة.

كان «عماد» قد أجلسني على كرسي خشبي بجواره حتى يطمئن أني لن أنفلت من المكان، وكنت مشغولًا بتأمل المكان والناس الذين يترقبون الدخول إلى الفلكي بشغف، وبدا «عماد» متوترًا من الانتظار الذي يقطعه بحواراته التافهة وأنا أعاقبه بالتجاهل، من كثرة تحذيراته لي بألا أتورط ويتسرب شيء عن عمله ويسمعنا أحدهم فيبلِّغ الفلكي، فبحِسِّه البوليسي أخبرني بأن بعض مَن يعملون في الغيبيات يدسون أشخاصًا بين الزبائن لكي ينقلوا أسرارهم إلى الدجال أو المستبصر فيعيد سردها على العميل

ويبهره، وضحكت في سري، فقد كانت هذه المعلومات متوفرة في الأفلام القديمة التي يدمن «عماد» مشاهدتها.

حين حلَّ موعدنا أصر «عماد» مرة أخرى على دخولي، أخبرته بأن العبقري الفلكي قد يغضب ويطلب مني الانصراف، لكنه جذبني من يدي ودخلنا، رفع الأستاذ رأسه الذي أعطاه الشيب مهابة ووقارًا، وظهر وجهه الحليق إلا من «سكسوكة» صغيرة بذقنه، ثم أزاح كتابًا باللغة الإنجليزية كان يطالعه، خمنت أنه خاص بعلم الفلك، لأنني لمحت دوائر متقاطعة وأسهمًا قبل أن يطوي صفحاته، ثبَّت الأستاذ نظره تجاه «عماد» وابتسم وتجاوزتني نظرته وهو يشير لنا بالجلوس، ثم بادر «عماد» بالسؤال عن مشكلته، نظر «عماد» تجاهي بدهشة ثم تردد في الكلام، فعاجله الرجل: «مشكلة عاطفية.. أكيد واحدة مدوَّخاك»، أومأ «عماد» برأسه والخجل يُربكه، ابتسم الرجل في هذه المرة وقال موجهًا لي الكلام: «تعرف يا أستاذ.. المرأة دي لغز.. شوف الباشا صاحبك اللي وجوده في أي مكان.. وجوده إيه.. أي حد يجيب سيرته في أي مكان.. المكان كله يتلبش، قدام الست اللي جاي عشانها بيبقى زي لا مؤاخذة العصفور».

بهذه الكلمات الفارغة استلب الرجل كيان «عماد» تمامًا، فبدأ يهز رأسه ويغمز لي بعينه وشفتاه منفرجتان ببسمة رضاء تكاد تصرخ بأنه وجد أخيرًا الرجل المستبصر الذي تعرَّف على مشكلته ومهنته قبل أن ترتاح أليته في حشوة المقعد، وكالمصفاة الصدئة الخربة التي اتسعت ثقوبها فخرَّ كل ما فيها، انطلق صديقي يحكي ويشكو لوعته وعذابه، والرجل يخط خطوطًا متعرجة على ورقة «ريسكلينج» صفراء، وبعد أن أسهب «عماد» في السرد،

قال الرجل بفتور: «بسيطة»، ثم طلب ثلاثة طلبات: «صورتها واسم أمها، وأثر منها به رائحتها».. ويبدو أن «عماد» كان مستعدًّا لهذه الطلبات، فقد نهض وأخرج صورة الفتاة من محفظته، ثم منديلًا حريريًّا من جيبه الأمامي قال إنه مسح به في إحدى المرات دموعها (أنا متأكد من كذبه لأنها لا يمكن أن تبكي أمامه، والاحتمال المؤكد أنها استفزَّت من منديله المتناسق مع كرافتته فطلبته للتمخط فيه حتى تعكنن عليه)، ثم همس «عماد» باسم أمها: «سيمون ماضي»، والتفت إليَّ كأنه فكَّ غموض جريمة كبرى، وقال: «إيه رأيك؟ شفت أنا جاهز ازاي!»، ابتسمت في وجه صديقي ولم أعلق، رغم أني امتلأت غيظًا من إحساس الفلكي بعظمته وبسيطرته ومن قبول صديقي لهذه السيطرة، وعندما انطلقنا بالسيارة في طريق العودة وأخبرني «عماد» بأنه كاد يفقد الوعي عندما اكتشف الفلكي مهنته، كدت أصرخ في وجهه وأواجهه ببلاهته، فطريقة حلاقة رأسه ومشيته تفضحان مهنته العسكرية حتى لو تخفى في زي راقصة، وكان «عماد» مسترسلًا في سرد قائمة بأسماء أشخاص يعرفهم حلَّ هذا الفلكي مشاكلهم وأكدوا له قدراته، وأنه يأمل في نهاية الأسبوعين أن يتسلم من الرجل شيئًا يجعل هذه المرأة العصية في طوع بنانه، وعندما أنهى كلامه ظل يدندن مع الأغنية التى تبثها إذاعة الـ«FM».. ولما طال صمتي خفض من صوت الأغنية قليلًا ونظر باتجاهي وقال مبتسمًا: «لو نجح الأمر معايا.. إيه رأيك نخليه يعملك حاجة لجيهان؟»!

كبتُّ ضيقي وأنا أفكر في طريقة للخروج من سيارته بدلًا من ارتكاب حماقة تنهي علاقتنا، ويبدو أنه أدرك ذلك فأوقف السيارة بسرعة، وظل يعتذر وهو يقبِّل رأسي وكتفي، وكنت أحاول الإفلات من ثقل جسده

الجاثم على صدري، لكنني عجزت فاستسلمت وأغمضت عيني، بينما هو يستطرد ويسترسل وهو يقول: «أنا آسف بجد.. أصل بصراحة من أول ما شفت ريم معاك، وأنا مش مرتاح لها، حاسس إنها بتحمل جينات قاتلة محترفة».

زاد هذا المعتوه الطين بلة فلم أنطق وخمدت رغبتي في المقاومة فأسندت رأسي إلى مسند رقبة الكرسي الأمامي وأنا مغمض العينين، وكنت أشعر به يتأملني وأستشف أنه يقلب شفتيه تعجبًا من حالي، حتى أدار محرك السيارة وأكمل سيره.

عندما أوصلني إلى شارع مراد بالقرب من مكتبي لم تكن بذهني خطة معينة لقضاء اليوم، وبعد أن ودَّعته قررت الذهاب إلى عابدين، منطقة سكني، لأستريح قليلًا قبل أن أقرر ما سأفعله، وقبيل منزلي جلست على مقهى صغير، ومن موقعي ظللت أتطلع إلى وجوه العابرين في السيارات وقوفًا وجلوسًا والمترجلين، كانت الوجوه التي تعبرني داخل السيارات تبدو وكأنها تظهر من خلال مرايا مقعرة لوجودها خلف الزجاج المتسخ أو المكسور أو بين فجوات قماش الخيام السميك التي تتخذه سيارات الميكروباص الصغيرة صندوقًا يضم راكبيها، وكانت «ريم» تلاحقني باتصالات لم أهتم بها، وكلما شعرت بقشعريرة في فخذي اليمنى اختلست النظر تجاه جيب بنطلوني ورأيت ضوء شاشة المحمول يخترق نسيج القماش، أدركت أنها المتصلة، وقد صدق حدسي ووجدت أحد عشر اتصالًا منها ورسالة بالإضافة إلى ثلاثة اتصالات من السكرتيرة، ولم تكن رسالتها طويلة ولا بذيئة ولا تحمل توبيخًا أو تهديدًا لعدم ردي عليها كعادتها

عندما أهملها، إنما كانت رسالة بسيطة وقصيرة تخبرني فيها بأنها ستأخذ «ملك» في جولة ثم تتجه إلى مطعمنا في «مول سيتي ستارز» في الساعة الثامنة، وأنها ستلتقيني هناك لكي نتعشى سويًّا، وكان اليوم ما زال طويلًا، وكنت ميالًا إلى عدم الذهاب وتركها تنفرد بابنتها.. واتصلت بالسكرتيرة فأخبرتني أنها اتصلت بالزملاء العاملين في المكتب وبالمهندس «طلعت» وأنهم سيكونون في انتظار تشريفي في الغد، فنهرت هذه الغبية ووبختها وأقفلت الخط، أنا لست مسئولًا حكوميًّا كي يدبروا لي جولة لأتأكد أن الأمور «عال العال».. أنا لا يهمني وجودهم من عدمه.. المهم أن العمل يُدار وأنهم يدبرون أمورهم ويتركون لي هامشًا من الربح.

لم أعد إلى البيت وقضيت فترة منتصف النهار في سينما جلاكسي بالمنيل أشاهد فيلمًا أجنبيًّا اخترته عشوائيًّا، ثم وجدت قدمي تقوداني إليها بعد الموعد بنصف ساعة على الأقل، ووجدت «ملك» على رأس درج الطابق الثاني للمطعم واقفة تنتظرني بعد أن لمحتني وهي تلعب، أخذت يدي بحميمية وهي تقترب بي من المنضدة التي تتصدرها أمها وكأنها تقدم قربان محبة لأمها التي كانت تنظر لي بابتسامة ثقة، واستفزتني جدًّا هذه الابتسامة وجعلتني أعيد التفكير في الشيء الذي جعلني أُساق إليها صاغرًا هكذا، هل هو سأمي وضجري؟ أم إحباطي من جولة «عماد» بين الغبيات؟! أم لرسالتها القصيرة الموجزة؟ وحين أشارت إلى طبقي المفضل الذي ما زال يتصاعد منه البخار، نكست عيني أمامها ولم أرغب في رؤية بسمة الثقة التي تكاد تبتلعها، ولعلها حاولت أن تخفف ضيقي وهي تهمس: «أخيرًا جيت»، لكن «ملك» عادت لتجلس معنا بعد أن انتهت من لعبها، وبدأت «ريم» في

لتقطيع قطعة اللحم بتـأنٍّ، وكلما فصلت جزءًا وضعته برشـاقة في فمها، ثـم نظـرت تجاهـي وقالت في شـبه أمر: «كل»، ثـم همهمـت: «الأكل هيبرد.. وماتشـغلش بالك بملك.. وبعدين هي بتحب الأكل بارد»، كنت جائعًا جدًّا وبـدأت الأكل بشـهية، وكلما امتلأ فمي بالطعام بـدأت «ملك» في إمطاري بأسـئلة غرائبيـة مسـتوحاة مما رأته مـن مجسـمات الحيوانـات والكائنات المائية في حوض الأسماك الذي يتصدر المطعم، أو عن أصوات الببغاوات وحـركات النسـانيس في الأقفاص، كنـت أبلع الطعام بصعوبـة كي أجيب، وكانـت مصرة علـى أن تميتنـي مختنقًا بالطعـام، وكنت أختلـس النظر إلى «ريم» فأكاد أراها تجز على أسنانها غيظًا من أسئلة ابنتها وحيرتها في الوقت ذاتـه بعد أن لقنتها أن رضاءها عنها مرتبط بأن تعاملني كأب (كما أتصور).. وكنت أتخيل أن عشـرتنا الحميمية جعلتني قادرًا على قراءتها غيبًا، وعندما انتهيت من أكل فواكه البحر وأخرجت الكابوريا من طبق السرفيس لأضعها فـي طبقي، أبـدت «ملك» ضيقًا وتأففًا وقرفًا وسـألتني كيف آكل العقارب؟ نهرتها «ريم» بغلظة فانكمشـت الطفلة وتضاءلـت وبكت وظلت تهتز أمامًا وخلفًـا بعصبية شـديدة، حتى تصورت أنها إما تخفـي عرض مرض عصبي شـديد أو فـي طريقها لذلك، مسـحت يـدي وأنا في نصـف وجبتي وألقيت بالفوطـة جانبًـا وحاولـت أن أهدئهـا لكنهـا لطمتنـي بغلظة علـى صدري، فارتفـع صـوت «ريم» يناديها باسـمها في تحذير واضح، هنـا توقفت البنت عـن الـكلام تمامًا إلا من حشـرجات صغيـرة كانت تخرج مـن وجهها غير معلـوم مصدرهـا، وفي تلك اللحظة أشـفقت علـى «ريم» بعد أن أفسـدت عليها «ملك» العشـاء الرومانسـي الـذي دبرته، وتأملتها وهـي تعاود الأكل

في عصبية، وحد سكينها وأطراف شوكتها تلامس الأطباق الصيني فتصدر عنها أصوات حادة مزعجة تجافي اللياقة والإتيكيت التي كانت حريصة على اتباعه، وبعد وهلة تحول هذا الصوت الحاد إلى رتابة جعلت الشيطانة الصغيرة تغفو ورأسها يضرب في خلفية المقعد، ثم تميل إلى الأمام فتكاد تقع، نهضت وأرقدتها على أريكة في الخلف وسارع «الجرسون» بوضع ملاءة عليها بعد أن عدل من رقدتها، بينما تنظر إلينا الأم بنظرة حيادية كأن البنت لا تنتمي إليها، أو لعلها تبلغنا بأن هذه الحركات لا «تخيل» عليها، وعندما انتهى «الجرسون» من خدمته أمرته برفع طبق البنت ولفّه بالداخل، ثم قربت مني ملعقتها الغارقة في الكريم كراميل وهمست: «دوق»، لامست بلساني وجه الملعقة فسحبتها باستسلام وسكتت، ثم انتظرت دقائق حتى صفا الجو وقالت تداعبني: «إنت الظاهر مالكش في تربية الأولاد»، واعتبرت استمراري في الصمت غلاسة فتبرمت وزفرت وقالت غاضبة: «أحمد.. مش وقته.. أنا عايزة اتكلم معاك كتير وأهي فرصة البنت نامت.. اخلع وش اللي مش طايق نفسه.. واتكلم معايا»، ثم لمحت «المتر» بالقرب منّا فطلبت لي فنجال قهوة، ونسكافيه من أجلها، والتفتت تجاهي قائلة: «عاوز حاجة تانية؟».. اندهشت لأن «المتر» كان قد انصرف فسألتها: «زي إيه؟»، أجابت وهي تحدجني بنظراتها: «تحب أرقصلك بالشمعدان؟!»، ابتسمت وهمست لها: «ياريت»، قالت بجدية: «ملك مش هتخلل معايا.. أبوها بيموت فيها.. انت ماتعرفش عمل إيه عشان أوافق انها تعيش معاه.. يعني كلها شهر أو اتنين بالكتير ويرجع ياخدها بعد ما يظبط أموره هناك.. وأنا مش عايزاك تعمل زي اللي ما صدق وتختفي طول ما هي عايشة معايا..

لازم تبقى في حياتي.. لازم تعدي علينا كل فترة وتخرج معانا عشان البنت تتعود عليك.. مش يمكن لما نتجوز يعند ويرميهالي.. يبقى لازم تقربها منك وأنا عارفة إنها عنيدة.. دي بتغلبني أنا.. بس متأكدة برضه إنك هتستحملها عشاني، وبعدين أنا كلمت النهارده البنت فردوس جارتنا اللي ساكنة في الدور الأول.. واتفقت معاها تراعيها لو خرجنا مع بعض»، وجدت نفسي أسارع بتوبيخها عندما سمعت اسم الجارة وأقول: «الجيران تاني يا ريم.. هو انتي مابتتعلميش؟»، غير أنها أسكتتني بإشارة من يدها وهي تقول بنفاد صبر «عارفة.. عارفة كل اللي هتقوله بس انت لازم تعرف انهم ديابة سعرانة وما دام باغرقهم هدايا ولعب وفلوس هيحطوا الجزمة في بقهم ويعملوا زي الخدم ويلبوا كل طلباتي»، سكت ولم أنطق، فـ«ريم» حين تبدأ في الإرسال لا تستقبل شيئًا ويدخل كلامي أذنيها دون أن يستقر، وبدأت أحس بكلامها يضرب قناتي السمعية بمعاول وفئوس عندما سمعتها تلقي عليَّ بأوامرها: «هاخلي إمبابي يعدي عليك في عابدين.. شوفلي آخر الراجل ده.. أنا مرضتش أخليه يعدي عليَّ في البيت وإنت مش موجود.. وبعدين مش عايزة البنت تلاقي رجالة داخلين وخارجين»، ثم لاحظت وجومي فابتسمت وهي تكمل: «أنا مش هاسيبلك الحبل على الغارب.. أنا عايزة تمامك كل يوم.. رسايل واتصالات، تعرف لو شمِّيت في مرَّة ريحة واحدة ست عليك.. هأعمل فيك إيه؟!»، ابتسمت ساخرًا لكنها قطعت حديثها وضيقت عينيها بوعيد لا يقبل التأويل: «هاخصيك، والله العظيم هاخصيك»، ارتفع رأسي تجاه «المتر» في نهاية المطعم وأشرت له ليحضر الحساب، أخرجت بطاقة ائتمانها ووضعتها على الطاولة في المسافة التي

بيننا وقالت بحزم: «أنا اللي هادفع.. وانت كبَّر دماغك وخليك فاكر في كل مـرة إنـي بهزر لغاية ما تلاقي خصيتيك قفشـاهم في إيـدي زي حبتين عنب في عنقود وباكلهم بشهية»، ضحكت بالرغم مني وقلت لها بعتاب: «حبتين عنب يا كدابة!»، ضحكت بشدة حتى تلونت عيناها وهي تقول: «وهاعترف فـي التحقيق إنـي افتكرتهم حمـص أخضر»، نقـل «المتر» نظـره بيني وبين البطاقة الائتمانية، لكنها وبَّخته قائلة: «ما تمد إيدك وتاخد الفيزا ولا هتقولنا الماكينـة بايظـة؟»، التقطهـا «المتر» بسـرعة وهو يعتـذر، بينمـا التفتت إليَّ وقالت: «شـوف بقى! إنت بتبوظهم بالبقشـيش بتاعك»، ثم أخرجت مبلغًا نقديًّا صغيرًا وضعته كإكرامية على المنضدة.

لـم يبقَ من اليوم شـيء لكي أقضيه فـي الخارج، وتسـربت كل خططي في السـهر وأنا أوصلها إلى بيتها، ووجدت نفسـي فـي طريقي إلى عابدين، منزلي الذي تركته الأسـرة، تلك الأسـرة التي لم يبقَ منها إلا أنا وأبي.. أبي الذي ظلت روح أمي تطارده وتلح عليه وتجعل حياته جحيمًا حتى نجحت في إعادته إلى مسـقط رأسـه بالصعيد، أمي التي ماتت بعد وفاة خالي ببضع سـنوات، خالي الذي أحبته أمي أكثر مني ومن والدي ومن البشـر أجمعين، حتـى إننـي تصـورت كثيرًا أنهـا أحبته أكثـر مما أحبت «الخنسـاء» شـقيقها «صخر»، أمي ماتت ودُفنت في مدافن أسـرتها لكيـلا يفصلها عن أخيها إلا بعـض الصخور، رغـم اسـتياء أبي الذي كان قد اشـترى لنـا مدفنًا بالقاهرة، رفضـت بتصميم أن يُدفن أخوها به، ونفذ أبـي وصيتها ودفنها بجوار أخيها فـي الصعيد، ولم ينسَ قولها له بعصبية تعليقًا على الأموال التي أُهدرت في شـراء مدفن بالقاهـرة: «اتدفن فيه انـت وابنك»، أخبرني أبـي أن أمي جُنَّت

تمامًا بعد وفاة أخيها ولم تعد راغبة في الحياة،، أمي لم تكن تحب القاهرة وكانت مؤمنة بأنها لو دُفنت فيها ستتقلب في قبرها كل ليلة من هول ما يحدث في تلك المدينة المتوحشة.

البيت الذي سكنَّا فيه يتكون من خمسة طوابق، كل طابق به شقتان.. الشقة التي على اليسار مساحتها كبيرة، وتضم أربع غرف وصالة ومطبخًا وحمامًا، بينما الشقة التي على اليمين صغيرة جدًّا وهي عبارة عن غرفة نوم واحدة، وصالة ضيقة وطويلة، وحمام ومطبخ مساحتهما أقل من مساحة مطبخنا، هذا التقسيم المعماري الفاشل لاقى قبولًا وارتياحًا من أمي التي وافقت على السكن بمجرد دخولها المكان، لم يهمها أن الشقة بها شرفة كبيرة تطل على حديقة قصر عابدين، ولا أن المكان يضم أبناء الطبقة المتوسطة المصرية وبعض الحرافيش الجدعان، ولم يزعجها أن أصوات ورش السمكرة ومحلات صناعة الأثاث البلدي تحف بالبيت وأحيانًا تصل إلى داخل الغرف، وقال لي أبي إنها دارت دورة قصيرة في الشقة التي رآها هو مناسبة لنا، ثم طلبت من السمسار أن يفتح لها باب الشقة الصغيرة المقابلة لنا في الطابق نفسه، دخلتها وفحصتها بدقة وقالت لأبي إنه لو كان مهتمًّا بإقامتها معه في القاهرة، فعليه أن يؤجِّر الشقتين، ثم أشارت إلى الشقة الصغيرة وهي تقول بحزم. «وتكتب الشقة دي باسم حسام»، وكان خالي «حسام» آنذاك في المرحلة الإعدادية، وكنت جنينًا في بطنها، أخبرني أبي بأنه صرخ في وجهها أمام السمسار: «شقة حسام إيه يا بنت المجنونة.. الشركة هتديني بدل سكن يا دوب على قد إيجار الشقة دي.. وبعدين أنا طاوعتك يتربى حسام وسطنا مش يقعد في شقة لوحده».. لكنها بصبر

وعنـاد وتصميـم.. نجحت فـي إقناع أبي بتأجير الشـقة الأخـرى، وجعلت والدي يكتب العقد باسـمها لأن «حسام» لم يكن كامل الأهلية، ثم سخَّرت أبـي في مهمات إلـى أروقة الدواويـن الحكومية بين أسـوان والقاهرة حتى تمكَّن من نقل «حسام» من مدرسته بأسوان إلى عابدين.

خالـي «حسـام» هذا مـن أكثر الأشـخاص الذيـن أحببتهم فـي حياتي، وكانت شـقته المكتوبة باسـم أمي جنتـي في الطفولة، لا زلـت أذكر اللافتة النحاسـية الصغيـرة المطليـة بالمينـا الزرقـاء والتـي عليهـا اسـمه ومهنتـه «معمـاري»، تلك اللافتة التـي حملتها أمي معها إلى الصعيـد ولم أرها بعد ذلك مطلقًا، ويبدو أنها تمكنت بطريقة ما من أن تدفنها معهما، أخذت معها أيضًا أغراض «حسـام» كلها، ولم تتـرك غير بعض الكتب التي اعتقدت أنها السبب في موته، كما تركت مستطيلًا صغيرًا خاليًا من الطلاء تخلَّف عن نزع اللافتة، لامسـته كثيرًا حنينًا إلى خالي، وتخلَّت أمي عن الشـقة إلى صاحب البيـت بنفـس المقـدم المالي الذي دُفع فيهـا، ولم يقدر والـدي على إثنائها عن ذلك، فقد قالت بحسـم إنها لن تكسـب قرشًـا واحدًا من «حسام»، كما أن النقـود لا أهميـة لها بعد وفاته. سـكن هذه الشـقة كثيرون بعـده، أغلبهم طـلاب مغتربون حتى اسـتقرَّ بها أخيرًا شـخص يشـبه خالي كثيـرًا، مثقف، باسم، ظريف، كان يعمل في إحدى الصحف القومية ومُنع من الكتابة حتى أُحيل إلى المعاش، ونُكِّل به أكثر من مرة بتهمة الشيوعية، شاغل هذه الشقة الآن اسـمه «شـريف»، والحيز الفارغ الذي كان يحوي اسـم خالي ومهنته، والذي ظل خاليًا لسـنوات، شغله «شـريف».. لا ببطاقة تعريف بهويته على باب شـقته، ولكـن بلافتة من نفس المقـاس بخلفية من المينـا الزرقاء أيضًا

عليها جملة بالخط الثلث تقول: «احترس من الكلب»، ومرسوم بجوارها كلب له أنياب بارزة شريرة.. أصعد الدرج الأسمنتي الآن وصوت الكلب ينبح بلا هوادة وبلا توقف، حتى فتحت باب شقتي ودخلت، حينها سكت الكلب تمامًا كأنه أدرك أنني لست غريبًا.

نومي كان بمثابة كابوس طويل تقطعه في بعض الأحيان لحظات يقظة أرتفع فيها بصدري وأتلفت يمينًا ويسارًا حتى أتأكد من أني لا زلت بخير أسفل هذا الضوء الشحيح، ثم يسقط رأسي مرة أخرى من الإجهاد ويؤلمني عنقي فأعتدل في الفراش ويتسلمني الكابوس مرة أخرى، ذلك الكابوس الذي كنت أسير فيه بين أحياء وأموات.. أمي وأبي وخالي و«ريم» و«ملك» و«عماد»، وحتى «إمبابي»، غير أني في يقظتي الآن لا أذكر تفاصيله.

الصباح بدأ بشمس قوية وثلاجة شبه فارغة، وعقب الاستحمام سخنت الخبز الذي حوَّله «الفريزر» إلى ما يشبه بقايا الأسمنت الفائض من الصبَّة، أجريت اتصالًا واحدًا بالمكتب وتراجعت عن مكالمة «ريم» و«عماد»، ونزلت أتجوَّل بسوق باب اللوق كي أشتري ما أحتاجه من بقوليات وفواكه وخضراوات، والحمد لله طيلة فترة وجودي بالخارج التي تجاوزت الساعات الثلاث لم يغدر بي الطقس.. كان معتدلًا جدًّا كأنه يوم خريفي، لم يمطر ولا تسيَّد فيه الغيم السماء، ولا أفلتت الريح من لجامها المشدود إلى جبال الصقيع، داخلي فقط كان موطنًا للسحب السوداء والزوابع، وكنت عاجزًا عن تفسير ما أنا فيه، وهل يرجع ذلك إلى «ريم» سلبًا أو إيجابًا، أم إلى فكرة العمل المنتظم التي هجرتها تمامًا بعد أن ارتكنت على مساعدين

يقومـون به نيابة عني وأتكسـب من ورائهم وأتورط فـي أخطائهم، لكن ثمة ما جعلني أستشـعر أن ما ينتابني من حزن وشـجن غيـر أصيل، وأنه مفتعل، كأنني أشـاهد مسـرحية كبيرة في قاعة مسرح فخمة لا يتوقف جمهورها عن التصفيق والضحك، بينما أنا في ذهول مما يفعلون.

كنـت أصعد الدرج حاملًا شـنطتين من البلاسـتيك المجدول تظهر من خلالها مشترياتي، وكانتا ثقيلتين تجبرانني على التوقف عند كل بسطة طابق وفـرك راحتي يـدي التي تركت فيهما يدا الشـنطتين آثارًا تبـدو غائرة، وعند طابقي كانت القطط قد قلبت سـلة القمامة فتناثرت محتوياتها على البسـطة المشـتركة بينـي وبين «شـريف»، وكانت تتعـارك بغباءٍ على فتـات الطعام، نهرتهـا وهوشـتها بالـركل لكنها كانـت أكثر عنـادًا ولبدت فـوق الفضلات الورقية وبين علـب الصفيح تزوم تجاهي.. وكانت غير آبهة لصوت الكلب الـذي كان مسـترًا خلف نباحه كأنهـا مطمئنة إلى وجودهـا بعيدًا عن مرمى نيرانه، فتحت بابي بحذرٍ ودخلت بسرعة خوفًا من أن تبلغ بها الجرأة مداها وتتبعني.

كل هذه الأصوات والجلبة والعواء لم تُخرج «شريف» من شقته وزادني هـذا قلقًـا عليه، لأننـي لم أرَه منذ مـدة، كما أن له أمانة عندي مدسوسـة في إحدى الشنطتين، قررت البدء في الطهي وقضاء النهار في البيت ثم مغادرته في المسـاء للسـهر في أحـد الأماكن، ونويـت المرور على «شـريف» حتى ينضـج الطعـام لأعطيه أمانتـه وأدعوه للأكل معـي، أخـذت اللفافة ورننت الجرس وأنا أشـغل نفسـي بإزاحة المخلفـات التي بعثرتهـا القطط، إلى أن

سمعت صوت خطواته المتثاقلة خلف الباب، أعقبها صوت يسأل عن الطارق، قلت اسمي فبدا متشككًا وطلب مني أن أقوله بالكامل، ابتسمت لأنه لم يطلب مني كلمة السر، ثم سمعت صوت المزلاج الداخلي يتحرك في ست تكّات، وانفرج الباب قليلًا وظهرت بين فتحته عصا عكازه الذي بدأ يعتمد عليه مؤخرًا، ليس عن عجزٍ بقدر ما هو تعبير عن الوجاهة الاجتماعية، ووسيلة دفاع ضد حيوانات الشوارع، ثم ظهر رأسه الأشيب وابتسم عندما رآني وركن عصاه بجوار الباب وهو يشير لي بالدخول.. كنت عالمًا بكل تفاصيل المكان وبأغلب الأثاث الذي بقي كما هو بعد أن غادره خالي وتركته أمي لصاحب المنزل، لبثت فترة أتأمل المكتبة التي أسسها خالي في الصالة والتي كانت مكدّسة بكتب «شريف» وأغلبها سياسية، ومجلدات بلغات أجنبية، ومنشورات ودوريات ماركسية، وتحف بها بعض المجلدات الأدبية لكبار الكتاب الروس، مثلما كان خالي «حسام» يحتفظ فيها ببعض هذه المجلدات وبكتب كثيرة إبداعية في الشعر والرواية، وكان بعضها موقعًا عليه من المؤلفين الشباب الذين صاروا كتابًا كبارًا اليوم، وكان في لحظات صفائه يفتح بعضها على الصفحة الداخلية الأولى التي يتربع فيها الإهداء ويُريه لي وهو يبتسم بسرور كالأم حين تفتح ألبوم صور العائلة، ووجدت «شريف» يضع لي كوبًا من الشاي على المنضدة الصغيرة فابتسمت خجلًا وجلست، لكنه بادرني بقوله: «تعرف يا أحمد.. أنا ساعات بيتهيألي إنك مش بتيجي تطمّن عليَّ قد ما بتيجي تطمّن على مكتبة خالك»، صدمتني كلماته وخفت أن يكون في بداية الطريق لنوبة مرضية جديدة ووجمت،

لكنه ابتسم بصفاءٍ واستطرد: «أنا بهزَّر.. أنا عارف انك بتحب خالك أد إيه فحبيت أشاغبك». ثم سرح قليلًا وأكمل: «ساعات باحسد خالك.. إن في حد لسه فاكره بعد سنين من موته»، لم أنطق وشردت في خواطري: «ليتني عبَّرت له عن حبي وجهًا لوجه، ليتني لم أرتعب من مرضه ونوباته.. ليتني لم أتأفف من سرحانه وشروده»، ثم انتبهت إلى هذه الشقة العجيبة الملعونة على الأرجح، كيف يسكنها شخصان لم يتصاحبا من قبل، ويكادان يكونان متقاربين في الميول والأفكار والثقافة، وفي التردد على السجون والوحدة، وفي السقوط في براثن المرض النفسي، وهربت ببصري عبر الردهة إلى باب المطبخ المفتوح على مصراعيه، وإلى الحمَّام المقفول على صوت الكلب، ثم تذكرت اللفافة التي بجواري فمددت يدي بها إلى «شريف» الذي تساءل في دهشة: «إيه ده؟»، أخبرته أن المعلم «حسني» الجزار وأنا أشتري منه بعض لوازمي من اللحوم، ذكر لي أنك مررت عليه منذ فترة لشراء عظم للكلب كعادتك، وأنه كان مشغولًا فلم ينتبه لانصرافك دون أخذ حاجتك، وظل لعدة أيام ينتظر مرورك على المحل ويبدو أنك زعلت منه وغيرت من خط سيرك، وأنه يعتذر لك ويطلب منك أن تعذره ويقدم لك هذه اللفافة هدية للكلب.

انفعل «شريف» وغضب ورفض أخذها، حتى هدَّأته وأقسمت إنني سأدفع له ثمنها عند نزولي، فاستراح ومدَّ لي يده بثمن العظم وأخذ اللفافة إلى الداخل، ثم عاد يشاركني الشراب، ونجحت في إقناعه بالغداء معي بعد أن رفض في البداية بحدة وبوقاحة، وكلما ألححت عليه كان صوته

بالرفض يعلو وإشارات يده تزيد، وخمنت أنه لا يرغب في الانتقال إلى شقتي، فعرضت عليه أن أُحضر الطعام إلى شقته، لكنه قال لي في غلظة: «هو انت مبقتش بتفهم خالص؟»، صعقني الرد وهممت بسبِّه والخروج، غير أن طيف خالي مرَّ من أمامي بسرعة خاطفة واختفى، فهدأت وقلت في نفسي: «لعل هواجسه عادت وخُيِّل إليه أنني سأضع له السم في الطعام»، فنهضت مستسلمًا وليست لي رغبة في مصافحته، فقط قلت له: «سلام»، وأوليته ظهري، وسمعت صوت قيامه بسرعة هذه المرة، ثم وجدت يده تربت كتفي، التفتُّ بوجهٍ محايد تمامًا فوجدته يبتسم ويقول لي. «انتظرني عندك وجهِّز الأكل وأنا هاخد حمام وأجيلك».

كان ودودًا جدًّا في أثناء تناوله الطعام، وأنيقًا بعد أن بدَّل ملابس نومه التي قابلني بها وارتدى ما يليق بدعوة غداء رسمية، وتعطَّر.. ثم احتسينا علبتين من البيرة، ومتعني بطرائف من حياته وسيرته حتى داهمنا صوت انفجار إطار سيارة.. صوت عادي اعتدنا سماعه في أثناء سيرنا في الشارع أو عبورنا بالسيارات أو حتى ونحن على أسِرَّتنا في داخل المنازل، حوَّل هذا الصوت المفاجئ «شريف» إلى ما يشبه الخرقة المهترئة الهاوية من حالق، كان يحادثني والعصا ثابتة على الأرض بين قدميه وذقنه مرتكن إلى رأسها العاج، زحزح الصوت العصا فانحرفت وهوي «شريف» على الأرض يرتعد ويصرخ في جنون متصورًا أن هناك مؤامرة لاغتياله.. يا ليومي الثاني التعس! ساعة كاملة مرَّت حتى نجحت في تهدئته وإزالة شكوكه وإقناعه بأن هذا أمر عادي، ويحدث كثيرًا.. انفجار إطار سيارة ما.. لم يقبل أن يقف بجواري في الشرفة التي فتحتها على مصراعيها لأريه الحادث على الطبيعة،

واتهمني بأنني سـألقي به من النافذة بعد فشـل محاولة اغتياله.. وبعد جهود لتهدئتـه، أعدته إلى شـقته واطمئننت قليلًا بعد أن أغلـق عليه بابه، ودخلت مبتسمًا أغسل الأطباق التي اتسـخت وأنا أقول لنفسي: «اغتيال مرة واحدة يا شريف؟! هل تعتقد أنك مهم إلى هذه الدرجة؟».

***

عندمـا تعرفت على «ريم» كان لديها حبيبان فقدتهما تباعًا، ولـم تعتبرني فألًا سـيئًا، بل قربها ذلك مني كأنها اسـتبدلتني بهما، وكنت قد رأيتها للمرة الأولى والثانية والخامسـة، ولـم أسـعَ للتعرُّف عليها رغـم شدة إعجابي بها، لأنـي تهيبتهـا وكنت أحـاذر أن تقتنص تلصصـي عليها فتريني شراسـة ربما أخفتها بالكاد خلف ملامحها الجميلة، وأذكر مشاهدتي الأولى لها، وكنت بمفردي في فندق «أوديون» بوسـط البلد، الذي كنت أتردد عليه أحيانًا رغبة فـي التقرُّب من الكتَّاب والسـينمائيين الذين يتـرددون عليه، ومراقبة لهوهم وصخبهم ومشاكساتهم، بسبب حنيني إلى الزمن الذي اصطحبني فيه خالي «حسـام» إلـى أماكنهم باعتبـاره منتميًا لهـم أو محبًّا، وقد عرفنـي على هذا المكان في أعوامه الأخيرة، وكنا نتشارك الشراب ونتسامر، وبسببه صار هذا المكان من أماكني المحببة.

أحيانًـا كنت أصطحـب «عماد»، وكان يزعجني بمحاولاته تقديم نفسـه - بصفتـه كاتـب أغانٍ - إلى المشـهورين إن وجـدوا، في محاولة لتسـويق أغنياتـه السـاذجة، وقد أحبطته عـدة مرات، فكره المكان وبدأ يسـوقني إلى أماكن أخرى مكتظة بالنسـاء اللعوبات، ويعرفنه فيها جيدًا ويقدمن له أفضل الخدمات بأبخس الأسعار.

ولأنها أعجبتني زاد معدل ترددي على المكان لعلي أراها لكني لم أشاهدها كثيرًا، رأيتها مرات قليلة بمفردها، ومرة بصحبة صديقتها «استيلا» كما عرفت اسمها بعد ذلك، وبعض المرات محاطة بشلة مثقفين غالبيتهم من صُنَّاع السينما والمسرح - مخرجون وكتاب ومنتجون ومصورون - يصوبون كلامهم تجاه أذنها، وهي تهز رأسها مبتسمة، لم أضبطها قط متكلمة، فقط منصتة باهتمام، كانت بيضاء مشربة بحمرة، ممشوقة القوام ذات شعر أسود منسدل حتى منتصف ظهرها، ووجهها لافت جدًّا بالشامة «الأسمهانية» التي فوق جانب فمها، وبالسلسلة البلاتينية الرفيعة التي ترتديها حول ساقها كالخلخال.

كانت تجلس عادة بين مثقفين، كنت أعرف بعضهم وسبق أن تحدثت معهم بخصوص خالي «حسام» الذي كان يهوى كتابة الشعر العامي، ورغم ذلك لم أجرؤ على الاقتراب منهم وهي بصحبتهم، كأني أخشى أن لا تستلطفني فأُحرم من رؤيتها إلى الأبد، ولما أتيت بـ«عماد» ليعاينها عن قرب - لم يحدث ذلك مطلقًا مع «جيهان» - أثنى على ذوقي وحاول دفعي للتعرف عليها بشتى الطرق، وظل يوبخني لعدم إقدامي ويتهمني بالجبن، وكانت تدفع حسابها في تلك اللحظة وتهم بالانصراف، وفوجئت بـ«عماد» يجذب مفاتيحه وصليبه الذهبي من فوق طاولتنا ويهمس لي كي نلحق بها ونكلمها بداخل المصعد، ولم يهمد حتى زجرته بعنف، ثم استقصيت عنها من بعض الرواد الذين أعرفهم واختلفوا في تعريف هويتها، منهم مَن أكد أنها ممثلة مسرح غابت فترة للدراسة في أورُبا ثم عادت لتكمل مسيرتها الفنية، ومنهم مَن قال إنها تستعد لاجتياز

اختبارات القبول بالتلفزيون للعمل كمذيعة، ولم أنجح في تجنب رؤيتها لأقلل من رغبتي فيها، خاصة بعد فشل كل محاولاتي في التقرب من «جيهان»، التي لم أجد علاجًا شافيًا منها غير التعرف على «ريم».

ثم حدثت معجزتي الشخصية حين دخلت إلى بهو الفندق وفوجئت بصوت نسائي خارج من غرفة مدير الفندق يسب ويلعن، وموظفو الاستقبال في حالة هلع ينظرون بخوف تجاه باب غرفة المدير الذي كلما حاول مشرف الأمن إغلاقه، ارتفع صوت السيدة أكثر وأمرته بتركه حتى يسمع كل النزلاء بالمساخر التي تدور فيه، تحرَّكت بدافع الفضول مع آخرين من أمام المصعد تجاه الغرفة، وكانت هي في ذات الوقت واقفة في حرم الباب تدعو النزلاء لمعرفة ما يجري، بينما تتكلم بتشنج وبغضب أحال وجهها إلى اللون الوردي، حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف أنها «ريم»، وعندما أدركت ارتبكت جدًّا لأنها أول مرة توجِّه نحوي الكلام، والمرة الأولى التي تنظر فيها تجاهي، لكنها لم ترني إلا نفرًا وسط الجموع، وأنا لم أفلت الفرصة على غير عادتي، واقتحمت الغرفة وسمعت المشكلة، وهي أنها كانت بصدد إيقاف تاكسي من أمام الفندق وتعرَّض لها بعض «الخرتية» - الذين يعرضون على السائحين خدماتهم نظير أجر مادي أو معنوي - وبدأوا يحاولون مخاطبتها وهي تهملهم، واستفزهم التجاهل، فتحرشوا بها بغلاسة تحت تصور أنها سائحة أجنبية ترفض صحبتهم، ولم يتدخل أحد من المارة لمساعدتها فزاد استفزازهم، ثم توقف تاكسي فدخلته بسرعة ومن نافذته شتمتهم، فاندفع أحدهم يقف بتهور أمام التاكسي، وأخرجها آخر منه بعد توقفه ولطمها بعنف، وتجرأ ثالث ونزع سلسلتها البلاتينية من ساقها،

ثم ألقوها داخل التاكسي وجروا وانشقت الأرض وبلعتهم، ثم أضاف أنها استقلت التاكسي إلى قسم عابدين وأروها بعض صور المشتبه فيهم وعملوا محضرًا بالواقعة لكن كان الاهتمام بأقوالها هناك زائفًا، وندمت على أنها لم تأخذ حق اللطمة بيدها، ولو كانت طبنجة والدها في حقيبتها لخلَّصت عليهم، وقالت إنها عادت للبحث عنهم بالشارع ولتوبيخ أفراد أمن الفندق الذين كانوا يتابعون ما يدور من خلف زجاج المدخل دون أن يتدخلوا مع علمهم بأنها من رواده، اعترض موظف الأمن الموجود وأقسم بعدم رؤيتهم لما يحدث بالخارج، وكان مدير الفندق يعضده فخرجت عن شعورها وسبَّته بكلمة قبيحة روعتني، وحتى لا يتفاقم الأمر طلبت منها أن تأتي معي وسآخذ لها حقَّها، هنا انتبهت لوجهي وتحققت مني بدهشة كأني مخلوق فضائي هبط وسط الحجرة فجأة، وقالت باستنكار: «هو مين حضرتك؟ ومين اللي ادَّاك الحق تتدخل؟»، وجدت نفسي أجيب بسرعة خوفا من تحولها، وأخبرتها بأني من رواد الفندق وذكرت بعض أسماء ممن تجالسهم، تفرست في وجهي للحظات ثم سألتني عن عملي وكيف سأساعدها، قلت لها بحزم إن كانت ترغب في المجيء معي فعليها أن تتبعني، واكتشفت أن هذه هي الطريقة الصائبة في التعامل معها، وقد أدركت ذلك من صوت خطواتها التي تبعتني، ومن جلوسها الصامت بداخل التاكسي، ومن عدم اعتراضها وأنا أغير وجهة التاكسي إلى مديرية أمن الجيزة التي انتقل إليها «عماد» قبل هذه الواقعة بقليل، واستقبلنا «عماد» في مكتبه بترحاب مبالغ فيه وبدهشة بلهاء ونظرات ماكرة مكشوفة تكاد تقول: «يا بن الأيه! اتعرفت عليها وكمان جايبها مكتبي؟»، ولأن ذلك

غيـر حقيقي اسـتأت من تعبيراتـه وظهرت الحدة في صوتـي وأنا أطلب منه الجلوس كي يسمعنا، قدمتها إليه باسمها ولما اندهشت أخبرتها بأني عرفته مـن المدير في أثناء المشـادة، اسـتمع «عماد» إلـى حكايتها بهـدوءٍ ثم رفع سـماعة التليفون واستأذن في الخروج، وطلب منَّا إنهاء المشروبات بسرعة وهـو يرفع طبنجته من درج المكتب إلى سـطحه في اسـتعراض فج غاظني بشدة لكني سكت على مضض، ثم وضع الطبنجة في جراب حزامه وأسدل عليها نهاية الجاكيت المدني الأسـبور الذي كان معلقًا على الكرسي أمامه، وصرف سائقه العسكري وقاد السيارة معلنًا أنه سيذهب بنا إلى قسم عابدين، كانت «ريم» جالسـة في المقعد الخلفي ولـم ألتفت نحوها، وانكمشت قلقًا مما قد يصدر عن «عماد»، هو يعرف أنها تروقني ومن المؤكد أنه سيرضيها تمامًـا بمـا سيفعله، لكنـي توجسـت مـن اسـتعراضه المبالغ فيـه الذي من الممكن أن يشي بتعلقي بها، لذا ونحن نصعد إلى المأمور طلبت منه هامسًا أن يخفف اسـتعراضه فنظر لي مبتسمًا دون تعقيب، وفي غرفة المأمور أبدع «عماد» وتجلى وخاف المأمور وجفل، وفي غضون نصف ساعة فقط، كان الأولاد الذيـن هاجموها وادَّعى القسـم أنهم غير مسـجلين ويتعذر القبض عليهـم، موجوديـن أمامنـا، وانصاع المأمـور وتركهم لـ «عمـاد» في الغرفة وانصـرف دون أن يقيدهم بناءً على طلب «عمـاد»، الذي انهال عليهم لطمًا وركلًا وزغـدًا بيـد طبنجته فـي جوانبهم، وكانوا يصرخون ويتوسـلون إليها كـي تعفو عنهـم، بينما «ريم» تبتسـم برضاء وهي تتأمل خيـوط الدم الرفيعة المنسـابة منهم، ثم أشـارت لـ «عماد» بالتوقف فأطاعها من فوره، ثم طلبت منه أن يوقفهم صفًّا أمامها ونفذ ما طلبته وهو يمنعهم من التهاوي، وكراقصة

باليـه محترفة انحنـت بمهارة وخلعـت حذاءها وانهالت بـه على وجوههم ورؤوسـهم وما يظهـر أمامها من أبدانهم، ثم أطلقت تنهيـدة ارتياح وطلبت منهم الاحتفاظ بسلسـلتها ذكرى، وشـكرت «عماد» بامتنـان ثم نظرت إليَّ طويلًا كالمخلص.

وخارج القسم اقترح «عماد» توصيلها لكنها رفضت بابتسامة وقالت إنها ستمر على بعض أصدقائها، فاستهبل «عماد» وقال إننا ذاهبان للسهر وهمَّ بـأن يدعوها للانضمام إلينا لكني بترت جملتـه بعنفٍ وأنا أطلب منه دخول السـيارة، وبعد أن تركناها خلفنا نظر «عماد» تجاهي متعجبًا وقال: «هو انت متعلمتـش مني حاجـة؟ تبقى البنت في إيدك وتخليها تفلت منك بالسـهولة دي؟!»، طلبـت منه أن يقودني إلى مكان نسـهر فيه وأن يتوقف عن نصائحه السـاذجة، سألني في أثناء القيادة: «هي أخدت نمرة تليفونك؟»، أجبت بلا، فاهتز «الدريكسيون» في يده وغمغم. «ابقى قابلني لو عبَّرتك تاني».

اختفيـت عـن فندق الأوديـون لأكثر مـن أسـبوعين متعمـدًا، وأدركت بالحاسـة أنها سـتبحث عني ولن تجدني، لأن لا أصدقـاء حميمين بالمكان يمكنهم إعطاءها رقم هاتفي، واسـتبعدت أن تذهب مباشرة إلى «عماد» في المديرية للسـؤال عني، فهذا سـيخدش كبرياءها و«برستيجها» كما أتصور، وفي الحقيقة رغم أني لأشـهر طويلة كنت أتمنى التعرف عليها، إلا أني بعد أن قدَّمـت لها هذه الخدمة مـا عدت متلهفًا على هذا التعارف لأنه سـيكون مبنيًّـا علـى فكـرة ردِّ الجميل، لـذا ابتعدت تمامًـا عن الأماكـن التي يحتمل أن تراني فيهـا، لكنها وجدتني عـن طريق أحد روَّاد الفنـدق الذي كان يريد منـي الإشـراف على ديكور منزلـه، واعتذرت بأني لا أعمـل إلا في الهياكل

الخرسانية، لكنه حصل مني على كارت شخصي، وعن طريق هذا الكارت وصلت «ريم» إلى مقر الشركة بالجيزة وقابلتني، كانت تسألني بدهشة لماذا أتهرب منها؟ وأنا أرد بتبريرات وحجج ونظرتها لا تصدقني، ثم أمرتني بالنزول معها لنتعشى فأطعتها على الفور، وفي أقرب مطعم تعشينا وتكلمت عن عملي وأسباب تواجدي وسط المثقفين والفنانين وحدثتها عن خالي وطموحاته التي أودت به، وكلمتني عن دراستها في كلية الآداب، ثم في معهد الفنون المسرحية، وعن بعض سفرياتها إلى الخليج وأورُبا، وكنت قبل دخولنا المطعم قد اشترطت أن أدفع الحساب ووافقت، وعندما ترهل الكلام أومأت لي بطلب الشيك، وبعد أن دفعت قالت بابتسامة: «خلاص دفعت واستريحت.. المرة الجاية أنا اللي هأدفع»، اعترضت وقلت إني لن أقبل أن تدفع فأنا لم أفعل شيئًا لأُكافأ عليه، ضحكت بشدة وهي تقول: «ياه ده إنت قديم موت.. هو انت فاكرني باعزمك عشان أشكرك.. ما أنا شكرتك يومها هي سيرة؟»، ثم أضافت بدلال: «إنت باينك حتتعبني قوي! اعزم براحتك لحد ما تقول كفيت»، ثم تبادلنا أرقام التليفونات وعقب انصرافها بلحظات اتصلت بـ «عماد» وصوتي مفعم بالفرحة أطلب منه أن يلتقيني في أحد محلات شارع الهرم التي كنا نلتقي ونعربد فيها، قال بسرعة: «طمِّني هي وقعت؟»، صدمتني العبارة فلم أرد عليه.

التقينا بعد ذلك عدة مرات بناء على طلبها، ولمست فيها ثقافة عالية لكني جفلت قليلًا من سيل القراءات والمعلومات التي كانت تدفعها في أذني أحيانًا، خاصة وقد أخبرتني بأنها تقرأ بلغتين غير العربية، وقد كرهت هذا الاستعراض الثقافي وأحسست بأنه لن يطيل معرفتنا، ولما غابت

عنـي أكثر من شـهر لم أبـادر بالاتصـال بها حتى تلقيـت منها اتصـالًا بدأته بالسـخرية من برودي، ثم أخبرتني بأنها سـافرت إلـى أورُبا وكان محمولها يسـتقبل الاتصالات مـن مصر، وعاتبتني بنوع من الحـدة وأنهت المكالمة، قلقـت من تصرفها لكني ابتهجت قليلًا لأنـي أثرتها وجعلتها تنتبه لوجودي فـي مدارهـا، اتصلت بهـا في الغد أدعوها إلى سـهرة، وكمـا توقعت ادَّعت الانشـغال وأجَّلتهـا قليلًا، لكنهـا أتـت في الموعد الـذي اتفقنـا عليه بعده، وسـهرنا طويلًا وشـربنا حتـى ثملنا، وتظاهرت بالسـكر البيِّـن فقلقت على تركها تمضي إلى بيتها بهذه الحالة، واستأذنتها كي أوصلها ولم تعلِّق، لكنها داخل التاكسـي غمغمت بالعنوان، وفي نصف المسـافة كاد السائق ينحرف عن الطريق وبعينيها الغائمتين وفمها المفتوح وجَّهته، ثم دسَّـت وجهها في صـدري وغمغمت بحاجتهـا للتقيؤ، كدت أهم بأمر السـائق بالتوقف، لكن كفهـا امتـدت وغطت فمي وهـي تطلب بترنح أن أدعه يسـير فالبيت قريب، وكانت على حق، ففي خلال عشر دقائق كنَّا بداخل البيت، وهي تطلب مني أن أكـون على راحتي بينما تدخل إلى الحمـام، ثم خرجت منه كالحوريات عندمـا يصيبهـن البلـل، ولا أثـر للخمـر على وجههـا ولا في سـيرها، ولما لاحظت دهشـتي جلسـت أمامـي بثقةٍ وقالـت إن الاسـتحمام يجعلها تفيق من السـكر، كما أن نافذة السـائق كانت تضرب وجهها بتيارٍ باردٍ مما خفف مـن آثار الخمر، وقد صدقتها لكن بعـد أن تعارفنا جيدًا أدركت أنها موهوبة بالفطرة في التمثيل.

بدأت تكلمني وهي تمشـط شعرها الأسـود الطويل، ثم سألتني عما إذا كانـت لديَّ نظارة شمسـية؟ وقبـل أن أفيق من دهشـة طلبها نظارة شمسـية

فـي عز الليـل، تحركت نحـو حقيبتها الملقـاة بجواري وأخرجـت نظارتها وألبسـتها لـي وهي تجلس بجـواري، واقتربت جدًّا وهي تنظر إلى العدسـة وتتأمل شـعرها ثم تمسده وتعيده إلى الوراء، وتبدو راضية تمامًا عن شكلها وهي تنزع النظارة مني وتقول بابتسـامة: «ميرسي». كنت منكمشًا وقلقًا بعد أن جعلتنـي حامـل مرآة، ولعلهـا لاحظت ذلك لأنها حدقـت في وجهي ثم ضحكـت جـدًّا وقالـت: «مالك متسـمَّر كده وخايـف؟! ماتقلقـش أنا مش هغتصبـك»، اندهشـت جدًّا مـن جرأتها فـازدادت صخبًا وأضافـت بهزل: «هاسيبك تسلملي نفسك من غير مقاومة».

وبدأت علاقتنا الفعلية عندما قالت ببساطة متناهية: «مافيش جوة ملابس نـوم رجالي بس ممكـن أديك الروب بتاعي تنام فيه.. بس تاخده بكرة معاك عشـان مش حلبسـه تاني»، لم أنتبـه للإهانة إلا فيما بعـد وكل ما أتذكره أني كنت أهيم بأجنحة مغزولة من الدهشـة والخوف، ثم دخلت وعادت بروب قطني سـميك لونـه وردي وضعته في حجـري وانطلقت تتكلـم، قالت إني خطرت في بالها كثيرًا في رحلتها وإنها دهشت لذلك، ثم تحدثت عن الطاقة الإيجابية والسـلبية، وأكدت أن طاقتينا تلاقتا ولم تتنافرا ولهذا انشغلت بي، وكانـت في أحـد لقاءاتنا قد حكت حكايات طويلة عن السـحر والسـحرة، وكنت مستمتعًا بما تقوله لكني لـم أستطع أن أجاريها في هذه الغيبيات، غير أني في تلك اللحظة أحسست بأنها ترسم لي مسارًا تريدني أن أسير فيه، وفي الحقيقـة لم أقاوم، بل اسـتمتعت بهـذا الغموض، ذلـك الغموض المرعب الـذي ورطني معها فيما بعد، عندما اتهمتنـي بقتل «صفاء»، وتهجَّمت عليَّ

لذلك وسببت لي ارتباكًا، ثم صالحتني وأعادت علاقتنا، بينما عندما علمت بمقتل «نور» في ليلة باردة بدمٍ باردٍ لم أجرؤ على اتهامها بقتله!

أدخلتني غرفة النوم وهي تهمس بأني أول رجل يدخلها، ولما جلست على طرف السرير سألتني عما أحب سماعه؟ قلت: «فيروز»، فابتسمت ووضعت شريطًا بالمسجل، وجلست تسامرني فترة ثم انتبهت لشيء ظلت تبحث عنه بعينيها في كل أركان الغرفة، ثم نهضت بقلق وانحنت تنظر أسفل السرير وتنادي بهمس: «صفاء.. صفاء»، ولما لم تسمع إجابة، قامت لتجلس بجواري وقالت بتنهيدة: «عليها حركات صفاء دي.. مبتقعدش في حتة»، سألتها بدهشة: «مين صفاء دي؟»، ضحكت وتحركت باتجاه دولاب غرفة النوم، وفتحته على مصراعيه وأشارت بيدها إلى مجموعة من قمصان النوم وهي تسألني: «نقي اللون اللي بتحبه؟»، وجدت نفسي أجيب بتلقائية: «الوردي»، ضحكت بصخب وهي تقول: «كنت عارفة انك حتنقي اللون ده»، ثم بدأت تخلع جاكيت بيجامتها أمامي بلا حرج كأننا متزوجان من ربع قرن، وكنت غير مشغول بمفاتنها بقدر انشغالي بمَن هي «صفاء»، أعدت عليها السؤال وكانت قد بانت مفاتن صدرها، لكنها خرجت وعادت بمحمولها ثم زاحمتني في السرير، ظلت تقلب ألبوم صورها بين يديها بسرعة حتى استقرت على صورة معينة أرتني إياها وهي تنظر إلى ما أنظر إليه، كانت صورتها وهي تجلس في الصالة وتضع قدمًا فوق قدم وعلى راحة كفها اليسرى ترقد حرباء كبيرة أطول من راحة كفها، كانت الحرباء مستكينة تنظر بهدوءٍ إلى مَن يصورها باهتمام، ضحكت وقالت: «هي دي صفاء.. اشتريتها من حوالي سنة.. دي حبيبتي ومبستغناش عنها»، لم أنطق

وأهملتني هي تمامًا وخلعت بنطالها ولبست قميصها الوردي، وعندما نظرت إليَّ ووجدتني شاردًا، بان على وجهها الكدر وقالت: «إوعى تكون بتقرف من الكائنات الرقيقة دي!»، نفيت ذلك وقلت إنـي مندهش فقط، تحركت بسرعة وغيرت الشريط، وضعت آخر «سلو» وهي تجذب يدي لمراقصتها، صرت بداخل حلم جميل لا أستوعبه.. كانت تخلع قطعًا من ملابسها ونحن نرقص وتلامسني بعريها، ثم جذبتني إلى سريرها.. وعندما احتضنتها بقوة، همست في أذنـي: «على فكرة يمكن صفاء تيجي فـي أي لحظة»، كنت قد نسيت موضوع «صفاء» فسألتها بدهشة: «صفاء مين؟»، أجابتني باستنكار: «صاحبتي إنـت لحقت تنساها؟ اللي كانـت معايا في الصورة»، ابتسـمت وضممتها أكثر وقلت: «أهلًا وسهلًا بيها»، هدأتني قليلًا وهي تتكلم بهدوء أم: «على فكرة هي بتتلون زي المحيط اللي بتبقى عليه.. يعني لو نطت على السرير حتبقى لون الملاية، ولو نطت على الخُدَّادية حتبقى مشـجرة زيها»، ضحكت وقلت لها بحسـم. «أنا خدت أحياء فـي الثانوية العامة.. متقلقيش مش حاخاف»، استطردت وهي تتلمَّس راحة يدي: «بـس صفاء مختلفة.. لـو نطِّت علـى جسـمي.. حتبقى زيـي بالظبـط.. يعنى يمكـن تيجي تبوس خدي تلاقي نفسـك بتبوس صفاء.. أو تمسـك صدري تلاقيه طلع في إيدك وتكون ماسـك صفاء»، ضحكت بصخب من هـذه الفكرة، وانكفيت عليها قائلًا: «ماشـي أنا بحبك وباحب صاحبتك صفاء»، قالت باستسلام: «أديني حذرتك وقلتلك».

قضينـا ليلـة ممتعـة، أو كنت أظنهـا كذلك في ذلـك الوقـت، لأننا بعد أن توطـدت علاقتنا خلعت قنـاع الرزانة والأدب وزاد الأمـر امتاعًا وبدأت

تطالبني بأبذأ الكلمات والتصرفات التي كانت على النقيض تمامًا من أرستقراطيتها وإرثها العائلي وثقافتها، وقد تعرفت على «صفاء» في يوم آخر وهي راكبة على فرع من نبات الزينة، وقد تحققت من رأسها و«ريم» تؤكلها بعض شرائح البيض المسلوق، وكدت أجلس عليها مرة لولا أن «ريم» صرخت لتنبهني بصوت مفزع، ومن يومها صرت أتفحص ما أنوي السير أو الجلوس أو النوم عليه خوفًا وتقززًا منها، وكان ذلك يضايقني جدًّا في العلاقة لكني لم أصرح به، ويوم أن لقيت مصرعها كبتُّ سرورًا مبهجًا بداخلي ونحن نبحث عنها في كل أنحاء الشقة، وتضايقت و«ريم» تسترجع الأحداث لمعرفة آخر لحظة رأتها فيها حتى تتمكن من إيجادها، وتذكرت أنها شاهدتها تزحف باتجاه البلكون الذي كنت لحظتها أجلس به، وساءني أني لما أنكرت رؤيتها بدت «ريم» غير مقتنعة، وعندما وجدنا جثتها وتبين أنها سقطت من البلكون، لم تصدق «ريم» أنها سقطت من تلقاء نفسها واتهمتني بقتلها، ورأيت منها وجهًا بشعًا وقاسيًا وكانت تلك الحادثة أول صدام حقيقي بيننا أدى إلى انفصالنا بعض الوقت.

وكان اللقاء الأول بيننا فيه أيضًا بعض العلامات الغرائبية التي كان يجب أن أنتبه لها لكني كنت مستلبًا تمامًا، فعندما صحوت في الصباح وأخذت حمامي لم أجد بداخله حوضًا للاغتسال، ولأنها كانت لا تزال نائمة بحثت عنه ووجدته خارج الحمام مثبتًا في الجدار الذي بين المطبخ والحمام، ودُهشت لأن هذا الحل الهندسي نستخدمه في حال ضيق الحمامات، بينما هذا الحمام كبير بما يكفي لعدة أحواض، وتعجَّبت عندما تبينت أنه حوض

بلا مرآة، وتحل مكانها ستارة من القطيفة الحمراء، وبينما هي ترتع في النوم كنت أفكر في عدسة النظارة التي استخدمتها بديلًا وفي لغز هذا البيت الذي يخلو من المرايا، وعندما استيقظت أجَّلت هذا التساؤل إلى ما بعد انتهاء حمامها الصباحي والإفطار، وأجابتني بضحكة مبتسرة وهي تأخذني من يدي تجاه الحوض العاري، ثم تجذب علَّاقة سوستة مدسوسة في جانب قطعة القطيفة فتظهر المرآة المخبوءة وراءها، ثم طلبت مني ألا أسألها عن السبب وأنها ستفسر لي الأمر لاحقًا.

ولم أكن لفترة من الزمن أقيم معها، ولكن كنا نلتقي أسبوعيًّا، وعندما عدت لها بعد انفصالنا وجدتها استبدلت «نور» بي أو بـ«صفاء»، و«نور» هذا كان غرابًا لونه أسود فاحم عدا بعض ريشات جرباء كأنها أُنقذت في اللحظة الأخيرة من دواية حبر أسود، قدمته لي وهو بداخل قفصه في غرفة نومها كأحد أفراد عائلتها وهي تمدح شكله وبريق عينيه، واستقبلني «نور» بصياح وجلبة ولم يهدأ حتى زعقت فيه، ثم عطفت عليه ودلقت في صحنه بعض البيض النيء، ولم أعلق على وجوده فكافأتني بإخراجه من الغرفة ونحن ننام سويًّا لكنه لم يتركني باحتجاجاته المدوية التي كان يطلقها بالخارج حيث تركناه، وفي الصباح شعرت به يرمقني بغيظٍ في أثناء مروري بجواره، فأدركت أن معايشتي لـ«ريم» ستنتهي بوقوعي في براثن مرض نفسي أخفه جنون الارتياب، لكن «نور» كف عن مضايقتي بعد فترة قصيرة لأنه ببساطة مات، وعلى وجه الدقة قتلته «ريم»، وقد برَّرت ذلك بأنها اكتشفت فجأة أنه يتأمل جسدها بشبقٍ وهي تخلع ملابسها، وينعق كلما انكشف شيء مثير من جسدها، وأنها أرادت أن تختبره لتتأكد من ظنونها، ولم تولِهِ ظهرها

ككل مرة، إنما واجهته وهي تخلع ملابسـها فرأت جحوظ عينيه يزداد كلما اقتربت من العري التام، مما دفعها لأن تصير عارية كما ولدتها أمها، وما إن رأى «نور» كنوزها حتى انتابه الجنون وظل ينعق ويصرخ ويطير داخل قفصه مصطدمًا بأركانـه ضاربًا بجناحيه أسـلاك القفص المعدنيـة في جنون حتى أدمـى جناحيه، مما اضطرها إلـى عقابه بتركه يبيت في البلكون ليلة الأمس، وهنا أدركت أنها قتلته عندما تركته في درجة حرارة تقل عن 17 درجة مئوية، كمـا رصدتها هيئة الأرصاد ليلتها، أخبرتني «ريـم» بكل هذا دون أن تطرف عيناها كأنها صدَّقت فعلًا أنه كان يُستثار منها، هذا ما قالته لي في صباحٍ باردٍ مبكِّرٍ جدًّا على غير عادتنا في التلاقي، وكانت قـد كلمتني طويلًا ليلًا وهي تشـرب فـي البيت طلبًا للدفء، وكنت مجهدًا فاسـتأذنتها كـي أنام، فطلبت مني الحضور في الصباح لكي أفطر معها، ووافقت معتقدًا أنها لن تصحو إلا ظهرًا، لكنها هاتفتني في الثامنة صباحًا وأخبرتني أنها تعد الإفطار، فحضرت بسـرعة وأكلت وشـربت شـايًا، بينما تحدثت هي عن تهتك «نور» وختام ما حـدث له عندما وجدته ميتًا في الصباح، لم يخالجها حزن في أثناء الحكي، لكـن ربما بعض التشـفي، كانت قد خلعت ملابس النـوم وارتدت «جوب» أسـود قصيرًا جدًّا و«بلوفر» كشمير زيتوني، فاعتقدت أننا سنذهب إلى أحد أندية مصر الجديدة لنتمشى حول التراك كما كنا نفعل أحيانًا، لكنها في تلك اللحظـة كانت تكلمني وتحرِّك بحركة عصبية فخذيها ضمًّا وفتحًا وجوربها الأسـود الستاني المتناسـق مع ما يظهر من سروالها يزيدني إثارة، واعتقدت للحظـة أنها تدعوني للمضاجعة، وكنت واهمًا جدًّا لأنها طلبت مني إخراج جثة «نور» من قفصه بالبلكون والنزول معها لدفنه، لكني استأت مما جعلها

تتحرك بعصبية تجاه جثته وتعود وقفاز يدها ممسك بقدميه وجسده مدلى نحو الأرض، وأصابتني رهبة وأنا أرى عينيه المفتوحتين باتساعٍ مدهش، وإطباقة حدَّي منقاره التي كتمت صوته المزعج إلى الأبد، بينما قالت لي بوقار مسرحي: «إنه يستحق دفنة لائقة»، ثم أضافت بأنها ستدفنه في حديقة البيت الصغيرة بعد أن تستأذن «فردوس»، طلبت منها وضع جثة الغراب في كيس أسود، فربما قابلت أحد الجيران عند نزولها، قالت بحدة: «اسمه نور مش الغراب.. وبعدين أنا نازلة أدفنه في الجنينة ومش حاكتم نفسه كمان في الكيس»! وشتمت الجيران ثم خرجت، وأنا من جهتي ارتحت لأنها لم تطلب مني حفر حفرة لدفن «نور» أو تشييعه بنص مقدس، كان باب شقتنا ما زال مفتوحًا كعادتها في إيهام الجيران أننا في علاقة رسمية وأنني لست عشيقًا، وفوجئت بعودتها السريعة وهي مضطربة نوعًا ما وقد تبدَّل وضع الغراب في يدها الممسكة به الآن من رقبته، وقالت لي بدهشة: «عندك حق لازم أحطه جوَّا كيس أسود أو خزنة فولاذ وأنزل بيه»، سألتها: «هل ضايقك أحد الجيران؟»، صرخت بانفعال: «جيران أيه وخرا أيه! لو حد اتجرأ كنت دفنته مع نور»، وعندما انتبهت لحيرتي أضافت بحدة: «بص بقى أنا مش طالبة منك تصدقني أو تكدبني أو تفكر اني مجنونة أو عاقلة ولا تعلق خالص بس تسمعني»، أومأت مستسلمًا فقالت وهي تهز «نور» بينما تتكلم: «وأنا نازله بيه السلم كان بيسهيني وألاقيه تحت الجوب! أأقربه من عيني ألاقيه شبعان موت.. أنزله تاني أحس بإثارته.. ده طير ابن وسخة ومش عارفة ألاعيبه.. قررت أطلع وأدفسه في الكيس أضمن»، لم أنطق أو أعلق حتى أنهت مهمتها على خير ثم عادت وطلبت مني إحضار ملابسي

وأشـيائي للإقامـة معها كأنهـا تقول لي إنها قـد أنهت علاقاتهـا بالحيوانات والطيور وجاء دور البشر، والمدهش أنني أغفلت كل الإشارات التي كانت تدعوني للفرار منها وأسرعت بجلب ما يلزمني للإقامة معها!

***

أغلقت هاتفي المحمول عقب أن كلمت «شـويكار» صديقة «شـريف» وأخبرتهـا بحرج حالته فظهر القلق على صوتها وقالت إنها سـتأتي بسـرعة لأخـذه، لا أعـرف إلى أين سـتأخذه؟ إلـى المصحة، أم إلى بيتهـا؟ أخبرني «شـريف» بأنهـا كانـت زوجته فيما سـبق وحاليًـا هي متزوجة مـن آخر كان أيضـا صديقًـا لهمـا، وأضاف أنها حبـه الوحيد وأن ظروفًا ملتبسـة تسـببت فـي طلاقهمـا لكنـه لـم يصـرح بهذه الظـروف، وقـال لي فـي مرة ثانيـة إنه لا ينجـب، وأنكـر أن يكـون هذا هو سـبب الانفصـال.. أكد فقـط بثقة أنها تحبـه جـدًّا، وقد عرفنـي عليها فيما بعـد وأعطاني رقمها في لحظة انكسـار وهـو يطلب مني الاحتفاظ به واسـتدعاءها إذا دعـت الضرورة إلى ذلك في حال موته وحيدًا أو مرضه الشديد، وقد استدعيتها مرة ولبَّت النداء بسرعة، وأتمنى أن تعيد الكرَّة الآن.

فتحت صفحتي بالـ«facebook» ولديَّ وساوس بأن «جيهان» تراقبني الآن وتمنيت أن تلمح أثري في الفضاء الإلكتروني وتدخل إلى الـ«Chat» وتحادثني، ثم ابتسمت ساخرًا من أمنياتي المستحيلة، فهي تتطابق افتراضيًّا وواقعيًّـا، ومنذ صداقتنا بـ«facebook» لم تتوقف عند صفحتي مطلقًا بينما أغرقت لقطاتها المصورة بالاستحسـان ولم تكلِّف نفسـها برسـالة تدعوني فيها إلى معرضها وتركت ذلك لصفحة المعجبين بفنها كأني من زمرتهم!

راحة كبيرة انتابتني وأنا أسمع صوت ولوج مفتاح في شقة «شريف» دون أن ينبح الكلب، لأني أدركت أن «شويكار» حضرت وفي النهاية ستأخذه معها، ولم أشأ التدخل حتى لا أتورط أكثر بينهما، ثم سمعت صوت صرير عجلات حقيبة «شريف» متقاطعًا مع همهمات «شويكار» وهي تطلب منه أن يتركها لها، ثم ساد الصمت بعد دقائق واستلبني هذا الهدوء تمامًا وقادني نحو السرير فنمت بعمق.

صحوت في السابعة مساءً وكانت الدنيا قد أظلمت تمامًا وتسرَّب هواء بارد من النافذة فتطلعت نحو الشارع ورأيت بعض المارة وهم يسيرون متعجلين، فأغلقتها مقررًا البقاء بالبيت والقراءة ثم انتظار حلول النوم مرة أخرى، أو مكالمة من «عماد» تدعوني للسهر معه، كأني أخشى النزول بمفردي فتقودني قدماي لحضور معرضها الذي سيُفتتح اليوم في هذه اللحظة، وبعد قراءة عدة فصول من الكتاب الذي بيدي، بدأت أسمع أصواتًا تأتي من بعيد فيها خليط من هدير الرياح الشديدة أو قعقعات العواصف متبوعة بأصوات تبدو كنباح الكلاب عندما تزوم بشكل مخيف، وازدادت حركة الريح حتى شعرت بأن نوافذ الشقة وأبوابها تكاد تنفلت من زواياها، وانتابني قلق وصوت الكلاب يصعد من منور السلم كأنها تستهدف طرائد، وتباعدت واقتربت أصوات أقدام القطط وهي تهرول في الصعود أو النزول بمواءٍ يشي بالخوف أكثر مما يعبر عن التحدي، ثم أخيرًا سمعت صوت أقدام بشرية تصعد بصوت رتيب، وكفَّت كل الأصوات الأخرى فلا سمعت للكلاب ولا للقطط ولا للريح أصواتًا ولا حتى زمجرات كلب «شريف»، وتوقفت الأقدام عند باب شقتي وأنا متوارٍ خلفه أتنصت، باغتني

صـوت الجرس ففتحـت بوجلٍ لأجد جسـدًا عملاقًا يرتـدي جلبابًا صوفيًا داكنًـا يواجهني بابتسـامة وهو يقدِّم نفسـه بأنه: «إمبابي»، ثـم مدَّ يده الغليظة فسـلَّمت عليه بترحاب، غير أني سـحبت كفي بسـرعة، فقد كانت يده باردة جدًّا، سـألته هل هي تمطـر بالخارج؟ فازدادت ابتسـامته وهو يومئ بلا، ثم تبعنـي إلى حيث أجلسـته، بدا «إمبابـي» رجلًا في الخمسـينيات من عمره، لكنه موفور الصحة، وكانت شـبابيك النوافذ قد استقرت وعاد الصمت مرة أخرى، أبلغني بأن «ريم» كلَّفته بالبحث لها عن فيلا أو منزل قديم بمسـاحة لا تقـل عن 500 متر لشـرائه فـي المنطقة التي يقيم بهـا، وأن أغلب المنازل القديمة في هذا الحي والمعروضة للبيع مساحتها أقل أو أكثر من المطلوب، أو آيلة للسـقوط مما سـيكبدها مبالغ طائلة في حال إزالتها أو تجديدها، لذا اسـتغرق وقتًـا طويـلًا فـي البحث عما ترغـب فيه، وكلمـا ذكر لهـا تليفونيًّا مواصفـات أحد المنازل كانت ترفـض معاينته بحجج مختلفة، ولولا كرمها وسخاؤها ما تابع البحث، ثم أضاف مبتسمًا أن «ريم» عندما أخبرته بأني الذي سأتابع معه هذا الموضوع فرح جدًّا لأني مهندس وسأسهل عليه المعاينات، قاطعته وأنا أفهمه أن لديَّ مسـئوليات كبيرة وأرجو ألا يزعجني كل فترة بأنه وجد المكان المناسـب ثم أفاجـأ بأنه لا يصلح، هزَّ رأسـه متفهمًا وطمأنني بأنـه لن يتصل بـي إلا عند تحقق المـراد، ثم راجع معي رقـم تليفوني الذي أملتـه عليه «ريـم» وانصرف، أغلقت الباب وراءه وعادت نفس السـيمفونية الصوتيـة بشـكل معكـوس، بدأت قوية من عنـدي ثم فتـرت بالتدريج، كان موضوع رغبة «ريم» في شـراء أرض أو بيت قديم لعمل معهد لتعليم الفنون المسـرحية يحيرنـي جدًّا، ليس بناءً على سـخرية «عماد» مـن الفكرة عندما

أخبرته بها فقال بغلاسة: «عاوزك تفهمني بهدوء.. واحدة ما اتخرجتش من معهد الفنون المسرحية ومامثلتش غير في مسرحيات ما حدش شافها وأدوار صغيرة في مسلسلات ما حدش شافها برضه وماسمعتش عنها إلا منك.. تعمل معهد للتمثيل بأمارة إيه؟»، كنت أثق في ثقافة «ريم» وقدرتها على التدريس لذا لم أندهش من الفكرة، ما يحيرني هو رغبتها في إقامة هذا المعهد في مناطق مكتظة بالناس وغير جاذبة للطلاب من هذا النوع، فقد كانت تبحث في أطراف حي الزيتون وجسر السويس والنعام مبتعدة عن مصر الجديدة ومدينة نصر بحجة أن أسعار الأراضي والبيوت غالية، رغم أني بينت لها بحسابات دقيقة أن الفرق لن يكون كبيرًا، لكن «ريم» صعبة المراس ومن الصعب إقناعها بما يخالف أحلامها، ولا يهم، فأنا متورط متورط، متورط في واقعها وفي أحلامها، ولا أنسى أنها حدثتني أكثر من مرة في بدء علاقتنا عن رغبتها في شراء بيت يجمعنا، ليس بيتًا وظيفيًّا، أي بغرف للإقامة ومطابخ وحمامات! إنما بيت يعتمد على الخيال.. بأقل عدد من الجدران.. ويكون على قمة شلال، أو أسفل جرف صخري.. كنا في بدء علاقتنا لذا جاريتها في الخيال وأظهرت لها إمكاناتي المعمارية واعتبرتها نزوة أو ثرثرة لقضاء الوقت، لكن كلما توغلنا في العلاقة اكتشفت ألغازًا أعجز عن فك طلاسمها.

اكتفيت بما شربت بعد أن ثقل رأسي وصفا عقلي وابتسمت منتصرًا لأني تغلبت على نفسي المتواطئة ولم أذهب إلى معرض «جيهان»، ومرق خاطر في ذهني بأن «ريم» كلفتني بمتابعة «إمبابي» بينما هي مشغولة بابنتها،

لأنها أرادت أن تشـغلني أيضـا بموضوع يخصها حتى لا أفلت من أسـرها، فتكـدرت لوهلة مـن فكرة قديمة لا تنفـك تراودني بأني كثيـرًا ما كنت لعبة مفضلة في يد النساء!

جيهان العرابي

أنهيت حمامي في زمن قياسي، تركت مياه البانيو التي يتخللها الشامبو تغمر جسدي، وكدت أغفو من الإجهاد فانتبهت بسرعة، وتضايقت حين لمحت سلة المهملات الفائضة بورق التواليت فتصورت قذارة قاعدة الحمام رغم أني مسحتها بالديتول قبل أن ألقي بنفسي في البانيو.. لم أجرؤ على رفع وجهي تجاه التسريحة وتوقعت أن إحداهن عبثت بعطوري ومكياجي أو أحدهم قرَّبها من وجهه وشمَّها أو تأمل دقة صنعها، حلَّ بي ضيق شديد فصرفت مياه البانيو وفتحت الدش على آخره، ثم جففت نفسي وخرجت بسرعة.. هرولت في تلك المسافة القصيرة بين حمامي وغرفتي. كنت عارية إلا من فوطة التجفيف، تفاديت بنظراتي البهو وحجرة الصالون واندفعت تجاه غرفة نومي وأغلقت الباب بشدة، لم أكن خائفة من أحد ما في شقتي أو من عيون جيران متلصصة قد ترى عريي، فكل نوافذي وشرفاتي مغلقة في هذه الليلة من شدة البرد، حتى نافذة غرفة الصالون التي فتحتها أكثر من مرة لتهوية المكان وطرد سحب الدخان، وأغلقتها بمجرد خروج آخر اثنين من هذه الليلة التي شارف صباحها على المجيء، كنت أجري كي أتجنب رؤية الفضلات التي تسربت من أطباقهم وتخللت نسيج السجادة الشيرازي، وبواقي الكئوس والأكواب التي ما تزال على المنضدة، أو بجوار المقاعد وبها بقايا من الكولا والبن والشاي والنسكافيه، نجحت وأنا أغلق الباب على غيابهم، أن أوصد باب المطبخ على الأطباق والحلل

والأواني الملوثة بالطعام، إذا انتهت واحدة من طبقها التي ملأته مرة واثنتين كانت تدخل به إلى المطبخ وتفتح صنبور الحوض بصوتٍ، فألاحقها طالبة منها أن تترك كل شيء على حاله، فالشغالة ستأتي غدًا وتنظف كل شيء، قلت هذه العبارة مرتين فأصبحن يتناقلنها عن لساني حتى لا ينظفن شيئًا، هذا بخلاف الجملة المقيتة: «أكلك جميل يا جيهان.. قولي بصراحة إنتي فعلًا اللي عاملاه؟»، وعندما أحدق بغيظ في السائلة كانت تدعي المزاح، عشرون نفسًا كانوا في هذا المكان بناءً على دعوتي احتفالًا بانتهاء معرض صوري الفوتوغرافية.. أرتكب هذه الحماقات كثيرًا وأدعوهم إلى منزلي بمعدل مرة كل ثلاثة أشهر، ليس بمناسبة كهذه فعدد معارضي في حياتي المهنية قليل، ما أذكره معرض أو اثنان وأنا آنسة، ومعرضان في حياتي الزوجية التي دامت ثلاث سنوات، ومعرض آخر وأنا أرملة، بخلاف هذه المرة، العشرون نفسًا من الجنسين.. الذكور منهم برفقة زوجاتهم اللواتي صرن من المقربات لي أو يدَّعين ذلك، والنساء منهن زميلاتي من معهد السينما وبرفقتهن أزواجهن أو مَن على شاكلتهن، بخلاف جارة من جيران العمارة جاء زوجها ليهنئني كما ادعى ولبد حتى منتصف الليل، وصديقي الأعزبين اللذين أطاح الشراب برأسيهما ومكثا حتى آخر السهرة على احتمال أني من الممكن أن أخضع لابتزازهما غير المعلن بأن لجان الشرطة قد تحتجزهما لسكرهما البين ولأن بطاقة أحدهما لم تجدد، ورغم أنهما يعرفاني جيدًا منذ سنوات، فقد خيل لهما السكر أني قد أتعاطف وأدعهما يبيتان في البهو، لكن ردي سمعاه جيدًا عندما أغلقت الباب خلفهما وأنا أودعهما بصياح حتى تسمع الجارة صوتي لو كانت خلف الباب تتنصت كما اعتادت أن تفعل.

شعرت باستياءٍ كبير من هذه الليلة، ورغم إجهادي وحاجتي للنوم التي كادت تميتني غريقة في البانيو، إلا أن تذكرها وأنا في فراشي طرد النوم من عيني، من أسوأ الأمور أن تكون المضيف وتطارد أطباق الضيوف لتحضر ما ينقصهم أو تتفحص كل طبق كي تزيده من أصناف لم ينتبه إليها، وكذلك الاستماع إلى كلمات المجاملة التي تبدأ بالثناء على ذوقك في اختيار الأثاث والكتب التي تحشوها في مكتبتك والكريستالات والديكور وانتهاءً بجودة الطهي.. وأيضًا كم الأحضان والقبلات الزائفة التي تلقيتها على وجنتي هذه الليلة، رغم ضيق بعضهن لأني اشترطت عدم إحضار الأطفال كدأبي في كل الحفلات التي أقيمها في بيتي، وبعضهن كن يتحججن أحيانًا بعدم وجود أحد لرعاية أطفالهن، لكن أمام إصراري يدبرون الجليس بسرعة.. بالإضافة طبعًا إلى بعض الموجودات اللاتي كن يلازمن أزواجهن بطريقة غريبة داخل شقتي، كأن مسلسلات التلفزيون أثرت فيهن وأني - بحكم كوني أرملة- سأخطفهم منهن، ونسين فجأة حكايتهن عن نذالة وحقارة هؤلاء الأزواج وعن أمنياتهن بالتخلص منهم، ناسيات أيضًا أن أزواجهن هؤلاء لا يقدرون في سوق الرجال بأي ثمن، في المرة القادمة سأطلب عدم إحضار الأطفال والأزواج، وزوجات زملائي الذكور أيضًا على نفس الشاكلة وأسوأ قليلًا، فمعظمهن لا يدركن معنى لصداقة الرجل والمرأة، ويتصورن أن نهايتها الفراش، ويتفنن في النكد على أزواجهن إذا ما اتصلتُ بهم في وجودهن حتى بتُّ لا أتصل إلا للضرورة وأتركهم يحددون موعدًا للقاءات ويدبرون الحيل، وفي النهاية زميلاتي النسوة المتزوجات وزوجات

زملائي اتفقن على شيء واحد وهو ضرورة التعجيل بزواجي بأي شكل، وتتفنن كل منهن في اختيار العريس المناسب لي من وجهة نظرها.. وإكرامًا للزمالة والعشرة كنت أستمع لهن في أول الأمر بهدوءٍ، ثم أظهرت لهن نابًا أزرق فتجنبن هذا الموضوع تمامًا.. أما أصدقائي الذكور العزَّاب فهم في حقيقة الأمر ثلاثة.. الاثنان التعيسان اللذان سهرا معي اليوم، وتطلق عليهما صديقتي «بسمة» لقب «التوءم الملتصق»، لأنها لا تراهما إلا معًا وتدعي أن سلوكهما متطابق، أحدهما مونتير سينمائي اسمه «فريد» والآخر مخرج سينمائي اسمه «إبراهيم»، وهما طيبان وفيهما جدعنة أولاد البلد، وكانا من زملائي في المعهد، لكن احتكاكهما ببعض فتيات الوسط اللاتي ليس لديهن سقف، جعلهما يتعاملان مع الفتيات والسيدات بنفس المنطق، ورغم زمالتي الطويلة لهما إلا أني أرى في بعض الأحوال القليلة ذيلهما يلعب، فأضطر إلى بتره ونتخاصم ثم يعودان راشدين، العامل المشترك في الاثنين أن لهما تجارب أو سوابق في الزواج القصير، فأقل عدد زيجات لأيٍّ منهما كانت زيجتين، وأطول مدة زواج استقر فيها أحدهما كانت عامًا أو عامًا ونصف العام.

وضعت القطرة فخف احتقان عيني قليلًا، كل هذا بسبب فلاشات الكاميرات الرخيصة والموبايلات التي كانت في أيدي بعضهم، التي يشهرونها دون استئذان في وجهك أو في قفاك وأنت تأكل أو تدس خلة الأسنان في فمك، هم يعرفون من قبل أني لن أصورهم، فأنا لا أصور ما لا تحب عدستي أن تراه، لذا أخرجوا عددهم وبدأوا يصورون.. تبًّا

للتكونولوجيا التي لا تكف عن التطور وتملأ الأسـواق بالمنتجات، أحببت التصويـر من صغري ودرسـته في المعهد أربع سـنوات وأخذت كورسـات متقدمـة فـي مراكـز أجنبيـة كثيـرة، وما زلـت أعتقد أنـي لم أصبـح محترفة خالصة بعد، وكان لي شـرط معهم أن يرسـلوا الصور التي التقطوها لي في بريدي الخاص، وإذا أعجبتني أجيزها للاسـتخدام، أو يسمحوا لي بفحص الصـور الملتقطـة ومحو الصـور الرديئة، وغالبًـا ما كانت تنتهي السـهرات سـواء عنـدي أو عندهم أو حتى في الأماكـن العامة دون السـماح لي برؤية إبداعهم الفوتوغرافي، لكنهم كانوا يرسـلون لي الصور أولًا قبل نشرها بعد أن وبَّخت أحدهـم لأنه وضع صورة قبيحة لي على صفحته دون استئذاني.. لو حاسـبتهم طبقًا للمعايير المهنية سـأمحو كل صورهم وأتلف الكاميرات التـي التقطتها، ولأنهم هواة صرت أتغاضى كثيرًا عن رداءة صورهم وأختار من بينها أقل القليل.

جارتي في الشـقة المقابلة التي سـحبت زوجها كالكلب الجريفون وهو يضغـط يـدي بخبث فـي مصافحة الـوداع، لم تختـر لي زوجًا، بـل كرَّهتني فـي سـيرة الرجال كلهـم بنميمتها عن كل سـكان العمارة الذيـن لا أعرفهم ولا رأيتهـم إلا مصادفـة أثنـاء ركـوب المصعـد، وذمَّـت فـي زوجهـا بمـا لا يكفـي فقط لطلب الطـلاق منه، بل لقتله ودفعه في قعـر «التواليت»، فهو فاشـل فـي الجنس لدرجـة أنه يبكي فـي أول دقائـق المضاجعـة عقب بلله ويطلـب منها أن تسـتر عليـه، كما أن رائحة عرقه فظيعـة ونكهة فمه لا تُطاق ويشـخر ويطلـق ريحًا في أثنـاء نومه.. وأن الشـيء الوحيد الـذي يربطها به ويجعلهـا باقية إلى جـواره حتى الآن هما الطفلان اللـذان أنجبتهما منه منذ بضع سنوات.

لـم يكن بيني وبينها قبـل تحولي إلى أرملة غير تحية حين تلتقي العيون، لكـن بعد العزاء طوقت عنقي بجميلها وهي تسـاعدني علـى لقاء المعزين، فصـرت أزورهـا علـى فتـرات جعلتهـا لا تكـف عن اقتحـام حياتـي، حتى عاملتهـا بجفاء في الفتـرة الأخيرة ففهمت ووعت الدرس، ولم تعد تزورني إلا في المناسبات التي تُدعى إليها، جارتي هذه لم تكن مهتمة بزواجي حتى تبعـد الخطر عن حياتهـا مع زوجها، بقدر مـا كانت منشـغلة بإزاحتي تمامًا مـن البيت، وكانت تعرض مبالغ تزيد كلما رفضت حتى أتخلى عن شـقتي، كـي تضمها إلى شـقتها فتصبح مالكـة للطابق كله، وعندما فـاض بي الكيل وطالبتهـا بعدم الخوض في هذا الموضوع مرة أخرى، غضبت جدًّا وبعدت عنـي، تلك التي قالت عن زوجها إنه ربـع رجل وإنها لن تكمل حياتها معه، بررت احتياجها لشـقتي بأن الطبيب أخبرها بأن درجة خصوبة زوجها عالية جدًّا ومن المرجح أن تنجب عقب كل مرة حمل توءمين أو ثلاثة، وقد يصل العـدد إلى سـتة أطفال موفـوري الصحة، لذا لن تكفيها شـقتها ذات الغرف الأربع! آه من قسـوة الشـعور بـأن حياتك مسـتباحة وعرضك مسـتباح وما تملكه مهما كان ضئيلًا محل جشع الآخرين.

أخيـرًا تخلصـت مـن هذا الصـداع القاتـل الذي اسـتيقظت بـه بمجرد وصولي إلى ركني المفضل في مكاني الأثير على نيل الزمالك، كل الأماكن التي أتردد عليها باتت معروفة لكل الأصدقاء، وبمجرد أن ألتقي بعضهـم فيها أتعثر بصديق أو زميل آخر لا يروقني وجوده في تلك اللحظة فيفسـد اللقاء، وعندمـا دخلت إلى هذا المـكان مصادفة فتنت به، واسـتلبني تمامًا بموقعه

المميز وديكوراته الرائعة وبالمسافات الكبيرة بين المناضد التي تحافظ على خصوصية جلسته، هناك ركن لتناول الطعام وركن للتأمل والدردشة بمعزل عن السماعات التي تبث موسيقى وأغاني، و«الجرسونات» يسيرون على أطراف أصابعهم، صمت هذا المكان الذي يخدشه أحيانًا هدير الأمواج في حالة مرور قوارب كبيرة من آيات جماله، عشقت هذا المكان وقررت ألا أخبر أحدًا بأني أتردد عليه، وألا أصطحب أحدًا إليه، هذا باستثناء أن أجد شخصًا مميزًا يستحق أن أتواجد معه فيه، وكثيرًا ما توهمت أني على وشك العثور عليه، وقد ألتقيه صبيحة يوم عيد ميلادي ونظل فيه حتى ينتصف الليل، وتتكسر الأيام من حولي كرقائق الثلج التي تطفو على قمة الآيس كريم، وتكثر المساحات الجدباء في داخلي.

الخادمة لن تنتهي من تنظيفها قبل المساء وسأفطر وأتغدى في المكان، وقد أتمشى قليلًا على كورنيش النيل وأذهب للتسوق وأعود إن ظل الطقس لطيفا ولم يغدر بي ويمطر، ففي عجالتي لم أصطحب مظلتي، ولو أمطرت وأوحلت سأقع في مأزق، ولن أتصل بصديقتي «رنا» كي نلتقي إن كانت غير مشغولة، لأنها ستدَّعي انشغالها خاصة وقد طبقت عليها قانوني ورفضت أن تصطحب ابنها معها في سهرة الأمس، ولم آبه لضيق زوجها الذي لازمه في الحفل، أما «بسمة» فمن الطبيعي ألا أكلمها لأنها أصلًا لم تحضر الحفل واعتذرت في اللحظة الأخيرة لمتاعب في معدتها، وأنا متأكدة تمامًا أنها لم تحضر بسبب رفضي أن تصطحب معها صديقها «خيري»، وكيف أقبل؟ لو فتحت هذا الباب لأحضر «إبراهيم» و«فريد» صديقاتهما وقلدهما الآخرون وتحولت شقتي إلى جرسونيرة!

أغلب أماكن وسط البلد والزمالك وحتى المعادي مقر سكني قبل الزواج كنت ألتقي فيها «تميم» زوجي، عدا هذا المكان طبعًا الذي اكتشفته بعد وفاته، لكن لا يمثل هذا فرقًا، فلو كنت عرفته في حياته خاصة الفترة الأخيرة منها ما كنت حدثته عنه أو اصطحبته إليه، أحببت «تميم» بعد رؤيتي منحوتته التي فتنتني، وأنا أقوم بتصوير معرض نحت جماعي بقاعة «كريم فرنسيس» في وسط البلد، كنت قد قمت بتصوير أكثر من معرض فن تشكيلي وبدأ أصحاب «الجاليريهات» يطلبونني بالاسم، رغم أني خريجة معهد السينما قسم تصوير، وعقب التخرج صورت أكثر من فيلم روائي قصير، ثم رشحني أحد أساتذتي لتصوير فيلم روائي كبير وقبلتني شركة الإنتاج بناء على توصيته، وفي أول يوم تصوير استفزتني الممثلة المخضرمة فتركت اللوكيشن على الفور وألقيت بالعربون، وتكرر الأمر في أثناء تصويري لفيديو كليب لأحد المطربين الذين كانت تسعدني أغانيه في طفولتي، كان يلهث وراء الموديل الجميلة ذات السبعة عشر ربيعًا وهو يغني لها «أحبك وعمري كله فدا ابتسامتك»، وقدماه تكادان تلتفان حول بعضهما أثناء الهرولة مما كان سيعرضه لكسر محقق، فرجوت المخرج أن يجعله ينتظر الفتاة بجوار شجرة الورد وتأتي هي مهرولة إليه، اقتنع المخرج بكلامي الذي لم يعجب المغني المتصابي! حاولت شرح وجهة نظري بعقلانية وأخطأت بقولي: «أصل يا عمو..»، فانطلقت حمم من فمه ظلت تلاحقني حتى خرجت من البلاتوه، ثم تجارب أخرى بنفس الشاكلة أدركت بعدها أن هذا المجال لن يناسبني، وتبخرت كل أحلام دراستي في المعهد، ولأني أعشق التصوير اتجهت إلى التصوير الفوتوغرافي، ولم أبتعد عن السينما نهائيًّا وعملت أحيانًا في تسجيل مشاهد الأفلام بالفوتوغرافية لمخرجين أقدرهم وأحبهم

دون احتكاك بالممثلين، أو القيام بالتصوير السينمائي مساهمة مني لأحد الزملاء بشرط أن يكون فيلمًا تسجيليًّا أو روائيًّا قصيرًا.

منحوتة «تميم» التي أوقعتني في حبه قبل أن أراه، كانت منحوتة برونزية ارتفاعها 50 سم، غالبًا عند تصويري للأعمال المجسمة، أظل أدور وألف حولها وألتقط لها صورًا متعددة حتى أتبين جانبها الأكثر قدرة في التعبير عنها، بينما منحوتة «تميم» كانت في كل جوانبها وأوضاعها مفعمة بالتحدي، ومن فرط الفتوة والقوة تكاد تدب فيها الحياة، تمثل شاب كالمصارعين القدامى يشق بصدره ويديه الفراغ ويبدو مقتحمًا وجريئًا ومتحديًا وغير قابل للهزيمة، وكانت هناك منحوتات أخرى من البرونز والجبس والخشب والصاج والحديد لنحاتين مشاهير ضمن هذا المعرض الذي شارك فيه قلة من الفنانين الشباب، لكن هذه المنحوتة خلبت لبي تمامًا بقدرتها الفائقة على النشوء، فتفرغت لتصويرها فترة طويلة، حتى أحتجز روحها الوثابة داخل الكاميرا، رغم أنها لم تكن مدرجة فيما سأصوره من أجل «البروشور»، وقد اندهش صاحب الجاليري من إصراري على أن تتصدر مجموعة الأعمال؛ وأخبرني بخجل أن الفنانين الكبار قد يغضبون، قلت باحتجاج إن مَن يغضب من ذلك ليس فنانًا حقيقيًّا، ثم طلبت إعفائي من إتمام المهمة، بعد فترة صمت متأملة قصيرة ابتسم الرجل وأعلن موافقته.

في الغالب لم أكن أحضر حفلات الافتتاح - خاصة التي أقوم بتصويرها - وذلك للطقوس المزيفة المصاحبة لقص الشريط وحضور الوزير أو الخفير وأصدقاء الفنان وصديقاته وأحيانًا أنجاله الصغار الذين يعيثون فسادًا في المكان، وكذلك الثريَّات مدَّعيات الأرستقراطية، لكنني حضرت هذا

الافتتـاح بغرض التعرُّف عن بعد بصاحب المنحوتـة، ورأيت «تميم» الذي سحرني تمثاله قبل أن تأسرني وسامته وعضلاته المفتولة، صرت أرقبه كمَن يتابع نجمة متألقة في السـماء، رغم أنه فـي واقع الحال كان واقفًا بمفرده أو يـكاد، ووجدت أغلب الموجوديـن يلتفون حول الفنانيـن الكبار ويبدو هو كأحـد الـزوار، ولولا أن «كريـم» صاحب الجاليري قد أشـار لـي عليه عند دخولـه ما عرفته، وهممت بمحادثته لكن النحات الكبير «صبحي جرجس» سبقني واقترب منه يهنئه، وقررت في لحظة أن أغادر المعرض ثم اقتحمتني فكـرة، أن أشـتري هـذه المنحوتة، وقـررت المغامرة بشـرائها دون أن أقف أمـام قوائم الأسـعار المعلقة على الجدران، انتحيت بــ «كريم» وطلبت منه شـراءها فضحك وطلب مني أن أتبعه، وبدهشـة تبعته حتى موقع المنحوتة وراقبت إبهام «كريم» وهو يشـير لي على ملصق صغير في قاعدة المنحوتة، كان المكتوب عليه باللغة الفرنسية والعربية أن هذه المنحوتة غير مخصصة للبيع، كدَّرني «كريم» الذي قادني عن قصد إلى هذا الموقف الحرج، خاصة وهو يخبرني بأن «تميم» صممها خصيصًا لشـخص يهمه ووعده بإهدائها له عقب انتهاء المعرض، وزاد الأمر سـوءًا أنني وجـدت «تميم» يراقبنا وخُيل لي أنه يبتسـم، ولم أتحمل البقاء بعد هذا الارتباك فانفلتُّ وأنا لا أعي لماذا طالبني «كريم» بالبقاء قليلًا؟ وظللت لأيام بعدها لا أرد عليه ولا أدري سببًا لذلك! فـ «كريم» مجرد صاحب جاليري وقد قرر الفنان عدم بيع تمثاله فما ذنبـه؟! ويبدو أننـي كنت أريد أن أحذف تلك الأمسـية برمتهـا من ذاكرتي، ثـم جاءني طرد بريدي بداخله المنحوتة ورسـالة رقيقة من «تميم» يتأسـف فيهـا لأنـه أخـذ عنواني من «كريـم» بمنتهـى الصعوبة ويطلب منـي أن أقبل هديته، اتصلت به على الرقم المدون في الرسالة واعتذرت عن عدم قبولها،

فطلب مقابلتي كي يشرح سبب الإهداء، وعندما تقابلنا أخبرني بأنه بوغت تمامًا من تصدُّر منحوتته «بروشور» المعرض، وذهب مباشرة إلى «كريم» يستوضح منه فأخبره بالتفاصيل، وأنه من تلك اللحظة قرر إهدائي المنحوتة وأبلغ «كريم» بذلك، وأنني عندما قررت شراءها أراد «كريم» أن يمازحني لكني انفلت غاضبة، وأقسم لي إنه لم يصممها من أجل شخص بعينه وإنه وضع الملصق حتى لا يشتريها أحد فأُحرم منها، وقد صدَّقته على الفور وبرغبتي الحرة منذ تلك اللحظة تجردت من أسلحتي ورضيت الوقوع في أسره وتزوجته.

في أوقات كثيرة لاحقة أحسست بأن رغبتي في الزواج انتهت تمامًا وأن فترتي القصيرة مع «تميم» كفتني هذا النوع تمامًا، وفي لحظات الضيق والانكسار كنت أحس أنه لو أحكمت الدوائر حولي وأصبح لا فكاك من الأمر فإن أقرب هؤلاء العزاب الثلاثة إلى الاقتران بي هو أحد التوءمين الملتصقين - مع تحفظاتي الكثيرة عليهما - لأن المهنة تجمعنا وأنا قادرة على لجمهما، رغم أن تجربة صديقتي «رنا» التي تواليني يوميًّا بنشرة أخبار مآسيها مع زوجها بسبب حب الأدب وتصر أحيانًا على استدعائي لكي أرى آثار بعض المشادات على جسدها تجعلني أكاد أستبعدهما نهائيًّا، فـ «رنا» خريجة كلية الآداب، وتشرف على مكتبة كبيرة، وزوجها «فؤاد» مهندس اتصالات لامع يهوى الأدب، هي كاتبة واعدة ورغم أنها في بداية الطريق لكنها تلاقي نجاحًا ملحوظًا، وقد أصدرت مجموعتين قصصيتين اهتم بهما بعض النقاد وتعمل على رواية جديدة، أما زوجها فنشر بعض قصصه في صحف ومجلات محدودة التأثير، ولا أحد سمع عنه رغم سعيه الدءوب

وصداقاتـه المتعـددة، كلما نشـرت «رنـا» فصلًا مـن الروايـة أو قصة جيدة وانهالت عليها تهاني المعجبين كدر زوجها حياتها بحجج مختلفة، بينما إذا نشر هو قصة في جريدة ما من الجرائد الصفراء وهو يدري أن اقترانه بـ«رنا» هو الذي سـهَّل له نشـرها، نسـخ عدة نسـخ من القصة وعلقها على جدران الشـقة كلها ووضع نسـختين منها فوق سـرير غرفة النوم بالذات، وسبق أن أخبرتنـي بأنـه دخل عليها مـرة فوجدها تكتـب في غرفة المكتـب، وطفلها الذي لم يبلغ العام نائم في غرفة النوم، فلم يُلقِ السـلام، ثم اغتسـل وتسـلل إلـى غرفـة النوم وقرص فخـذ الطفل وقفز من الغرفة بسـرعة حتـى لا تراه، لكن صرخة الطفل كانت أسـرع منه فلمحته «رنا» وهو يطير خارجًا ثم يعود معهـا في نفس التوقيت يهرولان تجاه الطفل الذي كان يصدر صرخات ألم عنيفة، كشـفت «رنا» غطاءه واحتضنته فلامس سـاعدها أثر القرصة فازداد الطفل في البكاء، فكشـفت سـاقه فرأت دائرة حمراء، التفتت تجاه زوجها فبادرها بالزعيق واتهمها بأنها غير نظيفة بدليل أن نملة أو ناموسـة تسـللت إلـى فراش الطفل، واتهمته «رنا» بقرصـه للطفل فازداد جنونه وطردها من البيـت، وفي جلسـة الصلح التي تمت بعـد هذه الواقعة بأسـبوعين اتهمها أمـام والدها بأنها تغير من إبداعه الأدبي، التوءمان لا خوف من أن يتهماها بالغيرة فلا أمل فيهما مطلقًا، هما (copy paste)، مزاج متشـابه.. عدمية.. عين زائغـة.. انتهازيـان.. يتخاصمان كثيرًا ويتصالحان دون سـبب معلن، فمـن الصعب أن تـرى أحدهما بمفـرده.. وإنمـا غالبًا أحدهما فـي انتظار الآخر، لو سـمح الشـرع للمرأة بأن تتزوج اثنين.. هما أول مَن سيتزوجان بامـرأةواحـدة.

عقـب وفاة «تميم» بأشـهر قليلـة، قرر الاثنان في لحظـة واحدة أن يطلبا الـزواج مني، اتصل بي «فريد» المونتيـر طالبًا مقالبتي لأمر هام، وأصر على عـدم الإفصاح عنه في الهاتف، نزلت فـي عجالة وأنا أظن أنه في حاجة إلى نقـود وسـيردها قريبًا كما العـادة، لم يمر على ذهني مطلقًا أنه سـيطلب مني الـزواج، حتـى بعـد أن دخلت إليه في بهـو الفندق ووجدتـه متأنقًا على غير العـادة، وعطر فج يفوح منه، بـدأ الموضوع بتردد وطلب مني ألا أخبر أحدًا بالذي سـيدور بيننـا وخصوصًا صديقنا المخرج «إبراهيم»، أومأت برأسـي وأنا أشـعر بالقلـق، ثم رنَّ محمولي وكان «إبراهيـم» على الخط، بمجرد أن حييته باسـمه ارتبك «فريد» أمامي وظل يشـوح بيـده دون صوت بمعنى ألا أخبـر «إبراهيم» بموعدنا ولا مكاننا، تجاهلته واعتـذرت لـ «إبراهيم» بأنني منشـغلة بموضوع ما فطلـب مني أن نلتقي في ذات اليـوم، تخلُّصًا منه قلت له سـأطلبك فـور انتهاء الموعـد، ثم غيظًا من حـركات «فريد» فـي الفندق المحتـرم طلبت منه بفجاجة أن يخبرني بسـبب المقابلـة العاجلة باختصار، تلجلـج قليـلًا ثـم انطلق في سـرد معاناتـه في وحدتـه وحاجته إلى شـريك وأنـا صامتـة تمامًا، ثم لـم يجد مفرًّا من طلـب الزواج، رفضته بقـوة أربكته وضايقته جدًّا فمضى يتجرَّع عصير الليمون كسـكير يريد إنهاء كأسه قبل أن يتهـور، أنَّبت نفسـي داخليًّا وظللـت أخفف عنه بالكلام الأجـوف من عينة نحـن أصدقـاء ولـم أفكـر فيك إلا كأخ وهكـذا حتى ارتاح بعض الشـيء ثم نهـض منصرفًـا بعـد أن كرر على مسـامعي ألا أخبـر «إبراهيـم» بما حدث، غادرت الفندق بعده وجلست على أقرب كافيه بعد أن طلبت من «إبراهيم» الحضور بأسـرع مـا يمكن. الغريـب أن توقعي بـأن يكلمنـي «إبراهيم» في نفـس الموضوع قـد حدث، كانت المفاجـأة قد غادرتني فضحكت بشـدة،

سألني فأخبرته بطلب «فريد» وباختيارهما السيئ لنفس التوقيت، لم ينتظر «إبراهيم» رأيي في الموافقة من عدمه وطلب برجاء ألا أخبر «فريد»، ازداد ضحكي وأخرجت محمولي وحكيت لـ «فريد» ما حدث وسمعت ضحكته عالية في الجانب الآخر، وعندما تحولت ضحكتي إلى ضحكة هيستيرية ضحك «إبراهيم» أيضًا طويلًا، وبهذا التصرف تخلصت مؤقتًا من أن أبدو دائمًا أمامهما هدفًا مكشوفًا في انتظار رشق سكينهما، وإن لم يوقف ذلك رذالتهما ووقاحتهما عندما يدخل شخص جديد إلى دائرتنا عن طريقي، فلا يتوقفان حتى أزجرهما من جديد.

ابتعدت السحب الملبدة وولت الأدبار، وعزلتي هنا راقتني حتى ما بعد الغداء، تفحصت محمولي الصامت ولا يزال رمز الرسالة غير المستلمة معلقًا، هل أغلق هاتفه ليومين بحيث لا يستقبل رسائلي؟ لا أعتقد أنه قادر على فعلها، بيننا صراع خفي لم تعلن تفاصيله بعد، وهي رسالة عادية جدًّا تحمل له دعوة بحضور العشاء في منزلي بمناسبة انتهاء معرضي، رسالة تقريرية أرسلتها للأصدقاء المقربين، وكانت «بسمة» قد عملت «إيفنت» للمعرض ودعته ضمنيًّا لأنه ضمن قائمة أصدقائي، ونشرت على التوالي أغلب الصور المعروضة طيلة أيام المعرض العشرة، لكنه لم يعلق أو يعمل «لايك»، وتوقعت حضوره حفل الافتتاح ولم يأتِ حتى في الأيام التالية، وفضولي قادني لفحص كل الكروت الشخصية التي ناولتها لي مديرة الجاليري بعد أن نزعتها من باقات الورد ولم أجد كارتًا له، ودهشت من تصرفه وهذا ما دفعني لدعوته إلى حفلتي، لكن محموله ما عاد يستقبل شيئًا مني! هل استخدم إحدى الخصائص وفلتر مكالماتي؟

وهل ذلك يمكنه من عدم استقبال رسائلي؟ ربما يجب أن أسأل «بسمة» الخبيرة بالتكنولوجيا الجديدة في عالم الاتصالات، لا إلا «بسمة» فهي خفيفة العقل وقد تورطني.. لماذا أبدو منشغلة تمامًا بهذا الأمر؟ ألأنه العازب الثالث الذي يدور في فلكي؟ لكن هذا الأمر مستبعد تمامًا على الأقل من جهتي، فهو يكبرني بجيل على الأقل.. صحيح أنه كلما مضى من عمري يوم شعرت بأن الاختيارات بدأت تضيق حتى بت أخشى أن تأتي اللحظة التي يكون فيها أفضل الخيارات، إلا أني مستمتعة بوحدتي وعزلتي وحريتي غير المنقوصة ولن أجلب بنفسي كومة من المتاعب اسمها رجل، لكني أفرح أحيانًا بتلك اللحظات التي أكون فيها محور اهتمام بعض الذكور الذين قد ترغب فيهم كثيرات، لكن ما سبب غيبته الطويلة؟ أنا بالفعل لا أتذكر السبب، ربما أكون قد ضايقته أو قلصت فرصه في التعبير عن نفسه، ربما أهملته ولم أرد على بعض مكالماته، ربما تكفل بتلك المهمة «فريد» و«إبراهيم» أو «بسمة» في أثناء مزاحهما معه، كل هذا كان يحدث لكنه كان يغيب بعض الأيام ثم يعود، لم أعتد الاتصال به خصيصًا في الأيام التي تلي امتعاضه مني أو ضيقه من شيء حدث بيننا أو من أصدقائي، هو من القلائل الذين عرفتهم بعد وفاة «تميم»، عرفته أثناء إحدى معايناتي لفيلا قديمة شبه مهدمة كنا بصدد تصوير بعض مشاهد فيلم سينمائي قصير فيها بصفته المهندس المرمم، استأذنته أن أصور الفيللا حتى أعرضها على طاقم الفيلم وإن أعجبتهم صورنا فيها بعض المشاهد ثم تركناه ليكمل عمله، قال ببساطة إنه سيتلكأ في العمل حتى نقرر حاجتنا إليها من عدمه، وأعطاني رقم هاتف صاحب الفيلا للتفاهم معه عقب موافقة المنتج ورقمه إن شرعت في

التصويـر، وقد كان وصورنا بعض لقطات ذلك الفيلم في تلك الفيلا، وكان متابعًا لنا أغلب أيام التصوير الأربعة صباحًا ومساءً، بمجرد أن تخرج كلمة «استوب» مـن «إبراهيم» أجده يلاحقني بسـؤال، كنت أجيبه فـي البداية ثم بـدأ «إبراهيـم» يضايقه، وكلما وجده بجواري أقبل علينـا وادَّعى أنه يريدني بخصـوص الفيلم وانصـرف دون أن يعيره نظـرة، وكان خجله وارتباكه بعد انصـراف «إبراهيـم» يجعلني أرفـق به وأتصنـع الاهتمام لمـا يقوله، وكنت أوبـخ «إبراهيم» على تصرفاته لكن بلا جـدوى، فقد جعله هدفًا، وكنت في اليـوم الثاني قد ضقت جدًّا من ملاحقاته التي لفتت أنظار طاقم العمل إلينا، فأظهـرت له جانبًـا آخر مني جعلـه مرتبكًا وخائفًا وفي أشـد الحـرج، فقبع بعيدًا بجوار حارس الفيلا يراقب عماله في الجهة الأخرى من الفيلا ويولي ظهره لنا، وبعد قليل لمحته يخرج من البوابة متسـللًا، وفي اليوم التالي كما توقعت لم يأتِ وتبينت قدر حدتي بالأمس فتضايقت من نفسـي، واعتقدت أنـه سـيأتي في منتصـف أو آخر اليوم، لأن بعـض عماله الذيـن يعملون في خلفيـة الفيلا كانوا يعملـون وكان بعضهم يتلصص علينـا ونحن نصور ولـم يحـدث ذلـك في وجـوده، وفي فتـرة الراحة قبيـل الغروب لفـت نظري أن العمـال يتأهبـون للرحيل وأدهشـني ذلك لأننـا كنا نغادر الموقـع ليلًا وهم مـا زالوا يشـتغلون، ذهبت إلى الحارس وسـألته عن الباشـمهندس «أحمد الضـوي» بحجـة أني أرغب في تصوير الجزء الخلفـي من الفيلا وكان ذلك خـارج الاتفاق، أخبرني بأن الباشـمهندس مريض وقد أعطـى عماله إجازة حتـى يشـفى، افتعلت الضيق من هـذه العطلة التي سـتكلفنا الكثيـر فاقترح الحارس أن أهاتفه لكني فضلت أن رئيس العمال هو الذي يكلمه فاستدعاه

لي الحـارس، وكما توقعت اتصل رئيس العمال بـه وجعلني أكلمه، كلمني بصـوت خافـت مفتعـل وحدثته بصـوت محايد عـن مشـكلتي فطلب مني مناولـة المحمول لرئيـس العمال ليأمره بالتعاون معي، قلت له مباشـرة: «يا باشمهندس بكرة آخر يوم في الفيلم ولازم تحضر على الأقل تستلم الفيلا»، سـكت قليلًا ثم عاد صوته قويًّا مشـربًا بفرحة يخبرني بأنه سـيكون موجودًا مـن الصباح الباكـر ويطلب مني برقة مناولة المحمول لمسـاعده كي يطلب منه إعادة العمال إلى العمل.

فـي اليوم التالي هرع يسـتقبلني بمجرد حضوري متسـابقًا مع «إبراهيم» المخرج لسـوء الحظ، وسـألني ببراءة عن المكان الذي سأصوره في خلفية الفيلا ليطلب من عماله تهيئته، كان «إبراهيم» فاغرًا فاه كالأبله بينما تداركت الأمـر وقلت لـ «الضوي» إني اسـتبعدت هذه الفكرة لكـن بعد نهاية تصوير الفيلم من الممكن أن نأخذ صورًا تذكارية في جميع أرجاء الفيلا، فرح جدًّا «الضوي» بما قلته وتضايق «إبراهيم» وحاول اسـتفزاز «أحمد الضوي» في ذلـك اليوم الأخير لكني تدخلت ووبخته بشـدة، ومـن لحظتها وهناك عدم عمـار بينهما، وفيما بعد عندما دعوت «الضـوي» لحضور العرض الخاص للفيلـم كما وعدتـه، احتكَّ به «فريد» تضامنًا مـع «إبراهيم» ولـم أتغاضَ عن هـذا، واعتذر له «فريد» لكنهما لـم يقرِّبـاه منهما إلا تزلفًا في وجودي، وهذا ما جعلني أفرضه كثيرًا على شلتنا، ومن يومها صار لصيقًا بي، عمر صداقتنا الآن يقترب من عامين وعدة أشهر، لم يصارحني بمشاعره إنما لمح إلى ذلك بأفعـال كانت تثير ضحك صديقاتـي المقربات، ليس في حضوره طبعًا، كن يفسـرن معاملته الراقية لي وحرصه على عـدم إغضابي واهتمامه المبالغ بي

بتفسيرات تزيد رغبتي في إيذائه نفسيًّا وكنت أفعل ذلك أحيانًا، وكلما تندرن على تصرف منه ازداد حنقي وغضبي فأقاطعه، ثم أختلي بنفسي فألتمس له العذر وهكذا، بعد تعرفه عليَّ بأشهر قليلة عرف بيوم ميلادي من حسابي بالفيس بوك، وفي الليلة ذاتها عندما التقى عقرب الثواني بالدقائق تجاه الثانية عشرة بالضبط تزامن خروج عصفور ساعة الحائط مع رنة محمولي، كان هو المتصل الأول لتهنئتي، شكرته بأغبى صوت في التاريخ، وادعيت نومي وأنا أغلق الخط على اعتذاره، وفي الصباح الباكر أيقظني رنين جرس الباب المتواصل وأنا أستحم، فصرخت في القادم أن ينتظر قليلًا حتى أستقبله وأنا ألعن سهوي عن فصل الجرس كالعادة، ولبست على عجالة لأجد باقة من القرنفل الأحمر تنتظرني بفتنةٍ في يد عامل التوصيل، عندما دخلت بها وجدت عليها كارت «أحمد الضوي»، أسرعت بإحضار مقص الأظافر وقطعته إلى مئات القطع، ولم أجرؤ على فعل ذلك في الزهور، فيما بعد اكتشفت أني جالسة وسط بقع حمراء كمريض الحصبة الذي تمكن منه المرض، بالكاد أخرجت طاقتي السلبية ثم نظرت تجاهها وابتسمت وقررت تجاهله تمامًا.

كان ينظر لي باندهاش شديد وأنا أوبخه على المكالمة وعلى الزهور، ثم قلب شفتيه واعتذر.. ياه علاقتنا قائمة على جسر كبير من الاعتذارات، هذا هو الذي يدهشني غيابه الآن بعد أن كان يدهشني وجوده في كل الأماكن التي أتردد عليها..

أحمد الضوي

ضايقتني «جيهان» مرة فابتعدت عنها ثم صرت في علاقة مع «ريم»، وها هي «ريم» منشغلة بابنتها في نفس الوقت الذي أنا لست في وفاق فيه مع «جيهان» لأسباب متعددة، ولن أعود إلى صحبتها وعالمها الذي أنا دخيل عليه وأصدقائها الذين لا يتوانون في تذكيري بذلك كأني عبء ثقيل على كاهلهم، و«عماد» على أرجوحة بين عمله و«كارولين»، والشتاء قد اشتد فوجدتها فرصة لزيارة أبي القابع هناك في بلدتنا أدفو، وقد أخبرت «ريم» و«عماد» بقرار السفر كأني أقدم تقريرًا إلى رؤسائي، قلت لـ «ريم» إني في حاجة لتغيير الجو والاطمئنان على أبي، وابتلعت سخريتها من فكرة التنزه بدونها، وأبلغت «عماد» وأنهيت المكالمة عندما استطرد في الخدمات المخفضة التي يمكن أن يقدمها لي لو انتظرت قليلًا حتى يتمكن من أخذ إجازة لبضعة أيام يصاحبني فيها.

كانت آخر زيارة لي إلى أبي منذ بضعة أشهر ولم أمكث معه غير ثلاثة أيام، وكان أبي قد بدا مختلفًا كأن المدة التي غبتها عنه جعلته فجأة طاعنًا في السن، وكانت خطواته قد تباطأت وتباعدت بينما عناده تزايد وهو يرفض مساعدتي له في السير لكن بصوت أقل صخبًا، وبدا زاهدًا أكثر في الحياة، لكنه أوصاني بشدة على أبناء عمي الذين يرعون مصالحه الزراعية رغم أنهم الأكبر سنًّا وطلب مني بإلحاح ألا أقطع معهم الأواصر، وظهر الرضاء على

وجهـه جليًّا عندمـا صحبته إلى دوارهم وتعشـيت معهم وبتنـا عندهم تلك الليلـة، وعندما غادرت البلدة في السـفرة الأخيـرة، قلقت على صحته رغم ثقتـي في صمـوده وفي قدرته علـى الحفاظ على أمانـه الداخلي وصفو باله بعكس أمي التي أودت بها سريعًا رقتها وحزنها الشديد على خالي «حسام»، ولم تنقطع الاتصالات الأسـبوعية مع أولاد عمي للاطمئنان على أبي الذي كان لا يرد على المكالمات بعد أن صار ناسكًا قوامًا متعبدًا بمناسبة وصوله السـبعين، وهجـر الخمر نهائيًا وصارت السـبحة لا تفـارق يده والمصحف على حجره مفتوحًا على كبار السـور، ولـم أندهش لأني عاصرت تحولات أبي على مدار عقودي التي تعدت الأربعة.

تمكنـت من الحصـول على كابينة نوم بالقطار بفضـل اتصال هاتفي من «عمـاد» لناظر المحطة، وقد فضلت القطار لحاجتي إلى خلوة وقد حصلت عليها بعد إغلاق المحمول، ولسبب ثانٍ أني كرهت السفر بالطيران للأقصر أو أسـوان عقب آخـر مرة حملت الطائرة عائلتي سـويًّا إلـى هناك على متن طائـرة بوينـج صغيرة، أنـا وأبي وأمي فـي صالونها الضيق وخالي «حسـام» يرقد في بطنها بداخل صندوق جنائزي. وبمناسـبة هذا التذكر القاسي هناك سؤال لم يمكني ضيق الوقت من طرحه في المرة الفائتة على أبي لكني مصر علـى أن أسـأله هذه المرة: «أيـن - بعد عمر طويل - ترغب فـي أن تُدفن يا أبي؟ في المدفن الذي اشـتريته بالقاهرة التي أحببتها وكنت تريد ألا تفارقها حيًّـا أو ميتًا؟ أم في مسـقط رأسـك بعيدًا عـن مثوى أمي التـي فضَّلت رفقة خالي عن رفقتك؟»

لو كانا معًا قبل أن يتفرقا وطلبت منهما أن يحسـما تخبطي بين «جيهان» و«ريـم»، مـن المؤكـد أن والـدي كان سـينحاز بشـدة لـ «ريـم» ويطالبني بالارتبـاط بها، فهي النموذج المثالي للنسـاء اللواتـي كان يطاردهن بالغزل دون أن يأبـه لـي وهـو يجرجرنـي مـن يدي وأنـا صغيـر، وفيما بعـد عندما أصبحـت شـابًّا وبـات يخـاف عليَّ مـن صحبة خالـي التي قـد تورطني في السياسـة، كان أيضًا لا يتحرج من معاكسـتهن وسبهن بصوت خفيض إذا ما استنكرن معاكسته، نموذج أبي النسـائي أنا متورط فيه تمامًا، ويلفتن نظري بقامتهن الطويلة بالنسـبة للنسـاء وبنيتهن الجيدة وبمفاتنهن المثيرة والبشرة البيضـاء والشـعر الأسـود الطويل، وهو نمـوذج تحقق بزواجـي بـ«جليلة» التي ما إن رآها أبي حتى شـدَّ على يدي بودٍّ بينما عيناه تمسحان جسدها كله كشاشـة ماكينة التصوير، ثم ابتسم راضيًا معلنًا موافقته، بينما أمي التي تأخذ الجانـب المعاكس لأبي على الدوام، لم تُبدِ ارتياحًا لـ «جليلة» من أول لقاء وكنت على يقين من ذلك، فأمي رغم أنها صعيدية بيضاء من عائلة اشتهرت بـأن أصولهـا مـن الأتراك، لـذا لُقبـوا بالتركي، كانـت تحـب الخمراويات والسـمراوات مـن ذوي الأصول الجنوبيـة، وتعامل البيضـاوات بعداء غير ظاهر لكن يمكن ملاحظته بسـهولة، وقد عانيت منه لأني اكتسبت لونها مع طول قامة أبي وقوة بنيته.

تعرفت بـ«جليلة» في شركة المقاولات الاستثمارية التي عملت بها بعد تخرجي مهندسًـا معماريًّا، وكانت من خريجات كلية التجارة وتعمل مديرة مكتـب رئيس مجلس إدارة الشـركة، وكانت دائمـة الحركة في الطابق الذي يضم قسمنا وقسم الشئون القانونية وجناح رئيس مجلس الإدارة، وكان كل مَن بالطابق يخشـونها وعندما يسـمعون دبيب قدميها يختفون من الطرقات

كمَن مستهم عصا سحرية، اعتقادًا منهم بأنها قد تشي بهم وبتسكعهم فيطلب منهم الرئيس بيانات أو «بِلانات» ويتهمهم بالتقصير ثم يتخلص منهم، ولم أكن من هؤلاء، ليس لشجاعة مني، فقد كانت أحداث زلزال 1992 قد هزت قناعاتي التي غرسها خالي «حسام» بداخلي عن أهمية المعماري الخلاق، عندما اهتزت ثقتي بالأرض الشيء الثابت اليقيني اهتزت ثقتي بكل الموجودات، وكنت في عامي الأخير بكلية الهندسة مفعمًا بالطموح والأحلام، ثم ترصدني الزلزال فأطاح بكل ما خططت له، أصبح حالنا في البيت كحال كل مصر منقسمًا إلى طائفتين؛ في أثناء التوابع كانت أمي - غير آبهة - تجلس القرفصاء في الصالة وهي تضع على رأسها الإيشارب الذي تصلي به ثم ترتل القرآن، بينما أبي بالداخل يسكر خفية أو يعلو شخيره ويتزايد وأنا طائر على السلم لا تكاد قدمي تلمسه من هول الرعب، وخالي «حسام» في شقته يقرأ كتبه ولا يكاد يشعر بما يدور حوله، كنت لحظة حدوثه في البلكون الذي حرمتني أمي منه وأنا على أعتاب المراهقة حتى لا أتورط في علاقات مع الجيران، ولم يعترض أبي على ذلك بينما حرر لي خالي هذه البقعة بمجرد دخولي كلية الهندسة، كان الوقت في منتصف النهار وسمعت قعقعات مكتومة ثم تحركت المنازل التي تجاورنا ومادت بي الأرض، أما حديقة القصر التي في مجال بصري فقد نفضت سجادتها الخضراء المتنزهين ففروا هلعًا، ولفترة طويلة ظل الخوف يلازمني حتى اقترح خالي عرضي على طبيب نفسي فغضب منه أبي بشدة وحدثت أزمة بين والدي بسبب هذا العرض (لأن خالي كان من معتادي الذهاب إليهم اختيارًا وجبرًا)، ورغم ذلك بذل خالي جهدًا كبيرًا نفسيًا كي يخلصني من فوبيا الزلزال، خاصة عندما بدأت أتعقب كل شروخ البيت متوهمًا أنها من

تأثيره وأنها علامات على أنه سيباغتنا وينهدم فوق رؤوسنا، لم يفلح أبي في إقناعي بأنها شروخ قديمة أو جديدة غير مؤثرة، وكانت أمي تسمع هلاوسي وهي تقلب شفتيها كأني بهذا الهلع صرت غير منتمٍ لها، خالي «حسام» تفانى في طمأنتي هندسيًّا بأن المنازل المبنية بالحوائط الحاملة كبيتنا هي الأقدر على البقاء، ولأنه معماري وأقل مني درجة علمية لم تقنعني شروحه فاضطر إلى إحضار مهندس إنشائي من زملائه فحص كل حجر في البيت وأدخله والدي في أغلب الشقق وصرح بعد الفحص بأن منزلنا هذا قادر على البقاء لمائة عام أخرى، وأراحني كلام هذا المهندس ودقة فحصه ويقينه وثقته بنفسه وندمت من داخلي أني لم أدخل قسم الهندسة المدنية ودخلت القسم المعماري، وزرعت من تلك اللحظة بداخلي رغبتي في تغيير الـ «كارير» وسعيت لها وحققتها «جليلة» لي في النهاية.

لم ترهبني «جليلة» ولا خفت من أن ينهي صاحب الشركة عملي، فقد كنت أؤديه بروتينية لأني حديث التخرج ولا يسمح لي كبار المهندسين بالابتكار إنما بتنفيذ ما يبدعونه، وكنت أتحين الفرص للنزول إلى المواقع ومراقبة الإنشاءات، وكان ذلك صعبًا فنحن ننزل بناءً على مأموريات محددة الوقت والمهمة، لذا كنت من الزهق والملل كثيرًا ما أخطر في طرقة الطابق وأتسكع في البوفيه وأزور غرفة الشئون القانونية التي صرت صديقًا لبعض أفرادها، وبدوت بالنسبة لموظفي الطابق كأني أغرد خارج السرب، وفي نصف متر من هذا الطابق استوقفتني «جليلة» ذات مرة وسألتني بخبث هل أنا ضيف أبحث عن قسم معين بالشركة؟ نظرت إليها باستنكار وقلت لها ببجاحة: «إنتي مالك؟»، ثم دخلت غرفتنا، وخلفي دخلت «جليلة» وكنت أهم بالجلوس فارتبك كل مَن بالمكتب لدرجة أن بعضهم همَّ بالنهوض احترامًا

لها! وبغضب محتقن توجَّهت إلى رئيس القسم واستأذنته في اللحاق بها، بهدوءٍ شديدٍ رتبت أوراقي واطمأننت إلى وجود عدتي الهندسية وأشعلت سيجارة في انتظار مواجهة كبرى مع أحد خدَّام صاحب العمل أستقيل بعدها، وعاد رئيس القسم بوجهٍ مكفهر ولم يرد على أسئلة الزملاء عن سبب كدره فسكتوا جميعًا، ثم بدأ يرمقني بحيرة وأخيرًا طلب مني الجلوس بجواره واستهل الكلام بالثناء على عملي ثم استنكار سلوكي مع الآنسة ولم يهتم بتبريراتي إنما طلب مني أن أعتذر لها لأنها عملت خاطرًا له ولم تصعِّد الموضوع، نهضت من جواره وأنا أبلغه باستحالة اعتذاري ولتفعل ما تريد، لكنها لم تفعل شيئًا ومات الموضوع، وتقابلنا بعد فترة في الطرقة نفسها لكنها خفضت رأسها وهي تمرق بجواري كسفينة تخفض شراعها للريح، وقد ملأني هذا زهوًا، وأشعرني في الوقت ذاته بعار تجاوزي معها، وفي المرة التالية على البلاطات الجرانيتية ذاتها وقفت أمامها وحلت بينها وبين مشوارها، وكادت تصطدم بي وتغير وجهتها لكني أدركتها بابتسامة وأخبرتها بأني لو كنت ذكرت لها اسمي ومهنتي المرة الفائتة كانت ستنساني بسهولة لكنني تعمَّدت ما حدث حتى لا تنساني، كانت ابتسامتي تتسع بقدر اتساع عينيها ولم تقوَ على الكلام ونسيت وجهتها لأنها تراجعت بسرعة واستدارت تجاه مكتبها كفتاة في أول مراهقتها، وكنت على يقين من أني لن أتعرض للرفت أو الفصل بل للوصل؛ وقد كان.

أول لقاء حدث بصعوبة وبعد إلحاح، لكن انفرطت سبحتها بعد ذلك وبدأت تطلب الخروج دوريًّا، وكانت تتصل بي كثيرًا لتستفسر مني عن مسائل فنية بدعوى أنها تقدم تقارير إلى رئيس مجلس الإدارة ولا تفهم

الألغاز واللوغريتمات التي بها وتصارحني بأنها تريد أن تبدو أمامه ذكية لو حدث وسألها عن تفصيلة ما، ثم تطورت علاقتنا وصرت أشغلها وتشغلني وعندما حادثتها بشأن الارتباط وافقت فورًا كأن وشاية وصلتها بأني أتلاعب بها، وكانت فتاة متميزة ومن عائلة متوسطة في مثل عمري ولم يسبق لها الزواج، وعندما علمت أمي بشأنها أبدت امتعاضًا لا أدري سببه وقالت بفتور: «لسه بدري يا بني»، أبي لف بي ليلتها شوارع وسط البلد ثم اختار الجلوس في مقهى يقدم المشروبات الساخنة والبيرة، وعقب تجرعه زجاجتين شرع في الضحك فجأة بصوت مكتوم وهو يضع قبضة يده أمامه لتمنعه من التجشؤ وتخفض صوت قهقهاته، ثم تراخت قبضته وأشار لي بالاقتراب منه وكاد رأسانا يتصادمان ورائحة الكحول والترمس المبلول الذي على وشك العطن تخنقني: «أمك دي اتجننت خالص.. قالتلي إزاي أحمد عايز يتجوز قبل حسام.. بنت المجنونة فاكرة إن حسام ابنها البكر وانت لو اتجوزت هيبور.. ناسية إن حسام أكبر منك بـ15 سنة وهو اللي مش عايز يتجوز ولا يتأندل.. السياسة لحست مخه»، قاطعته بدهشة: «هي قالتلك؟!»، أومأ برأسه ثم قال بحسم: «أنا بهدلتها لحد ما وافقت تروح معانا نخطبلك.. حدد يا بني اليوم وهنروح معاك»، قبلت يده وأنا أمنعه من طلب زجاجة أخرى وانصرفنا وأنا مبتهج.

في اليوم التالي وجدت أمي تسعى لاسترضائي وهي تسألني بابتسامة عن اسمها وحين قلت: «جليلة»، اندهشت وظلت تكرر الاسم كأنها تستحلبه وانفرجت أساريرها وهي تقول: «اسم مليح قوي»، وعندما علمت

أن أصولها من طنطا، تغيرت بعض الشيء دون تعليق، وبعد أيام تزينت وذهبت معنا لخطبة «جليلة»؛ التي ما إن رآها والدي حتى وافق على كل طلبات أهلها دون أن يلتفت لي كما كان اتفاقنا قبيل الدخول، وعندما رأت أمي بياضها الشاهق وعملقتها ثبتت نظراتها عليها بضع دقائق ولم تتكلم، وفي بيتنا لم تزد على قول: «مبروك»، ثم بدلت ملابسها ورجعت تقاطع ثناء أبي على اختياري وحسده لي الذي لم يستطع كبح جماحه، وهي تقول بصوت لم تستطع لجم حدته: «مش كان أحسن لو كنا خلينا الخطبة سنتين بدل سنة عشان تكون عرفتها كويس وقدرت تجهز كل حاجتك»، حاولت أن أبدو هادئًا وأنا أفهمها بلطفٍ مدى معرفتي بها، فهي زميلتي في الشركة كما أننا جاهزان تمامًا للزفاف، وعندما أيدني أبي طارت من أمامنا منطلقة إلى غرفتها، غاب خالي «حسام» عن قراءة الفاتحة لوجوده في مأمورية عمل في شمال سيناء ورفضه أن أؤجل الخطوبة لحين عودته، ووعدني بأنه سيأخذ إجازة أسبوعًا كاملًا ليكون بجواري في تلك الأيام الصعبة، وكانت صعبة فعلًا على الصعيدين العائلي والعملي، فالفتاة التي كانت مثار إعجاب أغلب العاملين بالشركة إداريين ومهندسين، كل منهم يرى جانبًا منها يتكلم عنه بشوقٍ ثم ينظر لي بحسد، هذه الفتاة الجميلة الصارمة المهذبة والأنيقة الذكية الطموحة، كلَّت عين أمي عن رؤية محاسنها وظلت تحاول إبعاد القطبين المتجاذبين بشتى الطرق، وكانت تنصحني بنصائح نتائجها كوارث حقيقية من عينة: «وريلها العين الحمرا.. ما تخليهاش ترفع صوتها عليك.. ماتفضلش كل شوية داخل خارج عليهم في البيت عشان مايتجرأوش عليك ويركبوك»، وحتى عندما زرناهم ومعنا خالي «حسام» الذي بعد انصرافنا تكلم عن «جليلة» بثناء، كانت أمي تحدق فيه بنظرة

المدرِّسة التي تستمع إلى تلميذ يختلق الحكايات، وعقب كل زيارة من «جليلة» لبيتنا كانت أمي تنتقد شيئًا ما في ملابسها أو طريقة بلعها للطعام أو نبرة صوتها أو ادعائها الشبع، وكلما سمع أبي شكواي من أمي كان يبتسم ويحرضني على الإسراع بالزفاف قبل المدة المحددة حتى لا تتمكن أمي من إفساد الزيجة، فعلت ذلك فعلًا وساعدني والد «جليلة» على حجز مكان الفرح بأحد نوادي القوات المسلحة بحكم أنه كان ضابطًا متقاعدًا، وفعلها معي خالي مرة أخرى رغم علمه بموعد الزفاف مسبقًا واعتذر عن عدم الحضور وهو يريني تذكرة القطار مدعيًا أن الشغل حجزها له لمعالجة مشكلة كبيرة في موقع شمال سيناء، وكان ذلك في صبيحة الزفاف وكنت مشتبكًا مع أمي في الليلة السابقة لأن دخلتنا ستكون في شرم الشيخ بعد أن تكرم رئيس مجلس إدارة شركتنا ومنحنا إقامة شاملة لمدة عشرة أيام بأهم فنادقها، أمي تضايقت لأنه لن يتيسر لها زيارتي في الصباحية كعادة أبناء الصعيد، وحاولت بشتى الطرق جعلي أؤجل السفر وأدخل بـ «جليلة» في القاهرة، وكنت عنيدًا جدًّا ورفضت وسط دهشة أبي من حزمي، فقد تسلمت هدية من «جليلة» قبل الزفاف بأسبوع تلزمني بالطيران مباشرة إلى شرم الشيخ، وصحوت في اليوم المشهود على اعتذار خالي ووجوم أمي، ورغم انشغالي بترتيبات هذا اليوم إلا أني تخوفت من أن تفاجئني أمي وتعتذر في اللحظات الأخيرة تحت أي ادعاء، وشاركت أبي مخاوفي ففكر لحظة ثم طمأنني بصوت قلق، وفعلًا أحضرها معه إلى الحفل وجلسا مع بعض أصدقائه وزوجاتهم على منضدة في آخر القاعة بجوار عدة مناضد قليلة تضم الجيران القلائل الذين دعوناهم، وقد تضايقت من موقعهم هذا وتصورت أن عائلة «جليلة» هي التي نفتهم إلى هناك، ولما سألتني «جليلة»

عن وجومي وأخبرتها بذلك نفت بشدة، وأشارت لوالدها وسألته بهمس أمامي فأخبرني بأن والديَّ أصرَّا على هذا المكان، وقد أيد والدي ذلك وهو يستأذنني في الانصراف قبيل الساعة المحددة للانصراف، ولم تتقدم أمي لوداعي وتقبيل العروس رغم طابور المدعوين من طرفي للمصافحة، وكان والدي لا يزال واقفًا يعلن عن أسماء مَن لا أعرفهم، ويرقب أمي بغيظٍ وهي تشير لنا بمنديلها الحريري الأسود المتناسق مع لون ردائها، واختفت أمي وسط الجارات وداعبت والدي في أذنه حتى لا تنشب خناقة في بيتنا لهذا السبب.

وبعدما عدنا من شهر العسل ودعاني أبي إلى سهرة للاطمئنان على أدائي كما أخبرني باسمًا ورأسه يترنح، وأضاف لي معلومات مؤلمة منها أن خالي لم تشغله المأمورية عن الزفاف كما ادعى، لأنه أخبر أخته قبل الفرح بأنه من المستحيل أن يحضر فرحًا في أحد أندية العسكر، ولا يستطيع التواجد في مكان من المحتمل أن يضم مَن آذوه أو الذين لا يطيقهم ويكرههم. وقال أبي إن خالي تطوع لهذه المأمورية هربًا من الحضور؛ وإن أمي حاولت التملص كأخيها وادعت المرض وإنه هددها بالطلاق فأطاعته، قلت لأبي ببسمة مبتورة إني لا أعتقد أنها عند هذا العمر تخشى الطلاق! نظر أبي طويلًا تجاه عيني، ثم قال باستسلام: «عندك حق». ثم سألني بخبث هل عندما زارتني للمباركة مع أخيها «حسام» عقب رجوعي إلى منزلي في الجيزة أعطت زوجتي صندوقًا به بعض الأدوات المنزلية؟ نفيت بدهشة وأخبرته بأنها ناولتها هبة مالية كبيرة كنقوط وخالي «حسام» أهدانا فازة قيمة من البورسلين ولوحة زيتية، ابتسم أبي بمرارة وعقب بأنها

تزداد عندًا كلما كبرت، وأخبرني بأنها تجمع منذ سنوات طويلة مستلزمات بيتية تقدمها لأخيها «حسام» عند زواجه بحجة أنه يتيم، كالأمهات عندما تبلغ بناتهن؛ وأنه طلب منها أن تقدم لزوجتي بعضها بما أن «حسام» زهد فكرة الزواج وأنها نظرت له طويلًا ثم هزت رأسها فاعتقد أنها ستستجيب، قلت لأخفف عنه إن عائلة «جليلة» وجيرانها قاموا بالواجب وأكثر واكتظ بيتنا بالهدايا، فوعدني أبي ممازحًا بمرارة بأنه سيسكر يومًا سكرًا بيِّنًا ويكسر هذا الصندوق على دماغها، وعندما فرَّت مني بسمة استخفاف طلب مني بأسى ألا أتورط في حب امرأة لأنها ستسلب كل أسلحتي إن كنت أمتلك سلاحًا!

زواجي من «جليلة» كان بوابتي لتحقيق حلمي بأن أصير مهندسًا إنشائيًا بعد أن كسرني الزلزال، وبمجرد ما ثرثرت به مع «جليلة» في شهر العسل، إلا وتحقق عند عودتنا ووافق صاحب الشركة بسهولة على تركي القسم المعماري وعهد بي إلى مهندسي التنفيذ بمشروع حدائق الأهرام القريب من منزلنا، ودربوني بهمة ومعلمة وضمير لأن الرئيس كان يتابعهم كل فترة ويسألهم عني، وزاد راتبي بحكم أني غادرت المكتب إلى موقع، وقلَّت فترة دوام «جليلة» في العمل بمعدل ساعتين حتى تتمكن من مغادرة مقر الشركة بمدينة نصر إلى البيت لتكون في استقبالي عند العودة، ثم نشط العمل في الموقع وصرت أغادره متأخرًا وعادت «جليلة» إلى دوامها الأول، وكنت قد طلبت منها أن نؤجل الإنجاب عامين أو ثلاثًا حتى تستقر أعمالنا وأؤسس شركتي الخاصة ورفضت بإصرار، وأمام متابعة أمي للتغيرات على جسد «جليلة» أخبرتها كذبًا بأننا أجَّلنا الإنجاب لفترة، وراق هذا التأجيل لأمي

جـدًا ولمدة طويلة ظلت تنصحني بأن أعطيها حبة منع الحمل بنفسـي حتى لا تدعـي أنهـا نسـيت تناولها، ورغم دهشـتي مـن عدم رغبـة أم في وصول حفيدهـا إلا أنـي كنـت مضطرًا لسـماعها فقد كانـت محقة في أشـياء كثيرة ولا أستثني منها موضوع «جليلة»، وكانت «جليلة» تبذل كل جهدها لإسعادي وكلما حققت لي تسـهيلًا مهنيًا أحسسـت بأن المسافة بيننا تتباعد، وتحالف القـدر عليها فلم يكتب لنا الإنجاب رغم سـلامة فحوصاتنا الطبية، وجعلها ذلك في منتهى العصبية وأمَّنني مؤقتًا أمام أمي حتى لا أُتهم بالكذب، وكنت بعد فترة قليلة من الزواج قد أقمت «بارًا» في مدخل الشـقة رغم أني لم أكن سـكيرًا أيامها ورغم اعتراض «جليلة» وغضبها، وصرت أسـتضيف أبي ثم خالي بالتبادل، ونتسـامر إلى منتصف الليل، وكنت سـعيدًا بإثبات رجولتي وشدتي أمام أبي، الذي لم يجرؤ يومًا على شرب الخمر ببيتنا - في العلن - حتى في شـهر عسله كما أخبرني، والذي عاصرته يشرب بالخارج وشاركته في ذلك مرات كثيرة بعد دخولي كلية الهندسـة، ورأيته وهو يخشى الرجوع إلـى البيت بحالة السـكر البين ويظل يتجرع القهـوة حتى يفيق أو يظل يدعو بهمـس أن تنـام أمي قبلما تراه، وأذكر وأنا صغير عندما كان أبي يشـرب وأنا بصحبته كانت خطواته تتثاقل وأحس به يكاد يرفع قدميه بصعوبة، وكلما رفع إحدى قدميه لينتقل إلى الخطوة التالية كان يجرها أولًا على الأرض محدثًا صوتًا ملحوظًا، وكانت أمي تعرف من خطواته عدد الزجاجات التي شـربها وتزجـره لسـكره وأنا معه ثم تصـر ألا ينام معها في الغرفـة ويذهب لينام في غرفة المسافرين، ولا تسمح له حتى بالنوم في غرفتي على السرير الإضافي الذي كان ينام عليه خالي أحيانًا عندما كان يذاكر لي، ولا أنسـى نظرة الزهو التـي انطلقت من عين أبي وهو يرى البار للمـرة الأولى ويتلمس زجاجاته،

وتقهقُـر أمـي في نفـس اللحظة بنظـرة اسـتنكار مريعة وجهتها للأسـف في الاتجاه الخطأ.. اتجاه «جليلة» التي ارتبكت وانسـحبت غاضبة وأنا أحاول إفهـام أمي بأنني صاحـب الاقتراح لكن هيهـات، قربني هذا البـار أيضًا من خالي «حسام» وصرت أكلمه في موضوعات شائكة كنت أتحرج من الكلام معه بخصوصها، خاصة موضوع عزوبيته الذي حيرني كثيرًا، لمعرفتي بعدم عدائـه للمرأة، وقد رأيته وجالسـته وهو بصحبة نسـاء قريبـات منه جدًّا إلى درجة اعتقادي بقرب ارتباطه بإحداهن ثم سرعان ما تختفي! وقد عنفني مرة لأني أخبرت أمي بتقاربه مع فتاة جميلة وتعامله بحميمية وقد قصدت بذلك إدخـال الفرحة إلى قلب أمي وأنا أطلب دعواتها في أيام الامتحانات فتدعو لي ولخالي بالزواج في الوقت نفسـه، وعندما فشل مشروعه وتضايقت أمي لذلـك، هددني بأنه لن يصحبني طالما أنا لا أحافظ على الأسـرار والتزمت بذلـك بعدها، لكنه في جلسـات البار أيضًا لم يشـفِ غليلي وبرَّر الانفصال المتعـدد بتبريـرات عجيبة من عينـة «أصلها كانت مدعيـة»، أو: «لها ميول برجوازية»، أو: «تخيل اكتشفت ان ليها قريب من الدرجة الأولى في الحزب الوطنـي»، أو: «أنا مش مصدق البنت اللـي هرتني بكلامها عن كفاح الطبقة العاملة بتدور على واسـطة عشان أخوها الصغير يدخل كلية الشرطة»، حتى وصـل بـه الأمر أنه أخبرنـي بأنه ترك إحداهن لأنها لا تشـد السـيفون عقب خروجهـا من الحمام! وكنت غير قادر على مجادلته حتى بعد أن اسـتقويت لأنه كان ماركسيًّا حقيقيًّا ولترديه النفسي؛ التي كانت نوباته تأتيه على فترات متباعـدة، وقد يمر عامان دون أن تكرره أيـة نوبة، ولا أتذكر متى بدأت هذه النوبات بالتحديد ولا سببها، فخالي نهى دراسته بمعهد «ليوناردو دافنشي» وتخـرج معماريًّا وعمل بعد تخرجه في إحدى شـركات المقاولات التابعة

للدولة وظل على قوتها حتى مات، وظهر نشاطه السياسي عقب استقراره بهذه الشركة، وكان نشاطه العملي هو الذي حماه بعض الشيء من الفصل نتيجة الملاحقات الأمنية.

وأنا في حداثة سني أثناء دراستي الإعدادية لم يلفت نظري غياب خالي لفترات طويلة عن شقته إما هاربًا ومتخفيًا أو معتقلًا رغم ارتباطي الشديد به، لأن أمي كانت تحسم الأمر بجملة واحدة كحد السيف: «خالك عنده مأموريات شغل ومش فاضيلك»، لكن في المرحلة الثانوية تنبهت إلى حقيقة ما يحدث عندما اقتحم أمن الدولة بيتنا فجرًا وقبضوا على خالي بعد أن أنهوا تفتيش شقته وسط تهور أمي وسبابها لهم ومحاولة تخليصه من بين أيديهم، وبمجرد رحيلهم بخالي صرخت أمي أيضا في وجه أبي بأنه السبب، وسكت والدي تمامًا وانسحب إلى غرفته وحيرني تمامًا هذا الاتهام، وظللت لأيام أخمن ما الذي فعله أبي حتى يتم القبض على خالي بتلك الطريقة المهينة! وعقب كل عملية قبض كانت تحدث إثارة كبيرة في حينا، وكان الجيران يتهامسون ويتلاسنون عند مرور أحد من عائلتنا، وكانوا لا يأبهون لي فلا يخفضون صوتهم وأنا أمر، ويجلدني كلامهم وهو يصلني حادًّا غليظًا متشربًا أحيانًا بالتشفي، وكانت أغلب اعتقالات خالي عقب تحريات فاشلة، أو سهل تفنيدها وكان يخرج سريعًا حتى تعوَّد أهل الحي على هذه المفاجآت، ثم أدركوا أنه من سجناء الرأي فتغيرت نظرتهم إلينا بعض الشيء، لكن عندما تمكن منه المرض النفسي، الذي أرجعته أمي إلى الاعتقال والتعذيب، أسَرَّ لي أبي بأنه سمع بعد زواجه بها أن بعض أقاربها انتهوا في مستشفى المجانين! وكنت على يقين من أن هذا ليس حقيقيًا،

وصارت لخالي نوبات عنيفة تستدعي اتصال أبي بالمستشفى الذي يتولى علاجه، فتقتحم سيارة الإسعاف الشارع ويخرج من صندوقها مجموعة من الفتية الأشداء ذوي المعاطف البيضاء، يهجمون على المنزل كرجال شرطة في سبيلهم للقبض على سفاح، ثم ينزلون خالي وهم ممسكون به من أطرافه الأربعة كالخرقة، ويغلقون عليه باب السيارة الخلفي، وأظل لأسابيع هدفًا لأسئلة من صاحب محل البقالة والجزار والحلاق والجيران وعمال السمكرة، كلهم يبدأون بالاطمئنان على خالي وينتهون بتقليب شفاههم إشفاقًا أو ادعاءً.

وبمجرد دخولي شقتنا كان تماسكي يتهاوى، وأهرع إلى غرفتي أكاد أبكي ثم تلاحقني أمي وعندما تعرف سبب انهياري، كانت ترفع يدها التي كانت منذ بضع ثوانٍ تربت بها ظهري ثم تخرج من غرفتي دون أن تنطق، وبعد فترة أسمع صدى خطواتها الرتيبة وهي تخطو في طريقها إلى المطبخ ثم تعود ويحل الصمت، وعندما يعود أبي ويجد صينية الطعام فوق المنضدة الموضوعة في الصالة يفهم أن هناك غضبًا ما ويظل يخبط على باب غرفتها فلا تفتح، كان في تلك اللحظة يحول اتجاهه إلى غرفتي ويهزني هزًّا حتى أقوم، وينظر إلى عيني الحمراوين ويأمرني بأن أغسل وجهي ثم أرتدي ملابسي لأننا سنتعشى في الخارج، ويترك لي خيار المكان الذي أحب أن أذهب إليه؛ سينما أو مسرح أو التمشية في شوارع عماد الدين والجلوس على أحد مقاهيها، ثم نعود آخر الليل؛ هو إلى غرفته يتسحب حتى لا تفاجئه بموشح يفسد ليلته ويضيع أثر زجاجتي البيرة، وأنا نحو غرفتي غاضبًا من جفائها.

لكني كنت السبب في غضب خالي الضاري مني والقسم بعدم زيارتي في بيت الزوجية، وقد برَّ بقسمه حتى مات، وكان أبي قد حذرني ولم أسمع كلامه، فقد سعيت بحكم وضعي النافذ الجديد في الشركة لتعيين خالي بها حتى ينعم بأجورنا الكبيرة خلافًا لأجور القطاع العام، وخاطبت «جليلة» فسُرَّت بذلك وسألتني إن كانت هذه رغبة خالي، وعندما نفيت طلبت مني استئذانه لكني أقنعتها بأنه يثق بي وسيرحب بهذا، كذلك لرغبتي في حال موافقة مالك شركتنا ألا أطلب من خالي الاستقالة من القطاع العام ولكن أن يأخذ إجازة دون أجر لمدة عام يجددها إن أعجبه الحال، وقدمت طلبًا عن طريق «جليلة» على ورقة بيضاء فيها سيرة ذاتية موجزة عن خالي، اعتمدها رئيس مجلس الإدارة على الفور وخطَّ بيده راتبًا شهريًّا خياليًّا بالنسبة إلى خالي، وزرت عائلتي وبجيبي الموافقة، ولم أُطلع عليها أمي سرًّا ولا جهرًا وكان هذا خطئي الأكبر، فعندما قدم خالي للترحيب بي وناولتها له، قرأ بدهشة السطور الأولى ثم بدأت عروق رقبته تنتفخ كلما نزلت عيناه سطرًا تاليًا، ثم سبَّني لأول مرة أمام والدي واتهمني بالعمالة والوقوع في براثن تحالف العسكر مع الرأسماليين الجدد، وبأنهم جندوني لتلويثه، ثم راح بعدها في نوبة طويلة استلزمت الرعاية الطبية لمدة تتجاوز الأسبوعين، وللمرة الأولى أجمع الكل على تأنيبي؛ أمي في مقدمتهم وقد خاصمتني حتى شفي خالي، و«جليلة» لأني أحرجتها مع صاحب الشركة، وأبي لأني تجاهلت نصيحته.

من أفضال «جليلة» التي لا تحصى! أنها جعلتني من أوائل المهندسين الإنشائيين الذين رشحوا لتنفيذ فندق سياحي ضخم في شرم الشيخ،

وحققت الخطوة الأولى من مدرج أحلامي، وأُرسلت إلى هناك بأجر يعادل ثلاثة أمثال راتبي وبتذاكر طيران ذهابًا وإيابًا أسبوعيًّا فور انتهاء دوامي عند ظهر الخميس والعودة صباح يوم الأحد، وكان رئيس مجلس الإدارة يمر علينا مرتين في الأسبوع وبصحبته «جليلة»، وقد التزمت بذلك مدة قصيرة، ثم عدلت «جليلة» في التخطيط وقررت أن تأتي كل أسبوع إلى شرم الشيخ صباح الخميس وتظل معي ليلتين ثم تسافر في مساء يوم السبت، وتلك هي الفترة التي تباعدت فيها قليلًا عن أمي وخالي وأبي. واكتسبت خبرات ومهارات إنشائية كبيرة نظرًا لأهمية المشروع ولتوصية مالك الشركة ولأني زوج مديرة مكتبه وكاتمة أسراره، وتفانت «جليلة» في إرضائي ولو على حساب وظيفتها، فلو شكوت من إجهاد العمل تدبر لي بسرعة إجازة صغيرة نقضيها معًا في شرم أو الغردقة عبر عبَّارة تتمخطر بنا فوق مياه خليج السويس، ولما لاحظت عدم ارتياحي لحضورها الأسبوعي بالطائرة التي يستقلها مالك الشركة ومساعديه خشية من لمزات زملائي، استبدلت الطائرة بالطريق البري الذي قلَّص فترة تواجدنا معًا؛ فاقترحت أن تطلب نقلها إلى موقعي وتتخلى عن إدارة مكتب صاحب الشركة، ورفضت لأني أدركت كلفة ذلك عليها، ولأنها تعرف سعيي لاكتساب كل الخبرات الممكنة حتى أستقل بنفسي وأفتح مكتب مقاولات صغيرًا كبداية، ثم طلبت مني أن أسرع الخطى نحو الاستقلال وقالت إنها ستدعمني باستقالتها عندما أقرر ذلك، ورأت أن موقع شقتنا بالجيزة مقر مناسب للشركة واقترحت أن نؤجر مسكنًا أصغر حتى تكبر شركتنا مع إغراءات كثيرة بأنها ستجلب لي زبائن جيدين وستكوِّن دولاب العمل الذي سأحتاجه في بداية التكوين، بحكم علاقتها الجيدة بمقاولين كبار كما ستدعمني بالمال اللازم، ورغم

كل هذه العروض فقد بقيت عامًا آخر وبضعة أشهر في الموقع حتى اتخذت قرار عمل شركتي الخاصة بدون «جليلة»!

***

بدت أمي زهوقة وملولة وهي بصحبة أهل «جليلة» في نادي المدرعات الذي دخلناه ملحقين على كارنيه والدها، وكان أبي مسيطرًا على انفعالاته، وكنا في الأيام الأولى من الخطوبة لذا لم تلح أمي في الانصراف المبكر وقد اتفقنا على قضاء اليوم بكامله في النادي، وكان طابع والد «جليلة» العسكري لا يتفق مع طبيعة أبي الساخرة، وطبيعة أمي المتحفظة وغير الراغبة في ارتباطي بـ «جليلة»، لا توافق سماحة أم «جليلة» وتبسطها، لكني كنت في وادٍ آخر مع خطيبتي؛ نتمشى على التراك ونلعب التنس لبعض الوقت ونشارك في لعب الكرة الطائرة، وكان ذلك ضمن جدول اتفقت عليه معها وكانت راغبة في اللعب بالشورت القصير لكني نبهتها إلى تحفظ أمي فلم تعلّق وأحضرت معها «الترانينج سوت» وسررت لذلك، وكان ظني أن ذلك سيرضي أمي مؤقتًا، لكنها في نهاية اليوم ستبدي انتقادًا لكل شيء في النادي بمبانيه وملاعبه ورواده وانتهاءً بعائلة «جليلة»، لكنها فاجأتني بما لا يخطر على بال. إذ انتهزت فرصة انطلاق أبي لإحدى سهراته بعد أن كبّلته النزهة العائلية طويلًا، وطلبت أن تدردش معي قبيل نومها، ووضعت لي بعض شرائح البطيخ مع القهوة فقلقت، ثم قالت إن اليوم كان لطيفًا ووصفت أم «جليلة» بالطيّبة وطلبت مني أن نرد النزهة في أقرب وقت، بينما أنا أحدق في أم أخرى! ربتت ركبتي وسألتني ببراءة: «هي جليلة يا بني كانت متجوزة قبل كده؟»، بهت وقلت معترضًا: «هي لو كانت كده كنت حاخبي عليكم

يا أمي!»، همست: «تكون بتحبها يا أحمد ومش عايزنا نعترض.. المهم لو هي متطلقة مش مشكلة يا ما بنات ناس نصيبهم بيعاكسهم في الأول»، أعدت فنجال القهوة إلى المنضدة وهممت بالقيام معترضًا وأنا أقول: «من فضلك يا أمي ماتكلمينيش في الموضوع ده تاني، ويكون في علمك أنا أول واحد في حياة جليلة»، زادت ابتسامتها واتسعت نظرتها وهي تطالبني بالجلوس وتصر على مناولتي شريحة بطيخ باردة، ثم تصمت لدقائق، حدقت فيها ثم سألتها عن سبب سؤالها هذا، ادعت أنها لا تريد الاسترسال في الكلام حتى لا تضايقني لكني ألححت، غمغمت بأنها لاحظت أن حركة «جليلة» تبدو كالسيدات المتزوجات لا الآنسات؛ ولما أحست بعدم مبالاتي لكلامها عقبت بوضوح وبيأس كأنها تلقي شهادة للتاريخ بأنها راقبتها جيدًا وهي تلعب اليوم ورأت اندفاعها وراء الكرة وقفزها بقدمين متباعدين ومتنافرين فأرادت أن تستفسر!

اعتبرت ما قالته أمي بمثابة تفريغ آخر ما لديها من سهام موجهة إلى «جليلة» قبل زواجنا، وبناءً على نصيحة أبي عجلت بطلب الزواج من جليلة، وكما توقعت نلت موافقة أهلها بسرعة بينما طلبت «جليلة» أن أمهلها بعض الوقت حتى تعرف الظروف المناسبة لزواجنا من مالك الشركة، وقد استأت كثيرًا لذلك رغم أنها همست لي بأنها مجرد أيام قلائل، وعند انفرادي بنفسي احترت جدًّا خاصة وقد سألتني قبيل خطوبتنا هل أريد منها أن تتفرغ للبيت بعد الزواج وتترك العمل، فأكدت لها رغبتي في أن تعمل إلى أن يرزقنا الله بأطفال يحتاجون منها التفرغ، ورأيت ابتسامتها تنزل من وجهها لتطبع قبلة على ظهر يدي، وسمعت قسمها الهامس بأني لو شئت تفرغها لي لن تترد

لحظة واحدة في الاستقالة، كيف تجعل تمام فرحتنا مربوطًا برغبة شخص آخر حتى لو كان مالك الشركة؟

ومرت الأيام القلائل أطول من المعتاد، وظننت أن صاحب العمل هو السبب وأنه يخبئ مشروعًا جديدًا عن العاملين في خزانة «جليلة»، وأن قلقها وحرجها البالغ لكونها متأرجحة بين واجبها وحبها، ثم جلست «جليلة» معي في إحدى الكافتيريات النيلية تسمعني بعينين ثابتتين وأنا أتكلم بذهنٍ مرتب، وبالٍ صافٍ، رائقٍ، وأضع خططًا ترفيهية واقتراحات لرحلة شهر العسل، ثم كأنها تخلع جوربها الأسود الدانتيلا وتلقي به في آلة الغسيل، أخبرتني بأنها ليست عذراء، وقد حدث لها هذا في أوائل المراهقة، ثم أردفت بصوتٍ معدني أنها لمست أني رجل متفتح الذهن لذا أجّلت إخباري بهذا الموضوع مفترضة أنه لن يؤثر على علاقتنا، وعندما وجدتني صامتًا تمامًا، عقّبت بأنها تخيرني بين أن أتوقف أو أستكمل إجراءات الزواج وأنها تتقبل قراري برحابة صدر، وتعدني بأننا سنظل أصدقاءً مهما كان موقفي، سألتها عن ماهية الذي جاس حدائقها قبلي، فقاطعتني بإشارة يدٍ حاسمة وقالت إنها لن تنطق باسمه لأي كائن، وليس ذلك محبة لذلك الغادر بقدر الحفاظ على مشاعري، فلو أخبرتني أنه أحد أقاربها وتقابلنا في مناسبة ما سيكدرني ذلك وقد أتفوه بحماقة ما، ولو قالت إنه أحد زملاء الجامعة أو الأصدقاء والتقينا مصادفة سيبين على وجهي الضيق والتذمر، لذا ستظل محتفظة بالاسم داخلها بكل مراراته وآلامه ولن تطلع عليه مخلوقًا، الغريب أني كنت مستلب العقل تمامًا لحظتها ولم أُلح عليها كي تذكر الاسم واستكملت الزواج كأنها لم تقل شيئًا ذا بال، والذي أدهشني

فيما بعد ثقتها الشديدة بأني لن أتراجع، وارتعبت يومها من دقة ملاحظة أمي وقررت أن نقضي الليلة الأولى في شرم الشيخ حتى لا تتمكن من فحص الملاءات والفوط بحثًا عن بقعة الشرف التي جفَّت عند «جليلة» منذ زمن.

دام زواجي بـ«جليلة» عامًا ونصف العام دونما إنجاب، ليس لعيبٍ عضوي في أحدنا أو كلينا بناءً على جميع الفحوصات وكشوف التحاليل، ورجَّح بعض الأطباء التأخير إلى علة نفسية، وأنا ظننت أن الذي سلبها شرفها وأخذ من مفاتنها ما أخذ.. اجتثَّ من حشاها عنقود إنجابها، وكان الإنجاب مشكلة بسيطة من وجهة نظري، فقد كنت غير مهتم به في حداثة سني، لكن هذا الأمر كان يشغل بال «جليلة» جدًّا، واستهلكت طاقتها في السعي وراء إنجاحه.

ولم يصادفني مع «جليلة» ما يمكن أن يُقال عنه مشاكل الزوجية، ما عدا بعض الخلافات الصغيرة التي كنت في الغالب أتسبب فيها بتربصي لها وعدم رضائي عن تفانيها في العمل، وقد فعلت «جليلة» ما في وسعها لكي أصبح مؤهلًا لامتلاك شركة مقاولات صغيرة، وسعت لأن يتحقق ذلك بسرعة، وعندما استشعرت في بعض الأوقات تقاعصي أو فتور اهتمامي بينما هي تضع خططها للمشاركة؛ أبدت استعدادها للاستقالة وملازمة البيت لكني فضلت أن تستمر في عملها بحجة تقليل المخاطر ووعدتها بالانضمام لي في حال استقرار عملي الخاص الجديد، ولزمت «جليلة» الصمت وكابدت وجومها وقلقها وإحساسها بأن هناك قرارًا سيئًا أخبئه، وكان هذا صحيحًا، وما كنت قد ألقيته خلف ظهري عندما صارحتني بعارها عاد شبحًا يقاسمني الفراش ولا أدري هل هذا بسبب جيناتي الجنوبية أم لرغبتي في تحمل

مسئولية العمل الخاص بمفردي، وظلت «جليلة» تلح في معرفة سبب تغيري الذي لم أفلح في تخبئته فأخبرتها كذبًا بأن أمي تلاحقني برغبتها في رؤية طفل لنا قبل رحيلها، وأنها لم تعد تصبر عليّ ونجحت في ضم أبي لجبهتها؛ لم تصدقني عينا «جليلة» ولكنها منحتني ابتسامة شاحبة ورجتني أن أنهي كل شيء بيننا، وقد حدث ذلك بسرعة شديدة وسهولة غريبة، وحتى الآن يظل سبب انفصالي عن «جليلة» مشوشًا في ذهني، فلا المسائل العميقة مثل الحفاظ على الجنس البشري بأن أترك خلفي مخلوقًا تعسًا آخر كانت تشغلني، ولا تأثيرات أمي وغمزها ولمزها، ولا رغبتي في العمل بمفردي، ولا حتى وجود مَن سبقني إلى «جليلة» كان سببًا كافيًا وإن كان محتملًا، إنه شيء آخر غير ملموس ولا مرئي يقبع في داخلي وأجهله!

غير أن السلاسة والنعومة التي مرَّ بها الانفصال، جعلت الجرح أشد غورًا وغير قابل للاندمال وقد اكتشفت ذلك مؤخرًا، فرغم أنها برأتني أمام عائلتها من تهمة الغدر والنذالة، ودعمت قولي بأن الطلاق كان سعيًا وراء الإنجاب، وأننا اتفقنا على ذلك لرفضها أن تشاركها امرأة أخرى فيَّ، كذلك لم تجادلني في حقوق واستحقاقات وتقبلت ما سبق أن ساهمت به في عش الزوجية ورفضت أية إضافات، وتعاملت معي بغلظة عندما عرضت عليها أموالًا نظير خدماتها في تأسيس الشركة، ورفضت أيضًا أن أجعلها مساهمة معي بنسبة مئوية، وهذا ما أدهشني قليلًا لأني تصورت أنها تخلي حياتها مني بسهولة شديدة وضايقني ذلك، لكنها ظلت تتابعني بعد الانفصال والاستقالة وتطمئن على بدايتي وتسهم فيها بعملاء ترشحهم لشركتي أو يأتوني بتوصية منها، وفي أعماقي كنت أعتقد أني بزواجي منها قد منحتها

أكثر مما منحتني، منحتها جسرًا آمنًا تستطيع به الزواج من جديد وتقول بفخر «كنت متزوجة»، بلا خوف من عرض بوابة مفتوحة لا يعلم أحد مَن دخلها واستظل بحماها! وظننت أنها ستظل لمدة ليست قليلة رهينة حبي وفضيلتي وأنني من الممكن لاحقًا أن أراجع موقفي حين تقف شركتي على قدميها، غير أنها لاحقتني بزواج سريع من مهندس زميل في عملي السابق، ولم أجرؤ على تهنئتهما بالعرس، وعندما جاءني عميل آخر من طرفها تحينت الفرصة واتصلت أشكرها وحينها أخبرتني بحملها، وفي حدود معلوماتي الحالية لديها طفلتان على وشك الدخول إلى المدرسة، وكلما غاب عن سمعي اسمها وتبددت صورتها في صراع الحياة يفاجئني هاتف من شركتي بأن هناك عميلًا ما بتوصية من «جليلة»، أو أرى بين سطور حسابات الشركة ما يشير إلى ذلك، وهذا ما تبقى من «جليلة» بالإضافة إلى أني صرت لا أحب الارتباط بالآنسات واللواتي لم يسبق لهن الزواج، وأحوم دائمًا حول الأرامل والمطلقات، كأنها زرعت بي رغبة خفية في منافسة شخص ما على جسد تشاركنا فيه وأن أجتهد كثيرًا كي أصبح الأفضل!

***

انتهى اللَّحاد من دفن أبي وسط عويل نائحات لم أعرفهن مطلقًا، غالبيتهن من عائلة أمي التي اندسَّ أبي بين تراب بلدتهم «سلوة» التابعة لمركز «كوم أمبو» الذي كان أبي قديمًا يتابع عمال وموظفي شركة السكر مع متابعته لعمال مصنع السكر ببلدنا «أدفو».. هنا أبي رأى أمي وتقدَّم لها في التوقيت الأمثل، بعد عام من وفاة أمها وعقب انقطاع حبل صبر أبيها على العزوبية وتوهج رغبته في الزواج مرة ثانية، وكانت أمي حينها بنت

السابعة عشر وتقدم لها بعض أقاربها ورفضتهم بغلظة إما بدعوى الحداد أو لأنها وهبت نفسها لرعاية أخيها «حسام» ابن الثانية عشر في ذلك الوقت، وكانت تظن أنها بذلك تؤخر زواج الأب لكن عندما أدركت رغبته الجدية وافقت على من انصاع لشروطها، وكان أبي هو المنصاع الأوحد الذي رضي بأن يضع أخاها في معيته، وإذا وافقت إدارة الشركة على نقله إلى القاهرة كما أخبرها، يدبر لأخيها مدرسة بالقرب من السكن، ولاقت هذه الشروط ترحيبًا من أبيها تخلُّصًا من وجع الدماغ المحتمل حدوثه بين طفلته والزوجة الجديدة، ولم تكن أمي ذات بنية قوية أو طويلة، بل كانت فوق القزمية بقليل، لكنها كانت بيضاء من عائلة كلها كذلك ونسائهن كن دائمًا الاختيار الأول لأي راغب في الزواج من بلدتهم أو البلاد المجاورة، ونجح أبي في الزواج من أمي وفي مسعاه في الانتقال إلى مقر شركة السكر الرئيسي بالقاهرة.

أقف الآن بداخل مبنى مقبرة عائلة أمي، على يميني مقبرة الذكور ذات الشاهد الواحد الملطع عليه بعض قطع الرخام المسطور عليه اسم المتوفى والآية القرآنية، رنوت قليلًا إلى اسم خالي المدون: «حسام محمد التركي»، واسترجعت حياتنا المشتركة بداية من كونه أخي الأكبر وصولًا إلى لقب الخال، وتطلعت إلى المساحات الخالية في الحجر التي ستستضيف لوحة أبي بعد انتهائها، ثم تحركت قليلًا إلى اليسار ولبدت أمام الرخامة المدون عليها اسم أمي: «حسنة محمد خليل» في مقبرة الإناث، ويبدو أن تداعي أفكاري طال زمنه لأني أفقت على لكزة من ابن عمي جعلتني أجول بعيني في الواقفين فاكتشفت أني وسط بيئة عدائية بالكامل من كلا الطرفين؛ أهل

أبـي وأهـل أمي، يتصدرهم ابن العـم الكاظم غيظه بالـكاد، الذي انتحى بي وطالبني بعدم الاستجابة لأهل أمي بالبقاء لاستقبال باقي المعزيين والغداء؛ لأن الواجـب يحتـم علينـا العودة إلى أدفـو لتقبل هذا العـزاء العجيب حتى نحافـظ قليـلًا على ماء وجوهنـا، ابتلعت لمـزه وأطعته واعتـذرت بصعوبة لأهـل أمـي وركبنـا الباصـات المنتظـرة ومعنا بعضهـم، ورفضـت محاولة ابـن عمي أن يصطحبني بسـيارته بحجة مرافقة الذين تجشـموا عناء الطريق لتعزيتنا، رغبة في تحاشـي لومه وتقريعـه لوصية أبي بدفنه بجوار أمي، رغم أنـي بوغـت تمامًا وأنـا بداخل القطار وابـن عمي يبلغني بوفـاة أبي ويطلب حضـوري، وعندمـا أخبرته أنـه لا يفصلني عن البلدة أكثر من سـاعة قال إنه سـيتابع خلالهـا تحضيرات الدفـن، ووجدتـه ينتظرني بالمحطـة ويمنحني حضنـه بأريحية، ثم انتحـى بي وأخبرني بعد تردد بأنـه كان يلازم أبي عندما تعـب تعبًا شـديدًا بالأمس، وأن أبي فـي نوبة إفاقة طلب ورقـة وقلمًا ليترك وصيـة لي، ولم يكتب فـي الورقة غير طلبه بالدفن بجوار أمي بعد اسـتئذان عائلتهـا، ورفض أن يناقشـه ابن عمـي في طلبه ثم غفا ومـات، وأضاف ابن عمـي بسلاسـة مَن يقتل ابنتـه المتورطة في علاقـة بأنه رأى أن مـا طلبه أبي صـورة من هذيان المـوت، وقرر أن يحجب عني الرسـالة، لكنه بعد تجهيز مدفنًا بأدفو خشـي أن ألومـه فيما بعد فحضر خصيصًـا لإبلاغي، ثرت عليه وعلـى مَـن جاء معه وقـررت تنفيذ وصية أبـي، وتركوني أتصـل بعائلة أمي وأستئذنهم وحدي وقد ظننت أنهم لن يتبعوني إلى هناك وسيتركوني أشيعه بدونهم، لكنهم حضروا يسـبقهم غضبهم وغيظهم، وأظن أنهم لن يتركوني بخير طيلة فترة بقائي هنا.

طوال مسافة العودة البالغة 30 كيلو مترًا والتي قطعناها في حدود الساعة لتدهور الطريق، كنت أعد نفسي لمواجهتهم بشدة إذا ما تطرقوا ثانية لهذا الموضوع، ثم لنت قليلًا وأنا أتذكر كيف كان يهادنهم أبي وهم يلومونه على البقاء في مصر دون زوجته بعد إحالته إلى المعاش، وقررت أن أهبهم ممتلكاتنا الصغيرة المكونة من بضعة أفدنة وعدد قليل من المواشي التي اشترتها أمي بعد استقرارها في أدفو، وأحسست بأن ذلك سيجعلهم يبلعون ما اعتقدوا أنه فضيحة لتسرب جسد منهم إلى بلد غريب، وعزمت على البقاء لبضعة أيام حتى انتهاء العزاء ثم الفرار من بلدة لم أولد فيها ولم يدفن بترابها أحبائي المقربون، وكنت بمجرد تبليغي بوفاة أبي في القطار قد هاتفت «ريم» وأبلغتها بالخبر ورجوتها عدم الحضور حتى لا تزيد الأمر تعقيدًا، ثم أخبرت «عماد» وقمعت نخوته التي كانت تدفعه إلى الحضور لمؤازرتي، ورجوته عدم إذاعة الخبر ولا الذهاب إلى الشركة كي يتابع أمورها في غيابي كما تطوع بذلك.

تصدرت خيمة عزاء العائلة بمجرد عودتنا وكان يجاورني ابن عمي وأولاده وأخوالي غير الأشقاء، وبعد الغداء استفردت بابن عمي وأخبرته بتنازلي عن الأرض، وعندما لمحت ظل سعادته المختفية غيرت بعض مخططي وطلبت منه بيع الماشية ومنح ثمنها لأخوة أمي، وقد أصر ابن عمي على بقائي في البلد لمدة خمسة عشر يومًا.. ثلاثة أيام للعزاء الرسمي واثني عشر يومًا للعزاء المفتوح المعد لاستقبال المعزيين من بلاد بعيدة أو من خارج مصر، وكان ينظر تجاهي بتعجب وأنا أساومه في عدد الأيام التي سأبقى فيها متعللًا بالعمل، لكني رضخت في النهاية حتى لا تصبح سيرتنا

على كل لسان بعد مغادرتي، وكنت قد أغلقت محمولي عند الوصول حتى لا أردَّ على أحد يهمني وأضطر لإخباره بما حدث فيتكبد مشقة الحضور، ولم أنوِ فتحه حتى بعد قرار البقاء الطويل.

بتُّ في غرفة أمي هربًا من روائح غُسل أبي التي لا تزال قابعة في غرفته، ورغم ذلك بعض مشاهدنا معًا توالت على ذهني، والغريب أن معظمها كان في بارات صحبني إليها وهو يستأذنني أولًا ثم يدفعني نحو الباب قبيل سماع موافقتي، وكان فيها يبدو ساخرًا بحكمة وتظل أمي هدف سخريته، وكان ذلك يشعرني بفرط حبه لها، سخر منها بشدة عقب قرارها مغادرة القاهرة بعد وفاة خالي بنصف عام للإقامة بأدفو، وكان تقاعد أبي بعد عامين، ورجاها أن تنتظر لكنها أصرت فهددها بأنه سيظل في القاهرة بعد تقاعده إن لم تُطعه، لكنها لم تأبه لتهديده وأخبرته ببساطة أنها ستطلب من أهلها الدفن بجوار أخيها في مقبرتهم حين يحين الأجل، وعندما سألها للمرة الثانية عن مصير المقبرة التي اشتراها في القاهرة، أخبرته ببساطة ألا يقلق فالمقابر تنادي ساكنيها!

في يومها الأخير بالقاهرة كانت جالسة بعد أن حزمت حقائبها في انتظار عودته بتذكرة قطار وحيدة بعد ليلة مضنية من العراك معه بسبب قرارها، وعاد بتذاكر ثلاث لنا وعندما صحبناها إلى هناك لم تمنحه حتى ابتسامة مجاملة، وعندما اختلت بي أوصتني عليه وطلبت مني أن أعيده إليها لو هرم أو مرض، وبعد رجوعنا ادَّعى التماسك لفترة وكان يمارس طقوسه كما هي.. مواعيد عمله مقدسة، ومواعيد شربه كما هي، وكان يتزيد أحيانًا ويطهو أطعمة أجدها تنتظرني عند عودتي ويسألني في الليلة التالية هل

راقنـي مذاقها، وكف عن ذلك عندما صارحته بطهوه السيئ وبعدم حاجتي للأكل البيتي.

وكان أبـي لا يشـرب الخمـر مطلقًا فـي يـوم الجمعة، وهو اليـوم الذي يتخلّـص فيه من الزي الإفرنجي ويرتـدي الجلباب ويضع أحيانًا العمامة لو كان بصـدد لقاء بعض أصدقاء الجنوب، وبدأ تغيره طفيفًا بعد اسـتقرار أمي في الصعيد، وربما لـم ألحظه لانشـغالي في العمل أو سـهراتي مع الزملاء، لم يعد يرجع إلى البيت بعد صلاة الجمعة يشـاورني فيما سـنأكله، ولـم يعد ينـام القيلولـة ثم ينزل للسـهر على المقهـى، ولـم أعد أراه أو أسـمع صوت خطواتـه الزاحفـة المتخبطـة وأنا بيـن اليقظة والنـوم، وقد باح لـي الحلاق متعمدًا بأن أبي يرتاد «البوظة» التي تجاورنا في الناصرية بحي السـقايين كل يوم جمعة، وهو بار شـعبي بائس يقدم مشروب البوظة المصنوعة من الخبز الفاسـد والكحول ولها طعم «مِزز» شبيه بمشروب «السوبيا»، وكنت أعرف طعمها لأن أمي عندما اكتشـفت تردد أبي على البارات التي تسقيها أشعلت ثـورة عليـه - كما أخبرني خالي - وبـدأت تصنعها لنا في البيت باسـتخدام الخميرة بدلًا من الكحول، لذا عندما وشـى الحلاق بأبي توجهت إلى هناك وأشـرت إليه حيـث يجلس على دكـة صغيرة مخصصة للأفنديـة بينما باقي الرواد يجلسـون على حصيرة متآكلة، ولما فشل أبي في إدخالي دفع حسابه ووضـع نعليه تحت إبطه وسـار علـى الحصير ثم ارتداهمـا وخرج يكلمني وهو يمسـح فمه بكم جلبابه، لم أعاتبه إلا بعدما جلسـنا على المقهى، وظل يسـمعني بهدوء شـديد ثم وعدني بأنه لن يرتادها مرة أخرى، وعندما ارتاب في سكوتي أضاف وعدًا بأنه سيقلل من شرب الخمر حتى يكف عنها نهائيًا،

وقد نفذ ذلك فعلًا، ولما حان تقاعده كان قد برئ منها وحاول لفترة وجيزة البقاء بالقاهرة ليفي بتهديده لأمي، وتصنَّع البحث عن أمكنة لمزاولة نشاط تجاري وكان يوحي لي بإبلاغ أمي بذلك، وكانت لا تأبه وكان ذلك يضايقه جدًّا، ثم انهزم أبي سريعًا ولحق بها إلى هناك لكنها هربت منه بالموت مرة أخرى ودفنها كيفما أحبَّت، وظل يسخر من هذا الأمر كلما صحبني لزيارة مدفنها، وها هو في لحظته الأخيرة تقوده روحه للبقاء إلى جوارها.

أطالع الآن للمرة الثالثة الورقة التي تركها لي، تتصدرها تحية وسلام كالأكليشيه الذي كنا نرصعه على الخطابات زمان، ثم طلبه بمجاورة أمي في مدفنها بلا إلحاح ولا رجاء، وختام عجيب دفعني للابتسام لكني لم أتوقف عنده لحظتها، وظل يوجعني جدًّا فيما بعد عندما يخطر ببالي: «أحمد يا بني.. ماتفصلنيش عن أمك.. ماتكونش سبب في خراب البيت».

***

كان خالي مختفيًا عن المنزل وبعض رجال المباحث يبحثون عنه ويسألون الجيران وأصحاب المحلات، وعقب العشاء أخبرنا والدي بما يجري وطلب من أمي - لأنها تعلم مكانه - أن تبلغ خالي «حسام» بما يدور حتى يطيل فترة اختفائه، ولم تمنحه أمي نظرة امتنان لخوفه على أخيها، بل نهضت بعصبية ورمته بنظرة نارية ثم واصلت برطمتها بدعاء: «الله يجازي اللي كان السبب»، حتى أغلقت باب غرفتها خلفها، وانطلق أبي يسب ويلعن كعادته إلى غرفته، وظللت أتساءل كثيرًا عما فعله أبي وأذى به خالي وجعل أمي لا تغفر له مطلقًا، وشتَّت عقلي حتى ظننت أنه وشى به في إحدى المرات خوفًا من الشرطة التي قد تؤذيه في عمله وتتهمه بالتستر

على مجرم، وتهورت وقلت له ممازحًا ذلك وكان في أوج سلطنته ونشوته، ووجم أبي بشدة وألقى بنقوده على المنضدة بين المزة وزجاجة الروم التي لم تنتهِ، وسار لفترة لا يلتفت لي ولا يسمعني ولا يهزه اعتذاري وتبريري، حتى ارتكنت إلى حجر بازلتي وانتحبت وهو ماضٍ في هرولته، ثم جلست لا أود الرجوع إلى البيت، حتى عاد وتركني أقبّل كتفه، وطلب مني ببسمةٍ شاحبةٍ أن أصمت وأطعته، ونحن بصدد دخول المنزل مال إلى أذني وهمس بأنه يومًا ما سيخبرني عن سبب تقلُّب أمي.

أمي خدعتني أيضًا لسنوات عشر تقريبًا وكادت تزيد لولا أبي الذي فاض به الكيل أخيرًا، فقد تنبهت في طفولتي إلى أن «حسام» خالي هو أخي الأكبر، وكان يشاركنا الطعام ويراجع دروسي ثم ينام بشقته التي أخبرتني أمي بأنها خصصتها له ليذاكر فيها براحته، وعندما أنهى دراسته بالمعهد فضَّل البقاء بها ووعدتني بأن أقيم معه عندما أدخل الثانوية، وكثيرًا ما طلبت منه عقب مذاكرتي البقاء معي وكان أحيانًا لا يقاوم بكائي فيبقى، وكنت أقول لزملائي في المدرسة إنه أخي عندما يأتي لاصطحابي في غياب أبي، وعندما أغضب منه أو أفرح كنت أخبر أبي بأن «حسام» شقيقي فعل كذا، وكان يبتسم أو يفتعل الغضب لكنه لم يصحح معلوماتي أو يشككني فيها، والغريب فيما أذكر أن أقاربنا بالصعيد عندما كانوا يأتون للعلاج أو الفسحة، ويقيمون في شقة «حسام» التي يتركها لهم ويحل ضيفًا على غرفتي، وأكون الغلام المكلف بإدخال الأطعمة والمشروبات مع أمي وبجلب السجائر و«المدغة» لم أكن أخاطبهم إلا بقولي: «أخي حسام فعل كيت وكيت»، وكانوا بالمثل عندما يريدون رؤية «حسام» أو طلب شيء منه يطلبون مني

أن أذهب إلى أخي «حسـام» أو أأتيهم بأخي، سـواء كانوا من أقارب أمي أو أبي، كأنهم أخذوا تعليمات بذلك.

وكان «حسـام» هـو ولـي أمري إذا مـا طلبت المدرسـة أحـدًا من أهلي لتـردي مسـتواي فـي الحفـظ أو الإمـلاء، فأبـي غالبًـا يتنصل مـن الذهاب وأمـي أميـة لديهـا رهـاب من أماكـن التعليـم، وكنت أقـول للمدرسـين إن أخـي سـيحضر لدفـع المصروفـات أو توقيـع الشـهادات والإقـرارات، والمـرة الأولـى التي عرفت فيهـا أنه ليس أخي كانت أقـوى من تعرفي على لسـعة التيـار الكهربي عندما أمسـكت بفيشـة التلفزيون وكان سـلكها عاريًا فنطرنـي التيـار إلـى الجـدار وكانـت مأسـاة، كانت المسـافة بيـن الحدثين لا تتعـدى خمس سـنوات، وكنـت عائدًا من المدرسـة وكانـوا يترصدونه، وكان غائبًا منذ فترة كبيرة وزعمت أمي أنه في الشـغل، وكنت أفتقده وأبكي وتضعنـي أمي فـي حجرها وتظل تربت ظهري حتى أنـام، ومن زقاق قريب من المدرسـة خرج أخي من حوش أحـد البيوت وجذبني والتقطني بصدره وانهـال عليَّ تقبيـلًا بينما كنت أبكي بلا سـبب، وخاطبني كشـخصٍ ناضجٍ مبـررًا غيابه وواعدًا بعودة قريبة، سـألته هل يعمل في هـذا البيت؟ فضحك وقـال إنه يزور أحد أصدقائه وطلب مني عدم إخبار أحد بالمقابلة حتى أمي وأن تظل سـرًّا بيننا، وسـررت جـدًّا لهذا، ثم دفعني من ظهـري بعدما طلب منـي عـدم النظر ورائي، وبمجرد خروجي هجـم بضعة رجال على الحوش وحملوه وهو يرفص ويفلفص كما يفلفص دجاج العشة في يد أمي خوفًا من الذبـح، ولـم يكن ينظر تجاهي وهم يلقونه داخل صندوق السـيارة المختبئ به رجال التقطوه بعنف وأخفوه خلفهم، كنت أبكي بهيسـتريا ولـم أدرِ بشيء

عدا وجودي بالمنزل بعد ساعات من الواقعة، وكانت أمي تضع على جبيني كمادات ساخنة وهي تبكي وأبي يدلِّك صدري، وبعدما تمالكت نفسي وأخبرتهما بما حدث لأخي علا نحيب أمي أكثر وظل أبي يزجرها بكلام مبهم، وأمام عدم مبالاتها رفعني أبي إلى صدره واتجه بي نحو البلكون وظل يهدئني وأخبرني بأن أخي سيكون بخير وأن هناك مشكلة تسبب فيها أحد زملائه بالعمل وستُحلُّ قريبًا وعليَّ ألا أقلق، وكلما طالبته بفضول طفولي أن يفسر أكثر طالبني بألا أشغل بالي لأنه سيتصرف، وأعادني إلى أمي وانتحى بها وظلَّا يهمسان ثم علا صوتهما فبكيت حتى لزما الصمت، وحاول أبي الخروج بي للفسحة لكنها رفضت بحجة أننا وسط الأسبوع ولان صوتها وهي تطلب مني تأجيل الخروج إلى نهاية الأسبوع، ولم يفلح تأجيلها الخروجة في إثناء عزم أبي عن إخباري بأنه ليس لي أخ أو شقيق، وعقب خروجنا من سينما «مترو» بعد مشاهدتنا لأفلام الكرتون ذهب بي إلى مطعم فاخر، وفي ذلك اليوم أخبرني أبي بأن «حسام» شقيق أمي التي ربَّته بعد وفاة أمها وهي صغيرة وهو بمثابة ابنها البكري، لذا أنشأتني على أنه الأخ الأكبر، وأضاف بأن هذه العلاقة الأخوية راقته ولم يشأ إفسادها بإخباري لكن بعدما كبرت - وهنا عصر كتفي كأنه يثبت ذلك - رأى أن الأفضل أن أعرف بهذا الأمر، وطلب مني بعد عودة خالي القريبة أن أناديه بنفس ندائي.. «حسام» بدون لقب الخال، وكان ذلك بمثابة صدمة شديدة لي جعلتني أسأل أمي وأستحلفها وأحاول استنطاق أبي مرة أخرى لربما يكون «حسام» أخي ارتكب جريمة جعلت والديَّ يتبرآن منه، وعندما عاد «حسام» بعد ستة أشهر أخبرني بنفسه بالتفاصيل وهو يضحك

ويقول إنه لحسن حظي لي ميزتان بخلاف زملائي: أن لديَّ أخًا وخالًا في جسدٍ واحدٍ.

وتعددت مطاردات خالي «حسام» واعتدتها وافتخرت بشجاعته وكنت في الجامعة أتباهى ببطولته، وفيما بعد فسَّر أبي غضب أمي المكتوم منه بأنها بعدما فشل خالي في الحصول على مجموع كبير في الثانوية العامة يتيح له دخول كلية الهندسة، بدلًا من اتهام أخيها بالتقصير في المذاكرة تحولت إليه واتهمته بإهمال رعاية «حسام» وعدم الاستعانة بمدرسين خصوصيين لمعاونته.. علمًا بأن تلك الفترة لم تكن مسألة الدروس الخصوصية مطروحة فيها، كما أن إمكانياته المالية لم تكن بنفس الوفرة في زمني حين كنت في الثانوية العامة وجلب لي مدرسين في أهم العلوم، وأضاف أبي أن «حسام» عندما دخل معهد «ليوناردو دافنشي» وفِّق جدًّا في عامه الأول وكان عازمًا على مواصلة درب التفوق حتى يحصل على منحة السفر إلى إيطاليا لاستكمال الدراسة، لكن عندما تعرف على الطلبة اليساريين في العام التالي وأصبح من زمرتهم تغيرت حياته بالكامل، وهنا لم تتوقف أمي عن اتهام أبي بأنه السبب في هذه المصيبة على اعتبار أن خالي لو كان التحق بكلية الهندسة لم يكن سيصبح شيوعيًّا، وما كان سيرسب في التعليم لأول مرة ولا كان سيُعتقل ويعذب ويدخل في عالم المرض النفسي، الذي لم تستوعب أمي أن أحدًا من عائلتنا قد يُصاب به، لذا حاولت بكل قوتها حجب أخبار مرض خالي عن عبور حدود القاهرة ونجحت في ذلك بتفوق شديد، لكن الصدمات المتتالية لخالي أوهنتها جدًّا وبات تفوقي اللاحق يعذبها أكثر، ويذكرها بمخاوفها من الاتهام بالفشل في تربية أخيها ورعبها من مقابلة أمها في الآخرة فتعاتبها عتابًا مرًّا، وتلومها على تفضيل ابنها عن أخيها.

الآن أنا في ليلتي الأخيرة في البلد وقد أبلغت ابن عمي باستلام البيت والعناية به فبان رضاؤه باليقين من عدم رجوعي، وتركت له كل أثاث البيت، عدا بعض المستلزمات التي أوصاني أبي فيما مضى بأخذها معي والتصرف فيها، وقد حزمت مجموعة من أوراق خالي وكراساته دون قراءتها حتى لا يعاودني الشجن، وكذلك بعض الأشياء التي ارتبطت بها في طفولتي كأني أخشى تسرُّب ذكرياتي إلى أقاربي وكنت كارهًا لذلك، ونمت لآخر مرة بغرفة أمي التي ظلت موصدة بعد رحيلها ولا يبيت فيها غيري، لكني أفقت قبيل الفجر على صوت رياح يحاولون لجمها فتصدر أنينًا خافتًا وموجعًا، وكان الجو ضبابيًا وشعرت بأني أتوسط برزخًا بين النوم واليقظة، وأمي في سبيلها إلى الكلام ولا تنفلت من فمها أي أصوات، لكن جسدها بكامله ساكن جدًّا وبغير أبعاد كأنها مسجونة بين لوحين من الزجاج الرقيق، وكانت رائحتها تملأ صدري وعندما مددت يدي تجاهها صحوت منتفضًا، ولفترة طويلة صرت قلقًا، وخرجت من الغرفة وعدت عدة مرات وكانت الرائحة ما تزال موجودة، ورأيت خلفي ثقبًا صغيرًا بالجدار يبدو كرأس مسمار اتسع مرات ومرات وأصبح له غور، واندهشت لأني أراه للمرة الأولى، ومددت إصبعي فيه فعلق بكتلة من الشعر الأبيض تبدو كبرعم زهرة قطن، وجذبته وتفحصته وكان كتلة من شعر أمي الذي كان يتخلى عن رأسها ويعلق بمشطها العاجي الكبير، رأيتها كثيرًا وهي تجمعه وتكومه ثم تضعه أسفل فخذها حتى تلقيه بنفسها مع قلامات الأظافر في مكان لا يصل إليه أحد، وكان غالبًا الكابينيه، فقد كانت متخوفة من وصوله إلى يد عدو لنا فيؤذينا بسحره، وقد زاد هذا التخوف بعد وفاة خالي الذي كانت متيقنة من ذكائه ونشاطه الذي جعله هدفًا للحاسدين.

جيهان العرابي

بدا السهم الصغير المعلَّق في أعلى شاشة محمولي وكأنه قد ابتلع كل الأيقونات التي بجواره، دليل الهاتف والرسائل وشبكة الفيس بوك والساعة والمنبه والتقويم والألعاب.. إلخ، كلما هممت بالاتصال أو الرد على متصل خطف بصري هذا السهم الملتوي، رمز الرسالة المعلقة التي تفيد بأنه لم يتسلَّم رسالتي بعد، انتابني القلق وثمة هاجس يعربد في رأسي بأنه ليس بخير، كالهواجس التي كانت تطاردني قديمًا وتخبرني بأن «تميم» ليس بخير حتى تمكَّن منه الشر، ضبطت نفسي مشغولة به أكثر مما يجب، يبدو أن الغياب في حياتي هو الأكثر حضورًا، كنت لا أفكر كثيرًا في «تميم» وهو زوج ورفيق بقدر ما أستحضره كثيرًا وهو بعيد عن متناولي.

ولم تخرجني من حيرتي إلا شكاوى صديقتي «رنا» التي أحس أحيانًا أنها بمثابة فنانة كوميدية في حاجة إلى اكتشاف، كانت تشكو كعادتها من تصرفات زوجها البلهاء في إطار منافسته لها أدبيًّا، فقد حصل على جائزة ثالثة في القصة من المنطقة المركزية، وكان قد أوهمها بترفعه عن الاشتراك فيها بدعوى أنها مسابقة ضعيفة للأدباء المبتدئين، هذه المرة لم يعلِّق خبر فوزه المنشور في جريدة درجة ثالثة على مساحة 3 سم على جدار غرفة النوم، بل سحب وراءه خروفًا وجزارًا وعندما سألته عن سبب هذه الأضحية، همس لها بأنه يريد عمل «عقيقة» للطفل، أخبرته بأن العقيقة تُقدَّم في سبوع الطفل

وليس بعد الولادة بعام وبضعة شهور، اتهمها بالجهل ثم دعا أهلها وأباها والجيران وطلب منها دعوتنا لكنها تجاهلته، وعمل عقيقة فعلًا وقبل أن يدعوهم إلى الأكل أخبرهم بتيهٍ بأنها بمناسبة ولادة الطفل وفوزه في مسابقة المنطقة المركزية، في الحقيقة ليست العقيقة ما أغاظ «رنا»، لكن كفَّه التي أغرقها في دماء الخروف ولطَّخ بها حائط طرقة الطابق الذي تسكن فيه هو الذي ضايقها بشدة، فسيكون عليها في الدخول والخروج مطالعة هذه الكف الدموية التي تشير إلى نبوغ زوجها وتفوقه عليها كما يتصور، زوج «رنا» كان قد التقاها في إحدى الندوات التي ناقشت بعض قصصه، وكانت «رنا» من المناقشين، وبهدلته بدبلوماسية لرداءة قصصه، فدافع عن قصصه بغباوة وتطاول على «رنا» ثم اعتذر، واجتهد كي يتعرَّف عليها وأحبها وقرر أن يتزوجها وتم له ذلك، تستبعد «رنا» أنه تزوج بها ليعرقل مسيرتها كما أفتت بذلك صديقتنا الثالثة «بسمة»، وتستخف «رنا» أحيانًا من نقدي الشديد لتصرفاته وتغضب، لكنها لا تمل من الشكوى منه وطلب مشورتي، وفي النهاية لا تستجيب لنصائحي، ورغم أن خلافاتها مع زوجها تستحضر الضحكات من أعماقي، لكنَّ ثمة هاجسًا مخيفًا ينتابني بشأنها، أن ينحرها زوجها أو يقطع كفها التي تتفوق عليه، وقد خفتت المخاوف بعد أن أنجبت له ولي العهد بعد عامين من الزواج، وأتمنى أن يشغله هذا الطفل قليلًا عن الطموحات الأدبية الخادعة، ما لي أنا بمشاكل هؤلاء التعساء وأنا أكاد أُجنُّ في وحدتي التي اخترتها بإرادتي، آه لقد كذبت على «رنا» كذبة بيضاء، ادعيت أن محمولي فاصل شحن وشاحني مفقود في أرجاء الغرفة وأخذت محمولها لأكلم «أحمد الضوي»، ولما وجدت هاتفه مغلقًا شككت في أنه يستخدم رقمًا جديدًا، ثم اطمأننت قليلًا، فقد حلَّت الريبة محل القلق

والخوف على سلامته، أزلت الرقم وناولتها جهازها، وتكدرت قليلًا لأني لم أخبر «رنا» بحقيقة اتصالي، لماذا لم أخبرها بقلقي على «أحمد»؟ هي لم تلتقِه إلا مرات قليلة كان صامتًا في أغلبها، لا أدري ما انطباعها عنه بعكس «بسمة» التي انضمت إلى جروب عدم استلطافه الذي يرأسه التوءمان!

لعل مشكلتي الحقيقية أني آمنت بـ «تميم» وبطموحه وتزوجته لذلك! إلى أن بدأ ينفض هذا الطموح كأتربة عالقة بردائه، وسعى جاهدًا للانسحاب إلى داخله كأنه قد قرر قرارًا لا رجعة فيه بالتخلي عني، ثم كسر بإزميله بوابة الخروج إلى السماء وتلاشى في السديم.

اعتدل الطقس كثيرًا في اليومين الماضيين وأنا قابعة في كهفي هذا، لا ارتباطات بأي نوع من أنواع العمل ولا لقاءات مع الأصدقاء رغم أن محمولي لم يتوقف عن الرنين، صديقات وزميلات يُردن التسكُّع أو النميمة، وإن امتنعت عن النزول وتحججت بأي سبب، يبادروا بطلب المجيء إلى بيتي والتهديد باقتحام حياتي، وكنت أتخلص منهن بجفاءٍ يبلغ حد القسوة أحيانًا، ثم تبادل عليَّ صديقيَّ «إبراهيم» و«فريد» بمناورات جديدة، يتصلان طبقًا لمسافات زمنية متباعدة كأنهما ليسا معًا، حتى إذا وافقت على الخروج مع أحدهما جعلها الآخر ذريعة يبتزني بها كي أخرج معه، طيبتهما وسذاجتهما المدعاة وخفة دمهما وزمالتهما الطويلة كبلتني بهما، ويضايقني كثيرًا أننا إن التقينا مصادفة – أعتقد أنهما يتعقباني ويدعيان المصادفة – في إحدى الحفلات أو السهرات، فإنهما يتسابقان كي يجلسا حولي، وأثناء الحوار سيحاول «إبراهيم» لَي عنق الحديث إلى مجال السينما

ـي يتحدث عن زملائـه المخرجين المعروفين والنجـوم والنجمات الذين
دربهـم، وسـتنهال عليَّ نظرات مـن الذيـن يعرفونني ولا يعرفونه تتسـاءل.
مَـن هـو؟ وهل هو صـادق أم مـدَّعٍ؟ ولماذا لا يـزال مغمورًا رغـم الأمجاد
التي يدعيها؟ سـيتحول وجهـي إلى قالب من الشـمع المصمت وأُربِّت يده
ليصمت وأُعرِّفهم به كمخرج متميز لأفلام روائية قصيرة ووثائقية، وأعدهم
بإرسال «دي فيديهات» من أعماله، ثم أتفرغ لـ «فريد» الذي لا يتحدث عن
الأعمـال التي تولى «مَنتجتها»، لكنه يرى كل النسـاء الجميلات الجديدات
على الجلسـة مشـاريع «مُزز» محتملة، وسـيظل «يلوِّش» يمينًا ويسارًا حتى
يحصـل على «مزته»، وفي سـبيله إلى ذلك سـيُغضب الكثيرين، ربما زوج
أو حبيب أو عشـيق أو شـقيق للحسـناء التـي اختارها، وغالبًا مـا تنتهي هذه
الجلسـات بكوارث محققة لو غفلت عنهما لدقائق، والله يستر كثيرًا، لماذا
أنا عالقة بهذه السـخائم؟ لا أعلم! ولسـت في حاجة إلى طبيب نفسي ليعيد
تأهيلـي كمـا نصحتني «رنـا» ذات يوم وهـي تقول إنني منذ وفـاة «تميم» لم
أعد كما كنت، هي جاهلة كجيراني وكأصدقائي، الفيلسـوف الجميل «زكي
نجيـب محمود» لـه مقولة جميلة للتفريـق بين الباطن والظاهـر، يقول: «إن
أغلـب الثمار تفسـد مـن الخـارج كالجوافـة والمانجو والخـوخ، وهذا هو
الظاهـر، بينمـا مهمـا كانت التفاحة فاسـدة وعطنـة من الداخـل تبدو لامعة
ويانعة من الخارج، وهو مايطلق عليه الباطن»، كلهن وكلهم رأوا علاقتنا أنا
و«تميم» كالتفاحة اللامعة الزاهية، لكن لم تخالجهم لحظة شك واحدة بأن
العطب في الداخل كان مستشريًا في كامل الثمرة.

اتصلت بي الجمعية الخيرية التي أقدم إليها أحيانًا بعض الخدمات، وسمعت «اللزمات» المعتادة منهم في بداية المكالمة، وفكرت أن أعتذر عن تلبية طلبهم بحجة ضيق الوقت والاكتفاء بالدعم المالي، لكن المتصلة باغتتني: «هل ترغبين يا سيدتي في تقديم خدمة إلى كرام العيون؟»، راقني لقب «كرام العيون» جدًّا، وأعجبني أنهم «أنسنوا» العبارة، ما أقبح كلمة مكفوفين أو عميان بعد ابتذالها، العيون الكريمة التي جادت بنفسها في سبيل صحة الجسد كله، وافقت بسرعة، قالت إنها سترسل لي ملفات دراسية «بي دي إف»، والمطلوب أن أعيد كتابتها «وورد» حتى يسهل على إدارة الجمعية تحويلها إلى طريقة «برايل» فيستفيد منها الطلبة، عندما سألتها عن الأجل المسموح لي فيه بإنجاز هذه الدروس، قالت برجاءٍ: «أسبوع واحد حتى لا يتعطل بعضهم عن التحصيل»، فتحت جهاز الكمبيوتر في انتظار رسالتهم، ثم عرجت على حسابي بالفيس بوك بحثًا عن الأحداث الجديدة للأصدقاء الافتراضيين، انهمرت عليَّ آراء سياسية فجّة وفنية عبيطة ومئات الصور الجديدة المفتعلة للوجوه، ثم اكتشفت أني بداخل صفحته التي كانت كما هي، كطلل بيت تعيد تشكيل واجهاته خيوط العنكبوت، وبعض رسائل من رجال على جدار حسابه تتساءل عن أسباب غيابه وترجو أن يكون بخير، وأحسست بأنَّ ثمة عيونًا نسائية تتلصص مثلي على حسابه وتخرج دون أن تترك أثرًا، وكنت متيقنة أن «بسمة» منهن. ثم وصلتني الملفات وكان مجموع الصفحات المرسلة من الجمعية ليس كبيرًا فتحمست لكتابتها في أقرب وقت حتى أنتهي منها مبكرًا.

هربـت من قلقٍ آنـي محتمل إلى شـاهد قبر مخاوفي التـي تحققت كما قدرت، عاودني سـيري كالمنومة مغناطيسـيًّا تجاه الغرفـة التي كان يتخذها «تميـم» ورشـة عمـل، كنت قـد أوصدتهـا بقفـل محكـم، لعل هـذا يثنيني عـن فتحهـا الذي يجلب علـيَّ وابلًا من الشـجن والغضب وعدم التسـامح والإحساس بالخديعة، كان كل شيء في مكانه بالضبط منذ رحيله، استبدلت الغرفة بجسد «تميم» الفارع القوي ذرات تراب علقت بكل شيء مسَّه أو نظر إليـه، بدت المنضدتـان العجوزتان كأنهما تنظران تجاهي بتشـفٍّ، وتومئان إلـى التراب وخيوط العنكبوت التي لا بد من إزالتها في كل مرة أدخل فيها، والتـي تعـود إلى نفس المكان كأنهـا قدره الذي لا فكاك منه، هذا الكرسـي الخشـبي لم أستأذن «تميم» في وضعه، فقد كان ميتًا عاجزًا عن تعنيفي لأني دخلـت الغرفـة وتلصصت على عملـه حتى لو كنا في أوج لحظات العشـق كأنها عورته التي يخشـى كشـفها، وأنا جالسـة عليه يواجهني لوح الخشـب الـذي بعرض الجدار وبنصف ارتفاعه وعليه شـبكة من السـلك على أجزاء طينيـة كان يعمـل عليها وقد جفـت تمامًا الآن وبدأت تتفتـت وتتآكل، لكن الحقيقـة الوحيدة أنها صمدت أكثر من جسـده الضخـم، وفي أدراج دولابه أدواته كلها التي تضم مجموعات أزاميله ومطارقه وأصابع الخشب والمعدن التـي كان يعمـل بها على الطين لزوم رسـم الملامح علـى الرخام، أما ذلك الركـن فترقد تحته قطـع رخام وجرانيت وبعض الصخـور وبجوارها ألواح مـن الفوم وعليها أداة قطعها «كاتر» وفي الأعلى نافذة موصدة بإحكام حتى لا يخترقها الصوت كالعوازل التي تبطن الجدران، ورغم كل هذه السنوات الفائتة ما زال الضوء يتسلل من النافذة.

كانت هذه الغرفة في بداية زواجي من «تميم» لفترة طويلة نسبيًّا رسول بهجتي، فقد أحببت «تميم» لأنه صانع ومجسِّد لأفكار متناثرة في الهواء، وكنت أحترم خصوصيته وعصبيته وهو على وشك الدخول في حالة فنية، ويفتنني الصخب الذي كان يثيره في الداخل حين أسترق السمع، صراخه وبكاؤه الذي فتك بي أول مرة سمعته فتهورت واقتحمت عليه الغرفة فانفتح في وجهي باب الجحيم، رأيت «تميم» آخر، عيناه حمراوان ويخرج الزبد من فمه وهو يسبني، بعد أن ألقى في وجهي بقطعة الطين التي في يده عند دخولي وتفاديتها بأعجوبة، عدت إلى غرفتي باكية بينما أوصد «تميم» الباب خلفي وعاد إلى عمله، وفي منتصف الليل أيقظني وبكى على صدري معتذرًا وعندما قبلت اعتذاره المُلِح أغمض عينيه بضع ثوانٍ، ثم تلا عليَّ قائمة محظوراته المحصورة في هذه الغرفة، لم يطلب مني أن أمتنع عن مقابلة صديق معين، أو ألا أخرج بصدر مكشوف وملابس مثيرة، ولا الاستئذان في الخروج والعودة، ولم يطلب مني العودة مبكرًا، اكتفى برجائه عدم دخولي أنا والخادمة هذه الغرفة نهائيًّا، فكل نحَّات ينظف أدواته بنفسه قبل أن يغادر ورشته، ووعدني بأنه عندما ينتهي من عملٍ ما، سيجعلني أول مَن يراه، وقد فعل ذلك مرات قليلة وليته لم يفعلها.

كانت غرفته هذه بمثابة طفله الذي لم أنجبه لأنه اشترط في بداية زواجنا ألا ننجب إلا بعد خمس سنوات، ووافقت وأنا لا أدري أنه ينوي أن ينفلت دون أن يترك خلفه ما يدل عليه، كنت أتسلل وأتنصت عليه كلما أحسست بصوت إزميله وهو يصطدم بالأرض، فهذا معناه أن سلاحه لم يعد ماضيًا من كثرة الشغل فاستبدل به غيره، كان قلبي وهو يخفق يوزع دقاته بالعدل، خفقة شفقة، وخفقة حب.

لـم أحب أحدًا بقدر مـا أحببت «تميم»، ولـم يخذلني أحد بقدره، عروق يـده البارزة كانـت تثيرني أكثر ونحن خـارج حرم غرفة النـوم، تمنيت كثيرًا أن تعيـد تشـكيلي، أو تربِّت جسـدي بحنوٍّ فـي أغلب الأوقات، وبوحشـية إذا اسـتلزم الأمر، لكنهـا عاندتني فيما بعد، وكانت تمر على جسـدي باردة ومحايدة كلمسـة فراشـة لسـطح محيط، كنت أسـيرة عينيه وهـو يحدق في الوجـوه ويختـزن ملامحها ليعيد تشـكيلها على الصلصـال أو الجرانيت أو البرونز، كنت غالبًا أنتظر سيجارته الأخيرة، متحملة رائحة الدخان المقرف وحركته عندما يهيم في الجو فيشـوه الأشـكال، حتـى أرقب يده وهي تطبق العلبـة الكرتونيـة وتشـكلها بينمـا يتكلم، وعندمـا يغادر المنـزل ألملم هذه العلـب متأملة مـا صنعته يده دون قصد، لم تعرف يـا «تميم» أني كنت أفعل ذلـك، ولعلـك تـدرك الآن، ولعلك حزنت بشـدة أو اكتأبـت كعادتك - لو سـمحوا لـك بأن تصحب قلبـك الضعيف معك - عندما ألقيت إلى سـلال القمامة بعد فرارك بكل خدعك الكرتونية.

مَـن عجَّـل بنهايتك يا «تميـم»؟ طموحي أم انكسـارك؟! أو لعله حلمي الذي ضخمته ونفخت فيه من فرط حبي! توسـلت إلى أبي القاضي الغارق بيـن قضايـاه وملفاتـه محاولًا إقامـة العدل، والـذي ظل حتى رمقـه الأخير يطارد الفروض والسـنن والنوافل ويغسـل ذنوبه كل عام على أبواب الكعبة كـي يعـود كما ولدته أمه دون أن يظلم أحدًا كي يقبلـه زوجًا لي، خاصة وأنا ابنتـه الوحيدة، وشـقيقاي اللـذان يكبراني بعدة سـنوات أكبرهما وكيل نيابة وينـوي وراثـة أبي في مهنته، والآخر طبيب مقترن بطبيبة سـحبته خلفها إلى السـعودية، عندمـا اتفقت مـع «تميم» على الـزواج، كانت أمـي قد غادرت

الحياة منذ ثلاث سنوات وأنا في سنتي الأخيرة في معهد السينما، وفقدت حمايتي التي دعمتني في دخول المعهد الذي حلمت بدخوله، وكان الذكور الثلاثة في أسرتي ضد هذه الرغبة، أبي من منطلق إيماني، وهما من منطلق ذكوري، وتحدوني بغلظةٍ لكن في النهاية لم يستطيعوا مجابهة أمي طويلًا، واستسلم الأخَّان، وقاد أبي جبهة المعارضة وحده، لكن ببضع كلمات حاسمة نطقتها أمي بهدوء مفادها أنها ستترك لهم البيت وتستأجر مكانًا بالقرب من المعهد كي تقيم فيه معي حتى أنتهي من الدراسة، حسم الأمر لصالحي نهائيًّا، وحين شغفت حبًّا بـ«تميم»، كان عليَّ أن أواجههم مرة ثانية بمفردي، لكني هذه المرة كنت أقوى كأن أمي أورثتني عنادها، وكان أبي قد دفن جزءًا من صرامته مع أمي، وشقيقاي كانا مشغولين بحياتهما، ووهنت مقاومتهم سريعًا، خاصة أن أمي برحيلها تركت خلفها أبي هرمًا، متعبًا، زاهدًا، كأنه عقد اتفاقًا مع الموت بميقات محدد وعليه أن ينجز كل واجباته وحقوقه وينهي متعلقاته حتى يلحق بها، وكان حضورها اللا مرئي بجواري وأنا أخاطب أبي بشأن «تميم» له توهج المعجزات، أبي الذي كان لا يقيم وزنًا للممثلين والمغنيين ولاعبي الكرة وكل مَن يتباهى أو يتكسَّب من موهبة لا تفيد الناس أو تعطلهم عن أداء أعمالهم - على حد قوله - عندما أخبرته بأن «تميم» فنان تشكيلي خوفًا من أن تعرقل كلمة «مثَّال» الزواج، أغمض عينيه وغمغم: «الخيرة فيما اختاره الله»، فتشجعت وأخبرته بالمزيد مثل أن «تميم» في بداية حياته، وطلبت منه التيسير عليه، وافق أبي بسرعة لا تصدق وقال إنه سيقنع شقيقيَّ بالموافقة، وبدا متعجلًا زفافي كأنه في سباق مع الزمن، وتنبه أبي لمخاطر تركي بمفردي ينازعني

أخويَّ في التركة بعد وفاته، فقيَّم شـقة المعـادي التي كانت محط أنظارهما وجعلهمـا يدفعان لي قيمة إرثـي فيها كما قيمها، ثم أودع مع محاميه كشـفًا تفصيليًّا بتوقيعه يضم تفاصيل الإرث وكيفية توزيعه حسـب الشرع، ثم مات فـي أثناء خطوبتـي لـ «تميم»، ولديَّ الشـجاعة لأن أعترف بـأن ما بذلته من جهـد ذهني وعاطفي ومالي لكـي أرتبط بـ «تميم» كان أقوى من قدرته على فـرد جناحيـه والانطلاق، فلم يكن «تميم» ينحت فـي الجرانيت ولا الرخام ولا الحجـر، لكنـه كان ينحت في الرمال دون أن يدري أنـه كلما توغَّل فيها لـم يعد قادرًا على الخروج منها، وكلما ازددت قربًا منه اتسـعت الهوة بيننا. والآن عندما أسـأل نفسـي في لحظة مكاشـفة هل أنا قاتلة «تميم»؟ تصمت نفسي تمامًا.

أحمد الضوي

عـدت إلى القاهرة مسـاءً واتصلـت بـ «ريم» مباشـرة أعلمهـا بعودتي، فلـم تطل في المكالمة وأخبرتني بأنها سـتحضر لتعزيتي، وافتعلت الغضب عندمـا طلبت منهـا تأجيل ذلك حتى الغد، وسـبتني لأني منعتها من السـفر إلى الصعيد للوقوف بجواري، فسكت ورحبت بمجيئها، «عماد» أيضًا أصر على الحضور لنفس الأسـباب ولم يتوقف إلا بعدما أخبرته باحتمال مجيء «ريم»، ضحك وقال: «من لقي أحبابه..»، وأبلغني بأنه سيزورني في الشركة لتقديـم واجب العـزاء، وجاءت «ريم» بسـرعة تحمل طعامًـا جاهزًا بعد أن احتضنتني وقبلتني برسـمية شديدة تتناقض مع ملابسـها الملونة، طلبت أن نتعشـى معًا، وفي أثناء الأكل عـادت بزجاجة نبيذ من المطبخ لكني رفضت مشاركتها فنظرت تجاهي بشدة ولم تعلِّق، لكنها اكتفت بكأسين وظننت أنها سترحل، وبمجاملة طلبت منها البقاء قليلًا، فاتسعت عيناها دهشة وقالت: «جرى إيه يا أحمد انت فاكرني حاروَّح؟ هو أنا لسه قدمت واجب العزاء!»، وخلال بضع دقائق عرفتني بأنها تركت «ملك» عند «استيلا» وستبيت معي حتى لا أنشـغل بالحزن، ثم اندسَّـت بجواري ليلًا مرتدية «بيبي دول» أسود أسـفله طاقم أسود أيضًا جعلني أبتسـم لمخيلتها التي صورت لها أنها هكذا تعزيني، وبعد أن استيقظت «ريم» في الصباح على رنات متتالية من صديقتها

«استيلا» وأخبرتها بضجر أنها ستعود بسرعة، سألتني بعدما ارتدت ملابسها إن كنت تضايقت لأننا مارسنا الجنس، قلت لها: «لا طبعًا، فقد خفف ذلك أحزاني»، ضحكت طويلًا وأخبرتني بأن صديقة لها بعد أن دفنت مع زوجها والد الزوج وعادا، فوجئت بإصرار الزوج على مضاجعتها، ودهشت لذلك جدًّا ورفضت إطاعته واتهمته بخدش جلال الموت، وتركت هذه الواقعة شرخًا كبيرًا بين الزوجين لم يلتئم أبدًا.

«عماد» كان عزاؤه مختلفًا عن «ريم»، بدأ تقليديًّا بالحضن العميق وتربيت الظهر والدعاء لأبي، ثم أخذني من يدي دون أن يحدد الوجهة، وفي الطريق أخبرني بأنه ذاهب بي إلى جزار من معارفه لكي يشتري عجلًا نذبحه على باب الشركة ونوزع لحمه على الموظفين والفقراء، ولم يهتم باعتراضي مصرًّا على رأيه، وكان ظني أن «عماد» تعرف على الجزار في إحدى حملاته البوليسية، لكنه أخبرني أن تعارفهما كان في قاعة فن تشكيلي! كان هذا الجزار يعرض فيها بعض لوحاته فاقتنى «عماد» لوحة لرحلة العائلة المقدسة أهداها إلى «كارولين»، ولم يكن يمر ببالي مطلقًا أن «عماد» يتردد على قاعات الفن التشكيلي، فعلل ذلك وهو يضحك بأن «كارولين» قادته إلى هناك بعد أن أثنت إحدى صديقاتها على المعرض، المهم أن «عماد» تصادق مع الفنان الجزار الذي يستخدم في رسمه الخامات الطبيعية من البيئة التي يعمل فيها، أي الحيوانات التي يبيع أجزاءها كالجاموس والبقر والخراف والجديان، فالفرشاة من ذيل البقر، واللون الأبيض من نواتج طحن العظام، كما أنه يجفف أعواد البرسيم ويرسم بها لتعطي تأثيرات اللون الأخضر، وهراء كثير كان يتدفق من فم «عماد» ونحن نسير، حتى اقتربنا أخيرًا من محل جزارة فانحرفت تجاهه لكن «عماد»

شـدني إلى الرصيف المقابـل حيث يقبع محل لبيع لحم الرأس والسـمين، وقبل أن تكتمل دهشـتي وجـدت صاحب المحل بجلبابـه الأنيق والنظيف يندفع محتضنًا «عماد» الذي بادله الحميمية، عرفني «عماد» على الرجل بأنه الفنـان الجزار، وصافحته وعيناي تتجولان فـي أرجاء المحل، كان الطاهي الضخـم يقلب الرأس فـي «أذان» ضخم يتصاعد منه البخـار والزبائن حول المناضـد يأكلون بشـهية الفتة ولحمـة الرأس، واسـتقرت عيناي على رأس العجـل الموضـوع في الفاترينة للعـرض، كان جلده منتوفـا تمامًا من زغب الشـعر، وجزء من لسانه خارج من طرف الفم كالسـيجار، وباقي الفم يطبق على بعض أعواد البرسـيم بإخراج فني، وبليتان كبيرتان من الزجاج الملون موضوعتـان بـدلًا من عينيه، وفوجئت بالجزار يسـألني عن رأيي، ابتسـمت وأثنيت على إبداعه فطمع أكثر وقال إنه سيريني «بروشور» لمعرضه الأخير، اعتـذرت بضيـق وقتـي ووعدته بلقـاء قريب، اسـتأذن الرجل منـا لإحضار مفتاح سـيارته نصف النقل، وأسرع «عماد» بإفهامي أنه سيصطحبنا بسيارته إلى المذبح لننتقي العجل ونعود به لذبحه، أخبرت «عماد» بحدة بأن يعتذر للفنـان الجزار لأني صرفـت النظر عن الذبيحة وقـررت أن نعطي بدلًا منها هبات مالية، ثم تحركت بسـرعة شـديدة ولحق بي «عماد» في أشد الاستياء ولم يُخفِ غضبه إلا بعدما سـخرت من جزّاره الفنان سـخرية لاذعة اضطر بعدها لمسايرتي في الضحك والسخرية.

«ريـم» عزتني بطريقتها و«عماد» كذلك، «جيهـان» فقط التي لم تعزني، ولعلهـا تعـرف وغيـر مهتمـة! أو لا تعرف وهذا أقـرب إلى الدقـة، فربما لو قضيـت نحبـي ستسـمع «جيهان» بذلـك في ذكـراي العاشـرة، إن كان أحد سيتذكرني.

جيهان العرابي

- «جيجي».. صباح الفل.. أنا صحيتلك بدري مخصوص عشان أعزمك على حاجة مهمة قوي وعارفة إنك مش هتخذليني وحتيجي.

- أهلًا «رنا» وحشتيني.. طبعًا هاجيلك بس فهميني الأول العزومة دي بمناسبة إيه؟

- طبعًا ما انتي مش دارية بحاجة لا بتتصلي ولا بتدخلي الفيس وقافلة عليكي صومعتك ومش جايبة خبر حاجة.

- مش صحيح يا «رنا».. أنا بس زهقانة من الخروجات، بانزل لما بيكون عندي أوردر تصوير ومبصدق يخلص أرجع على طول والفيس بقى بيزهقني خالص ويصدَّر لي طاقة سلبية.

- طيب يا «جيجي» مش هاطوِّل عليكي.. «فؤاد» حبيبي فاز بالجائزة الأولى في مسابقة القصة اللي عاملها نادي 6 أكتوبر، والنادي عامل النهارده حفل تكريم كبير وأنا عزمت أصحابنا وحتقابلي «بسمة» اللي زعلانة منك قوي عشان مبقتيش تسألي عنها.

- ألف مبروك يا «رنا» حاحاول آجي.

- تحاولي؟ تحاولي يعني إيه؟ بقولك «فؤاد» فاز في مسابقة كان متقدم لها 80 كاتب عايزة تفوتي مناسبة زي دي.. لا دانا أزعل منك و«فؤاد» هياخد على خاطره منك خالص.

- وأنا ميخلصنيش إنك تزعلي مني يا «رنا» ومقدرش على زعل «فؤاد» جوزك.. أنا هاجي.

يا إلهي من أين تأتي صديقاتي بكل هذا البرود والقدرة على التلون.. «فؤاد» حبيبها سيزعل مني.. «فؤاد» الذي «ينشك» في صوابعه التي قرصت رضيعه أصبح الآن قرة عينيها.. آخر مكالمة كانت بيني وبين «رنا» منذ شهر تقريبًا، كانت تكلمني من بيت والدها بعد أن لطمها «فؤاد» على وجهها فحملت طفلها وأقسمت ألا تعود إليه، ورحَّب والدها طبعًا، فهي وحيدته وقد تفرغ لرعايتها عقب وفاة أمها ونحن في الثانوية العامة، ورفض أن يرتبط بامرأة أخرى بعد والدتها، وأقام العراقيل أمام «فؤاد» لكن ضغط «رنا» عليه جعله يرضخ أخيرًا ويوافق على زواجهما.. وها هي تعود إليه وأعتقد أنه لن يفلتها من يده.. سألتها كيف تلقَّى والدها خبر لطمة «فؤاد».. أجابتني بأنها بصعوبة استطاعت منعه من مغادرة البيت كي يؤدب «فؤاد» ويرد له اللطمة.. ثم أضافت أن والدها سيذهب إليه في مقر عمله خلال أيام كي يجبره على طلاقها ويسوي معه الأمور المتعلقة بينهما.. طلبت منها أن تخبرني عن سبب رد فعل «فؤاد» العنيف هذه المرة.. قالت إنه استيقظ ليلًا فلم يجدها بجواره في الفراش.. تسلل باحثًا عنها فوجدها في الصالة منكبة على اللاب توب تراجع إحدى قصصها. جذب منها اللاب متصورًا أنها في محادثة عبر الإنترنت مع رجل ما.. وصرخ في وجهها: «خائنة».. ثم

عندما اكتشف أنها تكتب نصًا جديدًا، ازداد احتقان وجهه وأعاد الأسطوانة المشروخة: «سايبة طفلك يا هانم وصاحية مخصوص عشان تكتبي الكلام الفارغ ده؟».. ولما دافعت «رنا» عما تكتبه، لطمها تلك اللطمة التي تلقتها دون أن تنطق أو تبكي وتجلدت حتى الصباح. كي تغادر دون إثارة فضيحة يلوكها سكان العمارة، لم أشأ أن أذهب إليها في الأيام التالية كي أخفف عنها أو أتضامن معها.. اتصلت بها عدة مرات أطلب منها أن نلتقي في الخارج وكانت تتحجج بطفلها حتى وأنا أطلب منها أن نلتقي في المعادي عند أقرب كافتيريا من بيت عائلتها الذي كان لا يبعد كثيرًا عن بيتنا قبل زواجي، لذا لم نلتقِ عقب تلك اللطمة وهي تعلم جيدًا رفضي التام لفكرة زيارتها في بيت والدها، بعد أن صرت هدفًا له.. منذ أن أصبحت أرملة «احلويت» في نظره وتخلى عن رداء الزوج الوفي لأم «رنا» والزاهد في الزواج مرة أخرى، وبدأ يلف ويدور بكلام عن وحدته بعد زواج «رنا»، و«رنا» اعتقدت في البداية أنه يبكتها لتخليها عنه وزواجها والإقامة بعيدًا عنه، لكنه لم يكف عن إبداء رغبته في الزواج، وتخلصًا من إلحاحه وافقته «رنا» فوجه سهمه تجاهي، أنا صديقة ابنته منذ الـ (KG1)، الذي كثيرًا ما أجلسني على حجره ولقمني قطع الشيكولاتة، رغب فيَّ هذا الشيخ، تحرجت «رنا» من إخباري برغبته وعنفته بأدب فتظاهر بالإذعان، ثم كلمني وأخبرني بحبه وبرغبته، وأنا مذهولة على الطرف الآخر، بينما هو منشغل بسرد مميزاته.. سيبلغ الخامسة والستين بعد عامين.. ويتقاعد بمكافأة نهاية خدمة مذهلة.. لم يصب بأمراض وراثية و«صاغ سليم» من كله.. وكان سيتمادى أكثر لولا أنني أوقفته بعنف.. وعندما كرر الاتصالات اضطررت لإخبار «رنا» التي يبدو أنها واجهته بشراسة فتوقف نهائيًا عن الاتصال بي.. فكيف أذهب

إلـى عرينه بقدمـي؟ وغبت عن «رنا» قليـلًا ثم فاجأتنـي ذات يوم ووجدت حسـابها عبـر الفيـس بوك تتصـدره صورتهما معًا في شـهر العسـل، وبضع كلمات تنز شاعرية كتبتها «رنا» تعليقًا على الصورة.. أدركت أنهما عادا إلى حياتهما الزوجية.. أغلقت اللاب على الفور ولم أفكر حتى في الاتصال بها لمجاملتهـا سـواء بمجرد معرفتي أو بعدها بيـوم أو اثنين.. وها هي تدعوني إلى حفل لتكريمه في نادٍ اجتماعي وتتباهى بفوزه على مجموعة من الهواة. يا ضيعتك يا «رنا» وأنت تشـترينه كي يصل إلى المكان الذي تتربعين عليه، رغـم أنك تدركين مثلي أنه سـيركلك من عليه بمجـرد مجاورتك.. تراعينه وتراعين طفلكما وتكتبين خلسـة وتبذلين قصارى جهدك كي تحسني أداءه فـي القص بملاحظات نقدية مهمـة تجتهدين في توصيلها إليه دون فوقية أو تعـالٍ بل كأنك تلميذة تسـتطلعين رأيه.. وحينما يكتب (Note) أو مشـروع قصـة على صفحتـه، تدخلين إلينا فـي البريد الخاص تتسـولين منّا أن نبدي «اللايكات» على إفرازاته، رغم عدم إيمانك بجودة ما يكتبه وتسيد الضعف والركاكـة وضحالة الفكرة في أغلب ما يضعه على صفحته.. وتتلقين مقابل ذلـك شـكرًا مميزًا.. زغدة فـي جانبك، نظرة إهانة، سـخرية لاذعة قد تصل إلـى البذاءة، قرصة بغلٍّ في بطن ذراعك وهو يدعي المزاح، ثم لطمة.. وها أنتِ تعودين إليه ككلب أليف.

قـررت ألا أمكـث فـي حفـل تكريـم «فـؤاد» أكثـر مـن سـاعة، لكنـي بمجـرد دخول المكان أحسسـت بأننـي تورطت جدًّا.. كانـت هناك منصة يجلس خلفها «فؤاد» ومدير النادي ومسـئول من وزارة الشـباب، كما تدل التعريفـات المكتوبة بالخط النسـخ أمـام كل منهم، قابلتنـي «رنا» بحضن كبيـر وبعتاب هامس لأنـي حضرت متأخرة ولم أرَ مدير النادي وسـكرتير

وزارة الشباب وهما يسلمان «فؤاد» درع النادي وشهادة التقدير، تحجب بالازدحام وحمدت الله أني لم أشهد «فؤاد» يكرم على قصة أثق تمامًا أنها ليست من وحي قريحته، سحبتني «رنا» من يدي تجاه مقدمة الصالة لأنها حجزت لي مقعدًا في الصف الأول بجوارها وجوار «بسمة»، ثم تركت «رنا» مكانها خاليًا وتسللت وهي تحني رأسها حتى لا تفسد اللقطات التي يصورها التلفزيون للحفل، ووقفت بجوار باب الصالة، همست «بسمة» في أذني بأن «رنا» في انتظار صحفية وأديبة كبيرة وعدت «رنا» بأنها ستغطي وقائع الحفل لجريدتها. ثم غمزت «بسمة» بعينها وهي تخفض تون الهمس: «بتلمَّع فؤاد شوية بدل ما كل ما يشوف خبر عنها في جورنال يلمَّع بيه قزاز العربية».. كانت منصات إطلاق الكلام تنطلق بالتتابع من سكرتير الوزارة ومدير النادي إلى أن تحين الفرصة لكي يقرأ «فؤاد» قصته الفائزة على الملأ، في الوقت ذاته الذي تمكنت فيه «رنا» من جرِّ الصحفية الكبيرة إلى المكان المحجوز لها في نفس صفنا، وجلست بجوارها وتركت المكان الذي جواري شاغرًا، وانتبهت إلى جسد لرجل مسن يتحرك من مقعده بالصف الثاني ويستدير تجاه صفنا.. كان والد «رنا» قد حدد هدفه وعزم على التصويب.. وارتبكت جدًّا لظني أنه رمى طوبتي تمامًا ونسيني.. وقبل أن يصل إلى «مطرحي»، وضعت بسرعة حقيبتي على المقعد الشاغر بجواري حتى أقطع عليه فكرة الجلوس بجانبي، عندما وصل أمامي انحنى وسلَّم بحميمية، وشكرني بأدب على حضوري وكذلك فعل مع «بسمة»، ثم انسحب بهدوء و«رنا» تمسك بالميكرفون وهي تقدم الصحفية للجمهور وتدعو الجميع للإنصات إلى القصةالفائزةبالجائزةالأولى.

عقب التكريم أو الندوة كان هناك «بوفيه مفتوح» في الحديقة الملحقة بالقاعة، كان الجو باردًا بعض الشيء، لكن الملابس الثقيلة والصخب الملازم للأكل ونميمة «بسمة» جعلتني أحتمل ولا أنصرف مبكرًا، ما عدت أحب أطعمة الفنادق وضجيج الآكلين في سكون.. تكذبين على من يا جيهان؟ إلى متى تتخفين وراء صلافة وكبرياء من وهم وسراب؟ تأكلين بمفردك كل يوم في البيت، تبتلعين طعامًا اجتهدتِ في صنعه وتفشلين في تذوقه، لا تأكلين إلا أمام جهاز التلفزيون وعلى شاشته يتحرك ممثلون يحبون ويبكون ويقتلون ويفرحون ويؤنسون وحدتك وحين يأكلون تحسين أنهم يشاركونك نفس المائدة. تحركت «بسمة» تجاه البوفيه وعادت بطبقين مملوءين بأنواع شتى وضعت أمامي أحدهما. أكلت بسرعة ولاحظت «بسمة» هرولتي، فتوقفت عن المضغ لحظات ثم طلبت مني ألا أنصرف مبكرًا لأنها تريدني بشكل عاجل، لم أُبدِ إشارة بالرفض أو الموافقة، لكنها لم تستفسر ودسَّت سكينها في الطبق وتحرك بلعومها بشكل أسرع، لا حاجة بي كي أخمن لماذا تستبقيني «بسمة»، لأني أعرف موضوعها المفضل منذ ارتباطها بـ «خيري»، «خيري» الذي اجتمعنا أنا و«رنا» على التوجس منه، والرعب من أن يتسبب في كوارث لـ «بسمة» أو أن يطيح بقلبها تمامًا ثم يفر منها كما نتوقع فتجن أو تتربص به فتنحره، «بسمة» التي منذ طلاقها وابنها في سن الثالثة لم تقرِّب رجلًا منها، طليقها السابق جعلها تعاف الرجال تمامًا، غضوب، ذو لسان بذيء، نافد الصبر، متصلب الرأي، وبالإضافة إلى ذلك فهو بخيل جدًّا.. بخيل في الإنفاق.. ضنين في إبداء عواطفه.. شحيح حتى في مدحها عن طعام طيب أعدته أو

بيـت نظيـف هيأته.. خلعت منه بشـق الأنفس وتنازلت عن كل مسـتحقاتها كـي يتركها ترحل فقط بحقائب ملابسـها، ثـم ملأت رئتيهـا بالهواء وظنت أنهـا أفلتت إلـى الأبد، لكـن «خيري» كان يلبـد لها في الواقـع الافتراضي، «بسـمة» تعمـل فـي تسـويق مسـاحيق التجميل، وبحكم دراسـتها واتسـاع خبرتها في عالم الاتصالات أصبحت مسئولة عن موقع الشركة الافتراضي، وعـن تجهيزات المعارض الدورية، وجميع وسـائل الإعـلان عن منتجات الشـركة ورقيه كانت أم بصرية، وقـد تعاونت معها كثيرًا في تصوير منتجات شـركتهم أو آثارهـا على وجـوه «الموديلز»، هي تجوب العالـم الافتراضي يوميًّـا بادئـة بمتطلبـات عملهـا ثـم مبحـرة داخل عوالـم السياسـة والثقافة والطرائـف والنـوادر وصولًا إلى عالم الاقتصاد التـي لا تفهـم فيه ولا تحبه، لكن الفراغ أحيانًا قد يقودك إلى ما لا تتصور أبدًا أن تلج إليه، وهناك وسـط مليـارات الخلايـا الضوئيـة المعقـدة لذلـك العالـم المخيـف المسـمى بالإنترنـت، وجدت «خيري» يقدم تحليلات وتفسـيرات اقتصادية، وأحيانًا بعض الحلول لمشـاكل اقتصادية معقدة بأسـلوب سـهل وبـلا تقعر، ويكاد يكـون منـزوع المصطلحـات والطلاسـم التـي في كثيـر من الأحيـان تثقل المقالات والدراسـات الاقتصاديـة.. وبدأ الأمر بعدد مـن «اللايكات»، ثـم علقت باستحسـان شـديد علـى منهجه الاقتصـادي، فـي ذات الوقت الذي كانـت سـبابتها تقلب صوره الشـخصية وتـرى أصدقاءه أو زمـلاءه وبعض الفاتنـات بجـواره وهو يسـتمع إلى محاضـرة اقتصادية مهمـة أو في ملتقى مخصـص لحـل بعـض المشـكلات الاقتصاديـة، أو تـراه خلـف ميكرفون عمـودي يوجه أسـئلته للمحاضرين الذيـن خلف المنصـة، أصبحت زيارة

صفحته الاجتماعية واجبًا مقدسًا يوميًّا تبدأ به يومها عقب الإفطار، أو بينما هي «منجعصة» في المقعد الخلفي لسيارة الشركة التي تدير بها عملها، كانت بعجالة تضع خطة اليوم، ثم تعود إلى صفحته تراقب ما كتبه، وتدخل إلى حساب أية أنثى أبدت إعجابًا بمقولة له، تتفحص حالتها الاجتماعية وتبحث في ملف صورها عن صورة تجمعها مع «خيري»، أما الإناث المتبجحات اللواتي يعلقن على حائطه فويلهن من «بسمة» لأنها ستفحص حسابهن بدقة وتأنٍّ حتى لو وصل الأمر إلى متابعة التعليقات بينهن وبين الصديقات المشتركات في نفس الحساب مع «خيري»، يجن جنونها لو وجدت إحداهن تحجب معلوماتها الشخصية عن العامة وتخصصها لأصدقائها فقط، تبدأ بإرسال طلب صداقة لها وتظل لأيام في غاية الغيظ لأن الأخرى لم تقبل بعد صداقتها (أحيانًا كانت تكلمني في منتصف الليل لتخبرني عن مشاكل من هذا القبيل حتى صرخت فيها مرة فتوقفت عن الاتصال التليفوني الليلي واهتمت بأن تدخر كل مشاكلها الشخصية لتخبرني بها دفعة واحدة عندما نلتقي).. لو مرَّ أسبوع والفتاة الأخرى صماء بكماء لم تُبدِ استجابة للصداقة.. تركز «بسمة» أكثر وتجمع تعليقات للفتاة على «خيري» وآخرين من نفس شاكلته، ثم ترسل لها رسالة خاصة تمدح أسلوبها وتحليلها وذوقها (وهراء كثير من هذا القبيل)، وتخبرها أن شخصيتيهما متشابهتان وتطلب الصداقة مباشرة، في بعض الأحيان القليلة التي تصمد فيها الفتاة أمام هذه الملاحقة ولا ترد إيجابًا على قبول الصداقة.. تنقلب «بسمة» إلى شخص آخر تمامًا يقتات على نظرية المؤامرة، تعتقد أن هناك علاقة ما بين «خيري» وهذه الفتاة، وتبدأ تأكل

نفسـها مـع العلـم بـأن حتـى هـذه اللحظـة لـم تكـن لـ«بسـمة» أي علاقـة بـ «خيري»، ثم تمكنت من الاستعانة بأحد قراصنة الإنترنت وجعلته يهاجم حسـابات أمثـال هـؤلاء الفتيـات ويعطيهـا المعلومـات المذكـورة في هذه الحسـابات، وقد صرفت كثيرًا مـن النقود على هـؤلاء القراصنة، ثم دفعت مبالـغ أكثر لكـي تصبح هي قرصانـة إنترنت وقد كان، «بسـمة» منذ طلاقها كانـت حـرة تمامًا وفاضية جـدًّا، فالابن تربيه أمها، وهي متوحدة مع شاشـة الـلاب لا أحـد مـن أهلها يقـدر على مقاطعـة حربهـا الإلكترونيـة، بعد أن أوهمتهـم بـأن عملها وترقيتهـا عبر هذا الجهاز، وقد انشـغلت بــ «خيري» تمامًـا وبنت صروحًا من خيالٍ حولـه وصممت على اقتحام معبده والإقامة فيـه، بنت كل الفـروض علـى معلومات افتراضيـة كانت تداهمنـا بها وهي تحكي عن عبقريته الاقتصادية وقدرته التحليلية والآراء والصور التي تشـي بأنه ابن ناس، كانت له صور ضمن آخرين وبينهم نسـاء بالطبع، لكن ليسـت هنـاك صـور ثنائيـة تجمعه مع إحداهن، وهـو ما جعلها تقرر أنـه غير مرتبط بأنثى معينة، وقد تكون في حياته مأسـاة عاطفية سـببتها له واحدة بنت حرام عقدته وأنها ستسـعى لتشـفيه منها! ونجحت فعلًا في التقـرب منه افتراضيًّا عبـر البريـد الخـاص ولـم يطلب فـي أي مـرة مقابلتهـا، وأتعبها ذلـك جدًّا فتخلت عن حذرها وطلبت منه اللقاء، سـرد لها جدولًا معقدًا عن ارتباطاته ثم حدَّد لها موعدًا بعد أسـبوعين، كانت تغلي فيها ونصطلي أنا و«رنا» معها حتى سـلقها تمامًا وطهاها جيدًا قبـل أن يلتقيها، ذهبت إليه في الموعد وقد انصهـرت أظافرها ومخالبها ونبت على ظهرها زغب صغير كالكتاكيت، أو كمـا علقت «رنا» بأن «بسـمة» قبل أن تراه تخلصت من سـروالها الداخلي،

ثم عرفنا فيما بعد أنه تفحصها وقال لها إن حجابها جميل لكن أغلب النساء الذي يعرفهن لا يرتدينه، دافعت بحماسة عن حجابها فضحك وقال إنه لم يطلب أن تخلعه وإنه يميل إلى الرأي الذي يقول إن الحجاب في بعض الأحيان يضيف جمالًا إلى بعض النساء (الغبية لم تنبس بكلمة اعتراضًا على جملته هذه وخنقتنا تساؤلات عن قصده.. هل يقصد أن شعرها أكرت ومفلفل؟ هل يظن أنها صلعاء؟).. أرادت أن تبدو صادقة وأمينة معه في البداية وأخبرته بطلاقها وبطفلها وبغباوات طليقها فابتسم وقال إن هذا عادي جدًّا، وذكر لها إحصائيات مرعبة عن نسب الطلاق والعنوسة وتأخر الزواج وتأثير ذلك في تردي الناتج القومي، أوصلت رسالتها التي كانت تؤرقها وها هو قد علم بأنها مطلقة وعليها الآن ألا تدعه يعتقد أنها صيد سهل وتقوده إلى مسار ينتهي بالزواج، وبينما هي تفكر في كيفية وضع الشراك والفخاخ في طريقه، ألقى في وجهها بدلوٍ من الماء البارد، قال إنه متزوج ولديه طفلان أكبرهما في سن الثامنة، والثاني في سن الخامسة (أخبرتنا أنها تماسكت عندما سمعته يقول ذلك وإن كنا نشك في ذلك تمامًا.. أنا تصورتها وهي تقضم شفتيها وتزوغ عيناها، و«رنا» تصورتها وهي لا تستطيع التحكم في قبضة يدها اليسرى وتدق بها على الطاولة ثم تهم برشف مشروبها وتخيب أعصابها ويقع منها ويتهاوى).. ثم ككل الرجال الذين تقودهم شهواتهم قال إنه تزوج بعد حبٍّ كبيرٍ لكن مشكلات كثيرة قامت بينه وبين زوجته كادت تنتهي في مرات متعددة بالطلاق إلا أن ارتباط الأولاد به وجهود الأهل في التوفيق بينهما حالا دون تنفيذ هذا القرار، هذا هو اللغم الذي ركبت «بسمة» عليه طيلة العامين اللذين ارتبطا

فيهما - على رأي «رنا» - وكان يفعِّل اللغم أو يبطله كيفما شاء، و«بسمة» استسلمت تمامًا في أول المعركة دون حتى أن تجهز أسلحتها بالذخيرة، ملحوظة الحجاب أقلقتها وانتبهت عندما أعادت فحص صوره بخلو الفتيات المحيطات بمجموعته منه، لذا خلعته ببساطة واستبدلت به «سكارف» على رأسها يبين من حوافه خصيلات شعرها الأسود الناعم، وتخلصت من لبس تنوراتها وفساتينها الواسعة وارتدت البنطلونات الجينز والجواكت القصيرة، باختصار استقرت في برزخ هو مزيج من العهر والطهارة، ما علينا هي راضية بذلك وقد سيطر عليها تمامًا وأقام علاقة كاملة معها بشروطه وعوازله الطبية كما أخبرتني «رنا»، وقد أنكرت «بسمة» أمامي ذلك، ثم عندما هجرها شهرًا كاملًا لسبب غامض علينا، هرموناتها اختلت وبكت وصرخت وتنازلت عن مطالبها منه حتى عاد إليها وهدأت واستقرت، هو قادر على إصدار أوامره لها بالتوقف والتحرك دون الحاجة للإمساك بلجامها، يكتفي فقط بنظرة أو «باستيتوس» على الفيس يجعلها لا تنام الليل، وخلافاتها معه تثير فينا الضحك والرثاء، تبدأ دائمًا من الواقع الافتراضي الذي جمعهما معًا، إذا أرسلت إليه إحداهن فكرة أو تحليلًا اقتصاديًّا متواضعًا تطلب رأيه في العلن على صفحته التي يراها كل الناس، وأثنى على البنت وشجعها لا تتورع أن تهاجمه حتى لو كنا في لقاء جماعي: «هو انت كل واحدة تهز ديلها تشجعها وتقولها انبحي؟!».. وبعد أن وطدت علاقتها به تصر دائمًا على إثبات ذلك لكل أصدقائها بمجرد أن يكتب (Note) أو يذكر شيئًا عن حالته حتى ولو كلمة تافهة مثل: «أنا حائر».. «بسمة» أول مَن يعلق وأول مَن يعجب. وإذا سفه أحد رأيه تنبري

للدفاع عنه وهي أجهل ما يكون بالشأن الاقتصادي المتنازع حوله، نتسلى أنا و«رنا» أحيانًا بمراقبة حسابه وحساب دخولها على ملاحظاته والرهان الزمني عليها، كسبت «رنا» آخر مرة عندما قالت 15 ثانية وقلت 20 ثانية، كأنها تريد أن تثبت للعالم كله أنه يخصها، لكن بكل جبروتها في تتبعه وكل خبراتها في القرصنة، فشلت تمامًا في معرفة مَن هي زوجته، وكيف لا توجد صورة لها أو لأولاده في حسابه، وكيف لا تدخل بالتعقيب أو بالتعليق على آرائه، مع أنها تُدرِّس في الجامعة الألمانية كما أخبرها.. يعني أنها متعلمة على أعلى مستوى وحاصلة على مؤهلات فريدة تجعلها تدرِّس في جامعة من أهم جامعات مصر، فكيف تغيب عن عالمه الافتراضي؟ أخبرها فقط باسمها الأول وبأسماء أولاده لكنها فشلت في التقصي، هذه بعض مخاوفها منه، بينما أنا و«رنا» عرفناه أكثر منها ولم نخبرها حتى لا تجن أكثر مما هي مجنونة، أثنى مرة على صورة من تصويري ثم دخل في الخاص وبدأ يراسلني، مجاملة لـ «بسمة» أجبته، لكن عندما خرج عن حيز الإعجاب بالصورة إلى الإعجاب بي وبالعيون التي تقف خلف العدسة حذفته من أصدقائي، وحدث هذا «كوبي بيست» مع نص لـ«رنا» عرَّى فيه البطلة أكثر مما جردتها «رنا» من ملابس، بمجرد علمها بأني حذفته أجرت معي تحقيقًا بوليسيًّا طويلًا، لكني لم أخبرها إلا بأني أريد تقليص عدد الأصدقاء في حسابي، غضبت مني واتهمتني بأني لا أراعي مشاعرها وطلبت مني إعادته إلى الحساب، اشترطت أن يعيد طلب صداقتي حتى أتأكد من أنه فهم رسالتي، وحدث هذا، بينما ردت «رنا» على وقاحته بعدد كبير من علامات الاستفهام وحجبت عنه قصصها

ولـم تحذفـه من قائمة أصدقائهـا، هذا ما فعله مع صديقتيهـا المقربتين، فما بالـك يـا «بسـمة» بالغريبـات! لـي انطباع يحـدث دائمًـا مع الرجـال الذين أتعـرف عليهـم لأول مرة يثبت في ذهني للأبد، وعندمـا قابلت «فؤاد» زوج «رنـا» لأول مرة رأيت أنـه معتم تمامًا من الداخل، وعندمـا قابلت «خيري» الـذي تحبـه «بسـمة» للوهلـة الأولـى رأيـت بداخله شـررًا كهربيًّـا يومض ويختفي ويرتعش كالدائرة الكهربية التي على وشك أن تنفجر أو تنقطع..

«رنا» كانت مشغولة عنًّا بالانتقال مع زوجها من منضدة إلى أخرى تتباهى بإنتاجـه الأدبي، بينما بدت «بسـمة» مبتهجة وغير مكتئبـة منذ بداية الحفلة، وخمنت أن حالتها مسـتقرة مع «خيري» وأنها لن توترني بشـكواها، سألتها عن الأمر العاجل الذي تريدني فيه، ابتسمت وهي تقول: «حاجة بخصوصك مـا تقلقيش»، قلقت أكثر وظهر ذلك جليًّا على وجهي، أدركت قلقي فقالت بسـرعة: «هو انتـي بقالك كتير مبتشـوفيش أحمد الضوي؟»، سـؤال غريب أربكنـي جدًّا ولـم أرد، أردفت: «أصلـي دخلت حسـابه»، قاطعتها: «إوعي تكوني قرصنتي حسـابه!»، ضحكت بقهقهة وقالت: «حسابه! جته خيبة هو حسـابه فيه حاجـة.. عامل زي صحرا ما فيهاش غير شـجر صبار»، سـاءني التشبيه لكني لم أعقب، عندما سكتُّ قرَّبت وجهها مني وقالت: «أنا دخلت حسابه بالصدفة لقيت ناس كتير أصحابه بتعزيه لأن أبوه مات وواضح إنه ما بيدخلش الفيس من فترة لأنه حتى مش بيشكرهم على التعازي»..

ارتفعت كل الأصوات الصاخبة التي بجواري إلى السماء وحل الصمت فجأة.

أحمد الضوي

لـم أعـرف شـخصيات مـن لحـم ودم مقربين من «ريـم» إلا فيمـا ندر، لـديَّ إحسـاس غامض بشـأنها رغم ما تحـاول إبداءه من عفويـة و«فلجرة» تتنافـى تمامًـا مع أصولها وتعليمهـا المتميز واللغات التي تجيـد النطق بها. عرفـت عن طريقها «اسـتيلا» وزوجها وأخاها وتقابلنـا في عدد محدود من المـرات، وقابلـت طليقها في بهو مسـرح ليلة تسـلُّم ابنتهـا «ملك» وكذلك «إمبابـي» الـذي لم أتيقن منه بعـد، وفي أول علاقتنا عرفتنـي على صديقتها «هايـدي» التـي تعمـل في إحدى الـوكالات التجاريـة العالميـة وتتنقل إلى مكاتبهـا المترامـية عبـر البحار، إن شـئت الدقة هـي لم تعرفنـي عليهم كي تقربنـي مـن عالمها ولكن يحدث أن تكون في حاجـة إلى أحدهم وأنا معها فتسـتدعيه ثم تبـدأ التعارف، وتمر فترة ويختفون، كأنهـا تخرجهم من ألبوم صورهـا لكي ينفذوا مهامها ثـم تعيدهم إليه مرة أخرى، «هايدي» فتاة لطيفة ولا أتذكـر هـل هـي زميلة مدرسـة أو زميلتها في كليـة الآداب، لكني متأكد مـن أنهـا لم تكـن زميلتها في معهد الفنون المسـرحية، فهي تبـدو بعيدة عن الاسـتعراض والتباهي بالمعلومات الفنية، عندها إلمام بالموسيقى العالمية واكتشفت أن مصدره هو رفيقها عازف البيانو بأوركسترا القاهرة السيمفوني الذي أعجبت بثقافته الفنية وبذكائه وحميميته بمجرد لقائنا وبادلته الحميمية بأكثر منها، كانت «ريـم» قد أخبرتني بأننا سنقضي يومين في مزرعة بالشرقية

ولـم تهتم بإعطائي تفاصيل أكثر، وكان مجالها المغناطيسـي في تلك الأيام في أوج قوته فلـم أرفض أو أعترض أو أؤجل، ثم بدأت تتسـرب لي بعض المعلومات كلما أوشك الموعد على الحلول، منها أن «هايدي» ستصطحبنا بسيارتها ولـم أكن قد رأيتها إلا مرة بالمصادفة في عرض مسـرحي بالهناجر قادتنـي «ريم» إليه، «هايدي» لـم تكن موجودة بغرض حضور العرض لكنها سـلمت علينا في عجالة واستأذنت لمقابلة بعض الأصدقاء، انطباعي الأول عنهـا أنها لطيفة وعملية، ضحكت «ريم» وهـي تقول: «لطيفة.. كل الرجالة بيقولـوا كـده على السـتات الحلـوة أول ما يشـوفوهم.. إنما عمليـة إزاي؟ شـفتها داخلـة الأوبـرا ببلـدوزر!»، أحبطتني رنـة ضحكتها فسـكت، قالت وهي تسـترضيني: «هـو أنا كل ما أهزر معاك تتقمص؟ هـي فعلًا عملية بس أنا اندهشـت من دقة ملاحظتـك وقلت أغتت عليك»، في الليلـة الثانية بناءً علـى العـد التنازلي الذي أعدتـه «ريم» في ذهنها لكـي تمنحني المعلومات بالقطـارة، ونحـن فـي السـرير همسـت فـي أذنـي بـأن «هايـدي» مصاحبة موسـيقي شاب اسـمه «مصطفى صلاح»، وأنه ينتظرها في المزرعة لأنه في مهمـة عمل، عندما سـألتها عن طبيعـة المهمة، خبطتني برفـق على صدري وهي تقول بغنج: «حيكون بيعمل إيه يا حمادة؟ قلتلك صاحبها عازف بيانو تفتكـر هتلاقيه واقف جنب الترعة بيعزف للبقر عشـان لبنها يكتر ويطرطش والفلاحيـن بيحلبوه.. عنده مجموعة من الحفلات هناك يا أحمد»، سـكت وأنا ممتلئ بأحاسـيس الجاسـوس الأبله الذي تمت زراعته في أرض أعداء لا يعرف عنهم شـيئًا، علقت «ريم» وهي تداعب شـعيرات صدري: «وعلى فكـرة هي مـش هتنام معانا فـي أودتنا هتنـام طبعًا مع حبيبهـا مصطفى»، ثم طبقت على أنفاسـي بقبلة طويلة من القبلات التي تسـرف المرأة في منحها

للرجل عقب اللقاء الجنسي دون أن تدري أن تلك القبلات بالنسبة للرجل الملقى بجوارها كالخرقة مثل الورد الذي يلقى على جسد الميت، أفلتت شفتي ثم تجولت على خدي مقتربة من شحمة أذني وأضافت بغنج: «واحنا أودتنا حتكون جنبهم»، لم أعلق فأنا أعرف قدرتها على التصرف في مثل هذه الأمور التي قد تحتاج إلى أوراق ووثائق كي نقيم معًا في الفنادق أو الشاليهات، في عالم المقاولات الذي جئت منه كان من الطبيعي ومن الأعراف المتبعة إعطاء رشوة للموظفين الذين يمهدون الحصول على مناقصة الإنشاءات، وكانوا يسمونها إكرامية، والغريب أنها موجودة تحت هذا المسمى في أضابير الحكومة، وكنت لا أتردد لحظة واحدة في منح «ريم» الرشاوى والإكراميات بعد أن انتشلتني من صحراء المقاولات القاحلة والتدلُّه في حبٍّ من طرف واحد لسيدة تدعى «جيهان»، لذا وافقت على تلك الرحلة التي بدت في تلك اللحظات غامضة جدًّا.

مرت علينا «هايدي» في الصباح الباكر وعاونتني بهمة في وضع حقائبنا في صندوق سيارتها بينما «ريم» منشغلة بفحص الورقة التي كانت قد ألصقتها بكل حقيبة ومدون بها كل محتوياتها حتى لا ننسى شيئًا مهمًّا كأننا في رحلة سفاري، ثم جلست بجوار «هايدي» تنشغلان بالكلام الذي لا يخلو من رطانة فرنسية بينما جلست أنا على الكنبة الخلفية أخمن هل ستقربني هذه الرحلة أكثر من «ريم» أم سنعود منها وقد قررنا الانفصال، كنت دائمًا على مبعدة من الأوساط النخبوية كالوسط الذي نشأت فيه «ريم»، ولحسن حظي كانت «ريم» قد بعدت عنهم - بإرادتها أو بالرغم عنها الله أعلم - فلم أحتك بهم.. لكني الآن في طريقي إلى عرينهم..

مزرعـة رجـل أعمال كبير، «ريم» تمـت له بصلة ما.. لـم تقـل إنها من أقاربه وعندمـا سـألتها ضحكت وقالت: «يا ريت»، ولـم تشـفِ غليلـي بكلمة عن درجـة المعرفة.. إضافتها تتلخص في أنه رجـل أعمال مهتم بتخصص نادر يفيد البشـرية وقد تعاملت مع منتجاته كثيرًا من قبل وفي النهاية هو إنسـان.. «مش حابب تتعرف على إنسان فريد وتكتشفه بنفسك؟!» سكت، وأنا الآن بصدد اكتشـاف فرادة هذا الإنسان الذي سيستضيفنا في مزرعته، من الحوار الدائـر أمامـي ويقذفـه الهواء في حجـري علـى المقعد الخلفـي علمت أن «هايـدي» تعرف المكان جيدًا وزارته أكثر مـن مرة وتتبادل الغزل مع «ريم» وهمـا يصفـان مزارعه وألـوان المزروعات وحركة أسـراب الطيور الوادعة والجارحة والهدوء النفسـي الذي يغسـل روحيهما ويجعلهما قادرتين على مواجهـة رذائـل الحياة، لـم تنفلت منهمـا معلومات مفيدة فانشـغلت برفيق «هايـدي» الذي عليَّ مصاحبته والسـمر معه طوال الأيام التي سـنقضيها في المزرعـة بصفتي فارسًـا مثلـه لإحدى المهرتيـن اللتين في مقدمة السـيارة، يـا تـرى هل سـيوطد «مصطفى صـلاح» علاقتي بـ «ريم»؟ أم سـيكون من خمائر العكننة التي سـتباعد بيننا؟ لن أفترض انسـجامًا حقيقيًا سينشـأ بيننا، فأنـا جاهل تمامًـا بالموسـيقى العربية وبالموسـيقات الأخـرى كافة، وكما فهمت من «ريم» في أثناء حديث عابر أن «هايدي» التقت «مصطفى صلاح» في برلين حين كان يعزف ضمن أوركسـترا القاهرة السـيمفوني هناك، فمن الواضـح أنهمـا يجوبـان العالم بحكـم عملهمـا ويلتقيان بالثقافـات كافة.. باختصـار من النخبة التـي أتفاداها كثيـرًا لأني لا أطيق الاصطنـاع والفوقية التي يتعاملون بها مع الطبقات الأدنى..

اقتربنا الآن من المزرعة.. أخبرتني «ريم» بذلك كأنها دليلي في جولة سياحية، دخلنا عبر الطريق الممهد إليها وفوجئت بمئات الأفدنة المتراصة على الجانبين، لم أستطع تخمين مكان المزرعة بدقة وسط هذه المساحات الخضراء الخلابة، كان الطقس قد خلبني تمامًا بمجرد دخولي وروائح المزروعات تعرفت على أنفي من قبل أن أفتح نافذة السيارة، كنت في مكان خارج السياق الجغرافي للزمن، وبقدر ما أبهجني ذلك زادني توجسًا وريبة. وعندما خرجنا من السيارة واكتشفت أن كل تلك الأفدنة التي تشغي أمامي بالعاملين الذين يتحركون فيها كأسراب النحل. كل تلك الأفدنة ملك لرجل الأعمال الذي نحن بصدد زيارته، وكل نواتج أفدنته «أورجينيك».. خالية من السماد والمخصبات الكيماوية ولها علامة تجارية معروفة في الشرق الأوسط والعالم (سيكم) وهو اسم مصري قديم معناه الدواء..

لم تتح لنا مقابلة «مصطفى صلاح» إلا في المساء بعد أن أنهى بروفته، بينما التقانا صاحب المزرعة وبعض معاونيه من الألمان والمصريين، سلَّم علينا ولم يبدُ على وجهه أنه على صلة حميمية بـ«هايدي»، بدا عليه فقط أنه يتذكر وجهها، وسلَّم على «ريم» بحرارة ثم توقف عندي وصافحني وتمنى لي إقامة سعيدة بالمكان، ثم غادرنا مع مجموعته بعد أن أشار إلى واحد منهم لكي يبقى معنا ويرتب لنا شئون الإقامة، كفُّ يده الرطبة جعلتني ألمس طيبته وحنانه، لذا تخليت عن إحساسي بأني أفرض نفسي على مكان لست مدعوًا من صاحبه وبدأت أتقبل فكرة الإقامة هنا لبضعة أيام، وعندما وصلنا إلى القطاع السكني انشرح قلبي كثيرًا لبساطة المكان.. الذي هو عبارة عن بيوت تضم غرفًا متماثلة من طابق واحد، في منتصف كل بيت حوش

تتوسطه نافورة تتدفق منها المياه على الحديقة الصغيرة التي تحد البيت.. مكان يماثل تمامًا دورنا في الصعيد.. كانت «هايدي» قد همست للدليل بأنها صديقة «مصطفى صلاح» الذي كان قد رتَّب لنا الغرفة المجاورة له كي أقيم فيها مع «ريم»، ابتسم الدليل وتوجَّه مباشرة إلى البيت الذي يقيم فيه «مصطفى» وأشار لـ «هايدي» على الغرفة واعتذر بأن المفتاح لدى «مصطفى» وطلب منها أن تنتظر في الغرفة المجاورة التي تخصنا.. كانت غرفة شديدة البساطة.. غرفة فندقية بامتياز.. بها كل ما يحتاجه الإنسان.. دهانها أبيض عاجي تتصدرها لوحة لفنان غربي مجهول أعتقد أنه هولندي بناءً على منظر الطبيعة الصامتة الذي رسمه للحقول المترامية التي تتخللها الأبقار العملاقة والفلاحات الفائضات بالصحة، يخفي الشريط الأوسط من الغرفة سريرًا يتسع لشخصين، وفي كل ركن من رأس السرير أباجورة مدلاة.. ملحق بالغرفة حمام نظيف ومجهز بالمياه الساخنة، ويجاور باب الحمام دولاب صغير لحفظ الأواني والأطباق والملاعق والشوك والأكواب وكلها أدوات مائدة عادية جدًّا ورخيصة.. باختصار مفروشات الغرفة وأغطيتها وما يزينها ليست فيها شبهة رفاهية.. بعد أن انتهيت من تفحص الغرفة والحمام وجدت «ريم» تتأملني و«هايدي» تداري فمها كاتمة ضحكة كادت تفلت منها لأنها ظنت أن توقعاتي خابت عندما رأيت بساطة الغرفة، وقالت «ريم» وهي مبتسمة: «أنا أول مرة جيت هنا وشفت الأوض دي.. فكرتني على طول بأوض المدينة الجامعية في أوربا الشرقية زي ما بنشوفها في الأفلام.. نضيفة ومش ناقصها حاجة وعادية.. بس تعرف يا أحمد لما تصحى الصبح وتقف في بلكونة الأوضة وتشم هوا الفجرية»

قاطعتهـا كي لا تسـتطرد: «عارف يـا ريم والأوضة عجباني جـدًّا على فكرة وفتحت نفسي على الإقامة هنا.. بصراحة أنا كنت حاقعد معاكم يوم وكنت حاخلع بأي طريقة بس دلوقتي غيرت رأيي».. كنت أظن أن «ريم» سـتفرح بأني قد غيرت رأيي لكنها تفاجأت وظلت تجادلني طويلًا وتسـتجوبني هل كنت سـأفعل ذلك فعـلًا؟ أتركها هنا وأغادر! وفي النهايـة أقنعتها «هايدي» بأنـي كنـت أمزح فسـكتت على مضض، وغـادرت الغرفة كـي أتعرف على المكان بينما تركتهما تستريحان قليلًا في الغرفة.

قبيـل الغروب استدعتني «ريـم» هاتفيًّـا وأبلغتني أن «مصطفـى» أنهى بروفته وحمل أغراض «هايدي» إلى غرفته وينتظرنا لتناول الطعام، تحركت بسـرعة لأن الفضـول قادني بهمة وحمـاس لملاقاة مثيلي الـذي تذوب فيه «هايـدي» وجرتنـا أكثـر مـن 50 كيلـو لمقابلته وهو غيـر مرتبط بها رسـميًّا كحالـي مع «ريـم»، قابلنـي «مصطفى صـلاح» بابتسـامة حميمية هشـمت الحواجـز بيننا على الفور، كان الطعام موضوعًا على المنضدة الصغيرة التي في غرفة «مصطفى» التي تشـبه المنضدة التي بحجرتنا، جلسـت أنا و«ريم» على الكرسيين اللذين أحضرتهما «ريم» من غرفتنا، كان الطعام بسيطًا جدًّا، وكانـت حصـة كل واحـد منَّا قطعـة صغيرة من اللحـم، وكرة أرز، وسـلطة خضـراء، وطبقًا من الخضـار، وتفاحة وموزتين، لمحنـي «مصطفى» أتأمل الطعام فابتسـم وقـال: «طعام صحي تمامًـا وكوننا نأكله هنا فـي الغرفة هذا اسـتثناء كبير لأن هذا أول يوم لكم في المزرعة وفي العشـاء ستكون الوليمة مكونـة من أنواع متعـددة من الأجبان وبعض المربات وكوب كبير من اللبن البقـري.. أنا عن نفسـي لـم أتذوق مثله فـي حياتي». ثم خبـط بملعقته على

حافـة طبقـي وأردف: «بـس يا حلو من بكـرة الأكل بمواعيـد محددة ومش جـوه الغرف.. في الميس.. مش انت دخلت الجيش؟»، ولـم ينتظر إجابتي. «بالظبط زي ميس العساكر وميس الظباط.. هنا كله واحد كأسنان المشط!»، لـم أفهم إن كان يمدح أم يقدح فنظرت تجـاه «ريم»، لكنه انطلق في الكلام كسـكير لا يهمه مَن يسـمع من حولـه بقدر ما يهمه أن يتكلـم.. فقط يتكلم: «هايدي وريم عارفين النظام ده عشان جُم أكتر من مرة.. أنا بس بقولك كده عشـان انت صاحبي»، ثـم أدرك مبالغته: «قصدي حتبقى صاحبي.. شـوف يـا أحمد يـا صاحبي مدام دخلت المزرعة دي.. يبقى لازم تسـيب الدهشـة مـع هدومك في الشـنطة اللي جـوه أوضتك وتنزل تتفرج بـدون رد فعل».. «خـلاص يا مصطفى خلي أحمد ياكل.. احنا ماكلناش حاجة من الصبح».. كانـت تلـك كلمات قاطعـة من «هايـدي» لـزم «مصطفى» بعدهـا الصمت وعاودنا الأكل كأننا في جمعية للصم والبكم.

هممـت بالانصـراف إلى غرفتنا بعد أن شـربنا الشـاي لكـن «مصطفى» أمسك بيدي واستوقفني وقال وسط بسمة صفاء: «لو نمت دلوقتي حتفضل طـول الليل سـهران.. والليـل هنا مش مظبـوط.. ليل القرن التمنتاشـر مش هتسـمع إلا أصـوات الحيوانات والطيور والحشـرات الليليـة.. هنا مافيش تلفزيونـات والراديوهـات ممكن تسـمعها بس صوتها يفضـل داخل حدود مكانـك.. وأول مـا الفجر يشقشـق حتلاقي الـكل خرج مـن الجحور على أماكـن العمـل.. لو تحـب أفرجك علـى المزروعـات والمصانـع وأول ما الليـل يجي نرجع.. أنا تحت أمرك؟».. «روح معاه يا أحمد.. مصطفى عنده حق».. لم أكن في حاجة إلى كلمات «ريم» هذه لمصاحبة «مصطفى».. لأن

شـخصيته وشـذرات ملهمة ومبهمة تخللت كلامه أسـرتني تمامًا وجعلتني فـي فضول شـديد للتعرف عليه عن قـرب وبمعزل عن السـيدتين «هايدي» و«ريم».

يعلم الله أن كل خطوة سـرتها مع هذا الشـخص - الذي كنت أجهله - قربتنـي منـه كثيرًا، بمجرد أن عـرف أني مهندس توقـف وتفرس في وجهي وشـد على يـدي بحرارة وفاجأنـي بأنه درس الهندسـة لمدة أربع سـنوات، وعندمـا مالـت رمانـة ميزانه إلى الموسـيقى التي يعشـقها منـذ الصغر، ترك الهندسـة وسـافر إلـى روسـيا وتعلم الموسـيقى مـن البداية وتخـرج عازفًا متميـزًا ثـم عـاد إلى مصـر منذ بضـع سـنوات والتحـق بأوركسـترا القاهرة السيمفوني.. كنت مندهشًا مما يقوله.. أن تترك كلية من كليات القمة بمصر بعـد أن درسـت فيها أربع سـنوات كاملة.. وأنت تنجح كل عـام بتقدير كما تقـول، ثـم تبدأ مـن الصفر في كلية أخـرى وبلد آخر.. محـض جنون.. أبي الـذي كان يتلمـس بحنـان المسـطرة الهندسـية الكبيرة في غيـاب أمي وهو ينظـر إلـيَّ كما ينظر آباء أسـر الطبقة الوسـطى إلى أولادهـم الذين تخرجوا في الكليات العسـكرية برتبة الملازم، ويلمِّعـون نجماتهم حتى تصبح أكثر بريقًـا مـن الذهب.. لـو أخبرته ولـو كذبًا عن رغبتـي في التحويـل من كلية الهندسـة إلى كلية أخرى أدنى منها لكان قد شـرب طنًّا مـن البوظة ثم رجع إلى البيت وذبحني، لاحظ «مصطفى» شـرودي فربَّت ظهري وابتسـم: «إيه يـا عمنا مـش قلنا نخلي الدهشـة جوه البيـت.. إحنا هنا في مكان اسـتثنائي وكل اللـي هتقابلهم اسـتثنائيين برغبتهـم أو غصب عنهم وهتشـوف صحة كلامـي ده.. إنت مهندس معماري زي ما قلتلي وبتشـتغل في المقاولات..

يعنـي جامع بيـن التخطيـط والتنفيـذ.. مالفتـش نظـرك إن كل الكميونيات اللـي عدينا عليهـا بما فيهـا الكميونة اللـي قاعدين فيها مافيـش مبنى واحد فيـه زاوية قايمـة؟».. كان قد لفت نظـري هذا الأمر لكني اعتقـدت أنه نتاج مخيلـة معمـاري مبتكـر وليسـت موضوعـة طبقًا لخطة مـا.. سـألته: «وإيه السـبب في ده؟».. ضحك «مصطفى» وهو يجيـب: «لأن الطبيعة مافيهاش زاويـة قايمـة.. ده مكان طبيعـي مية الميـة أو بيحاولوا يخلوه كـده.. زي ما انت شـايف الطاقة كلها شمسـية.. ومافيش اسـتخدام لألوان مش موجودة فـي الطبيعة.. مافيش ألوان مخلقة أو مخلطـة.. وعلى فكرة دي مش حاجة مبتكرهـا صاحب المكان.. لأ دي حركة فلسـفية اسـمها: أنثروبوسـوفيزم، نشـأت في بداية القرن العشـرين، ورجل الأعمال اللـي احنا بندب خطاوينا علـى ملكياتـه متحمس قـوي للحركة دي ومخلـص لها، والنتـاج العبقري اللي قدامنا ده كله بفضل الإخلاص ده».. سألته عن أسباب تواجده في هذا المكان مع زملائه من الموسـيقيين، هل من أجل حفل قريب بهذا المكان؟ ضحك بشـدة وهو يقول: «هما الأختين الحلويـن هايدي وريم ماقلولكش حاجة زي عادتهم.. وأل أيه بيقولوا الرجالة هي اللي بتقود العالـم».. سألته: «هو انت شـارب يـا مصطفى؟».. نظر لي بإمعان وقال: «كاسـين فودكا بعد البروفـة مـا خلصـت.. على فكرة أنـا مش قاصـد أهينك بالكلمتيـن دول.. أنـا زيـك بالظبط.. سـاعات كتير بالاقي هايـدي واخداني لحتت لا شـفتها ولا عرفتهـا ولا خطـرت لي على بال.. من الطبيعي جـدًّا إن هي وريم يبقوا أصحـاب من الطفولة لحـد دلوقتي.. إنما من غير الطبيعـي يا صاحبي إنهم لما يصاحبوا رجالة تطلع الرجالة دي شبه بعض بالظبط.. ولا إيه رأيك؟»

وجدت نفسي أشاركه الضحك، ثم انتحى بي «مصطفى» تجاه مجموعة من الـدكك الحجرية المتراصة بالقـرب من مصنع الغزل كما تشـير إليه اللافتة وجلسـنا علـى إحداها، بعدها انطلـق في الكلام يخبرني عن سـبب تواجده بهـذا المكان.. قال إن صاحب هذا المشـروع الضخم مـن المهتمين الكبار بالموسـيقى الكلاسيك وتحديدًا موسيقى مدرسة فيينا (هايدن - موتسارت - بيتهوفـن)، كما أنه مهتم بدرجة أكبر بتعليـم العاملين لديه حتى الفلاحين منهم الموسـيقى، ليس شـرطًا تعليمهم العزف أو الغنـاء، إنما المهم دفعهم لتذوق الموسـيقى.. ولأن الرجـل المقصود تلقى تعليمـه العالي في ألمانيا وبدأ أول مشـروعاته هنـاك ومرتبط بألمانيا ارتباطًا وثيقًا، وغالبية مسـاعديه والعامليـن لديـه مـن الأجانب وخاصـة الألمـان.. وهو من كبـار المهتمين والمتابعين لأنشـطة الأوبرات الموسـيقية وقادر علـى تمييز وفرز المواهب الحقيقيـة والمبشـرة، وفـي أثناء تردده علـى الأوبرا كان له أكثـر من لقاء مع الموسـيقار «أحمـد الصعيـدي»، وفي إحـدى هذه المرات حـدث لقاء فني قوامـه التقاء المصالـح والأهداف، صاحـب هذا المكان يحب الموسـيقى و«أحمـد الصعيـدي» من أحلامـه المؤجلة تكوين أوركسـترا قطاع خاص، وبعـد اقتنـاع تبنى صاحـب هذا المكان فكرة تأسـيس أوركسـترا «سـيكم» للحجرة، المكون من سـتة عشر عازفًا، وبمعرفة «أحمد الصعيدي» وقدرته تم استجلاب موسيقيين على أعلى مستوى للعمل بهذا الأوركسترا وعرض عليهم مبالغ مجزية.

«مصطفى صلاح» كان أحد هؤلاء الموسيقيين المختارين، وعرفت منه أن المشـروع لـم يبدأ بعد، لكنـه موجود مع بعـض المختارين لعزف بعض

المقطوعات الموسيقية بمناسبة مرور عشر سنوات على افتتاح مصنع النسيج بالمزرعة والذي سيقام في ليلة الغد..

كان «مصطفى» ينظر تجاهي وشبح ابتسامة تظهر على وجهه ثم تختفي وأنا أستوعب المعلومات التي تتدفق على رأسي بانتباه، شردت وأنا أقول لنفسي: «لا أعتقد أن ريم قادتني كل تلك المسافة لمجرد حضور حفل يعزف فيه صديق صديقتها!».. ربَّت «مصطفى» كتفي وهو يقوم من على الدكة وأجابني عن سؤالي الجواني كأنه قد سمعه: «أنا عزمت هايدي تيجي عشان تحضر الحفلة وهي قالت لي إن ريم حتيجي معاها وعلى فكرة لو ريم مش حابة تيجي ما كانش مخلوق في الدنيا حيقدر يزحزها من مكانها وهايدي كده كمان.. ماتشغلش نفسك بإيه اللي وداك ولا إيه اللي جابك.. إنت خلاص بقيت في خريطة ريم وهي حتدخلك عالمها خطوة خطوة.. وبعدين هي وهايدي مهووسين بفكرة الأورجينيك مش في الأكل والشرب بس في كل حاجة.. بطاطين وملايات ومفروشات وحتشوف ده بنفسك وإحنا مروحين.. يالـلا نروح ننام ونصحى بدري وتشوف نهار المكان الأشد غموضًا من ليله»..

النهار هنا بدأ في الساعة السادسة صباحًا.. تعجلني «مصطفى» كي أخرج معه وبدا لا يبالي بنظرات «ريم» التي كانت تبدو كمَن يحذره من الإفصاح.. غادرنا حدود المستعمرة التي نقيم بها إلى المستعمرة المجاورة التي يقيم بها «إبراهيم أبو العيش» صاحب المكان ومساعديه الألمان وبعض النخبة، في الحديقة الكبيرة التي تتوسط تلك المستعمرة كانت كل مجموعة مكونة من ستة أو ثمانية أفراد تلتف حول شجرة وهي ممسكة

بأيدي بعض، اندهشت لكني لم أسأل لمعرفتي بأن «مصطفى» سيسهب في شـرح المشهد، غير أنه أمسك بيدي وجعلني أنضم معه إلى مجموعة بنفس التكويـن، مجموعتنـا كان بها ألماني واحد والباقـي من المصريين، وجدت كلًّا منهم يتمتم بما يشبه الأدعية أو الأوراد، ثم أفلتوا الأيدي وبدأ كل واحد مـن مجموعتنـا يكلمنا عـن الهدف الذي يسـعى إلى تحقيقه فـي هذا اليوم، «مصطفـى» تكلـم عن حفلة المسـاء وأمنيته بنجاحها، لم أجـد ما أقوله غير جملتين أخبرتهم فيهما بسـعادتي بوجودي في هذا المكان الساحر ورغبتي فـي الإلمـام أكثـر بتفاصيله.. بعـد الغداء كانـت هناك محاضرة عـن التنمية الحضاريـة حضرتها مع «مصطفى» وكان تركيزي واهتمامي على المحاضر صاحـب المكان «إبراهيـم أبو العيش».. قبل أن يبدأ فـي الحديث كان ينظر إلـى الجمهـور بالقاعة وهو صامـت تمامًا، وفي غضون بضـع دقائق امتصَّ هـدوؤه صخـب القاعة بالكامل، بـدأ الكلام بتـؤدة وكان يركز على حروف نهاية الجملة كأنها مقولة منحوتة سـوف تنتقل عبر الأجيال لتتبوأ مكانها في الزمـن، وكلما سـمع همهمات في القاعة التفت بنظـرة جانبية وبزاوية حادة مـن رقبته فيسـكت الناس علـى الفور، كانـت المحاضرة في غايـة الأهمية وتنبـئ عن شـخص متعلم جـدًّا ومثقف كبيـر، وقد علمت بعـد انتهائها بأن المحاضـرات والنـدوات التـي يقيمهـا «إبراهيم أبـو العيش» والتـي تتناول موضوعات مهمة كتنمية الإنسـان، والموارد وأحيانًا مسـتجدات ثقافية هي جـزء أصيل من نظام العمل بالمزرعة، وليس شـرطًا أن يكون هو المحاضر فيهـا لأنه كثيرًا مـا يجلب متخصصين وأكاديميين لإلقـاء هذه المحاضرات على العاملين بالمزرعة لزيادة وعيهم.

عبرت لـ «مصطفى» عن إعجابي الشديد بهذا الرجل، بعد أن رأيته يسلم بحرارة على العاملين لديه ويستوقف عاملًا بسيطًا ويقول له: «يا محمد أنا شفتك إمبارح في المنام ووالدتك بتديك سنبلة قمح وده خير».. ابتسم الرجل وكاد يقبل يد «إبراهيم أبو العيش» الذي سحب يده وربَّت بها ظهر الرجل وانصرف.. كان «مصطفى» يضحك بخبث وهو يهمس لي: «أصل عم محمد عنده مشكلة في الإنجاب والناس كلها عارفاها لكن يظهر الحلم ده هيحلها له».. سألت «مصطفى» عن أسباب تحامله على الرجل؟ اندهش وأجابني بأنه لا يتحامل على الرجل فهو عقلية اقتصادية مذهلة.. حقق نتائج باهرة اقتصادية في الغرب (ألمانيا بالتحديد) وأنشأ مجموعة اقتصادية متكاملة في مصر يشيد بها العالم كله، ثم أضاف «مصطفى»: «تعرف يا أحمد المكان ده بيبيع منتجات مدة صلاحيتها تبلغ أحيانًا خمسة أيام يعني بيتعامل مع منتج عالي الخطورة.. ألبان مثلًا تُعبأ هنا وتُباع في أورُبا تاني يوم.. شوف بقى ارتباط خط الإنتاج بالمصدِّر المصري بالمستورد الأوربي بتاجر التجزئة في أوربا.. سرعة ودقة مذهلة لا تتحمل الخطأ أو التأخير لبضع دقائق وإلا فسد المنتج.. لو تأملت ده تعرف بعض قدرات هذا الرجل.. وبيعجبني أيضًا تعامله الحالي مع ثقافة الأغنياء الجدد.. المستهلك المصري المتأنق الذي يهمه أن البضاعة أورجينيك.. ملابس مصنوعة من الأقطان ومنسوجات وسجاجيد.. أنا مش متحامل يا أحمد أنا باستعجب ساعات ليه الفرص اللي أتيحت لهذا الرجل وجعلته يعمل هذه الإمبراطورية لم تتح لكثيرين زيه؟».. سألته: «هو انت شيوعي يا مصطفى؟».. ضحك ولم يعقب..

كنت مهتمًّا وأنا أتابع الحفل بالعمال البسطاء الذين يستمعون بإنصات قدسي، وأعجبني جدًّا وجودهم في الصفوف الأمامية بجوار النخبة وبعضهم من الوزراء السابقين والصحفيين الكبار والسياسيين.. كان الجلوس بأولوية الحضور ما عدا بعض كراسي مخصصة لـ «إبراهيم أبو العيش» وجماعته.. وعقب انتهاء الحفل حاولت «ريم» توجيهي للوقوف مع شلة صاحب المكان الذي كان يحيي أعضاء الأوركسترا ويتكلم مع ضيوفه حول الحفل، أفلتُّ يدي وخرجت من الباب الخلفي بينما «هايدي» كانت تحاول اختراق الصفوف وصولًا إلى «مصطفى».

الليلة التي قضيتها مع «ريم» عقب الحفل كانت ليلة عصيبة إلى حدٍّ ما.. بدأتها «ريم» بمحاولة إقناعي بقضاء ثلاثة أيام أخرى في المزرعة، وكنت قد زهدت من كل هذا الفراغ والسكينة وهذا المكان الذي يجمع كل التناقضات، قلت لها متحسسًا الكلمات بأني سأغادر في الغد، قالت إننا لم نستمتع بعد بأجواء المكان لأن الجميع كانوا منشغلين بحفل مصنع النسيج، لكن من الغد ستعود الأمور إلى طبيعتها، وطلبت مني ألا نغادر قبل يومين لأنها و«هايدي» اتفقتا على شراء بعض المنتجات ولن يتسلماها إلا بعد الغد، أومأت برأسي موافقًا وظننت أني بذلك أرضيتها، وعندما أسلمتها جسدي بدأ فحيح فمها يضرب أذني بغباءٍ وهي تخبرني بأنها ستدبر لي موعدًا قبل المغادرة مع «إبراهيم أبو العيش» لكي أطلعه على أفكاري الهندسية التي قد يستفيد منها في تطوير المكان، انتفضت بعنف والتفت تجاهها وكانت ترقبني بدهشة، وأعتقد أنني صرخت في وجهها أو ارتفع صوتي قليلًا لأنها أشارت بحذر إلى الجدار الذي يفصلنا

عـن غرفة «هايدي» و«مصطفـى»، لكنني لم أأبه واتهمتهـا بالحماقة، كيف يستفيد مـن خبراتي المحـدودة رجل في قامـة «إبراهيم أبـو العيش» الذي كل معاونيـه أسـاتذة ومـن خريجي أكبر كليات الهندسـة بالغـرب، وأعتقد أن غايتها بـأن أكمل ما كانـت قد بدأته مـن الغزل الجنسـي، جعلها تطرق برأسـها وتقول: «أنا آسـفة»، وكان دمي قد تغير بالكامل فأدرت لها ظهري مـرة أخـرى ولـم أسـتجب لأناملهـا التي بـدأت تخربـش ظهـري برقة، ثم رقدت كفها على الظهر بضع دقائق قبل أن تبتعد عني تمامًا، سـألت نفسـي بعـد أن خفت حركتهـا خلفي: «هل النسـاء مثلها ومثل جليلـة طبيعيات أم أنـا غيـر الطبيعي؟!».. كانـت «جليلة» تجلب لـي الزبائن وتخبرنـي هاتفيًا عـن رغبتهـم في الاسـتعانة بخبراتـي بصوت يفيـض بالسـعادة، وكنت في مقتبـل حياتـي أشـكرها فتلومنـي بعنف وهـي تقـول: «نحن واحـد». كان يخامرنـي إحسـاس غبي آنـذاك أنها تدفع لي ثمن تسـتري عليهـا، وبعد أن انفصلنـا خامرني إحسـاس أقذر بأنهـا تفعل ذلك بإحسـاس الأم التي تظن أن طفلهـا لـن يكبـر أبدًا وسـيظل يحتاج دعمهـا إلى ما لا نهايـة، نفس هذا الإحسـاس هاجمنـي في اللحظة التـي أفصحت فيها «ريم» عـن نيتها تدبير موعـد مع هـذا الرجـل الرأسـمالي الكبيـر.. إنهـا تدفـع ثمنًا مقابل شـيء حصلـت عليـه منـي.. لكن يا تـرى ما هو؟ ليـالٍ حميمة؟ علاقـة تؤنس بها وحدتهـا؟! فكرة أنهـا تدفع ثمنًا لصلتهـا بي كدرتني تمامًـا لأن معناها أنها بداخـل علاقـة مؤقتة! وكنا فـي تلك اللحظة في بدايـات علاقتنا، وصحيح أن قلبـي لـم يمـل تمامًـا تجـاه فكـرة الارتبـاط بهـا إلا أن إحساسـي بأنها - مثلي تمامًا - لم تحسـم خيارها ضايقني تمامًا..

اليومان الباقيان مرًّا بسلام.. كل منّا تخلى عما يضايقه وبدونا عاشقين من جديد، نلهو في المزارع والحدائق، نستمع إلى المحاضرات والندوات وننسل من منتصفها نتناول طعامنا في الميس العسكري الذي يجمع كل مَن تدب قدمه على أرض المكان، نتندر فيما بيننا على الطعام الصحي الخالص والكميات القليلة المحسوبة بالسعرات.. لم تتركني إلا وقتًا قصيرًا أخبرتني فيه بأن لديها موعدًا مع صاحب المزرعة، وأكدت لي أنه ليس بخصوصي ولكن بخصوص «مصطفى» التي طلبت منها «هايدي» أن تدعمه، ثم طلبت مني أن أخفي هذا السر عن «مصطفى».. وعندما التقيتها بعد مقابلته، بدت عادية لكني أحسست بأنها تخفي إحباطًا ما، ربما لفشل مهمتها، لكني لم أحدثها فيما لاحظته، وكان «مصطفى» يراقبنا وقت المغادرة ونحن نضع الكميات الهائلة من الأعشاب والفواكه والبقول والخضر وهو يبتسم، بادلته الابتسام وأنا أودعه لكنه تعمد أن يقول لـ «هايدي» و«ريم» بصوتٍ عالٍ إنه سيتابع تحميل ما اشترياه من منسوجات وأقمشة بالإضافة إلى غرفة «ملك» وسيخبرهما عن موعد وصول سيارة النقل التي ستحمل لهما هذه الأغراض، ربَّت ظهري وأنا أنحني لدخول سيارة «هايدي»، كانت هذه المرة الأولى التي أعرف فيها أن «ريم» تعد غرفة لطفلتها «ملك» التي كانت قد أخبرتني بأنها مع والدها في الخليج، بمجرد أن تحركت السيارة مسافة قليلة التفتت «ريم» نحوي وأبلغتني بأنها تعد غرفة لـ «ملك» تحسبًا للمستقبل، فقد تأتي البنت مع والدها لأي ظرف وتقيم معها بضعة أيام، ومن الأفضل أن تكون لها غرفة جاهزة لحضورها في أي وقت، استحسنت فكرتها ولم أعلق.. لم أرَ «مصطفى» بعد ذلك إلا بضع مرات خفية عن «ريم» و«هايدي» وتكلمنا كثيرًا عبر الهاتف والشات، لم يفدني بشيء يساعدني

على سبر غور «ريم»، وأنا أيضًا لم أفده بمعلومات عن «هايدي» سقطت سهوًا من «ريم»، كان أمامنا بحر غامض، غامر «مصطفى» وقرر خوضه بينما جبنت ووقفت على شاطئه، سافر «مصطفى» واستقر مع «هايدي» في الخارج بعد أن فشل مشروع أوركسترا الحجرة وترك عمله الأساسي بأوركسترا القاهرة السيمفوني، «مصطفى» الآن في فيينا يعمل في أوبراها و«هايدي» تقيم معه بعد أن انتقلت إلى مكتب شركتها في نفس المدينة، وأنا على حدود البرزخ.

***

بدا «عماد صدقي» غير مبالٍ بالتمهيدات التي قدمتها له وأنا في سبيلي لقصِّ موضوع «استيلا» صديقة «ريم»، كان بين يديه حذاؤه الميري يزيده بريقًا بقطعة لبَّاد يمر بها بعنف على جلده، وبين اللحظة والأخرى يقول لي: «كمِّل».. قلت له بزهق: «مش حاكمل إلا لما ترمي الجزمة دي من إيدك.. هو العسكري مش لسة جايبهالك متلمَّعة»، توقف عن التلميع وقال وهو يتجه إلى الدولاب ليضع الحذاء في فراغ أسفله: «أصلهم ما بيلمعوش كويس وبعدين خلي بالك عنوان الرجل الأنيق حذاؤه»، عاد ليجلس قبالتي: «إيه رأيك تسهر معانا النهارده.. كارولين حتحب وجودك معانا قوي»، كنت قابضًا على صبري بأنياب من حديد ورغم ذلك خرج صوتي عنيفًا: «عماد.. لو مش هتقدر تعمل حاجة في الموضوع ده خلصني وقول وانا أتصرف»، ضحك وهو يناولني كوب الليمون وقال: «موضوع إيه؟ هو انت قلت حاجة أصلًا.. واحدة اسمها نفسه مشكلة.. استيلا صاحبة صاحبتك، وعندها بار ومطعم وبتواجه مشاكل.. إيه هي أم المشاكل دي.. قولي جملة مفيدة وانا

أتصرف.. وانت عارف إني أقدر أتصرف.. أديني مركِّز معاك.. اتفضل»، استفزتني ضحكته وادعاؤه بأنه لم يسمع المشكلة واضطررت لحكي الحكاية كلها مرة أخرى بالتفصيل وبالضغط على نهايات الجمل وبإعطائه فواصل زمنية لكي يستوعب دقائقها كأني أخاطب شخصًا قدراته العقلية محدودة، بعد أن انتهيت تراجع «عماد» بظهره إلى المقعد وقلب شفتيه واستغرق في التفكير بضع دقائق، ثم انحنى مرة أخرى تجاه المنضدة التي تفصلنا والتي كان عليها «بلوك نوت» صغير دوَّن عليه مفردات الحكاية وهو يرسم خطوطًا متعرجة كأنه يضع خطة حربية، التقط القلم الصغير ووضع بضعة خطوط أسفل اسم «استيلا» والرجل صاحب الكشك، ثم أغمض عينيه وشطب اسم صاحب الكشك وانتظر برهة ثم انهال بالقلم الصغير على اسم «استيلا» يحاصره بأسهم صغيرة من كل اتجاه، وابتسم ظافرًا وهو يريني الورقة ويقول ببساطة: «مش هينفع»، كانت هذه من المرات القليلة التي أرى فيها «عماد» وهو يفكر، وفي كل مرة يزداد يقيني أن هذا الجسد الذي أمامي قوامه الحقيقي هراء، أعاد إجلاسي وهو يقول بصوتٍ حاول أن يجعله حميميًّا: «أحمد.. إنت صديقي وهاكون مبالغ لو قلت صديقي الوحيد.. لكن الموضوع ده فيه لغم كبير إنت مش شايفه.. ده خلاف بين مسلم ومسيحي.. أنا ماينفعش أتدخل فيه وأبلطج على الواد لأني قبطي.. وحتى ده مش مهم لأني بسهولة أقدر أكلم حد من زمايلي بتوع النشاط الديني وأخليهم يجيبوا قراره واعرف منهم هما مجندينه ولا بيراقبوه.. هو عضو ناشط ولا سايق الهبالة على الشيطنة وعايز يقرفها وبس.. وممكن أخليهملك يشدوه ويقعدوه كام يوم في الحجز ويفهموه إن الست صاحبة المكان دي خط أحمر.. كل ده أقدر اعمله.. لكن الفينال بتاع ده كله إيه..

إن الـواد ممكن يتطرف أكتر ويضايقها بجد ويخلي حد يحرق مطعمها وهو مقفول أو يرمي مية نار على وش واحدة داخلة.. ساعتها المطعم ده حيبقى زي البيت الوقف لا حد حيدخله ولا حيخرج منه.. لو الست دي تهمك وأكيد تهمك عشان ريم.. خليها تبيعه في أقرب فرصة أو تقلبه أي نشاط تاني.. هدوم.. جزم.. لانجيري.. حتى لو مطعم تيك أواي وتسلم رخصة الخمور.. أو تخلي حد من بطنها يشتري الكشك ده بأي تمن من غير ما تبان في الصورة»..

عندما وجدني صامتًا استشعر ضيقي فأردف يسترضيني: «طبعًا مش عاجبك كلامي بص يا أحمد م الآخر أنا جنبك.. أي واحد أو واحدة من زباينها يتعرض لهم الواد بتاع الكشك خليهم يعملوا ضده بلاغ في قسم مصر الجديدة وابعتلي رقم المحضر وشوف أنا هاعمل فيه إيه؟».

لم تعد بي رغبة في الحوار فالتقطت الموبايل وأنا أنظر في شاشته مستدلًّا على الوقت، باغتني رنينه، كان رقم شركتي يومض، هممت بإسكاته لكني تراجعت بعد أن وجدتها فرصة للتخلص من هذا الـ«عماد»، رددت بصوت جاف كأنه صاعد من بئر عميقة، وفجأة تحول صوت سكرتيرتي الذي يشبه صوت الرجل المخنث إلى صوت عندليب، قالت إن «جيهان» في مقر الشركة أتت لتعزيني وتريد الانصراف لأنها لم تجدني، صرخت فيها أن تعطيها سماعة الهاتف لكي أكلمها، كانت «جيهان» على الطرف الآخر تعزيني بينما أنا أجمع بيدي اليسرى كل أشيائي الموضوعة على المنضدة وأكرر لها أني سأكون في المكتب بعد عشر دقائق لأني بمكان قريب جدًّا منه، ويبدو أنني بذلت جهدًا في إقناعها لأني أغلقت الهاتف

وتنهدت ووجدت «عماد» يبتسم في خبث وهو يقول: «بنت حلال جيهان دي.. جايالك لغاية مكتبك عشان تعزيك وكمان حتستنى لما تروحلها»، لم أرد عليه لكنه استأنف رذالته وأضاف: «أفهم من كده إنك مش هتقابلنا أنا وكارولين في المسا»، لم أرد أيضًا لكن وأنا بصدد فتح الباب سألني مدعيًا البراءة: «طب وموضوع صاحبة ريم عايزني أعمل فيه إيه بالظبط؟»، التفتُّ إليه وقلت هامسًا: «إخرس»، ضحك بشدة لدرجة أني لم أستطع غلق الباب على صوت قهقهاته..

في غضون ثماني دقائق وثلاثين ثانية كنت أقف أمامها وهي تصافحني بتأثر، وأنا أنهر السكرتيرة لأنها أجلستها أمامها ولم تدخلها غرفة مكتبي، أوقفتني «جيهان» عن الاسترسال وأعلنت بحزم أن السكرتيرة دعتها إلى الدخول لكنها رفضت، سكتُّ وأنا أشير لها بأن تسبقني إلى الدخول لكنها تأكيدًا لموقفها مع السكرتيرة رفضت الدخول وكررت التعزية معتذرة عن تأخر معرفتها بالأمر، ثم استدارت تجاه ممر الخروج، وقفت مغتاظًا تلاحقني صور هرولتي خارجًا من مديرية الأمن وإشاراتي الملحة إلى سيارات الأجرة واستعطافي لبعضهم الذي كان يرفض لقصر المسافة، ثم وصولي وصعودي واختراقي ممر الشركة دون اهتمام أو إلقاء تحية على الذين كدت أصطدم بهم أثناء مروقي، ثم يصدر منها هذا التصرف، كانت قد وصلت إلى قبالة باب الخروج ثم توقفت واستدارت ورأتني، نظرت تجاهي بدقة ثم بحيرة وظلت مكانها دون أن تستدير خارجة، أحسست بأنها مدت بساطًا من عينيها ناحيتي، وجدتني أتقدم نحوها وابتسامة من شفتيها تنبت وتورق بقدر اقترابي منها، مدت يدها تصافحني وهي تقول:

«أنا مش عايزة أعطلك عن شـغلك.. أنا حاكلمك قريب قوي عشـان نتقابل مع بعض ونقعد في أي حتة»، ابتسمت وقلت وأنا أتهدهد على أرجوحة من الجد والهزل: «بس تكوني لوحدك مش وسط الحاشية بتاعتك»، بانت على وجهها الصدمة لبضع ثوانٍ ثم ابتسـمت ولم تعلق، رجعت إلى غرفة مكتبي بمشـاعر متناقضة.. فرحة.. غضب.. حيرة.. غيظ، ثم تغلبت الراحة وسرى خدر في جسدي حتى كدت أغط في النوم لولا رسالة غبية من «عماد» كتب فيها أن هناك حلًّا آخر لمشـكلة «استيلا».. أن تبيع رخصة الخمور التي تبلغ قيمتها هذه الأيام أكثر من مليون جنيه إلى مشـترٍ مسـلم يسـتطيع أن يتصرف مع بائع الكشـك.. ثم اقترح «عماد» في نهاية رسـالته أن أعرض الأمر على «ريم» ربما يعجبها هذا المشـروع خاصة أنها تهوى المشروعات الجنونية.. انتهـت رسـالة «عماد»، فألقيـت الموبايل بعيدًا ولبدت سـاكنًا دون أن أبذل جهدًا في الرد على رسالته.

***

لـم تكف «ريم» عـن اتصالها بي إما سـائلة عن أحوالي ومـاذا أفعل في غير وجودها، أو متسـائلة عما سأفعله بخصوص مشكلة «استيلا»، كنت قد تحججت أكثر من مرة بأني لا أريد أن أربك تفكير ابنتها «ملك» وهي تراني أتـردد عليهما أكثر من مرة، سـبَّتني وقالت: «إنت ما صدقت»، وإن تنبيهاتها لـي قبل وصول «ملك» كانـت بخصوص عدم الإقامة معها في وجود البنت وليـس أن أتركها هكذا، وذكرتني بأنها أوصتني بأن أتقرب إلى «ملك» لأنها سـتكون بمثابة ابنتـي عندما نرتبـط، كان ظهـور «جيهان» قد أربكنـي تمامًا وأفسـد حسـاباتي، لـو كانت خططي المسـتقبلية مـع «ريم» تعتبـر من قبيل

الحسـابات أو الخطـط، «جيهان» رمت لي بحبل اللقـاء ولو انتظرت تحققه سـتطول الأيام.. «جيهـان» هي الريح التي ألقت بي إلـى حضن «ريم» ومن البلاهة أن أعيد الكرَّة، وجدت نفسي مدفوعًا لرؤية «ريم» كأنني أحتمي في ظلهـا من ريح سـموم، لم أشـأ أن أخبرها بنتيجة مقابلتي مـع «عماد» هاتفيًّا وقررت أن أزورها في الصباح وكان هذا توقيتًا مريعًا..

رننـت الجرس بالرنات المتفق عليها لكن تأخـر خروجها قليلًا رغـم أن الصخـب المحتجز خلف البـاب كان ما زال متواصـلًا، فتحت الباب وهي مرتدية «روب» طرفيه مربوطين بعجالة ومن فرجاته يبين «شورتها» الساخن و«السـوتيان»، وجهها خالٍ من المكياج وشعرها معقود إلى الخلف وأكمام الروب مشـمران إلى الكوع وذراعاها العريانـان ملوثان بالكامل ببقع بيضاء كنـدف القطن، ووجهها أيضًـا لاحقته هذه المادة وتركت فيـه بثورًا مختلفة الأحجـام، ذُعرت عنـد رؤيتها بينما ابتسـامتها التي اسـتقبلتني تحولت إلى قهقهة عندما أحسـت بخوفـي عليها وقالت بخفة وهي تشـير لي بالدخول: «ماتخافـش ده مـش جـرب ده نيولـوك». قابلتنـي الصالـة وقـد أخليت من بعض أثاثها وفي وسـطها وضعت الترابيزة الخشـبية الخاصة بالمطبخ، كان سـطح الترابيزة عليه جبال ووديان وكرات من تلـك المادة التي تأكدت أنها «الدقيـق».. وكانـت علـى الجانب الآخر مـن الترابيزة «ملـك» وبيدها عود خشـبي رفيـع تلعب به فـي الدقيق الـذي انتقلـت ذراته وحباته إلـى وجهها فأحالها إلى ما يشبه حيوان الفقمة، هلَّلت «ملك» بمجرد رؤيتي وصرخت: «أونـكل.. أونكل.. كويس إنك جيت عشـان تلعب معانا».. قاطعتها «ريم» بحزم: «مش هينفع يا ملك عشـان هدومه ماتتوسخش»، سكتت البنت بينما

دخلت «ريم» إلى غرفتها وأشارت لي بالجلوس، بمجرد أن غادرتنا «ريم» همست البنت بمسكنة: «أونكل عشان خاطري إلعب معانا»، همست وأنا أشير إلى ملابسي: «مش هينفع يا ملك»، صمتت كأنها اقتنعت ثم لم تمر لحظات حتى عاودها الخبث وهي تقول: «لو فاكر إن مامي هتزعل منك لو لعبت معانا تبقى غلطان.. مافيش أم بتزعل لما حد يلاعب بنتها»، عادت «ريم» بعد أن استبدلت ملابسها المكشوفة بالـ«ترنينج سوت» وطلبت منها أن تحضر لي شيئًا أرتديه فوق ملابسي حتى لا تفسد عندما ألعب معهما، رمقتني «ريم» بدهشة وتحولت نحو «ملك» التي تشاغلت بدب عصاها في قطعة من العجين، ثم تحركت «ريم» وعادت بملاءة بيضاء أحكمت وضعها حول جسدي بمشابك خشبية وطلبت مني أن أُشمر أكمام القميص حتى لا يتسخ، سألتها وهي تعدني للمعركة: «هي إيه اللعبة دي بالظبط؟»، أجابت بدلال: «Jour de Pattes.. يعني يوم الدقيق.. مناسبة بيلعب فيها الأطفال في المدارس.. فكرت أعمله في البيت عشان ملك ماتملش»، بدأنا في تشكيل الدقيق بعد مزجه بقليلٍ من الماء تشكيلات مختلفة حسب مخيلة كلٍّ منَّا.. خرجت من تحت يدي بعض المثلثات والمربعات والمكعبات وبيت صغير، وحاولت «ملك» تشكيل بعض الحيوانات والدمى ونتائجها ليست سيئة، وأجادت «ريم» تشكيل بعض راقصات الباليه وتميزت في تجسيد بعض الزواحف مثل التمساح والورل والسحلية، كنت قد أخبرتها بمحصلة حواري مع «عماد» وأبدت استياءها من ردوده، وعندما وصلت إلى فكرته بأن تشتري المحل، سبَّته بالفرنسية وطلبت مني ألا أعاود فتح هذا الموضوع معه مرة ثانية، ولامست يدها وهي تدبها في العجين فصفا وجهها وتحولت

إليَّ بملامح نصفها عتاب ونصفها شهوة، ثم وجدت البنت تمطرنا بفتات العجين وكراته وردَّت عليها «ريم» بقذائف حرصت على ألا توجهها تجاه رأسها مباشرة، ثم بعدت عني وسددت تجاهي قذائفها الصائبة وهي تصرخ وتأمرني بالاشتراك في المعركة.. وكانت «ملك» مثل ملاكم قذر تصوب تجاه الأماكن المكشوفة من جسدي.. في الجبهة والخد، وكادت تصيب عيني، وظللنا على هذا المنوال لأكثر من نصف ساعة، أُجهدت فيها تمامًا ولم يتبقَّ مني سنتيمتر واحد لم يلوثه الدقيق عدا قعر حذائي، ثم أعلنت «ريم» توقف القتال وأمرت «ملك» بأن تنتظرني حتى أغتسل، وطلبت منها أن تستحم بعدي، نفضت عني الملاءة بمشابكها واغتسلت وقلت لـ «ريم» وهي تناولني المنشفة بينما «ملك» تراقبنا: «حرمت»، ضحكت «ريم» بشدة وهي تقول: «إحمد ربنا إنك ماجتش في يوم الكاتشب أو يوم المايونيز».

تغديت معهما بيتزا بفواكه البحر من إعداد «ريم»، استخدمت فيها الدقيق الذي أفلت منَّا، طلبت مني «ريم» أن أبقى معهما إلى المساء ثم نتوجه معًا إلى أحد المولات نتبضع ونشاهد أحد الأفلام، اعتذرت وراقني منها أنها لم تُلح، وأنا في الخارج رنَّ هاتفي في توقيت مثالي، وكانت على الطرف الآخر «جيهان» تسألني إن كنت خاليًا من الارتباطات في صباح الغد كي نتقابل، لم تكن بي حاجة للتطلع إلى أية مفكرة مواعيد أو إجهاد ذهني في تذكر ظروفي في الغد، وافقت بسرعة وحفظت المكان غيبًا رغم أني لم أدخله مطلقًا.

* * *

كانـت «ريـم» قـد راودتنـي عـن نفسـي همسًـا قبيـل خروجـي وأبدت استعدادها للمبيت عندي في الوقت الذي أختـاره أو تدبير زيارة لي لها في أثنـاء النهار نطفئ فيها بعض لوعتنا، وضعت الكـرة في ملعبها وطلبت منها أن تختار الوقت المناسـب وتبلغني قبلها بساعات كي أتهيأ، وبتلك الجملة تجنبت سوء ظنها وريبتها وضمنت عدم مفاجأتي أو تعجل لقائنا، فلو بدرت مني شبهة تردد لما أفلتُّ من خططها المباغتة..

الصباح بالنسبة لـ«جيهان» مبكر جدًّا عن صباح «ريم» الذي يبدأ غالبًا بعد الظهر، «جيهان» بصباحها هذا تعيدني إلى زمن بدايات عملي في المقاولات الخاصـة.. حيـث مع أول نقطة نور أكون قد جمعت العمال وأشـرفت على صبّة الأسـمنت واختبرت حديد التسليح وخشـب الكمرات والأعمدة، في الثامنة بالضبط حسـب موعدنا كنت أقف أمام مدخل المكان الذي تصطف على جانبيه شـجرتان مهيبتان، ثم نزلت الدرج الأسـمنتي وعيناي تسابقاني بحثًـا عنهـا، ووجدتها، ظهرهـا كان في مواجهتـي وقدماهـا مركونتان على الرصيـف الحجري الأبيـض والمنضدة تخفـي عني جانبهـا الأيمن، كانت تتأمـل النيل وقميصها الوردي يهل من بعيد كـوردة بلدية عملاقة، ونهايات شعرها الأسود منتظمة كالهلال في تمامه والمقصوصة بإحكام كأنها قُصت بالاستعانة بميزان خيط، اقتربت وخبطت بسبابتي على المنضدة، استدارت تجاهي بوجهٍ صبوح وسـلَّمت عليَّ وهي جالسـة بأطـراف أناملها كعادتها، وبعد أن أفلتت كفها أشـارت إلى المقعد وعدلت اتجاه مقعدها لتواجهني، عدسـتا نظارتها السوداوين اتقاءً من أشعة الشمس كانتا تأكلان ثُلث وجهها وضايقنـي ذلك بضـع لحظات، ربما لأنـه مرت فترة كبيـرة دون أن أختلس

النظـر إليهما، وربما لأني كنت أتمنى أن أتلمـس منهما أن تخبراني صراحة هل افتقدتني؟ أم مقابلتنا هذه استكمال لواجب العزاء السريع الذي قدمته لي في الشركة على الواقف بفستانها الأسود الأنيق وبعقودها وحليها وحلقانها التـي كانـت أحجارها تضيء وإن كنت لم أميز هل هـي مقلدة أم أصلية، في تلـك اللحظـة لم تكن تتزيـن بأي قطعة أصليـة أو إكسسـوار.. بالضبط كما كنـت أراها على الأغلـب.. بوجهٍ خالٍ من المسـاحيق أو عليه أثر منها يكاد لا يبيـن، وبخاتمهـا الذهبـي البسـيط الموضـوع علـى الدوام فـي بنصرها، وحجـره الفيـروزي الصغير في حضــن كفها حتى يبدو كدبلـة زواج ويكف عنها تساؤلات الفضوليين، كما أجابت بذلك على أحد رفاقها في أثناء جلسة جمعتني بهم.. طلبت لي فنجال قهوة شربته وطلبت بعده كوب ليمون بينما طلبت لنفسها عصير برتقال.. اعتذرت عن عدم معرفتي بمعرضها وظروفي التي منعتني عن حضوره، قالت بلا مبالاة إنها أرسلت دعوات عبر الموبايل لـكل قائمة أصدقائها كما هـو معتاد في مثل هذه المناسـبات، وطبيعي جدًّا أن موعد أو مكان المناسـبة قد يتعارض مـع ظروف بعضهم فلا يحضرون، وإنهـا اعتادت على عدم لوم أحد تخلف عن مناسـبة لهـا أو الاحتفال بتلك المناسـبة فغالبًا ما يحتشد المهتمون في هذه المناسبات ولا يدري الشخص المضيف مَن حضر أو مَن غاب، قلت في نفسـي بعد انتهاء جملتها: «ها قد بدأت الغلاسة ويعلم الله إلى أين ستقودنا!»..

ولـم أكن قـد دخلت بعـد إلى حسـابي في الفيس بـوك لذا لـم أرَ صور معرضهـا ولـم أكوِّن فكـرة عنه ولم أكتب استحسـانًا أو تعليقًـا وربما يكون هـذا قـد ضايقها أو لعلها اسـتاءت من عـدم حضوري حفلتها فلـم تنسَ لي ذلـك وبـدأ فمها يرجمني بقذائفه، سـألتني عن سـبب صمتـي؟ أجبتها بأني

أتأمـل جمال المكان، ابتسـمت بخبث وهي تخبرني بـأن من عادتها البحث والتقصي عن أمكنة تعجبها وتحقق لها الانسـجام النفسـي، وعندما تتوصل إلى مثل هذا المكان تعتبره سـرها الصغير ولا تبوح باسـمه أو عنوانه إلى أي شخص مهما كان، وكلما ضاقت أو أجهدت ذهبت إلى هذا المكان المختار لتختلي بنفسـها وتعود لها روحها وسـكينتها، وأن هذا المكان الذي نجلس فيه الآن من هذه الأماكن، سـكتت قليلًا وأنا أشـيد بالمكان وهدوئه وفرادته وزبائنـه الذيـن يبدون كأنهـم جزء من بنيته، لم أسـتطع أن أضبط حماسـتي الكبيرة للمكان التي شـدت من عزمها كونها اختارتني لتطلعني على سـرها هذا، ويبدو أن «تون» صوتي أقلقها أو لعلها استشفت فرحتي بأنها قاسمتني هذا السـر لأنهـا قاطعتني وهي تقول ببسـاطة متناهية، إنهـا كلما زهدت من مـكان أخبـرت أصدقاءها به واسـتضافتهم فيه، وبإعلان هـذه العلانية تنهي إلـى الأبـد ترددها عليه، وجمـت قليلًا بعد قولها بينما هـي تنظر تجاهي من خلال عدسـتي نظارتهـا الكبيرتين، خيل إليَّ أنني لمحت بسـمة كيد تنفلت من بين شفتيها لكنها بترتها بسرعة قبل أن تتحول إلى ضحكة ساخرة وقالت في محاولة لتغيير الحديث: «تحب نفطر دلوقتي ولا تشرب حاجة تانية قبل الإفطـار؟».. أجبتها سـاخرًا: «أنا مش هفطر دلوقتـي ورأيي إننا نطلب اتنين قهوة سـادة حدادًا على المكان ده اللي مش هنيجي فيه تاني»، انطلقت منها ضحكة عذبة لم تسـتطع أن تسيطر على طولها وحجمها لدرجة أنها اهتزت في كرسـيها أمامًا وخلفًا، وسـارعت بوضع يدها أمام فمهـا وهي تنظر يمينًا وإلـى أمامها متوجسـة من أن يراها أحد على هـذا الوضع.. كانت ضحكتها تلك قد أعادتني إلى مضمار سـباقها ونفضت عني مؤقتًا فكرة أن أعتذر عن الإفطـار معهـا وأنصـرف ردًّا علـى جفائها المدعـى، تكلمنا بعـد ذلك فيما

لا طائل فيه وكأننا نحاذر أن تجمعنا نقطة ما تتسبب في تنافرنا، وجاء إفطارها البسيط لكن بطقسها المميز.. طقس «جيهان» الذي تحرص عليه في اختيار الأمكنة وما يقدم بها من أطعمة ومشروبات.. فول بزيت الزيتون تطفو على سطحه قطع صغيرة من الطماطم وأوراق البقدونس.. طعمية خضرتها غالبة على سمسمها الأصفر.. بيض مسلوق وآخر ملون كأننا في يوم شم النسيم.. طبق صغير به سلمون مخلل وآخر به شرائح أنشوجة.. جبنة بيضاء.. جبنة فلامنك صفراء.. عصير برتقال... خبز جاف مقبب ومفرغ من الداخل وهذا أيضًا بألوان متعددة (خبز السن بلونه الأسمر وخبز أخضر من عجينة السبانخ وخبز أصفر يدخل الكركم في مكوناته وخبز أحمر يتسيد البنجر دقيقه)، بالإضافة إلى السلَطات المتعددة الألوان والمذاق.. أكلت بشهية لسببين أولهما منظر المائدة التشكيلي الخلاب وثانيهما لأني حرصت على تذوق كل صنف موضوع أمامي.. وعندما انتهينا من فطورنا واغتسلنا، نظرت «جيهان» إلى ساعتها وقالت إن أمامها نصف ساعة فقط لأن لديها موعدًا في وسط البلد، قلت لها إنني جاهز للانصراف، طلبت مني التمهل قليلًا حتى نشرب شيئًا يساعد على هضم هذا الإفطار، لمحت بعض الحبوب تعلو نهاية جبهتها عند حدود فروة رأسها.. سألتها عنها.. أجابتني بسرعة وهي تنتقد صديقتها «بسمة» التي وصفت لها شامبو يغذي بصيلات الشعر ويزيده لمعانًا لكن بعد مرتين فقط من استعماله ألهب فروة رأسها ونثر هذه الحبوب على جبهتها.. وقبل أن أعلق بادرت وأضافت: «على فكرة الشامبو ده ماركة عالمية.. إنت عارفني مش هتورط في شرا حاجة مش مضمونة، بس يظهر إن جسمي حساس لحاجة في تركيبته.. بس الحمد لله على كده لو كنت شفتني من أسبوع كنت هتصعق»..

سلَّمت عليها عند خروجنا من بوابة المكان وهممت بالانصراف لكنها استوقفتني حتى يأتي المنادي بالسيارة، وغادرت بمفردها كما أنا متيقن وتركتني على الرصيف نهبًا للمنادي يسألني أين ركنت سيارتي؟ ثم يندهش من إجابتي ويتطوع بإيقاف سيارة أجرة يفتح لي بابها غير منتظر إكراميتي، لكنني منحته ضعف ما منحته هي.. وما زلت أشعر بالاستياء من تلك السيارة اللامعة النظيفة التي تشبه من الداخل غرف العمليات الطبية المعقمة.. تلك السيارة الأنثوية التي لم أرَ ذكرًا مطلقًا فيها وقد أدهشني هذا الأمر من قبل وسألتها فضحكت من ملاحظتي لكنها لم تعلق، وأعدت سؤال أصدقائها في غير تواجدها وأكدوا لي هذا الأمر.. أرملة لا تتواجد إلا بين الجموع.. ولا تعرِّض نفسها لسوء الظن وتتخوف حتى من وجود أي ذكر في سيارتها.. وتعبيراتها محايدة وردودها قاسية وأليمة إذا ما اشتمَّت في المحاورة تعبيرات منداة بالعاطفة، وهناك مستطيل تحدده دائمًا بنظرات زاجرة يبدأ من أسفل رقبتها وينتهي أسفل ركبتها ويا ويل أي ذكر كان لو استقرت نظرته بضع ثوانٍ بداخل ذلك المستطيل.. ستفتعل أنها مرتبطة بموعد آخر وتغادر.. ذلك لو كنت تهمها أما لو كنت بالنسبة لها غير ذي بال فتوقع أسوأ الاحتمالات.. هذه هي «جيهان» التي لا أدري كلما هربت من رؤيتها وتجنبت لقاءها عدت مهرولًا كلما واربت بابها قليلًا ما أسوأ أن ترى نفسك أحيانًا كاليويو كلما قُذف بعنف تجاه جدار ارتدَّ عائدًا بعنفٍ أشد.

***

جيهان العرابي

انتهى موعدي مع أول الذكور وها أنا الآن في الطريق لمقابلة «فريد» الذي لاحقني طالبًا رؤيتي بحجة أنه يفتقدني ويريد الاطمئنان على أحوالي، بعد أن منحته موعدًا يلتقيني فيه على مقهى في وسط البلد تذكرت توءمه الملتصق «إبراهيم» وأدركت أنه فور علمه بلقائي مع «فريد» سيطالب بحصته في مقابلتي، لذا تخابثت واتصلت به حتى يلحق بي في أثناء لقائي مع «فريد»، استفزتني ضحكته الممطوطة على الجانب الآخر التي استهلَّ بها كلامه يبلغني بأن صديقنا «فريد» أخبره بالموعد وطلب منه الاتصال بي كي يستأذن في الحضور، أبلغته باقتضاب بأن ينضم إلينا ولم أعلِّق على حوارهما المشترك، ثم تكدرت جدًّا عقب المكالمة.. لقد هنتِ يا «جيهان» وهان شأنك! حتى التوءمان الملتصقان تحالفا ضدك وبعد أن كانا يستميتان في طلب رؤيتك كلًّا على انفراد، أصبحا لا يرغبان في رؤيتكِ إلا معًا كأنكِ مصاصة دماء لو استفردتِ بأحدهما ستفتكين به، ما الذي حدث لك يا «جيهان» وكلهم يدركونه عداك؟ ما الذي أبطأ ردود أفعالك وقلل من ألمحيتك وعطل تروس ذكائك؟ وما الذي جعلك «مانيكان» مهمل في ركن «فاترينة» ملابس؟ «أحمد الضوي» يحدق في وجهك ويعلق على بثرة أو اثنتين في أعلى جبينك وأنت تجيبين ببساطة وبصراحة كأن من حقه التعليق على شكلك أو زينتك. وهذا جرَّأه أكثر عليكِ وأثناء وقفته معك بالخارج في انتظار سيارتك حدق في بطنك ثم أومأ برأسه تجاهه وقال وسط

ابتسامة لزجة: «إيه يا جيهان ده؟ خفي شرب مية شوية وامشي كتير عشان ما يطلعلكيش كرش»، وبدلًا من أن تصرخي في وجهه وتردي بسماجة: «وانت مال أهلك؟»، أو لا تردين عليه وتكتفين بنظرة مهينة كعادتك، قلتِ بنفس البساطة المقيتة: «أصل أنا بقالي فترة مزروعة في البيت.. ما كانش عندي أوردرات تصوير وفضلت أقرأ وآكل ولقيت نفسي زدت سبعة كيلو»، ما هذه «البلاطة» التي حطت عليك يا «جيهان»؟ وما هذه السلالم التي بتِّ تضعينها لكل مَن هبَّ ودبَّ كي يصعد عليها إلى خصوصياتك، هل هذا يتفق مع قرارك الأخير يا «جيهان»؟ أن تقلصي عدد المحيطين بك وليس لهم لزوم.. لأنك نويتِ ألا تضيعي باقي عمرك وسط أصدقاء مزيفين وتكتفي بعدد لا يتجاوز قبضة اليد باعتبارهم مكتوبين على الجبين، الذكور الثلاثة الذين قررت الاحتفاظ بهم.. اثنان منهم تحالفا ضدك والثالث تجاوز المساحة التي تحددينها دائمًا للاقتراب الذكوري منك.

عقدت العزم على الاتصال بـ «أحمد» في المساء وتوبيخه بشدة حتى لا يتكرر ذلك، غير أن خطتي للبقاء في البيت والانفراد بنفسي عقب لقائي مع «فريد» و«إبراهيم» تبددت تمامًا، لأنه فور انتهائي من الاستحمام وتأهبي لأخذ قيلولة قصيرة لاحقتني «بسمة» برناتها حتى استجبت ورددت عليها، أخبرتني على الفور بمرض «رنا» الذي علمت به مصادفة عن طريق صفحة الفيس بوك الخاصة بزوجها «فؤاد»، أبلغتها بإجهادي وبرغبتي في زيارة «رنا» في الغد، قالت لي بعد أن استجمعت نبرات صوتها الكئيبة: «على العموم براحتك.. وعلى فكرة هي مش بترد على التليفون خالص وماتفتكريش إنها شافت رقمي وماردتش عشان كنا زعلانين من بعض.. لا خالص.. جوزها

كاتب حاجة تقلق على الفيس.. أدخلي شوفي صفحته وأنا هنتظر تفوت ساعة من دلوقتي لو ماكلمتنيش حاروح لوحدي». أقلقني جدًّا ما تفوهت به «بسمة» وجعلني أهرع إلى جهازي وأدخل منه إلى حساب «رنا» أولًا لكنني وجدت حسابها على حاله ولم يتغير منذ ثلاثة أيام، ثم أسرعت إلى حساب «فؤاد» فصدمتني جدًّا عبارته التي تصدرت الحساب: «حبيبتي رنا في حاجة إلى دعواتكم».. أنا أكره هذا الفضاء الإلكتروني أو الافتراضي.. أمثال هذه العبارات التي تقفز إلى وجهي بمجرد ولوجي داخله تبدِّل كيمياء جسدي تمامًا.. دعواتكم بالمغفرة لزوج بنت خالتي الذي رعاني صغيرًا.. ابن عم سلفي في العناية يحتاج دعاءكم.. صحوت من النوم ووجدت صباع رجلي الصغير منمل.. هذا بخلاف.. I feel sad بجوار أيقونة الوجه الحزين.. وأشعر بالاكتئاب وبجوارها أيقونتها.. أنا في سبيلي لإغلاق حسابي بهذا الفيس المزعج.. «فؤاد» لم يضف تفاصيل لمرضها ولم يرد على أصدقائه الذين واسوه واستفسروا عن صحتها، اتصلت بـ«رنا» لكنها لم ترد، ثم أرسلت لها رسالة أطلب منها فيها أن تجيب اتصالاتي أو تطمئنني على صحتها، لكنها لم ترد أيضًا وهذا أقلقني جدًّا واضطرني للاتصال بـ«بسمة» أبلغها باستعدادي للذهاب معها وأسألها إن كانت ترغب في أن أمر عليها في العمل أو البيت لأصطحبها بسيارتي، أجابتني بسرعة أنها ستركن سيارتها أمام بيتي لأنها قريبة جدًّا مني وستصعد إليَّ وتنتظرني حتى أبدل ملابسي ثم ننزل سويًّا..

بعد حوالي ساعة كنت أستقل سيارتي وبجواري «بسمة» في طريقنا إلى «رنا»، كان الكلام قد انقطع بيننا ونحن في السيارة وتخلت «بسمة» عن

تصفح المواقع في محمولها وخفضت من صوت مسجل السيارة، سمعت صوت نحيبها فالتفت تجاهها بحذر ووترتني جدًّا دموعها فصرخت فيها أن تكف عن هذا الابتذال لأن «رنا» بخير، انكمشت في مقعدها ومسحت دموعها وخرس صوتها، راقني امتثالها السريع لأمري فرفعت صوت الأغنية الدائرة وبدوت لا مبالية رغم أن المخاوف داخلي قد توحشت واحتلت كامل جسدي، كنت أردد المقاطع الغنائية مع المطرب وأسب في الوقت ذاته «فؤاد» زوج «رنا» باعتباره السبب الحقيقي في أي مصيبة تلم بها وأسب «بسمة» أيضًا وميولها الميلودرامية التي تستدعيها في أغلب المواقف وبسرعة أكبر من المسافة بين شهيقها وزفيرها، ثم استدعيت خناقتها العبثية الأخيرة مع «رنا» التي لم أتدخل فيها ولم أهتم بالتوفيق بينهما لأني اعتبرتها من قبيل «لعب العيال».. «خيري» صديق «بسمة» أبلغها بقرب سفره إلى أمريكا ليقضي فيها شهرًا بتمامه يدرس «سيمنار» ما، ومن لحظة أن علمت «بسمة» بالسفر (قبل موعده بأسبوع) والهم والنكد والاكتئاب يتبادلون التعلق بوجهها، اتصلت بـ«رنا» وطلبت دعمها حتى تنتهي هذه السفرية على خير، وحاولت «رنا» الالتزام بما طلبته منها، أما من جهتي فالأمر مختلف لأني أعامل «بسمة» بطريقة فعالة، عندما تصدِّر لي طاقة سلبية أعيدها إليها على الفور فتسكت ولا تتمادى، في موعد السفر أو قبله بساعة على الأقل، فوجئت «رنا» بزيارة «بسمة» لها ورحبت بها لأنها أدركت حاجتها الإنسانية إلى الأصدقاء في تلك اللحظة بالذات خاصة وقد حرمت من أن تودعه في المطار لأن زوجته وأولاده تولوا عنها هذه المهمة، حان موعد إقلاع الطائرة كما هو مدون في «برينت التذكرة» الذي طبعته

له «بسـمة» واحتفظت بنسـخة، قالت لي «رنا» إن «بسـمة» تحولت في تلك اللحظة وازداد بياض وجهها واقتربت من اللون الشمعي والشبحي، «تخدل» جسـدها وانهار مرتدًّا إلى ظهر المقعد، انطلقت شفتاها في الدعاء له وقراءة سورة الفاتحة بصوت هامس، ظلت على هذا الحال لأكثر من ربع ساعة ثم افتعلت التماسـك، ومضت تهرتل - على حـد قول «رنا» - في موضوعات شتى وكل فترة تنظر إلى ساعتها، تجنبت الحديث عن «خيري» تمامًا وهكذا فعلت «رنا»، تناولت بضع لقيمات في الغداء وكان قد مرَّ على إقلاع الطائرة حوالي خمس ساعات، ظنت «رنا» أن الأمور عادت إلى ما يرام وهي تسمع ضحك «بسمة» على نكت قديمة كانت تتذكرها بصعوبة وتسردها بأداء بالغ السـوء، قالت «رنا» وهي تقلب لها الشاي: «مش كان أحسن إن خيري ينزل ترانزيـت في أي دولة عشـان تطمني عليه بدل الديركـت ده اللي حيخليكي قلقانة حداشر ساعة».. عندما سمعت «بسمة» اسم «خيري» خمَّست بكفها خمس مرات في وجه «رنا» التي اندهشـت جدًّا، وظلت المعتوهة «بسـمة» تـردد: «بـإذن اللـه هيوصل بالسـلامة» خمـس مـرات أيضًا، كأن ذكر اسـم «خيري» وهو في داخل الطائرة وهي تطير سـيهوي بها من حالق.. سـكتت «رنا» تمامًا وأدركت «بسـمة» غلطتها بعد فترة واعتذرت بحجة قلقها، لكن «رنا» لـم تجادلها وقالت لها إنها متعبة، واسـتأذنت في الدخول للنوم وهي تسـحب ابنها، لملمت «بسمة» حاجاتها ورزعت الباب خلفها دون أن تلقي التحيـة على «رنـا».. هذا هو مضمون الخـلاف التافه الذي نشـأ بينهما ولم أتدخل فيه لأنه أثار داخلي كمًّا من السـخرية والضحك وبدلًا من أن أتصل بـ «بسمة» وأعاتبها بغلظة كما طلبت مني «رنا»، قلت لها أن تصبر قليلًا على

«بسـمة» حتى تطمئن على وصوله بالسلامة ويركز عقلها، ولقد تصالحا في غفلة مني وهذا شيء جيد.

كلمـا اقتربت من منزل «رنا» كان قلقي يزداد وبالكاد أسـيطر على ثباتي حتى لا تلمحني «بسمة» وتبدأ مناحة جديدة، وعندما توقفنا أخيرًا أمام عتبة بيـت «رنـا» تذكرت «بسـمة» فجأة أننا لـم نجلب معنا حلوى أو شـيكولاتة وطلبـت منـي أن أعود بالسـيارة إلى السـوق لشـرائها أو نشـتري بـدلًا منها بعض الفاكهة، زغرت لها بعيني وأنا أهمس. «مش وقته يا بسمة ياللا نطمن على رنا الأول»، فتح لنا والد «رنا» الباب وهو يسـتقبلنا بابتسامة لكننا مرقنا بسـرعة من أمامه تجاه غرفة نوم «رنا» ووجدناها راقدة على سـريرها ويبدو علـى وجههـا بعض الوهن، وعندمـا رأتنا اعتدلت وهي تتلقـى قبلاتنا، كان «فـؤاد» يجلس على حافة سـريرها وأمامه مقعد يبـدو أن والدها كان يجلس عليه.. جلسـت أنا و«بسمة» على الكنبة الملحقة بالغرفة والتي كانت تجاور ناموسـية الطفـل الـذي كان يرقد فيهـا وهو يغط فـي نومه، نظرت «بسـمة» تجاهي بخبث متناهٍ كاتمة بسـمة سخرية بعد أن علمنا أن «رنا» عاودتها آلام القولون العصبي الذي كان ثلاثتنا نشـترك فـي إصابتنا به ونرى منه الويلات عقـب كل ضغط عصبي يواجهنا، وبما أن هـذا الـ «فؤاد» زوج لـ «رنا» فمن الطبيعـي أنـه رأى «رنـا» تتعـرض لأزماتـه أكثر من مـرة وعـرف منها كيف تسـكن ألمه وتخفف التهابه، إذن فلماذا هذا «الشو» الإعلامي الذي بثه عبر الإنترنـت، كنـت مغتاظة منه جدًّا وسـألته عن سـبب كتابة هـذه العبارة التي أزعجتنا، ابتسم ابتسامة لزجة وانتقل بجسده قربها ثم لف يده اليمنى حولها وضغطهـا إليه وهو يقبل رأسـها ويقـول بصوت عندليبـي: «نوبات القولون

دي جاءتهـا كتيـر لكن نوبة المـرة دي - أجارك الله - كانت شـديدة قوي.. ومبقتش عارف اعمل لها إيه؟ اتصلت بدكتور قريب وكتبلها نفس الأقراص اللـي بتاخدها كل مرة وحذرها من الإنفعال.. وأنا كتبت العبارة دي وأنا في انتظار الدكتور ورنا بتصرخ من قولونها وأنا بادعي ربنا إنه يشـيل منها الألـم ويحطه عليا.. والحمد لله دلوقت بقت كويسـة»، لم تتمالك «بسمة» نفسها وأسـرعت في الخروج من الغرفة في اتجاه دورة المياه، بينما شـللت تمامًا ولـم أدع عضلـة واحدة من عضـلات وجهي تتحرك معترضة أو سـاخرة أو صارخـة فيـه.. يا كداب يا منافـق.. كانت عيناه مصوبتين لـي وهو يتحدث، وكنت أتشـاغل بالنظر إلـى «رنا» التي يبدو لي نصف وجههـا محايدًا، بينما دون أن أجتهـد وأحـرك عيني تجـاه والدها لكي أعرف تأثيـر هذه الكلمات عليـه، كنت وأنـا في مكاني أكاد أحـس بفورانه وزلازله، كانت «بسـمة» قد عادت بوجه مغسول وبطبقة مكياج جديدة واستهلت دخولها الغرفة بالتنبيه على «رنا» بعدم الانفعال، وأخطأ والد «رنا» وهو يبدي تعجبه في أثناء كلامه مـع ابنتـه: «ده أنا كلمتـك بالليل كنتـي زي الفل والصبح ماحـدش رد على تليفوناتـي وأخدتها مـن قصيرها وجيتلك جري»، وبدا فـؤاد وكأنه «يلبد له فـي الدرة» لأنه قال موجهًا الكلام لوالد «رنا» بصوت هادئ ورقيق كصوت القتلـة المحترفيـن: «ما هي تعبت على طول يا عمـي بعد مكالمتك معاها»، تنبه الأب وزاغت عيناه وقال معترضًا بحدة: «قصدك إيه يا فؤاد؟»، أمسكت «رنا» بسـرعة بجبينها وأطلقت آهة ألم فانتبهنا لها، سـألها «فؤاد» بلهفة عما بهـا فأخبرتـه بأن لديها صداعًا شـديدًا وطلبت منه أن يفتـح درج الكمودينو ويحضـر لها قرص «كيتوفان»، فتح «فؤاد» الدرج وعندما لم يجد الكيتوفان

قال بحماسـة وشـهامة إنه نازل ليحضره من الصيدليـة، غادرنا «فؤاد» وكلنا ندرك أن هذه الشـهامة المصطنعة كي يسـترضي «رنا» بعد أن أوجع والدها، تأسـفت «رنـا» لوالدهـا عمَّا بدر مـن «فؤاد» وطلبـت منه أن يتحمـل ويبلع سـخافاته، خفض والدها رأسـه وقال بتواضع كطفل مطيـع في حضرة أمه: «حاضـر»، عـاد «فؤاد» ببعض أكياس المكسـرات وبشـريط كيتوفان وضعه على الكومودينو ثم أسـرع بجلب كوب ماء وناولها القرص لتبتلعه، جلسـنا علـى هذا المنـوال فترة ثـم أردنا الانصـراف لكن «رنـا» ووالدهـا و«فؤاد» اعترضـوا بشـدة وطلبوا منَّا البقاء حتى العشـاء، وأمام إلحاح «رنا» الشـديد وافقنـا، نـزل والد «رنا» لإحضـار فاكهة بينما طلب «فؤاد» بالتليفون سـمكًا مشـويًّا وسلطات، ثم نزل خلف والد «رنا» لتغيير واستبدال زجاجات المياه الغازية وشـراء سـجائر وبن كما ادعى، وأخيرًا انفردنا بـ«رنا» لكني لم أثقل عليها بالكلام وأومأت أكثر من مرة إلى «بسمة» حتى لا تزيدها تعبًا بثرثرتها التـي تبدرها في كل مكان والتي تتخلـص بها من توترها على «خيري»، عاد «فـؤاد» أولًا وظـل يدخل ويخرج مـن الغرفة قاطعًا كل الحوارات النسـوية السـرية ثم دخـل الغرفة والد «رنا» بعـد أن وضع مشـترياته بالخارج ولحق بـه «فؤاد» ثم تجاوز كرسـيه واقترب مـن «رنا» وطلب منها أن تتسـاند عليه حتى تغتسـل في الحمام لأن أوردر الطعام على وشـك الحضور، اعترضت «رنا» وقالت إنها بخير وتسـتطيع السـير بمفردها، وعندما عرضت عليها أنا و«بسـمة» أن نسـاعدها رفضـت أيضًا، جلس «فـؤاد» مرة أخـرى في مكانه المختار، هنا في تلك اللحظة بدا على وجه والد «رنا» أنه تذكر شيئًا ونهض ودسَّ يده في جيب بنطلونه وأخرج علبة كوتيفان كاملة من العلب التي تضم

شريطين ومدَّ يده في اتجاه رأسي «فؤاد» و«رنا»، لم يمد أحد منهما يده تجاه العلبة، عينا «فؤاد» كانتا متحيرتين بينما أرخت «رنا» هدبيها العلويين من الغيظ، وضع والد «رنا» العلبة فوق الكومودينو ثم عاد إلى مكانه، أنقذنا جرس الباب من هذا الجو المتوتر، حضر الطعام وأكلناه بعجالة وغادرنا المكان قبل أن ينفجر بنا وبالمنطقة.. كنت أقود بسرعة متعجلة الذهاب إلى البيت، ولحسن حظي تلاشى توتر «بسمة» بمجرد وصولها (SMS) من «خيري»، التفتت تجاهي وقالت: «وشك حلو عليَّ.. خيري هيكلمني لتاني مرة النهارده على السكايب»، لم أنبس بكلمة فأضافت: «من بعد وصوله نيويورك بدأ يكلمني الصبح وهو رايح محاضراته. لكن النهارده باعتلي إنه هيكلمني كمان في البريك عشان حس إني متوترة عشان رنا»، خرجت سخريتي قبل كلماتي: «وانتي لحقتي تقوليله إن رنا عيانة؟»، ضحكت بشدة وهي تقول: «وأنا أقدر أخبي عن خيري حاجة؟»، ثم اعتدل مزاجها جدًّا وبدأت تسخر من لعبة القط والفأر بين والد «رنا» وزوجها وقالت: «خدتي بالك إن فؤاد واحنا بناكل كل شوية يرفع راسه ويبص على الحيطة اللي معلق عليها شهادة التقدير في القصة؟ واحنا كلنا ولا كأننا شايفينه حتى رنا ما اهتمتش تبرد ناره وتشاور عليها فيزعل أبوها أكتر»، قلت لها: «ماخدتش باللي يا بسمة وبعدين احنا كلنا حضرنا الحفلة وشفناها هيورهالنا تاني ليه؟»، قاطعتني «بسمة»: «أصله مُحدث.. طب ماشفتيش كمان الحركة الزبالة اللي عملها أبوها فيه لما نزل ورجع بعلبة كيتوفان كاملة رماها قدامنا وكأنه بيقوله البنت مصدعة ورحت جيبتلها شريط واحد يا نتن.. أنا أجدع منك اهه»، ابتسمت واندهشت من تعبيرات «بسمة» الصادمة فطلبت منها

التوقف عن انتقاد الرجلين بهذه الطريقة السمجة، ثم تذكرت ونحن نقترب من البيت ما فعله كريمها بجبيني وجعل «أحمد الضوي» يتجرأ عليَّ.. عنفتها جدًّا وحذرتها من أن تجرب عليَّ أيًّا من المساحيق التي تروج بها لشركتها، دافعت عن نفسها بأن بشرتي حساسة أكثر من اللازم وقالت إن الكريم والشامبو اللذين نصحتني بهما زادا شعري بريقًا ولمعانًا وكثافة ثم عقبت: «ما انتي أهو زي الفل لا حبوب ولا فسافيس.. هو الجدع أحمد ده قصد يقولك كده عشان يفضل الموضوع ده شاغلك أكبر وقت وتفضلي فاكراه بدل ما انتي منفضاله على طول»، طلبت منها السكوت وأن ترحمني من تحليلها الخزعبلي..

قبيل البيت بعدة أمتار وجدت «بسمة» تخفض تون صوتها وهي تكلمني وتطلب مني فيما يشبه التوسل أن تبيت معي لأنها أخبرت والدتها بأنها ستبيت مع «رنا» لظروف مرضها وتغيرت خطتها عندما وجدت «رنا» سليمة وبخير كما أنها من الصعب أن تبيت في بيت به ثوران على وشك التناطح وهما والد «رنا» وزوجها، كان تعب اليوم كله قد حلَّ بجسدي وزادني موضوع بيات «بسمة» ضيقًا وكنت على وشك أن أعاملها بجفاء معلنة عن عدم استعدادي للمبيت مع أحد هذه الليلة، لكني وجدت كفها تلامس ظهر قبضة يدي القابضة على فتيس السيارة وتهمس لي فيما يشبه الأسى بأنها في أشد الحاجة إلى الكلام مع «خيري» وإن باتت هذه الليلة في بيتها لن تمكنها أمها من الكلام معه بحرية.. وكلما سمعت صوتها يسري في الليل ستدخل عليها الحجرة وتسألها عمَّن تكلمه وتعاتبها بغلظة لأنها مستيقظة ليلًا إلى هذا الوقت المتأخر وأنها بذلك ستتأخر عن عملها

في الصباح وسـتبكتها لأنها تخدم الطفل طوال اليوم بينما أمه كمَن لا يتذكر أنه أنجب طفلًا.. ظلت «بسـمة» تهذي بمثل هـذا الكلام وأكثر حتى ركنت سيارتي أسفل البيت وأشرت لها بالصعود معي.

فور دخولي الشقة طلبت منها أن تتصرف براحتها وتأخذ حمامها وتغير بملابسـها ملابس النـوم الخاصة بهـا والتي أخبرتنـي أنها فـي الحقيبة التي سـحبتها من سـيارتها وهي تلج معـي إلى البيت كأنها تؤكـد لي أن موضوع بياتهـا مـع «رنا» كان حقيقيًـا ولـم تدعِه كحجة، ويبدو أن شـيئًا ما في كلامي جعل «بسـمة» تتوجس مني لأنها أخذت حمامها بسرعة غير معتادة وعندما دخلـت خلفها كعادتـي أيضًا مـع كل صديقاتي وأهلي كـي أنظف قذارتهم المروعة، كان حجم الخسـائر هذه المرة ليس بذي بال، أرضية الحمام تكاد تكون جافة بعد أن اسـتخدمت «بسـمة» المسَّاحة، مسـاحيقي وشامبوهاتي وبلسـمي كمـا هي، لا يوجد شـعر عالق بسـدادة الحوض، فقط اسـتعملت ورق بكرة التواليت كله ولم تستثنِ إلا الأسطوانة الكرتونية التي يلف عليها الورق، الحمد لله أنها «جت على كده»، أخذت حمامي بطقوسه الكاملة غير آبهة لها وعندما خرجت وجدتها أمام التسريحة بعد أن صففت شعرها تعيد طلاء وجهها وأمامها مساحيق ومعاجين مختلفة عليها شعارات ولوجوهات شركات عالمية، عندما مررت بجوارها تركت الفرشاة من يدها وهي تقول: «أنا خلصت.. دقيقتين وأجيلك»، أفلت مني «أحمد الضوي» فلن أقدر على مكالمته وتوبيخه في وجود «بسمة» فقد تضم المحادثة إلى حكاياتها الأثيرة عـن الأصدقاء والمقربين، ورغم أن وجودي بالبيت واسـتحمامي قد نفضا عني الإرهاق إلا أني لـم أكن مسـتعدة أو لديَّ فائض من السكينة كي أستمع

إلى «بسمة» وهي تكلمني عن «خيري» بولهٍ كأنها تستحضره حتى يكلمها فتسمعه وتراه، حملقت في وجهها الذي أعادت صياغته.. خدان متوردان، وشفتان بالغت في تلوينهما بلون أحمر قانٍ ولم تلتزم بحدودهما حتى كنزتهما كالمذيعات، ولأنها تمتلك عينين واسعتين سوداوين جميلتين، وقد اعتادت حف حواجبها حتى اختفيا تمامًا، فقد أعادت تحديدهما بخطٍّ أسود مقوس ورفيع جدًّا، فبدا وجهها كوجه عروسة المولد التي يزينها رسامون شعبيون، سألتني عن رأيي فيما فعلته بنفسها، ابتسمت وقلت جميل، قلبت شفتيها وهي تقول باستخفاف: «أنا بسألك ليه وانتي ما بيعجبكش العجب؟ لا بتحطي أخضر ولا أحمر في وشك آل إيه بيضر البشرة.. ورغم كده بشرتك بتنضر ولبسالي نضارة وانتي خارجة وآكلة نص وشك.. آل إيه الراجل الغامض بسلامته»، ثم أعقبت كلامها بضحكة استفزتني واعتبرتها رقيعة وسكتت تمامًا كأنها لم تقل شيئًا، وتسيد الصمت جلستنا حتى سألتها عن الساعة وعرفت أنها تقترب من العاشرة والنصف ليلًا فقلت لها إنني سأحضر لها وجبة خفيفة لأنها ستسهر في انتظار مكالمة «خيري»، قالت لي بزهق: «فكك مني بقى يا جيهان أنا مش جعانة دلوقتي وبعدين ده بيتي لو جعت حاقلب التلاجة وآكل أي حاجة فيها.. لو عايزة تنامي ادخلي نامي براحتك وأنا لما أخلص مكالمتي هتلاقيني جنبك»، لم أشأ تركها كل هذا الوقت في الرسبشن في انتظار مكالمة الغالي، طلبت منها أن تتمدد بجواري في غرفة النوم لأني لن أنام مباشرة بل سأقرأ قليلًا وعندما تصلها رسالة «خيري» تخرج لتكلمه من لابها الخاص، أو من جهاز الكمبيوتر الخاص بي بشاشته العريضة التي تستطيع من خلالها تأمل كل

خليـة من خلايا «ألفيس بريسـلي» بتاعها، ضحكت وهي تقـول: «عقبال ما أشـوفك يا جيهان يا بنت عنايات متشـحططة ورا واحـد ومبتناميش الليل»، ثم تبعتني واضجعت مثلي على السرير، أنا أكمل رواية لـ «سراماجو»، بينما جذبت «بسـمة» من حقيبتها كتابًا متوسطًا عن القرصنة الاقتصادية الجديدة فـي عصر العولمة، كنت قد جذبت غلاف كتابها تجاهي لكي أقرأ عنوانه ثم تركت الغلاف وضحكت بشدة، فاستُفزت وأعطتني ظهرها وهي تطالعه..

تمكـن منـي النـوم فأغلقـت مصدر النـور الـذي فوق رأسـي ووضعت الكتـاب فـوق الكمودينو ونمت.. وبعد فترة صحـوت مفزوعة على صوت الفأر وهو يقرض خبزًا جافًا تمامًا، لم تكن «بسـمة» بجواري وكان همسـها الـذي تتخلله صيحات غضب بالكاد تحاول كتمها يصلني بالضبط كصوت الفـأر القارض! عدت إلى وضعي قبل الاسـتيقاظ وتأهبت للنوم مرة أخرى وتذكرت الليلة المريعة التي رأيت فيها فأرًا في مطبخ هذه الشـقة، تسلل من بيـن أقدامي كومضة فلاش تسـربت من آلـة تصوير يعبث بهـا طفل رضيع، كنـت بصدد إعداد العشـاء لـ «تميـم» فقفزت فوق كرسـي المطبخ وظللت أصرخ بهلع شـديد، قفز «تميم» إلى داخل المطبخ متصورًا أن النار أمسكت بملابسـي فأخبرته برؤيتي للفأر وأقسمت إنني لن أنزل عن الكرسي إلا بعد أن يتخلـص منـه، أغلق باب المطبخ علينا وأمسـك بمضـرب الذباب وظل يخبـط بقدمه في البوتاجـاز والمطبقية والنملية حتى تحرك الفار وانكشـف فلاحقـه حتى قضـى عليه وألقى بجثته من شـباك المنور، بـتُّ مرتعدة حتى الصبـاح ولـم أهدأ حتى اتصـل «تميم» بإحدى شـركات مكافحة القوارض المنزليـة التـي خلصتنا مـن كل الكائنـات الصغيرة التي تـدب على الأرض

أو تطير، أكره الفئران جدًّا وأتقزز منها وأموت رعبًا وقرفًا من الصراصير، عندما سألني «تميم» عن كيفية تصرفي في حال عدم وجوده في البيت، قلت - وأنا أعني ذلك فعلًا - إنني سأظل أصيح حتى يسمع صوتي أحد الجيران ويكسر باب الشقة وينقذني أو سأقفز منتحرة من شباك المنور لو لم يسمعني أحد، أعادني صوت «بسمة» في تلك الليلة إلى مأساتي مع الفأر.. ظننت أنه عاد وستتحقق نبوءة «تميم» التي قالها دون أن يدري أنها ستلاحقني: «ماذا ستفعلين مع الفأر وأنا غير موجود؟».. لو كنت تطل على الدنيا في هذه اللحظة يا «تميم» وتبتسم سعيدًا.. فأزيدك سعادة.. الشيء الوحيد الذي قد يجعلني أرتبط برجل بعدك يا «تميم» هو أن يحميني من الصراصير والفئران.

استيقظت مرة أخرى على كابوس رهيب.. أفزعني جدًّا وحاولت طرده بسرعة عن ذهني لكن بقيت لديَّ نهاياته.. كان «تميم» فيها مسجى على فراشه يحتضر وبجواره «الوشاحي» يطلب مني أن أُقبِّله قبلة الحياة حتى يعود، وكلما هممت بتقبيله زاغت مني شفتاه وانطبق فمي على الوسادة وخرج وبقايا قطن الوسادة عالقة بأسناني، وفجأة نظر «الوشاحي» خلفي مرتعبًا وأزاحتني يد غليظة انقضت عليَّ من ورائي، درت برأسي كي أتبين ما يجري، وجدت «نبيل» وفي يده الضخمة كرة من الجبس اللدن الذي لم يتصلب بعد لأن بنانه ومعصمه كانا ينزان بالجبس السائل، اندفع «الوشاحي» واقفًا أمام يد «نبيل» ليمنع اقترابها من «تميم» فاخترقته اليد وأنا أصرخ في جنون، صرخات متوالية انتهت باستيقاظي عاجزة عن التنفس مشروخة الحلق وفي أقصى درجات الفزع والرعب.

لا أدري كـم مـن الوقت انقضى كي أتماسـك مرة أخـرى. لكني عانيت وأنا أسـتعيد شـظايا مـا رأيته فـي محاولة لتحليلـه.. قد يكون «الوشـاحي» مريضًا وأنا مقصرة في حقه فقد مرت فترة طويلة لم أتصل به ولم أسأل عنه، لكـن «نبيل».. «نبيل» بالـذات عدو «تميم» الذي اصطنعه أو الحقيقي - الله أعلـم - «نبيـل» الذي كان يموت «تميم» رعبًا قبيـل وفاته من فكرة أنني بعد موته سأتزوج منه أو سأرتبط به، رغم أني لم أكن أعرفه على الإطلاق إلا من خـلال حكايات «تميم» عنه، ولم أرَه مطلقًا لا قبـل وفاة «تميم» ولا بعدها، حتـى إنه لم يعزني فـي «تميم» ولو هاتفيًا لأنه لم يكن سـاعة الوفاة موجودًا بمصر..

بدأ اليوم التالي وأنا متكدرة ولعله ينتهي وأنا مبتهجة، فالأمس بدأ مشرقًا وانتهى مائعًا.. الساعة الآن الحادية عشرة صباحًا، لم توقظني العصافير هذا الصبـاح، لم أتـرك لها طعامها بالأمـس، ولعلها جاءت ولم تجـده فعاقبتني بالصمـت، ولعلهـا صاحـت بأصـوات غاضبة أزعجـت «بسـمة» فطاردتها وطردتهـا.. ظللـت أقتفـي آثار «بسـمة» فـي البيـت وأمتلئ بالغضـب كلما اكتشفت شيئًا يثير أعصابي، وجدت علبة مجوهراتي مفتوحة وقد استعارت منها «بسـمة» حلقًا وتركت لي ورقة بأنها سـتعيده في الغد، ووجدت شريط الفقاعـات (Bubbles) الذي أخرجته من علبة عدسـاتي الكرتونية الجديدة قد فُقئ بالكامل وغاظني ذلك جدًّا، فأنا في كثير من الأحيان أشـتري أشـياء جديدة لسـت في حاجة لها لمجرد أن أستمتع بفقء الفقاعات كلما توترت، وأنا في أشد الضيق الآن، ليس لأن «بسمة» استعارت حلقي، فكل صديقاتي يفعلـن ذلـك، وإنما لأنهـا بعثرت ما فـي العلبـة تمامًا وغيرت مـن مواضع

الحلي والإكسسوارات.. اتصلت بها ووبختها على الـ (Bubbles) فردت في برود: «جرى إيه يا جيهان هي دي صباح الخير بتاعتك على العموم دا النص كيلو منه بخمسين جنيه.. هاجيبلك نص كيلو»..

أغلقت الهاتف في وجهها يائسة من سوء فهمها، ثم اتصلت بـ«الوشاحي»، بصوت واهن أجابني وأخبرني أنه كان مريضًا منذ فترة ليست قصيرة وأنه يتعافى الآن، قلقت من تطابق حدسي فور انتهاء كابوسي بأنه مريض، قلت له إنني سأزوره لأطمئن عليه، أخبرني بتفاصيل المكان ولم يحدد توقيتًا لزيارته، لكنني كنت قد قررت ألا ينتهي هذا الأسبوع إلا وأنا عنده ليخبرني بتفاصيل أكثر عن «نبيل» الذي يبدو أن «تميم» ما زال مهتمًّا بتتبع خطواته حتى بعد موته.

* * *

أحمد الضوي

اختـارت «ريـم» التوقيـت الخاطـئ لمباغتتـي، كنت أتأهـب للاتصال بـ«عماد صدقي» لكي نسهر سويًّا في أي ملهى يقترحه، وكنت قد أحسست بحركة غير عادية في شـقة «شـريف» التي تجاورني وخشـيت من استطلاع الأمر، فقد يصدمني خبر سـيئ، ثم سـاد الهدوء مرة أخـرى فاطمأننت قليلًا وتذكـرت أنـي لم أسـأل عنـه تلك الفتـرة الطويلـة إلا مرة واحـدة عقب أن أخذتـه صديقته «شـويكار» بعـد أن عاودته النوبـة، قالت «شـويكار» حينها إنه يتحسـن وأنا شُـغلت ولم أعـاود السـؤال، لكن حجتي لا تـزال صالحة لدفـع الاتهـام بأني لسـت صديقًـا حميمًـا أو جارًا طيبًا يسـأل عـن جيرانه، خبطـات رقيقـة علـى بابـي جعلتنـي أسـرع بفتحـه ووجـدت «شـويكار» أمامـي تخبرني بأن «شـريف» قـد برئ من علتـه وعاد ليقيم في شـقته وأنها - احتفالًا بهذه المناسبة - تريدني أن أشاركهم العشاء الذي ستعده بنفسها، حاولت بشتى الطرق الاعتذار وفشلت وعندما دخلت شقة «شريف» لتهنئته بالسـلامة تمسـك بأن أشـاركهما العشـاء، وقبـل تبريراتي بابتسـامة راضية وأوقفني عن الاسترسال في سرد تفاصيل الظروف التي منعتني عنه وعزاني في وفاة والدي بآلية شـديدة، اسـتأذنت منصرفًا علـى أن أعود بعد أن تجهز «شـويكار» العشـاء وصرفـت النظر عـن الاتصال بـــ «عمـاد»، وبمجرد أن

تصفحت كتابًا كنت قد قرأت بعضه في ليالٍ سابقة عاود الباب تلقيه خبطات كانت هذه المرة حادة وقوية ومنتظمة، بابتسامة طفل يفاجئ أمه في الظلمة قابلتني، وبدهشة نصفها استنكار قابلتها، أزاحتني بيدها ودخلت، أغلقت الباب خلفها فاستدارت وقالت بتعجب: «إيه المقابلة الشيت دي؟ أنا كنت متصورة إنك هتطير من الفرح.. مش تقفلي كدة زي اللي عفش شقتها هيتباع في المزاد»، قبلتها على وجنتيها وأنا أعاتبها برقة: «هو مش احنا اتفقنا يا روحي إنك تكلميني قبل ما تيجي بساعتين ثلاثة عشان أجهز.. إفرضي أنا كنت في أي مشوار بره البيت كنتي هتعملي إيه دلوقتي؟»، ردت وهي تقلب شفتيها باستهانة: «ولا أي حاجة كنت هانزل وأكلمك اشوف انت فين ويا إما أروحلك يا إما استناك لما تيجي»، سكت ولم أسترسل، فلا نهاية للجدال معها، دخلت غرفة نومي تجرجر حقيبتها التي كانت عجلاتها الصغيرة وهي تحتك بالبلاط تصدر أزيزًا مزعجًا، تركت الباب مفتوحًا خلفها لكني لم أتبعها حتى تغير ملابسها بعد أن أدركت أن اصطحابها لحقيبة السفر هذه معناه أنها ستبيت معي وقد تقضي عندي بضعة أيام، جلست وقد أُسقط في يدي لا أستطيع أن أبدي اعتراضًا أو تأففًا أو أناقشها أيضًا في الأمر، فلن تفهم من كل ذلك إلا معنًى واحدًا أني ما عدت أرغب فيها وستقلب ليلتي إلى جحيم وأنا أريدها ورغبتي متأججة بعد غيابنا القسري عن بعض.. أنا كما أنا.. مثل أي رجل يتهدهد على قارب رغباته ولا يرسو إلا عند انقلاب قاربه، كأني كنت مع «جيهان» في حياة موازية دخلتها وخرجت منها بسرعة شديدة لكنها تركت في داخلي أثرًا عصيًّا على التجاهل، عدت إلى «ريم»

التي ما تزال تنضو عنها ملابسـها بصوتٍ مسموع وتسأل عن أشياء تحتاجها بالداخل بصوت سـيدة بيت تسـتجوب خادمتها التي غيـرت بدون إذنها من أماكـن أدواتهـا: «هي إيه كل الشـنط دي اللي حاططها تحت السـرير وفوق الدولاب؟ يعني أحط شنطتي فين؟ وسطنا على السرير!».

قلـت لهـا أن تتصرف فسـكتت قليلًا ثم عاد صـوت أزيـز حقيبتها يعلو بعصبية، كيف سـأواجه «شـريف» و«شـويكار» وأعتذر عن العشـاء معهما، سـيبدو ذلـك قلة ذوق شـديدة وأنا أحب هـذه المرأة.. زميلة «شـريف» في الجامعة وشـريكته في النضال وزوجته الأولـى التي بقيت على ذمته خمس سنوات، ثم حدث الطلاق بينهما لسبب لـم يفصح عنه «شريف»، «شويكار» تزوجت بعده من عضو آخر في التنظيم وهي باقية معه حتى هذه اللحظة وقد أنجبت منه بنتًا وثلاثة ذكور وكلهم تزوجوا وبعضهم أنجب، بينما «شريف» تزوج أكثر من مرة ولم تبقَ معه امرأة عدا «شويكار» أكثر من عامين، الوحدة والزمـن تكاتفـا على «شـريف» ومنحـاه تدهـورًا عمريًّا لا يسـتحقه، فرغم أنهما من نفس السـن لكنه يبدو أكبر منها بعشـر سـنوات على الأقل، عادت صداقتهمـا أوثق من سـنوات قبل وبعد الزفاف، لم يتبقَّ لـ «شـريف» غيرها تسـأل عنه وترعاه وتسـتضيفه في بيتها بمباركة زوجها بالأيام والأشـهر كما أخبرني «شـريف»، أتمنى أن أركن إلى شـيخوخة ترعانـي فيها أنثى أحببتها ذات يـوم، خرجت «ريم» بمفاجأة مـن مفاجآتها التي كانت تغمرني بها قبل حضور «ملك»، وليس كـ «لونجيري» الحداد الذي عزتني به، مجرد خيوط حريرية وشـرائط من السـتان تغطي صدرها وأسـفل سُـرَّتها وجسـدها غير المحجوب يبدو لامعًا جدًّا يكاد يضيء، وجدت نفسـي أمد إبهامي متصورًا

أنهـا دهنته بالكريم أو زيت الزيتـون لكني وجدت ملمس جلدها ناعمًا جدًّا وجافًّـا، كان رأسـها محنيًّا ترقب إصبعـي ثم أطلقت ضحكـة صاخبة وهي تقـول: «إنـت مالك عامـل زي اللـي بيلمس قـزاز؟ وإيـه الأدب اللي نازل عليك كده؟ ملقتش إلا سمانة رجلي تلمسها؟!»، قلت لها بهمس: «إيه اللي انتي لابسـاه ده؟»، ضحكت أكثـر وقالت وهي تتأهـب للجلوس بجواري: «قصدك اللي مش لابساه.. ههه.. أصل بما أني مفتقداك جدًّا ومقصرة معاك قوي عشان وجود ملك وظروف وفاة والدك.. قررت»، ثم بلهجة مسرحية: «وليعيننـي الله على هذا القرار أني أروِّح عنك بشـدة واعيدك تذوب عشـقًا فـي كل ذرة مـن جسـدي وروحـي»، قاطعتها بغلاسـة: «ورحمـة والديكي بطلـي تتكلمـي بالفصحى بتاعة المسلسـلات وهاتي من الآخر»، انشـغلت ثواني بفض الاشـتباك الذي حدث بين حلمة صدرها وشـرائط الستان التي ترفعـه إلى أعلى ثم تأملتني وأنا أحدق فيما تفعله بتعجب وأكملت ثرثرتها: «قضيت اليوم في أكبر بيوتي سنتر في مصر، وسبت ملك عند استيلا تقضي عندها اليوم وتبات وعلى فكرة عشـان ما تقولش كلمة سـخيفة تنتقد تربيتي لبنتـي.. آل يعني مهتـم.. ملك بتحب اسـتيلا قوي وبيعجبهـا بيتهم والعيلة كلهـا.. وكمـان اسـتيلا بتعلمها فرنسـاوي عشـان لمـا ترجع ملـك الخليج تبقى أشـطر من زمايلها.. وأنا من هذه اللحظة حتى صباح اليوم التالي مِلك يمينـك»، ثم أضافت بسـخرية: «هـو احنا هنبتدي الليلة واحنـا واقفين قدام بعـض كـده زي اللـي واقفين في كابينة قطـر»، تعمدت أن أنظـر إلى مفاتنها كأني أسـتهجن هذا الانكشـاف الفاضح وقلت: «لو تحبي نقعد في البلكونة حطي على جسـمك أي حاجة تسترك»، قلبت شـفتيها وهي تقول: «بلكونة في ليلة غاب فيها القمر؟ لا خلينا هنا السترة حلوة»، ثم افتعلت أنها تذكرت

شـيئًا وبحركة مسـرحية قربت أطراف بنان يدها اليسرى من جبينها وضمت أهدابها كأنها تسـتعيد التركيز ثم ابتسـمت وهي تقول بدلال: «على فكرة أنا من ساعة ما قررت إني أمنحك ليلة مش هتنساها في عمرك.. يعني قول من أربع أيام بالظبط وانا ما بكلش.. خليت استيلا تديني حقنة شرجية ونضفت معدتـي خالص وبقيت عايشـة علـى العصائر واللوز والفسـتق»، ثم ضمَّت كفيها على خدي وقربتني بلطف من وجهها وهمسـت بفحيح: «يعني بقيت جهزالك يا معلمي فوق وتحت وفرش وغطا»..

لقد عاشـرت «ريم» وأكاد أحفظها غيبًا ويفتنني منها تناقضها المرعب.. منظرهـا وسـلوكها الخارجـي ولسـانها الأرسـتقراطي وما يسـتتر خلفه من وقاحة وقبح وهوس جنسـي، هي الآن قد أطلقت في وجهي إحدى كناياتها البذيئة مستندة إلى ما أخبرتني به في إحدى مسامراتنا القديمة عن الفترة التي قضتها مع زوجها وابنتها في الخليج، وقد زارت معظم بلدان تلك المنطقة، وهناك منطقة فيها شهيرة بامتطاء الغلمان أو الزواج بهم، على حد قول «ريم» طبعًـا الذي لا يخلـو كلامها من مبالغات، ثم أضافـت لتؤكد كلامها: «على فكـرة معظم البـلاد العربية ومنها مصر طبعًا فيها مناطق زي دي ومسـكوت عنهـا خالـص»، ثم أخبرتني بتفاصيل كثيرة عن الليلـة التي يتم الدخول فيها على الغلام والتي شـهدت وقائعها كثيرًا بحجة أنهـا تنوي عمل فيلم يتناول هذا الموضوع تسـوقه في الخارج، وسـاعدتها بعض السـيدات في اختراق هـذا العالم.. بناءً على ما قصته عليَّ «ريـم»: «قبيل الاحتفال بالغلام ببضعة أيـام تفرغ معدته من الطعـام ويظل يقتات على المكسـرات والعصائر حتى لا تحول في أثناء ولوجه مخلفات أو فضلات»..

وهـا قد أعلنـت «ريـم» أنها غلامي هـذه الليلـة، وأنا لم أعلـق وتلقيت قبلتها على شـفتي دون أن أسـتثار، أبعدت رأسها ثم سـألتني بقلق: «هو فيه إيـه؟! مالك مش في الفورمة؟ هو أنا جيـت بوظتلك البروجرام؟»، أخبرتها بمأزقي مع جاري «شريف» وصديقته، قالت باستهانة: «روحلهم وقلهم: أنا كمان صاحبتي جاتني وهاتعشى معاها بره»، أفضت وأسهبت في شرح حالة «شـريف» ومرضه ووفاء طليقته السابقة «شـويكار»، وأن اعتذاري عن عدم العشـاء معهما هذه الليلة سيفسـرانه بطريقة خاطئة.. إما بأني غير مهتم بهما أو بأنـي أتنصل من وعدي لـ «شـويكار» بأن أهتم بـ«شـريف» في حال عدم وجودها بالمنزل، وإذا اشـتبهت في تردي حالته أهاتفها على الفور، نهضت «ريم» بضيق وقالت وهي تتجه إلى غرفة النوم. «إعمل اللي انت عايزه.. أنا كده كده مش هاتعشى.. أنا هادخل أقرأ شوية ولو راحت عليا نومة صحيني لو عايزني»..

تحركت باتجاه شقة «شريف» بسرعة، فلو فسدت هذه الليلة لأي سبب سـأظل أعاني من مغبة ذلك كثيرًا مع «ريم»، فتح لي «شريف» الباب بسرعة كأنـه ينتظرني وأشـار لـي بالدخول، كانـت روائح الطعام قد بـدأت تتضح، لا أدري لمَ تواطأت على نفسي ولـم أعتذر إلى «شريف» مباشرة عن العشاء معهمـا بحجـة أن صديقتـي «ريـم» بالداخل، «شـريف» كان سـيتقبل الأمر ببسـاطة ويبتسم ويتمنى لي سهرة سعيدة ويبدو راضيًا متفهمًا وهو يودعني، لكنـي طلبت منـه أن ينادي على «شـويكار» واعتذرت لها وأنـا أتلجلج في الكلام، سـمعت «شـويكار» تبريراتي بصمـتٍ ثم رفضت اعتذاري بحسـم قائدة سياسـية وأمرتني بالدخول وإحضار «ريم» للعشـاء معنا لأنها تريد أن

تتعـرف عليها، ثم زجرت بعينها «شـريف» وبترت جملتـه التي كان يوجهها إليهـا: «سـبيهم علـى راحتهم يا شـويكار».. بعدهـا وجَّهت لي «شـويكار» كلامهـا على هيئة أوامر: «أسـتاذ أحمد.. من فضلـك ادخل هات صاحبتك وتعالـى.. أنا ماشـية بعد العشـا ويمكن مـا تجيلكش فرصة تـاكل من إيدي مرة ثانية».. سـكت ولم أعلـق فانخفض تون صوتها أكثر: «طب على الأقل اقعدوا معانا ربع ساعة واستأذنوا»..

عدت ووجدت «ريم» مضطجعة على السرير وهي مرتدية بيجامتي كأنها تكيدنـي.. ضحكـت وقلت لها: «إيـه اللي عملاه في نفسـك ده؟»، حركت نصفهـا الأعلى كمـا تفعل الراقصـات المحترفات وقالت بغيـظ: «أصل أنا غلطانـة اللي جيتلك.. صحيح على رأي المثـل: عبَّر الخرا ينجعص لورا»، قربـت يدي مـن فمي وضغطـت بإبهامي وسـبابتي على أنفي وقلـت: «الله يقرفك إنتي جبتي المثل ده منين؟»، ردَّت بسرعة: «من التواليت تحب ازيدك مـن المنقي خيار؟»، جذبتها من يدها وطلبت منها أن ترتدي ملابسـها لأننا سـنكون في ضيافـة الجيران، أكملت بذاءتها وسـخافتها وهي تعلن الرفض وتسـبني وتسـبهما، لكني تمكنت منها أخيـرًا وأقنعتها بقضاء نصف سـاعة فقط معهما نتفرغ بعدها لنفسـينا وتوسـلت إليها ألا تفسـد الليلـة ثم تابعتها وهي تعيد ارتداء ملابسـها وتسـألني كلما تغطت قطعة من جسـدها العاري عن «شـويكار» وهل هي «تري شـيك» أم سـيدة عادية، وهل الأمر يسـتلزم أن تعيـد مكياجهـا؟ لكنـي نجحت فـي إبطال أسـئلتها عندمـا أخبرتها بنفاد صبر. «ريم انجزي شـويكار دي سـنها قرب على السـبعين»، بقولي هذا زاد معدل سـرعة أدائها وانتهت من اسـتعدادها بالتزامن مع خبطات «شويكار»

على بابنا معلنة عن أن العشـاء قد تم تجهيزه، ونحن في سـبيلنا إلى الخروج أمسكت «ريم» بذراعي وقالت بحسم: «نص ساعة بس يا أحمد مش هاقعد بعدها دقيقة واحدة».

لـم تأكل «ريم» بالداخل شـيئًا، رفضت بإصرار وغلاسـة لكنها شـربت كأسـين من النبيذ الأحمر، بينما أكلت أنا بشـهية خاصـة وأمامي ليلة مضنية سـأقضيها دون طعـام مع سـيدة لـم تملأ بطنهـا بغير المكسـرات والماء من أجل إسـعادي كما تتصور، بدت ربع السـاعة الأولى من العشاء ملولة وشبه كارثيـة، حدقـت «ريـم» و«زغـرت» بعينيها وأشـارت بالانصـراف تجاهي أكثـر من مـرة دون مراعاة لمضيفينا، ثـم هدأت بعض الشـيء بمجرد مرور النبيذ في عروقها، وكان «شـريف» يسـترجع محطات من حياته النضالية في لقطات سريعة وتسعفه «شويكار» بملء الفراغات التي نسيها بفعل الزمن أو المرض، وكانت بعض ذكرياته تسـليني وتمتعني وتستحضر خالي «حسام» لكي يشـاركنا الجلسـة، تكلم «شـريف» عن حرب أكتوبر التي شـارك فيها، وإصابته بشظية في بطنه في منتصف الحرب، وعندما تم شفاؤه كانت الحرب قد انتهت و«السادات» أعلن بثقة مفرطة أنها «آخر الحروب».. وأضاف بأن «السـادات» بالنسـبة له «ملتبس جدًّا».. كسـيف قاطع من طرفيه.. حد يمثل الشـجاعة والبطولـة والوطنيـة والحـد الآخر مغـرق في الخسـة والوضاعة ويقترب من الخيانة..

التحق «شـريف» بالخدمة العسـكرية في العام الذي أسـماه «السادات» عـام الحسـم.. كانـت الاسـتعدادات تجـري على قدم وسـاق علـى فترات متباينة، ثم يسود الهدوء والتراخي والتدريبات التي تؤدى برعونة وتكاسل..

وكل فترة يلقي «السادات» بخطاب ناري تعقبه عدة خطابات معنية أكثر بالشأن الداخلي وصراعاته مع الآخرين.. في أثناء إحدى الخطب القوية لـ «السادات» التي كانت تؤكد على ضرورة استعادة الأرض المحتلة وأن الخيار الوحيد المتاح هو خوض الحرب، نظر «شريف» تجاه زملائه الجنود وقادتهم في تسلسلهم الوظيفي بداية من صف الضابط حتى العميد واللواء.. كلهم لا يصلحون للحرب.. اعتقد للحظات أن «السادات» يخفي في سفوح الجبال المحيطة بهم جنودًا آخرين سيخوض بهم الحرب، ثم أتت الحرب بأسرع مما يظن «شريف»، وفوجئ فيها ببطولات خرافية شارك فيها كل هؤلاء الذين ظن أنهم لا يصلحون، ثم وُئدت الحرب فجأة كما اندلعت فجأة، كانت «ريم» قد أومأت لي بالانصراف عقب انتهاء كأسها الأول في منتصف حكاية «شريف» عن الحرب، أسرعت «شويكار» بإعادة ملء كأسها مرة ثانية فاستكانت، انتقل «شريف» إلى محطة أخرى من حياته بعد التطبيع والانفتاح والحرب الشرسة التي وجهها «السادات» لليسار المصري والشيوعيين وقد تأذى منها «شريف» و«شويكار»، وتدخلت في الحديث وذكرت أن خالي «حسام» اعتقل أكثر من مرة خلال تلك السنوات، سألتني «شويكار» عن اسمه فأخبرتها، لم يبدُ على وجهها أنها تعرفه، تدخل «شريف» وأخبرها باستهانة: «شاعر بس مالوش حاجات كتير منشورة.. أنا نفسي مش متذكر شكله أصله من بقايا حدتو»، تضايقت جدًّا من كلامه وانتقل توتري إلى يدي التي وضعت الكأس على المنضدة بصوت ملحوظ، انتبه «شريف» وضغط بيده على فخذي وهو يعتذر بعدم قصده التقليل من خالي وأضاف أن الصراعات في ذلك الوقت بين القوى

اليسـارية المختلفة كانت أشـد ضراوة من صراعهم مع نظام الحكم القائم، كنت قد قررت الانصراف فور انتهاء «ريم» من كأسها، لكن حدثنا «شريف» بعد ذلك عن معاناة اليسـاريين بعد أن أطلق عليهم «السـادات» الجماعات الدينيـة التـي توغلت فـي الجامعات والأندية والنقابات واسـتخدموا شـتى وسائل وأدوات العنف ضد الطلبة الليبراليين، وعلى رأسهم اليساريون.. كان «شريف» يتكلم بأسى ويتجرع كئوسه بسرعة غير مهتم بمطالبات «شويكار» المتوالية له بالتوقف عن الشـرب، سـألته عن سـبب عدم تكاتف الليبراليين مع بعض ضـد خصومهم، ضحك «شـريف» بتـؤدة ثم قال بصـوت تمكن منه السـكر: «يتكاتفوا..! دول نصهم ركبوا موجـة الانفتاح والنص التاني يا إمـا كانوا مش شـايفين الواقع خالـص وعمالين ينظَّروا.. يا إمـا بيخوِّنوا في بعض.. إحنا وصلت علينا أيام كنا فيها عاملين زي الخول الفقير القبيح اللي عايش وسـط حي شـعبي اللي رايح واللي جاي عمال يلطش فيه»، ارتبكت «شـويكار» جدًّا وجاهدت كي تمنع «شريف» من نطق وصفه القذر، غير أن رمحه كان قد انطلق، أما «ريم» فقد أطلقت ضحكة عالية جدًّا عندما سمعت هذا التشبية الدال، قمت من فوري وشكرت «شويكار» و«شريف» على هذه الوليمة وتبعتني «ريم» وأضافت قبلتين على خدي «شويكار».

دخلـت «ريم» إلى شـقتنا بتوابع ضحكتها من ابتسـامات ومـزاج رائق، وعندما اندسـت بجواري في الفراش بلونجيري الأشـرطة السـتان وخيوط الحريـر، التفتـت تجاهـي وقالت بابتسـامة كبيـرة: «على فكـرة كانت قعدة لطيفـة وختامها مسـك»، ضحكت بصـوت خافت وأنا أقـول: «جات على مزاجـك قوي حتة البـذاءة اللي خرجت من الراجل غصب عنه لما سـكر »،

نفت بسـابتها قولي وعقبت: «لا طبعًا أنا اعتبرتها إشارة.. مش أنا من بدري عمالة أكلمك عن الجماعة اللي مش مظبوطين دول»، قلت بسخرية: «مش مظبوطيـن وعايزة تعملي زيهم؟»، خبطت علـى صدري بدلال وهي تقول: «أنـا باعملك امتياز يا حبيبي وبعدين انـت هتعملي فيها أخلاقي قوي وانت عينـك حتبظ لبرة مـن الفكرة.. علـى رأي المثل: عين فـي اللحم وعين في الشـحم».. قلـت بدهشـة: «مثل إيـه ده؟ قصـدك: عين في الجنـة وعين في النار». ضحكت وقالت إنه مثل خليجي بنفس المعنى.. عندما انطفأ الضوء بالتتابع عدا لمبة السهراية الصغيرة حضنتني بقوة ودست وجهها في صدري ثم همسـت: «تعرف يا أحمـد إن فيه منطقة هناك الطير بيطيـر فوقيها بجناح واحد»، انتبهت وسـألتها في لهفة: «وليه كده؟»، رفعت رأسـها عن صدري وأصدرت ضحكة خليعة جدًّا وهي تقول: «عشـان الجناح التاني بيخبي بيه شـرجه خوفًا من رجالة المنطقـة دي».. وضعت يدي على فمها في محاولة لمنعهـا من الاسترسـال فـي هذه الضحكـة المقلقة في مثل هـذا الوقت من الليل، سكتت ثم تركت للسانها العنان في مداعبة باطن كفي.

جيهان العرابي

كان تميم قد اعتكف تمامًا في البيت، أوصد عليه باب مرسمه وصار لا يخرج منه إلا متجهًا إلى الحمام أو مادًّا ذراعه ساحبًا صينية الطعام، وغدا صامتًا تمامًا بعد أن ذبلت أصوات أدواته وهي تدب في الحجر أو الخزف أو الطين، تلك الأصوات التي بتُّ أعتقد أنه يوهمني بها حتى يداخلني اعتقاد بأنه منهمك في العمل، ما عادت أصوات تخرج من الغرفة بخلاف صوت مياه الشاي وهي تغلي وتفور فوق السخان البدائي الذي كان يصر على استعماله، لم أجرؤ على الشكوى لأحد من أهلي أو أهله، ما عاد يليق بي أن أشكو من «تميم» الذي ما رآني أحد بجواره إلا وهمشني وحسدني عليه سواء في السر أو العلن، وكنت أخشى لو شكوته أن يكرهني عندما يخرج من نوبة اكتئابه هذه، هي ليست أول نوبة اكتئاب تحدث له، نوبات اكتئابه تعقب دائمًا إخفاقه في جذب حلم كبير إلى واقعه، نصحتني صديقتي «رنا» بالتحدث إلى أحد أصدقاء «تميم» المقربين لعله يتدخل ويخرج «تميم» من حالته المتردية، بلعت نصيحتها في جوفي فلم يعد لـ «تميم» أصدقاء، فقدهم كلهم في الأعوام الفائتة لأنهم إما حاسدون أو سالبون لفرصه أو متشفون في توقفه عن النحت وحاقدون على سيارته الجيب وملابسه البراند، كنت أرى أصدقاءه وهم ينسلون منه كالضوء حين ينفلت من الفلاش، ورأيت بعضهم يشيحون بوجوههم عنَّا إذا ما تصادف والتقينا في الطريق، كان

«تميم» حمالًا للأسية مات حلمه بالترشح لأكاديمية الفنون بروما بعد أن توقف الترشيح فجأة بحجة إجراء تطورات معمارية لإضافة صبغة عصرية للمكان، ثم أعلنت الأكاديمية ضمن مشروع التطوير عن مسابقة لإقامة تمثال ميداني في حرم الأكاديمية للتعبير عن الحضارة والثقافة المصرية خاصة أن تمثال أحمد شوقي التابع لحديقة الأكاديمية يقطعه طريق عرضي مما أبعده عن مدخل الأكاديمية، وقد تقدم «تميم» بنموذج «اسكيز» لتمثال عن «أم كلثوم» كان يراهن على فوزه بالمركز الأول، لكن للأسف فاز ماكيت تمثال آخر يجمع ما بين الحضارة الإيطالية والفرعونية.. عمل مجرد فيه لمسات كلاسيكية وفرعونية كما أخبرني الفنان «الوشاحي» فيما بعد.. وكما عرفت لاحقًا أن الفائز كان «نبيل فهمي» الذي صار عدو «تميم» التقليدي. لكنه تجاوز هذه الأزمة في فترة قصيرة وأعتقد أن لوجودي في حياته في تلك الفترة دورًا كبيرًا في مساعدته على تجاوزها، لكن بعض المرارة تسربت إلى دمائه من تلك الأزمة خاصة أن بعض زملائه الأقل موهبة أُرسلوا في بعثات للخارج لأنهم مسنودون، عندما أدهشتني غلظته في وقف سيل أمنياتي قال بجفاء إنه لن يحفل بالأكاديمية بعد الآن وإن رغبته فيها عادت إلى المربع صفر وإن ما كانت ستضيفه إليه الدراسة هناك سيحصله بالمجهود الذاتي هنا وسيجعلهم يندمون.. أوغلت في غرامه بعد أن رأيت بريق التحدي يندفع من عينيه مشوبًا بكثير من الغضب والاستياء، عقدت صفقة مع نفسي لحظتها أن أدعم هذا العملاق بقوة حتى يتبوأ ما يستحقه وما تبشر به مواهبه، ذللت عقبات كثيرة كي يصبح الارتباط رسميًا وحقيقيًا، وفي ذات الوقت لم أتعجله أو أوحي له برغبتي

الشـديدة في الدوران حول فلكه، تركت له نفسـي يهدهدها على سطح نهر ساكن معزول عـن الجـزر والمد، تركـت يده تلعـب بقاربي وقتما يشـاء، يدب سـبابته فـي نهاية القارب الذي أنا في مقدمته ليعدل مسـاره أو يسـرع اختراقاتـه أو يبطـئ من حركتـه أو حتى يقلبـه في المياه مضحيًا بي لو شـاء ذلـك فـي لحظة زهق، في بعض الأيام كان يخطط كل قطعة ومسـاحة فراغ في شـقتنا التي لـم تكن واقعًا بعد كأنه سـيتزوجني في غضـون بضعة أيام، وأيام أخرى يكلمني عن معارضه القادمة أو «بيناليات دولية» سيشارك فيها بقطـع مـن إنتاجه وأكاد أعتقد أن فكرة ارتباطنا قد تبخرت من رأسـه تمامًا، كانـت صراعاتي فـي عملي أو بخصوصـه مع عائلتـي أو أصدقائي لا تكاد تشـغل حيـزًا من تفكيري، كان قد غلبني تمامًـا وامتلكني قبل أن أعطيه هذا الحـق بورقـة رسـمية أو باتفاق شـفهي، لم تتمكـن مني عملقتـه وطموحه الجيـاش بقدر ما انسـحقت أمـام ضعفه تجـاه المخاطر التـي كانت تحيط بـه والتي كانـت تتضخم وتتغول أمامـي كلما حكى عن موقـف يواجهه أو تحـدٍّ قائـم أمامه، كنـت كالأم الأمية التـي صوَّر لها وحيدهـا أن زملاءه في المدرسـة وحـوش وبلطجيـة وأن المدرسـين مصاصو دماء فتظل تبسـمل وتحوقل وتقضي يومها ما بين الحمام والشـرفة حتـى يعود طفلها المدلل، كنـت أعيـش معاركه دون أن يـدري وكنت أتصور مؤامـرات وهمية تحاك ضـده وأنا علـى غير علـم كافٍ بالمجـال الذي يعمـل به، أعتقـد أن الفترة التـي قضيتهـا مع «تميم» خطيبة وزوجة وأرملة فيمـا بعد، لم تبقِ على حياة بداخلـي، بتُّ كنبتة صبَّار منتفخة ولامعة بقدر ما تختزنه من مرارة وسـموم بداخلها.. أيها الواهمون بالولع بي صدقوني أُشـفق على مصائركم!!

في أثناء إحدى سهراتي مع «تميم» في أثناء خطبتنا قابلنا أستاذه الفنان الكبير «عبد الهادي الوشاحي»، اقتحم جلستنا ذلك الشخص المدهش المثير، كنت أعرفه عن بعد، حتى قبل أن أعرف «تميم»، رأيته في الأماكن التي كانت بمثابة ملتقى للكتاب والفنانين والسياسيين المعارضين وفي معارض تشكيلية، رؤية «الوشاحي» دائمًا تالية للصخب والصوت الهادر الذي يهاجم المكان قبل ظهوره في مجال الرؤية، كان مدهشًا ببنيانه المتين وشعره الأكرت الواقف من الجانبين وشاربه الكث المفتول من جانبيه وبوجهه المدور كرغيف صباحي أعطته الشمس قبلة محبة، مَن يرَه لأول مرة قد ينزعج في البداية لكن بمجرد أن يشاهد كم الأقدام التي كانت مثنية في راحة وهبَّت تعتدل بمجرد سماع صوته، والأيادي المشرعة في محبة للمصافحة، والأفواه التي تُمسح بسرعة بقايا الطعام والشراب من عليها لتقبله على وجنتيه، والأحضان النسوية التي تركت نفسها في كنفه، لن تنزعج من رؤيته حتى لو لم تكن من النخبة وتعرف أنه فنان، حتى لو كنت شخصًا عاديًّا مر بالمكان بالمصادفة وتورط في البقاء. ستود أن تنهض من مكانك وتسلم عليه. ستقودك الحميمية لأن تبتسم عن بعد، وستتلقى الضحكات الصاخبة التي تتزايد بمتواليات عددية بعد جلوس «الوشاحي» بسعادة، لأن صخبه رسول للبهجة، ورغم أننا كنا في خلوة خاصة وفي مكان ناءٍ بمنطقة الزمالك لم تطأه الأقدام الشهيرة كثيرًا، بدا لي «الوشاحي» لحظتها كولي من أولياء الله، لأول مرة أراه يتأبط الصمت ويتجه نحو البار الصغير الذي في مقدمة المكان، يضع البالطو الأسود الثقيل على كرسي بجواره ويطلب مشروبًا، كان «تميم» قد انتبه لخط سير نظراتي فاتبعه حتى ظهر «الوشاحي»،

سـألني بدهشة: «هل هو؟»، أجبت بابتسامة، سـألني كأنه يخيرني هل يسلم عليه الآن وهذا معناه أنه سيلتحق بطاولتنا أم يؤجل ذلك إلى نهاية جلستنا؟ كنت أعرف مدى حب «تميم» لهذا الفنان الذي وقف بجواره وسـانده كثيرًا لـذا لـم أتردد فـي أن أطلب منـه أن يأتي بـ «الوشـاحي» إلـى طاولتنا، لأول وهلـة بعـد أن قدمـه لي «تميـم» وقدمني لـه، وكال لي المديـح والثناء على جمالـي ورقتي وحسـد «تميم» علـى اقتنائه هذه التحفـة الفنيـة – على حد قوله– غرقت في خجلي ثم اكتشفت سريعًا أن تلك المجاملات العابرة التي ألقاها سريعًا بمجرد رؤيتي كانت بمثابة الحصوات الصغيرة التي تعيق تدفق الميـاه إلى مصفاة الحوض، كأنه يفحص منحوتة هو بصدد تقييمها ونقدها، بدأ يثني على اسـتدارة صـدري، وعلى فتحة فمي الصغير الذي شـبهه بحبة الكريز، وكلما اتسـعت رقعـة الجرأة في مديحه كان «تميم» يضحك بشـدة وهو لا يكاد يتماسك ويلقي بجسده على أستاذه كمَن يمنع معتدٍ من البطش بفريسـة، ومـا إن وصلت كلماتـه إلى حـد. «جرَّبتها يا واد»، وهـو ينظر إلى «تميم»، غرست شـوكتي في قطعة الممفية القادمة مع الشاي ووصل حدها إلـى قعـر الطبق فصدر عنها صـوت لفت انتباهه وجعـل «تميم» يتوقف عن الضحك ويتخوف، بينما أدرك الأستاذ الحدود الفاصلة وتلمسها بيده فأدار الكلام بسـرعة ومهارة متحدثًا عن نبوغ «تميم» ورهانه عليه منذ أن درَّس له فـي عامه الأول بالكلية. وعاد قارب الحوار إلى الانسـياب بسـهولة في نهر الـكلام، وتخليت عن ملامح الحدة وشـاركتهم الأحاديـث التي جاءت في صف دعمي لـ «تميم»، فقد علق الأسـتاذ على اسـتبعاد «تميم» من الترشيح لبعـض المعـارض الدوليـة بـأن المحكمين بعضهـم قـوادون، وأضاف أن

الوجـود فـي أي بلد أورُبي لا يخلق فنانين، وإنما يسـاعد في بعض الأحيان على صقل موهبتهم، ثم أمر «تميم» بأن يعمل بدأب وألا يترك فرصة لإبراز موهبته، وأن يقاتل إلى النهاية، فالفن كأي مهنة أخرى يفرض نفسه بالموهبة والقدرة على التحدي وحسـم الصراع، وكرجل حكيم بقلب طفل بريء بدا لي أن «الوشـاحي» في تأمله لسـقف المطعم وهو ينفث دخان البايب الذي فتنتنـي رائحـة طباقه رغم كرهـي للدخان، كأنه يسـتدعي مـن ذاكرته فرصًا لـ «تميم» اعتذارًا منه لما سـببه لي من كدر في أول المقابلة، لأنه سـألنا عن موعد الزفاف، ولما أجابه «تميم» إجابات مبهمة دالة على أن مشـاكل مالية تؤجل الزفاف، برم «الوشـاحي» طرف شـاربه، وأغمض عينيه هنيهة ثم فتح حقيبـة البايب الصغيرة وأخرج منها أدوات تنظيف البايب، وانسـاب الكلام مـن بين شـفتيه وهو مشـغول بعينيـه فيما يفعله بـأداة تدخينه، قـال إن فندق الفـور سـيزون المفتتح حديثًا في قلـب القاهرة والذي يعد مـن أكبر وأفخم فنادق الشـرق الأوسـط يتولى إدارته طاقم إنجليزي على رأسـه مدير محب ومهتم بالفن التشـكيلي، وقد التقاه «الوشـاحي» في أثنـاء إحدى الحفلات الكبـرى «الكزمو بوليتنية»، وقد أعجب كلاهما بأفكار الآخر، ثم التقيا فيما بعـد لقـاءات ثنائية طلب فيهـا المدير الإنجليـزي من «الوشـاحي» أن يقدم مشورات تضفي لمسات جمالية تشكيلية للفندق وأن يتعاقد بعقود دورية مع الفنانين الذين سـيكونون تحت إمرة «الوشاحي» ويعملون طبقًا لتوجيهاته، كعادة «الوشاحي» في الترفع عن الإدارة ومنهجه الذي لا يحيد عنه في عدم إخضاع الفن للتراتب الوظيفـي والقيود البيروقراطية، رفض تمامًا أن يكون مسـئولًا عـن التعاقد مع الفنانيـن أو أن تكون له سـلطوية عليهم، وظل فترة

يتجنب مكالمات المسئول الإنجليزي لعله يجد فنانًا آخر يلبي طلباته، لكن يبدو أن المسئول الإنجليزي لم يجد الفنان البديل لـ «الوشاحي» أو أعجزه جهله بخريطة عالم التشكيليين في مصر عن اختيار أحدهم، ويبدو أيضًا أن الفكرة لم تمت في يافوخ هذا المسئول بل نمت وتوغلت لدرجة أنه بحث ونقب ووصل إلى بيت «الوشاحي» وإلى مرسمه وإلى قاعات دروسه في كلية الفنون الجميلة، وأمام إلحاح هذا المسئول البريطاني ورغبته الشديدة في تجميل فندقه بواسطة فنانين حقيقيين لا مدعين يسببون تلوثًا بصريًّا للأماكن التي يتدخلون فيها بأعمالهم، وجد «الوشاحي» حلًّا وسطًا وهو أن يرشح الفنانين الذين يمكن أن يثروا المكان جماليًّا وأن يكتفي بهذا الترشيح بينما تتولى الإدارة دراسة سيرهم الذاتية وتعقد معهم لقاءات شفهية تختبر فيها مقترحاتهم لزيادة بهاء المكان، قال «الوشاحي» كل ما سبق وهو يشرب كوبين من القهوة تخللهما كوب من عصير الليمون، ثم نفض رماد دخان البايب في الطفاية بعنف، وأضاف هذه المرة بضع كلمات تجاهل فيها «تميم» ووجَّه فمه تجاهي مباشرة فيما معناه أنه لم يقدم حتى هذه اللحظة قائمة بأسماء الفنانين الذين سيرشحهم للمدير، وأن «تميم» كان في ذيل القائمة لكنه يعتبر لقاء المصادفة هذا بمثابة الاستخارة التي يقوم بها المتدينون، وبناءً عليه سيرشحه بقوة ويضعه في أول القائمة لكن بشرط، وهنا أشار تجاهي بسبابته كأنه يُشهدني على ما يدور في جلسة صلح عربي.. قال إن الموضوع ليس سبوبة وإن الخيط بين الصنايعي والفنان أوهى من خيط العنكبوت.. وأن «تميم» كلما قدَّم حلولًا تشكيلية رائعة ثبَّت اسمه بقوة في عالم التشكيليين لأن هذا المكان ملتقى لأخلاط شتى.

الرأسـماليون ورجال الأعمال والساسـة والمفكرون والفنانون والأفاكون، إن ما سيفعله «تميم» في المكان لو قدر له ذلك في مدى الأشهر الثلاثة التي سيسـتضيف فيها الفندق كل فنان سيكون مؤثرًا وملهمًا لسنوات قادمة.. ثم أضـاف أنه سـيقدم القائمة بعد شـهر، وطلب رقم هاتفي لكـي أؤكد له على رغبـة «تميم» في الاشـتراك وقال إنني سـأكون مسـئولة عـن ذلك، كنت في دهشـة بالغة لصمت «تميم» التام وعزوفه عن المشـاركة في الحوار، ناولني «الوشـاحي» تليفونـه المحمول لكي أسـجل عليه رقمي. ثم نهض وابتسـم وهو يطلب مني أن أبلغه برغبة «تميم» في الاشـتراك في خلال عشـرين يومًا مـن هذه اللحظة، وربَّت يدي بحميمية وهو يضيف: «أنا أعرفه أكتر منك ده من انبغ تلاميذي.. هيغلِّبك كل يوم.. ده فن.. لا مش فن.. أعتذر.. لا يمكن الوشـاحي يزعل.. أقبل لكن ده ممكن يؤثر على مسـتقبلي الفني بالسلب.. من الآخر يا اسـمك إيه».. رددت بآلية: «جيهان..»، «أيوه يا سـت جيهان أنا مش هازعل سواء قبل أو رفض.. هو حر.. هاقولك زي أبويا ما كان بيقولي زمـان اللي بيشـيل قربة مخرومة بتخر على ضهره.. ربنـا يكون في عونك يا جيهـان»، ثم مضى مـن أمامي و«تميـم» يتأبط ذراعه حتـى أوصله إلى باب سيارته..

الأم أدرى بمـا يفعلـه ابنهـا فـي غيابهـا وأقدر علـى التنبؤ بما سـيفعله مسـتقبلًا، وخلال فترة وجيزة تأكدت من أن معرفة «الوشـاحي» بـ «تميم» تقتـرب مـن قدرات الأمومـة، فما قاله لـي أمامه حـدث.. كان «تميم» كل يـوم في حـال.. أحيانًا يبدو متحمسًـا جدًّا يرسـم إسكتشـات لأفـكاره أو يحدثنـي بشـأنها وفي اليـوم التالي يخبرني بأنه لن ينسـاق إلـى هذا العمل

التجاري الذي سيفقده فطرة الموهبة، لحظات ينكر على «الوشاحي» أن يورطه في مثل هذا الأمر الذي سيعرقل تقدمه الفني مع أنه الأستاذ الوحيد الذي وقف بجواره وتبنى موهبته.. كنت قد اعتذرت عن بعض أيام التصوير ولازمته، لم أضغط عليه بحجة أن قبوله هذا العمل سيعجل بزواجنا، أو بأية حجج أخرى، لكن ملامحي كانت تخونني وتظهر فرحة أو استياءً كلما اقترب أو بعد عن هذا العمل، وجدتها فرصة لأن يعرض أعماله على المهتمين وكبار المقتنين وأن ينجح رهاني عليه ونحن في بداية علاقتنا.. عشرون يومًا كنت بين هذا المد والجزر حتى قبل «تميم» الفكرة وظل لمدة يومين آخرين بعدها مستمتعًا بدخوله هذه التجربة، طلبت منه أن يتصل بـ «الوشاحي» ويخبره بالموافقة، أجابني بأن الأجل الذي أعطاه له «الوشاحي» ما زال ساريًا ومن الأفضل الانتظار حتى نهايته، والدهشة تغالبني سألته بحدة هل ينوي التراجع؟ هزَّ رأسه بالنفي، كررت طلبي له بالاتصال، قال لي إن في استطاعتي الاتصال به وإبلاغه بالموافقة، وأضاف أن «الوشاحي» سجَّل رقمي خصيصًا لأنه لا يرد على أرقام مجهولة، وأنني بمجرد الاتصال سيرد فورًا، حسمًا للأمر اتصلت بـ «الوشاحي» وجاءتني ضحكته هادرة من الجانب الآخر ثم قال: «خيرًا يا جميلة»، أخبرته بموافقة «تميم» فضحك أكثر وأنا في غاية الدهشة. ثم أثنى على قوة شخصيتي وقال إنه اعتقد أن «تميم» سيغلبني لكنني أثبت أني بنت شاطرة، ثم طلب مني إبلاغ «تميم» بسلامه وأنه فور قبولهم الترشيحات سيبلغني، وأضاف: «على فكرة لو تميم تراجع بعد ما يقبلوا ترشيحه حاجيبك بداله وأنا قادر أعلمك النحت في 4 أيام»، ثم أنهى المكالمة بالضحكة الهادرة نفسها..

بمجرد أن قابل «تميم» المدير الإنجليزي وقدَّم إليه سيرته الذاتية التي اجتهدت في دعمها بمشروعات «تميم» المستقبلية وطموحاته وأصررت على وضعها بالقائمة لأن السيرة ستبدو بائسة لو خلت من إضافاتي. معرض نحت واحد ومشروع تخرج واشتراك في عدة معارض جماعية قد يبدو ذلك غير كافٍ أمام دقة وعملية الإنجليز، وفعلًا استمع «تميم» إلى كلامي وأخبرني بعد ذلك أنه أسهب في وصف هذه الطموحات في حديثه مع المدير الذي أعجب بلباقة «تميم» وأثنى على الكتالوج الحاوي لأهم منحوتاته والذي كان - بلا غرور - من تصويري، فأنا التي اخترت المنحوتات الدالة على عبقرية «تميم» والزوايا والإضاءة والموقع وكلها أضافت بعدًا أسطوريًّا للمنحوتات، وافق المدير على أن يبدأ «تميم» التجربة لكنه قال كلمة ضايقت «تميم» بعض الشيء في نهاية المقابلة، قال إن «الوشاحي» كتب تقريرًا فنيًّا عن المختارين ووضع «تميم» في قمة هرم التقرير، مضيفًا أن «تميم» سيثري التجربة وسيضيف إلى المكان، وبناءً على هذا التقرير كان المدير الإنجليزي قد اختار «تميم» من قبل المقابلة، لكنه أجراها حتى يستوفي الإجراءات الروتينية، ثم شدَّ على يد «تميم» وهنأه وأعطاه جدولًا زمنيًّا مقترحًا لبداية التجربة، تألم «تميم» لأنه اعتقد أن الجهد المبذول في كتالوج أعماله والثرثرة الطويلة مع المدير الذي كان يتسم بسعادة راضيًا عن حديث «تميم» هما اللذان دعما اختياره، لكن كلمات المدير الصادقة أعادته إلى أرض الواقع المتعفن. كل ما قدمه ليس له «لازمة» فقط بضع كلمات من الفنان الكبير هي التي حسمت اختياره، يا ألله! لأيام طويلة كنت أبرر وأعلل وأربط بين اختياره والمسبب له الذي يتمثل في شيء وحيد هي موهبته وجدارته وأن ما أضافه «الوشاحي» بمثابة جسر للتوصيل بين المتلقي

والفنـان، كنت فـي رعب بين أن ينفـض «تميم» يده من كل شـيء ويواصل السـباحة في عوالمه الافتراضية، وأخيرًا اقتنع وعاد إلى جلسـاته مع المدير الإنجليزي يضع تصوراته للمشروع ويتفقان على أنسب موعد لبدايته، بدأت الأمـور بعد ذلك تميل إلى صالحي. وكلمنـي «تميم» عن التعجيل بالزفاف وسط دهشتي لهذا الخبر غير المتوقع، فقد وقف طويلًا كجبلٍ أشم أمام كل مقترحاتي للتعجيل بالزفاف والتي منها أن أشتري شقة المنيل بمدخراتي لأن المال ينقصه وأن أكتبها باسمه وأجعل أهلي لا يغالون في طلباتهم أو أسدد أنـا الفروق المالية التي تسـتلزمه، لم يكن يدعني أكمـل اقتراحي، كان يزوم ويغضب ويبتر كلماتي بحديث سـاخر لاذع: «لولا إني عارف إنتي بتحبيني قـد إيه.. كنت قلت إنك بتشـتريني بفلوس طبقتكـم».. كنت أغضب وأقول كلامًا عنيفًا وكان دائمًا يسـترضيني.. ولا أكف عن عرض التسـهيلات التي تعجِّل بارتباطي الرسـمي به، ولا يكف عن إنهاء المحادثة بسخافات مهينة، لكنـه بادرني الآن بالتعجيل لدرجة جعلتني أشـرد وأتفكر فيما غيَّر الأحوال وجعله يقبل أن أشـتري الشـقة بشـرط أن أكتب العقد باسـمي، وأعتبر قيمة الشـقة دينًا عليه سيسـدده فيما بعد دون تغيير العقد، اصطاد حيرتي وتبسـم وأخبرني بأن الخواجة - كما كان يطلق على المدير الإنجليزي - وافق على كل مقترحاته واعتمد كل التكاليف اللازمة لبدء المشروع ولـم يعترض على قائمـة أسـعار المنحوتات التي سـيضعها «تميم» في كل طابـق من الأوتيل، ولم يُبدِ إشـارة تدل على ارتفاع ثمنها أو سـاومه على القيمة (وكان تميم قد وضع أسعارًا تليق بعمله وكان متخوفًا من رفضها أو تقليلها إلى حد كبير).. وأضـاف «تميـم» أن الخواجة يريد أن يبدأ المشـروع في شـهر مايو ليواكب فتـرة الصيف التي يحجز فيها الفندق بالكامل للضيوف العرب والأجانب..

كنا أيامها في نهاية شهر ديسمبر، وتزوجنا في بداية شهر فبراير، واحتفلنا بشهر العسل في إسبانيا ثم عدنا إلى القاهرة.. تلك الفترة القصيرة بالإضافة إلى فترة المشروع كانتا من أجمل فترات حياتي مع «تميم».. فترة مكثفة من الدفء والحب والجهد والطموح لو كتبت تفصيلاتها لاستلزم ذلك مني مجلدات وبحورًا من الحبر.. غير أني سجلت أغلبها فوتوغرافيًّا.. كان «تميم» حينها في أوج لياقته البدنية والنفسية.. كان يناديني في اليوم مئات المرات طالبًا مني أن أسجل بكاميرتي ما يحدث.. ثم يبتسم وهو يقول إن التصوير إعلان موت للحظة، وإنه يريد أن يخلد هذه اللحظات السعيدة، كان بداخله شك أنها ستستمر.. لا كان بداخله يقين.. أنا التي كنت سكرى بالأحداث المتتالية الجميلة.. يا ألله.. لو كانت تلك اللحظات توزعت على مدى علاقتنا التي وئدت فجأة لكنت الآن ما زلت أسبح بحبي له، لكنها تكثفت في وقت أنا لست فيه بحاجة إلى كل هذا التكثيف وانعدمت في أوقات كنت أحتاج فيها فقط لبسمة تنسل من بين شفتي «تميم».

كنت قد دخلت هذا المبنى العملاق مع «تميم» مرتين ونحن في أول علاقتنا.. المرة الأولى كانت ضمن خريطة المطاعم والفنادق والعوامات التي كان يدعوني إليها «تميم» كعادة الرجل الشرقي في إبهار صديقته حتى تتوطد علاقتهما، والمرة الثانية كنت بصحبة «تميم» وهو يستقبل فنان إسباني مع زوجته كان قد دعاهما إلى الفندق لتناول العشاء ردًّا على لقاء سابق جمعه بهما في شرم الشيخ.. عندما دخلت هذه المرة مع «تميم» وقابلني المدير الإنجليزي ومعه حاشية من المساعدين المجهزين بالخرائط و«البلانات»، والمخلين لنا المصاعد المتجاورة المتراصة كخزانات البنوك،

اكتشفت مدى ضخامة هذا المبنى الذي يرتفع ثلاثين طابقًا فوق الأرض، والذي يشغل طوابقه من السادس حتى الثلاثين مبنى سكني فندقي يقيم فيه أبرز رجال الأعمال والساسة والفنانون وحاشية الحكام العرب والمصريون وعدد غير قليل من الأمراء والأميرات وسليلات القصور الملكية في شرق الأرض ومغربها.. كل طابق من المبنى السكني مكون من وحدة واحدة في الغالب ووحدتين في عدد قليل من الطوابق. كل وحدة حسب أهميتها وبذخها ومساحتها لها اسم من أسماء الأحجار الكريمة: (التوباز والديموند والروبي والسفير والبيرل والجيد)، وقد ساعدت أسماء هذه الأحجار الكريمة «تميم» في استلهام العمل الذي يضيف أبعادًا جديدة إلى المكان.. كان «تميم» يلقي بالفكرة أو الاقتراح غير التام إلى المدير الإنجليزي ونحن نسير فيبتسم ويثني على ذلك برأسه ثم يطلب من «تميم» تصورًا مكتوبًا وافيًا لكل طابق، وكل جناح، وللمطاعم، والبارات، والمطابخ، والمحلات التجارية، نهاية بالحمامات المنفصلة أو الملحقة بالغرف.. كان المدير يبدو كمَن استمع كثيرًا إلى اقتراحات وحلول تشكيلية تبدو مبهرة وبراقة ثم أحسَّ بعجز صاحبها عن تنفيذها.. انتهزت طلب المدير من «تميم» أن يكمل الحوار في غرفته وهما يحتسيان بعض المشروبات، وهمست لـ«تميم» أطالبه بالتريث في عرض مقترحاته وأن يستمع إلى تصور المدير عن الإضافات التشكيلية التي يُفترض أن تُحدث تغييرًا في المكان ويركب على هذه التصورات ويحسنها ويجودها ثم يعيد تقديمها إلى المدير، نظر «تميم» تجاهي باستنكار ولم يعلق، لكن عند دخولنا غرفة المدير تمهل فعلًا في الكلام وأنصت بشدة إلى المدير الذي لخص الموضوع بقوله

إنـه نجح في الحصول على موافقـة ملاك المكان ومديري العموم على هذه المغامـرة الفنيـة وعلى قـراره بتحمل نتائج هذه التجربة فـي مدى عام كامل يبدأ من شـهر أبريل القادم حتى شـهر مارس من العام المقبل، العام المزمع فيه تنفيذ هذه التجربة التشـكيلية سيقسم إلى أربع فترات، مدة كل فترة ثلاثة شـهور، الفترة الأولى سـيبدأ بها نحات هو «تميم»، والفترة التالية ستخضع لتوجهات مصور تشـكيلي، ثم تعود الفترة الثالثـة مرة أخرى إلى نحات من مدرسة مختلفة، وهكذا، وسيقوم كل فنان يعهد إليه بهذا العمل بالتفرغ تمامًا لمدة عشـرة أيام للتحضير لعمله وسيستضيفه الفندق بإقامة شاملة في الأيام التي يحضر فيها عمله، وسيضع الفندق فريقًا من العاملين تحت إمرة الفنان لا يقل عددهم عن خمسـة أفـراد في أثناء فترة التحضيـر، يتناقص إلى ثلاثة أفـراد بعد انتهاء فتـرة التحضير، ومن حق الفنان المكلف بالعمل اسـتضافة أعمال نحتية أو لوحات تشكيلية من فنانين آخرين يرى أن أعمالهم ستساعد في إبراز أفكاره وتساهم في ارتفاع جماليات المكان. بدعم سماوي انقلبت كل المعوقات والعراقيل التي كانت تسـد مجرى نهر ارتباطي بـ «تميم» إلى هـالات مـن نور مضفـرة بالورد.. ثم تزوجـت «تميم» في حفـل زفاف كبير بعـد أن أنجزنـا كل المطلوب فـي مدى زمني قصير، صحيح أنني سـاهمت فـي ذلـك بقدر كبير ولكني كنت أطرح فكرة المسـاهمة والمشـاركة منذ أن استلبني «تميم» دون أن أحرك منه ساكنًا.. لكن لقاءنا المعجز بـ «الوشاحي» الـذي بدا وكأنـه يهبط إلينا من غياهب السـحب قد أضفى علينـا بركة قد لا تحدث لكثير من البشـر.. وبداية من شـهر مارس سـنضيف أيامًا أخرى إلى شـهر العسـل المنقضي، فقد فاجأنا الإنجليزي بتخصيص جناح من أجنحة

العرسـان الجدد كي نقيم فيـه بينما يتولى «تميم» الإعداد لمشـروعه الفني، وحتـى لا يصبـح الأمر عرفًا يطالـب به الفنانـون الذين سـيتم التعاقد معهم بعـد «تميـم» فإنه ذكر فـي خطابه المعتمد من ملاك الفنـدق ومديريه أن هذا أمر اسـتثنائي لأننا ما زلنا عروسـين جديدين، وسـيعامل الفنانون الآخرون بالمعاملـة المنصـوص عليها فـي التعاقـد بالإقامة في غرفـة مزدوجة عادية «فول بورد» عشرة أيام فقط..

أجتهـد الآن في اسـتحضار الكادرات البصرية الرائعة لما رأيته وسُـجِّل بذاكرتـي وحُفظ دون عناء مني، لكنها مشـاهد كثيـرة ومتنوعة وقد اكتظ بها رأسي غالبيتها منقسمة إلى ثلاث مراحل.. أولها ما كان عليه المكان قبل أن يهتم به «تميم»، وثانيها في أثناء عمل «تميم» على المكان سواء بالإضافة أو الحذف أو التغيير، وثالثها في الشكل النهائي الذي ارتضاه «تميم» للمكان.. وكان كل شـهر يعيد بالتباديـل والتوافيق وإضافة العناصـر الجديدة وإخفاء العناصـر التي لم يجمـع على حبها النزلاء والإبقاء علـى الجميل والفاتن.. يجهدنـي ذهنـي فـي محاولـة الاسـترجاع بينمـا علـى الـلاب تـوب آلاف الكادرات التي صورتها والتي بمجرد الضغط على زر الاسـترجاع سـتتتابع أمامـي. لكننـي منذ فتـرة كبيرة لم أقترب من صوري معـه أو صوره أو صور أعمالـه.. صدقت يا «تميم» في المقولة التي اسـتعرتها من كبار المنظرين.. التصوير هو إعلان موت اللحظة.. موهبة «تميم» وتدفقه وحماسته وحيويته ماتوا قبل موته بكثير.. والآن كأنك جمعت «تميم» وحياته وذكرياته ومنجزه في حقيبته وألقيت بها في الثقب الأسود الذي مآلنا إليه..

سـأعتمد على مـا يقذفه المخ بعشـوائية وأذكره، أما الباقـي الذي آثر أن يظل حيًّا في عوالم النسيان، فلن أجهد نفسي كي أحرره من عوالمه، سأتركه علـى حاله وأظـل رهن عودته المحتملة، فقد يحرر نفسـه يومًا ويعود ليدمر لـي حياة كانت على وشـك أن تستقر.. وجد «تميم» نفسـه فـي عوالم هذا الأوتيل.. تعرَّف على أغلب رواده المهمين في مدى قصير جدًّا.. بعد سهرة أو سـهرتين معهم كان يفتنهم بثقافته ودماثته وبما تفرضه الموهبة والعبقرية من قداسـة حتى على حالات التهور والعشـوائية والكبريـاء التي تقترب من التعالـي.. كان المديـر الإنجليـزي قد مهـد الأرض تمامًا أمـام «تميم» وهو يتحـدث عـن نبوغه وموهبتـه والنجـاح الكبير للفنـدق في التعاقـد مع هذا الفنان الموهوب.. وكان ذلك قبل أن يلتقوا أو يروا «تميم» أصلًا.. لكن لأن النخبة التي تثرى وتتميز دائمًا على حساب مواطنيها لا تثق إلا في الأجانب الغربييـن.. فقـد آمنـوا بموهبة «تميـم» قبل أن يتلمسـوها أصـلًا، وبعضهم كان فـي غيـر حاجة لرؤية نتاج هذه الموهبة بعـد أن قيم الإنجليزي الموهبة وأعطاهـا درجـة التميـز.. ويبـدو هذا الـكلام وكأنه نفسـنة علـى «تميم» أو اسـتهانة بقدراته ومنجزه.. والغريب أن يصدر مني أنا.. «جيهان العرابي».. حبيبته وزوجته وأرملته حاليًا.. والتي أدارت رأسها موهبته وبذلت كل وقتها وجهدهـا كي تحصل على هذا الصانع الكبير الملهم.. ما تدفق مني الآن لم أجـرؤ أن أصارح بـه أحدًا من قبل ومن بعد، ولا هو مـن قبيل الثأر ردًّا على خيانتـه لي بالموت، ولن أحلل سـببه فأظل دائرة فـي فلكه بعد غيابه، وربما سببه لأنه قد داخلني شك في أن أول معول أصاب «تميم» في مقتل كان من أثر تلك التجربة التي بدت فاتنة..

تفجرت ينابيع الإبداع من «تميم» بمجرد قضائنا أول ليلتين بالفندق.. كنت أعامل كعروسٍ جديدة.. باقات الزهور وقنينات العطور والعلب الحاوية على أفخم أنواع الشيكولاتة والمارون جلاسيه لم تكن تنقطع في كل ساعة من ساعات اليوم.. إما مرسلة من قبل إدارة الفندق أو عملائه الذين علموا بالمناسبة أو أهل «تميم» الذين اضطررنا لإخبارهم ونحن نشد حزام اللباقة بكل الحذر بأن وجودنا بهذا المكان ليس من قبيل الترفيه أو الاسترواح لكن «تميم» في مهمة عمل وسيصبح غير قادر على استقبال أو استضافة أي شخص مهما كان صديقًا أو قريبًا.. (ستحدث مشاكل لاحقة من جرَّاء الحدة في الحديث التي ادعاها علينا الأهل والأقارب، لكن ممكن اعتبارها من منغصات العلاقات الزوجية والتي كثيرًا ما تتسبب في إفسادها)..

تفنن «تميم» في قدرته على زرع الدهشة والإعجاب والحيرة في قلوب النزلاء ومسئولي الإدارة وصولًا إلى أصغر العاملين.. كانت له لمسة سحرية في كل مكان.. يترك العميل الغرفة فيعود ليجد البياضات مرتبة بطريقة تشكيلية حسب التصور الذي وضعه «تميم» (دائري أو هرمي أو مستطيل ومرصوص طبقًا لدرجة الألوان)، حمامات الغرفة أيضا.. ألوان الأشياء التي تستعمل داخلها من صابون وشامبو ومعطرات وفوط وبشاكير لها لون أصلي كل يوم تندرج تحته كل ألوان الفروع المستنبطة من اللون الأصلي، وكذلك في الإضاءات ومغيرات الجو.. ردهات الطوابق التي بها لوبي صغير لجلوس الزوار كان يغير من وضعه كل فترة مستعينًا بمهندس ديكور الفندق المقيم. وكل طابق أو أكثر به منحوتة من الخزف أو

البازلت أو الحديد غالبيتها من تصميم «تميم» وتحمل تصوره لهذا الطابق، وبعضها قطع كبيرة من أهم الأعمال الفنية لكبار الفنانين مثل: «عبد الهادي الوشاحي» و«آدم حنين» و«جميل شفيق»، وغيرهم، والجدران زينها «تميم» بلوحات استعارها من كبار الفنانين التشكيليين: «عادل السيوي» و«صلاح عناني» و«محمد عبلة»، وآخرين.. الطوابق المعنونة بأسماء الأحجار الكريمة، استخدم «تميم» الحجر المسمى به الطابق كمنقار لطائر أو عين مشكلة بمهارة من الحديد أو البازلت أو الرخام، وأحيانًا كان يصنع تميمة من الأحجار الكريمة يتصدرها ويشكل غالبيتها الحجر المشار إليه.. كما صنع طاووسًا بديعًا امتلأ جسده وريشه بأثمن وأقيم الحجارة التي فتنت عند رؤيته الأميرة «مشاعل» واشترته فورًا قبل أن تحصل عليه الأميرة «سماهر».. دعكم من كل هذه الحجارة التي تليق بالنبيلات والأميرات، بل حتى المطبخ لم يهمله «تميم».. قطعًا لم تصل به الجرأة إلى ابتكار وصفات أو فرض لون معين للفاكهة والخضر يجعله سائدًا في مدة زمنية معينة.. لكنه كان يضع تصميمات لرصّات الفواكه والخضر التي تؤكل مع الطعام كالجرجير وشرائح الطماطم والخيار والبصل كأن يضع مجموعة من التفاح في شكل مهد طفل وترقد وسطها بعض أصابع الموز، أو يضع في ثمرة جوز الهند بوصة صغيرة بمجرد النفخ فيها تطلق بعض الدخان الملون المعطر بروائح طيبة، وهكذا.. وكان يسمع للطهاة ومساعديهم الذين كانت تعجبه أفكارهم عن مقترحاتهم نظريًا، وكان يقبل هذه الاقتراحات ويبذل جهده في منحهم مكافآت مالية يحصلونها مع رواتبهم..

* * *

مرت الأشهر الثلاثة بمثابة حلم ليلة صيف جميل.. رغم إحساسي بأني عاجزة فوق كرسي مدولب بجسد مثقل بقوانين الجاذبية بينما «تميم» من حولي يكاد يطير إلى أعلى وأسفل وفي الاتجاهات كافة، وخلفه يهرول المساعدون، ثم يومض الفلاش مرة أخرى و«تميم» يتصدر المشهد بجوار إحدى منحوتاته أو أعمال اختارها بذوقه وإحساسه وخلفه الأمراء والنبلاء ورجال الأعمال والسادة يجاورهم من على مسافة خدم بزي مقصَّب بخيوط ذهبية وفضية حاملين صواني بخشوع مقدمي القرابين.. ويصاحب هذه المشاهد دبيب أقدام تهرول لتلاحقه في أثناء توجهه لعمله، أو صوت تصفيق مكتوم أفلت بصعوبة من القفازات الجلدية والقطنية والحريرية التي يرتديها كبار المقتنين..

ثم عدنا لنستقر في بيتنا عقب أن غادرنا آلة الزمن تلك، وبعد أن اكتسب «تميم» عادات جديدة منها الانكفاء على الآلة الحاسبة كي يطمئن على ما حصله من أموال.. ليس بغرض إنفاقها بسفهٍ أو تخزينها كمراب بخيل.. بل لكي ينفق منها على أحلامه وطموحاته التي كنت أقف معها بكل جوارحي، لكن بمجرد أن بدأت تتدفق عليه الأموال بأكثر من المتوقع.. كانت سماء طموحاته تتسع ولا تكاد تلاحقها المخيلة.. وكنت أحاول تحجيم هذه التطلعات بكل قوتي وعجزت عن ذلك كثيرًا وأفلحت في عدة مرات قليلة.. كان همه الأول أن يسدد ثمن الشقة التي نقيم فيها والمكتوبة باسمي، رفضت تمامًا فكرة أن يعتبرني دائنة له وكلما ألح غضبت بشدة ثم أخبرته باستعدادي للتنازل له عنها دون مقابل لو كانت ملكيتي لها تسبب له أي أذى ولو نفسي، لكنه أخبرني أنه مصر على وضع ثمنها في حسابي

وأن تظل الشقة ملكًا لي، استشطت غضبًا من حسابات البيع والشراء تلك، فرضخ أخيرًا، لم أكن في حاجة لأية نقود إضافية، وكنت على علم بمطامع بعض أفراد أسرته فيما يجنيه من أموال خاصة و«تميم» طيب النية ولا يخفي نجاحاته من الطمع أو الحسد، بل يتباهى بها كأنها حائط الصد ضد مَن يلمحون إلى موهبته العالية وشهرته التي ليست على قدر الموهبة، تركته يصرف ببذخ على عائلته ولم أعلق بالسلب على ذلك رغم تحفظاتي التي لم أصرح بها تجاه بعض عائلته الذين ناصبوني العداء العلني قبيل ارتباطي به، لقد فزت به وانتهى الأمر، وهم اعتقدوا أنهم خسروا رغم أن واقع الأمر كان معكوسًا تمامًا، فأنا بعائلتي وما تملكه بمثابة فرصة ذهبية لعائلة «تميم» لو كانوا يتدبرون، فجُلُّ اهتمامهم هو المال الذي عندنا وينقصهم، وكنت قد سقطت صريعة موهبة «تميم» وراهنت عليها وأجبرت عائلتي على الانصياع لرغباتي وكان هذا فوزًا لي، فوزًا بطعم الهزيمة لو كنت أدرك خاتمتي.. أيضًا وقفت بقوة ضد فكرة أن يشتري مكانًا آخر يجهزه كورشة يمارس فيها عمله، سألته عن المساحة التي تلزمه فأخبرني ببراءة عن المساحة المثالية للورشة، عندما عاد في المساء وجدني قد أخليت الغرفة الإضافية التي كانت فيها بعض قطع الأنتريه ومكتبة ضخمة حاوية لأغلب كتبي، أعطيته متر القياس وطلبت منه أن يقيسها، ترك المتر جانبًا واحتضنني بكلتا يديه وهو يقبل رأسي ويهمس أنه لا يريد إزعاجي بالدق والنشر وصوت الإزميل والمعاول وأن صوت النحت على الرخام سيجعل كل أسناني تصطك ويجعلني أجن، ثم همست له أن كل ما يصدر عنه أو عن أداة لمست يده يمر على قلبي بمثابة نسمات من الجنة، أخذ يدي وأخرجني من الغرفة وهو يضحك بشدة، ثم

جلس على مقعد بالصالون وقربني إليه وضمني وصدري في مرمى أنفاسه، وأخبرني بأنه وجد مكانًا مناسبًا وبالقرب من مقر سكننا ولم يتفق بعد مع مالكه لأنه مسافر وسيعود في الأسبوع القادم كما أخبره السمسار، كنت أغلي غضبًا ولا أكاد أسمعه وهو يقول إنه سيترك معي نسخة إضافية من المفتاح لكي أمر عليه وقتما أشاء ودون أن أستأذن في قدومي، وأنه لم يعد في حاجة للاتفاق مع «موديل» كي يرسمها عارية، فقد تجاوز ذلك منذ زمن، ازددت غيظًا فقد حوَّل المسألة إلى غيرة نسائية ولم يدرك حاجتي إلى وجوده بجواري، لقد تزوجنا منذ بضعة أشهر، وأخذني كما يقول العامة «من الدار للنار» من شهر عسل في إسبانيا إلى كمالة شهر عسل في القاهرة ثم عمل، لم أشبع بعد من أحضانه، لم أنم على وسادة أنفاسه، لم أفق من حلم أداعب فيه خيوط التريكو وأصحو على قبضتي تشد شعيرات صدره، أفلت نفسي من بين قدميه كطفلة تفر غاضبة من تجاهل أبيها لرغباتها، أغلقت غرفتي على إحباطاتي ولم أفتحها إلا في صباح اليوم التالي بعد أن تأكدت من مغادرته للشقة، وعندما عاد في المساء يعاتبني على عدم السماح له بدخول غرفة النوم في الليلة الفائتة وعدم ردي عليه، كنت في حالٍ آخر بعد المجهود الذي بذلته في أثناء غيابه، كنت مرهقة مبتسمة في وجهه وكان في غاية الدهشة، أمسكت بيده وتوجهت به نحو الغرفة التي قررت أن تكون ورشته مهما كلفني الأمر، كانت قد تبدلت بالكامل بعد أن غلفها مهندس الديكور - الذي استقدمته ورضخت لمغالاته - بعازل الصوت مستخدمًا الفيلين والكاوتشوك وألواح الخشب، فرت ابتسامة من «تميم» بالرغم منه، ثم نظر إليَّ طويلًا بتحديق غريب - أعتقد أنه تلك اللحظة أحسَّ بأنه لن

ينجح في الإفلات مني إلا بالموت - وقال ببساطة إنه أخبر السمسار بعدم حاجته إلى الشقة المعروضة للإيجار، وإنه سيلبي رغبتي ويتخذ من هذه الغرفة ورشة مؤقتًا للأعمال الصغيرة، أما حين تتطلب الأمور إنجاز بعض القطع الكبيرة فسيستأجر لهذا الغرض مكانًا آخر، كنت مزهوة بانتصاري وسعيه لإرضائي وأمسكت بيديه الاثنتين وضممتهما وقربتهما من صدري وقبلتهما بوله، كانتا باردتين رغم أننا في قيظ الصيف، سحب يديه برفق في الوقت ذاته الذي طلب مني فيه بحزم أن أزيل موانع الصوت وألواح الخشب التي تحجزها خلفها بحجة أن منظرها سيجعله يحس بأنه سردينة داخل علبة صفيح، ثم استدرك وقال إن الطوب والحجر يجعلانه يحس بأنه في بيئة صحية، بينما الخشب المشوه بالأوستر يخنقه، قلت له باستياء إنني سأزيله (لأني أدركت انتقامه المضمر بأن يجعلني أواجه في أوقات راحتي أصوات الخبط والرزع والتقطيع).. لكن ليت تلك الأيام الصاخبة دامت..

بدأ تلك الأيام بشواغل تكاد تطبق على روحه لم أدركها جيدًا ولم أستطع حدسها، وعندما سألته عما يكدره صدر لي ابتسامة باهتة وهو يفلت من بين نواجزه كلمات من قبيل أنه بصدد الدخول في مشروع مهم، ورجاني ألا ألح في معرفته حتى يتحقق، ثم انهمك في عملٍ مضنٍ، دون أن يشركني حتى في تصوراته أو يعطيني اسمًا للمشروع كي أبدأ في ابتكار بوستراته، وكان بداخلي حلم منذ أن رأيته وأغرمت به وشعرت بأنه من نصيبي أن أراه وهو عاكف على منحوتاته بداية من تصوره الأول على الورق كما يطلق عليه الفنانون التشكيليون، أو الاسكيز كما هو متعارف عليه في أوساط النحاتين.. أن أتابع ساعده وهو يشكل عالمه في الطين أو الخزف، ثم معوله

وهو يزيح فوائض الأحجار أو الجرانيت ويصنع من الكتلة الصماء أجسادًا على وشك التحرك، لكنه لم يأبه لكل هذه الأحلام وألقى إليَّ بفرماناته التي لها حد السيف القاطع من الجهتين.. ممنوع أن أسأله عما ينوي فعله لأنه لو رغب في إعلامي سيقوله ببساطة دون إلحاح مني، محظور تمامًا أن أقتحم عليه الورشة في أثناء عمله لأي سبب ما قبل أن ينجز أعماله ثم يسمح لي برؤيتها، ومحظور كذلك التلصص عليه في أثناء العمل أو حتى محاولة تخمين ما يفعله ومحاولة جره إلى الحديث عن الأعمال التي يشرع فيها قبل الانتهاء منها تمامًا.. أُصبت بإحباط شديد في تلك اللحظة لكني تجاوزتها بسرعة وأنا أراه منكبًا على عمله، وبتوالي الأيام بدأت أدرك أغلب ما استغلق عليَّ.. وكان شيئًا لم أسترح له، عرفت أولًا اسم الجاليري الذي يعرض فيه «تميم» بعض أعماله الفنية الجديدة المشكلة من المعادن والأحجار الكريمة، ولم يكن من الجاليرهات ذات الصيت والباع وسط التشكيليين، وكان معروفًا أكثر وسط رجال الأعمال والدبلوماسيين، يتميز فقط بموقع فريد إلى حدٍّ ما لأنه يتوسط مقر سفارتين غربيتين كبيرتين، كما أنه - وهذا هو الأهم - على مسافة قريبة من فندق الفورسيزون الذي قضينا فيه شهر العسل وعمل «تميم» بين أروقته ومطابخه، والذي أقلقني ليس الجاليري لكن صديقة المالك التي كانت لها خبرة كبيرة في الأحجار الكريمة كما يشاع، والتي التقت «تميم» في الأوتيل وتعرفت عليه وعرضت عليه خدماتها.. وقد اشترى منها «تميم» فعلًا بعض الأحجار وتساهلت معه في الدفع.. وعندما أفرج «تميم» عن منحوتاته وطلب مني أن أصورها لكي أصمم المطبوعات اللازمة للافتتاح، كنت أرقب الأعمال بشيء يسير من الدهشة، وبقدر كبير من الحدس والتخمين. الصوت الذي سمعته ينساب

من أسفل الباب فجرًا هل صدر عن تلك المنحوتة الجرانيتية التي على هيئة فراشة صغيرة.. هذا المهر الجامح بصدره الفتي الذي شكلته ببراعة شرائح الحديد كان يعمل عليه نهارًا فقط في فترة غياب الموظفين في أعمالهم؟ لأن الصوت الهادر للشنيور متحدًا مع أنات قطع الحديد التي تتمزق أمام لهيبه كانا كافيين لكي يبلغ الجيران الشرطة عن شقتنا بتهمة الإزعاج. وقد اختار «تميم» توقيتات جيدة تناسب الخامات التي يعمل عليها..

ولتحيزي إلى «تميم» دونما تفكير أعجبتني كل القطع التي وقعت تحت عدساتي.. لم أهتم بالعلاقات المركبة بين تلك القطع وبعضها.. ولا بالعلاقة بين اسم المعرض والمعروضات.. رغم أني اكتشفت مؤخرًا أنه ليس ثمة علاقة منظورة أو خفية بين القطع المعروضة بأشكالها وخاماتها المختلفة ولا بالاسم الذي اختاره عنوانًا لمعرضه: «إبداعات فنية»، ذلك الاسم الذي لم أهضمه عندما ذكره لي «تميم» وكبس على أنفاسي وأنا أختار الخطوط العربية والإنجليزية وأختار من بينها تشكيلًا بصريًّا لهذا العنوان «الكيتش».. لكني لم أجرؤ على إبداء رأي، فيكفي جدًّا أنه كلفني بتصميمه مستعينًا بصوري ولم يترك ذلك للجاليري.. وكان معرضًا ناجحًا جدًّا بمقاييس تجار البطاطس وشتلات الفواكه.. بيعت كل قطعه التي تتجاوز العشرين في الأيام الثلاثة الأولى من المعرض الذي استمر لسبعة أيام، وبيعت أيضًا نسخ من بعض هذه الأعمال بلغت إحدى عشرة نسخة لواحدة منها.. وكُتب عن المعرض في كل المطبوعات الأجنبية التي تصدر في مصر، ونقلت عنها بعض الصحف اللبنانية والعربية التي تصدر في

لندن.. هذا بخلاف بعض المجلات الفنية والمتخصصة كمجلة «البيت» ومجلة «الغيط»! وانتهى المعرض و«تميم» يبدو لي كصاحب مزارع القطن الذي يجلس أمام فدادينه ويرى العجلات الخلفية لآخر جرار يحمل قطنه، ثم ينظر إلى تل النقود الذي يملأ حجر جلبابه بسعادة شيطان استلب روح قديس، كل المنحوتات التي بيعت لم تصدر أصلًا من مخيلة «تميم» وإلهاماتها، كانت أهم مصادرها جيوب عملائه المتوقعين، لقد عمل كل منحوتة على مقاس الشاري، فالأميرة «مشاعل» تحب الصقور والعقيق، وما إن رأت صقر «تميم» إلا وانجذبت إليه بقوة مائة مغناطيس.. والأميرة «جوهرة» المفتونة باللؤلؤ رأت الطاووس وقد نالت بغيتها في ليلة الافتتاح، والسيد «أحمد محمد حسنين هيكل» فتنته المنحوتة الخشبية المخلفة من طرح البحر والتي تضم ثورين فتيين واقفين متقابلين ووجهيهما كلهما تحفز، يحيطان بأنثى عارية متكاملة الجسد في حالة تأهب، أما الشيخ «معاذ» فقد طلب تعديلًا على منحوتة ووافق «تميم» ببساطة على أن يبدأ في تنفيذ ما اقترحه الشيخ وسلمها له في غضون أسبوع قبل أن تقلع طائرته إلى تايلاند، وطلبت الأميرة «سماهر» عقودًا وحليًا من الأحجار الكريمة ولم يخيب «تميم» رجاءها وأخبرها بأنه سيضع لها عدة تصميمات كي تنتقي من بينها ما يناسبها، وسيكلف متخصصًا في الأحجار الكريمة بتنفيذ هذه التصميمات، ولم أدرك لحظتها أن «تميم» يقصد شخصًا بعينه، وعندما أدركت كان الأوان قد فات، وتوالت المشاهد أمام عيني كما تتوالى الآن وكنت أظنها قد غابت إلى الأبد.. يقترب أحدهم من «تميم» ويشد على

يـده مهنئـًا ثم ينتحي به في جانب من جوانـب القاعة ويطلب طلبًا مميزًا عن غيره، و«تميم» يهز رأسـه مبتسـمًا وهو يتركه، ثم يقترب مني هامسًا: «لطفي منصـور.. رجل أعمال كبير قـوي... محمد أبو العنين ملك السـيراميك... طبعًا عارفة دي إيناس الدغيدي وجنبها صاحبتها»..

لما انتهى المعرض ساحبًا معه ملحقاته من الأيام التي تفرغ فيها «تميم» لتطويـع مهاراتـه وفقًا لرغبـات عملائه، رغب في أن يكافئني بسـيارة 4 × 4 ذات دفـع رباعي لكنـي رفضت فكرته بكبريـاءٍ وعناد وصدمتـه بقولي إنني لن أشـتري إلا سـيارة صغيرة تناسـب احتياجاتي ومن فائض عمل قمت به لا مـن نقودك ولا حتى من مدخراتي، وجم قليلًا ثم طلب تفسـيرًا لموقفي، لـم أواجهـه بغضبي لتحوله من فنان إلى صنايعي يعمـل وعينه على الزبون، قلـت له ببسـاطة إن أمنيتي أن أشـتري سـيارة مـن ناتج عملي، قـال إنه فكر فـي أن يصنـع لـي عقدًا وخلخـالًا بنفـس الأحجـار الكريمة التـي اختارتها الأميرة «سـماهر» وإنه خشـي أن أرفضها بحجة أني لا أحب التزين بالعقود والكوليهات، ابتسـمت بسـخرية وأنا أقـول: «طب ما انت فاكـر أهه.. طبعًا كنـت هارفض.. وبعديـن إنت مجنون تعمل كده؟ إفـرض المصممة بلغت سـماهر مـن وراك.. دا إنت مش هينقطع عيشـك بس.. إحتمـال إننا نختفي من على وجه الأرض».. ربَّت ظهري وهو يقول بتذاكٍ: «أنا مش عبيط كنت هاغير في التصميمات»..

بنفـس رفضـي أخذ أي نقود من حصيلة مبيعاتـه وقفت أيضًا ضد أغلب مقترحاتـه لإنفـاق بعضهـا.. سـواء بشـراء شـقة أكثـر رفاهـة من التـي نقيم فيهـا.. أو بشـراء مزرعة صغيرة ننشـئ فيها منحلًا صغيرًا ونربـي عددًا قليلًا

من الماشية نتركها ترعى في الأرض التي ينوي «تميم» زراعتها بالخضر وإحاطتها بأشجار الفاكهة.. سفهت طبعًا هذه الفكرة، فلا أنا ولا «تميم» نفهم في الزراعة أو حتى نقدر على متابعة الأشخاص الذين سنوظفهم للإشراف عليها، وعلاقة «تميم» بالحسابات والأرقام والبيع والشراء تكاد تكون منعدمة وأنا كذلك.. ولولا أن للجاليري إدارة حازمة ترك لها «تميم» مهمة البيع والتحصيل لسُرقت معظم إيرادات المعرض..

أخيرًا قبلت أن يشتري شاليهًا في الساحل يكتب عقده باسمه، فقد كان في حاجة إلى تملك أي شيء، كما اشترى سيارة جراند شيروكي على الزيرو.. ووضع الباقي في ودائع ظلت تكثر لمدد وجيزة.. ثم حدث شيء مؤسف أودى بهذا المشروع نهائيًا، يبدو أن الربح الضخم الذي حققته «صوفي» خبيرة الأحجار الكريمة من وراء «تميم» فتح بوابات جشعها إلى ما لا نهاية، ودفعها لوضع أحجار مقلدة بإتقان وليست كريمة في قلادة ضخمة طلبها أحد الشيوخ ودفع مقابلها مبلغًا كبيرًا وتسلمها وسافر، ثم عاد بسرعة لصاحب الجاليري.. يتهمه بالغش والنصب ويتهم «تميم» بأكثر من ذلك، واختفت «صوفي» تمامًا ولم يشفع لـ«تميم» قسمه للشيخ ولطاقم محاميه بأنه ليس خبيرًا بالأحجار الكريمة لذا تعرض للنصب مثل الشيخ بالضبط.. المهم أن «تميم» اضطر إلى دفع غرامة مالية ضخمة للشيخ حددها محاموه وتنازل للشيخ عن القلادة التي تفنن في صنعها، لكن الشيخ لم يقبلها بكلمة أذت «تميم» بشدة: «أنا كنت شاريها عشان الحجارة مش علشان شغلك اللي يعمله أي حد»، من تلك اللحظة انتهت علاقة «تميم» بهذه النوعية من التشكيل، وكنت أتوقع أن تؤثر عليه نفسيًا لكنه أظهر لي قوة

فاجأتني رغم قلقه الذي استمر طويلًا خشية أن تكون الحجارة التي اشتراها من «صوفي» فيما قبل زائفة أيضًا ويفضحه مشترٍ آخر، حتى طمأنه صاحب الجاليري وأخبره أن «صوفي» اعتذرت له تليفونيًّا واعترفت أنها فعلت ذلك مضطرة لتعجُّل الشيخ على استلام القلادة في الوقت الذي لم يكن بحوزتها غير تلك الحجارة المقلدة بامتياز.

كما توقع «تميم» أن الدورة الرابعة والأخيرة من ذلك العام، الذي يستضيف فيها الفندق الشهير صرعة الأعمال التشكيلية التي يشرف عليها مديره الإنجليزي، والتي حلَّ فيها نحات شهير لم يستعر ولم يقدم نموذجًا واحدًا من أعمال «تميم»، والأنكى والأشد قسوة على «تميم» أنه استعان بمنحوتة لمنافسه «نبيل»، ذلك الشخص الذي طالما شكك «تميم» في قدراته وموهبته، والذي يستند على وساطات ومراكز نفوذ تعتلي قمة الوسط الثقافي والتشكيلي، «نبيل» وهو في فرنسا مثلته قطعة نحتية في كرنفال هذا السوق التجاري الكبير، بينما «تميم» وهو في القاهرة ولا تكف عجلات سيارته عن وطء الشارع المحاصر بين ضفة النيل والفندق الذي في يوم من الأيام - كان يا ما كان - كان نجمه الأوحد هو «تميم».. صدر «تميم» لكل المتسائلين من أصدقائه - أيام كان له أصدقاء وزملاء ومحبون - عدم المبالاة وتمنى التوفيق لكل المشاركين، بينما ليلًا عندما كان يجمعنا سرير ضخم عريض يتناقص دفئه كل ليلة، كان يزفر غضبًا ومرارة ولا يلقي بالًا لما أهدئه به من كلمات، بل كان يوقفني بحدة حتى أصبحت أدير ظهري له وأنا أغمض عيني، وأحاول بلا جدوى التأثير على خلايا أعصابي التي مرساها أذناي حتى تكف عن سماعه، ثم تطور الأمر وبدأ يتحول عن

الســخط والحســد والحقد وقلة البخت إلــى مؤامرات محلية ثــم كونية من أجل تعويقه بعد أن بات مصدر خطر عليهم..

كنــت أتأرجــح بين الانفعــال وتوجيه كلام قــاسٍ وعنيفٍ إليــه علَّه يفيق ولا تتمكــن منــه البارانويــا التي لاحــت بوادرها، أو مســايرته مؤقتًــا إلى أن يذبل جرحه مع الزمن، لم أجرؤ أن أطلب منه استشــارة طبيب نفســي، فهذا الطلب يطلب من العقلاء الذين اختل توازنهم النفسي بسبب حادث طارئ، لكن تحولات «تميم» الفجائية ومعايشــته لدور السليم المتزن، أمام الفنانين والأصدقــاء، والمنهزم اليائــس المتهور بجواري، قد يعجل بنهاية مأســاوية بــدأت أستشــعرها وأربكتنــي جــدًّا، ومن الجنــون أن أطلب مــن «تميم» أن يطمئــن على صحته النفســية، وأنــا قد صرت ملاذه وملجــأه الذي يصرح له بما لا يجرؤ على البوح به أمام الغرباء.. لحســن طالعي آنذاك توقف «تميم» عن التباكي والشــكوى في غضون فترة بسيطة، وإن كان يغالبه أحيانًا هامش شــعوره في أثناء نومه فيفيق على صرخات كابوســية، وعندما يصحو وينتبه إلى أنها غير حقيقية، يغفو مرة أخرى ويتصاعد صوت تنفسه المنتظم، بينما يفــر من عيني النــوم تمامًا في تلك الليالي كأنه ســلبه مني وتدثــر به نائيًا عن الوعي.. ولعل تلك المصالحة مع النفس التي صدرها لي «تميم» حتى أؤمن بأنه قد شــفي من غلٍّ المنافســة، كان «تميم» يخفي داخل طياتها طاقة سلبية شــديدة فشــل في لجمها فانطلقت متجاوزة شــقتنا وحينا ومدَّ النهر وجزره، ثــم تمكنت من الفندق فغيرت إدارتــه التي يقبع فيها ذلك المدير الإنجليزي بحجة تصعيد الكفاءات المصرية وإحلالها بدلًا من الأجانب، أو أشــياء من هذا القبيل، وتوقفت تلك التجربة بعد عام من بدئها، وقرر المدير المصري

الجديد أن يبدأ في تجربة مغايرة باستضافة الوكالات الإعلانية والتجارية على فترات شهرية لإغراق الفندق بإعلانات ونماذج من منتجاتهم عالية التقنية والأجيال الجديدة من عالم الاتصالات والمواصلات، أصابني انتهاء التجربة بمرارة بينما رقص «تميم» طربًا، مدعيًا أن ذلك أفضل لأن التجربة في نهايتها بدت وكأنها على وشك التدهور، وكانت ستنتهي بفنون الكيتش والتطريز، وأنه قرر أن يحاول إعادة التجربة في فنادق مماثلة، وهذا ما انتهى به إلى أن يصنع نماذج نحتية من الزبد والثلج والفوم في فندق آخر كان يعمل فيه متسللًا، ثم التحق بإحدى شركات السجاد الكبرى مشرفًا على قسم التصميمات، وأفضى إليّ بسر قبوله هذين العملين بعدما يئس من تردد مديري الفنادق في إعادة التجربة، متصورين أن تخلي الفورسيزون عنها ليس ناتجًا عن تغير الإدارة بقدر ما هو ناتج خسارة ضخمة غير معلنة، ثم أقنعه أحد المدراء بتجربة تقديم منحوتات بيئية تصاحب الولائم الكبرى وحفلات السفارات والقنصليات التي تقام بداخل الفندق، قال لي إنه زهق من فكرة البقاء في البيت وإن التواجد في الشوارع وفي الأماكن المختلفة يصقل موهبته وإنه في حاجة إلى تجربة حياتية ملهمة (وقال أشياء كثيرة من هذا القبيل)، لكن أهم ما صرح لي به في رأيي أنه في حاجة إلى فترة كمون يختفي فيها عن أنظار الفنانين حتى يفاجئهم بأعمال ينسحقون تمامًا أمامها.. وقد فاجأهم «تميم» فعلًا..

أحمد الضوي

عرفت «عماد صدقي» عن طريق مهندس تنفيذ عينته ليعاونني بعد مرور عام ونصف العام على إنشاء الشركة حين تحسن وضعها بعض الشيء، وكانت المواقع التي وفقت في الحصول على عقود بتنفيذها في أشرس مناطق الهرم سكانًا ومنافسة وبلطجة، بخصوص السكان كانت معاملتي الجيدة لهم وأوامري لكل فريق عملي بحسن التعامل قد حمتني منهم، وبخصوص البلطجية كنت بقدر الإمكان أراضيهم، المزعج والمقرف كان يأتيني من المقاولين المنافسين الذين يعملون بالوسائل والطرق البلدية دون الاستعانة بالمهندسين ويعتمدون على الخبرة فقط، كان يستفزهم جدًّا أن يروا حفارًا يأخذ عينات من التربة لاختبارها قبل دق الأساسات، أو ميزان تيودلويت أو ميزان قامة ينصب في الموقع أو أي آلة حديثة نوعًا ما، لأنهم يدركون بحدسهم أن ذلك معناه أن تبعد عنهم كفة الميزان وتميل ناحية المقاول المهندس المتخصص، كانوا يضايقونني بطرق شتى بداية من سرقة الخامات أو المعدات الصغيرة أو بالتسلل ليلًا ومحاولة إفساد صبة الصباح، أو بإيذاء الخفير بدنيًّا أو توثيقه وإلقائه بعيدًا عن الموقع وأشياء أخرى من هذا القبيل، وكنت أحاول تفادي المشاكل ومحاولة إيقافها عن طريق كبار المنطقة أو بالجلوس معهم

وإيهامهم بأني صدقت عدم علاقتهم بما يحدث لي من مصائب ثم أطلب مشورتهم وأتوسل مساعدتهم وفي النهاية أغريهم بأن أساعدهم بمعداتي عند الحاجة، وكانت هذه الطريقة تنجح أحيانًا، الصعوبات الكبرى التي كانت تواجهني كانت تأتيني من الحكومة، ومن الشرطة بالتحديد، فقد كانوا يتعرضون لعمال اليومية الذين أستعين بهم، كان يقبض على بعضهم وهم بصدد العمل معي في وقت حرج وبعد أن أكون قد رتبت كل شيء وأحضرت كل الخامات اللازمة وجهزت خلاطة الأسمنت والمصعد اليدوي ثم أكتشف أن الأنفار غاب نصفهم عن العمل، ويهرع إليَّ رئيسهم الذي يجلبهم من القرى والنجوع ليخبرني بأن العمال قد قُبض عليهم للاشتباه، خاصة أن أغلبهم ليس عنده هوية أو هوياتهم ممزقة أو مكشوطة، ثم يطلب مني أن أذهب معه إلى القسم لضمانهم لأنه من كثرة ما قبض على عماله لا يأبه له ضابط القسم، أحيانًا كنت أذهب وأحيانًا أخرى كنت أطرده وأتحمل عطلة اليوم وكلفته الكبيرة، لأني كرهت أن يتراذل عليَّ الضباط ويعاملوني بإهمال أو بقلة أدب، في الغالب كان العمال المقبوض عليهم يرحلون إلى بلدانهم وأخسر العربون الذي دفعته من أجل استجلابهم بالإضافة إلى قيمة المعدات والأدوات التي أجرتها في ذلك اليوم، هذا بخلاف سرقات الخشب والحديد والأسمنت التي كنت أذهب بسببها مضطرًّا إلى القسم أتهم ذاك وأبرئ هذا وأطالب بالحماية ولا أذن تسمع، أضف إلى ذلك الغرامات التي كانت تتوالى عليَّ بحجة إشغال الطريق أو الإزعاج أو الصب بعد منتصف الليل وهكذا دواليك..

كان «إميـل» مهنـدس التنفيـذ حديـث التخرج الـذي عينته مسـاعدًا لي قريبًـا من بعيد لـ «عماد صدقي» الذي كان ضابط مباحث قسـم الهرم آنذاك وعرفني عليه لمسـاندتي، وفي الحقيقة خدمني بشـهامة ووقف معي بحسم وآزرنـي بقوة، وبعد فترة قليلة من تعارفي عليه تناقصت المنغصات بشـكل مذهل، وعرف المتربصون أنه يسـبغ علـيَّ حمايته فتغافلوا عني وعن كل ما لـه صلـة بعملي نظرًا للسـمعة المدوية التي كانت تظلل سـيرة هذا الضابط، وتسـهب فـي وصف قسـوته وحدته وقلبـه الميـت، وكنت بعـد أن ذلل لي «عمـاد» عقبـة كبيرة، قد وجـدت أنه من غير اللائق عـدم تقديم هدية فاخرة له بمناسبة مساندته لي وأهديته ساعة «رادو»، لم يفتح علبتها حتى وطردني شـرَّ طردة خارج مكتبـه، ولامني «إميل» لأني لم أستشـره قبل أن أفعل هذه العَملة، وأخبرني بفخر أن «عماد» سـليل أسـرة ثريـة وليس بحاجة إلى هذه الرشـاوى المقنعة، وحذرني بأن تكرار ذلك سيسـتفزه جـدًّا ويجعله ينقلب علينـا، ودافعت عن موقفي بأني لم أقدم له رشـوة بـل هدية لصديق تعرفت عليه وسـاندني، إلا أن «إميل» أخافني أكثر عندما أخبرني بأن طبيعة «عماد» الخشـنة لن تنطلي عليها هذه الحكاية، لـذا من أجل المحافظة على وضعي المهنـي الذي كان في مسـتهل تألقـه رجوت «إميل» بأن يدبـر لي موعدًا مع «عمـاد» خارج القسـم لكي أعتذر وأوضح له حسـن نيتـي، ومكنني «إميل» مـن ذلـك ذات يوم اصطحبني فيه إلى نادي الشـرطة بالجزيرة حيث التقيت «عمـاد» هنـاك وصححـت الوضـع قليلًا، لكن ظـل هناك شـيء مرتبك في العلاقة، خاصة وفكرتي عن رجال الشـرطة كانت في منتهى السـوء بسـبب مـا سـمعته ومـلأ به خالـي «حسـام» أذني عـن أذيتهم لـه في السـجن وعن خسـتهم ونذالتهم، وأن من المسـتحيل أن تتخذ منهم صاحبًا، وكنت أعتقد

أنـه يجاملنـي لأن قريبه «إميل» يعمل لـديَّ، لكن «إميل» نفسـه أخبرني بأن «عمـاد» لا يأبـه أصلًا لأبيه، فما بالك بـ«إميل» الـذي هو قريب من الدرجة الثالثـة، لـذا كان من المهم أن أجد طريقة لرد بعـض جميله دون التورط في شـبهة الرشوة، وقد أعطاني «إميل» مفتاح ذلك وهو يخبرني بعربدة «عماد» وميلـه إلى السـهر فـي الملاهي والكازينوهـات بعد موت زوجتـه (رغم أن «إميـل» عمـل معي لأكثر من عـام إلا أنـه كان مصرًّا علـى أن «عماد» أرمل ولـم يخبرني مطلقًا بأن زوجة «عماد» قـد هجرته). وقد وجدتها فرصة لأن أتقـرب منـه وأدعوه للسـهر معي فـي بعض هـذه الملاهـي والكازينوهات بحجج مختلفة (تسـليم وحدات.. توقيع عقود جديـدة).. ثم فوجئت كلما دعوته إلى السـهر بأحد ملاهي أو فنادق شـارع الهرم باستقبال حاشد. نظرًا لأن أغلـب إدارات هـذه الملاهـي تعرفـه جيدًا لأنـه ضابط مباحث القسـم الذي يتبعونه، وكذلك يعرفه ضباط السـياحة الموجودون بالمكان، وكانت تقـدم لنا أفضل الأطعمة والمأكولات والمشـروبات بأسـعار متدنية، ورغم ذلـك كان «عماد» أحيانًا يخطف الشـيك من يدي وأسـتحلفه بـأن يجعلني أدفع وكان يبتسـم وهـو يقول إنه قبل عزومتي، ثم يشـطب على نصف مبلغ الفاتـورة ويأمرني بأن أدفع نصـف القيمة، وكانوا يقبلونها بترحاب شـديد، كانت قيمة الشـيك الأصلية هزيلة فعلًا قياسًـا لما كنت أدفعه قبل أن أتعرف علـى «عماد» وبعد أن اسـتقطع «عماد» نصفها، كنـت أخرج وكأني لم أدفع شيئًا، لذا بعد فترة كنت أدعوه إلى سهرات في أماكن أخرى بعيدة عن نطاق عملـه كمدينة نصـر والزمالـك. وكان يردها بدعوات في شـارع الهرم لكي أسـتمع إلـى مطربة درجـة ثالثة تغني أغنيـة مبتذلة وركيكة مـن تأليفه، وهذا الجانـب السـخيف مـن «عمـاد» هو الـذي قرَّبه منـي عندما علم بـأن خالي

الراحل كان مشروع شاعر، وبأني أحب الاستماع إلى الشعر وقراءة الأدب بفضل هذا الخال، أطلعني عماد على روائعه الشعرية التي أولى بها صناديق القمامة، وأسمعني بعضها ملحنة ومؤداة على يد مطربين وملحنين لا يسمع بهم أحد لكنهم يملئون علب الليل الرخيصة، كما أسمعني شكاويه من المطربين والمطربات المعروفين الذين كان يتعثر فيهم في أقسام الشرطة التي يعمل بها، إما مقبوضا عليهم بتهمة السكر البين، أو القيادة بسرعة وتخطي الأكمنة، أو تهشيم سيارات الآخرين، أو التطاول على ضباط المرور.. إلخ، كانوا يصرخون أمام أمين الشرطة الذي يحرر لهم المحاضر ويتشدقون بصلاتهم بالكبار ويهددون بإشعال حرب عالمية وعندما يدرك أمين الشرطة أن الواقف أمامه مطرب شهير أو ملحن أو موزع سينمائي، كان يغير من لهجته العدائية ويقترح عليهم العرض على الضابط الطيب الذي سيحل لهم المشكلة، كان مندوبو الشرطة والأمناء يدركون آفة «عماد» جيدًا ويذهبون إليه بالطرائد والفرائس التي تقع بين أيديهم، وكان «عماد» يحل مشاكلهم على الفور ويقدم لهم واجبات الضيافة ويُسمعهم أغانيه، وكانوا يمتدحونها أو يطلبون تعديلات طفيفة ثم يعدونه بغنائها أو تلحينها وتقديمها إلى كبار المطربين أو توزيعها موسيقيًا، ثم يتبادلون الكروت الشخصية، وعندما ينقلبون تفتر همتهم، ويردون في البداية على مكالماته ثم «لا حس ولا خبر»، وهكذا ضاعت مواهب «عماد صدقي» كما أخبرني بأسى.

وتوطدت الصلة بيننا وأحببته وبقيت على صلة به حتى بعدما أصبحت في غير حاجة لخدماته الأمنية بعد أن كبر نشاطي، قد أكون قدمت له خدمة أو اثنتين كتجديد شقته بحدائق القبة، وتجهيز غرفة نومه بإضاءات وقطع أثاث صغيرة تتحرك بالأزرار على طريقة مسارح برودواي بناءً

علـى رغبته التـي يقودها تهتكه، واسـتعنت في ذلك بمهنـدس ديكور زميل لـم يتقـاضَ مني أجرًا كبيرًا ولـم آخذ من «عماد» مليمًا واحـدًا رغم إصراره علـى الدفع وامتناعي عن الأخذ بدعـوى أنني - وقد توغلت علاقتنا أكثر كنت أسـتخدم هذه الغرفة أحيانًا في إطفاء شـهواتي قبل تعرفي على «ريم»، كمـا كان «عماد» يسـتخدم شـقتي في عابدين لنفـس الغرض لـو أراد تغيير «اللوكيشـين»، وغالبًا كنا نتشارك في هذه النزوات معًا سواء عندي أو عنده، «عماد» لم يكن فاسدًا من جهة المال، فقد كان سليل أسرة برجوازية صغيرة آل أغلـب ميراثها إليه، كما كانت زوجته الهاربة ابنة لواء شـرطة في الخدمة وإخوتها ما بين سلك القضاء وسلك الشرطة لذا لـم يستطع «عماد» أن ينتقم منهـا أو مـن عائلتهـا وبلع الخنجر المسـموم في هدوء، لكن ذلك سـبب له جرحًا غائرًا، صحيح أنه استخدم أشخاصًا هنا وفي البلد الذي هاجرت إليه زوجتـه الهاربة وكلفهم بجمع الوثائق والمسـتندات التي تدين هذه الزوجة (وثائـق ثبوتيـة لواقعة تغيير الملـة، وخروجها من البلاد ثـم زواجها الثاني) وقد اسـتخدم هذه الأوراق على المستوى الكنسي - بعد استئذان عائلتها - لكي يسـمح له بالزواج الثاني على اعتبـار أن الزوجة الأولى ارتكبت واقعة زنـى بالزواج المخالف لشـريعة الأقبـاط الأرثوذُكس وتحقق لـه ذلك، أما النصف الآخر الذي كان يأمل في تحقيقه بالانتقام منها شر انتقام فلم يتحقق منه شـيء، لخوفه مـن عائلتها المتوغلين في الوزارات السـيادية والتنفيذية، كما أن نصائح المقربين له بأن يطلع عائلتها على خطواته كافة قبل الشـروع فيها، واسـتئذانهم فـي أخذها بالإضافة إلى أنه كبل يديه وطرم أسـنانه ونزع السـم منه، ولَّد بداخله مرارات وغلًّا وشـعورًا بالنقـص أدى به إلى التطرف في العنف إذا لزم الأمر مع الضعفاء وغير المحميين.

جيهان العرابي

أنـا في بيت «الوشـاحي» الآن، بيته الذي يضم ورشـته، أو ورشـة عمله التي أقحم فيها بعض قطع الأثاث الصغيرة اللازمة لمعيشـته، وهو ليس بيتًا بالمعنى المفهوم.. شقة صغيرة جدًّا بمجرد أن تدخل من بابها تصدم عينيك صالة مربعة مسـاحتها ضئيلة وضع بها «الوشاحي» كنبة بلدي تجاور كرسيًّا خشـبيًّا ضخمًا فازدادت ضيقًا.. الصالة تفضي إلى غرفة بابها موارب أعتقد أنهـا غرفة النـوم، ويقابلها الحمام والمطبخ الذي بداخله «الوشـاحي» الآن ليعد لي الشاي الذي ألح عليَّ في شربه بعدما رفضت كل عروضه الأخرى، يسـار الصالة الغرفة التي اتخذها ورشـة وقد أشـار إليها عندما رفضت أيضا بمجـرد دخولي هذا المكان أن أتبعه كي يريني المكان، لحظتها نظر تجاهي بدهشـة ثم قال بسخرية وانتشاء: «إيه هو إنتي خايفة مني يا كتكوتة؟».. كان صوته هذه المرة مختلفًا عن آخر مرة تكلمنا فيها هاتفيًّا حين علمت بمرضه، عـاد صوتـه قويًّا مرة أخرى وكان جسـده في صلابته المعتـادة وكان إصبعاه يبرمان أحد طرفي شاربه.. وكانت هذه أول مرة لي أتواجد فيها مع رجل في مـكان مغلق من غيـر المحارم.. ليس تزمتًا ولا تدينًـا ولا جبنًا.. إنما ولدت ونشـأت هكـذا.. البنـت الوحيدة بيـن ذكريـن.. إذا ما دخل أحـد أصحاب أخـي ليذاكر معه أو ينتظره حتى انتهاء لبسـه قبل الخروج. باب غرفتي يغلق بواسطة يدٍ ما.. يد أبي أو أمي أو أحد أخوي أو الخادمات الصغيرات اللاتي

كانت أمي تبدلهن بسـرعات قياسية، لم توبخني أمي أو أبي لوقوفي بالشرفة فـي وجود أبناء الجيران في شـرفهم المجاورة ولـم يجرؤ أحد شـقيقيَّ على الادعـاء بأنني أكلم شـابًّا في مراهقتي.. لكنهم زرعـوا داخلي عمدًا أو دون قصـد تقيـة من الرجـال صاحبتنـي حتى لحظتي هـذه، غير أني مـن اللحظة الأولـى التـي رأيت فيها وجه «الوشـاحي».. شـيء ما لمسـني مـن الداخل أشـعرني بالطمأنينـة، وهاتـف حميم مصدره غـور أعماقي ظل يـردد برتابة وثقة: «الوشـاحي لن يشـكل خطـرًا على جيهان»، لـذا أنا هنـا أتتبع خيوطًا لا مرئية مشدودة إلى السماء أو ربما إلى المجهول..

«الوشـاحي» وضع كوب الشـاي أمامي ثم استأذن في العودة مرة أخرى إلى المطبخ ليتابع تسوية قهوته على السبرتاية..

على يمين الصالة جدار علق عليه «الوشاحي» عدته بكاملها، المستخدمة والمعطلـة والجديدة كما هو ظاهر مـن مكاني هذا الذي لا يبعد عن الجدار مسـافة تتعـدى ثلاثين سـنتيمترًا، وقد زرع مسـاميره في الجدار على شـكل دوائر متداخلة غير متصلة في نهاياتها كأمواج بحر لا تهدأ وربط كل عدة من عدته بأسلاك ذات أطوال مختلفة في نهاياتها حلقة علقها في المسمار الذي اختـاره بقريحـة صافية.. العِـدد معلقة أمامـي تخطف بصري.. الشـاكوش والقصافـة والمعـول الصغير والقاطـع والأجنة والضفر والدقماء والسـلك والمسامير والأزاميل والمطارق والمبارد والشنيور والصواريخ والصواميل وغيرها.. كل مجموعة عدد ومسـلتزمات خاصة بنوع معين من النحت مثل الخشـب والأحجار والصلصـال والبوليسـتر والبرونز في دائـرة خاصة بها ممـا جعل هذا الجدار بمثابـة خريطة فاتنة لـلأدوات الخالقة للمنحوتات..

كنت مستغرقة في تأملي وعقد المقارنات بين أدوات «تميم» المبعثرة في كل مكان بورشته وهذا النظام الفائق والمربك، ولا أدري ما الذي أودى بـ «تميم»، هل فوضاه أم فساد مخططاته؟ كان «الوشاحي» خلفي بالضبط بعد أن وضع قهوته على المنضدة وتحرك تجاهي دون أن أحس بخطواته ولم تلفحني أنفاسه حتى وهو على بعد سنتيمترات من ظهري حتى تنحنح بصوتٍ ذكوري حادٍّ فانتبهت، قال منتشيًا: «عجبتك العدد دي؟ على فكرة فيه دولاب جوه الورشة فيه أضعافها وكل عدة عندي مترقمة وعارف مكانها بالملّي»، لم أدرِ بِمَ أجيبه واكتفيت ببسمة، فتنحى من أمامي وجلس على المقعد وهو يقول: «أكيد تميم كان عنده زيها.. خسارة كان مشروع نحات مهم».. قالها بأسى وكرهتها منه في تلك اللحظة بشدة.. أنا لست في حاجة لمَن يرثي حالي.. أنا أريد معلومات عن منافس لـ «تميم» كان يؤرق مضجعه وينغص حياته كما عرفت بذلك متأخرًا جدًّا.. لكن «الوشاحي» لم يمدني بشيء ملموس.. استعرض ثقافته وموسوعيته وهو يشير إلى الكتب الضخمة التي تملأ أرفف مكتبته.. وأصر أن يطعمني مكرونة بالتونة من عمل يديه وكلمني عن «مختار» و«رودان» وجمع من النحاتين العظماء، وبدا لي لحظتها أنه صورة متطابقة من «تميم» وكيف لا وهو أستاذه الذي علمه السحر وزرع بداخله العظمة والخيلاء.. عندما كان «تميم» يحكي عن «الوشاحي»، عند لحظة معينة كان يرسم بسمة سخرية وهو ينقل عن «الوشاحي» صيحة غضبه أمام فنان بليد: «إنت نسيت نفسك يا بني.. إحمد ربنا إنك عايش في زمن الوشاحي». لمعة عين «تميم» وهو يقولها بحزم وصرامة كانت لا تتفق مع بسمة السخرية.. كانت الكلمة تبدو وكأنها خارجة من أعماقه..

حزمت أمري وسـألته مباشرة عن «نبيل».. ماذا حقق بعد «تميم»؟ وأين هو الآن؟ تأملني «الوشـاحي» قليلًا وقال كمذيع نشـرة إخبارية متعجل، إنه لم يعد مقيمًا في مصر بل اسـتقر في بلجيكا وإنه يعمل بنشـاط وهمة لدرجة أنـه يقيم أكثر من معـرض في العام الواحد متنقلًا بين بلـدان ثلاثة.. بلجيكا وهولنـدا وإيطاليـا.. وإنـه يعتبر في أورُبا مـن فناني الدرجـة الثانية الذي لن يرتقـي مطلقًا إلـى الدرجة الأولى لأنه انقاد خلـف الصراعات الفنية الغربية التـي لن يقدر على ملاحقتها حتى لو سـار على رأسـه لأنها فـي النهاية نتاج مخيلـة غربيـة (From A to Z)، إنمـا «نبيل» بجيناته وتركيبة مخه الشـرقي يمكن أن ينجح في إبهارهم مرة أو اثنتين، لكن في النهاية ستتم معاملته على أنه فنان مقلد وليس أصيلًا..

ثـم لـم يذكر «الوشـاحي» أشـياء صريحـة تؤكـد أو تنفي الخـلاف بين «نبيـل» و«تميم».. تكلم بحسـاب عن المنافسـة التي كان «نبيـل» غير معني بها، بينما استغرق فيها «تميم» تمامًا وضخمها وجسدها حتى بدت كشماعة علق عليها كل أخطائه.. ثم سـكت «الوشاحي» عن الكلام المباح وبدا كأنه يريـد أن يحتفظ بمـا لديه من معلومات ويقدمها لي على مراحل مكتفيًا بهذا القـدر في هذا اليوم.. سـئمت من هذا المسلسـل التلفزيوني الذي سيشـرع «الوشـاحي» في بثه إلى عقلي تباعًا، فقمت فجأة وسـط دهشـة «الوشاحي» وأعلنـت انصرافـي ولـم أهتم بالتأكيـد على الموعـد الجديد الـذي اقترحه «الوشاحي» للقائنا..

* * *

سمائي التي أحبها وتحبني بدت لي لحظة خروجي من منزل «الوشاحي» كأنهـا تدعمني وتشـاركني ضيقي.. تركت لبقع الغيم ووسـائد السـحب أن تتسيدا وجهها.. نظرت إليها في عجالة قبلما أنحني وأدخل سيارتي.. طلبت منهـا التريث قليلًا قبل أن تزوم وتصرخ وتبرق وترعد ثم تبكي.. أن تمهلني نصف ساعة فقط حتى أصل إلى بيتي دون أن أتعرقل وأتوحل في أمطارها.. كانـت هناك فتـرة زمنية كبيرة حتى يحل الغـروب، وكنت كلما تقدمت نحو البيـت بضـع كيلو مترات توارى شـعاع الشـمس أكثر. وجاءتنـي مكالمات كثيرة في أثناء قيادتي للسـيارة لدرجة أدهشـتني.. فقد كان تليفوني وتليفون «الوشـاحي» أخرسـين تمامًا في أثناء لقائنا.. كأن طاقتينا السلبية والإيجابية حين اجتمعتا معًا سترتانا وحجبتانا أو أخفتانا فيما وراء السديم..

سيل الرنات المختلفة التي انهمرت من تليفوني لـم أهتم بالاستجابة لها عدا رنة واحدة مميزة كنت قد خصصتها لـ«بسـمة» و«رنا».. الاثنتان رددت عليهمـا.. «رنـا» عندمـا علمـت بأني أقـود السيارة.. اعتذرت عـن توقيت المكالمـة وقالت إنها سـتعاود الاتصـال ليلًا، لكني طلبت منهـا أن تواصل الحديث فالطريق قد تكدس بالسـيارات وهذا سـيضاعف مدة وصولي إلى البيـت وكلامها سـيخفف من وطأة المسـافة، تكلمت «رنا» فـي عجالة عن سـبب مشـادتها مع «فؤاد» لأنها حدثته برغبتها في قطع الإجازة لقرب بلوغ ابنها العامين، وأنه اتهمها بانعدام الأمومة وهددها بأنه لن يسـمح مطلقًا بأن ابنـه يتلطم بين أبيهـا وأخته والحضانـة، بينما هي تهش وتنـش في المكتبة، ولن يسـمح لهـا بإصابة ابنه من أي عدوى أو مـرض نتيجة اختلاطه بأطفال

الحضانـة، قلـت لها بسـخرية: «ومن إيمتى الحنية دي؟ هو نسـي لما قرصه في فخده والواد لسـه بيرضع»، سـايرتني «رنا» بضحكـة وأضافت: «إطمني مـا أنـا عرفـت علاجه.. اسـتدعيت بابـي وأول ما قعـد معانا وقال لـه إن أنا اتفطمت وعمري 6 شـهور، قام فؤاد وسـاب لنا المكان وقال وهو بيبرطم.. يظهـر يا عمي إنـي مش هاخلص معاكـم حتى لو قلتلك إني شـفتها بترضع الواد سم».

بعـد ذلـك كلمتنـي «بسـمة» بصـوت يطفـح بالرضـا، وعندمـا أخبرتهـا بأنـي أقـود سـيارتي لـم تعلـق واسترسـلت فـي كلامهـا الـذي يتلخـص فـي اعتذارهـا لانقطاعهـا عنـي لأنهـا مريضـة ولأن «خيـري» وصـل بالسـلامة إلـى أرض الوطـن، وكنـت أعـرف أنهـا لا مريضـة ولا يحزنون وأن مرضها الحقيقي في عقلها الذي اسـتلبه بالكامل «خيري»، ثـم قالـت إن هنـاك «حفل هايـل لمطربـة جديدة اسـمها دينا الوديـدي يوم الخميس في حديقة الأزهر ويا ريت احضره معاها»، وأضافت: «سيبي عليا رنـا أنا هاقنعها تيجـي.. ده هيبقى حفل لطيف بقالنا كتير ما اتفسـحناش مع بعض».. كانت سـمائي قد تكدرت فعلًا وتغضن وجهها بالندوب العملاقة السـوداء، وصاحب حوار «بسمة» برق متوالٍ ثم هزيم الرعد.. وكنت بحمد اللـه قـد وصلت إلـى شـارع بيتنا وخرجـت مندفعة مـن سـيارتي تلاحقني القطـرات الضخمة مـن المياه حتى وصلت إلى مدخـل البيت وهي ما تزال ترجـو وتسـتعطف وتـكاد تتوسـل حضوري، هـذا الطقس السـيئ وصوت الرعـد الـذي أخافه وانسـحاقها التام لإرضـاء ذلك المخلـوق جعلني أكثر توتـرًا وأنـا أطلب منها الكف عن هـذا الإلحاح وعن الزج بـي في مقابلات

مع «خيري» فنحن لسنا على وفاق.. صمت تام قابلني من جهتها ثم أنهت مكالمتها دون سلام.. أدركت لحظتها أن هذه قطيعة أخرى مع «بسمة» هي الوحيدة التي ستحدد أجلها.

***

بعد تجربة الفندق وفشل مشروع «تميم» الخاص بتطعيم القطع الصغيرة من المنحوتات بالأحجار الكريمة الذي كاد ينتهي بفضيحة الأحجار الكريمة المقلدة، لولا تضحية «تميم» المادية لسترها، خمنت أن هذه الحادثة ستعيد إليه الاكتئاب، لكنه فاجأني بتماسكه ودخوله في مشروعات أخرى مثل تنفيذه بعض التماثيل النصفية لميادين صغيرة في المحافظات والمدن السياحية، وإشرافه على قسم التصميمات بإحدى شركات السجاد والبطاطين الكبرى، وكان ذلك يدر عليه عائدًا مجزيًا غير أني كنت أشعر بتآكله من الداخل، وكان صموده الخارجي يزيدني قلقًا عليه، مظاهر البهجة التي كان يفتعلها وهو يريني تصميمًا من تصميماته التي ستنتهي في الأغلب إما مطبوعة على سجادة تُداس بالأقدام أو تُرفض فتُلقى في سلة المهملات، أو على أحسن تقدير تعلق على حائط بنك استثماري، أو في مدخل وزارة حكومية أعلى الآلة الميقاتية التي تسجل دخول وخروج العاملين، كنت أحس وهو يشرح تفاصيلها بدقة متناهية أنه لا يخاطبني أنا إنما يوجِّه كلامه لروحه الداخلية الثائرة ويحاول إقناعها بأنه ما زال منتجًا للفن، أنا أرى الآن بتركيز أكثر، كان يتزامن عرضه لمواهبه مع عرض لأحدث صوري المكلفة بتصويرها أو التي من إبداعي الخاص والتي كنت آخذ رأيه فيها، والذي لم يخذلني مطلقًا ويقول نقدًا لاذعًا عنها أو يقلل من قيمتها، كان

يمدح تصويري ويثني على جهدي في التقاط اللحظة ثم يبتسم سعيدًا وهو يحمد الله على أنه نحات وليس رسامًا، ويضيف أن هناك منافسة ضارية بين التصوير والرسم، وأن الموت الأول للرسم حدث عند اختراع الطباعة التي بدأت بفكرة الحفر فقللت من أهمية الرسم الذي كان أحد أهم أدوات التوثيق قبل الطباعة، وأن الموت الثاني الذي حدث للرسم كان باختراع الكاميرا التي طرحت سؤالًا مهمًا: ما ضرورة الفنان إذا كانت الكاميرا تسجل ما تراه من مناظر طبيعية؟ وأدى ذلك لتحايل الفنانين باستخدام التجريد وبتركيب مناظر تعجز الكاميرا عن إبرازها.. ثم حدث تصالح أخير بين الرسم والتصوير وبدأ الرسامون يستعينون بالصور الفوتوغرافية في الرسم ويضيفون أو يحذفون من أجزائها ثم يضعون بصمتهم الخاصة عليها، أذكر جيدًا أنه انتشى جدًّا بعد هذه التنظيرة في الفن وضمني إلى صدره بقوة فارتجَّ ثديي المفلوت والمحرر في صدره، ثم صدح بنبرات مفعمة بالقوة.. النحت لا يأبه بأي مخترعات حديثة.. إنه عصي على الاندثار.. ما زلنا إلى الآن تفتننا المنحوتات الضخمة الجميلة، أحب التشبيهات التي رصدت العلاقة بين الحجر والفراغ على أن الحجر بمثابة عضو ذكري يشق الفراغ، سكتُّ تمامًا.. صدمني هذا التشبيه ولاحظ «تميم» ذلك لكنه لم يعتذر عنه، ثم أفلتني من يده وهو يضيف.. أن المنحوتات العملاقة هي نتاج ثقافة استقرار.. وهي مختلفة عن ثقافة البدو الرُّحل الذين لطبيعة انتقالهم من مكان إلى آخر لا بد أن يحملوا ثقافتهم معهم أينما رحلوا كالمتاع، لذا فهم يأخذونها ويخزنونها في عقولهم أو تجري بها ألسنتهم عبر النصوص والشعر وهذا رسب في عقولهم كراهية التجسيد لأنها دليل على حضارة الاستقرار.. وهذا هو السبب الحقيقي في أن حضارة عظيمة

كالحضـارة المصرية القديمة أو ما يطلـق عليها الحضارة الفرعونية لـم تترك لنـا تاريخـا مكتوبًا ومدونًا بدقة لأنهم تركوا الأهـم.. منحوتات عملاقة هي شواهد على وجودهم التاريخي ولا يهم وجود نصوص تؤازرها..

ومن المؤسـف الآن أننـا كأحفاد لهؤلاء البنائيـن العظماء لـم نضف إلى حضارتهـم ولـم نحافظ عليها ولـم نقاوم حتى فكرة الاعتداء عليها واعتبارها نجسًـا أو أوثانًا، بل الأنكى والأشـد وبالًا أن جزءًا منًا بدأ يتورم ويتفاقم هذا الزمان وأصبح يتبنى ثقافة الرُّحل..

تجهـم «تميـم» لحظة إنهائه هذه المرثية، ثم دخل إلى غرفة ورشـته ولـم يغلقها خلفه، ثم صدر صوت غير مميز من داخل الغرفة بدا لي كأنه استهلالة نحيـب، ارتبكـت أكثر. وهممـت بدخـول المنطقة المحرمـة لكن الصوت ارتفع وكشـف عن نفسـه.. كان صوت صاروخه وهو يهذب به إحدى قطعه المصبوبة حديثًا بالبرونر، نهضت واتجهت إلى غرفة النوم، ويبدو أنه سـمع صوت خطواتي في فترة توقف الصاروخ لأنه أغلق باب الورشـة عليه فعزل وجوده عني..

شـعرت بـه جواري فـي الصبـاح وتفصلنا ورقـة صغيرة وضعهـا بعناية وطواهـا بدقة.. كتب عليها بخط متعجـل ألا أوقظه وأن أتجه إلى عملي في موعدي المحدد، فهو بخير لكنه مرهق لسـهره الطويل، كان موعد «أوردر» التصويـر الـذي سـأقوم بتنفيذه يبـدأ في السـاعة الحادية عشـرة صباحًا كما أخبرته بذلك مسـبقًا، وكنت قد اسـتيقظت في السـابعة صباحًا، ومكثت في المنزل ثلاث سـاعات كاملة أروح وأجيء وأطل عليه كل نصف سـاعة ولـم

يستيقظ، فقط تبدل وضع جسده على الفراش أكثر من مرة وارتفع صوت شخيره مرات..

كنت قبل دخولي في مرحلة النوم العميق، قد استعدت كلماته وحماسته المتخللة يأسه وقنوطه، واسترجعت أحلامه التي كان يبثها لي في فترة الخطوبة وعلى مدى حياتنا الزوجية، حلمه بأن يصبح نحاتًا عظيمًا لا يقل عن «محمود مختار»، الذي فتن به وبأعماله لدرجة أنه علق نسخة من بورتريه رسمه له الفنان «يوسف كامل» على حائط غرفة نومنا، بورتريه بديع يكاد ينبض بالحياة في عز شباب «محمود مختار» بحاجبيه وشاربه الأسود وشعره المسترسل حتى أسفل كتفيه، الذي قلده «تميم» وهو في منتصف دراسته بكلية الفنون الجميلة، وفتنني عندما رأيت «تميم» يبدو لي مثل «شمشون الجبار» كما يظهر في الرسوم الشعبية، أنا لم أكن أعرف شيئًا عن «محمود مختار» عدا المعلومات البديهية التي يعرفها أي شخص تعلم تعليمًا جامعيًا.. إنه نحات عظيم وصاحب تمثال «نهضة مصر» الشهير، لكنني الآن أكاد أكون متخصصة في هذا الفنان من فضول الكلام الذي تساقط من «تميم» عنه في حوارنا شبه اليومي، ومن الكتب التي طالعتها من مكتبة «تميم».. تقربًا من «تميم».. وكحجر أعبر عليه إلى «تميم».. وأحيانًا ردًّا لجميل «تميم» حين كان يقرأ كتبي المشتراة عن التصوير ويناقشني حولها ويبدي أحيانًا آراءً عظيمة تفك بعض طلاسم هذا الفن..

«محمود مختار» معشوق «تميم» حظي بإعجاب البرنس «يوسف كمال» راعي الفنون آنذاك فأرسله إلى باريس لإتمام دراسته هناك، ونحن الآن في

الألفية الثانية ولا وجود لباشوات وأمراء يتحمسون لإرسال الموهوبين إلى أورُبا لصقل مواهبهم، و«تميم» كان متفوقًا في كلية الفنون الجميلة. ليس ادعاءً مني لأني زوجته، بل بحكم شهادة تخرجه الأول على قسم النحت، الذي لم تعينه الدولة معيدًا في الكلية ولا أرسلته في بعثات إلى الخارج، ولسوء حظه أغلقت أكاديمية روما بحجة التطوير فلم يتمكن من تكملة دراسته هناك.

ولأن «تميم» كان يقتفي أثر «محمود مختار» فقد جعلني أعشق ذاك الرجل وأكاد أُسمِّع سيرته غيبًا من الكتب التي تناولت أعماله وحدثتنا عن حياته، ومن «تميم» حين يبلغ أقصى حالات النيرفانا ويكاد يتطابق معه حتى في الأقوال التي زعم فيها البعض أنها صدرت عن «مختار».. يعود من العمل أو الشارع أو المقهى فيقابله أشخاص «ينرفزونه» أو ليس بينه وبينهم وفاق، فيجلس مكدودًا مهمومًا بجواري وعندما أسأله عما يكدره، يجيب: «إنه يوم بغيض خالٍ من الوحدة»، وأكتشف فيما بعد أنها مقولة لـ«محمود مختار»، ضرب مرة عملة برونزية على أحد وجهيها تمثال «نهضة مصر» وعلى الوجه الآخر تمثال «تميم» عن «الإسكندر المقدوني»، ثرت عليه ووبخته أولًا لأن تمثال «نهضة مصر» تمثال تم إنجازه، بينما تمثال «الإسكندر المقدوني» ما زال مشروعًا في ذهن «تميم»، كما أن المثال العظيم «محمود مختار» مات قبل أن ينجز أعماله الثلاثة التي كان يحلم بتنفيذها.. «أحمد عرابي»، و«الإسكندر المقدوني»، و«كليوباترا»، وبما أنه وضع تمثال «نهضة مصر» على أحد وجهي العملة فالأولى به كان أن يضع

«أحمـد عرابي» أو على الأقل «كليوباترا» بصفتهما معبرين عن مصر وليسـا من الغزاة مثل «الإسكندر الأكبر»، وعارضني «تميم» لحظتها بقوله إنه يعتقد أن «مختار» لو أمهله القدر سنوات أخرى لكان أول تمثال سينفذه هو تمثال «الإسكندر المقدوني» الذي اختطفه الموت في سن مقاربة للسن التي توفي فيهـا «مختار» (40 سـنة).. هاجمته بأن فكرة وضع لوحة فنية أو نسـخة من منحوتـة علـى العملة تفسـد العمل الفني وتحيله إلى شـيء عـادي وتبتذله، أجابنـي بمقولـة أخرى لـ «مختار»: «يجب أن تكـون قطعة العملة قطعة فنية تتجلى فيها آثار الفن ومميزاته وتصبح صورة مجسمة للمثل العليا»..

في الحقيقة لم تكن شراسـتي في الهجوم عليه بسبب هذه المجادلة، بل بسـبب تهوره والخروج بحلمه عن عمل تمثال للإسـكندر كمحاولة لإتمام مسـيرة أستاذه «محمود مختار».. الخروج من الخيال إلى الواقع دون إنجاز فعلـي، خاصة أنه وهو يريني العملة كان مزهوًا ومختالًا واكتشـفت من ثنايا كلامه أنه سـيريها لآخرين منهم «الوشـاحي»، تخوفت من السخرية منه بعد أن يغادرهـم أو خشـية من أن يحاولوا إحباطـه ويؤثر ذلك عليه فيتوقف عند حدود الفكرة وخشـيت أكثر من عقد المقارنات بين «مختار» و«تميم» التي لن تكون مطلقًا في صالح «تميم».. بدا «تميم» في أشد حالات الاستياء من حدتي في المناقشـة لكنه خضع في النهايـة لرأيي وأخفى هذه العملة تمامًا، وفشلت في إيجادها بعد رحيله.

كانـت قـد واتتنـي فكـرة في أثنـاء نومـي، واعتقـدت أنهـا عظيمة فور اسـتيقاظي وهي أن أقاتل بضـرواة بجوار «تميم» وأدعمه بكل ما أسـتطيع

كـي يحقق حلمـه وينجز منحوتة عملاقـة، وأن أدفعه بقوة كي يشـارك في سـمبوزيوم النحـت الدولي بأسـوان، وكان هذا شـيئًا بالـغ الصعوبة، لأن قومسـير السـمبوزيوم هو النحـات الكبيـر «آدم حنين»، ورغـم أن «تميم» اختـار بعـض منحوتاته في فندق الـفورسـيزون، إلا أن «تميـم» كان يعتقد في داخله أن «آدم حنين» لا يسـتلطفه ويفضل عنه «نبيل» وبعض الناشـئين الأقـل موهبة، ومـن الطبيعي أنه لن يرفع سـماعة تليفون للاتصال بـ «آدم» كـي يشـركه في السـمبوزيوم ولن يقبل منـي ذلك، بل لو فعلتـه احتمال أن يطلقني على الفور، لكن رغم هذه العقبة الكبيرة لم أكن محبطة أو يائسـة، فالحل كان بسـيطًا جدًّا، اتصلت بملاكي «الوشـاحي» الذي قاطعني كثيرًا بنكات ومزحـات وتدليـل، وحينمـا أحـس بأنني قد خرسـت تمامًـا انتبه ثـم اسـتمع لي بروية وأنـا أطلب بحياء شـديد وقلق أن يسـاعد «تميم» في دخول السمبوزيوم وأن يقنعه في الوقت ذاته بأن هذا الترشيح منه شخصيًّا ولا دخـل لـي مطلقًـا في هـذا الأمر، أتانـي صوته هـادرًا مسـتخفًّا بالأمر «هـو ده طلـب يـا كتكوتة.. عمالـة تسـبليلي صوتك من الصبـح وأنا أقول فـي نفسـي البنـت دي أكيد دايبة فـي دباديبـي وأنا مش واخـد بالي.. وفي الآخـر تطلبي الطلب الهايف ده؟»، سـكت تمامًا بعدما شـعرت بالابتذال وهـو يعتبـر صوتي الهامس تسـبيلًا حتى عاد صوته مرة أخـرى لينًا وودعًا وهـو يقول: «غالي والطلب رخيـص.. وطبعًا مش هاقوله إنك اللي طلبتي مني ده»، شـكرته بكل جوارحي واضطررت مرغمة للإنصات بضع دقائق أخـرى أسـتمع إليـه وهو يغازلنـي بألفاظ تقتـرب من سـطح الفجاجة وأنا صامتة أضع فردة حذاء قديمة في فمي حتى انتهى.

عندمـا عدت إلى البيـت بعد انتهاء أوردر التصويـر وجدت «تميم» آخر فـي انتظـاري، عاد «تميـم» الذي أحببتـه من تلـك اللحظة إلى فتـرة قصيرة بعدها، يعمل اسكتشـات ثم يعدل فيها أو يمزقها ويخلق غيرها، يشكل بيده حتى من لبابة الخبز أشـكالًا طريفة كالطيور والسلاحف ويقدمها لي ونحن نـأكل فأعيـد تلوينهـا بالمايونيـز أو الكاتشـب وقد أضع حبـات فلفل محل العيون ثم أعيد إهداءها إليه، فيلتقطها من راحة يدي ويأكلها بسعادة، ثم بدأ يعود من عمله بشـركة السـجاد مبكرًا، ويعكف على وضع تصوراته أو يعيد القـراءة في كتب تتناول حياة الفنانين العالميين أو يشـاهد أفلامًا عنهم، وقد أخبرني أنه سـينتقي أكبر حجر جرانيت من الجبل وسـيخفي ما سـيفعله عن أقـرب الناس إليه، حتـى معاونيه الذين قد يعملون معه يـدًا بيدٍ على الحجر سـوف لا يدركـون ما هو صانع بهـذا الحجر حتى نهاية السـمبوزيوم، حتى يفاجئهـم كالزائريـن المهتميـن بما سـيصنعه، قاطعته وأنا أسـأله: «هو انت يا تميم مش هتقدم اسكيز أو إسكتش للجنة توضح فيه تصورك قبل ما تقطع الحجر؟»، ضحك طويلًا وقال إنه سـيقدم لهم اسـكيز عـن تمثال لـ «أحمد عرابي» وفي النهاية سـيجدونه قد تحـول إلى «الإسـكندر الأكبر»، ثم تدارك كونه كشف لي سره وأضاف: «على فكرة يا جيهان أنا لسه ما عملتش تصور كامل للتمثال.. مش عارف أخليه لوحده فوق حصانه ولا أشـرك معاه جنود مـن أعدائه منكسـرين وضحايا.. وحافضل اشـتغل على الأفـكار دي»، ثم طلب مني برجاء ألا أعيد لصق الإسكتشات التي يمزقها ويلقيها في القمامة حتى لا أعرف المحاور التي تشـغله في أفكاره فيصرف النظر عنها، دهشت جـدًّا مـن تصوره هـذا عني وعاتبته: «هـو أنا نابشـة قمامة يا تميـم؟».. انتبه لتجـاوزه وبـرر قوله وهو يحضنني بشـدة بأنـه كان يمزح، فـي تلك اللحظة

وأنا بداخل حضنه أحسست بخوفه الشديد، وأربكني هذا الإحساس جدًّا، كان هذا شهرًا من العسل أيضًا وأكاد أعتبره الأفضل، ثم انقضى بسرعة وما زال باقيًا على موعد بدء السمبوزيوم شهران كاملان حيث يبدأ في النصف الثاني من يناير وينتهي في خلال ستين يومًا، وخلال هذين الشهرين كانت حياتي تتقلب على جمر النار مع «تميم» كسمكة حية غليظة الجلد، كل يوم كان بحال مختلف عن ذي قبل، أحيانًا بذات حماسته التي أعقبت قبوله في السمبوزيوم.. يسهر يوميًّا عاكفًا على تصوراته، أو أحيانًا أخرى يدخل البيت على صهوة صمته متوجهًا إلى غرفة نومه ومندسًّا في فراشه ولا رغبة لديه في دخول ورشته، وفي بعض الأحيان التي كنت أتورط فيها في أوردر تصوير طويل وأعود إلى البيت في ساعة متأخرة كنت أجده متسمرًا أمام قناة التلفزيون التي تعرض أفلام كرتون للأطفال، أو قناة رياضية تعرض مصارعة عنيفة، وبعد لحظات أعرف أنه لم يغادر المنزل وقدم اعتذارًا عن عدم الحضور للشركة، لم أكن ألومه أو حتى أناقشه في الأسباب، لكن خطورة ما يفعله ازدادت بقدر اقتراب موعد السمبوزيوم.. أحيانًا كان يسر لي بأنه في الغد سيعتذر لـ«آدم حنين» القومسير ولـ«الوشاحي» الذي رشحه لأنه لم تعد له رغبة في المشاركة، وكنت أكاد أجن وأظل أحاوره وأناقشه حتى الصباح وقد لا ألحق بأوردر تصوير مهم إلى أن يطمئنني بأنه لن يعتذر، كان في بعض الأحيان يفتعل أنه اقتنع بكلامي، لكنه لا يبدي أي ملمح يدل على هذا الاقتناع، يظل في خصام مع ورشته، لا يدخلها حتى كي يزيل الأتربة، وكان وهو في تلك الحالة يمارس بعض الأفعال الصبيانية كقذفي بقشر البرتقال أو خطف كتاب أطالعه وإخفائه عني، أو يسهب ويطنب في الأحاديث التي تدلل على إعجاب الفتيات به في أثناء دراسته

بكليـة الفنون الجميلة، كانت هذه الحركات لا تخيل عليَّ، لأني كنت أدرك أنـه يحاول لفت نظـري إلى أنه بخير ولا يعلم أن مـا يقدمه لي من تطمينات كانت تؤكد لي العكس تمامًا.

بهذه الأحوال المربكة سـافر «تميم» إلى أسـوان ليشارك في سمبوزيوم النحـت الدولي مـع نخبة من الفنانيـن العالميين والمصريين، وبعد أسـبوع مـن وجـوده هناك بـدأ يتناقـص عدد مـرات اتصاله بـي، وكذلـك رده على اتصالاتـي مـن ثـلاث مـرات يوميًـا إلـى مرتين، ثـم مرة واحـدة ليـلًا قبيل نومـه، فـي تلـك المـرة كان يطمئنني على أحـوال العمـل.. مرة بأنـه انتقى الحجـر، ومرة بأنهم يتولـون تقطيعه تمهيدًا لوضعه فـي المكان المخصص لـه، ومـرة بأنهـم يتولون تشـذيبه، كنت فـي ليلة سـفره قد اتفقـت معه على زيارتـه فـي منتصف الشـهر الأول والبقـاء معه ليلتيـن وكان هذا مسـموحًا للمشـاركين ومقبـولًا أن تلازمهـم زوجاتهم أي مدد يشـاءُون حتى لو طيلة أيـام السـمبوزيوم، لم يسـمح لـي «تميـم» إلا بزيارتـه أربعة أيام في الشـهر تقسـم على مرتيـن، وكان هذا ظلمًا مجحفـا قبلته بصعوبة، ويـا ليته تم كما قـدره لي! ذهبت إليه أول مرة في الموعد المتفق عليه وأقمت معه في فندق «بسـمة» القريب جدًّا والمطل على السـاحة الصحراويـة الكبيرة التي يعمل فيها الفنانون على مسافات متباعدة، ليلتي الأولى معه كانت جميلة غير أنني بمجرد ما أخبرته برغبتي في تصويره وتصوير زملائه النحاتين وهم عاكفون علـى أعمالهـم إلا وثـار ثـورة عارمة وطلـب منـي أن أكف عن هـذا العبط واتهمنـي بالانتهازية وبأنني أسـتغل الزواج به كـي أروج لصوري، وأضاف أن منظره سـيكون في منتهى السـوء أمام المنظمين والفنانين عندما يعلمون

أن زوجته استغلتهم وتكسبت من ورائهم، كان الكلام صادمًا جدًّا ومهينًا وزائفًا فهو يعلم علم اليقين بترفعي عن استغلال الصلات الشخصية، ويعلم أيضًا أن التصوير الذي سأقوم به غرضه الحقيقي أن أسانده وأؤازره وأُخدِّم عليه إعلاميًّا بحكم أنه مغبون إعلاميًّا وقد سبق أن صورت أعماله في فندق الفورسيزون ولم يعترض بل كان سعيدًا جدًّا بعد نشرها، كان الوقت صباحًا وكنت صامتة تمامًا وهو يوبخني لكنني أغلي من الغيظ والغضب، وكانت عيناي مسمرتين تجاه الحقيبة الضخمة الحاوية على أدوات التصوير والعدسات وآلة قياس الضوء، تلك الحقيبة التي رتبتها بجهد وعناية قبيل السفر إلى أسوان، وددت لو ألقي بها في النيل، ثم حولت نظري تجاه الحقيبة الأخرى التي بها ملابسي وغياراتي، وكان صوت «تميم» قد بدأ يهدأ ثم يخفت ثم يتوقف، لحظتها نظرت تجاهه وقلت له بثبات. «أنا هرجع القاهرة النهارده يا تميم»، صدمه قراري وبذل جهدًا كبيرًا في مصالحتي وفي تقديم اعتذاراته وتبريراته حتى رضيت أن أبقى بعد أن أقسمت أنني لن أفتح تلك الحقيبة المشئومة إلا في القاهرة، وقد كان، وكنت قد تكدرت تمامًا فرفضت مصاحبته في الصباح الباكر الذي استهللناه بتلك المشادة، وأخبرته بأنني سأزور موقع العمل في منتصف النهار، وزرت الموقع فعلًا بعد الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ورأيت حجره الضخم الذي يزيد ارتفاعه على خمسة عشر مترًا وعرضه على خمسة أمتار، وكان «تميم» ومساعدوه يعملون عليه دون أن تبين له ملامح واضحة، وعندما رآني أجلسني على مقعد بجوار الحجر أسفل مظلة أعتقد أنه جهزها خصيصًا لي وأعلن لمساعديه عن ساعة راحة قضوها بجوارنا، وكان جهاز التسجيل الصغير الذي حمله معه

«تميم» من القاهرة ما زال يصدح بأغاني «أم كلثوم»، وكان أحد المساعدين يهيئ الأزاميل للنحت بينما ثانٍ يجهز الشاي، وثالث جالس معنا يستمع إلى «تميم» وهو يحدثهما عن «مايكل أنجلو» ويقارن بينه وبين «رودان»، ثم يصف لهما في فخر أحد التماثيل الفرعونية.. تمامًا كما كان يفعل «محمود مختار» طبقًا لما ذكرته الكتب المنشورة عنه، وبعد انقضاء الساعة توقفت قليلًا لأرى «تميم» وهو يشرع في العمل، ثم درت في الموقع أتابع الفنانين الآخرين إلى أن صارت قبعة القش التي كانت تعلو رأسي بمثابة دبابيس من النار، هرعت سريعًا إلى الفندق ولبدت في انتظار عودة «تميم».

نفض «تميم» عند عودته التراب والغبار وذرات الصخر الصغيرة عنه مستخدمًا في ذلك «بلاور» شافط للهواء وحمامًا استغرق في أخذه مدة طويلة جدًّا، ثم أقبل عليَّ بابتسامة ودود وقد بدا عليه أنه راجع نفسه بخصوص ما فعله معي في الصباح أو قرر ألا أبيت معه ليلتي الأخيرة هذه وأنا متكدرة، وبذكاء لم يتطرق إلى موضوع الخلاف لكنه ظل يمازحني، ثم سألني رأيي عن قطعة الحجر التي انتقاها، فابتسمت ولم أعلق، أخذ نهاية البسمة من فمي وأطالها في فمه ثم سكت بضع ثوانٍ وعيناه محدقتان بوجهي وأنا أحس بأنهما تعبراني إلى المجهول، وقال إنه يعرف سبب ضحكتي هذه لأني لم أتبين شيئًا مما ينوي أن يفعله وهذا بيت القصيد، فلن يكشف الحجر عن أسراره في أولى الملامسات معه، لكنه بالتدريج وقبل لحظة ختام السمبوزيوم سيتجلى أمام العيون مستلهمًا أرواح العظماء أمثال «هنري مور» و«مايكل أنجلو» و«برانكوزي» و«جاراجللو» و«مختار»، كانت حدقتا عيني «تميم» في تلك اللحظة قد لمعتا بشدة، فهاجمتني

قشعريرة خوف، ويبدو أنه أدركها، لأنه ضمني إليه بشدة، فدسست رأسي في صدره وأغمضت عيني، عاد صوته متزنًا وهادئًا ومرتبًا جدًّا وبدأ يشرح بصبر مدرس على تلاميذه البلداء، قال إنه أخفى عن المنظمين أنه ينوي عمل تمثال عن الإسكندر لأنهم يرفضون أن يكون ضمن مشروع السمبوزيوم تماثيل ميدان، ولأن فكرة عمل تمثال عن فاتح غربي عظيم كالإسكندر ستثيرهم ضده ويقولون إن الأولى بها الفنانون الغربيون الذين يشاركون في السمبوزيوم، خاصة الفنان اليوناني الذي يستضيفه السمبوزيوم هذا العام، لذا هو في تحدٍّ كبير مع هذا الحجر، عليه أن ينحت منه حصانًا جامحًا دون أن يبين ذلك في بدء العمل، وفارسًا لا يبدو كالإسكندر الذي تصوره آلاف الفنانين، إنه يرغب في عمل منحوتة عن البطولة دون تجسيد مخلٍّ، وقمة التحدي أن ينجزه دون أن يبدو كرمز فجٍّ، ثم ربَّت «تميم» ظهري وسألني.

«هل تتذكرين يا جيجي تمثال رياح الخماسين لمختار ؟»، خرج صوتي من أسفل إبطه: «طبعًا فاكراه»، ثم خرجت من صدره وواجهته ورأيته مبتسمًا فارتحت، أضاف «تميم» وابتسامته تتسع: «حاجة زي كده بس ده قياس مع الفارق، تمثال مختار من الحجر برضه بس نص متر ومعمول من حوالي 80 سنة»، ثم سكت «تميم» قليلًا، وبدا كأنه يفكر في أن يستكمل حواره دون أن يتجاوز في حق أستاذه «محمود مختار» لأنه قال: «عبقرية مختار طبعًا لا خلاف عليها، بس دلوقتي إمكانيات المساعدة التقنية أعلى بكتير من عام 1929 اللي أنجز فيه التمثال»، أنهينا عشاءنا وأنا أحاول بلا جدوى أن أخرجه من أجواء التحدي الكبير الذي أحسست به يشتعل بداخله، وخفت عليه منه جدًّا وبدأت أحس بالذنب لأني ساهمت في أن يخوضه، واضطررت في جانب كبير من سهرتنا تلك إلى أن أذكره بأفضاله عليَّ شخصيًّا منذ أن

تقابلنا للمرة الأولى دون أن تكون عندي فكرة جيدة في تصوير المنحوتات، وكيف أرشدني لتصويرها من أبعادها الأربعة وساعدني كثيرًا في تصوير بعض الأعمال الحديثة لفنانين آخرين، خاصة التي بعض جوانبها كان صغيرًا جدًّا ومن الصعب تصويره، واسترجعت معه تجاربه الإبداعية في فندق الفورسيزون حتى هدأ ونام..

وهو يودعني صباحًا قبلته على وجنتيه ثم قلت له إنني لن أحضر مرة أخرى إليه في أسوان إلا بطلب منه وإنني أعفيه من اتفاقنا السابق بزيارتي له مرتين في الشهر، سألني بارتياح ظاهر: «ليه؟»، أخبرته بإحساسي بأني زدت من ربكته بوجودي معه وأنه من الأفضل لنا أن نبتعد قليلًا عن بعض حتى يتم إنجازه العظيم، قبلني بشهية استفزتني ودفعني لأن أطلب منه أن يلتزم بأن يطمئنني على سير أموره حتى لو كان ذلك عبر رسالة هاتفية يرسلها مرة واحدة يوميًّا، وعدني بذلك وتظاهرت بتصديقه.

لكنه التزم بوعده، وبدأت تتوالى عليَّ رسالة واحدة لا تتغير: «جيجي يا حبيبتي.. أنا بخير.. الشغل زي الفل»، كان أحيانًا يرسلها لي صباحًا وأحيانًا قبيل نومه، بعد أسبوع بدأت رسالته هذه تطيح بعقلي فهي تشي بعكس المراد منها، كل حرف من حروفها بات يؤكد لي أن «تميم» ليس بخير، اتصلت بـ «الوشاحي» أبثه قلقي على «تميم»، فضحك بخفة وسخر من أوهامي وضايقني أني أحسست بلهفته على لعب دور مستشاري العاطفي، خاصة وهو يحاول التطرق إلى مساحات مغلقة في العلاقات الزوجية، أحبطت تسلله إلى تلك المنطقة، وغاظني أكثر سرعة ارتداده إلى دور الرجل الشهم الذي يعرض أن يسافر معي على الفور إلى أسوان لكي نطمئن على «تميم»،

شـكرته بغلظة إلى درجة اتصاله بي مرة ثانية عقب اتصالنا هذا بنصف ساعة كلمني في تلك المكالمة بصيغة أستاذ جامعي يعطي تلميذه النجيب الأسئلة المتوقعة في الامتحان، أشـاد بـ «تميم» ونبوغه وألمح أن هذا النبوغ ممكن أن يضر باسـتمرارية الفنان أحيانًا، وقال إنه مدعو إلى السـمبوزيوم في ختام أعماله ويتوقع أن يراني هناك.

أنـا لم أذهب مـرة ثانية إلى هـذا السـمبوزيوم وبالتالي لـم أحضر حفل الختـام إن كان لختامـه حفل، وظللت أتلقى رسـائل «تميم» اليومية دون أن أفتحها أحيانًا، واتصلت به خمس مرات ولم أتمكن من مكالمته لكنه اتصل بـي مـرة واحدة عقـب المكالمات الخمس وظـل يطمئنني بشـدة طيلة هذه المكالمة.

وعندمـا انتهى السـمبوزيوم وعاد «تميم» ذات ليلة، وجدت نفسـي وأنا في حضنه أشـعر بإحسـاس الأم التي ضـل وحيدها وأضنتهـا رحلة البحث عنـه حتـى وجدته جثة طافية على سـطح محيط تهدهدهـا أمواجه، لم ينطق وهـو بين أحضاني ولـم أشـعر حتى بدبيـب قلبه، وكان ملمـس حقيبة ظهره التي أشـبك أصابعي عليها أكثر سـخونة من جسـده الذي يـكاد يتهاوى بين ذراعي، لم أجرؤ على توجيه أية أسئلة إليه بخصوص السمبوزيوم، وأدركت للوهلة الأولى من هذا اللقاء أن حياتي سـتخلو من «تميم» بعد أن اتضح لي أن مراهنتي عليه كانت تشكل الجزء الأكبر من حبي له.

ولأيـام كثيرة بعد هذا اللقاء بدأت أحس بأني أكاد أكون غائبة عن ذاكرة «تميم»، وأتصوره وهو يجهد نفسـه في محاولة اسـتعادة تفاصيل وجهي أو جسـدي عندما يخلو بنفسـه، أو أنه يعاند نفسه حتى لا ينظر إليّ مليًّا ويتذكر

تفاصيلـي، كان يدق جـرس بابنا مرتين كعادته لإعلامـي بوصوله ثم يُدخل سـنَّ المفتاح ويدير «السـكّات» السـت، ويتفاداني وأنا أهم بمقابلته، يمرق بسـرعة وهـو يميل بنصـف وجهه إلـى الجانب الآخـر مهرولًا كعـذراء في محاولـة هـروب من عيون أغـراب قادمين لمعاينتها قبـل المصاهرة، يبصق بالتحية المهموسة التي يتناثر رذاذها إلى الجانب الآخر، يأكل داخل ورشته من أي طعام أضعه له كسجين قنط من الإفراج عنه، يخرج من البيت ويعود دون أن أعرف ماذا كان يفعل في الخارج؟ وهنا اضطررت لأخذ موعد آخر مع «الوشاحي» دون أن أعلم «تميم» به لكي أتيقن من الوساوس التي بدأت تملؤني.

أحمد الضوي

يبـدو أنني في قمة اللخبطة، التي سـتقودني إلى مرحلـة البله المنغولي، موعـدي مـع «كارولين» و«عماد» السـاعة الثالثـة في مطعم بشـارع عدلي، وقـد وافقـت عليـه مضطرًا حتـى لا يتحول زعـل «عماد» إلـى غضب، لأنه يريـد أن يرينـي كيف سـيطر علـى «كارولين» المتمـردة بمسـاعدة العبقري الفلكـي، مـا الـذي يجعلني أغـادر مكتبي قبل السـاعة الواحـدة وأتجه إلى منطقـة وسـط البلد، لـم أجلس بالمكتب سـاعة واحـدة تتيـح للعاملين فيه معـي أن يطلعونـي على المسـتجدات وفررت بسـرعة زاعمًـا أنني تذكرت موعـدًا مهمًّا، مـن الممكن اعتبـار كل هذا شـيئًا عاديًّا ويحـدث للآخرين، لكـن ما الذي جعلني أتوقف بالتاكسـي عند منتصف شـارع القصر العيني؟ أو بالتحديـد أمام الكافتيريا التي تجلس فيهـا «جيهان» أحيانًا مع أصدقائها، اقتحام مفاجئ وسـخيف لكنَّ قدمي في طريقهما المنشـود وليس ثمة أفكار في العالم تقنعهما بالتراجع، عبرت منتصف الطريق الوحشـي، بعدما أفلتُّ بصعوبة من السيل المتدفق لسياراته، ووقفت على الشريط الحجري الذي يقطـع الطريق إلى نصفيـن، ونظرت قبالتي بالضبط حيـث مدخل الكافتيريا وعمقها، وجدت صديقها «فريـد» وبصحبته مجموعة من الرجال وامرأتين ولـم تكن «جيهان» موجـودة، رآني فلم تعد لي فرصة فـي التراجع، دخلت إلى الكافتيريا وسـلَّمت على «فريد» الذي تبسـم في وجهـي ولم يعتدل في

جلسته ولم يدعوني حتى إلى الجلوس معهم، الحرج والغيظ دفعاني للسؤال عن «جيهان»، أجابني بسرعة بأنه لم يرها منذ فترة وأنه ليس على موعد معها الآن، ثم أدار وجهه ليكمل حديثه مع أصدقائه ولم يهتم حتى بسماعي وأنا أعلل له سبب دخولي الكافتيريا بأن عندي موعدًا بإحدى الشركات المجاورة، تخطيت منضدتهم ومنضدة أخرى خلفهم وجلست في قعر الكافتيريا، من مكاني هذا لمحته يدور برأسه في المكان وعندما اطمأن لمغادرتي رأيت على جانب وجهه ابتسامة التخلص مني، فأدركت أن «جيهان» قادمة بعد قليل، وقد حدث هذا بالتمام، دخلت إلى حيث يجلسون وألقت عليهم التحية وهي واقفة وأسرع «فريد» بسحب كرسي لإجلاسها، وبينما تهم بالجلوس لمحتني وحدقت فيَّ بدهشة ثم ردت على تحيتي وخفضت رأسها وهي تهمس لـ «فريد»، كنت أعرف أن هذا التهامس بخصوصي وقد ساءني ذلك أكثر، فشددت أنفاسًا كثيرة من شيشة الخوخ التي كنت قد طلبتها على سبيل التسلية، وكان «الجرسون» قد أتى بفنجال القهوة فقررت إنهاء قهوتي وحجر شيشتي ثم المغادرة، أنا لن أتحمل هذا المكان كثيرًا، سأعود إلى المنزل وأظل فيه إلى أن يحين موعد «عماد»، وقد أجد «ريم» هناك فأقنعها بمصاحبتي إلى المطعم، بعد أن نسخت نسخة من مفتاح شقتي عقب الليلة التي منحتها لي، أصبحت تأتي إليها كثيرًا وفي أوقات متباينة ودون أن تخطرني، كزوجة غيورٍ تشك في زوجها، لم أقابلها في داخل الشقة كثيرًا لكن غالبًا أجد آثارها بالداخل، الفواكه والمعلبات تملأ الثلاجة، الملابس والبياضات تستقبلني بمجرد دخولي في أكياس «اللوندري»، ومرة اصطحبت خادمة وأشرفت عليها وهي تنظف الشقة وتركت لي خطابًا بأنها قد تضطر إلى رش الشقة بالمبيدات ذات يوم وأن

ذلك سيتطلب غيابي عن الشقة ثلاثة أيام وهي ستدبر لي مكان إقامة، حمدًا لله أن الجيران القدامى أغلبهم توفوا أو رحلوا أو أجروا شققهم إلى آخرين، حتى لا يتساءل أحد عن الصلة التي تربطنا فأضطر إلى الكذب، أشرت إلى «الجرسون» بكفي كي يحضر الحساب ويبدو أن «جيهان» لمحتني لأنها قامت من فورها متجهة ناحيتي، بادرتها بذكر سبب تواجدي بالمكان غير أنها أوقفتني بيدها، كأنها محقق نابه يريدك أن تتوقف عن الكذب وتصمت، اعتبرت إشارتها هذه بمثابة تأنيب مضمر لمحاولتي تتبعها وجاء «الجرسون» بورقة الحساب فدفعت وصرفته كإعلان صريح عن مغادرتي، سألتني بدهشة مفتعلة: «هو ميعادك جه على طول.. يعني ما ينفعش تقعد نص ساعة كمان؟»، أساريري التي تتحالف ضدي، خانتني هذه المرة أيضًا وانبسطت، ثم تظاهرت بالنظر إلى ساعة الموبايل وقلت: «طبعًا ممكن نص ساعة تاني ولو حبيتي ألغي الموعد خالص ممكن ألغيه»، فرت من بين شفتيها بسمة ساخرة كأني قلت نكتة بايخة ولم تعقب، ناديت «الجرسون» وسألتها ماذا تشرب؟ أجابتني بأنها شربت عصير ليمون ولا تريد مشروبًا إضافيًا، ظللت أقترح عليها مشروبات وهي تومئ برأسها رافضة.. برتقال.. كركديه، ثم لمحت فتاة على الجانب الآخر تأكل آيس كريم، فراقني الأمر وقلت لها بحماسة: «النهارده حرارته جامدة.. إيه رأيك في بولتين آيس كريم يطروا الجو؟»، أظهرت لي كفها معترضة وهي تقول: «آيس كريم لا مبحبش الحاجات الملزقة ولا الأصحاب الملزقين»، صرفت «الجرسون» المبتسم في بلاهة، وأنا أحاول أن أبدو باردًا، لكني لم أجد كلامًا آخر يُقال، كان جسدي كله ينتفض من الغضب، وجزء ضئيل من عقلي يقنعني أنها لم تقصد، عندما طالت فترة صمتي سألتني بدهشة: «إنت ليه سكت فجأة.. هو

أنا لازم أشـرب مشروب عشـان نتكلم.. خلاص يا سيدي اطلبلي اللي انـ
عايزه.. وأنا حاشـربه عشـان خاطرك»، وضعت الموبايـل في جيبي وقمـ
وأنا أقول لها إن موعدي قد أزف، ثم ألقيت عليها سلامًا.

دائمًـا مـا تنتابنـي هـذه الحالة وأنـا أغادرهـا غاضبًـا، أحس بأنهـا قزمـة جدًّا، ومقاييس جسـدها تتضاءل، وأتعجب من نفسـي كيـف أدور في فلكـ هـذه الأنثـى التي لا تـكاد تظهر بجانب مـن أغرموا بي أو كنـت على علاقة بهـن، وأتذكـر يوم غضبت علـى «عماد صدقـي» غضبًا شـديدًا عندما ألقى بتعبيـر عـارض عـن حجمهـا وأنـا أحدثه بشـأنها ذات يـوم، لـم أُره وجهي بعدها لأسـابيع ولـم أرد على مكالماتـه حتى جاءني معتـذرًا وحلف إنه لم يقصـد الإهانة وإنما قال هذه الملحوظة عندما وجد «ريم» تخطر على ذهنه فجأة... كدرتني «جيهان» وأفسـدت مزاجي ولولا خشيتي من زعل «عماد» لرجعت إلى البيت أو ذهبت إلى أي داهية تصرفني عن التفكير في كيفية الرد علـى سـخافتها.. ما الذي يجعلنـي غير قادر على اتخاذ قرار نهائي بشـأنها، ولماذا أظل أضعها في خانة الاحتياطي الإسـتراتيجي؟ رغم أنني أعلم علم اليقين بأنه لا تلاقٍ بيننا، وأعرف نهايتها من الآن.. ليست نهاية العلاقة.. بل نهاية «جيهان» نفسها.. أتصورها كصيادٍ مسنٍّ قضى عمره في غابات إفريقيا يصيد وحوشـها وضواريها ويعلق رؤوسـها على باب كوخه الضخم، وبعد أن أقعدتـه السـن انتهى إلى الجلـوس بجوار كوخه وكلمـا اقترب منه أرنب مجهد أو فرخ طير لم يتقن الطيران بعد، أرداه ببندقيته التي ترتعش في يديه، ثم قام بصعوبة وفصل رأسه وعلقه بجوار فرائسه الكبرى..

دخل «عماد صدقي» و«كارولين» إلى المطعم واندهشـا عندما وجداني وقـد قضيت على نصـف زجاجة نبيذ بمفـردي، حاول «عماد» أن يستفسـر

مني عن المحطات التي توقفت بها قبل الاستقرار بالمطعم في محاولة منه لمعرفة ماذا حلَّ بي، لكني لم أمكنه من استخدام حسِّه الأمني وقلت له بغلظة إنني أتيت من الشركة مباشرة، طلب الطعام وتحدثنا في موضوعات شتى لكنَّ شيئًا ما في الجلسة كان قد فسد، ولم أدرك حينها من المتسبب في ذلك؟ هل أنا بمزاجي السيئ الذي دخلت به هذا المكان؟ أم لأحاديث «عماد» التي تطرقت لصولاته وجولاته ومغامراته البوليسية؟ أم أن شيئًا ما في «كارولين» ظلل جلستنا بطاقة سلبية، رغم أنني كنت غير منتبه لهما كليًّا إلا أنني لاحظت أنها «كارولين» أخرى غير التي رأيتها مرارًا وهي تبيع وتشتري وتفاوض وتساوم.. كعادتها كانت ترتدي ملابس قاتمة وأبرز مكياجها الثقيل الحدة في قسمات وجهها.. كانت تبدو كشبح أو امرأة انتهت للتو من دفن عزيزها.. لم تضحك حتى ضحكة مجاملة على النكت السمجة التي ألقاها «عماد» عند ملاحظته ثقل ظل الجلسة، لكنها ابتسمت مرة أو مرتين.. وتعاملت بتهذيب مع «عماد».. كانت تسارع بمناولته أدوات المائدة التي يحتاجها وتصب له الماء وتقشر له اليوسفي.. كانت أشبه بمديرة مكتب من أن تكون حبيبة وقعت في غرامك يا «عماد» كما أخبرتني.. لم أجد أثرًا لمعجزة العبقري الفلكي التي ادعيتها..

حاول «عماد» أن يستبقيني قليلًا بعد الطعام لكنني رفضت بشدة أدهشته، قال لي وهو يسلم أنه قد يسهر مع «كارولين» في أحد المسارح واحتمال أن تنتهي بهما الليلة للسهر في أحد الملاهي، ورجاني أن أنضم لهما في الليل لنسهر سويًّا، فهززت رأسي ولم أعطه وعدًا جازمًا.. فور مغادرتي المكان اتصلت بـ «ريم» التي استقبلت مكالمتي بسعادة، أخبرتها بزهقي فسكتت قليلًا ثم قالت بأسى إنها ستبيت عند «استيلا» لمتابعة دروس ابنتها

«ملك» وطلبت مني أن أحضر للعشـاء معهن، رفضت الفكرة تمامًا وأنهيت المكالمـة، في وقت مبكر جدًّا من الصباح كلمتنـي «ريم» وهي تغادر منزل «استيلا» وأخبرتني بأنها في مشوار إلى المعادي مع «ملك» وبمجرد انتهائها مـن هـذا المشـوار سـتقابلني لكي نبحث عـن عـم «إمبابي»، أنهـت «ريـم» المكالمة دون أن تعطيني أية تفصيلات عن طبيعة مشوارها مع «ملك».

أفطـرت مـع «شـريف» وكانت صحتـه على ما يـرام، أو هكـذا بدا لي وأخبرني بأن صديقته «شـويكار» قد تمـر عليه اليوم أو غدًا لتأخذه بصحبة زوجها في رحلة إلى الفيوم لمدة أسـبوع كي يروح عن نفسـه، سـعدت بما قالـه لأن حبـل اطمئناني عليه سيمتد أسـبوعًا آخـر ولـن تنتابني هواجس بشـأنه قبيل نومي أو بعد صحوي كما اعتدت مؤخرًا، ثم أضاف «شـريف» أن المنتجـع الذي سـيذهبون إليه لطيف وسـبق أن زاره منذ عام ومكث به عشـرة أيـام وطلب مني أن آخذ إجازة من عملـي وأذهب معهم أنا و«ريـم» فضحكـت، ثـم أجبت عينه المتسـائلة عن سـبب ضحكي، بأني لسـت في حاجة إلى أخذ إجازة من عملي لأني شـبه عاطل وبأني لا أعتقد أن «ريم» سـتروقها الفكرة لأنها مشتبكة في مسائل عائلية تكبل حركتها خارج مدينة القاهـرة، سـكت «شـريف» قليلًا ثم قال إن «شـويكار» أحبـت «ريم» جدًّا وستسـر لـو صحبتهم في تلـك الرحلة، كما أنـه يعتقد أن «ريـم» لن تمانع إن اقترحت عليها هذه الفكرة، دهشـت جدًّا من تصوره هذا ومن الانطباع السـريع الذي أخذته «شـويكار» عن «ريم» من مجرد جلسة واحدة، كانت «ريـم» خلالهـا من «أرذل» ما خلـق، وعندما لمحت له بذلـك فاجأني بأن «ريم» قابلت «شـويكار» منذ عدة أيام فائتة وهي صاعدة إلى شـقتي، وأنها تغدت معهمـا يومها، وأنه بعد الغداء أخذ قيلولته وتركهما تتحدثان وتعلو

ضحكاتهما.. لم تبلغني «ريم» مطلقًا بتلك المقابلة ولا جاء ذكرها حتى من قبيل المصادفة في أثناء حوارنا هاتفيًا أو وجهًا لوجه، كأنها مرت على جهاز مسح المخ الذي أزال الواقعة بتمامها.

جاءتني مكالمة من «جيهان» في الساعة الثانية عشرة ظهرًا ولم أرد عليها.. ثم مكالمة أخرى منها وأنا بصدد مقابلتي لـ«ريم» حسب الموعد الذي حددناه في الرابعة ولم أرد أيضًا.. لكن رنين المكالمتين رفعا نسبة الأدرينالين في جسدي.. ثم انتبهت لقول لها سابق معي خلال عتابنا في إحدى المرات بأنها تتصل بالشخص الذي يهمها مرة واحدة فقط وإن لم يرد على مكالمتها لا تعاود الاتصال به البتة حتى لو كانت مكالمته سترد لها الروح.

ها أنا أعاود التفكير فيها.. يبدو أن الخلل الذي برأسي غير قابل للإصلاح، لن أمل التفكير في سبب قابليتي لأن تقليني على نار الشواء ثم تغمرني في المياه المثلجة وأجد نفسي أعيد التفكير فيها بعد قرار نهائي بأن أجعلها تغور من وجهي.

دُرنا بسيارة الأجرة في منطقة الألف مسكن نسأل عن بيت «إمبابي» حسب وصفات متعددة أخذتها «ريم» من أفواه بعض رواد وعمال مقهى اعتاد «إمبابي» على ممارسة عمله في السمسرة من خلاله، قالوا إنه أحيانًا يغيب في عمله - الذي لم نعرف نوعيته من كلامهم - ولا يأتي إلى المقهى إلا ليلًا، حاولت أن أصرف «ريم» عن لقائه وأؤجله إلى يوم آخر، لكنها قالت لي بنفاد صبر: «دا أنا مصدقت تطاوعني وتيجي معايا.. عايز تخلع من أولها.. دا إنت لو كنت خلصت مع إمبابي وأنا

مشـغولة بملك كان زمانا اشـترينا المكان ووضبناه»، سكت عندما لاحظت أن السـائق بـدا متشـفيًا فـيَّ وهـو يختلس النظـر في مرآة السـيارة ويبتسـم، ابتسـامة الرجل الذي زوجته «تشبشـب» له وها هو فرحـان لأنه وجد زميلًا في «الشبشـبة»، ظللت أفكر في هذا المشـوار العجيب والسـيارة تنتقل بين فيلات وسـرايات مهدمة وعمارات حديثة معمارها مشوه وعشوائيات.. في بدايـة علاقتي بــ «ريم» كانت قد أخبرتـني بأن «إمبابي» سمسـار وقد كلفته بالبحـث لهـا عن فيـلا قديمة صغيـرة الحجـم ومعمارها يصلح بعـد إعادة ترميمـه لعمل أكاديمية خاصة لتعليم المسـرح، وكان «عماد» قد سـخر من هذه الفكرة وهو يقول: «هي معاها قرشـين وعايزة تشـغلك في المشروع ده عشان تبقى مسيطرة عليك أكثر»، وبَّخته وأنا أسخر منه: «هو أنا ناقص شغل يا شـرلوك هولمـز؟»، اكتفى بهز رأسـه وهو يقول: «هنشـوف.. بكرة الأيام هتورينـا»، أكاد أكـون متفقًا مع ما قالـه «عماد» الآن.. «ريـم» تريد البدء في مشـروع «بالشـقلوب».. بدلًا من اللجوء إلى محـامٍ متخصص يوجهها إلى كيفيـة أخـذ التراخيص ومعرفة الشـروط اللازمة لعمل مثل هذا المشـروع، وبعد اسـتكمال كل الأوراق تأتي مرحلـة البحث عن المكان، هي تبدأ الآن مع سمسار عشوائي وجدته مصادفة.

وصلنـا إلى منطقة شـبه مغلقـة.. المدخل إليها طريق ضيـق عرضه يقل عن أربعة أمتار ومليء بالحجارة بالأحجام كافة وهي متراصة خلف بعضها لكـي يعتليها الناس حتـى لا تغرق أقدامهم في مياه قذرة متسـربة من الترعة التي تحف بالطريق، وهي ليسـت ترعـة بالمعنى المعروف ويمكن اعتبارها أقـرب إلى المصرف الصحي، توقفت السـيارة واضطررنا للنزول لكي نعبر الطريق حتى نصل إلى بيت «إمبابي» بناءً على آخر وصفة..

شاهدت كثيرًا من الأبنية والمنازل والفيلات والقصور طوال عملي في المعمار، لكن لم أجد شبيهًا بتلك المنطقة حتى في أكثر الأفلام السينمائية ابتذالًا، هذا بخلاف الروائح الكريهة إلى حد القيء، وما نحاول تفاديه في أثناء سيرنا من قذارة ومخلفات آدمية وحيوانية وجثث حيوانات نافقة وصلت إلى حد التحلل، كانت «ريم» تحاول أن تبدو بجواري متماسكة وإن كنت أعتقد أنها عندما ستعود إلى البيت، لن تخرج من البانيو إلا بعد ست ساعات، البيت المنتظر - لو صح كلامي على أنه بيت - كان قد لاح لنا، هو في الحقيقة قطعة أرض والأفضل أن تسمى خرابة لا تتجاوز مساحتها ستين مترًا، تحدها من الجوانب أسوار من أنصاف القوالب الأسمنتية والرملية وتتخللها أحيانًا قطع من الصاج المتعرج من المخلفات.. المدخل من الخشب يشير إلى أن «إمبابي» هذا له قوة وسطوة تجعله يأمن على مكانه ولا يصونه إلا بمثل هذا الباب الخشبي الذي بضربة كتف يفتح على مصراعيه..

استقبلتنا زوجته وطابور من أولاده الصبيان والبنات في أعمار متقاربة بكثير من الدهشة، لكن بعد أن تفرست فينا السيدة رحبت بنا بشدة واعتذرت بأن زوجها «إمبابي» فقد موبايله واشترى غيره برقم جديد لذا لم نتمكن من الاتصال به، كنا في تلك اللحظة بداخل الحوش وخلف السيدة غرفة بملحقاتها مبنية بالطوب الأحمر وعليها بعض المحارة وتجاور هذه الغرفة «عشة» للطيور الداجنة يظهر من خلال فرجات أقفاصها دجاج في الطابق الأعلى من العشة، وبط وإوز في الطابق الأسفل، وصوت ديك يتصاعد بين الحين والآخر.. حاولت السيدة بشتى الطرق استضافتنا بالداخل لكننا رفضنا وأشرت أنا إلى دكة موضوعة أمام الغرفة

وقلـت للسـيدة إننا سـنجلس عليهـا، لكنها رفضت بشـدة وأعلنـت أن هذا لا يصح، ثم في النهاية جذبت كرسيًّا من الداخل أجلست عليه «ريم» ثم أتى أولادهـا ببعض صناديق المثلجات الفارغة ورصوها فوق بعضها ووضعت السـيدة فوقها قماشة أجلسـتني عليها.. أصرت على أن نشرب الشاي وهي تخبرني بأن «إمبابي» سيأتي في الحال فهو لم يخبرها بأنه سيغيب في العمل لكـن ربما طارئ قد حـدث.. كانت «ريم» مشـغولة بتأمل المكان ورأسـها لا يكاد يستقر على الرقبة، وعلى وجهها ابتسامة لطيفة.. ثم سمعنا صيحات «إمبابـي» بالخارج وبعض أولاده غير المشـغولين بنا هرعـوا تجاه الصوت وارتفعـت أصـوات الطيـور بداخل العشـة بطريقة تصاعديـة وجرت بعض الأرانـب إلـى جحور بجوار العشـة وقـد أدهشـني رؤيتها جدًّا فلـم أكن قد لاحظتهـا عنـد الدخـول، كانـت الزوجة قـد هرعت بسـرعة إلـى الغرفة ثم خرجـت بمـلاءة كبيـرة من قمـاش التيـل السـميك أسـرعت بوضعها فوق العشـة فأخفتهـا تمامًا، كانت الدهشـة قد اسـتلبتنا تمامًا بدايـة من التصرف الحضـاري للرجـل الـذي يعلن عـن حضوره بصـوت قـوي ولا يدخل بيته إلا بعد الاسـتئذان، ومن وسـيلة الإخفاء التي أخفت بها السـيدة دواجنها.. ثـم خرجت الزوجة وأعلنت «إمبابي» بوجودنا فدخل مسـرعًا وسـلم علينا بعجالة ثم دخل غرفته بسـرعة وسط سـيمفونية صياح الدواجن.. بعد ذلك طلبت منا السـيدة الدخول بصرامة.. ونظرت تجاه «ريم» فوجدتها مبتسـمة بقلق وهي تشير لي بأن أتبعها..

المكان بالداخل كان بسيطًا وفقيرًا لكنه استعاد رحابته بعد أن أمر «إمبابي» أولاده بالخـروج، قالت «ريم» لـ «إمبابي» وهي تستحسـن صحته: «الحمد لله يا عم إمبابي صحتك النهارده زي الفل.. آخر مرة شفتك فيها كنت بتكح

كتير»، ابتسم «إمبابي» وهو يقول: «ما تاخديش في بالك يا مدموزيل الصحة بياكلها الدود»، سألته «ريم» عمّا تم في موضوع الفيلا الذي أخبرها به في آخر مكالمـة بينهما، قال لها ألا تقلق، فكل الورثة الموجودين في مصر موافقون على البيـع وينتظـرون أن يحضـر كبيرهم من الخـارج لكي يتمـم البيع، ثم أضاف أن هذا الكبير من المتوقع حضوره في الشـهر القادم، بان على «ريم» الكدر فاسـتدرك «إمبابـي» بأن عنده بديلًا لهذه الفيلا وسـيحاول أن يجعلنا نراها في الأسـبوع القـادم.. أخذت منه «ريم» رقمه الجديـد ثم منحته مبلغًا ماليًا كبيرًا ورحلنا وهو يعدنا بأن ننهي هذا الموضوع في الأسـبوع القادم لو راقـت لنا الفيلا التي سـيعرضها علينا، عبرنا الحجـارة والروث والقذارة ثم قالت «ريم»: «إمبابي بكده جاب آخره معانا.. أنا هاتصرف بنفسي». وأتتني رسـالة على الموبايل ففتحتها.. كانت رسالة من «جيهان» بها جملة واحدة: «أنا آسفة».. وضعت المحمول بسرعة في جيبي، وأفقت على صوت «ريم» وهـي تسـألني: «ليـه اتغير حالـك بعد الرسـالة دي؟»، أخرجـت المحمول بسـرعة من جيبي وأعطيته لهـا وأنا أقول: «مناقصة الأبنيـة التعليمية لمنطقة زنيـن رسـت على شـركتنا»، أعـادت لـي المحمـول دون أن تفتح الرسـالة وقالت بصوتٍ حاولت أن تجعله سعيدًا: «مبروك يا حبيبي.. شفت أنا وشي حلو عليك ازاي.. بس يا رب الرسالة اللي أسعدتك دي.. تكون حتسعدني أنـا كمان»، نظرت إليها متسـائلًا، فضحكت وقالت: «أصل شـركتك بدأت تدخـل في شـغل الحكومة وده يـا إما يكبرك قـوي يا إما يجيبـك ورا».. ثم عقبت بضحكة أكبر: «وأنا بصراحة عايزاك تيجي ورا.. ورايا أنا بس».

جيهان العرابي

وأنا أجهز لهما الساندوتشات وأعد العصائر كنت قد بدأت أدرك أنني تورطت جدًّا بدعوتهما إلى بيتي، لأني عرفت أن هذا يوم بلا نهاية وقد لا يفلتاني إلا قبيل منتصف الليل، وقد يطلبان المبيت ولن أقدر على التنصل منهما، فالاثنتان أصبحتا مثلي بلا زوج، كان من الأفضل لي أن أستقبلهما بإحدى الكافتيريات أو نعمل (day use) في أحد الفنادق وعند الزهق أنفلت إلى بيتي، وكنت في حاجة إلى «رنا» على وجه الخصوص، فهي تركز وتحلل وأحيانًا تفيدني برأيها، ولما اتصلت بها في الصباح للاتفاق على موعد فاجأتني بأنها قد اتفقت مع «بسمة» على اللقاء، ثم باغتتني أكثر بأنها في خصام مع «فؤاد» وقد تركت البيت مرة أخرى، لذا وافقت على حضورها مع «بسمة» إلى بيتي لكي نفند مشاكلنا ونحاول حلها، إن أمكن ذلك طبعًا.

أنا أكره الجلسات الحريمي وأمقت ما يدور فيها والموضوع المفضل الذي يدورون حوله وهو الرجل، لكني لست على ما يرام، وقد أدركت ذلك بعد أن تسامجت على «أحمد الضوي» فترك المكان ورحل، واتصلت به فلم يرد، ثم أرسلت إليه رسالة اعتذار، وبعدها ركبني العصبي، بعدها بثوانٍ معدودات لو هناك إمكانية لسحب الرسائل من الجو قبل وصولها إلى الطرف الآخر لأسرعت بسحب الرسالة التي

قـد تضخـم مـن أوهام هـذا الـ «أحمـد»، لعنـة الله على شـهر أبريـل الذي لا أعـرف بحلوله إلا من المصائب الغبية التي أفعلها فيه، هو شـهر اكتئابي، وقـد بـدأت معي هـذه الحالـة الاكتئابيـة بموت «تميـم» فيه، ومـن لحظتها أصبحـت تلازمني وتداهمنـي أحيانًا نوبات فظيعة من الزهد في كل شـيء، والزهـق والاختناق والرغبة في التحرر من هـذه الحياة، وقد رغب «أحمد» فـي أن يرانـي واختار اللحظـة الخطأ، وقد ناله ما يستحق غير أني تراجعت واعتـذرت، وهاهمـا صديقتاي قد حضرتا لمؤازرتـي.. «رنا» عضو الميمنة و«بسـمة» عضـو الميسـرة، وأنا رأس الحربـة وكلنا غيـر صالحات للحرب والمقاومة..

أفطرنا وبادرت «بسمة» بالفتوى، قالت إنني غلطانة لأنني عبرته وتأسفت له وسـيجعله ذلك يعتقد أن له أهمية فـي حياتي، ثم عقبت بطريقتها: «أنا لو منك أبعتله رسـالة ثانية أقوله أنا مش عايزه أشـوف خلقتك تاني، وأبلّكه من الفيـس وأخليه يمشـي يكلم نفسـه»، اضطررت لإسـكاتها بكلمـات أعتقد أنهـا جرحتهـا لأنها لزمـت الصمت بعدها فتـرة. فقد وجدت نفسـي أقول: «طـب مدام إنتي فالحة كده وبتعرفـي تعملي خطط ليه مخلية الجدع بتاعك يبهدلـك ويمرمطـك ويخليكـي كل يـوم في حـال»، «رنا» فـي أثناء صمت «بسـمة» المتجهم طالبتني بـألا أبالغ في تضخيم الأمر وعاتبتني لأن تشـبيه «الأصدقـاء الملزقين» كان في غير موضعـه خاصة والرجل لم يرتكب خطأً وقد يكون صادقًا وله مأمورية عمل بالقرب من الكافتيريا التي أجلس عليها أحيانًا ودخلها ليسـتريح، وفي نفس الوقت يسـلم عليَّ إن وجدني، ودللت علـى ذلـك بأنه لم يجلس مع الشـلة وجلس بمفرده بعيـدًا، ثم حذرتني بألا أندفع وراء كلام «بسـمة» وأعاتبه أو أرسـل له رسـالة أخرى مهينة أو مهددة

لأن هذا سيؤدي إلى أثر عكسي وسيجعله يظن فعلًا أني قد بدأت أنشغل به، وطالبتني بتجاهل الأمر، وإذا كانت رغبتي في الثأر من تجاهله لمكالمتي والتي جعلتني تورطت في مراسلته ما تزال تؤرقني، فعليَّ أن أنتظر وعندما يعاود الاتصال بي أو يحاول مقابلتي أو يقتحم إحدى جلساتي أن أتجاهله أو أعامله كشخص غير مرغوب فيه.

سكت طويلًا وأنا أفكر فيما قالته، بينما سألت «رنا» «بسمة» عن رأيها في الأمر، انتهزت «بسمة» الفرصة لمضايقتي وقالت: «هو انتي كنتي فاكرة إن جيجي هتكلمه وتعاتبه وتشد عليه، طبعًا لأ، دي على قلبها مراوح، دي واحدة عاشت طفولتها بتتفرج على مسلسل الكرتون الياباني: كابتن ماجد.. اللي كان بيبقى قدام الجون في نهاية الحلقة وبعد خمس حلقات يدخل الجون»..

ضحكت من تشبيهها ووجدتها فرصة لمصالحتها فقلت: «ليه هو احنا مش من سن واحد والبرامج دي كانت مقررة علينا هي وبوجي وطمطم؟»..
انبرت «بسمة» تدافع عن نفسها وعن «رنا»: «لا يا جيجي إنتي كنتي مقموعة من إخواتك الصبيان لكن رنا كانت بنت وحيدة وكل يوم بتتفسح في حته وأنا كنت متدارية عشان من صغري بأعرف اتصرف ولا حد جايب خبري وطول الوقت يا في الشارع يا في النادي».

وانتهى هذا اليوم المزعج الممل بحكايات مكررة من «بسمة» عن «خيري» وطموحاته الاقتصادية، ثم قضينا أغلب ما تبقى من وقت في بحث مشكلة «رنا» مع زوجها «فؤاد» التي تصاعدت هذه المرة بشدة بعد أن ركبت «رنا» رأسها وقطعت إجازتها وعادت إلى عملها، وكانت «بسمة»

تدفع «رنا» إلى التصادم وفرض الرأي بحجة أن ذلك يعوِّد الزوج على أن لزوجته رأيًا خاصًّا وذاتًا خاصة لا بد من احترامها، بينما كنت أدفع «رنا» إلى التروي وعدم التهور خاصة وقد أنجبت طفلًا منه، وإن من غير المستحب أن ينشأ الطفل ويترعرع وسط هذا الجحيم العائلي، ولم أدرِ إلى أي رأي ستنحاز «رنا» وتتبعه غير غافلة عن انحيازات والد «رنا» المدمرة التي أعتقد أنها في النهاية ستتسبب في قعود «رنا» بجواره حتى يودع دنياه.

وما حسبته وقدرته لم يحدث، فبعد أن تغدينا معًا وتهيأنا لمعاودة الحوارات، اتصل «خيري» بـ «بسمة» فاحتضنت هاتفها وانفردت به بعيدًا، ثم عادت بعجالة تدس كل ما كانت قد أخرجته من حقيبتها وتهرول تجاه الحمام لتكمل تزينها، وتبادلت مع «رنا» الابتسام وقد أدركنا أنها ستلحق به في مكان ما، ثم أخبرتني «رنا» برغبتها في الرحيل مع «بسمة» لأن والدها لن يكف عن الاتصال بها إذا ما تجاوزت الساعة السابعة وسيمنعها من المبيت خارج البيت بحجة أن هذا لا يصح وهي في فترة خلاف مع زوجها، وسيتذرع بأن الطفل لا يكف عن البكاء طلبًا لها، وعادت «بسمة» وقد تغير حالها بعد أن أعادت طلاء وجهها واستأذنت في المغادرة وصحبتها «رنا» ووجدت نفسي في تمام السادسة مساءً كما أنا معتادة.. أنا في مواجهة «جيهان» و«جيهان» في مواجهتي.. جسد واحد تتطاحن عليه روحان.. لم يئن لهما الأوان حتى يتصالحا ويرضيا عن الإقامة الجبرية في هذا الجسد المسكين.

عاودتني ليلًا روائح الاكتئاب وألحت عليَّ في تذكر ما حدث لـ«تميم» وفي نهاياته على وجه الدقة، تلك التي لاحت بوادرها عقب انتهاء

السمبوزيوم، كنت قد قابلت «الوشاحي» في دار الأوبرا، وكان قد أخبرني بأنه سيلتقيني فور حضور افتتاح معرض بمتحف الفن الحديث، وظل يعدد لي الأماكن المقترحة للتلاقي كي أفاضل بينها، وكانت أغلبها مطاعم بها بارات في وسط البلد، وتجنبًا لأن يسرف في الشرب فينسى الحدود التي وضعتها له أو تدفعه نشوة السكر إلى عدم التوقف عن الكلام والتوسل لي بأن أستمر في منادمته وسماعه مما يؤخرني كثيرًا عن العودة إلى المنزل، ادعيت أن عندي أوردر تصوير بالقرب من الأوبرا واقترحت عليه اللقاء في كافتيريا نقابة التشكيليين، اضطر إلى الموافقة وقال إنه سيقنعني فيما بعد بتكملة الحوار في أي مكان آدمي آخر (يقصد بعيدًا عن كافتيريا النقابة).. لم أكن أخشى أن يراني «تميم» مصادفة أو يخبره أحد زملائه بتواجدنا في ذلك المكان، أولًا لطمأنينتي الكاملة بأن «تميم» في أحواله الأخيرة لن يمر مطلقًا على مكان قد يتواجد فيه زملاؤه التشكيليون، ثم ماذا في الأمر لو وجدني مع أستاذه «الوشاحي»، سأقول إنني التقيت به مصادفة حتى لا يظن أننا نتحدث بخصوصه.

كان موعد افتتاح المعرض في الساعة السابعة مساءً وموعدي مع «الوشاحي» في الثامنة، لكنه حتى الساعة الثامنة والنصف لم يأتِ ولم يرد على هاتفه، قمت بغضبي متجهة إلى صالة العرض، وجدته وسط بعض الفنانين والفنانات الذين كانوا يشكلون نصف دائرة من حوله، بينما هو في منتصفها مسندًا ظهره للحائط وفمه لا يكف عن الكلام وتتناثر الضحكات خارج نطاق الدائرة، ويبدو أن وجهي وشى بغضبي لأنه لمحني وأنا أنفلت من الباب في طريقي إليه، سكن للحظة وارتبك ثم تماسك بسرعة وأشار تجاهي وقال بصوت مفعم بالعشم: «أهلًا يا جيجي.. أنا كنت جايلك

حالًا «لولا الولاد العفاريت دول كانوا بياخدوا رأيي في المعرض»، أشرت إلى ساعتي وقلت بحدة: «أستاذ وشاحي أنا عندي موعد بعد ميعادنا وبكلم حضرتك ومبتردش.. كان ممكن تعتذر لي بسهولة ونأجل الموعد»، هذا الصوت الذي كان يهدر منذ لحظات خفت تمامًا وهو يستأذن من طلبته وتبعني بسلاسة وأنا أخرج من صالة العرض، وظللت أتقدمه حتى مكان الكافتيريا وأسمع صدى عصاه وهي تضرب الأرض كأنه يبلغني بأنه في أثري، وكنت قد بدأت أصفو وساءني ما فعلته بداخل المعرض، فلا أنا توقفت قليلًا لرؤية معروضاته أو التعرف على اسم صاحبه وتهنئته بالافتتاح، ولا استأذنت من الطلبة، كذلك لم أهتم بأن أحدًا ممن يعرفني أو يعرف «تميم» قد رآني وأنا على هذه الصورة الحمقاء، وما الفكرة التي سيكونونها عني أو عن درجة علاقتي بـ«الوشاحي» بعد أن عنفته هكذا وانصاع لي بسهولة شديدة.

اعتذرت إلى «الوشاحي» بمجرد جلوسنا وعزوت سبب انفعالي لقلقي على «تميم»، استفسر مني «الوشاحي» عن الأسباب التي دعتني إلى هذا القلق، فسردت له بالتفصيل كل أحوال «تميم» التي تبدلت عقب عودته من السمبوزيوم، سألني «الوشاحي» هل أتى «تميم» على ذكره أو ذكر أحد الفنانين المشاركين أو المنظمين للسمبوزيوم، نفيت ذلك وأضفت أنه لم يتكلم منذ عودته في شيء يخص الفن التشكيلي سلبًا أو إيجابًا، لكن خروجه المستمر، وعودته الصامتة، يؤكدان لي أنه يدبر شيئًا، وهذا الشيء ليس جيدًا، ابتسم «الوشاحي» واتهمني بالمبالغة في تصوراتي، ثم ذكر لي أنه قبل انتهاء السمبوزيوم بيوم ذهب في رحلة سريعة إلى أسوان وقابل «تميم» في الأوتيل لكنه كان يبدو «فلات»، وعندما استفسرت منه عن معنى

هـذه الكلمة، ضحـك وقال: «دي عيب اللي مبيشـربش البيرة.. فلات يعني بمشاعر صماء ما قدرتش أعرف منها إن كان فرحان لأنه أنجز عمله أو مش مبسـوط، وبعدين سألني تميم إن كنت هاحضر حفل ختام السمبوزيوم تاني يوم في المسـاء.. قلتلته طبعا لا إنت عارف أنا مبحبش موظفين الحكومة ومدعيـن الفـن اللي بيصدروهملنا في المناسـبات دي».. هز «تميم» رأسـه ولـم ينطق، لكن «الوشـاحي» طمأنه بأنه سـيذهب إلى الموقـع في الصباح الباكـر لرؤيـة المنحوتات وخاصة منحوتته ثم يعود إلى الأوتيل قبيل سـاعة سفره المحدد لها الساعة الواحدة ظهرًا ويلتقي «تميم» كي يتناقشا حول هذه المنحوتـة التي من المؤكد أنها سـتعجبه (قال الوشـاحي إنه قال ذلك لتميم بالحرف الواحد)، وفعلًا قبل أن يشـتد عود الشـمس تجول «الوشاحي» في الموقع ووقف طويلًا أمام منحوتة «تميم» ثم سرقه الوقت فهرول عائدًا إلى الأوتيل حتى يلحق بالتاكسـي الذي سـيقله إلى المطار وغادر دون أن يلتقي «تميم»..

ظللت فترة غير مسـتوعبة لما قيـل، وأتصور «تميم» في صباح يوم ختام السـمبوزيوم وهو في غرفته تتقافز هواجسـه وقلقه أمامـه في كل لحظة تمر دون أن يطلبـه «الوشـاحي» على هاتف غرفة الأوتيـل أو محموله الخاص، من واقع علاقتي بـ«تميم» ومعرفتي به أنا متيقنة من أن كل الأساتذة وناقدي الفن التشكيليين والمسئولين بالشأن الثقافي وكبار موظفي الدولة لا يشغلون حيزًا في رأسـه ولا يأبه لهم إن انتقدوا أو استحسـنوا عمـلًا له بقدر اهتمامه بنظرة «الوشـاحي» ورؤيته لإبداعه الفني، وقد غادرت يا «وشاحي» دون أن تبدي رأيًا سلبيًّا أو إيجابيًّا في التجربة التي كانت تسري في دم «تميم» لأكثر

من أربعة شـهور.. وأنا التي جئت لأعرف منك من المتسبب في تردي حالة «تميم» بعد السمبوزيوم ثم اكتشفت أني أتحدث مع الجاني..

قال «الوشـاحي» كلمات كثيرة وعلل سـفره بمبررات متباينة وما أتذكره من سـيل هذه الكلمات وكافة التبريرات التي سردها لكي يفسر بها هربه من مواجهة «تميم».. قليل جدًّا، لكن الذي تبقى في ذاكرتي أنه أعجب بالفكرة التـي سـعى إليهـا «تميـم» كي ينجـز تمثالـه، لكن الفكـرة كانت أكبـر قليلًا مـن قـدرات «تميم» الـذي كان قد ابتعد فتـرة طويلة عن مثل هـذه الأعمال الضخمة أو على وجه الدقة لم يقترب منها، كما أن فكرة تجسيد البطولة عبر واقع ملموس لبطل ماثل في أذهان معظم الناس كالإسكندر الأكبر مع رغبة «تميـم» بإيجاد حلول عصريـة للجانب المعنوي من هـذه الفكرة المجردة، أربـكا «تميـم» وجعلا عمله يحمل سـمات الرفض والقبول فـي آنٍ واحد.. فهو شـامخ وباذخ لكن نسبه غير سليمة في بعض مواضعه، وإصرار «تميم» على إبراز عملقة التجسيد دون أن يمتلك التقنيات التي تدعم تصوره أبرزت عيوبًا كثيرة في المنحوتة خاصة في مناطق اللحام الذي لم يتقن هو ومعاونوه القيـام به حتى ولو علـى الطريقة الموغلة في القدم والتي اسـتخدمها قدماء المصريين..

أدركت أن «تميم» لحظة معرفته بمغادرة «الوشـاحي» لأسوان أدرك أنه لـم ينجـح في الاختبار، وقد يكـون هناك فنانون أثنوا علـى عمله أو انتقدوه بشـدة لكن تأثيـر كلامهم عليه مواجهة أو خلف ظهره لن يكون بقدر قسـوة الرأي السـلبي لـ«الوشـاحي» الذي عبر عنه بالرحيل دون أن يكلف خاطره بترك رسـالة إلى «تميم» يخبره فيها برحيله، وها أنا قد علمت من أين بدأت الشرارة التي لن تخبو إلا بعد فناء «تميم»..

يبدو أنه صدرت عني تعبيرات قاسية أو عبرت ملامحي بصدق عن حقيقة الرجل الذي أراه أمامي في تلك اللحظة، لأن «الوشاحي» انتفض بشدة ودافع عن موقفه بعنف أشد وعندما لمحني أهم بالقيام ضرب بكفه الضخمة المنضدة وطالبني بالانتظار بضع دقائق، تركته يتكلم وتشاغلت بإخراج مفاتيح السيارة من حقيبتي، ثم نهضت وألقيت عليه التحية بحسم وانصرفت وما زالت كلماته التي مللتها من كثرة ما قالها أمامي أو سمعتها على لسان «تميم» تهدر خلفي من عينة: «تميم ده زي إبني».. و«فنان حقيقي».. و«لا يمكن أن أتخلى عنه».. إلخ.. وطوال المسافة التي قطعتها بالسيارة إلى ما بعد منطقة المعادي ثم العودة إلى المنيل كان كل الهراء الذي قاله يضرب رأسي بعنف.. كان كل ما عبر به عن أستاذيته وأبوته لـ «تميم» مختلطًا مع نقده لمنحوتة «تميم» والذي أحسست بأنه قاله دون أن يفكر فيه بروية كأنه فوجئ باستجوابي.. «نسب ليست سليمة».. «رغم هيبة الحجر وعملقته تحس إنه مضغوط».. «في الآخر تحس بأنه عمله بعشوائية.. وعلى فكرة العشوائية جميلة في الفن.. لكنه عمله بعشوائية غير منظمة».. «لم يتمكن من السيطرة على الشكل».. «الأكسات اللي عملها في اللحام مش مظبوطة»..

كنت قد انتويت بمجرد إدارة محرك السيارة أن أبتعد بقدر الإمكان عن تلك المنطقة التي جالسني فيها «الوشاحي» وأنا أجلس في إحدى الكافتيريات النيلية على كورنيش ما بعد المعادي، لعلي أتخلص من ضيقي وقلقي على «تميم» وأنا أفكر بتروٍّ كيف أساعده على تجاوز هذه المرحلة التي بت أستشعر بقوة أنها مرحلة خطيرة وحاسمة في حياتنا المشتركة، ثم غيرت رأيي وقررت العودة فور إحساسي الغريب بأن «تميم» يحتاجني

بسرعة في هذا الوقت، غير أني بمجرد أن هممت بفتح باب شقتنا وجدت «تميم» قد سبقني وفتحه من الداخل وابتسم في وجهي – نعم ابتسم بصفاء ومحبة – وقال لي إنه ذاهب للعشاء مع «الوشاحي»، وقد تمتد السهرة ويعود متأخرًا ثم طلب مني ألا أنتظره، تجمدت في مكاني وحاولت السيطرة على قلقي ودهشتي، واستوقفه ذلك ثم حاول أن يخمن ما يدور في رأسي وأنا أزداد قلقًا لكنه ابتسم في النهاية بسمة معرفة وقال وسط قهقهة صغيرة: «أنا قلتله ينفع أجيب جيجي معايا.. لكنه اتلجلج شوية وقالي إنه عايزني في موضوع ما ينفعش يكون فيه ستات».. ثم انحنى «تميم» وهمس في أذني همسة مرحة: «يظهر إن الوشاحي بيحب جديد.. أو عنده مشكلة جنسية».

بعد أن غاب «تميم» عن نظري، جلست فترة طويلة أفكر في صمت، لم أسعد بأن العلاقة بين الأستاذ وتلميذه قد عادت، ولا بالتأثير المدهش لـ «الوشاحي» على «تميم» الذي عدل حاله تمامًا، ولم أعبأ بالمبررات التي ساقها «الوشاحي» إلى «تميم» لكي يغفر له زلته معه، لكن غالب تفكيري كان منصبًّا على منطقة القلق، قلق من أن يدرك «تميم» أني قابلت «الوشاحي» ويعتقد أني رجوته لكي يتصل به ويطمئن عليه، وقلق من أن يشيد «الوشاحي» بعمل «تميم» لكي يخرجه من إحباطاته ويعلق مشاكله مع عمل «تميم» على شماعات الآخرين من النقاد وأساتذة الفن التشكيلي فيزيد «تميم» كرها فيهم، أو يعطيه بعض المسكنات فتنتكس حالة «تميم» بعد فترة ويعجز عن التعافي، كل هذا القلق اصطحبته معي في الفراش ولم يسعفني ذهني بأية مخارج أو حلول، ثم صحوت على روائح طعام يعد في المطبخ للإفطار، ووجدت «تميم» يقلي بيضًا ويتبل السلطة ويعصر الليمون فوق الفول، أدركت لحظتها أن هذا صباح سعيد.. وقد عاد «تميم»

إلـى نشـاطه لمدة أقصر من أن أتذكر عدد أيامهـا.. بدأها بالرجوع إلى عمله الوظيفـي الـذي كان قد انقطع عنه منذ عودته من أسـوان ولـم أكن على علم بذلك، ثم بالدق والهبد والتنظيف بعدة شـفط الهواء لورشته أو بالعودة إلى اصطحـاب أوراق بيضـاء تظل تلازمه حتى وهو جـواري يتابع التلفزيون ثم يتذكر شـيئًا أو تمـر بذهنه خاطرة فيجري بقلمه على الـورق واضعًا خطوطًا أفقية ورأسية ونقاطًا متقاطعة وبعد ذلك يضع الأوراق بجواره، وما يلبث أن يعـود إليها ويظلل نقاطه بالقلم الرصاص وأنا أختلس النظر وأحاول سـرقة تفصيلـة صغيرة من الشـكل الـذي ولد إلهامـه بيننا، لكني أفشـل ويلحظني فيهـب واقفًا واضعًا أوراقه بحرص أسـفل إبطه ومتجهًا إلى ورشـته، كانت وقائـع لقائه الليلي مع «الوشـاحي» قد ذكرها لي علـى مراحل زمنية قصيرة ومختلفـة، أن «الوشـاحي» أثنـى علـى منحوتتـه وعلـى مخيلتـه الجريئـة، وقـال له للأسـف إن معظم العامليـن في المجال التشـكيلي جهلة ومدعون و«مديوكـور» لن تصل إليهـم الأفكار التي تتوالد فيمـا وراء هذه المنحوتة، وفـي وقت آخـر أضاف «تميم» أن «الوشـاحي» أخبره بأن فنانًـا أجنبيًا كبيرًا امتـدح منحوتـة «تميـم» جدًّا وقـال إنها لو كانـت قد نفذت ببلده لأسـهبت وأطنبـت الصحف في مدح وتحليـل كل جزء منها لعام كامـل وأخذ الفنان رقم تليفون «تميم» من «الوشـاحي»، وقال إنه سيبذل جهوده لدعوة «تميم» فـي البينالـي القـادم الذي سـيعقد ببلـده برليـن، (كان كل هذا كذبًـا بينًا من «الوشـاحي» وكنت في حيـرة أأكرهه لذلك أم أفرح لأنه يسـاهم في خروج «تميم» من محنته).. وقال أخيرًا إن منحوتته سـتوضع في المتحف المفتوح بأسـوان القريب من الشـلالات ويحاول «الوشـاحي» حاليًا إقنـاع «آدم» أو أحد المسـئولين الكبار بأن يتم وضعها على الطريق عند مدخل أسـوان، أو

فـي أحد ميادين محافظة من محافظات مصر لكي يراها أكبر عدد ممكن من الناس، كنت غالبًا ما أربِّت ظهر «تميم» أو أقبل ظهر يده إن كانت ترقد على كتفي في أثناء محادثتي معه، وقليلًا ما ذكرت كلامًا يتعدى الاستحسان ولـم أطالبـه بتفاصيل أكثر ولـم أرهقه باستفسـارات.. كان الكـذب الذي يحاول به «الوشـاحي» سـتر جسـد «تميم» حائلًا ضخمًا بيننا، حتى إنني لم أسـأله عن شـكل منحوتتـه هذه إلا مرة واحدة وقال إن إدارة السـمبوزيوم صورت كل الأعمال وسـتصدر ألبومًا أو بروشـورًا يضم كل مساهمات الفنانين هذا العـام وعندما يصدر سـأراها بالطبع، لم يصور «تميـم» منجزه حتى بكاميرا الموبايـل ولا جعـل أحد زملائه أو مسـاعديه يصورها له كـي يريني إياها.. كأنـه يعاقبني على عدم حضوري ختام السـمبوزيوم كي أصور عمله الفني، كأنه نسي أو تناسى إهانته المقززة لي في أسوان والتي غفرتها له فيما غفرت من أخطاء كبرى..

أنـا لـم أرَ منحوتته هذه إلا بعـد وفاته بعام أو أكثـر.. رأيتها في المتحف المفتـوح بأسـوان بجوار مئات القطـع الأخرى التي تتباين فـي قيمتها الفنية وأحجامهـا وصناعهـا مـن الأجانب والمصرييـن والعرب، ولـم أكن آنذاك فـي حالة تسـمح لـي بتأمل منحوتتـه فنيًّا وتقييمهـا إبداعيًّا.. كنت أتلمسـها بوجدانـي وأركز في كل جزء من حجرها المصقـول وأحاول أن أخمن إلى متى سـتصمد بصمات أصابع «تميم» على هذا الحجر، تلك البصمات التي كنـت أراهـا واضحة جدًّا مـن موقعي أمـام المنحوتة على بعـد ثلاثة أمتار، كانـت بمثابـة خرائط من الفضة على السـطح الأسـود، تتداخـل وتتخارج، وكنـت كل يوم ولمدة أسـبوع كامل أعدها، وأخطئ فـي العدد ثم أعيد العد حتـى يتفق مع أول مرة قررت فيها العد، ثم عقب ليلة سـقطت فيها الأمطار

بغـزارة على أسـوان.. في صبيحـة اليوم التالـي خيل إليَّ أن عـددًا كبيرًا من البصمـات اختفـى وعـددًا آخر بـرز أكثر وبدأت أشـاهد وجهـي المنعكس على سـطح الحجر يخايلني ويعرقلني عن الحساب والعد، لكني تماسكت عندما أحسسـت بأني أدخل في نفق هـلاوس «تميم» قبيل وفاته التي أودت به وأنهت شـكليًّا علاقتنا.. ومن تلك اللحظة ولدت «جيهان» الأخرى التي صارت هدفًا للرجال وموضع قلق ونقد بعض السـيدات، والتي يرونها قوية متوهجة وأراها ضعيفة وهشـة وعاجزة عن اختيار مسـتقر ومرسـى لحياتها المضطربة.

ثم بدأت تدخل أجسـاد ووجوه غريبة إلى بيتنا، رجال تسـتطيع تمييزهم بسـهولة ووضعهـم داخل خانة عمال الورش أو الأسـطوات، لـم آلف من وجودهـم في شـقتنا بصحبة «تميـم» ولا عاملتهم بفوقية طبقيـة، كنت فقط مندهشة من هذا التلاقي الذي يبدو نشازًا، سألته عنهم وعن أسباب وجودهم في بيتنا، أجابني بلا اهتمام بأنه سيخبرني لاحقًا، ولاحقًا هذا لم يحدث من تلقاء نفسـه، بت أسـمع مجادلات حول أرقام مالية ومواقع وكانت الوجوه تتغيـر عدا وجهًا واحدًا ظـل يتردد علينا، وعندما لاحقت «تميم» بأسـئلتي، أخبرني بأنه يريد شـراء مسبك معادن وأنهم مختصون بذلك ويساعدونه في إيجـاد واحد بسـعر رخيص، وسيسـاعدونه فيما بعد في تشـغيله، وأبهجني ذلك، لأن السـبك مرتبط بمهنة «تميم» وبموهبته واعتبرت ذلك فأل حسـن وخطـوة للأمـام، لكني رغـم اعتيـادي الصدمـات «التميميـة»، انهرت فور علمي بأن «تميم» ينوي شـراء مسـبك لخراطة بعض مسـلتزمات السيارات كالجلـب والتروس وخلافه، وأن الفكرة قـد واتته وهو يخرط عمود كردان سـيارته والتقطها منه الأسـطى الميكانيكي وغذاها ونماهـا وأقنعه بها وظل

يذلل العقبات التي كانت تخطر على بال «تميم» وتوشك أن تجعله يصرف النظر عن الفكرة، بعد أن تبين لي الأمر بكامله، عاندت وخاصمت واحتديت وحاججت «تميم» حتى جعلته يلغيها من تفكيره، وليس ذلك من قبيل التعصب ضد فكرة العمل الميكانيكي لكن من أجل أن أوقف «تميم» عن الدوران في فلك المشروعات التجارية ذات الكسب السريع، حاولت تعديل فكرته لأجعله يفكر فيها كما فهمت في المرة الأولى، أي أن يستبدل بها مسبك معادن لخدمة أعماله وأعمال زملائه من الفنانين، لكنه زهد في الفكرة بتمامها.. ومن ثم بدأت رحلة الهبوط.. عاد يلوذ بصمته مرة أخرى، ثم استقال من مصنع السجاد ووضع الاستقالة في دوسيه أزرق في حجري ذات ليلة بادلته فيها الصمت بالصمت، وبدأ يهمل ملبسه ومظهره ويطلق لحيته بلا تهذيب ويرسل شعره دون حتى قص أطرافه، ثم صحا يومًا وقد انتابته أزمة صحية شديدة عجز فيها عن أن يحرك ذراعه الأيسر، أسرعت بنقله إلى المستشفى الذي أجرى له كل الفحوصات والتحاليل والأشعات اللازمة التي أثبتت أنه بخير وكل أجهزته الحيوية تعمل بكفاءة ملحوظة، ثم انتحى بي كبير الأطباء وهمس لي بأن توقف ذراعه قد يعود إلى سبب نفسي، خاصة وأن المختص بقسم المخ والأعصاب في المستشفى أكد في تقريره أن رسم المخ على ما يرام.

كان «تميم» وهو بداخل المستشفى كثيرًا ما تنتابه نوبات عنف فيقذف الممرضات بالوسائد مستخدمًا يده اليمنى التي لا يجيد التصويب بها، وكان لا يُسيطر عليه إلا بالمنومات، وكنت أشفق عليه جدًّا، لكني أحيانًا كنت أغتاظ منه جدًّا عندما يتظاهر بالضعف والمسكنة في حضور أحد من عائلته، وكنت أعتقد أنه يتعمد ذلك كأنه يرسل لي رساله بأني لو كففت عن

الاهتمام به وبرعايته لا يهم فلديه أسـرة بديلة، أسرة في نظري كانت تنظر له نظرة الفلاح لبقرته الحلوب.

وعندمـا زاره «الوشـاحي» في المستشـفى وتركته يخلو بـ «تميم» وفي تصـوري أن حالتـه ستتحسـن بعدهـا، خـرج «الوشـاحي» ونصحنـي بـأن أعـرض «تميـم» علـى طبيب نفسـي وطمأننـي بأنها حالـة كثيرًا مـا تصيب الكتـاب والفنانيـن الذيـن يعتمـدون علـى أياديهـم فـي إبداعهـم، وأنهـا تختفـي سـريعًا دون تـرك أثـر على المبتلـى بها، ثـم أعطاني عنوانًـا لطبيب نفسـي قـال إنه متميـز في عـلاج مثل هـذه الحـالات، وعندمـا دخلت إلى غرفـة «تميـم» فور انصـراف «الوشـاحي»، بـدا لـي أن حالته سـاءت أكثر، فقـد كان يصـر على شـرب العصير بيـده السـليمة رافضًا معاونتـي، وكانت تهتز بسـرعة وينسـكب السـائل على ملابسـه وفراشـه فيثور ويعنفني بشدة ولا يهدأ حتى أخرج وتحل محلي الممرضة.

لكني قررت بحزم أن أنهي إقامته في المستشـفى، وواجهته وأخته تضع لـه «البافتة» وتمسـد شـعره، وزوجها جالس علـى المقعد المقابل لسـريره يدفع حبات مسـبحته إلى الوراء بأصابع مدربـة ويتمتم بأدعية وأوراد، قلت له بصوت حاولت أن أنفض عنه العواطف بأني دفعت حسـاب المستشـفى وسأنقله في المساء إلى البيت لأن الأطباء أكدوا أنه بخير وأن ما ألم بذراعه أمر طارئ وأنهم أعطوني اسـم طبيب متخصص في مثل حالته سـأتفق معه كي يزوره في البيت، وأضفت أنهم طمأنوني بأن شفاءه لن يستغرق أكثر من أربع جلسـات، رغم أني لم أذكر أنه طبيب نفسـي حتى لا تتهمني أخته بأني ناوية على أن أجننه كي أحجر عليه وأسـتولي على أمواله، إلا أنها هاجمتني

وقالت كلامًا سخيفًا من عينة: «إحنا ما يهمناش فلوس ولا مصاريف».. «يقعد في المستشفى براحته لغاية ما الدكاترة يكتبوله خروج وأنا هادفع الفواتير بالكامل»، لم أشأ أن أزيد «تميم» كربًا لو رددت عليها بما يليق بها، سكت وأنا أنظر تجاه وجهه الصامت أنتظر تعقيبًا على ما يجري، لكنها لم تخرس وتسكت بل أضافت: «وبعدين لو حضرتك زهقانة من رعايته ييجي عندي أو عند أختي شيماء واحنا نشيله في نني العين»، وقفت بينما زوجها يردد: «صلوا على النبي يا جماعة.. مصارين البطن بتتخانق»، منعت نفسي من أن أنظر حتى إلى موقع ذلك الرجل الذي يظن أننا نتشاكل حول عقيقة أو حضرة، وحدقت في عيني «تميم» اللتين كانتا تحاولان الفرار مني في اتجاهات شتى، وقلت بحزم: «تميم خلصني هاتروح معايا ولا مع الأستاذة؟»، خرج الصوت منه مهموسًا بوضوح: «جيهان إهدي أنا هاروح معاكي طبعًا»، لم أهتم بقذف نظرة انتصار تجاهها. وغادرت الغرفة كي أتابع ترتيبات المغادرة.

وفي غضون شهر، شفي «تميم» بنسبة 90٪ وأخبرني الطبيب بأن اكتمال شفائه على وشك، وطلب مني أن أجعله يداوم على ممارسة التمرينات الرياضية التي أوصى بها والتي تساعد في إعادة تأهيل العضلات التي أُهملت لفترة، ثم أوصاني بألا أضغط عليه كي يعود إلى ممارسة النحت مرة أخرى إلا لو بادر هو بذلك، ثم ظن الطبيب أنني لم أستوعب توصيته فأعادها وأقلقني هذا التكرار فسألته لماذا يلح في التأكيد على هذا الأمر، ابتسم الطبيب وسكت لحظات وهو يتأملني ثم أجابني بأن «تميم» في الجلسة الأولى بدا وكأنه في حالة إنكار لأهمية مهنته ولدوره في التأثير

لیهـا، وفـي الثانيـة كان يغالـي مـن قيمتـه كنحـات وأن هـذا الاضطـراب اواضـح جدًّا في لا وعيه ربما يكون سـببًا من أسـباب توقف سـاعده الذي بمثابة الوسيط بين أفكاره المجردة والحجر الأصم، أما «الوشاحي» فعندما اصل بي للاطمئنان على «تميم» وعلم بأن شـفاءه على وشـك التمام تخلى عن حذره في الكلام وعدل البداية التي كانت متحفظة وشجية وبدأ يضحك ضحكاتـه الهادرة، ثم يعيد تطمينـي مرة أخرى بتفاصيل أكثـر: «ماتخافيش يكتكوتة ليوناردو دافنشي العظيم لما انصاب في إيده تفرغ للاختراع وترك لإنسـانية مخترعـات مذهلة، ورينـوار لما الروماتيزم وقـف دراع كامل منه كان بيخلـط ألوانـه بالإيد التانية اللـي كانت في ربع كفائة الـدراع العطلان، ويختـار برضه أصيـب في إيده.. وإنتـي بتقولي الدكتـور طمنك ونجح في تحريكهـا بنسـبة 90٪.. خـلاص تميـم راجع راجـع.. عايزك بقـى تجربي كفاءته وتطمنيني»، أنهيت المكالمة بسرعة بعد هذه الجملة الملتبسة.

فـي البيـت فـي أول الأمر بدا لـي أن حالة «تميم» النفسـية قد اسـتقرت خصـة عندمـا اتصـل بشـقيقته «حبيبـة» التـي أدارت معركـة المستشـفى وطمأنهـا على نفسـه وطلـب منهـا أن تطمئن أختـه الأخرى «شـيماء» التي كانت منشـغلة عنـه أصلًا بمتابعة مشـروع زوجها التجاري فـي الغردقة، ثم ظل يكرر لـ«حبيبة» أنه بخير وسيتصل بها دوريًّا لتطمئن وإن كان في حاجة إلى شـيء سيسارع بالاتصال بها، كان يقطع عليها فكرة أن تزورنا في البيت دون أن أبادر بطلب ذلك منه، واستحسـنت ذلـك جدًّا، كما كثرت مداعباته لي وبدأ يعيد نكات ومزحات ومواقف سـاخرة كان يسـليني بها في بدايات زوجنـا، وبقدر ما أسـعدني ذلك فـي البداية بدأ يدهشـني ويريبني في نهاية

هذا التحول، عندما بدأ يتشبه بتصرفات الأولاد الداخلين لتوهم في مرحلة المراهقة عندما يزداد نشاطهم ويميلون للمشاغبة.. فجأة يباغتني ويرفعني من الأرض وأنا أحاول «الفلفصة» من يديه دون جدوى، وأخشى أن أضغط على يده التي في مرحلة النقاهة فتتضرر، أو أن أكون مارة قبالته وهو يضرب كرة التنس في الجدار كما أوصى الطبيب، يراني أتحرك بحذر خوفًا من أن ترتد الكرة من الجدار تجاه جسدي، يضحك مبتسمًا وهو يقبض على الكرة بيده ويهددني بتصويبها نحوي، ثم ترتفع ضحكاته وهو يلقي بها فعلًا بغدر وبقوة شديدة تجاه وجهي وأتفاداها بصعوبة بالغة، ثم أنظر إليه بدهشة شديدة وباستنكار وأهم بأن أصرخ في وجهه بسؤال: «هل كنت تقصد فعلًا يا تميم أن تصيبني بالكرة؟»، أتراجع ولا أسأل، لكنه يجيب كأنه قرأ السؤال من وجهي الغاضب: «إنتي عبيطة يا جيجي؟ فاكراني هجيبها في وشك؟ أنا دارس حركتك كويس وعارف إنك هتقدري تتفاديها»، أسكت ولا أعلق وأنسحب من أمامه وإن كنت أتمنى أن تصيب وجهي فعلًا أو تترك كدمة زرقاء ضخمة على عيني.. كنت أتمنى يا «تميم» أن تظهر ندوب على جسدي بسببك يراها كل الناس بدلًا من الندوب التي بداخلي ولا يحس بها غيري.

كنا آنذاك في شهر مارس، في الأسبوع الأخير منه على ما أتذكر وكان الطقس يراوغنا ويصفو حينًا ويتكدر أحيانًا، وكان «تميم» يعتكف في غرفة النوم كثيرًا، يقرأ ولا يفعل شيئًا ليلًا إلا متابعة التدريبات التي أوصى بها الطبيب وزاد عليها «تميم» بعض الألعاب الأخرى عندما اشترك في صالة «جيم» قريبة من المنزل تردد عليها بعض الأيام ثم توقف عنها دون

إبـداء أسـباب معقولة.. كنت أدعـه لعزلته معتقدة أن هـذا أفضـل، وأظل في «الرسيبشـن» أشـاهد التلفزيون أو أقرأ مثله ثم أناديه للعشاء معي وكان يقبل أحيانًا أو يخبرني بأنه لن يتعشـى هذا اليوم لأنه لاحظ أن وزنه زاد قليلًا، ثم جاء يوم 27 مارس وكان لـ «تميم» طقس خاص في ذلك اليوم.. كان يمتنع فيـه عن العمـل ويبدأه بقراءة الفاتحـة على روح «محمود مختـار»، ثم يعيد قـراءة كتـاب «المثال مختـار» الذي ألَّفه «بـدر الدين أبو غـازي» عن المثـال العظيـم «محمـود مختـار»، أول مـا تعرفت على هـذا الطقـس زاد انبهاري بـ «تميم» الـذي يحيي ذكرى فنان عظيم لـم يرَه ولم يتتلمـذ على يده، ولم أعتقـد أنه هوس ولم أظن أنه خطر، وماذا فـي الأمر؟ فنان صغير متيم بفنان كبيـر وفـي ذكرى وفاته يقدم لروحـه تحية، تلك الليلة كانـت مختلفة قليلًا، أشعل «تميم» شمعة في نهايتها واستمع إلى أغنية قديمة لـ «أم كلثوم»، دون حاجـة إلى ذكاء منـي خمنت أن «مختار» كان يعشـق سـماعها، كان الضوء شـحيحًا فـي الغرفة و«تميـم» قد تضخم ظلـه على الجدار والشـمعة تتآكل ببـطء وبجوارها ترقد شـمعتان كاملتـان مطفأتان في انتظـار دورهما، وكان «تميـم» ينتحب بصوت خفيض وكلما دخلت الغرفـة انقطع نحيبه، وعندما انطفـأت الشـمعة الثالثة ورقـد «تميم» مسـتعدًّا للنوم أسـرعت بطرد دخان الشـموع المتبقي بالبلاور بعد أن أحكمت الغطاء على «تميم»، ثم سـرعان ما اندسست بينه وبين الحائط، واحتضنته بشدة وبكيت على صدره وأثارني ضعفـه لكنه لـم يسـتجب، وبدءًا من تلـك الليلة انقطع كل تواصل جسـدي مع «تميم» ومع البشـر الآخرين حتى هذه اللحظة.. ثم سـادت مرحلة كئيبة وسـوداوية استغرقت وقتًـا كبيـرًا جـدًّا لأن وحدة حسـابها كانـت بالدقيقة لا باليوم وقد لاح أفقها بعد تلك الليلة المشـهودة بيومين، صحا «تميم» من

نومه مرتعدًا ويتفصد عرقًا كالمحموم ويهذي بكلمات مبهمة، وفي الحقيقة لـم أنزعـج كثيـرًا مما يحـدث أمامي لأنـي كنـت لا أزال تحت تصـور أنها تداعيات كوابيسـه التي تطارده يوميًّا وأكاد أتقاسـمها معـه وأنال نصيبي من رعدته وصرخاته المكتومة وشهقاته التي كان يخرجها أحيانًا كالحشرجات، وكان قد استيقظ منها أكثر من مرتين في أثناء الليل، وناولته في إحداها كوب مـاء لم يبقَ منه شـيء، لكنـه في هذه المـرة كان مختلفًا، صاحبه الشـحوب وزيـغ البصر حتى الظهر وبدت إجاباته عن أسـئلتي مبعثرة وملغزة وفي غير محلها كمريض «ألزهايمر»، لم يفطر وتحت إلحاحي شـرب كوب الحليب مضطـرًّا، وجهزت له غداءه ثم تركته لمتابعة أوردر تصوير، وأنا في مواجهة مع باب الشـقة أنبنـي ضميري فعدت إليـه. أبديت رغبتي فـي الاعتذار عن الأوردر والبقـاء معه، لكنه قـال لي: «انصرفي أنا بخيـر»، وانصرفت حاملة قلقي وهواجسـي فيما أحمله من أدوات وعدسـات، وعندما عدت في أول الليـل وجدت الطعام لم يمس و«تميم» فـي غرفة النوم، ليس على الفراش، بل جالسًا على كرسي في نهاية الغرفة عند الحد الفاصل بين الشرفة والغرفة، ونصفه في الغرفة ومقدمة رأسـه مصوبة في الفراغ وأطرافه وركبتاه في حرم الشرفة، مكان يصعب أن يراه أحد فيه أو يرى هو منه أحد، فقط أبنية عملاقة وفنادق ضخمة على مسـافات بعيدة جدًّا حيث تفصلنا عنها شـوارع حينا ثم النيـل العريض وصولًا إلى مواقعها، كانت تبدو كـ «ماكيتات» صغيرة جدًّا ومصنوعة بإتقان وبعـض فجواتها مضاءة والأخرى معتمة، حييته عليه دون انتظـار ردٍّ أو همهمـة، ومددت يدي وضغطت على زر إضاءة الشـرفة، فزع «تميم» جدًّا وتكعبل جسـده كالرجل الكاوتشـوك ومضـى يصدر صيحات مبتـورة بفـزع كأنه مصـاص دمـاء فاجأته الشـمس، كنت قـد حرصت على

عـدم إضاءة نور الغرفة عنـد دخولي واعتمدت على الأضواء المتسـربة من «الرسيبشـن» في تحديد مكانه، وذلك من أجـل ألا أزعجه أو أفزعه، ورغم ذلـك هـا هو قد ارتعـد وارتفع تـون صوته، أسـرعت بإطفاء النـور وراقبت فـي الوقـت ذاته أنفاسـه تتباعد مسـافاتها حتى هدأ تمامًا، ثـم تحايلت حتى أخرجته من الغرفة وأجلسـته أمام مائدة الطعام وتوسلت إليه وأوهمته بأنني لـم آكل شـيئًا منذ خروجي مـن المنزل، حتـى مد يده إلى بضـع لقيمات ثم سمح لي بأن أدس في فمه شريحة من صدر الدجاجة، كان يملأ بها صدغيه كالبالـون دون أن أرى على حنجرته ما يشـير إلى اتجـاه الطعام إلى المعدة، ظللت أربت ظهره وأشخط فيه وأصيح حتى ينصاع ويمضغ طعامه، ووسط ثورتـي كنت أهم كثيـرًا بالضحك فالطفل الذي حرمنـي «تميم» من إنجابه، يبدو أن «تميم» قرر أخيرًا أن يمنحني إياه من خلاله، ويا ليت الأمر قد توقف عند الطفولة أو حتى عند الاسـتقالة، أو العزلة أو التوقف عن ممارسـة الفن التشـكيلي مؤقتًا أو نهائيًا، كان صمته مؤلمًا وكلامه مبهمًا.وملغزًا يشـي بأن هناك شـيئًا غير طبيعي يحتدم داخله، وفي بداية تلك الحالة لم يستطع طبيبه النفسـي تحليل ما يجري وكان «تميم» قد رفض رفضًا تامًّا أن يعود الطبيب إلى زيارته في المنزل وصرخ في وجهي يتهمني - كأخته - بأني لن أستريح إلا بعد إيداعه في مستشـفى المجانين، وظل يشـوح بيده التي كانت معطوبة في وجهي وهو يصرخ: «لقد شـفيت.. لقد شفيت»، وانتقى المكان الفاصل بيـن الغرفة والشـرفة وجعله موضعه المختار، ولم يقرب ورشـته قط، حتى عندما ظننت أنني لو طلبت منه أن يعود إلى رفاقه المريبين ويدخل معهم في مشـروع ورشة خراطة مسـتلزمات مواتير السيارات سيدوِّر كلامي في رأسه وقـد يقتنع، واعتبرت ذلك تضحيـة كبيرة مني، فلو نفذ «تميم» مقترحي ماذا

يتبقى منه؟ تأملني «تميم» بدهشة فيلسوف يتباسط مع خادمته ثم زفر زفرة كبيرة وقال: «انتهت الأحلام يا جيهان.. لقد فعلت أسوأ شيء في العالم.. توقفت عن الإيمان بنفسي»، ثم أوغل «تميم» في عزلته وبدأ يطردني من حيز وجوده، وكلما استبد بي القلق أو أخافني طبيبه الذي كنت أقدم إليه تقريرًا شبه يومي عن «تميم» عبر هاتفي، لا أستطيع كبح جماح السيطرة، وكنت أهاجم «تميم» وأوضح له خطورة عزلته، كان ينكر بشدة مخاوفي ويرد بأحد أمرين، إما أن يبادلني الثورة بثورة أشد تقترب من الهياج ثم يغادرني إلى موقعه المختار ولا يكلمني ويتوقف عن الأكل معي، وإما أن يرتدي ملابسه كيفما اتفق ويتعطر بأي عطر ذكري.. أنثوي.. مزيل عرق، ثم يخرج إلى المقهى البلدي الصغير القريب والذي يجلس عليه رفاقه العاملون بورش الميكانيكا، وفي الحقيقة كانت هذه الخروجة تطمئنني جدًّا، ليس تخلصًا من التوتر الذي يلازمني عند وجودي معه في الشقة، بل لأني كنت آمل في أن وجوده بين هؤلاء البسطاء أولاد البلد قد يشفيه ويخلصه من إحباطاته، وفي وسط هذا الجو المتقلب، اتصل «الوشاحي» كثيرًا وفي الحقيقة لم أضخم له الأمر، كنت أطمئنه وفي وسط المكالمة أنادي على «تميم» وأنا أزعق لكي يصل صوتي إليه معلنًا أن «الوشاحي» معي على الخط. وكان «تميم» لا يجيبني، وكنت أنهض من مكاني وأعيد إخبار «تميم» بأن «الوشاحي» يسأل عنه عبر الهاتف، إذا ما ظل ظهر «تميم» ورقبته على حالهما كنت أعود وأعتذر لـ «الوشاحي» بأن «تميم» قد نام أو يقضي حاجته، ولم أفكر كثيرًا في سر تبلدي أمام عزف «تميم» عن الحديث مع «الوشاحي»، وأعتقد - وقد أكون مخطئة تمامًا - بأني كنت أرسل رسائل إلى «الوشاحي» بأن «تميم» ما زال بخير وأنه يتابع أحاديثي

وأنا لست بمعزل عنه ولن أسمح لأحد ما بأن يملأ الثقوب التي تملأ رأسه وأن يتوهم أني بصدد أن أكون فريسة، وفي بعض الأحيان استجاب «تميم» لندائي ورد على «الوشاحي» بكلمات مبتورة، لدرجة جعلتني أظن أن ردود «تميم» هي التي ستجعل «الوشاحي» يتوقف عن الاتصال به لا تجاهله.

أفقت يومًا والفجر يستأذن في الدخول على تضرعات وتوسلات من «تميم» الذي كان قد هجر فراشه لتوه ووقف خلف كرسيه مسندًا كوعيه على مسنده وكانت كلماته خفيضة، ولما تبينتها أصابني فزع شديد: «لماذا أنا بالذات؟ أنا ما زلت في بداية حياتي! هناك كثيرون مرضى وعجزة ومجرمون لا يستحقون الحياة فلماذا أنا؟ خطفت مختار دون أن يكمل حلمه بينما أنا لم أبدأ فيه.. فقط شرعت في البدء».. وكلمات أخرى من هذا القبيل، دسست رأسي أسفل الوسادة وبكيت بنحيب، لكنه كان في عالم آخر، بعد وقت قصير نهضت وأعددت الإفطار وسحبته إلى المنضدة وأمرته بالأكل وعيناي مختنقتان وجفوني تؤلمني كأنها منداة بالملح، وقلقت وأنا أراه صامتًا، وفشلت في إيقاف نظراته المسافرة في المطلق، وعندما تكررت تلك الحالة في اليوم التالي بإشارات أكثر وصوت أعلى، لم آخذ إذنًا بحضور الطبيب النفسي إلى البيت واستدعيته على الفور، ولم يُبدِ «تميم» اعتراضًا سلبيًّا أو إيجابيًّا بالقول أو بالفعل، بل ترك جسده كالخرقة المهلهلة بين يدي الطبيب، الذي صرفني وأغلق عليهما الغرفة ونهاني عن دخولها لحين إتمامه الجلسة، وبعد فترة تقرب من الساعتين أعطى «تميم» حقنة مهدئة وكتب له روشتة ليس فيها دواء فعال، إنما مهدئات ومثبطات وأقراص تعدل المزاج النفسي، تلقى الطبيب استهجاني من الروشتة بوجهه المعتاد على سخافات عائلات المرضى، ثم أخبرني بحدة أنه يعاني من

رهـاب المـوت، وبضرورة أن يتخلص مـن هذه الحالة بسـرعة وإلا تدهور جدًّا، أُسـقط في يدي فسـألته بقلق هـل ممكن أن ينتحر؟ حـدق في وجهي وأجابنـي بأنـه يسـتبعد ذلـك، فأغلـب المصابيـن بهـذا المـرض لا ينتهون بالانتحار بقدر ما يؤذون المحيطين بهم بشدة!

مـن أخطائي الفادحة في تلك الفترة أني أخفيت حقيقة مرضه عن أقرب المقربين وأولهم عائلتي، ثم «رنا» الصديقة الوحيدة التي كان «تميم» يرتاح لهـا والتي كانت تحسـدني جهرًا وتعلن أمنيتها في الـزواج من فنان مثله (ها أنتِ قد تزوجتِ بكاتب.. ذوقي إذن طعم الأحلام عندما تتحقق)، «بسـمة» كعادتهـا منـذ تزاملنـا في أولـى عتبـات الطفولة كانـت تتميز بأنانية شـديدة تجعلـك في بـؤرة اهتمامها طالما أنت متماس مـع عالمها، لكن لو ابتعدت أو دخلت هي في حيز علاقات أخرى تتلاشـى، فرغـم أن تعارفنا أنا و«رنا» و«بسـمة» بدأ ثلاثيًا غيـر أننا في الغالب كنا اثنتين أنـا و«رنا» فقط، انفصلت «بسـمة» عنـا عقب المرحلـة الثانوية، ثم عـادت في السـنتين الأخيرتين من الجامعة، ثم تلاشـت إلـى أن قابلت «رنا» مصادفة فعـادت إلينا مرة أخرى، وفـي خطبتها وزواجهـا وإنجابهـا تباعدت ولمـا لاحقتها المشـاكل لاذت بنـا، وفـي تلك الفتـرة الحرجة في حياتي مـع «تميم» كانت «بسـمة» خارج الـكادر، وفي الحقيقـة درة تاج أخطائي بعيدة عنهمـا، وكانت عندما عندت وتصلـب فكري على ألا أخبر شـقيقتَي «تميـم» أو أحدًا مـن عائلته بتدهور حالتـه، وأجبت عليهم هاتفيًا مرتين أو ثلاثًا في ذروة تداعي «تميم» وقلقهم مـن عدم رده علـى اتصالاتهم، لونـت صوتي وعصرت على نفسـي ليمونة وطمأنتهـم عليـه وأخبرتهم بانشـغاله لأنه يجهز لمعرض كبير سـيكون نقلة مهمة في حياته الفنية، وتصورت أني ارتحت منهم وتخلصت من وجودهم

في حياته ولو لفترة قصيرة، غير أني كنت واهمة جدًّا، فقد عادوا أكثر شراسة ووحشية وكادوا يفتكون بي.

كان «تميـم» آنذاك في مساومة مع القدر - كما فسر لي طبيبه الأمر - بدأ يعد السماء بأنه سيكف عن أذى أي إنسان أو حشرة أو نبات في مقابل أن تمنحه سنوات ثلاث فقط ينجز فيها عملًا عظيمًا.. بعد هذا الاتفاق المسموع الذي كان يصرخ به في الفضاء وأنا أتمنى ألا يميز الجيران ما يقوله، كان يريني أيامًا عجيبة دون أن يحس بأني أتابعه أو أنني قد سمعته أساسًا.. كان يمشي على أطراف أصابعه بعد أن ينحني ويفحص الأرض جيدًا لعل نملة تسير في مرمي خطواته فيتجنب دهسها، ثم فصل جهاز «الإيزالوا» الصاعق للبعوض بعد أن وبخني واتهمني بالسادية، أما أكثر الأمور التي هزتني وكسرتني، عندما اعتقد أن الهواء سيشفطه ويسقطه من أعلى، وبدأ يتجنب أن يمر بالقرب من النوافذ والشرفة، أو يمشي بسرعة منحنيًا على أربع وهو يمر بالقرب منها، وتدهور أكثر وصار يزحف وينظر تجاهي وأنا أصرخ وألطم على وجهي، وكان يعود إلى رشده بمجرد حقنه، ثم يبتكر مخاوف جديدة وهكذا دواليك، ثم على ما أعتقد ظن أن السماء لن تستجيب له فبدأ ينقص من عدد السنوات التي يريدها.. واكتفى بعامين، ثم بعام، ثم بستة أشهر

كنت أجادله كثيرًا ولا يهتم بسماعي أو يثور مهتاجًا فيما عدا بعض الأوقات التي كان فيها يتأثر ببكائي.. في تلك الأوقات كنت أحاول أن أبدو عقلانية وأنا أحدثه بهدوء ومن خلال الاستعانة بكل ما يخطر على فكري من تفسيرات دينية أو فلسفية أو ميتافيزيقية عن الموت، وأن لا أحد عرف

أو أدرك متى تحين ساعته، وأنه واهم.. وأظل أتوسل إليه وأرجوه أن يبعد هذه الفكرة عن ذهنه وأن يعاود مواصلة الحياة غير آبهٍ بالمستقبل، وكلما أوشكت بالظن أنه قد راقه كلامي وسينفض هذه الفكرة من رأسه، يحدث شيء يجعله أكثر تدهورًا مما فات، كأن يتصل به أحد زملائه أو رفاقه في مشروع الورشة وأسأله همسًا هل يرغب في الرد عليه؟ وعندما يومئ برأسه موافقًا أناوله السماعة وأنا في أوج فرحتي، وكنت قد فعَّلت خاصية جعل الميكرفون مفتوحًا حتى أسمع حواره مع الآخرين وأتدخل قبلما تحدث مشكلة إن كانت حالته غير مستقرة، إلى تلك اللحظة كانت المكالمة انسيابية جميلة يطمئن فيها الرجل على «تميم» ويتساءل عن سر غيابه عنهم، و«تميم» يجيب بأن عنده بعض المشاغل، ثم في ختام المكالمة قال الرجل: «يا ريت يا تميم تطل علينا ومتحرمناش من إننا نشوف بعض حد ضامن حنشوف بعض إمتي تاني؟».. اربدَّ وجه «تميم» عند تلك الجملة وأسرعت بغلق الخط والإحاطة به كي أضمه في صدري وهو يرتعش ويقول بصوت مرتعب: «شفتي بيقول إيه؟ كل الناس عارفة إني هاموت وانتي بتخبي عليا»، ثم دخل في نوبة جديدة سيطر عليها الطبيب بصعوبة.

الانحدار النهائي كان حادًّا جدًّا وإيقاعه سريع لاهث، زادت كوابيسه التي كانت تهاجمه في نومه وصحوه لو أغمض عينيه لدقائق من أثر الإجهاد، أشد كوابيسه ضراوة تلك التي كان يرى فيها زميله ومنافسه «نبيل» وهو يطارده بالجبس محاولًا عمل قناع لوجهه، كان يبدو كالعجوز المخرف وهو يتمتم بمفردات الكابوس دون أن أعي ما حقيقة تلك المخاوف، عرفت فيما بعد من «الوشاحي» أنه كان يخشى أن «نبيل» هو الذي سيكلف

بصب صورة من الجبس لوجهه، كما فعل «أنطون حجار» زميل «محمود مختار» ذلك عندما أراد أصدقاء «مختار» أن يحتفظوا بآخر ملامح صديقهم الراحل.. مسكين يا «تميم» لو كنت أعلم تلك المعلومة قبل أن تموت لربما صببت لك أنا هذا القناع، لكني رغم ما قرأته عن «مختار» وما حكيته لي لم تستوقفني تلك الملاحظة.. انتقل الأمر بعد ذلك إليَّ شخصيًّا.. بدأ يسألني عما سأفعله بعد موته؟ وهل سأتزوج بعده أم سأذكره حتى النهاية، وكان لا يعبأ بصمتي ويستجوبني أحيانًا بعنف وأحيانًا يرق ويلين ويطرح لي أسماءً لفنانين زملائه منذ الدراسة ولا أعرفهم ويظل يعدد لي مميزاتهم.. حتى وصل إلى الذي أغفلته عن الجميع أصدقاء وأقارب ومحبين.. اتهمني بأن «نبيل» هو الذي سيحصل عليَّ.. وإن ذلك لن يحدث حتى ولا فوق جثته، ثم ضربني بشدة وآذاني جدًّا، وكنت قد استشعرت الخطر يومها وطلبت من طبيبه سرعة الحضور وتم إنقاذي على يديه، وبعد حقنه نصحني الطبيب بالمغادرة.. غير أني بعد أن حزمت أمري عدت من منتصف الطريق، وصحا «تميم» ووجدني بجواره كالمعتاد، أفاق هذه المرة بسرعة وبدا كأنه بخير، لم يتذكر ما فعله بي البارحة ولم أخبره بشيء، أفطر معي ثم قال إن البيت يخنقه جدًّا وطلب مني أن أسمح له بالذهاب إلى المقهى القريب، وسمحت له بذلك وعندما اطمأن لوجوده خارج الشقة ابتسم لي وقال إنه ذاهب ليموت في المقهى، فابتسمت ولم أدرِ لِمَ ابتسمت، وبعد ساعتين توالت الخبطات على بابي ففتحت، كانوا كثيرين يتقدمهم رفيقه الذي اعتاد التواجد بشقتنا، وكانوا يتكلمون ويصرخون في وقت واحد، «تميم» مات على كرسيه في المقهى، وفجأة امتلأ بيتنا بالجيران وبأهلي وأهله واستقروا

على دفن «تميم» في ذات اليوم 27 أبريل، وجنت شقيقته «حبيبة» واتهمتني بدس السم له وكادت تعرقل الدفن الذي ما كان ليتم إلا بعد تشريح الجثة لولا أخي الذي كاد يبطش بها وأخته «شيماء» التي صرخت في وجهها ألا تتسبب في بهدلة أخيها، ولكي أخرج عائلة «تميم» من حساباتي نهائيًا بذلت الغالي والرخيص وتنازلت عن كل شيء أهداه لي «تميم» حتى سيارته والشاليه، وتم عمل عزاء «تميم» في الليلة التالية وهمس لي «الوشاحي» وهو يعزيني بأن ليلة عزاء «تميم» لو كانت يوم 27 ما كان قد حضر، فهو يتشاءم من يوم 27، وكنت بصالة النساء في المسجد ولا يفصلنا عن الرجال غير ساتر خشبي تظهر من بعض فروجه رؤوسهم وهم يتهامسون، وكانت النساء بجواري يغافلنني ويثرثرن، وقد قاطع أهل «تميم» العزاء وقالوا إنهم سيقيمون له عزاءً في سرادق أكبر في منطقة سكنهم، وبدا كل شيء مشوشًا عدا «تميم» الذي غادر مسكننا الأرضي ولن يعود.

ريم مطر

اليوم الخرا يعرف من أوله، «ملك» سيعاد تدريبها في (The Learning Resource Center). السائق الزبالة الذي ركبت معه، منظره كان غير مريح رغم أن سيارته حديثة لكنها غير نظيفة وشاربه مبعثر في فوضى حتى إن بعض شعيراته يكاد ينتهي قوسها داخل فمه، لولا أن «ملك» أخرتني ومركز (LRC) موعد جلساته «شارب» لانتظرت سيارة أخرى، كانت «ملك» تشاغلني من خلفي فالتفت ووبختها وحاول السائق التدخل بالملاطفة وسأل «ملك» عن اسمها، لكنها لم ترد عليه، أعاد السؤال، فزغدتني «ملك» وهي تقول: «خليه يسكت يا مامي»، ضحك السائق ببلاهة وقال باستظراف: «إيه مش عارفة اسمك يا شاطرة؟»، رفعت صوتي بحدة وطلبت منه أن يقود في صمت، وأن يسرع حتى نلحق بموعدنا، زاد من سرعته ولم يلتفت تجاهي، كنت قد تركت الكنبة الخلفية بكاملها لـ «ملك» حتى تفرد كراسة الرسم وتلعب بالألوان وتكف عني أسئلتها، التفت لأتابع ما تفعله وجدت أن خطوطها بالقلم الفلوماستر العريض قد تجاوزت الكراسة وامتدت إلى قماش الكنبة، زغرت لها بعيني ولم أجرؤ على توبيخها علنًا فيعرف السائق ما فعلته ويطلب مبلغًا كبيرًا تعويضًا عن تلويث الكنبة، كنا في أول طريق الأوتوستراد وأنا أنظر إلى ساعتي بقلق، زاد السائق من سرعته في ذات الوقت الذي كانت فيه سيارة أخرى تحاول تجاوزنا، كان الاصطدام

وشيكًا وقد رأيت دقائقه وصرخت بشدة بينما انحنى السائق أكثر ناحية اليمين فدخلت مقدمة السيارة من جانبها الأيمن في السور الحجري الذي يحد الطريق، وسمعت صوتًا مروعًا لصاج السيارة التي نركبها وهو يحتك بشدة بالسور ويصدر عويلًا معدنيًا، انطلقت بعده صرخات أكثر وسمعت صوت بكاء «ملك» قبل أن أتعرض لإغماءة قصيرة لم تتجاوز الدقيقة، أخرجونا من السيارة وربتت سيدات جسدي وارتفعت «ملك» أمامي بين ساعدي امرأة قوية، عقب تماسكي صرفت السائق بعد أن أعطيته ثمن الأجرة مع مبلغ إضافي لترضيته وتعويضًا عما فعلته «ملك» بقماش الكنبة الخلفية، أوقف الناس سيارة أجرة أخرى، هذه المرة تفحصتها هي والسائق بشدة، ثم ركبت مع «ملك» وجلسنا في الكنبة الخلفية، كان هذا الحادث الذي بدا مروعًا في أول الأمر وانتهى بسلام قد أخافني وغير مزاجي لأنه تشابه مع الحادث الذي بسببه امتنعت عن قيادة السيارات، والذي حدث في صحراء دبي وأنا أقود السيارة الجديدة (BMW) التي كان زوجي السابق ووالد «ملك» المخرج «علي المنصوري» قد أهداها لي وأنا في أول إقامتي بالإمارات، تهشمت السيارة بالكامل ودفنت معها في كثيب رملي وانفلتت السيارة التي كان تضايقني وتطاردني طوال الطريق، وأنقذت بصعوبة بمساعدة من سيارة دبلوماسية استدعت سيارة الإسعاف التي جاءت في زمن قياسي، لم ينلني غير بعض الرضوض في الساقين وأنقذتني الوسادة الهوائية وبرغم ذلك بقيت في المستشفى لمدة خمسة عشر يومًا أجريت فيها الفحوصات كافة وحضرت دروسًا للتأهيل النفسي، لكن يبدو أنها لم تنجح لأني حاولت أكثر من مرة القيادة بعدها وكنت بمجرد إدارتي للسيارة أرتبك ويتشوش ذهني، وكلما سرت بها عدة خطوات أنسى ما هي الخطوة التالية

التي يجب عملها، حاولت قيادة أكثر من طراز سيارات بمفردي أو بمعاونة «علي» لكني فشلت أيضًا، وعندما وقعت حادثة سيارة الأجرة كان يجب أن أعرف أن اليوم ليس يومًا يبشر بخير وآخذها من قصيرها وأعود أنا و«ملك» ثم أتصل بالمركز وأشرح لهم ظروفي وأرتب موعدًا بديلًا، لكني لم أكن منتبهة فركبت السيارة الأخرى وجلست على كنبتها الخلفية بجوار «ملك»، ومنعتها من الرسم بالقوة فبكت واستشعرت الخطر وجاءتها نوبة الارتداد بجسدها أمامًا وخلفًا بإيقاع متزايد، ثم ضربت نهاية رأسها في مسند الكنبة الجلدي، أوقفتها بصعوبة لكنها ظلت تزوم بصوت مكتوم والسائق يتابعنا متلصصًا عبر المرآة، أوشكت أن أزغدها في جنبها لتصمت، ولأني أدرى بلؤمها وخبثها ستصمت وتبدو كالميتة، وبمجرد دخولنا المركز ستركبها العفاريت والجنيات وقد تتسبب في تأجيل شهادة السلوك التي بغيرها لن تعود إلى الخليج، بادرت بالطبطبة عليها لكنها تراجعت وانكمشت فصرفت النظر عنها حتى لا أزيدها عنادًا، بمجرد دخولي إلى المركز قالت البروفسير المختصة بمتابعة «ملك» وهي تنظر إلى ساعتها إنني تأخرت عن الجلسة نصف ساعة وخيرتني بين الانصراف والعودة في موعد لاحق أو إكمال نصف الساعة على أن يتم حسابها ساعة كاملة لأني المتسببة في التأخير، أريتها الدم المتخثر على الساق والجلد المكشوط وأخبرتها بالحادثة التي عطلتنا وكادت تقتلنا، أبدت أسفها على ما حدث وهنأتني على سلامتنا ثم أخبرتني أنها ستجعل مدة هذه الجلسة 45 دقيقة وبذلك تتحمل الإدارة نصف الوقت الذي ضاع وأتحمل أنا النصف الآخر، وأن هذا هو الإنصاف من وجهة نظرها، ولما أبديت استهجانًا بعيني عقبت: «ممكن حضرتك تكلمي الإدارة ولو تفهموا الظرف حأجل الجلسة ساعة كاملة بس اتصرفي

بسرعة وروحيلهم عشان عندي مواعيد تانية»، ولكيلا أزيد اليوم سوءًا قبلت المساومة الرخيصة ورضيت بأن تكون مدة الجلسة 45 دقيقة فقط، عليَّ أن أدفع مقابلها مائتي دولار أمريكي، مائة مقابل الساعة التي تبذلها البروفسير في محاولة تحسين سلوك «ملك»، ومائة مقابل الساعة التي أُعتقل فيها كي أرد على الأسئلة التي توجهها البروفسير عن حياتنا وحياة «ملك»، واليوم سأدفع المائتي دولار مقابل خمسة وأربعين دقيقة لكلينا عقابًا لي لأني نجوت من الموت ولم أتمكن من الوصول في الموعد المحدد.

كانت الشروط والالتزامات التي يضعها هذا المركز في الكتيبات والبروشورات والبانرات التي تعلن عنه والمكتوبة باللغات الأجنبية من أهم أسباب ارتياحي عند زيارته في المرة الأولى بهدف مساعدة «ملك» في التأقلم مع الآخر، بجانب أنها أزالت كل ريبتي ودهشتي من أن أهم مدرسة أطفال في الخليج والتي التحقت بها ملك في (KG1) وأذاقت زملاءها وأطفال المراحل الأكبر الأمرَّين من سلوكها حتى استدعت المدرسة «علي» واعتذرت عن عدم مواصلة «ملك» دراستها في المدرسة، وفشلت كل جهود ومساعي «علي» في الضغط على إدارة المدرسة لإعادة قيد «ملك» خاصة وأن المدرسة قد لفتت النظر إلى سلوكها أكثر من ثلاث مرات في العام الذي قضته هناك، وأن هناك تعهدات من «علي» بأن تعدل الابنة من سلوكها ولم يحدث ذلك، وأخبرني «علي» بأنه اضطر إلى الاستعانة بأمراء وأفراد من الأسرة الحاكمة كان أبناؤهم يدرسون في الصف الذي يدرس له بأكاديمية المسرح، لكن الطاقم الإداري الحديدي للمدرسة رفض رفضًا تامًّا القيام بأية استثناءات، حاول «علي» بعد ذلك إلحاق «ملك» بمدارس أخرى

على نفس المستوى أو أقل قليلًا لكنهم رفضوا بإصرار قبول البنت لأنهم راجعوا هذه المدرسة قبل أن يعطوا قرارهم، وبعد محاولات أخرى أخبروه بأن الحل الوحيد لقبول «ملك» مرة أخرى، أن يتحسن سلوكها وأن تتضمن أوراق التحاقها شهادة معتمدة من مركز (LRC) الموجود بالقاهرة، ولذا أعادها علي إليَّ وكلفني بمتابعة اجتيازها لهذا الاختبار، اعتقدت أن «علي» دبر هذا العائق من أجل عودتي إليه، بعد أن سمح لي بصعوبة بالتخارج من علاقتنا الزوجية التي ظن أنه لو خيرني بين الطلاق ووجود الطفلة معه سأتراجع، لكني قبلت احتفاظه بـ «ملك» نظير حريتي، لم أصدق في بداية الأمر أن هناك مركزًا متخصصًا في تدريب الأطفال وتحسين سلوكهم في القاهرة، سواء كانوا أصحاء لكن مشاغبين، أو يعانون من مرض التوحد أو حتى منغوليين، وأن يكون هذا المركز هو الأول والأعلى تقييمًا في الشرق الأوسط كله وتعتمد على نتائجه المدارس رفيعة المستوى في دول الخليج كافة، وكنت أظن أن فترة التقييم لن تتعدى الشهر أو الشهرين، لكن اليوم بعد أن أخذت «ملك» جلستها وشاركتها بالرد على الاستجوابات «الرذلة»، وبما أننا في نهاية الشهر الثالث فقد ظهرت نتيجة التقييم الدوري وحصلت «ملك» على نقاط أقل من معدلات الأشهر السابقة، وقررت إدارة المركز أن يجري تدريبها وتقييمها بداية من الشهر القادم من خلال ثلاث جلسات أسبوعية بدلًا من اثنتين وهذا يعني أن مائتي دولار أخرى ستضاف إلى الكلفة الأسبوعية، ليس مهما ما سأدفعه لهذا المركز حتى يعطينا الشهادة التي تسمح لها بمواصلة الدراسة هناك لأن «علي» هو الذي يدفع فواتير المركز بالإضافة إلى مصروفاتها، المهم أن هناك شهرًا آخر ستلازمني فيه

«ملـك» وقد يمتد إلى شـهرين أو ثلاث كما أخبرتنـي الإخصائية فور انتهاء جلسـة اليوم، وقالت إن هذا (depended on) «ملك»، وهذا معناه أن هناك مصيبة أو أكثر بانتظاري لو حلَّ الصيف دون أن تتحسن «ملك»، لأن وجود «ملـك» بمصر سـيجعل «علـي» يقضي الصيف فـي القاهرة بـدلًا من تركيا أو سـوريا، وقربه مني قد يفسـد خططي كلها، سـواء مشـروع الأكاديمية أو علاقتـي مع «أحمـد» أو علاقتي مع ابنتـي «ملك» الذي يدعـي «علي» أنني أعاملها كطفلة متبناة لم أستشـر في تبنيها، لا بد أن أقفل كل هذه البالوعات المفتوحة قبل أن تحط طائرة «علي» عجلاتها على الـ(Run way).

بعـد عودتـي مـن المركز ذهبـت مباشـرة إلى البيـت، وعندمـا اتصلت «اسـتيلا» أخبرتها بالقـرف الذي واجهنـي فألحت عليَّ أن أسـهر معها ليلًا نلعـب «كونكان» ونشـرب، وافقـت لأن الغضب تملكني وأجهدت رأسـي في التفكير في وسـيلة لخلاصي وعجزت، من فترة زمنية ليسـت بعيدة كان السـفر إلى الخـارج هو مهربي، مجـرد التفكير في أن باسـتطاعتي المغادرة إلـى دول أحبهـا كان يقوينـي، وكانت وجهتـي المتخيلة دائمًا إلى سويسـرا حيـث تقيـم أختـي «رويـدا» مـع زوجهـا اللبنانـي «سـليم»، أو فرنسـا التي سـافرت إليها كثيـرًا، وأنا طفلة مـع العائلة، ومع أبي بمفردنا عدة سـفرات، ومـع أمـي بعـد وفاة والـدي، وكنـت أعرفهـا وأعـرف شـوارعها وأحياءها بقـدر أكبر من معرفتي بشـوارع وأزقة مصـر الجديدة التي نشـأت فيها، بعد طلاقي من «علي» كانت وجهتي الأولى إلى سويسـرا لألتقي «رويدا» وأقيم معهـا بالقـرب من المطعم والملهـى الصغير الذي يمتلكه «سـليم» زوجها، والتـي قالـت لـي إنها تديـره معـه، «رويـدا» خريجة كليـة سـياحة وفنادق،

وبعـد تخرجهـا عملـت موظفة اسـتقبال في فنـدق الماريوت الـذي قابلت فيـه «سـليم» وافتتنـت بـه وارتبطـت به رغـم معارضة أمـي التي قالـت إنها لا تعرف له «أصلًا من فصل»، وإن الزواج المحترم لا بد أن يبدأ بمعرفة كل صغيـرة وكبيرة عـن العائلتين، لكن مقاومة أمي كانت واهنة جدًّا، فقد كانت في مرضها الأخير الذي جردها من كل عزم وقوة، كما أن «سليم» بإمكانيات التاجـر الشـاطر تقـرب منها وحجز لنا تذاكر سـفر إلى بيـروت لرؤية عائلته وهو يعرف بالتأكيد أن أمي لا تستطيع الانتقال من سرير غرفتها إلى الحمام إلا عبر مسـاندة مؤكـدة، كما دعانا إلى رؤية مطعمه في سويسـرا للاطمئنان على مستقبل «رويدا» قبيل الموافقة على زواجه، وجعلنا نشاهد صورًا لهذا المطعم من خلال الإنترنت، أبدت أمي موافقة شـفهية فسـافر «سـليم» إلى سويسرا لإنهاء الترتيبات اللازمة للزفاف، ثم العودة بعد ثلاثة أشهر، أنقص القدر المدة شـهرين كاملين وعاد «سـليم» بعد شـهر واحد للتعزية في أمي، وبعد ثلاثة أشـهر أخرى تزوج من «رويدا» وغادرنا، بينما تعثرت في «علي» وبدأ يمارس ضغوطًا شـديدة عليَّ لكي أتزوج منه وأنا في بداية عامي الثاني في معهد الفنون المسـرحية، وفـي نهاية العام كان قد أقنعنـي تمامًا بالزواج فلحقت بـ «رويدا»، أبي طبعًا لم يحضر زيجتي ولا زيجة «رويدا» فقد قضى نحبه قبل أمي بعامين، أبي مات لأنه حاول استرداد ما أخذ من عائلته بالتأميم مـن خـلال الفسـاد، كان قد وصـل إلى منصب وكيـل أول وزارة الإسـكان واستصلاح الأراضي، وكان على مشارف أن يصبح وزيرًا أو هكذا كان يبالغ في حسـاباته، طالـت فترة انتظاره وبـدأ الحلم يتراجع ففقد بهـاءه وصوابه، ولا أعـرف كيـف بـدأ معه الفسـاد، أعرف فقط كيـف انتهى بـه، ظهرت في الصحـف صـوره ووقائع القبض عليه متلبسًـا مـع بعض المسـئولين الكبار

فـي الوزارة بتهمة الاسـتيلاء على أراضـي ملك الدولة وبيعهـا والتزوير في مستندات ملكيتها، «يا نهار مش فايت يا أمي وكنتي عايزانا نبحث في جذور عيلة سليم، الحمد لله إن سليم ما اكتشفش إن أبو البنت اللي عايز يتجوزها فاسـد وانقبض عليه وانسـجن، ويا ريته كان فاسـد وفالح.. ده انكشـف في زمن كله فسـاد.. ويا ريته كان قدر يستحمل شـوية شهور في السجن، ودفع رشـاوى وظبط موقفه زي زمايله اللي اتقبض عليهم وخرجوا بعد كده براءة واتفـك الحجـز علـى أموالهم.. لكنـه زي زمان مـا كنت باسـمع ماما وهي بتوبخه لأنه كل شـوية يخسـر مبالغ كبيـرة في القمار.. ما قدرش يسـتحمل يومين في السجن وطب ساكت.. والمحامي بتاعه قاللي إنه الظاهر أول مرة يعمل كده.. لأنه كان فاسـد بغشـومية وعشان كده انكشـف بسرعة وللأسف لبـس القضيـة كلها».. بعد ذلك خسـرنا أشـياء كتيرة، يمكن أقل شـيء فيها السـمعة لأن السـجن أصبح شـيئًا عاديًّا جـدًّا بعدها.. لكن خسـرنا الأموال المنقولـة التي تم الحجز عليها، وخسـرنا أمي التـي تقزمت ووهنت بمجرد قراءتها لخبر القبض عليه، كانت تظن أنه في مأمورية عمل وفوجئت بأنه في اجتماع دوري مع العصابة التي تم رصدها من أجهزة الأمن..

بعد تلك الكارثة رسبت عامًا في نهائي ليسانس الآداب، لكن العام الذي تـلاه قضيته دون موانع ولا حرمات، ودخلت في علاقات متعددة وتسـببت فـي مشـاكل كثيـرة لزوجات وفتيـات وكانوا يسـمونني أحيانًـا المدمرة، ثم زهـدت في الرجال فجأة وأصابني قرف مـن كذبهم وادعائهم فجعلت بيني وبينهـم مسـافات، وكان من الصعـب أن آخذ هذه الخطوة فـي كلية الآداب التـي كان سـلوكي فيهـا موضع انتقـاد، إنما نجـح هذا الأسـلوب في معهد

الفنون المسرحية، وهذا الأسلوب هو الذي أدار رأس «علي» وجعله يقبل قدمي حتى تزوجني..

زهدت فرنسا لكثرة زياراتي إليها، أما سويسرا ففيها عرفت بالضبط حجم المأساة التي منحنا إياها والدنا السيد «عبد الهادي مطر» عندما قرر أن يكون فاسدًا دون أن يمتلك قدرات ذلك، لاحظت أن أختي تتجنب أن أذهب إلى المطعم الذي يمتلكه زوجها في الليل أو على وجه الدقة عند بداية الشو الاستعراضي، كانت تسمح لي فقط بالغداء هناك معها أو ثلاثتنا، ودهشت لذلك خاصة وأن دوامها في المطعم كان يبدأ قبيل منتصف الليل وينتهي قرب الثالثة صباحًا، وعندما ضيقت عليها الخناق ذات مرة قالت معتذرة إنه يقدم عروضا إباحية في الليل وهي لا تريدني أن أشاهدها، سخرت لها و«هزأتها» لأنها تظنني طفلة وهددتها بأنه بالعند فيها سأسهر لوحدي في أي «نايت» مبتذل، قالت ببرود: «روحي أي مكان بس مش المكان اللي بنديره»، ذهبت فعلًا إلى أماكن أخرى وسهرت وسكرت وترنحت وحين شاهدني «سليم» على هذا الحال مرة سألني لماذا أسهر في أماكن أخرى؟ فأخبرته بالسبب فضحك جدًّا، وقال لي إنه سيدبر لي في اليوم التالي مكانًا أرى منه الاستعراضات دون أن تراني أو تحس بي «رويدا»، وطلب مني أن أمكث في البيت حتى يتسلل من المطعم ويأتي ليأخذني، وفعلًا أتى كما وعدني ووجدته أعد مكانًا منزويًا أستطيع منه مراقبة الاستعراضات بسهولة، ثم أدركت سبب ضحكته الشديدة ولمعة عينيه اللتين أتذكرهما رغم سكري البين عندما أخبرته بإصرار «رويدا» على منعي من حضور الاستعراضات، في منتصف المسرح بالضبط كانت

«رويدا» تتدلى من السقف محتضنة أسطوانة معدنية وهي بغلالة رقيقة فوق «البراه» و«الكيلوت»، وكسائر زميلاتها في عرض «الإستربتيز» بدأت تؤدي حركاتها الجنسية وهي تحتضن الأنبوب المعدني وتخلع ما تبقى من ملابسها، وكانت تتلوى بافتعال ودون رغبة كممثلة مبتدئة تمثل فقط لكي يلتقطها رجل ثري. في الحقيقة لم يكن الأمر صادمًا تمامًا، فقد استشعرت ذلك وهي تحاول منعي عن التواجد بالملهى ليلًا، وخمنت أنها إما تقدم الخمور وتجالس الزبائن، أو تجلس في الكابينة المخصصة لمراقبة آلات القمار أو بالتحديد (Slot Machine) ماكينة سلوت للحظ، وهي المهنة التي عرضها عليَّ «سليم» بعد عدة أيام من تواجدي في جنيف، ضمن المهن الأخرى التي منها مجالسة الزبائن، الذي أدهشني فقط من «رويدا» أنها استطاعت المجاهرة بالتعري أمام الآخرين، لأن «رويدا» بصفتها شقيقتي التي تكبرني بقليل تحمل جينات مماثلة بقدر طفيف من الاختلاف، أنا بعد صدمتي في تحطم هيبة أبي أمام الآخرين سكرت وعربدت ورافقت (بقليل من الحذر) دون أن أأبه للناس، وهي كانت دائمة الانتقاد لي، ليس من منطقة العيب والعادات والتقاليد، إنما من منطقة السرية.. «اعملي كل حاجة يا حبيبتي من غير ما حد يشوفك»، وكنت أعرف ويصل إلى علمي أخبار تباسطها مع زملائها الذين كانت تختارهم بعناية أو بالأصح تكون وظائفهم هي البوصلة التي تهديها إليهم، حتى وقعت في حب «سليم» وتم صيدها بمنطق «صياد ورحت اصطاد صادوني».. أدركت منذ اللحظة الأولى لرؤيتي «رويدا» وهي تلتف كالثعبان حول الأنبوب المعدني أن «سليم» بصدد اختياري خليفة لها، وعزمت على إفساد خطته، ليس من منطلق أني لن أعمل في مثل

هذه المهنة لو قررت الاستقرار في أورُبا، ولكن لكي يدرك أن طعم بعض الطيور مُر، خاصة التي تبدو فرائس سهلة، تعمدت ألا أتبع تعليماته التي لقنها لي قبيل دخولي إلى الملهى، لذا وقفت وتجولت بين المناضد كأني زبونة من الزبائن الدائمين، وحين تأكدت أنها رأتني وترددت أصابعها قليلًا وهي تخلع القطعة الأخيرة التي كانت ترتديها والتي في حجم كف «ملك»، عدت إلى مكاني ثم انصرفت بعد انتهاء فقرة «رويدا» دون أن أمكنها من استدعائي في غرفة تبديل الملابس، وأجلت المواجهة لتكون في حضور «سليم» وفي البيت لا في الملهى.

نمت نومًا عميقًا ليلتها لكي أعطيها فرصة للخناق والتشابك مع «سليم» في الملهى ولكي أجهزها نفسيًّا لمواجهتي، فرغم أنها شقيقتي الكبرى إلا أن جرأتي كانت تنقصها حتى ونحن مراهقات، وبعد أن صحوت وأخذت راحتي في الشاور والجاكوزي خرجت لأجدها كعادتها جالسة في وضع رد الاعتداء لا المواجهة، ابتسمت وأخبرتها بأن عرضها أعجبني وانتقدت أنها ما تزال حاملة للإرث الشرقي في رأسها رغم كل السنوات التي قضتها في الغرب بينما العامة والغوغاء قد حلوا هذه المعضلة من زمان وقالوا المثل الشهير: «البلد اللي ما تعرفش حد فيها.. إقلع ملط وامشي فيها».. كانت «رويدا» تنظر نحوي دون نطق وكنت أتكلم بحرص على ألا تضايقها سخريتي، فهي شقيقتي الكبرى التي أحبها.. ثم عاتبتها لأنها أخفت عني ما شاهدته في المطعم والملهى وتصرفت معي كأنها تخبئ فضيحة بينما هي أدرى بعقلي المنفتح وبطموحاتي الفنيه وبتقديري لكل ما يسهم في الترويح عن الناس، وأكدت لها في نهاية كلامي أنني انصرفت اعتراضًا على

طريقتهـا في التعامل مع فنها وليس احتقارًا لمـا رأيته، كانت «رويدا» - كما أعرفهـا- واقفة فـي منطقة عدم تصديق كلامي، وكان «سـليم» يبتسـم كلما راقتـه جملة مـن كلامي، وجعله هذا في مرمى غلاسـتي لذا بطشـت به وأنا أشـير إليه وأخبرتها بعروضه لي بالعمل في المطعم وفي الملهى وباعتقادي أنه يحلم بأن يعدني خليفة لها في الكشف عن المفاتن..

أصبح هذا يومًا أخيرًا لي في ضيافتهما، وأنا التي أخذت قرار المغادرة، وحاولا اسـتبقائي بشـدة لكني لم أتراجع، ومكثت شهرين آخرين في أوتيل صغير ثم شـاركت أخرى في أسـتديو في جنيف، وكانا يزوراني وأزورهما، ولم تنقطع بنا الصلة بل توثقت لحرص «رويدا» على التعامل معي كسـائحة ترغب في معرفة الأماكن الشـهيرة في سويسـرا.. ومعه أحيانًا ومعهما غالبًا زرت مدينـة بـازل ولـوزان بالإضافة إلى رحـلات قصيرة المدة إلـى ألمانيا واليونـان، ومـن سويسـرا توجهـت إلـى الخليـج لأقضـي بعض الأيـام مع «ملـك»، ثم قـررت أن أجرب حظي مرة أخرى في مصر، وفيها تكعبلت في «أحمد الضوي» بعد مجموعة من الرجال أقرب إلى النعال، لم يلفت «أحمد الضـوي» نظري لأني رأيته لأول وهلة ككومبارس صامت يعبر مصادفة في أحد المشـاهد المحتشـدة بأبطال الصف الأول والثاني وصولًا إلى الصف العاشـر، لكنهـم كانـوا يتسـاقطون تباعًا وبسـرعة كزهـر الفل والياسـمين، اسـتلمتني «استيلا» بمجرد علمها بقرار اسـتقراري في مصر، رشـحت لي رجالًا مناسـبين من وجهة نظرها ويصلحون أزواجًا، رجالًا متأنقين، مدعي ثقافة، تسـري الشـائعات حول ثرواتهم الضخمة، تلتصق بشـفاههم ابتسامة الرجال العاملين في مجال التنمية البشرية، وهؤلاء عرفتني عليهم في نوادي

الروتاري أو مطعمهما أو فنادق الفايف ستارز، ورجالًا آخرين أعضاء مثلي ومثلها في نادي هليوبوليس، وهؤلاء من الذين تعجب بهم «استيلا» جدًّا، وسامة وشياكة وتفاهة، ويجلسون متناثرين على مناضد حدائق النادي، كأن يدًا عابثة نثرتهم بحرفية فوق كل بقعة من بقاع النادي، الخضراء والموازييك والصفراء.. باختصار في ملاعب وتراكات ومضمار النادي وحول مطاعمه وكافيترياته.. تجد كل واحد منهم على رأس منضدة يكاد يكون الرجل الوحيد فيها ومن حوله متصابيات وأرامل ومطلقات وموسسات يستمعن إليه بإنصات كأنه سقراط، ويضحكن بخلاعة لو ابتسم وذكر كلمة ثم نبههن إلى أنه يقول «نكتة»، غالبيتهم تبدو «باروكاتهم» أو شعرهم المزروع منتفشًا ومهيبًا من أثر «الجيل» ولامعًا كالذهب المزيف، وكلهم يبدون في الإجمالي كـ «ديك البرابر».

رجال «هايدي» كانوا من عينة أخرى.. كل الذين رشحتهم لي كانوا فنانين أو مشاريع فنانين.. موسيقيين ومغنيين وتشكيليين أو ممثلين ومخرجين التقتهم في مسرح الهناجر، كأن الدنيا قد خلت إلا من دار الأوبرا كي أتزوج من أحد المترددين عليها، وبخلاف أن معظم الذين رشحتهم وأرتهم لي عن بعد يقلدون بركاكة الصورة النمطية عن الفنانين والتي ساهمت السينما في تشويهها وترسيخها عبر المبالغة الساخرة في بناء «الكراكتر». كان كل الذين رأيتهم دون الحاجة للتحدث معهم مقرفين سواء في طرز ملابسهم وإهمالهم العناية بنظافتهم وحرصهم على حمل كتب سميكة باللغات الأجنبية دليلًا على سعة اطلاعهم.. بخلاف كل هذا القرف الذي تسبب في عزلي عن معظم الزملاء في العامين اللذين قضيتهما في معهد الفنون

المسرحية، كانت تجربتي مع طليقي «علي المنصوري» غير مشجعة لي للتعامل مع هذا الصنف مرة أخرى، كما أني من داخل الداخل كانت فكرة الارتباط مرة ثانية غير واردة على ذهني، وكنت غير متأكدة من صحة قراري بالاستقرار في مصر وأريد أن آخذ وقتًا كبيرًا في مراقبة الأوضاع حتى أحسم أمري، لكن لا «هايدي» ولا «استيلا» ولا باقي أصدقائي ومعارفي سيتفهمون قصدي ونيتي، لذا جاريتهم واستمتعت وزهقت وتسليت برؤية كل هذه «الكراكترات» التي عرضوها لي، وفي ظرف غريب تعرفت على «أحمد الضوي» وقد أظهر اهتمامًا وشجاعة وحسمًا، والأهم أن كل هذا تم دون ادعاء ودون فرد عضلات، ثأر لي ومكنني من الانتقام عقب تعرضي فجأة لموقف سخيف، ظهر في الوقت المناسب وساندني بشجاعة ثم اختفى ورفض قبول دعوتي لرد جميله، رغم أني وجدت الرغبة في التعرف عليَّ تكاد تخرج من عينيه، ولما ألححت عليه قبل دعوتي، وظننت أنه قدير وخبير في عالم النساء، وراقني أن ألاعبه وأنتصر و«أعلِّم» عليه، لكنني بعد لقاءات قليلة جدًّا، اكتشفت خيباته وقلة خبرته وسذاجته أحيانًا التي تبلغ حد براءة الأطفال، وارتحت لصحبته وعيوبه تلك كانت لصالحه، وقربتني منه أكثر أنه ليس فنانًا ولا مثقفًا ولا مدعيًا، مجرد مهندس يعرف عن الأسمنت والرمل والجبس أكثر مما يعرف عن عدد الثقوب الموجودة في جسد المرأة، ارتحت في علاقتي مع هذا الرجل ذي الأصول الجنوبية أكثر مما ارتحت في علاقات سابقة، بالرغم من أن له حركات تفقع المرارة أحيانًا ورأيت منه بعض المواقف العرة والخرة، مثلما أنا مبضونة منه حاليًا بعد الحركة الوسخة وهو يناولني الموبايل حتى يريني الرسالة التي فرحته

فجأة، رسالة شممت فيها عطر امرأة وارتباكه أكد صحة ظني، ولم أشأ أن تصدمني الحقائق وأنا في وقت لا أستطيع فيه حسم العلاقة، لأن عشرته لطيفة وتسعدني كثيرًا، أنا مندهشة بشدة من أنه قد يكون في طريقه إلى معرفة امرأة أخرى، «أحمد الضوي» الذي لم أرَ له أصدقاء ولا معارف ولا زملاء غير ضابط استعراضي، وبعض أفراد قابلتهم معه في أماكن مختلفة وقدمهم لي على أنهم مهندسون منافسون أو شركاء أو زملاء دراسة، لم أرَ أنثى قط وأنا بصحبته تبتسم في وجهه عن سابق معرفة أو سيدة تصافحه وهي تذكره بنفسها.. زميلة دراسة.. عميلة من عملاء شركته، جارة من جيرانه القدامى.. كيف دخلت تلك التاء المربوطة إلى حياته وهو في حوزتي؟! ربما أكون مبالغة في تصوري هذا.. لكن اعتزازي الكبير بقدراتي الذي أوقعني كثيرًا في مفاجآت كانت تدوي على قفاي كالصفعات تجعلني أنفخ في الزبادي.. لذا أرجأت وعدي بالسفر معه إلى الإسكندرية عند رش شقته بالمبيدات، وجعلت «استيلا» تلغي الحجز في البنسيون الذي يملكه قريبها لحين إعادة النظر في موضوع «أحمد»، «أحمد» الذي نلت سخريات كثيرة بسبب علاقتي به من «هايدي» و«استيلا»، قالتا إن ذوقي انحدر وأصبح «بيئة طحن»، وإن ذلك من عواقب زواجي من «علي المنصوري» الذي استهجنتا ارتباطي به في السابق، قالتا إنني أصلح لدبلوماسي أو رجل أعمال أو على الأقل لزوج مثل «سليم» اللبناني الذي تزوج أختي، وحتى «أحمد» عندما ذكرت له مرة ألقاب ومهن الذين رشحوا للزواج والارتباط بي، سخر مني لحظتها وقال بغيظ: «إنتي عمالة تذليني وتعايريني كأنك مطلعاني من بلاعة بكابورت».

«ملك» عادت للزن مرة أخـرى، أكلتها وحممتها ونومتها، لكنها أفاقت الآن وتريدني أن أفسحها أو أذهب بها إلى «استيلا»، تعصبت عليها وتغابيت على حد قول «استيلا» وهي تراني أؤدبها، ثم أغلقت عليها الغرفة وحذرتها مـن أن أسـمع لها صوتًـا، البنت أصبحت تشبه أباهـا في ردودهـا العصبية العنيفة خاصة في عامنا الزوجي الأول، والذي بسـبب هذه المشـادات قبل السـفر إلى الخليج للتدريس هناك، وفرحت بهذا القرار، وقضينا عامًا ممتعًا هناك ثم اكتشفنا أننا غير صالحين للزواج، فكلانا عقيم، ثم أجرينا تلقيحًا أو حقنًا مجهريًّا (ICSI) في مركز كبير بالخليج، ونجحنا في إنجاب «ملك»، الطفلـة التي ولـدت طبيعية لكن قد تحـدث أحيانًا مشـكلات تطرأ عن هذا النـوع من الإنجاب، كما أخبرتنا الطبيبة الأمريكية، ومنها هذه الطاقة العنيفة والمدمرة التي تهبط على «ملك» أحيانًا وتجعلها تبطش بكل ما يقابلها والتي تضررت منها المدرسـة، وأحيانًا أخرى تهبـط عليها بطريقة مخالفة فترفض الملامسـة وتؤدي حركات عصبية بعنف وبتكرار غريب.. والليلة ثقيلة لأن «علي» سـيتصل ليستفسـر عما حدث في مركز تحسـين السـلوك، سنشتبك كثيرًا في بداية المكالمة ونبدو ككلبين مختلفي النوع تواجها فجأة.. سأخبره بما جرى في المركز والتقييم المتدني لـ «ملك»، وسـيتهمني بأني السـبب، وسأسـبه وألعنـه حتى يغلق الخط، ثم سـيتصل مرة أخـرى ليعاتبني، ثم مرة ثالثة يحدثني بتزلف ويوصيني على «ملك»، كأنها ابنة الشـغالة، سـتجهدني هـذه المكالمـات بالإضافة إلى عواء «ملـك» بالداخل الذي سـيتزايد وهي تتنصـت على مكالمتنا، ولن ينقذ الأمر إلا ذهابي إلى «اسـتيلا» لكي أسـكر وأقامر حتى الصباح.. ربما أنسـى «علي» ومكالمته الثقيلة وإصراره على أن تنجـح البنـت بتفوق وتكمل تعليمهـا في مدارس ذات صفـة عالمية، البنت

نتـاج ولادة غير طبيعية ولم تتأكد نتائج التلقيح الصناعي بعد حتى في أعرق دول العالـم، لا بـد من أن يمر وقت طويل لاختبـار صحة النتائج، تناطحت مع «علي» كثيرًا لكي يدخلها في مدرسـة عادية والأفضل أن تكون في مصر فهـذا أصلـح لها من وجهة نظري، لأن الاحتكاك مـع أقران في نفس عمرها بهم نفس طاقات العنف والعدوانية سيفيدها أكثر كما نصحني طبيب نفسي في الخليج، لكنه ركب رأسـه وأصر على إدخالها في مدرسـة شـهيرة لعلية القوم وأنا أكره فكرة سباق الخيل التي يصر بعض أولياء الأمور على معاملة أولادهم طبقًا لها، لأن النتيجة الحتمية أن الحصان الخاسـر في السـباق لن يتعرض لمكروه، مَن راهنوا عليه هم فقط الذين سيصابون بأمراض الضغط والسـكر ويتعرضـون للنوبات القلبيـة أو على الأقل لخيبة الأمل، أنا لسـت على استعداد لأن أمرض أو أعتل بسبب أي شخص مهما بلغ قدره عندي.

جيهان العرابي

أشعراني بأنه مجلس حرب وتريدان مشورتي، لذا وضعت شروطًا صعبة للقاء، منها أن نلتقي في مكان على النيل صباحًا، وعليهما أن تدبرا طريقة للاستئذان من العمل أو أخذ إجازة، وأن لا تقاطعاني وأنا أدبر لهما طريقة للخروج من المأزق، ووافقتا فقدت سيارتي في طريقي إليهما بسعادة دكتاتور وقع إعلانًا بالحرب، وعندما وصلت وجدت «رنا» ترتشف كوب الكابتشينو بمزاج وبجوارها «بسمة» تدخن سيجارًا، وأمامها الموبايل الحديث التي أخبرتني بمميزاته في مكالمة عابرة، لن أزيدكم معرفة إن قلت إنها لم تكن تدخن لكنها أخبرتنا مرة أنها دخنت بضع سجائر مع «خيري»، الجديد هذه المرة أنها تشتري وتدخن سيجارًا مثل الذي اتجه «خيري» إلى تدخينه بعد رحلته إلى أمريكا، عندما اقتربت إلى درجة كافية أسرعت «بسمة» بإطفاء السيجار وأزاحت العلبة قليلًا إلى اليسار وابتسمت لي وأصابع كفها اليسرى الخمس تتخلل شعرها الأسود الفاحم الرابض فوق الأذن اليسرى، جلست وطلبت قهوة ونظرت نحو «رنا» فما وجدت عينًا وارمة أو دموعًا أو أي أثر من آثار البكاء، وأدهشني ذلك جدًّا، لأن «فؤاد» طلقها منذ أسبوع وأخذ الطفل منها في مقابل الموافقة على الطلاق، وأنا عشت هذه المأساة الضارية معها هاتفيًّا عدة مرات في اليوم الواحد. كانت تنقطع الاتصالات بيننا فقط لأنها لا تستطيع إتمام الحديث من كثرة البكاء، ورفضت حضورنا

أنا و«بسـمة» وادعت أنها فـي خناقات كثيرة مع والدها بسـبب قرارها بترك الطفل لـ «فؤاد»، وأن والدها أوشك أكثر من مرة على أن يذهب إليه ويضربه ويعـود بالطفل ومنعته بصعوبة بالغة، السـيدة التي أمامي هذه ليسـت «رنا»، التي تنسـى مشـكلتها الكبـرى وتسـألني عن أحوالـي وتطلب من «بسـمة» أن تتـروى ولا تبـدأ في طرح المشـكلة حتى أنتهي من قهوتي، أكيد ليسـت «رنـا» التي أعرفهـا، أو أن نصف السـاعة التي تأخرتها عـن موعدنا تمكنت «بسـمة» فيهـا من أن تتفِّه المشـكلة وتهون من شـأنها، ولعلهـا أقنعت «رنا» بتجاهل «فؤاد» وترك الطفل له وسيجيئها زاحفًا على ركبتيه لأنه لن يستطيع رعاية طفل صغير، وبذلك تنضم «رنا» رسـميًّا إلى نادي المطلقات وتصبح شـلتنا شـلة الأرامل والمطلقات، سـألت «بسـمة» عـن «خيـري» فأجابتني بابتسـامة عريضـة: «تمام قـوي بقيت باشـوفه وأقابله أكتر ما بيشـفوه زمايله في الشـغل»، ابتسـمت وتوقعت أنها المرة القادمة سـتخبرني بأنها تراه أكثر مـن زوجتـه وأولاده، نظـرت نحـوي متنمـرة وقالـت: «عايزة تقولـي إيه يا جيجي ابتسامتك دي مش مريحاني؟»، قلت لها دون مواربة: «هو مش انتوا جايبيني هنا عشـان أسـمع مشـاكلكم ونحاول نحلها.. وأنا بأسألك بتقولي كل شـيء تمام يبقى فين مشـكلتك؟»، قالت بحدة وهي تخمس في وشـي: «أنـا وخيري زي الفل.. المشـكلة في العروض اللي بتتحـدف عليه من كل حتـه وكل عقد أنقح من التاني وكلهـا فرص زي الفل وأنا مش قادرة ألاحق عليهـا وكل ما أبطله عقد ويقتنع إنـه ما يوافقش عليه بعدها بيومين يوريني عقد تاني.. إقامة فايف سـتار ومبلغ خرافي وأربع تذاكر طيران في السـنة.. مـش عارفـة أعمل إيـه؟ أكهربلـه الحـدود والا أقرصـن إيميله واشـتم كل الـ Listing Mail اللي عنده عشان ماحدش يبعتله تاني»..

ضحكت بشـدة لدرجة اسـتفزتها فقالـت: «وانتي عملتي إيـه مع أحمد اللـي طلعلنا فـي المقدر جديد؟ صالحتيـه وحايلتيه ولا رجعلك من نفسـه يبـوس القدم؟»، ثرت على وقاحتها وكلمتها بعنف وتدخلت «رنا» ومنعتني مـن المغادرة وظلت تسـترضيني وتحلفنـي بصداقتنا أن أدع هـذا اليوم يمر علـى خيـر لأنهـا في حاجـة إلى مشـورتي، وعندمـا هدأت، تحركـت تجاه المنضدة التي بجوارنا حيث كانت تجلس «بسمة» بعد أن وبختها، وأعادتها «رنا» وانتهى الأمر بعناق ثلاثي، ثم أكملنا جلسـتنا بشـرط ألا نتكلم إلا في موضـوع «رنا»، وبدأت بالاستفسـار مـن «رنا» عن الأسـباب التي أوصلت الأمور إلى الطلاق الرسمي، فقالت إنه ضيق عليها الخناق جدًّا بعد عودتها إلى المكتبة، وأصر أن تقدم اسـتقالتها لأن قرار عودتها كان بمثابة اسـتغفال لـه، ثم تطور الأمر أكثر بعد أن ضربها ضربًا مبرحًا هذه المرة وأكثر شراسـة مـن المرة الفائتـة، لكنها لم تغـادر المنزل ولا اسـتدعت والدها بل أصرت علـى أن يطلقهـا علـى الفور لـو به ذرة مـن نخـوة الرجولة، أخبرهـا بأنه لو طلقها سـيأخذ منها الطفل، وافقت فطلقها، سـألتها بدهشـة كيف تسـاهلتِ هكـذا فـي موضوع الطفـل، أجابتنـي وعلى وجهها بعـض التأثر بـأن لديها شـعورًا بأن طفلها سـيعود إليها قريبًا، كما أنها تدرك تمامًا أنه سيعتني به فهو والـده على كل حال، ذكرتها بقسـوة «فؤاد» عليه وهـو رضيع، فعللت الأمر بـأن «فؤاد» فـي ذلك الوقت كان يغيظهـا. ثم لتقفل أمامي هـذا الباب قالت بحسـم إنها تعلم أن «فؤاد» سـيضع الطفـل تحت رعاية أختـه العانس، وأن هذه العمة تحب الطفل جدًّا وقد لمسـت «رنا» بنفسـها هذا الحب والحنان فـي المرات التي زارتها فيها.. سـألتها بلا مواربة ماذا تطلب مني بالتحديد؟

نظـرت «رنـا» تجاه «بسـمة» ثم تجاهي وقالـت إنها تريد منـي تهدئة والدها وإقناعه بأن الزواج والطلاق قسـمة ونصيب، وأن أجعله يصرف النظر قليلًا عن المطالبة بالطفل أو عن الذهاب إلى «فؤاد» وإهانته أو ضربه، انتهى كلام «رنا» والدهشـة ما تزال تلازمني من حرصها على ألا يهين والدها «فؤاد» أو حتى يطالب بالطفل، وبدا لي أنها تدبر شيئًا وتخفيه عني وأن «بسمة» تعلمه أو لعلها واضعة الخطة، وقد ساءني أن تتقاسم «رنا» و«بسمة» سرًّا ويجنباني معرفتـه.. كنـت أظن أن علاقتي بـ«رنا» هي الأوثـق لكن يبدو أن بضعة أيام قليلة مضت قلبت «النيجاتيف بوستيف والبوستيف نيجاتيف»..

رفضت رفضًا تامًّا أن أحادث والد «رنا» وأحلت الأمر إلى «بسمة» التي قالت بخفة إن والد «رنا» لا يسـتلطفها من زمان ولن يسـتمع إليها، حايلتني «رنـا» كثيرًا، افتعلت أنها غاضبة ثم زعلانـة ومتضايقة ولم أتراجع، حاولت «بسـمة» بحذر أن تضغط عليَّ باسم الصداقة، لم أرد عليها أصلًا ثم لمحت غمـزة عين من «بسـمة» لـ«رنا» فـي غفلة مني كأنها تطمئنها بأنها سـتقنعني فـي وقت لاحق، فأصررت أن أعند أكثر، فليس هناك قوة في العالم تجبرني على التحدث إلى هذا الرجل المتصابي.

فجـأة وجدت «رنا» تنظر بدهشـة فيمـا ورائي بينما كل شـريان في وجه «بسـمة» يـكاد يضـيء وهي تشـير إلى شـخص قادم مـن خلفي، اسـتدرت فوجـدت «خيـري» على البسـطة الأخيـرة من الـدرج ونعلاه فـي طريقهما لمعانقـة حشـائش المكان فـي الطريق إلينا، عدلـت رقبتي بسـرعة وتقطيبة جبيني تطلب تفسيرًا سريعًا من «بسمة»، كان وجهها يتقاسم الفرحة والقلق، بينمـا أصابـع يدها اليسـرى مشـرعة أمامي كحبـة الكمثرى وهـي تقول في

عجالة إن «خيري» أمامه مقابلة عمل مهمة وقد تعطلت سيارته فطلبها وهي في الحمام واستأذنها في أخذ سيارتها لذا أعطته عنوان المكان، لم يعد هناك وقت للمعاتبة فقد هبط «خيري» على رأس منضدتنا وسلم علينا بحرارة شديدة وبأدب جم، أسرعت «رنا» بدعوته إلى الجلوس فجلس جواري على المقعد الشاغر، قبل أن تستاء «بسمة» أشرت إليها أن تحل محلي لأني أرغب في محادثة «رنا»، أبدت «بسمة» بعض الممانعة لكن نهوضي حسم الأمر، وأسرعت «بسمة» بحمل حقيبتها وتليفونها واتجهت إلى مكاني الذي خلا، سألته «رنا» عما يفضل شربه فطلب عصير ليمون، كان يرشف عصيره بتؤدة وكان الحديث بين ثلاثتنا قد تجمد في الهواء، وكانت «بسمة» لا تكاد تحس بوجودي أنا و«رنا»، وكنت أنتظر بلهفة أن تفتح حقيبتها وتناوله مفاتيح السيارة كي ينصرف بعد أن يشرب مشروبه، لكن لا مفاتيح خرجت ولا حضرته انصرف حتى بعد انتهاء عصيره، نظرت إليها بإمعانٍ فوجدتها تتجاهل نظراتي وتميل نحو أذنه تهمس له بشيء، قلت في نفسي الحمد لله ستأتي لحظة الإفراج قريبًا، بعد أن أنهت «بسمة» وشوشتها، نهضت بسرعة وجرت تجاه بوفيه الكافتيريا، ثم عادت بكيس شيبسي كبير وفتحته ودعتنا إلى التناول منه وهي تتقاسمه مع «خيري»، الكيس في حجرها وتكاد تضع له شرائح البطاطس في فمه لولا الحياء منَّا. وهو يمد كفه يتناول منها حفنة البطاطس ويدفعها نحو فمه، «رنا» التي بدت من أول هذه الجلسة كأنها قرين «بسمة» أو تمتثل لأمرها، أومأت نحوي بنظرة استنكار جعلتني أرفع صوتي فيما يشبه السباب وأنا أقول لـ «بسمة»: «لما الأستاذ خيري مافطرش لسه كنتي خليتي الجرسون يجيب ساندوتشات أو هاف سناك»، توقف «خيري» عن المضغ لحظة ثم قال دون أن يعتدل في جلسته التي

كان غارقًا بها في كرسيه: «شكرًا أنا فطرت وآسف لو كنت قطعت جلستكم الخاصة أنا حأقوم بعد دقايق»، تدخلت «رنا» بسرعة وهي تخبره نيابة عنًا بأن حضرته لم يقتحم جلستنا وهو على الرحب والسعة، و«بسمة» كانت على الطرف الآخر تراقبني بعين قط متنمر، وكنت سعيدة لأني كهربت الجلسة وأوقفت المشهد عن التمادي في الابتذال، فقد نسيت «بسمة» نفسها وكانت تلقمه بيد والأخرى تتدرج في الاستعباط بداية من تلمس فخذه كأنها مصادفة ثم القهقهة وافتعال أن توازنها اختل فيسقط كوعها على حوضه إلى مسح بنطلونه من أعلى فخذه لأن ذرات من البطاطس المهدرجة وقعت عليه، وصولًا إلى دعك وفعص ما يحجبه عنا مفرش المنضدة، ثباتي أمام نظرات «بسمة» جعلها تعتدل في جلستها باستياء، لم تنقضِ إلا بضع دقائق وجذب «خيري» حقيبة «بسمة» وفتحها ثم أخرج مفاتيح السيارة وقام وانحنى انحناءة الدبلوماسيين وألقى علينا بتحية مصحوبة بابتسامة، أولًا إلى «رنا» وثانيًا تجاهي، ثم تحرك وخلفه «بسمة» تحاول ملاحقته، عندما اختفيا من أمام أنظارنا وتحرك وجه «رنا» في وضع المعاتبة، بادرتها بحدة أطالبها بالسكوت وقلت لها أن تحمد ربنا أنني لم أطردهما من على المنضدة، فتصرف المراهقات الذي أدته أمامنا تصرف مبتذل وسخيف ويضر بنا لأن لو شاهدنا أحد سيضعنا في زمرة المنحرفات، حاولت «رنا» تبرير تصرف «بسمة» بأنها جنت به ولأننا أقرب صديقاتها علينا أن نطبطب عليها ونأخذها في حضننا ونفهمها بلطف ولا نقسو عليها، كانت «بسمة» قد أهلت من بعيد وأنا أؤكد لـ «رنا» أني لن أدادي وأدلع وأطبطب على كائن أيًا كان، فأنا في حالة نفسية «زي الزفت»، كما أن «بسمة» في حاجة إلى تقريع وشد أذن حتى لا يقودها هذا الحب نحو الجنون، اقتحمت

«بسـمة» منضدتنا في حالة غبية وجذبـت حقيبتها وألقت بحفنة نقود لتغطية ما طلبته، وغادرتنا في غضب و«رنا» تطاردها، ناديت «الجرسـون» ودفعت حسـابي ولـم أتحرك في انتظار انتهـاء هذه المهزلة، لم أشـأ أن أعمل عقلي بعقـل «بسـمة» هـذه الواقعة في الحب وأغـادر المكان، لأنه من المسـلم به أن أصطحبها في سـيارتي بعد أن تركت سـيارتها لوليفهـا، وأن أوصلها إلى أي مـكان ترغـب فيـه.. لأن من غير المنطقـي أن توصلها «رنـا» القاطنة في المعادي حيث نجلس الآن ثم تعود، طال انتظاري فزهقت وحرت في كيفية التصرف خاصة وحقيبة «رنا» راقدة أمامي ومفتوحة ولا أدري أين هما الآن؟ وكنت في غير حاجة إلى رؤية وجه «بسمة» المقموص مرة أخرى فما فعلته اليوم كافٍ، لكنهما عادتا أخيرًا ووقفت «بسـمة» أمامي دونما كلمة، فوقفت وحضنتها وتركت جسـدها متخشـبًا بين ذراعي، حاولت أن أفسر لها سبب غضبـي لكنها أشـاحت بوجهها عني، تدخلت «رنا» وشـخطت فيها فعادت إلى حضني واتهمتني بالقسـوة، ربَّت ظهرها وقبَّلت رأسـها، ثم انصرفنا من المكان، حرنت مرة أخرى وتمنعت عن الركوب معي، وابتعدت لكي تشير إلـى أحد التاكسـيات، غمـزت لـ «رنا» حتـى تنقذني من هـذا الهم، فوقفت بجوارهـا ثـم كلمتهـا وعـادت بهـا، في طريقـي إلى وسـط البلد اسـتطعت ترويضهـا وأقنعتهـا بصعوبـة أن ما يبدو لها من قسـوة تجاهها سـواء مني أو مـن «رنا» دافعه الأول خوفنا عليها ولأننـا لأول مرة نراها متدلهة في الحب هكـذا، وطلبت منها بصراحة أن تخبرنـي برغبتها في أن أتوقف عن انتقادها وسأفعل ذلك على الفور، وكنت أتوقع أن يسوقها العند إلى طلب ذلك مني فعـلًا، لكني فوجئت بها وهي تجهش بالبـكاء، وتركتها حتى هدأت وقالت بضعف غريب عليها إنها تلوم نفسـها كثيرًا على هذا الضعف تجاه «خيري»

وتعصف بها الأفكار التي تشدها نحوه والأخرى التي تبعدها عنه، وإنها قررت كثيرًا الفرار منه، ثم وجدت نفسها تزداد قربًا ولترحم نفسها من كل هذا الجنون قررت أن تنساق وراء عواطفها، وخلف ما يبهجها، وليكن ما يكون، كان هذا ملخص ما دار بيننا حتى أوصلتها إلى شارع الشواربي حيث تنوي أن تتبضع إلى أن يلحق بها «خيري».

نمت قليلًا ثم أنهيت انتقاء ملف الصور المطلوب مني إرساله إلى إحدى المجلات العربية، وأعددت كوب شاي بالحليب مستغلة صفاء الجو وجلست في الشرفة، كانت أوضاع «رنا» تقلقني.. وكنت على استعداد لفعل أي شيء لها عدا أن أكلم والدها وأهدئه، والدها الذي تورطت في الماضي بسماع شكاويه من «فؤاد» فطمعه ذلك في الوصل، شكاويه الكوميدية التي أذكر منها مكالمة ليلية أيقظتني مفزوعة ووجدته يشكو لي أن «فؤاد» يحاول إقناع «رنا» بالعودة إليه - وكانا في ذلك الوقت متخاصمين و«رنا» تقيم عنده - قلت له: «إنت فرحان بقعدتها معاك يا أونكل؟» قال بغيظ: «الواد الزفت عايز يقابلها من ورايا!» انفعلت عليه وقلت: «دي مراته يا أونكل!!».. قال وهو يزفر: «ماتفكرنيش يا جيهان.. كفاية كان متفق معاها يأجلوا الخلفة.. وبعدين ضحك عليها وخلاها حامل.. أنا زعلان عشان مسمار جحا اللي حيخليها ترجعله كل شوية». هذه عينة من العبث الذي كنت أسمعه منه ولن أكرر ذلك مرة أخرى.. ما يقلقني الآن صراعها مع «فؤاد» ولغز تخليها عن ابنها حتى ولو لمدة محدودة.. وكنت بحاجة إلى «بسمة» لكي تجلي لي الموقف، وما فعلته اليوم معها سيمنعنا عن التصارح والنميمة.. لقد قسوت عليها فعلًا وكان من الممكن أن أختلي بها وأبين

لها فداحة ما تفعله أو أنسحب من الجلسة بأية حجة أو ادعاء، لكني بالغت وسأبدو كالمغتاظة من تصرفات لا أجرؤ على تقليدها.. لماذا لا يصدقون أن هناك فتيات وسيدات بوسعهن البقاء بعيدًا عن الجنس لسنوات؟ لمَ تظل المرأة متهمة في رغباتها؟ إن أبدتها صارت فاجرة وإن أخفتها صارت لئيمة أو تمارس مجونها دون أن يدري أحد؟ وإن زهدت فيها صارت معقدة؟ لن ينقذني من هذا الصداع غير مشاهدة فيلم أحبه..

الساعة تجاوزت الحادية عشرة ولا رغبة لي في النوم.. النسمات الباردة تداعب وجهي والنجوم اللامعات في السماء تخطف بصري.. والشوارع تحتي وقد خلت من الناس إلا فيما ندر تثير في قلبي الشجن.. وهناك على مبعدة تحت ظل تلك الشجرة الوارفة يحكم شخص ملابسه وهو يشير إلى سيارات متعجلة لا تقف، ثم يعتدل ويسند ظهره إلى ساق الشجرة حتى ترضى عنه سيارة وتسمح له بدخولها.. ياه، أحلم كثيرًا بهذا المشهد.. أن يراقب غرفتي رجل يحتمي بظل هذه الشجرة ولا يهدأ ولا تقر عيناه إلا عندما أغلق ضوء غرفتي.. لحظتها يطمئن ثم يغادر.. أين لي بهذا الرجل؟

أحمد الضوي

تركت «كارولين» وأنا في منتهى الحيرة، «عماد» هذا لن ينظف أبدًا، والوساخة تجري في عروقه مجرى الدم، كانت «كارولين» قد اتصلت بي مرتين وطلبت أن ألتقيها من وراء ظهر «عماد» وحلفتني بكل غالٍ ورخيصٍ ألا أخبره باتصالها هذا ولا بالسبب الذي تريد مني أن أنفرد بها دون أن يدري، اعتذرت وتعللت بظروف الشغل، وطلبت منها أن تحكي لي هاتفيًّا مشكلتها الأخيرة مع «عماد» فربما أقدر على حلها، قالت إنها مشكلة كبيرة وبما أني أقرب صديق إلى «عماد» فمن الضروري أن أحضر وأسمعها، حاولت «الفلفصة» دون جدوى فطلبت منها أن تمهلني يومين ثم تتصل بي، وهممت بمكالمة «عماد» وإبلاغه بمضمون المكالمة ومحاولة معرفة أسباب غضبها منه، لكني تراجعت بسرعة، فـ«عماد» هذا لا يستر، سيتصل بها على الفور ويعاتبها بغلظة وقد يتطاول عليها، بخلاف أن «كارولين» ستأخذ عني فكرة «زي الزفت»، كما أن فكرة اللقاء مع «كارولين» في مكان عام دون أن يعلم «عماد»، فكرة مجنونة لأني أدرى الناس به، أداة التفكير المنطقي معطلة عنده، ولو رآنا ستحدث مصيبة لأنه قد لا يظن أننا مجتمعان بخصوصه وربما يعتقد أننا على علاقة وسيخرج أوسخ ما فيه قبل أن ينتبه إلى الحقائق، لذا عزمت على الاعتذار لها بأي طريقة عند اتصالها التالي، لكن عندما أتاني صوتها هذه المرة ضعيفًا واهنًا وكأنها استشعرت

أني سـأرفض، وافقت على لقائها، وأخبرتها بمخاوفي من أن يرانا «عماد»، فسـكتت لحظـات ثم قالـت إن أفضل وقت للقـاء هو عند اجتمـاع الضباط الكبـار الدوري فـي وزارة الداخلية، لأن «عماد» يحـرص ويلتزم بحضوره ويعد العدة له من قبلها بأيام، كما أن أقل اجتماع يستغرق من ست إلى سبع ساعات، وبذلك نضمن أنه بالقطع لن يرانا، ثم اختارت مكانًا يجاور محلها حتى يكون من الطبيعي في حال تعرف أحد زملاء «عماد» علينا مصادفة في الشـارع أو المحـل أن أقول إنها لمحتنـي أمر بجوار المحـل فعزمتني، وقد التقينا اليوم بناء على أجندة عمل «عماد» وشـكت لي كالمعتاد من تصرفاته وعنفه الذي كلما حاول إخفاءه يظهر بقوة عند أقل موقف يسـتدعي العنف، وأخبرتني بأنه مرَّ عليها في المحل منذ فترة بعيدة وكانت تواجه مشكلة عادية مع أحد الموزعين هي مجرد خلاف بسـيط حول أسـعار بعض الأثاث بينها وبيـن أحد الموزعين، وتدخل «عماد» وزجر الرجـل بقوة فرد الرجل الذي لا يعرفه ولا يعرف مهنته بحدة على «عماد»، وتدخلت «كارولين» وانتحت بـ«عماد» وطلبت منه عدم التدخل فامتثل واعتذر لها وبرر تدخله بالخوف عليهـا، ثم مرت الأيام واكتشـفت «كارولـيـن» أن «عماد» التقط رقم سـيارة الموزع الذي اشـتبك معه، ثم عـرف كل التفاصيل المتعلقة بالرجل، وتفرغ له حتى لم يبقَ شـيء يتعلق بهذا الرجل لـم يتعرض لأذية «عماد»، بداية من سحب رخصته ورخصة سيارته في كل نتوء أو زاوية بمنطقة الجيزة، وكذلك إغراقـه بمخالفات ليسـت لها حصر خاصة بالـوزن والبروز غير المصرح به للسـيارة، أو خاصـة بالأمـن الصناعي وصـولًا إلى وجود أكثر من شـخص فـي كابينة السـيارة، في بداية الأمر لم يعرف المـوزع من أين تأتيه المصائب ولا شـك أنه مرصود، ثم غير سـائق السـيارة لكن اسـتيقافها وتفتيشها جزءًا

جـزءًا لـم يتوقف، إلى هنا وكان الأمر يمكن أن يمر دون أن تعلم «كارولين» أو الموزع وينتهي الأمر، لكن «عماد» ليس من النوعية التي تتسلل وتضرب وتختفي دون أن يحدد أحد ملامحها، هذا لا يتفق مع طبيعته الاستعراضية، فـي أحد الكمائن تم تفتيش السـيارة وسـائقها والموزع بدقـة مبالغ فيها، ثم تمكنـت قـوة الكمين من ضبط السـائق وفـي حوزته علبة سـجائر بها ثلاث سـجائر مخلوطة بنبات الحشـيش، أما الموزع فقد ضُبط معه دفتر ورق بفرة ادعـى عند سـؤاله أنـه ينظف به زجـاج نظارته، عقب ذلك تـم حجزهما في قسـم الطالبية مع عمل محضر محكم ليكون في اسـتقبالهما في مقر النيابة، وكما أوصى «عماد» أول شـيء فعله أفراد الكمين بعد اسـتيقاف السيارة هو سـحب موبايلاتهما حتى لا يتمكنا من الاتصال بأي شخص ذي نفوذ، وفي قسـم الطالبية كان «عماد» قد جهز لهما حفلة استقبال دون أن يظهر بالطبع، والحفلـة كانـت فـي غرفـة الحجز، وكمـا أوصـت التعليمات التي سـردها الصـول علـى المحتجزين فـي الحجز بأن يتم الضرب بقسـوة مـع محاولة تجنـب أن تظهر علامات دامية على جسـد الضحيتين، وأن يتم الضرب بعد أن يفتعـل المحتجزون خناقة عقب دخولهمـا غرفة الحجز بفترة كافية حتى لا يبدو الأمر وكأنه مكيدة مدبرة، وأن يتم الأمر ليلًا في الفترة التي يقل فيها تواجـد الأفراد المدنيين الذين يأتون إما للزيارة أو لاسـتيفاء بعض الأوراق الحكوميـة، وتـم الأمر كما خطط لـه «عماد» بالضبط، ونـال الاثنان «علقة» مـوت كان للمـوزع النصيب الأكبر منها طبقًا للخطة، وبعد الإشـارة المتفق عليها بين الضابط النوبتجي والصول بأن الضحيتين قد نالا عقابهما، اقتحم الضابط ومعه بعض العسـاكر غرفـة الحجز رافعين القايـش وعصا التأديب وداروا بهـا ضربًـا على كل مَـن بالغرفة حتى تهـدأ الخناقة، ثـم أمر الضابط

عساكره بحمل الضحيتين إلى غرفته، وهناك تم عمل بعض الإسعافات الأولية لهما وتضميد جراحهما، وأبدى الضابط تعاطفًا شديدًا معهما وقرر ألا يبيتا في غرفة الحجز، وسمح لهما بالمبيت في غرفته، ولما أحس الموزع بطيبة قلب الضابط أعاد سرد قصة القبض عليه وتشكك في أمين الشرطة الذي كتب المحضر وقال إنه أحس أن الأمين يورطه في المحضر لأنه لم يسمح لهما بالاطلاع عليه وأجبرهما على التوقيع، أظهر الضابط أسفًا شديدًا لأنه ليس بمقدوره تعديل المحضر بعد أن وقَّع عليه المأمور وانصرف، طلب الموزع طلبًا آخر وهو تمكينه من الاتصال بأحد أفراد أسرته أو بأحد المحامين، فكر الضابط قليلًا ثم وعد الموزع بأنه سيمكنه من الاتصال بعد منتصف الليل، ثم غمز له وهو يومئ بأن هناك مخبرين يمكن أن يشوا به للمأمور، لذا يرى أن يؤجل ذلك قليلًا خاصة أن الهواتف المحرزة من أفراد الكمين لم تأتِ مع بقية الأحراز حتى الآن، سكت الموزع وهو لا يدري بمَن «اصطبح» في هذا اليوم وكان له هذا التأثير «الباتع»؟

إلى هنا كنت معجبًا مع كثير من التحفظ بالفكرة التي دبرها «عماد» لهذا الموزع، وأنتظر أن يتدخل بتليفون منه في النهاية ويتم الإفراج عن الرجلين، لكن «عماد صدقي» كما أعرفه لم يفعل ذلك، بل كانت له خطة إضافية، عند منتصف الليل اقتحم ببدلته الرسمية ومعه عدد من مساعديه القسم، على أنهم فرقة من الداخلية للتفتيش على الأقسام، تحفظ «عماد» على الدفاتر التي في حوزة الضابط النوبتجي، ثم أمره بفتح غرفة الحجز لتفتيشها وأمر أحد مساعديه بالتفتيش على دورات المياه والبوفيه، وخرج من غرفة الضابط النوبتجي دون أن يلقي نظرة إلى الرجلين الموجودين بالغرفة، بعد قليل عاد

«عماد» وصوت سبابه ولعناته يسبقه، وأمر الصول بفتح الدفتر وظل يمليه أسماء أشخاص محتجزين ويعطي تفاصيل بإصابتهم، وبين الحين والآخر ينظر تجاه الضابط النوبتجي ويتوعده هو والمأمور بنقلهما إلى الصعيد، لأن هذا ليس قسمًا بل سلخانة، كان الموزع والسائق قد انتبها إلى أن هناك قيادة شريفة من الشرطة تفتش عن المخالفات.. زغد السائق الموزع كي يتقدم بالشكوى إلى الضابط الكبير، قال الموزع بصوتٍ واهن: «لو سمحت»، نظر إليه «عماد» نظرة عابرة ثم شخط فيه ليسكت وواصل إملاء الصول بالمخالفات، عند المرة الثانية التي استنجد به الموزع رد «عماد» بغضب أشد وتوجَّه إلى المتكلم، وهنا تأمل «عماد» الإصابات التي بوجه الرجلين وأمر الصول بأن يأتي بالدفتر إلى حيث يجلسان وواصل تهديد الضابط النوبتجي وهو يكتب اسم الرجلين وبيان إصابتهما، ثم افتعل «عماد» أنه يجهد ذهنه لتذكر الرجل، ثم بدا عليه أنه تذكره فعلًا، وسأل الرجل هل التقيا من قبل؟ لم يتعرف عليه الرجل لكن «عماد» ظل يستدرجه عن الأماكن التي يتردد عليها حتى أوصله إلى مكان اللقاء وأسبابه، بعد أن تذكر الرجل.. كل آماله في الخروج تبددت، لكن «عماد» بنبل سأله عن سبب احتجازه، وشخط في الضابط النوبتجي لكي يحضر له المحضر، واستفسر من السائق بلطف هل كان معه حشيش فعلًا بخلاف السجائر الثلاث، أقسم السائق ونفى بشدة، طلب منه «عماد» أن يعده بالتوقف عن تدخين الحشيش، فوعده الرجل، وعلق «عماد» على اعتبار ورق البفرة حرزًا بأن هذه سخافة من أفراد الكمين، ثم اتصل بالمأمور وصرخ فيه بصوتٍ مدوٍّ وقال إنه سيقطع هذا المحضر التافه، ثم استفسر من الموزع عن مكان الكمين بالضبط وأجرى

بعـض الاتصالات، تمكن مـن خلالها من الاتصال بضابـط الكمين ووبخه بشدة، ثم أمر الضابط النوبتجي بفك الأحراز وتسليمها إلى الموزع والسائق واعتذر لهما وصرفهما.

أدرك «عمـاد صدقـي» ثـأره بالكامل ولـم ينتبه إلى التوابـع، فور خروج الموزع والسـائق ولعـدة أيام بعدهـا كان الضابط الكبير «عمـاد» يمثل لهما مـلاكًا للرحمـة وأحـد الضبـاط النبلاء، ثـم بدأ الموزع يتشـكك فـي وقائع القبض عليه، وداخلته الحيرة هل كان القبض عليهما في الكمين مقصودًا أو عفويًا، وعندما بدأ يراجع الأمر بداية من واقعة احتكاكه بـ «عماد» في محل «كارولين» والمصائب التي توالت عليه وكلها أمنية، أدرك بلا تردد أن «عماد» هو السـبب فيها، ومن تلك اللحظة توالت النتائج السـلبية على «كارولين»، فالظهـور العلني لـ «عماد» بقصد توصيل رسـالة للمتعاملين مع «كارولين» بأنهـا تحـت حمايته شـخصيًا فيمنع الأذى عنهـا، أدى إلى أذيتها شـخصيًا، كالعـادة «عمـاد» يعشـق أن يكون الـدب الذي يقتـل صاحبه، بعد أن أشـاع المـوزع هذه الحكاية بدأ كثير مـن الموزعين والمندوبين يهابون «كارولين» ويخافون منها، ولكي يتجنبوا الشر، بدأوا يعتذرون عن عدم الحضور إليها، أو تلبية طلباتها بحجج مختلفة وتبريرات عبيطة، وقد كلفها ذلك كثيرًا لأنها اضطرت لاستئجار شـاحنات وسـيارات نقل لإحضار بضائعها، وواجهت كل المشـاكل التي نشأت عن ذلك سواء ارتفاع الكلفة أو التأخير أو تعرض البضاعة للتهشـيم والكسر. وعندما علمت «كارولين» بما فعله «عماد» جن جنونهـا ووبخته بعنف وطلبت منه أن يبتعـد عنها على الفور وهددته بأنه لو حاول التعرض لها سـتتجاهل العِشرة والعيش والملح وتشكوه مباشرة إلى رؤسائه، حاول «عماد» الدفاع عن نفسه بأنه من فرط حبه لها تصرف بتلقائية

بقصد أن لا يفكر أي مخلوق في مضايقتها، لكن «كارولين» صممت على الابتعاد عنه وعلى إغلاق صفحته نهائيًا وهذا ما أطاح بعقله وجعله يدبر محاولته لقتلها، صعقت عندما نطقت «كارولين» بهذه الكلمة، فأقسمت لي بالمسيح الحي إنها وهي تقود سيارتها في الطريق الدائري أحست بأن هناك سيارة تطاردها فأسرعت بالهرب منها واصطدمت بعمود إنارة هشَّم جانب سيارتها الأيمن وكاد يقضي عليها، حاولت إفهامها أن «عماد» به من المساوئ الكثير لكن ليس إلى حد القتل والاغتيال وخصوصًا «كارولين» التي يتمنى الارتباط بها ويحلم بذلك، لكن «كارولين» ظلت تؤكد لي صحة اتهامها وتدلل عليه بأشياء انتقامية حدثها عنها «عماد» في بداية تعارفهما معتقدًا أن ذلك سيثير إعجابها، سألتها في محاولة للفهم لماذا بما أنها متيقنة من أن «عماد» هو الذي دبَّر لها حادثة السيارة لم تذهب لتشكوه كما سبق وهددته؟ سكتت قليلًا ثم أخبرتني بأنها كانت فعلًا على وشك الذهاب إلى الوزارة ومقابلة الوزير بأي طريقة ممكنة، لكن أدركت أنها لا تملك أدلة أو قرائن تدين «عماد»، وحذرها محاميها من خطورة اتخاذها هذه الخطوة لأن الوزارة ستهمل شكواها وتعتبرها من الشكاوى الكيدية التي تنهال على الوزارة، وتتهم ضباطها بمزاعم غير حقيقية وتكون في الأغلب بسبب علاقات عاطفية أو مشاكل إرث، وأكد لها المحامي أنه في الغالب سيتم حفظ الشكوى، لكن الأمر لن يتوقف عند ذلك، لأن شخصًا مثل «عماد» لن يترك ثأره لو كان مظلومًا أو مرتكبًا للواقعة، وبعد أن أنهى المحامي كلامه طلب منها الاستعانة بأحد أصدقائه كي يضغط عليه ويجعله يتوقف عن هذه المحاولات ويصرف النظر عنها وعن فكرة الارتباط بها من أساسها، وكنت أنا هذا الشخص الذي توهمت «كارولين» أني قادر على ردعه أو

إعادته إلى صوابه، قلت لها إني سأبذل كل جهدي للوصول إلى الحقيقة وسأفعل ما بوسعي كي أجعله يهدأ من ناحيتها ويصرف النظر عنها، هزت «كارولين» رأسها باستكانة ولم تتكلم، وجعلني ذلك أحس بترددها وبأنها في دخيلة نفسها تدرك أن «عماد» بريء من هذه المحاولة إن كانت هناك محاولة أصلًا، أرادت أن تنصرف فاستوقفتها قليلًا وبدأت ألقي عليها أسئلة راودتني وأحسست بأني في حاجة إلى سماع أجوبتها منها، سألتها هل تحب «عماد»؟ فحدقت في وجهي مندهشة وأجابت: «طبعا لا حب إيه يا أستاذ أحمد.. أنا بعد وفاة زوجي باسم ماعدتش بأفكر في صنف الرجالة أصلًا».. سألتها عن طبيعة علاقتها بـ «عماد» طالما أن نهاية العلاقة ليست الزواج، أجابتني بصوتٍ هامسٍ كأنها تفهمني أشياء قد غابت عني: «يا أستاذ أحمد لفترة طويلة كنت باتضايق من مطارداته ليا وكنت باغلس عليه قوي وكان بيستحمل وده كان بيعجبني فيه.. وبعدين فكرت إنه بيعمل كده عشان عايزني أبقى رفيقته أو صاحبته وقلت حاسود عيشته لو كانت دي نظرته ليا.. وعملتله اختبارات لقيته مركز على الجواز مني، وبصراحة اتعاطفت معاه لما حكالي قصة زواجه بسوزي اللي ورته سنين سودة وفي الآخر غيرت الملة واتجوزت واحد تاني وهاجرت كندا.. باختصار دي حكايتي مع عماد وما انكرش إني في الفترة الأخيرة قربت منه قوي.. وحسيت ساعات إني ممكن أقبل أتجوزه.. لكن كنت باتراجع بسرعة وأنا خايفة منه قوي»، عن طبيعة هذا الخوف سألتها فسرحت بنظرها ثم قالت: «مش عارفة بصراحة.. يمكن من عنفه أو من سطوة وظيفته أو لأني ماعرفش حاجة تانية عنه بخلاف اللي قلهولي عن نفسه.. واللي يحتمل الصدق والكذب»، قلت لها مباشرة هل لو تأكدت من أن «عماد» لم يتسبب لها في حادث السيارة وتيقنت من

صدق حبه ألا أبذل جهدًا في سبيل التوفيق بينهما، رفعت يدها في وجهي كأنها تناشدني ألا أتحرك في هذا الاتجاه ثم تراجعت يدها مرة أخرى. وسألتني بعد تفكير هل أنا على علم بأن لديها طفلة عمرها عشر سنوات تدرس بمدرسة «الميردي دييه» في الصف الخامس؟ نفيت برأسي علمي بهذه المعلومة، قالت إنها لا تعتقد أنها ستكون قادرة يومًا على مواجهة ابنتها «إيفون» بأنها تحب شخصًا وستتزوجه وسيقيم معهما في البيت بدلًا من والدها «باسم» الذي صعد.. ثم أضافت بأسى: «إن إيفون تكبر بسرعة وتزداد جمالًا وأنوثة وستدخل عن قريب في مرحلة المراهقة، وظروف عملي تحول بيني وبين التفرغ الكامل لها، لذا أضعها تحت رعاية أختي الكبرى التي أنهكها المرض، والآن أصبحت أدرك أهمية وجود رجل في حياتي يساعدني في عملي وفي الاهتمام بإيفون، رجل حقيقي قوي ومليء بالحنان يعوضنا عن سنوات ضائعة كان همي خلالها تأمين الحياة المعيشية اللائقة لإيفون وتنمية الإرث المنقول الذي ورثته عن أبيها والمتمثل في بيت صغير في السكاكيني ومحل الأثاث بالجيزة، صدقني يا أستاذ أحمد أصبحت أخاف على إيفون من عماد.. أخاف عليها من بطشه وعنفه وغلظته تجاهها أو تجاه أشخاص مرتبطين بها سواء كانوا زملاء دراسة أو أولياء أمور أو طاقم تدريس.. يكفي أني قزمت مخاوفي بأن يدخل رجل غريب على بيتي وتنمو البنت وتكتمل أنوثتها أمام ناظريه، أقنعت نفسي بأن عماد مختلف، لم يحاول ولو من بعيد الالتفاف حولي عن طريق غير الزواج، ولم يلمح أو يتلمس أو يحوم حول فكرة أن نصير في علاقة أو رفقة، أختي الكبيرة فقط التي رأته بضع مرات قليلة كانت تقف ضد فكرة الارتباط بعماد أو أي رجل آخر خوفًا على إيفون، وكانت تؤجج صدري وتدفعني لأن أهرب

من مطارداته وأعامله بقسوة، وكنت أجد نفسي منساقة إليه مرة أخرى لأنه يتحملني ولم ييأس مني ويصر على الارتباط بي، لكني يا أستاذ بعد مصيبته الأخيرة لا أريد أن أرى وجهه مرة أخرى.. لا أريد أن أسمع صوته، لا أريد أن ألمحه يراقبني من على البعد وهو داخل سيارته الشخصية أو الحكومية، من فضلك اجعله يحل عني، بعسسه ومخبريه وعساكره وضباطه، وقل له إنه لو شاهد محلي يحترق وأنا بداخله وكان هو الشخص الوحيد في الشارع فعليه أن يدير نفسه ويبتعد دون أن يتصل بنجدة أو إسعاف ودون أن يلقي خلفه بنظرة وداع»، أجهشت «كارولين» بالبكاء وأنا لم أجد ما أقوله غير كلمتين هما: «سأحاول معه».

اتصلت بـ «عماد» كثيرًا فلم يستجب، ثم اتصلت على خطه المباشر بمديريه الأمن فأجابني الأمين بأنه في مأمورية سرية وأخبرني بأنه سيترك رسالة على مكتبه تفيد بأني اتصلت، ظللت أفكر فيه وفي وساخته وأتعجب، أحيانًا قد يفعل الشخص منَّا مصيبة أو قذارة أو بلوة وتكون نتيجتها وبالًا عليه فيظل طوال عمره حريصًا على عدم فعلها مرة أخرى، لكن «عماد» نسيج مختلف عن باقي البشر، ها هو يكرر وساخته لثالث مرة بنفس التفاصيل كأنه استنسخها بشبلونة، أحب «كارولين» وأراد أن يقوي مركزه عندها ويريها أن الارتباط به سيحميها ويحمي أعمالها لذا سلط عليها رجال الحي، ثم تدخل كالرجل الوطواط لينقذها، فاكتشفت لعبته وظلت تفسد كل محاولاته لترضيتها أو الاقتراب منها، ثم فعل المستحيل لكي تعفو عنه مستخدمًا الوساطات والخزعبلات والزن على الآذان حتى بدأت ترضى عنه، فكرر نفس الغلطة ودبر مكيدة لأحد عملائها وأفسد علاقتها التجارية حتى طردته من حياتها وبدأت تشكك في أنه يريد أن يرهبها أو

يقتلها واتهمته بالتسبب في الحادثة التي حدثت لها، ويعيدني ذلك إلى أوائل معرفتي به، وبداية اطمئنانه لي وسهراتنا المشتركة مرة أو مرتين في الأسبوع بفنادق الهرم وملاهيها التي كانت تحت إمرته وتفيض بالترحيب به وبصحبتنا سواء من زملائه أو المهندسين المعاونين لي حيث كنت أيامها أقوم بتنفيذ عملية لإنشاء وحدات سكنية منخفضة التكاليف بمنطقتي زنين والشوربجي في منطقة فيصل بالهرم، وكان «عماد» هو ضابط مباحث قسم هذه المنطقة، واحتككت به وتعرفت عليه في تلك الفترة، كنت قد طلقت «جليلة» منذ أكثر من عامين وكانت زوجته قد غيرت ملتها وخلعت منه وسافرت، اقتربنا من بعض لرسونا على نفس شاطئ الأحزان، كان «عماد» في قمة غيظه واكتئابه من الزوجة التي عرفت شخصًا آخر وهي متزوجة به، وجعلته كالأبله الذي لا يعلم أن أشياء تدور خلف ظهره، صدقته أيامها لأنه لم يكن بيننا تاريخ مشترك، صدقت أنه لم يمد لها يد الأذى وكان كريمًا ومحبًّا لها وأنها خانته من الباب للطاق.. لكنه الآن لو حكى لي نفس الحكاية مرة أخرى سأدرك بالطبع أنه بطش بها وجعلها تكره حياتها ولا تجد نجاة إلا بالموت أو الفرار منه، المهم في إحدى هذه السهرات، وكان السكر قد تمكن منه تمامًا من جراء تذكره للزوجة الهاربة، ولكمية الكئوس الكثيرة التي انهالت علينا إكرامية له ولحسن حظي أني توقفت عند الكأس الثالثة لحدوث بعض الارتباكات في معدتي، تذكر «عماد» أول قصة حب في حياته، وكانت فتاة جميلة ومن عائلة شهيرة جدًّا في المحافظة التي عمل فيها في أول حياته الوظيفية، كانت الفتاة ملتزمة وخلوقًا فلم تمكن أحدًا من التباسط معها، حاول الطبيب ووكيل النيابة وبعض زملائه في القسم الأقدم منه قليلًا التقرب منها وفشلوا، وكانوا يتحدثون كثيرًا عن خيباتهم،

بالحس المباحثي الخائب الذي يلازمه دائمًا، اكتشف مرة وهو يتلصص عليها وهي بداخل الفيلا بدعوى محافظته على أمن المنطقة، أنها تملك سيارة عليها أرقام (Trib ticket). أي سمح لها بالدخول إلى مصر دون جمرك لمدة محددة ثم الخروج، تقصى «عماد» عن تلك السيارة ووجد أنها تجاوزت المدة المسموح لها بالتواجد داخل مصر، أجرى «عماد» اتصالاته مع زملائه في قسم المرور ودبر كبسة على الفيلا بناءً على البلاغ المقدم من مجهول، وتم اقتحام الفيلا في منظر مهين وعمل محضرًا للفتاة وسحب السيارة، ثم ظهر «عماد» المخلص وافتعل الأسى والتأثر، ثم أكد لها أنه سيسوي كل الأمور، وسواها فعلًا وبناءً عليه تم الترحيب بـ «عماد» وسط العائلة الأصيلة المتحفظة واستطاع بسهولة اقتحام قلب الفتاة التي كانت محدودة التجارب، لكن حظ «عماد» الأسود كان يترصده، فعندما صفت الدنيا له نسي جميل زملائه عليه وبدأ يعاملهم بتعالٍ، ثم تورط في «الخناق» مع ضابط زميل من الذين خدموه في موضوع الـ (Trib ticket)، وذهب هذا الزميل بوثائقه ومستنداته إلى عائلة الفتاة وأطلعهم على ما فعله «عماد» كاملًا، وتم طرد «عماد» قبل أن يتفق على موعد نصف الإكليل الذي سيخطب فيه الفتاة، وظل نادمًا على هذه الفرصة التي ضاعت إلى الآن، فكلما ترنح رأسه تذكرها وحكاها لي بكل التفاصيل التي لم تغب عن ذهنه برغم السنوات التي مرت على هذا الحادث.

يكرر «عماد» الوساخة للمرة الثالثة، وقد تكون هناك مرات أكثر لم أعاصرها أو يحدثني بشأنها.. بت لا أدري هل الوساخة جين من جينات «عماد» أم هي مادة درسها وتعلمها وتفوق فيها في الكلية؟ كلمني «عماد» كثيرًا عن شعوره بالوحدة وبالحاجة إلى الدفء الإنساني وأن هذا الشعور

بدأ يتعاظم مع إحساسه بأن العمر يتناقص، وبرغبته في الزواج حتى على سبيل الونس، واعترف لي بأن الطعنة التي باغتته من زوجته السابقة جعلته يكره النساء لفترة طويلة، ثم بدأ يتعامل معهن على مستوى الاحتياج فقط وفور أن يقضي وطره منهن كان يزهد فيهن، لكن رغبته بـ «كارولين» وإن كانت قد بدأت وفي نيته ملاعبتها والتودد إليها وإمالة رأسها حتى تصير محظية أو رفيقة إلا أنه بعد فترة بسيطة من الشد والجذب اكتشف صلاحيتها للزواج منه، فهي قوية وشجاعة وأمينة وجميلة وتصرف معها على هذا الأساس.. كان هذا ملخص ما قاله «عماد» لي وهو يشرح لي فكرة الارتباط بـ «كارولين»، وإن الأمر حقيقي هذه المرة فهو لا يحاصرها من أجل رغبة جنسيه أو ارتباط عاطفي لفترة محددة، بل يريدها زوجة أبدية.

«يخرب بيتك يا عماد».. تتصرف مع «كارولين» بكل هذه الحماقات وأنت تحبها وتريد الزواج منها؟! وماذا كنت ستفعل بها إن كنت تريد قضاء ليلة واحدة معها أو تريدها عشيقة لفترة أطول.. ثم رفضتك؟ من المؤكد أنك كنت ستقتحم بيتها بمدرعة وتجعل أعلاه أسفله!

جيهان العرابي

اكتشفت فور خروجي أنني قضيت في جاليري «شذى» وقتًا أكثر من عدد المرات التي اتصلت فيها «بسمة» بينما جهازي على الوضع الصامت، كنت قد أخبرتها أن لديَّ معاينة صغيرة وسأنتهي منها على الأغلب الساعة الخامسة، وبداية من الخامسة والربع توالت اتصالاتها حتى هذه اللحظة، بادرت بالاتصال بها لأعرف موقعها إن كانت لا تزال بانتظاري ولم يشغلها شاغل، أجابتني بحدة وحماقة مستندة إلى أني لا زلت «أحسس» عليها منذ خلافنا الأخير، وعندما لم تجد مني إلا الصمت، علا صوتها أكثر حتى خيل إليَّ أنه عبر صالون سيارتي واتحد مع ضجيج العابرين، كانت تلومني لأني تركتها أكثر من ساعتين «متلقحة» في وسط البلد، ولم أهتم حتى بالرد عليها مرة واحدة أخبرها فيها بأني سأتأخر، وأضافت أنها لأجل خاطر «رنا» اضطرت إلى الانتظار، لم أعبأ بسخافتها وطلبت منها بحدة مماثلة أن تخبرني باسم المكان الذي تنتظرني فيه، أخبرتني باسمه فغيرت وجهتي إليه.

وجدتها في ركن هادئ اختارته بعناية واللاب على حجرها والهيدفون يلف رأسها والمايك بذراعه القصير يتلقى همساتها، كان عامل الاستقبال يطاردني بإلحاح مقترحًا أماكن للجلوس، وعندما استقرت عيناي على موقعها وأشرت إليه انسحب، وقفت أمامها لحظات حتى انتبهت إلى ظلي

فعجلت بإمالة شاشة اللاب، ثم أشارت إلى كرسي تدعوني للجلوس عليه، وضعت حقيبتي على الكرسي المشار إليه وجلست قبالتها بالضبط في إعلان ساخر أنه لا يهمني معرفة هوية مَن تخاطبه أو موضوع المخاطبة، وكانت هي في تلك الأثناء قد تحول همسها إلى فحيح مشوش، ثم أغلقت جهاز اللاب وانتبهت إلى جلستي فقالت باستنكار: «إيه اللي مقعدك بعيد كده؟ تعالى جمبي.. وبعدين دي مكالمة مع عميلة مهمة صفحة المعجبين بيها عدت العشر آلاف وكنت باقنعها بالمنتج الجديد بتاع شركتنا عشان تروجهولنا»، حاولت أن أغلف استياء وجهي بطبقة مجاملة ويبدو أنني فشلت، لأنها أضافت: «وعلى فكرة ده مش خيري.. أنا مش مهووسة بيه للدرجة اللي قلتيها لرنا.. أنا بحبه زي أي واحدة طبيعية ما بتحب»، صدمتني جملتها ولم أدرِ ما قصدها بالضبط لكني تجاوزتها بسرعة وانتقلت إلى «رنا» التي جاء تقاربها من «بسمة» على حسابي، وها هي تنقل عني أشياء قلتها بالفعل لكنها منزوعة من سياقها، وبدأت أستشعر قلقًا ضاريًا بأنني بصدد الابتعاد عن أعز صديقاتي، لذا لزمت الصمت تمامًا، ولعل صمتي هذا أربك «بسمة» قليلًا لأنها همت بطلب طعام لي بدعوى أننا سنقضي وقتًا طويلًا عند «رنا»، التي ستكون منشغلة عنَّا بعدما تسلمت كل منقولاتها المذكورة في القائمة، والذي أوصلها طليقها «فؤاد» بنفسه إلى منزل والدها في شارع 9 بالمعادي محمولة على اثنتين من عربات الكارو التي يقود كل واحدة منها حمار أجرب، يسوس قياده عربجي بملابس وسخة و«مرقعة»، ويتمخطر «فؤاد» في سيارته الشروكي أمام هذا الكول الاستعراضي، ضحكت بشدة من هذا المشهد الأسطوري الذي صورته لي «بسمة» وسألتها بجدية: «إنتي بتتكلمي جد يا بسمة؟ هي وصلت الأمور بينهم لكده؟!»، قالت «بسمة» وهي تميل

برأسـها ناحيتي كأنها تنقل لي أسـرارًا: «أيوه وكتاب الله يا جيجي.. أنا كنت هناك عشان رنا طلبت مني أكون موجودة جمبها لحسن فؤاد يعند ومايبعتش العفـش وييجي يقـل أدبه عليهم.. لكن في الميعاد بالظبط لقيناه جه بموكب الخديـوي ده.. بصراحة أونكل محمد كان هيطب سـاكت ويقع من طوله.. لكنه لحق نفسـه واتصرف بسـرعة»، قاطعتها بدهشـة: «اتصـرف! عمل إيه بالظبط؟»، ضحكت وقالـت: «نده مرات البواب وبناتها وطلب منهم يملوا الشـارع زغاريد وهم بينزلوا العفش ويطلعوه فوق»، أعادت «بسمة» سؤالي عـن الطعام الذي سـآكله، قلت لها ضاحكة: «أنا مش هاكل حاجة يا بسـمة أنا نفسـي اتسدت خلاص.. بينا نشوف المسـكينة رنا»، أصرت أن تضيفني وطلبت لي عصير ليمون فوافقت، ثم تباسـطت معـي أكثر في محاولة لنفي أنهـا كانت تكلـم «خيري» عند دخولي لأننـي وجدتها تقـول دون داعٍ: «أنا كنت مع خيري من السـاعة تلاتة رحنا لدكتور صاحبه عشان يكتبلي روشتة إني كنت عيانة وباتعالج من ارتباكات في المعدة واحتجت أربع أيام راحة.. كنت محتاجة أقدم الروشـتة والشـهادة دي للشركة عندي عشان تعتبر الأيام اللـي غبتها إجـازة مرضية مش غياب بـدون إذن، وبعدين خيري عزمني في مطعـم هايل وكانت نفسـي جيباني آكل موزة مشـوية ولا حتـة فلتو أرم بيها جسـمي العيان»، ثم ضحكت بشـدة: «بس لحظي الاسود اكتشفنا واحنا في المطعـم إن النهـارده 26 أبريل وإن غرفة المنشـآت السـياحية ألزمت جميع المطاعم والمنشـآت السـياحية بمقاطعة اللحوم النهارده لمواجهة الارتفاع الجنونـي في أسـعارها.. خيري مـا كانش فارق معاه ياكل سـمك أو فراخ.. وأنا راسي وألف سـيف آكل لحمة.. قاللي اتصرف في معاهم.. كلمت المدير علـى انفراد.. قلـق مني وافتكر إني مسـئولة في السـياحة وباعملـه كمين..

رجعت محبطة وموافقتش خيري اللي قاللي نروح مطاعم تانية نجرب وأكيد هتلاقي أصحاب مطاعم رامية جتتها ومبيهمهاش القوانين.. حسيت إني لو طاوعت خيري حتأخر عليكي.. طلبت طبق كبير من السلطة اليوناني ومارضتش آكل سمك وجمبري زي خيري كأني باعند مع نفسي».

أحسست بها تلومني للمرة الثانية على تأخري عن الميعاد فاعتذرت بخشونة لكن «بسمة» ضحكت وهي تقول: «ما أقصدش والله يا جيجي أنا لقيت عندي رغبة أحكيلك عن يوم جميل قضيته».. تمنيت لها السعادة فقبلتني بحرارة ثم نهضنا متجهين إلى المعادي لكي نشاطر «رنا» الأحزان ونلقي بنظرة على أطلال حياتها الزوجية.

أحمد الضوي

مرت فترة كبيرة لم أسمع فيها صوتًا لـ «شريف» أو كلبه، والباب ما زال مغلقًا بالقفل النحاسي الكبير الذي اشترته صديقته «شويكار»، فيما أتذكر أنه أخبرني بنيته الإقامة في الفيوم لمدة أسبوعين أو ثلاثة مع «شويكار» وزوجها ودعاني لمصاحبتهم، وقد مرَّ على هذا الكلام حوالي شهر ونصف الشهر إن لم تخني التواريخ، ووسائل اتصالي به موصولة ومقطوعة في آنٍ واحد، فهو لا يرد على الموبايل كما عهدته معي شخصيًا وكما شهدت «شويكار» ذات مرة وهي مذعورة وثائرة توبخه بطريقة السيدات الأرستقراط اللواتي يخشين من أن يتفوهن بتعبيرات غير لائقة قد يسمعها الجيران، وكانت تعاتبه بغلظة وهي تبذل جهدًا كي لا يعلو تون صوتها المحمل بتعبيرات حادة وقلقة وقاسية، والتي تنبئ عن درجة الانزعاج القصوى لفشلها في التواصل معه هاتفيًا لأنه أهمل إعادة شحن الهاتف، ولأكثر من يومين يعطيها هاتفه إشارة خارج نطاق الخدمة، ولأنها أيضًا فشلت في الاطمئنان عليه من خلالي لأني كنت بعيدًا عن المنزل، وحين داهمني صوتها المرتجف الذي تسرب من الهاتف، تركت ما أنا منشغل به وهرعت تجاه المنزل لأجدها تسبقني ببضع خطوات، بيدٍ مرتعشة كانت تحاول فتح الباب وتفشل مرة في تصويب المفتاح تجاه الهدف ومرة أخرى في إدارة المفتاح، أزحت يدها برفق وفتحت لها الباب فاندفعت إلى الداخل، لحقت بها وهي تؤنبه

بينما هو مستلقٍ على سريره يطالع كتاب «بؤس الفلسفة» للفيلسوف «كارل بوب» (الذي كان مغرمًا بقراءته والمجادلة مع أفكاره كما صارحني منذ فترة سابقة)، ثنى الصفحة التي يطالعها ووضع الكتاب بجواره ببلادة، ثم نظر إليها والرضا يملأ وجهه امتنانًا من قلقها عليه، زادت «شويكار» من عنف كلامها حتى أطرق رأسه خجلًا واعتذر بجهله في فهم تكنولوجيا الأجهزة الحديثة، جلست «شويكار» على حافة السرير وبدت غير مصدقة وهي تطلب منه أن يريها جهاز المحمول الميت كما أسمته، دس أصابعه كي يخرجه من وسط كومة الكتب التي تكاد تقاسمه السرير، في الوقت الذي توقف فيه صدرها عن الارتفاع والانخفاض عند الشهيق والزفير.

اليوم حاولت الاتصال به كي أريح ضميري فسمعت نفس الرسالة المسجلة وفقدت الرغبة في الاتصال بـ«شويكار»، فاحتمال أن يكدرني ما ستقوله.. مريض.. أو عاودته النوبات، يكفي أني مطمئن قليلًا إلى أنه على قيد الحياة طبقًا للمثل الإنجليزي (No News good News)، فالأخبار السيئة لا تتوارى بل تداهمك حيثما توجد، وأنا مليء بالزهق وصرت هدفًا لمطاردات لا تخصني؛ «كارولين» التي بدت عند لقائي واثقة جدًّا وحازمة، لم تكف عن الاتصال بي لمعرفة ماذا فعلت في موضوعها، هل سيكف «عماد» عنها أم تصعد الأمور إلى أعلى، وأعلى في كل مرة تعلو أكثر، بدأتها بالتصعيد لوزارة الداخلية، ثم إلى الوزير شخصيًّا، ثم إلى مجلس الوزراء، وأعتقد إن لم يظهر «عماد» قد تصعد الأمور إلى مجلس الأمن ذاته، خلال تلك الفترة اتصل بي «عماد» مرتين وأخبرني بأنه مشغول جدًّا في مهام تتعلق بالوزارة، وعندما ينتهي منها سيقابلني، لم أفاتحه بسبب

اللقاء العاجل لأني متأكد من أنه سيستخف بالموضوع هاتفيًا وقد تستفز ذاته الوارمة فتزداد الأمور سوءًا، كما أنه لم يُبدِ اهتمامًا بالأسباب، أردت أن أكسر الرتابة في حياتي فواظبت لمدة أسبوع على الذهاب إلى شركتي وعدلت بعض التصميمات واقترحت بعض التعديلات على تصميمات سبق قبولها من المهندس الاستشاري، مما أثار حنق المهندس المعماري وحاول إقناعي بأنه ما دام قد قبلها المكتب الاستشاري فلا داعي للتجويد، لكني تركته يثرثر ويحاول جاهدًا إثبات موضوعيته ويخرج ويعود بأوراق وجداول تكلفة، ويستعين بالمحاسب كي يثبت لي أن تعديلاتي حتى لو تمت الموافقة عليها ستخفض من وعاء الربح، أشرت إليهما كي يجلسا، ثم اتصلت بالمكتب الاستشاري وكلمت صاحبه الذي هو في الأصل زميل دفعتي، وتم لي ما أردت وتركت بصمتي على التصميم وخسرت بعض النقود وعوضت بعض غيابي عن الشركة، ثم عاودت الاتصال ببعض زملائي القدامى فاكتشفت أنهم في وديان بعيدة عني.. مَن يلازم زوجته المريضة ومَن يتزوج للمرة الثانية ومَن عاملني بجفاء وعلل ذلك بأني لم أسأل عنه منذ فترة طويلة، بينما هو لم يكف عن الاتصال بي، وضعت الهاتف جانبًا وللمرة العشرين في عمري أقف نفس هذا الموقف وأكتشف أني إنسان بلا سند ولا ظهر، بلا صديق حقيقي، بلا حبيب يقاسمك المشاعر ذاتها وليس حبيبًا مختلقًا تصبغ عليه أوهامك عن الحب عند رضائك عنه وتنفضها بمجرد الغضب منه، هل يعود ذلك لطفولتي التي قضيت معظمها وحيدًا بلا أشقاء، أم لالتصاقي بخالي «حسام» بداية من فترة مراهقتي وانتهاءً برحيله، لقد زاملت أشخاصًا كثيرين في مراحل حياتي المختلفة لكن كان هناك دائمًا حدًّا فاصلًا لا يسمح لهم بالوصول

إلى مرتبة الصداقة، كانوا يتساقطون من حولي وقد لا أتذكرهم، وكنت لا أغفر لهم أية زلات ولو كانت معتادة بين الأصدقاء، كأني لا أحتمل فكرة الصداقة، وكانوا يقولون عني «بِرَّاوي» أو «صعيدي بختم أبوه»، رغم أني كنت أدور في فلك والدي الذي كان قد هجر الصعيد وجودًا ومعنًى وأحوم حول خالي «حسام» الذي استلبته القاهرة تمامًا واعتبرها وطنه، لكن يبدو أن جينات أمي كانت غالبة عندي، التي عاشت في قاهرة تكرهها وتتعامل بحذر بالغ مع أهلها وتظن أنهم يخبئون شياطين وشرورًا خلف عيونهم وبداخل ثغورهم، وأن قلوبهم لا تصفو إلا لأبناء جلدتهم، مع أنها أصلًا من أبناء جلدتهم وقد تزوجها والدي لهذا السبب.

هل أنا في حاجة فعلًا لتغيير نمط حياة عشت في ظلها كل تلك السنوات، هل سأظل أعيش على فتات الصداقات؟ لو كانت هناك صداقة أصلًا.. «عماد» هو أقرب أصدقائي نظريًّا لكن في داخلي أحس بأننا متعلقان ببعض لسبب ما، وعلاقتي بـ «ريم» لا تبدو حقيقية رغم أني منغرز في واقعها القذر ورغم أني أحس أحيانًا أننا نستحق بعضنا ونليق ببعضنا ومآلنا واحد، أما «جيهان» فتمر طيفًا أمامي، لا أدري لمَ تعلقت بها أصلًا وهل ما بيننا - إن كان بيننا شيء - تصور أحادي النظرة ورغبة مصدرها حاجتي الشديدة إلى حبيبة بالمعيار الكلاسيكي، في الحقيقة أنا لا أصلح للاثنتين بقدر ما هما لا تصلحان لي، لكنني مثل راكب قطار وحيد لا وجهة معروفة له يتسلى بعدِّ أعمدة التوصيلات الكهربية ويتمثلها أحيانًا بشرًا تلوح له بالوداع.

تليفونيًّا أخبرتني «ريم» بأنها نجت من حادثة مرور مروعة وأنها تثني ساقها بصعوبة لكنها على العموم بخير، وأضافت أنه لا داعي لزيارتها،

ثم همست وهي تبوح بأنها تفتقدني بشدة وستفي بوعدها قريبًا وترتب لنا رحلة نقضيها بعيدًا عن العيون، أظهرت فرحة واهتمامًا بالتفاصيل لكنها ادعت أنها جهزت لي مفاجآت لا تخطر على البال، ولم تفصح عن شيء، مما جعلني أحس بأنها لم ترتب شيئًا وأن هناك مشاغل أخرى تشغلها عني، سألت عن «ملك» حتى لا أبدو غير مهتم، فقالت إن البنت بدأت تزهق من الحياة في القاهرة وأباها يبذل جهده في الخليج لترتيب أوضاعه حتى يستدعيها، وقد أخبرها منذ أيام هاتفيًا بأن الأمور على وشك أن تستقر.. وبعد أن أنهت «ريم» كلامها سألتني: «أحمد.. هو إنت مضايقك إن ملك لسه ماسافرتش؟»، نفيت بشدة بينما لا تزال نبرات الشك تلازمها..

* * *

شيء طبيعي جدًّا أن يمر الأطفال الصغار الذين يبيعون المناديل الورقية أو يقدمون الزهور أو يتركون قطع الحلوى أو الفول السوداني على المناضد، ثم يعودون ليجمعوه مرة أخرى أو يتلقوا الهبات بدلًا منه، ومن العادي جدًّا أنهم عندما يرون شخصًا بجوار «شخصة»، أو رجلًا بجوار امرأة، أن يقولوا: «إدينا حاجة ربنا يخليهالك.. أو يا رب تتجوزوا»، أو كلامًا من هذا القبيل.. ثم إن هؤلاء أطفال أكبرهم في الثامنة من العمر ولا يستطيعون تمييز المحب من الزوج من الأخ أو الصديق.. وأن الناس الطبيعية تضحك من كلامهم أحيانًا أو تستبشر به أو لا تهتم به البتة..

غير الطبيعي حدث ذات مرة عندما مررت عليها في المقهى ووجدتها بين جوقة الأصدقاء والمحبين، وألقيت عليهم سلامًا ثم جلست بمفردي على مقربة منهم، ثم تركتني أنفث دخان سجائري وألمع حذائي

وأشـرب قهوتـي وصولًا إلـى ندائي على «الجرسـون» لكي يأتي وأحاسـبه وأتخلـص من هـذا الحرج الذي وضعت نفسـي فيه بإرادتـي، والذي يزيده قرفـا تلصصـات أعين مَن يجالسـونها تجاهي وهم يفتعلـون النظر نحو قطٍّ يطـارد قطـة، أو جمرة نار سـقطت مـن راكية الشيشـة، أو لأي سـبب آخر، ويتسـاوى في ذلك الذكور والإناث.. ثم وجدتها تنهض وتجالسني وتسأل عـن أخباري وأبادلها الأسـئلة، وأطلب لها مشـروبًا ترفضه وتعاتبني بخبث لأنـي لـم أجلس معهـم، وأبرر ذلك بـأن الحلقة التـي تحيط بهـا كبيرة جدًّا ولا أعرف أغلب الجالسين.. ثم تهبط علينا الفتاة ذات الثماني سنوات على ما أعتقد، وتناولني كيس مناديل صغير لوثته أصابعها الصغيرة، وأكون في تلك اللحظة قد فككت شفرة «جيهان» وقلت شيئًا طريفًا ضحكت له أو أخبرتها بمعضلـة حدثت لي في العمل أثارت انتباههـا، أو تكون هي المتحدثة بلغو الحديث أو بنفائسـه، فكله سـيان، المهـم أنها تتكلم وأنا أسـتمع.. في تلك اللحظـة تسـتجديني الفتاة الصغيرة وتقول ببراءة وهي تشـير نحو «جيهان»: «ربنـا يخليهالك وتتجوزوا قريب»، ويلجمني القلـق بينما تنتفض «جيهان» وتنهـر الفتـاة بحـدة: «إيه اللـي بتقوليـه ده؟!».. تنتفـض الفتاة من الدهشـة وتنسـحب بسرعة، و«جيهان» ما تزال في مزراب الضيق والغضب تواجهني بنظرة قاسـية وبعتاب شديد: «شـفت آخرة قعدتنا لوحدنا؟ أنا بصراحة مش قادرة أفسر تصرفاتك دي.. عن إذنك أنا راجعة لأصحابي»..

ظللت جالسًا فترة بعدها ولبست الحذاء الذي لبسته بصعوبة بعد تلميعه وعزمت النية على شراء حذاء أوسع منه، ثم أحسست بأن قدمي لا تستطيعان ملامسـة أطرافه من اتسـاعه، وشـككت في قدرتي على النهوض ثم السـير باتزان، وأخيرًا تخلصت من هذه المخاوف ومررت دونما سـلام.. ونسيت

تفاصيـل الحكاية.. لكنهـا تعاودني بكل دقائقها في أحيان أخرى.. وأسـأل نفسـي.. ما المطلوب مني عند الجلوس معك يـا صاحبة الجلالة؟ أن أضع لافتة على صدري أكتب عليها: «أنا صديق جيهان ولست حبيبها.. أنا مجرد عابر سـبيل»، أم أسـتوقف أي بائع جائل يمر علينا وأطلب منه عدم الدعاء.. أو أن أبعـد عـن هـذا الوضع الزفـت الذي أتفنن فـي وضع نفسـي فيه كأني رجل ماسـوخي مولع بتعذيب الآخرين له.. لـم أطلب منك ترك أصدقائك والجلوس معي.. ولم أرشُ الطفلة لكي تقول ما قالته.. وعندما قالته أقسـم بيمين الله تقاسمني الحرج والقلق.. وعندما قلتِ ما قلته وانسحبتِ أدركت أنـه لا يمكـن أن يقـوم بيننـا سـلام أو هدنة أو صداقـة أو علاقـة أو محبة أو عداوة، فلا شيء ملموس بيننا، ولا هناك شيء محتمل أن تدب فيه الروح أو تبلله المشاعر كأننا من حيوات مختلفة تتماس أحيانًا فتورطني درجة القرب بأن أحاول تلمسك.. أحاول أن أحس بأنك حقيقية.. ونتباعد كثيرًا فأنشغل بوجـد الفقد.. كثيرًا ما اتخذت قـرارات بعدم لقائك ولا رؤيتك ولا التفكير فيـك.. وغالبًـا ما أعود مثل السـيدة المطلقة «اللي كان جوزهـا مطلع عينها وعيـن أمها وبعد الطـلاق ما بقتش تعمل حاجة في دنيتها غير إنها تسـترجع بالتفصيل الشـتائم والإهانـات والضرب اللي كانت بتاخدهـم منه كل يوم، وفي الوقت نفسه عمالة تحلم باليوم اللي حييجي فيه يردها لعصمته»!

ريم مطر

قلقت عندما وجدت أنابيب المحاليل تتدفق إلى جسدي، وبنت متكومة أمامي على مقعد حديدي «بالشقلوب» تحتضن بيدها ظهر الكرسي وتريح رأسها على حافة المسند، كانت ترتدي زي الممرضات الأبيض وفوق رأسها قبعتهن التي تظهر من حوافها المفتوحة عند حدود الجبهة وفي قمة الرأس خصيلات من شعر رأسها المصبوغ بصباغة رديئة شقراء، وكان الزي المفترض أنه أبيض ناصع قد اقترب من لون سن الفيل، صرخت فيها فقامت مفزوعة واقتربت مني مبتسمة تقول: «حمد الله على سلامتك»، حركت يدي بعنف فأمسكتها بقوة حتى لا تنفلت «الكولونا» من ذراعي، وظلت تهدئني وتقسم لي إنني بخير وتخبرني بأن الطبيب طمأن أقاربي الذين أحضروني إلى هذا المكان وقال لهم إنها نوبة عصبية عادية وستنتهي بسرعة، سألتها عن فترة وجودي في هذا المستشفى فأجابتني: «حوالي أربع ساعات»، داخلني إحساس بالخطر غبت عن الوعي أربع ساعات كاملة لم أدرِ فيها بشيء؟ هذا مؤشر سيئ ومرعب، سألتها هل ما زال مَن تدعي أنهم أقاربي في الخارج؟ أجابتني بأن بعضهم بقي وعلى رأسهم السيدة اللطيفة التي تتحدث بلكنة غريبة، طلبت منها بسرعة أن تدخل «استيلا» إلى غرفتي، لا أذكر غير تليفون «علي» الذي اتصل من أجل الاطمئنان على «ملك»، وقد أبلغته بكل ما حدث في المركز

بالتفصيل، وكعادته صرخ في أذني واتهمني بالتقصير لأنه يجب أن تكون هناك متابعة منزلية بالإضافة إلى متابعة المركز، صبرت على قلة ذوقه وحاولت أن أفهمه بهدوء أنني أحضرت لها مدرسة فغافلتها وبصقت في كوب عصيرها، وأحضرت لها أخرى وطفشتها أيضا وحاليًا تساعدها «استيلا» لأنها الوحيدة القادرة على تهذيبها بما أن «ملك» تحبها، علا صوته واتهمني بالجنون لأني أجعل صاحبة بار هي التي تدرس لابنته، شتمته ولعنت اليوم الذي رأيته فيه، وقلت له إن «استيلا» أشرف من أمه، هذا فيما أذكره من شتائم، ثم وجدتني على هذا السرير، دخلت «استيلا» وقبلتني بلهفة وقالت إنها انزعجت جدًّا بمجرد أن كلمتها جارتنا «فردوس» من هاتفي المحمول وفهمت منها أنني دخلت في «كوما»، وأسرعت إلى بيتي من المطعم مباشرة، فوجدتني ملقاة على كرسي في الرسيبشن فاقدة للوعي والنطق و«فردوس» بجواري تحاول إفاقتي ببصلة وبالتكبير في أذني، وأخبرتني «استيلا» أنها شخطت فيها وأبعدت القرف المصنن الذي كان بيدها.. واستدعت سيارة إسعاف جاءت بي إلى هذا المستشفى المتوسط الذي كانت تنوي تغييره لولا حرج حالتي، وأضافت بما أنني أفقت وأبدو على ما يرام بأنها ستجري اتصالات لكي تنقلني إلى مستشفى «دار الفؤاد»، أسكتها بحدة وأنا أقول: «أنا مش هاروح أي زفت مستشفيات تاني.. أنا كويسة.. كلمني المدعوق علي وأنا مجهدة ومتوترة وماكلتش حاجة من الصبح وعصَّبني وفضلت أشتم فيه لحد ما حسيت بدوخة وقعدت على أقرب كرسي وفصلت.. أنا بكرة الصبح هاخرج من دين أم المستشفى دا بأي طريقة».. دخلت الممرضة بصحبة الطبيب المناوب صغير السن، ألقى التحية بترفع كأنه كبير الأطباء بالمستشفى الملكي

البريطانـي، وردت عليه الهبلة «اسـتيلا» وهي مبتسـمة، نظر تجاهي وطلب مني أن أهدأ لأن هذا يضر بحالتي، وأضاف باسـتخفاف أنه سمع صوتي في الطرقة وهو في طريقه لهذه الغرفة، نظرت تجاه «استيلا» بغيظ وطلبت منها بالفرنسـية أن تبعـد «ابـن الوسـخة ده من طريقـي وإلا سـأرتكب مذبحة»، قامت «اسـتيلا» وهمسـت في أذنـه ويبدو أنه جبـن لأنه مدَّ يده إلـى التقرير المعلـق في السـرير ودون به بعض الملاحظات ثـم وقعه وأعاده، وهو على البلاطة الأخيرة التي بعبورها يصبح خارج الغرفة وجَّه حديثه إلى «اسـتيلا» يطالبهـا بأن تقنعنـي بالتوقف عن أخـذ المهدئات والمنومـات التي ظهرت آثارها في جسـدي ومنعته من الاسـتجابة الفورية للعـلاج، بمجرد خروجه أومـأت «اسـتيلا» بعينيها كأنهـا تؤكد صحـة نصائحها لي بالتقليـل منها مع أننـي لا آخذهـا إلا عنـد اللزوم وطبقًـا لتعليمـات أطباء من نفس الشـاكلة، عـادت الممرضة إلى الغرفة وقالت بحذر لـ «اسـتيلا» إنـه لم تبقَ إلا نصف سـاعة على موعد انتهاء الزيـارات، زعقت هذه المرة بحق وحقيق زعقة من زعقات «ريم» التي كانت تطلقها في الماضي لكي تحسم المواقف وسببتها مـع كل طاقـم العاملين بهذا المستشـفى، فنحن لسـنا في معتقـل له مواعيد زيـارة ثابتة، فـرت البنت و«اسـتيلا» تعيد أسـطوانتها المكسـورة وتطالبني بالهـدوء، هـدأت بعد أن اسـترددت قوتي بالزعقة، طلبـت منها أن تمر على بيتـي وتأخـذ «ملك» مـن «فـردوس» وتبيتها معهـا، أخبرتني «اسـتيلا» بأن «ملك» عندها في البيت منذ حضور سـيارة الإسعاف، وطمأنتني بأنها بخير بعـد أن أفاقـت مـن الصدمة التـي أعقبـت انهيـاري، والتي جعلتها تحسـن التصرف وتهرول إلى شـقة «فردوس» وتستدعيها لإنقاذي، كانت «استيلا» تثنـي على ثبات «ملك» وشـجاعتها وكنـت أفكر في بلادة هـذه البنت التي

وقعت أمها بجوارها ولم تبكِ ولم تلطم ولم تشق الجيوب، قامت «استيلا» وودعتني بقبلة على جبيني وأخبرتني بأنها ستمر على المستشفى في الصباح لكي تتفق مع الإدارة على المغادرة، قلت بحسم: «مش هاقعد في المخروبة دي يوم تاني يا استيلا مهما كان»، هزت «استيلا» رأسها ثم قالت بابتسامة: «أدخل الضيوف»، قلت بدهشة: «هو جوزك وأخوكي قاعدين بره؟! دخليهم بس عشان خاطري ماتخليهمش يرغوا»، ضحكت «استيلا» بقهقهة وهي تقول: «من غير ما توصيني كنت هاخليهم يدخلوا يسلموا ويطمنوا وينصرفوا.. عشان فيه ضيف مرزوع أكتر من ساعتين ومن حقه يقعد معاكي ربع ساعة على انفراد»، بدهشة مقترنة بحيرة سألتها: «هو أحمد موجود معاكم بره؟»، غمزت بخبث: «أيوه وخليته في الآخر زي الديزريت»، سألتها بضيق: «إنتي مجنونة يا استيلا تتصلي بيه من غير ما أقولك؟ دلوقتي يفتكر إني عاملة عليه فيلم»، قاطعتني: «لا فيلم ولا شو.. هو اللي اتصل بيكي أكتر من خمس مرات في البيت وفي الطريق للمستشفى وجوه المستشفى اضطريت أرد عليه وبلغته إنك تعبانة شوية ونايمة.. بعدها بنص ساعة اتصل تاني وسألني بعصبية: ريم فين يا استيلا؟ قلت له الحقيقة ولقيته جه على طول وفضل قاعد معانا مبينطقش»، وجدت نفسي أقول باندفاع: «دخليه يا استيلا بسرعة»، ضحكت وقالت بغلاسة: «يعني أدخله هو الأول وقرايبي يولعوا؟»، خرجت استيلا ثم عادت بزوجها وأخيها اللذين مكثا بالغرفة بضع دقائق وخرجا مع «استيلا»، دخل «أحمد» بصحبة قلقه وظل يسألني وهو يستفسر بخوف عما حدث لي وما الذي تسبب في هذه الإغماءة الطويلة، انزعاجه نما مخاوفي، ثرت عليه وذكرته بأني أخبرته بإجهادي الطويل فلزم الصمت، ثم أدركت أني كعادتي على

وشك أن أحرق كل قوارب النجاة والمجاديف والأشرعة وأعود مرة أخرى - إن نجوت - وحيدة كنبتة صبار في صحراء عتيقة، طلبت منه أن يسأل الأطباء، قال إنه كلم أحدهم وطمأنه على حالتي، وأضاف بأنه سيجري لي كافة التحاليل والفحوصات في الغد وعندها سيكون هناك قول فصل في مسألة إغمائي، تمالكت نفسي هذه المرة ولم أنفعل وقلت له بهدوء إنني سأغادر هذا المستشفى المتواضع في صباح الغد وأستكمل الفحوص في مستشفى أكبر، هذا إن وجدت أن حالتي تستلزم الذهاب إلى مستشفى آخر، قبل «أحمد» ظهر يدي وهو يطلب مني أن أتحمل البقاء يومًا آخر بداخل هذا المستشفى حتى أنهي كافة الفحوصات وأستلم تقريرًا بما حدث، نظر طويلًا داخل عيني وكلما امتد صمتي اتسعت بسمته وحين وجدني أهز رأسي بالموافقة وضع كفيه على وجنتي وقبل جبيني، وبينما الممرضة تدق الباب برفق همس لي بأنه سيأتي في الغد، كانت الغبية «استيلا» قد أخذت محمولي معها فيما أخذته من غيارات داخلية ومستلزمات، وكنت أريد أن أحدثها بشأن رغبتي في مد مدة الإقامة حتى لا تتصرف من تلقاء نفسها في الصباح كما أخبرتني وتبلغ الإدارة برغبتي في الرحيل، ناديت على الممرضة فدخلت بحذر، طلبت منها أن تقرب مني تليفون الغرفة ففعلت، اتصلت بـ «استيلا» في المنزل وأخبرتها بميلي إلى انتظار انتهاء الفحوص بالمستشفى، ضحكت ضحكة صاخبة جدًّا لدرجة أني أغلقت الهاتف في وجهها من النرفزة، اتصلت مرة أخرى وردت عليها الممرضة كما أوصيتها بأني قد استغرقت في النوم، فهمت «استيلا» أني لا أريد محادثتها لذا لم تتصل مرة أخرى، فجأة دبت حياة في جسدي وأحسست بالجوع والعطش وبحاجتي إلى الحمام وبالرغبة في أن

أشـاهد التلفزيون المعلق في أعلى جدار الغرفة وشاشـته معتمة، طلبت كل هذه الأشـياء من الممرضة التي انتابتها الحيرة للحظات ثم هزت رأسـها في استسلام، وصحوت في وقت مبكر جدًّا وأكلت زبادي بالعسل لأن الطبيب المنـاوب أبلغنـي بـأن أصوم عـن الطعام مـن السـاعة الحادية عشـرة حتى السـاعة الثانية لكـي أجري الفحـوص والتحاليل، كان الوقـت يمر بصعوبة وأنـا فـي انتظـار أول الحاضريـن، رغـم أن المستشـفى بالقـرب مـن بيـت «اسـتيلا» نوعًا ما كنت أشـك أنها سـتأتي فـي هذا الوقت المبكـر، «أحمد» أيضًا لا يسـتيقظ مبكرًا والمسـافة بينه وبين المستشـفى كبيرة جدًّا، خرجت بـي الممرضة إلى الشـرفة كما أمرتها وتركتني أتأمـل المكان، ظللت أتطلع إلى الشـوارع المكدسة بالعابرين والسيارات والتي تبدو من أعلى كمتاهات الفئـران، وإلـى أسـطح العمـارات المختبئـة تحـت أكـداس مـن الأطبـاق المعدنيـة بأحجامها المختلفة والمخلفات والكراكيـب، ثم دق باب الغرفة ودخلـت الممرضـة وبيدهـا باقـة مـن الأزهـار وقبـل أن تمد يدهـا تجاهي بالـكارت المعلق عليها، كنت قـد أدركت أنها من «أحمـد»، صرفتها بعدما أشـرت إلـى المكان الـذي تضعها فيـه، حاولـت أن أبدو رومانسـية وأفرح بالـورد الـذي أهدي إلـيَّ لكني لـم أفلـح، فقد كنت في مواجهة نفسـي، وأنا قـادرة على خداع العالم كله فيما عداها، للحقيقة قلق «أحمد» تجاهي أمس حـرك بعض مشـاعري لأنه خرج بلا قصـد منه، لكن الـورد مثله مثل علب الشـيكولاتة الفاخـرة التـي اصطحبهـا زوج وشـقيق «اسـتيلا» معهمـا إلى المستشـفى والتـي أمرتها بأن تأخذها معها وهي تغادر، الورد والشـيكولاتة بداخـل مستشـفى بمثابة قربان يقدمـه الزائرون للمريض كأنهـم يقولون له: «نيابـة عن صحتنا وحتى لا نمرض مثلك خذ هذا القربان عنا».. وأنا لسـت

مريضة.. أنا فقط مجهدة.. مجهدة يا أولاد الكلب.. لكني لا أستطيع أن أعيد الزهور إلى «أحمد».. أو أخبره بأنني لا أطيقها.. ورمزها يقتلني.. سأتركها حيث وضعتها الممرضة فهذا هو قبرها.. ولن أتكلم بشأنها فنحن أسرى العرف و«أحمد» جلبها لكي يرضيني وعليَّ أن أفتعل الرضا..

«استيلا» جاءت في العاشرة والنصف و«أحمد» لحق بي قبل خمس دقائق من الصوم، وانتظر معي حتى أنهيت كافة الفحوص والتحاليل ولازمني حتى خرج التقرير الذي يؤكد سلامتي التامة ويعزو ما حدث إلى إجهاد شديد وتوتر عالٍ..

كانت الشمس إلى زوال و«استيلا» منهمكة في تعبئة الحقيبة بأشيائي عندما سألها «أحمد» عما تفعله؟ وعندما أجابته طلب منها أن تبقي الأشياء على حالها وهو يعلن بصرامة أني باقية في المستشفى حتى الصباح التالي، كنت في دهشة وحيرة بينما «استيلا» تتطلع إلى وجهي بعينيها المستديرتين الملونتين كحبتي المشمش، كان بوسعي الرفض والاعتراض والسخرية وتجاهل ما يقوله والنظر إليه باستخفاف، لكن دهشتي ازدادت من نفسي عندما وجدتني أسأله بلطف عن سبب هذا الاقتراح، أجابني بأن المجهود الكبير الذي بذلته خلال اليوم وكمية السوائل والدماء التي فقدتها من أثر الفحوصات تستلزم أن أستريح فترة طويلة، وأن ركوبي السيارة حاليًا سواء مع «استيلا» أو بداخل سيارة إسعاف مجهزة سيزيد من إرهاقي، هذا بخلاف أن المبيت في شقتي أو شقة «استيلا» هذه الليلة غير مناسب لأن قلقهم واهتمامهم المفرط بتوفير أقصى وسائل الراحة سينهكني تمامًا، كنت أرقب عينا «استيلا» وأفضح سخريتها المضمرة من كلام «أحمد» واستهتارها

بما يقوله، ولعل ذلك هو ما جعلني أوافق على اقتراحه وأقرر البقاء حتى الصباح. بعد أن غادروني ظللت لفترة أفحص جهاز المحمول الذي تسلمته من «استيلا» ولم أجد اتصالًا من «علي» الذي توقعت أنه بعد مكالمتنا العاصفة التي نقلتني إلى هذا المستشفى قد يتصل عدة مرات أو مرة على الأقل كي يعتذر أو يلومني كعادته على سوء أدبي معه، أو يعيد الخناقة من أولها، لكن هذا لم يغضبني فأنا اعتدت صمته وجبنه عن المواجهة حتى ولو كان بعيدًا عني بآلاف الأميال، ينفث سمه كثعبان الطريشة ويختفي، يتهمني بالتقصير مع «ملك» في البيت والمركز.. وماذا تفعل أنت مع «ملك» في الخليج؟ تتركها في رعاية بنت فنزويلية وتغيب ثلاثة أرباع اليوم فيما تقول عنه عمل، وتتهمني بأني لا أصلح لأن أكون أمًّا، في الحقيقة نعم، لم أكن أرغب في الإنجاب و«جات من عند ربنا إن أنا وإنت لا نصلح للإنجاب»، وكنت تعلم ذلك عن نفسك على الأقل، فقد كانت لديك زوجة وعاشت معك خمس سنوات وطفشت، وتزوجت مني دون أن تخبرني بمشكلتك، ولو كنت قد أخبرتني لوفرت عليك المسافة، أنا مولودة وبداخلي اعتقاد بأني آخر سلالتي الشخصية، أنا الكمال الجيني لذاتي الذي ظل عبر حقب وقرون يتطور ويتكامل حتى زمننا هذا، الخارج مني لن يكون سويًّا يا «علي»، قل عني مجنونة أو برانويد كما كنت تتهمني، لكني أدرى بما انسل مني، وأنت أجهل حتى بمَن كانت ترقد جوارك لسنوات، دافع عن نفسك باتهامي بالجنون، لكن قل لهم أولًا كيف أقنعتني بالزواج منك؟! وكيف جعلتني أترك الدراسة في معهد الفنون المسرحية وأنت تعبر بي فوق جسور من الأوهام والكذب بأنك ستخلق مني نجمة «من منازلهم».. سترعى موهبتي وتدفع بي لكي أكون «فيديت ماحصلتش».. وتزوجتني ولم

تقدم لي في المقابل غير بعض الأدوار في مسـرحيات أخرجتها أو أعددتها نلـت عليها تقريعًا وسـخرية عبر عدة مقالات نشـرت عنها، وحرصت على أن تجعلنـي أقرأها كأنك أعطيتني هـذه الأدوار التافهة كي تقفل أمامي باب التمثيل إلى الأبد، وحتى عندما طاوعتك بالسـفر إلى الخليج وسـنحت لي أكثر من فرصة للعمل في المسلسـلات التلفزيونية الخليجية، بعد مسلسلين ورطتني في تحقيق حلمك بالإنجاب، وها قد حصلت على ما كنت تنشده، مـا الـذي تريده مني أكثر مما قدمته، لا تتصور نفسـك ديكًا سـتجعلني طيلة حياتي أرقد على بيضك الذي سـاعدتك التكنولوجيا الحديثة في تخصيبه.. لنا مواجهة أخرى يا «علي» وقد تكون أقرب مما تتصور.

أحمد الضوي

لم يكن «عماد» فاسدًا بالمعنى التقليدي، لكن فساده كان ينبع ويصب في جهات أخرى، بخلاف عنفه وخسته أحيانًا، كنت أستشف فيه عدمية وشعورًا مفرطًا بعدم الثقة يخفيه جيدًا، برغم أنه ابن ناس ومتيسر ماليًّا وما أعيبه عليه في سلوكه الوظيفي كان بمثابة أوسمة تقدرها وزارة الداخلية جيدًا، وتمنحه بسببها مكافآت ومزايا وتجعله يحضر دراسات ويشترك في ندوات باعتباره رجل شرطة نظيفًا ونشيطًا وكفئًا، ورغم أن وضع «عماد» كان ملتبسًا أمامي طيلة فترة تعارفنا، وكنت أتأرجح بين حبه والخوف والقلق منه وافتقاده كلما غاب عني، بعد فترة من تعرفه على «كارولين»، وبعد إدراكي أنه يود فعلًا الارتباط بها، كنت أتمنى في قرارة نفسي أن تتحقق له هذه الأمنية، لكن بعد قرار «كارولين» الأخير وطلبها إبلاغه بأن ينحي نفسه عن أي طريق هي تسير فيه، أُسقط في يدي، فهذا يعني أنه كلما أهدت السماء قطعة خشب طافية للغريق «عماد»، ثقبها وشوهها بلا مبالاة طفل عنيد، ياه، أصابني الكدر فجأة.. لعلي مثله بالضبط.. عدمي وأطيح بكل قوارب النجاة.. وإلا فما تعليل أننا نتشابه في أمور كثيرة - حتى على سبيل المصادفة - أتصل عدة مرات من أجل إبلاغه برسالة «كارولين» فلا يرد ويهملني، ثم بعد أيام يرسل لي برسائل أنه مشغول في الوزارة، وأنشغل عنه بما حدث لـ «ريم» وانهيارها المفاجئ الذي ما كنت أصدق أنه يحدث لها، والذي لا بد أن أبحث أسبابه لعلني الذي سببته لها بالسلب

أو الإيجاب، وفي أثناء انشغالي بهذا يتصل «عماد» بي مرات متعددة لا أرد عليه فيها، ثم أرسل له رسالة بعد أن اطمئننت لاستقرار حالتها أخبره فيها بمرضها وبوجودها في المستشفى، فيعيد الاتصال بي بإلحاح ثم يرسل لي رسالة عارضًا خدماته بعلاجها في مستشفى الشرطة، وأهمله كما أهملت رسالته، وبعد أيام لاحقة أعاود الاتصال به ونكون في ذات اللحظة خاليين من المشاغل فنتفق على لقاء بعيدًا عن مقرات عملنا، وها أنا الآن في طريقي إليه في مكان جديد قال إنه اكتشفه حديثًا في وادي دجلة بالمعادي، وتوقعت أن يكون مليئًا بالمضيفات الجميلات اللواتي يفتنَّه.

وفعلًا وجدت المكان الذي ينتظرني فيه «عماد» أروع مما وصفه لي، حديقة خارجية عليها بضع مناضد، كل منضدة تحرسها شجرة مثمرة قزمة، وكان الجو صحوًا وتعجبت لأن «عماد» ترك هذا الجو المثالي وكمن بالداخل، لكني بمجرد أن دخلت إلى الصالة الرئيسية للمطعم ونظرت إلى الأركان والزوايا والبقع التي تضم المناضد التي حولها عشاق أو رفاق أو رجال أعمال، وكل منضدة موكول خدمتها إلى مضيفة كنجمات السينما، أدركت لماذا اختار «عماد» الصالة الداخلية، كان «عماد» في ركن قصي من المكان وبخلاف الزبائن كلهم، المضيفة التي تخدمه واقفة بجواره وهو مشغول بالشرب من كأسه والحديث معها، بدون حاجة إلى المقارنة أدركت أن هذه المضيفة هي أحلاهن، وتصورت «عماد» وهو يجول في المكان ليس بحثًا عن أفضل منضدة وأفضل ركن، بل أجمل مضيفة، جلست وأمر «عماد» بالبيرة كما يشرب، أتت الفتاة بها بسرعة مع أطباق المزة ولبدت بجوارنا، كان «عماد» كلما هم برشفة رشفة من كوبه تقترب منه الفتاة وقد أمسكت بإصبعيها شريحة من بطاطس الشيبسي وتنتظر إلى أن يبلع رشفته

كي تمد يدها بالبطاطس وتضعها في فمه، ثم تحولت إليَّ وحاولت فعل ذلك مع أول رشفة لي لكني أشرت لها بالابتعاد، أشارت بيدها إلى طبق الكاجو والفول السوداني وسألتني إن كنت أفضلهما عن البطاطس، شكرتها بحدة ثم استدرت إلى «عماد» وطلبت منه أن يأمرها بالعودة إلى مكانها لأنني أريده في موضوع مهم لا يتحمل المقاطعات، افتعل «عماد» أنه يريد الذهاب إلى دورة المياه ومرَّ بها وهمس في أذنها فضحكت الفتاة، ثم أكمل طريقه إلى الحمام، عند عودته أخبرته بكل ما دار بيني وبين «كارولين» وباستعراض القوة الذي مارسه معها ولم يخبرني به من قبل، وصولًا إلى اتهامها له بتدبير محاولة قتل، نظر «عماد» تجاهي بدهشة صادقة وقال: «محاولة قتل؟ هو أنا لو عايز أقتلها هابعت وراها عيل غلبان يكسر عليها بالعربية.. لا يا ضوي.. إنت عارف أنا ممكن أعمل إيه.. أقل ما فيها أأجر بلطجي بألف جنيه ولا عشرة يدبحوها داخل شقتها»، كان قد بدأ ينفعل وأحسست به غير مصدق ما وصلت إليه «كارولين» من شكوك تجاهه، حاولت تهدئته وأنا أطلب منه البعد عنها ولو مؤقتًا إلى أن تراجع نفسها وتدرك خطأها في حقه، طلب «عماد» زجاجة أخرى وملأ كأسه هذه المرة بنفسه بعد أن وضعت المضيفة الزجاجة وغادرت، وبدا على وجهه كلما رشف رشفة من الكأس أنه في انتظار أن تمد المضيفة يدها بشريحة الشيبسي، لدرجة أني أشفقت عليه وغافلته ودسست قطعة بطاطس في فمه بعد الرشفة، فضحك ضحكًا شديدًا ثم تماسك وطلب مني أن أبلغها بأنه لا يتصور أن تصل بها الأمور إلى اتهامه بمحاولة قتلها، لكن بما أنها وصلت إلى ذلك فهذا ختام للعلاقة وفراق دون ضغائن، وأنه سيحاول جاهدًا ألا ترى وجهه بعد ذلك مطلقًا، أحسست بحسمه هذه المرة رغم أني لم أتطرق إلى تهديداتها له بوزير الداخلية وحسنًا فعلت، فربما لو أخبرته بذلك لكان العند قد تمكن

منه وأصر على ملاحقتها، حاولت بعد ذلك تخفيف الأمور لكنه رفض تمامًا معاودة الحديث في موضوع «كارولين» مرة أخرى، استشعرت أنه يكابد ألمه وأيقنت أنه لن يغادر هذا المكان إلا وهو في سكر بيِّن، وكنت بصدد معاودة زيارة «ريم» حتى أطمئن عليها، لذا وقعت في حيرة بالغة واضطررت إلى مجالسته أطول وقت ممكن وسمحت بأن تلاحقنا المضيفة وتعاود تزغيطه كما تزغط الريفيات البط، سألني عن «ريم» وطلب مني أن أصطحبه لزيارتها في موعد لاحق، أومأت برأسي، في محاولة لخفض توتره سألته عن شغله، فانتبه وقال: «كله تمام.. وعلى العموم إحنا جاهزين جدًّا لأي وجع دماغ»، سألته عن رأيه في الطلب الذي تقدم به ثلاثة من نواب مجلس الشعب إلى وزارة الداخلية بضرب المتظاهرين من حركة «6 أبريل» بالرصاص باعتبار أن مظاهراتهم ت شكل خطرًا على مصر، وخاصة نائب الحزب الوطني «نشأت القصاص» الذي قال في المجلس: «لو كان الأمر بيدي لاستجوبت وزير الداخلية بسبب حنيته في التعامل مع هؤلاء الخارجين على القانون».. قال «عماد» بحماسة: «عندهم حق طبعًا.. اضرب المربوط يخاف السايب.. لو حد من العيال دي خد رصاصة مش هتسمع عن مظاهرات بيعملوها حتى ولو في الحلم»..

استأذنت في الانصراف وحاول إبقائي كثيرًا لكني تحججت بـ«ريم»، شد على يدي بحرارة وقال: «اعمل حسابك الأسبوع الجاي في عيد ميلادك نسهر سهرة كبيرة من بتوع زمان»، تنبهت أن عيد ميلادي اقترب، وأيقنت أن «ريم» لن تغفل عنه، لذا قلت لـ«عماد» بتحدٍّ: «لو ريم ما افتكرتش عيد ميلادي ونسيت لأي ظرف من الظروف حاكلمك ونسهر مع بعض».

«ريم» لم تنسَ عيد ميلادي وأعدت لي مفاجأة، وقد فاجأني أيضًا أن «جيهان» لم تنسَه.

ريم مطر

هذه إحدى المرات النادرة التي أهتم بمراجعة نفسي فيها، منذ أن كبرت لـم يجبرنـي أحـد على شـيء لا أقبله وإن رضخـت بعض الوقت، سـرعان مـا أعـاود إلحاحي حتـى أحقق ما أريـد، كنت صغـرى العائلـة ودللني أبي دلالًا غيـر عـادي، كنت بصحبته على الـدوام قبيل مراهقتـي وحتى دخلت الجامعـة، ارتـدت معـه مطاعـم وبـارات وملاهـي مـن كثرتهـا أعجـز عن تذكـر أسـمائها، وكنت فاسـوختـه في نـوادي القمـار بالفنادق الكبيـرة التي لا يسـمح للمصريين بالدخول فيها وكان يدخلها بجواز سـفر لبناني مزور، وكان مـن غيـر المسـموح للقاصـرات بدخولهـا، لكـن لسـطوته وصلاتـه الضخمـة كانـوا يغضون الطـرف وهم يطلبـون مني بأدب شـديد ألا أندس وسـط اللاعبين وألا أصدر أصواتًا عالية ويجلسـوني في ركن بعيد وأمامي منضدة عامرة بالأوردرف والمكسـرات والمشروبات غير الروحية، وكانوا يسـترون وراء جسـدي الذي يخفي عمري، وفي قاعات المقامرة شاهدت عوالـم وشـخصيات كثيـرة وأنا لـم أتعدَّ السادسـة عشـر من العمـر، يجلس بجـواري الراغبـون فـي بعـض الراحـة قبـل اسـتكمال لعبهم. الخاسـرون يتدبـرون أمرهم والرابحـون قد يجذبون كفي ليطبعـوا عليها قبلات الفرحة بما غنموا، ثم يأمرون السـقاة بإحضار الحلوى والشـيكولاتة لي، جنسيات عربيـة وأجنبيـة كثيرة كانت تتوافد على الركن الذي أقبع فيه، اسـتطعت بعد

فترة أن أميزهم من ملابسهم أو سحناتهم أو لكناتهم وصولًا إلى تصرفاتهم الخسيسة أو اللطيفة، عندما تدفق دم الشباب إلى صدري و«سوتي» والفخذين والردفين، لم يفرغ المكان الذي بجواري وأمامي من منتظرين، منهم من اعتقد أني ساقية جديدة في بداية تدريبي، ومنهم من ظن أني زوجة صغيرة لأحد عجائز المقامرة، أو بنت أحد العاملين بالمكان، كانت الأسئلة تنهمر فوق رأسي، وكنت إن أجبت أُجب بحدة وسخافة، وكانوا لا يعبئون بحدتي، ويستعرضون إمكاناتهم المادية والمعنوية الفاحشة كأنهم يتسامرون، وجعلني ذلك أكره التواجد بتلك القاعات وأعلنت أبي بقراري، فسكت لكن حزنه طفح على وجهه، وعندما استفسرت منه عن السبب قال بأسى إنه يتفاءل بوجهي وقد اكتشف منذ فترة بعيدة أنه يخسر في عدم وجودي أضعاف خساراته في حالة وجودي، وجعلتني هذه الإجابة أتراجع عن قراري وأتردد ما بين الحين والآخر على أماكن رهاناته، إلى أن أتت ليلة استثنائية، جلس فيها شاب عربي بجواري في ذات الركن، كان وسيمًا متأنقًا كعادة نزلاء هذا المكان، والمدهش أنه لم ينظر تجاهي ولم يهتم بي على الإطلاق، أشعل سيجارة دون أن يسألني حتى إن كان الدخان يتعبني أو يروقني، لاحقته الساقية بزجاجة الويسكي وشرب كأسين متلاحقين، نظرت الفتاة تجاهي ويبدو أنها استشعرت خطرًا من وجودي على هذا الشخص الذي تهتم به لأنها أشارت إلى ركن آخر قد خلا واستأذنته في الانتقال، لكنه رفض بحدة فخرست تمامًا، شرب هذا الشخص كأسه الثالثة متمهلًا وكأنه يدبر شيئًا ثم حسم أمره ونهض، قالت له الساقية بشفقة وضيعة: «كفاية كده يا منصور بلك النهارده مش يومك»، دفعها بيده هذا الـ«منصور» وهو يقول بصوت مسموع: «وانتي مالك

يا قحبة غوري»، وهي تسترد توازنها التقت عيناها بعيني فأرخت جفنيها بسرعة وانقشعت من أمامي، توافد على ركني كثيرون بعده لكن لم يشغلوني بقدره، وجعلنـي هذا أتلصص ببصري حتى تعرفت على ظهره المنكب فوق عجلة الروليـت، وكنت قد تخليت عن عادة التلصص هـذه منذ فترة بعد أن مللت من متابعة ظهر أو صدر أبي وهو يلعب ومحاولة تخمين ماذا يخفي جسـده المحايد من أمارات الفوز أو الخسـارة، كان ظهر الشاب أيضًا محايدًا تمامًا وقلت في نفسـي لو فاز سيأتي إلى ركني ويقول مثلهم إن وجهي حلو عليه، لكن لو خسر فسيمر سريعًا من الباب ولن ألمح إلا جانبه النحيف، لم أدرِ لِمَ أنا مهتمة به هكذا، وظننت لحظتها أن تجاهله لي استفزني وبدلًا من أن أهمله وضعتـه نصب عيني، أو قد تكون مشـاعر الحـزن والغضب وعدم التصديق التي سـادت وجهه وهو بجواري أكسـبته تعاطفي، كان والدي على الجانب الآخـر مـن القاعة يقتطع بضع دقائـق من تركيزه ويقبل نحـوي وهو يتأملني بدقة ثم يشـعل سـيجارة وعندما يستشـف أني مرتاحة في جلسـتي ولا يبدو على وجهي الضيق، يشير إلى الساقي بإصبعيه ويطلب لي مشروبات إضافية ولا يأبـه لاعتراضاتـي، ثم يغادرني للحـاق بدوره، أما إذا لمـح تقطيبة على وجهي أو احتقانة تود أن تخرج من حنجرتي معلنة عن اعتراضي على البقاء فـي المكان أو زفرات غيـر متلاحقة من فمي زهقًا مما أنـا فيه، كان يبادرني بقبلتيـن على وجنتي مصحوبتين بهمسـات متضرعة بـأن أتحمل قليلًا حتى ينتهي من لعبه وكلما زاد اعتراضي كان يمد لي حبل الاغراءات وكنت أقبل فـي النهاية، وقد نلت منه أشـياء كثيرة من وراء ظهـر أمي و«رويدا»، وكانت كلها أشـياء معنوية مثل تعليم قيادة السـيارة وأنا في أول البلوغ وقيادة اللنش البخـاري ومرافقتي له في أغلب مدن الملاهي بمصر والسـماح لي بركوب

أكثـر الألعاب خطورة وتهورًا التي لو سـمعت عنها أمـي لماتت في الحال، بالإضافـة إلى ركوب المناطيد السـياحية والبالون والتصويب على الأطباق والحمام في أندية الصيد وخلافه.. في هذه اللحظات كان أبي منشغلًا تمامًا فـي اللعـب وكنت فـي حاجة للذهـاب إلى التواليـت، ولرغبتي فـي العودة بسـرعة إلى مكاني لم أسـتدعِ إحدى السـاقيات لكي تبلغ أبي بأني سأذهب إلى الحمام حتى لا ينزعج إذا ما أدار رأسه ولم يرني، غامرت وخرجت من القاعة بعدما ألقيت نظرة استقرت فوق ظهر الشاب العربي، أديت كل شيء بعجالة وخرجت وخاطر وحيد يجثم على رأسي بأني عندما سأدخل القاعة سـأجدها خاليـة منه، وبمجـرد أن فتح لـي موظف الأمن البـاب مرة أخرى وجـدت «منصـور» هذا قد انتهى من لعبـه ولم أرَ جانبه كمـا كنت أتوقع بل رأيتـه وجهًـا لوجه، كان كالخرقـة المهلهلة من تأثير الخمر وكانت السـاقية التي سـبَّها تحاول سـنده ويعاونها شـخص آخر من الجهة الأخرى، وكنت متسـمرة بمكانـي في نصف المسـافة ما بين باب القاعـة ومنضدته، عجزت عـن النظر إلى عينيه لأنه كان يدفن رأسـه في صدره عاجـزًا عن إبقائه عاليًا، ثم أفسـحت لأجسـادهم كي تمر، وكانت القاعة بلا فضول تجاه ما يحدث كأنه حدث أقل من العادي وقد أدركت عندما كبرت أنه فعلًا كذلك، وكنت مسـتاءة بعض الشـيء أسـأل نفسـي ما أهمية أن أرى وجهه مرة أخرى وقد كان بجواري يثير غضبي وحزني واكتشفت أني لم أتحرك خطوة من مكاني الشـاذ هذا وأنا أرقب ظهره وهو يبعد عني حتى اسـتقر جسـده أمام «كونتر» الأمن الذي في مدخل القاعة وموظف الأمن يعطيه متعلقاته مبتسـمًا، وكان من بينها شـيء فضي ومض للحظات في المسافة التي بين يد موظف الأمن ويد «منصور» الذي تحرك خطوتين فقط للأمام ثم وقف كمَن يعدل ملابسه

وظننـت لوهلة أنه سـيلتفت ليراني لكنه لم يفعل، ثم عرفـت لِمَ أنا مهتمة به إلـى هذا الحد عقب أن سـمعت صـوت فرقعتيـن حادتين رهيبتيـن تهاوى بعدهمـا جسـد «منصـور» وتدافع النـاس تجاه بـاب الخروج كـي يلاحقوا الصرخـات وفوجئـت بقبضـة يد أبي تمسـك سـاعدي بقوة وهو يسـحبني للخارج.. لكن مجموعة من أمن الفندق لم أكن قد رأيت وجوههم من قبل دفعونـا بغلظة إلى الداخل وهم يشـهرون في وجوهنا الأسـلحة واحتضنني أبي وهو يرتجف ولـم يهدأ إلا بعد أن أخبره أحد السـقاة بأن الشـاب العربي الـذي يدعى «منصور» انتحر بمسدسـه بعد أن تسـلمه من الأمـن وأعاد إليه ذخيرته وذلك لأنه خسـر خسـارة فادحة.. أدركت لحظتهـا فقط أن ما رأيته كان حقيقيًّـا.. أدركـت لِمَ كنت أتوسـل القدر كي أراه قبـل أن يغادر، طلب منـي أبي بحسـم أن أنتظر في مكانـي ولا أتحرك حتى يعـود، ورأيته يختلي بكبير السـقاة ثم عاد وطلب مني أن أتبع رجلًا ما إلى حيث يقودني، وقادني هـذا الرجل من خلال ممرات إلـى كافتيريا بالطابق الأرضي وظل باقيًا معي حتـى عـاد أبي بعد حوالي سـاعة، قاد أبي السـيارة وتلا عليَّ مـا جرى دون أن يلتفـت تجاهي، قال إنـه أبعدني عن المكان حتى لا أتعرض لأسـئلة من جهـات التحقيـق كما فعلوا مع الموجودين بالقاعـة، فرغم أن حادثة إطلاق النـار حدثت خـارج القاعـة إلا أن إدارة الفندق تحركت بسـرعة لكي تقفل التحقيقات عبر أسـئلة روتينية سريعة لرفاقه حول المنضدة التي خسر عليها خسارته الكبيرة وللآخرين المتواجدين من عرب وأجانب، وقد تم التحقيق مع أبـي بجوازه اللبنانـي وكان متخوفًا أن يذكر أحدهم وجودي ويكتشـف المحقق أني ابنته وتثار الشـكوك حـول هويته، كنت أبكي بجواره وهو يقود على شـكل دوائر متوازية وأحسست حرصه على إيصالي بعيون جافة تمامًا

مـن البكاء، لذا تماسـكت وأخبرته أكثر من مرة أنـي بخير إلى أن اقتنع وقال بتأنيـب ضميـر ونحن نقترب مـن البيت إنه لن يدخلني مـرة أخرى إلى هذه الأماكن.

وظللت بخير لمدة شـهر بتمامـه عوضني والدي عن هذه الليلة الكارثية بتعويضات خيالية، منها رحلة لأسرتنا إلى لبنان وسوريا، ثم بدأت تداهمني كوابيس مريعة غير محددة المعالم، وادَّعوا أني أتيت بتصرفات غير لائقة مع أختي «رويدا» وأمي، ثم في مصعد المنزل مع موظفة بإحدى الشركات التي مقرهـا في منزلنا، واسـتلزم الأمـر عرضي على طبيب نفسـي دون أن يأبهوا لاعتراضاتي المدوية، وبفعل الحقن سـالبة الإرادة أقمت في مصحة نفسـية خاصـة لمدة شـهر، ثـم أخرجوني بعد أن قالوا إني شـفيت، وكان سـر تلك الليلـة الفظيعـة الذي نجحت في إخفائه تمامًا محبة لأبي قد سُـرق مني وأنا تحت تأثير المخدر وعلمت أمي بالسبب عن طريق الطبيب وحدثت مشكلة كبرى بينهما كادت تطيح بعلاقتهما الزوجية إلى الأبد، لولا أن الطبيب حذر أمي من هذا الانفصال الذي سيقضي تمامًا على البنت المسكينة، وقد كنت أنا البنت المسـكينة التي تحت دعوى المحافظة على سلامة عقلها أبعدوني عن صحبة أبي، وعرضت أمي بكرم حاتمي أن أرافق «رويدا» في المشـاوير والفسح التي يقضونها معًا.

كان التقسـيم السـابق قد نشـأ عشـوائيًا، وأعتقد أنه تكون فوق جسر من عواطفنـا، أحببـت صحبة أبي وفضلـت «رويدا» صحبة أمـي، كنت لا أعلم شـيئًا عـن الأماكـن والمتنزهـات التي تصطحـب أمـي «رويدا» إليهـا، فقد كان فـارق السـنوات القليلة الـذي تكبرني به «رويدا» قد أصبغ على رأسـها

الحكمـة وجعلها متحفظة وقليلة الكلام في هذه الموضوعات، وكنت على الطـرف الآخر قد التزمت تمامًا بتحذيرات أبي التي تلزمني بالصمت وعدم الإفصـاح عـن الأماكن التي يأخذني فيها وإن لـزم الأمر أن أذكر لهما أماكن لا تثير الريبة - حشـا أبي بها رأسـي - وهي عبارة عن مجموعة من المطاعم وكافتيريـات بعض الفنـادق وأندية رياضية، كان يصطحبنـي أولًا إليها لكي أتعـرف على معالمها حتى لا أخطـئ وصفها، لم يُبدِ أبي مطلقًا رغبته في أن يكـون له ولد، وأعتقـد أنه اصطفاني تحت هذا السـبب، فقد كانت «رويدا» أقـرب إلى أمـي وكانت ذات أنوثـة طاغية، وكنـت في بداية رفقة أبي أشـبه بغلام أمرد.

زادت المنازعات بين أبي وأمي بعد شفائي، بسببي وبسبب إتلافه المال، وبسبب إشاعات وصلتها أو أحاسيس راودتها بشأن لعب أبي بذيله ووجود علاقات نسـائية فـي حياته، وللحقيقة منذ أن بدأت أنوثتـي تتفتح، لم ألحظ على أبي اهتمامًا ملفتًا بالنساء حتى وإن كن في غاية الجمال والفتنة كاللواتي كنا نلتقيهن كثيرًا في علب الليل، ولم يظهر عليه تهافت مبتذل كتهافت بعض أقرانه عندما يشاهدون فتاة مثيرة فيسيل لعابهم ككلب مجهد وعطشان، أبي كان اهتمامـه منصبًـا على البيزنس والمقامرة ولسـوء حظنا كان نصيبه فيهما خسـارات متجـددة، أمي كانـت في منتصـف الأربعينيات أيامهـا ومحافظة علـى جمالهـا ووقارهـا المفتعل وعلـى تزينهـا المبالغ فيه وعلـى صرامتها التي اكتسـبتها من وظيفتها التعليمية التي بدأتها معلمة في مدرسة السكركير «SACER COAR» ثـم إلـى كبيـرة معلمات وصولًا إلى مديرة لمدرسـة. ذلك المنصب التي لم تتحمله طويلًا واعتذرت عنه بتقديم استقالتها، وأظن

أن التعقيدات الإدارية والصراعات الوظيفية بالإضافة إلى الدوام لأكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميًا هو ما دفعها لاتخاذ هذا القرار، تفرغت بعد ذلك أمي مدة قصيرة جدًّا لأندية الليونز والروتاري وأغلب منتديات النخب ثم عملت حتى وفاتها في المركز الفرنسي بالمنيرة، رغم كل المهام في حياة أمي الكفيلة بأن تشغل عصبة من النساء إلا أنها وجدت أوقاتًا كثيرة للتنكيد على أبي بسبب سذاجاته المالية وبسبب نساء افتراضيات ظلت تحاربهن مثلما حارب «دون كيخوتة» طواحين الهواء، كانت «رويدا» في صفها تمامًا وتظن فيه نفس الظنون ولم تصدقني وأنا أحلف لها ببراءة والدنا وبتحليلي لهذا الصراع العبثي بأنه نتاج خلل في هرمونات أمي بعد أن أوشكت على الدخول في الخريف، خاصمتني «رويدا» لفترة بعد أن صرخت في وجهي واتهمتني بقلة الأدب دون أن تدرك أن سخريتي هذه كانت أول مسمار يدق في فارق السن التافه الذي بيننا والذي كان يجعلها في موضع الناصح لي دائمًا.

هذا بعض صغير مما عشته إلى أن صرت هدفًا للتنشين يصوب عليه كل مَن هبَّ ودبَّ، «علي» لم يصدق أن مركز تحسين السلوك الذي رشحه له علية القوم في الخارج والذي يشيد كل الذين تعاملوا معه بنتائجه الإيجابية لم يفلح بعد في تحسين سلوك ملك، في اتصاله الأخير لم يعاود جرأته على لومي وتوبيخي ثم اتهامي بأني تراخيت عن متابعتها المنزلية طبقا للشروط التي وضعها المركز، ولم أخبره بأني حجزت في مستشفى بسببه ولم أبلع ليونته هذه المرة، أدركت أنه اتصل خوفًا من ردة فعلي ومن عنادي الذي كان يشكو منه طيلة حياتنا الزوجية، وكانت أذناي في أوج القرف من نبرة صوته، وأحسست بأنهما على وشك قذف المادة الصمغية لكي تسد مخرج سماعة

الموبايـل، وتركتـه يتزلف وينافـق وهو يطلب مني بمسـكنة أن أهتم بـملك أكثـر لحين رجوعـه بعد امتحانات نهايـة العام، وبعد أن أنهى قيئه سـخفت عليه بما يليق بسـخافاته وطالبته أن ينسـى يومًا أنه صـار «كلب فلوس» وأن يعـود علـى الفور كي ينقذ ابنته بما أنه مـا زال يعاملني على اعتبار أني زوجة أب لـ«ملـك»، وفور انتهـاء هذه المكالمة الغبية ذهبت إلى مطعم «اسـتيلا» وكانت «اسـتيلا» في «مود» سيئ بسـبب الكشك وأصحابه الذين تمادوا في مضايقاتهم لرواد المكان عن بعد ودون احتكاك مباشـر، وانهالت شـكاوى الزبائن على رأس «اسـتيلا» فاضطرت لمقابلة صاحب الكشـك مرة أخرى وافتعـل الدهشـة وادعـى أن مَن يضايق زبائنهـا ربما يكون أحـد زبائنه وهو لا يملك سـلطة عليهم، ثم نصحها سـاخرًا بأن تسـتأجر طاقم حراسـة لكي يحموا زبائنها، واشـتمت في كلامه تحديًا معلنًا بأنها لو اسـتعانت بالشـرطة أيضًا لن تأخذ معه «حقًا أو باطلًا».. صبرت عليها قليلًا وأنا جالسة بجوارها أتأملها وأجهد ذهني في إيجاد حلـول، لكنها فاجأتني بأن الحل هو أن تبيع المطعم بسـعرٍ مغرٍ أو تشـتري الكشك بسـعرٍ مغرٍ أيضًا، وأنها من هذه الليلة سـتتدارس الأمور مع شقيقها وزوجها ومحاسـبها القانوني مع تكليف أكثر من سمسـار بإيجاد مشـترٍ للمكان والبحث عن مكان بديـل، لم أرَ في حلها هذا أية إضافة فسبق أن طرحه «عماد» ولم تأبه له حينها، سـكت لكي أنتقل للموضـوع المهم وسـألتها عـن أولاد خالتها مـلاك منزلنا بمصـر الجديدة الذي تسـكن فيه «استيلا» حتى الآن بينما أنا و«رويدا» أجرنا شقتنا للمنظمة الدوليـة، أجابتنـي بلا مبـالاة بأنهم لم يرجعـوا بعد من رحلتهـم إلى جزيرة كريت وسـيعودوا في نهاية شـهر مايو كما أخبروها هاتفيًا وسيمكثوا بمصر شهرًا واحدًا إلى أن يغادروها مرة أخرى للتصييف في أوربا، سألتها إن كانت

قد تحدثت معهم في الموضوع الذي كلفتها به، أجابتني وهي تدعي الحكمة بأنها رأت أن الأفضل أن تتحدث معهم في موضوع البيع عقب رجوعهم وفي حضور كل الورثة حتى نتعرف على مطالبهم الكاملة قبل التفكير في البيع، لأن أمور البيع والشراء يجب ألا تتم في عجالة ولا عبر التليفون، ظهر ضيقي لكنها تجاهلته، وكان الليل قد بدأ يدخل المكان مصطحبًا معه الزبائن، بانت على وجهها فرحة ازدحام المكان وفوجئت بيدها ترفع يدي وهي تنهض وتهمس لي: «تعالي عايزاكي ضروري»، ثم سحبتني إلى مكتبها الذي تدير منه المكان هي وأسرتها، مدت لي يدها بسيجارة مخلوطة بالحشيش لكني رفضتها وهمَّت بأن تفتح «الميني بار» لكي تضيفني بكأس فقلت لها بضيق إني لن أبقى طويلًا وسأخرج للتمشية في الشوارع القريبة ثم أعود بمجرد أن يحل محلها من عليه الدور في الإدارة، ضحكت وهي تنظر إلى ساعتها وقالت: «مافيش لزوم للخروج كلها نص ساعة ويجي الإفراج»، تركتها لحظات تنفث دخان سيجارتها وراودتني الرغبة في مشاركتها وكأنها أحست بذلك لأنها مدت يدها بسيجارتها المشتعلة لكني أشحت بيدي وسألتها بجفاء عن الموضوع الذي أسرتني بسببه داخل هذا المكتب، قالت إنها تريدني خصيصًا لبحث موضوع «ملك»، «تنرفزت» جدًّا وكدت أبطش بها وبصداقتنا وبـ«ملك» وبالزمن الزبالة الذي جعلني عرضة لوعظ «استيلا» والذي قد يصل إلى تقريعي على سوء تربيتي للبنت.. من «استيلا» التي أنا أدرى بها وأدرى برباياتها المهببة، كلهم أصبحوا أوصياء على ابنتي، «رويدا» مستاءة من تنازلي عن «ملك» لأبيها وخنقتني بكلامها المغموس في السم عن حنان الأم وخرا الأم وهي «مش أم أصلا وعشان تبقى لا مؤاخذة أم لازم تعمل اللي أنا عملته ده لو سليم جوزها عايز ده أو

عنده إمكانية لده.. حتى أحمد الضوي اللي عارفه مشاعره تجاه ملك لا يمكن يفوت مناسبة إلا ويسأل عنها.. يا ولاد الكلب يا زبالة هو مافيش حد في دنيتكم تقرفوه غير ريم مطر..

***

بداخل خانات كمصائد الفئران عناوين باللغتين العربية والإنجليزية عن حدود المعدل الطبيعي لحركة الطفل وسلوكياته، الخانات متراصة ومتجاورة، الأولى للطفل المخرب يليها الطفل كثير الحركة ثم الطفل الفوضوي ويليهم الطفل العنيد ثم الطفل الغبي وآخرهم الطفل قليل الانتباه، هناك أرقام تخص «ملك» داخل كل الخانات فيما عدا خانة الطفل الغبي، وهذا طبيعي من وجهة نظري، فهي أذكى من أبيها ومن زملائها، يلي هذا الجدول العامر بملاحظات أطباء ومشرفين عن «ملك».. تقارير طبية ومتابعات نفسية عنها، التقارير الطبية كلها من أهم المستشفيات بالخليج ومن أطباء مشاهير باكستانيين وهنود ومحتوى التقارير متشابه وبه إجماع على سلامة الطفلة العقلية مع توصيف لحالتها بأنها تعاني من متلازمة النشاط الزائد غير الناشئ عن أي تلف دماغي، كما أن زيادة مستوى النشاط الحركي عن حدود المعدل الطبيعي ليست زيادة كبيرة ولا تكاد تلاحظ داخل حدود المنزل عندما تكون الطفلة تحت سيطرة أحد الوالدين، لكنها تزيد زيادة ملحوظة جدًّا في الشارع أو في المدرسة، مما يسبب لها فشلًا في حياتها بسبب قلة التركيز

هذا مختصر التقارير التي أرسلتها إلـيَّ يا «علي» قبلما ترسل «ملك» والتي تفيد بمعرفتك الكاملة لسلوك «ملك» المضطرب المقلق جدًّا

خارج البيت والذي لا تزال مصرًّا على أن تقاعسي هو من أسباب فشلها في المركز، رغم أننا ندرك معا منذ الشهور الأولى في عمر «ملك» أنها ليست طبيعية مائة في المائة، من صراخها غير الطبيعي وحركتها الدءوب التي لا تكف إلا عند نومها المتقطع، وكلما كبرت بضعة أشهر ظهرت هذه الأعراض أكثر، وكنت لا تصدقني وتتهمني بأني السبب لأني لا أرضعها من ثديي أو لا أجعلها تنام في حضني، ما لي أنا ومال أمك التي كنت تبيت في حضنها حتى بلغ عمرك ست سنوات، أنا نشأت هكذا لا أتذكر وجه أمي وأنا صغيرة، بقدر ما أذكر أختي «رويدا» وهي تلاعبني أو تهدهدني أوتهددني بالعقاب في غرفتنا، التي كانت تقتحم علينا الغرفة إذا ما صدرت عنا أصوات عالية أو صرخت إحدانا، كانت المربية، أمي كنت أراها على مائدة السفرة أو خارجة من الشقة بلبسها الرسمي وهي تمنحنا قبلاتها بفم لا تزال تفوح منه العصبية التي خاطبت بها الخدم أو المربية منذ قليل، عشت طفولتي في مهد صغير وسط غرفة فسيحة، ما ذنبي إن كنت عشت طفولتك وسط سرير نحاس في حضن أمك بداخل غرفة صغيرة.

عندما عرضنا «ملك» على طبيب لأول مرة، بعد سلسلة طويلة من الفحوص والأشعات وبعد أن اطلع على تفاصيل عملية الإنجاب، برأ الحقن الموضعي من الاتهام وأكد على أن «ملك» طبيعية جدًّا، ومع تقدم العمر سيعتدل سلوكها، وأرجع سبب هذه الاضطرابات إلى أسباب وراثية أو إصابتي بمرض في أثناء الحمل أو لتناولي أدوية دون استشارة طبية، ولم تهتم يا «علي» بالبحث في الأسباب الوراثية بقدر ما اتهمتني بأني كنت أبلع الأقراص في أثناء الحمل دون اهتمام بما في بطني، «أقراص إيه يا روح

ماما.. الكيتوفان عشان أم الصداع النصفي إللي كل أمهات العالم بتاخده.. خليته هو السبب»..

النقطة الجيدة في نهاية التقارير أن الحالة لا تعاني من صعوبات التعلم، فهي تتسم بالذكاء الشديد والقدرة على التلقي إلا أن اضطراب فرط الحركة وتشتت الانتباه الموجود لديها بوفرة قد يؤدي إلى عدم التركيز ويؤثر بالسلب على عملية التعلم التي تحتاج إلى التركيز للفهم والتحصيل العلمي والحفظ.

وهذا ما جعل «علي» يشركها وهي لم تبلغ العامين بعد في أغلب الأنشطة الرياضية بالنادي الرياضي الذي التحقنا به، وفي الحقيقة ساعدها هذا كثيرًا لأنه أفرغ كل طاقتها البدنية وساهم في هدوء البيت ولم تبقَ لنا مشكلات بخلاف النزاع والخناق والتوسل للأهالي الذين أصاب أولادهم وبناتهم ضرر في أثناء اللعب مع ملك، وقد أنهوا اشتراكها في أكثر من لعبة رياضية بسبب هذا العنف، ثم ألغوا عضويتها والتحقنا بنادٍ آخر بعد أن كلفنا شغالة صغيرة السن بمرافقة «ملك» في كل مكان ومنحتها حق قمعها بأية طريقة رغما عن «علي»..

في تلك الفترة حاولت العودة إلى التمثيل في الأستديوهات الخليجية ووافق «علي» كعادته وهو يضمر في نفسه ألا أوفق في محاولتي هذه، وبعد مسلسلين وسهرة تم حصاري فيهم في دور الفتاة المصرية صديقة البطلة الخليجية، تتكلم «البريمادونا» وأنا أبتسم، تتزين وأنا أمدح جمالها، يحبها نصف ذكور المسلسل وأنا أنصحها، تعيش «البريمادونا» بصحة جيدة طيلة أحداث المسلسل بينما تدوسني سيارة أو أمرض

بمـرض خطيـر أو ينهـار المنـزل علـى عائلتـي بمصـر فأغـادر المسلسـل بلا رجعة.. وكل هذه الأحداث تحدث في الربع الأول من المسلسـل بينما «البيرمادونـا» لا تزال تحـزق تمثيل حتى تترات النهايـة، وفور انتهاء عرضه تجدهـا جالسـة علـى الفوتيه مـع المخرج والكاتـب والبطل فـي مقابلة مع مذيعة شـهيرة.. (يخرب بيـت أم الخرا). ذكرني هذا بمـا حدث لي في أول أدواري السـينمائية بمصـر، كنـت بعـد أن نال «علـي» نقـدًا وتقريعا وضربا تحـت الحزام بسـبب منحي دورٍ ثان في مسـرحية من إخراجـه وبعدها دور بطولة، قررت أن أعتمد على نفسـي وكلمت منتجين وعاملين في السـينما، وشبشبت ولطشت بالقلم وهزأت في التليفون بعضهم الذين عاملوني على أني «مُزّة» جامدة فشخ، طبعا ليس من قبيل العفة لكن لمعرفتي أني لو تركت واحـدًا مـن المخنثين هؤلاء يركبني سـيطمع فيَّ أحقر عامل في الأسـتديو، ويبـدو أنـي اشـتهرت بالحـدة والغلاسـة لأن الأبـواب التـي انفتحت على آخرهـا ضاقت بسـرعة كبيرة، والذين قبلوا أن أمثل دون أن أعمل «تيسـت» فـي غرف نومهم، يبدو أنهم قـرروا أن يحاربوني بطريقة أخرى، أو بصحيح العبـارة قـرروا ينتقموا منـي طبقيًا، يمنحونـي أدوارًا متدنية مثـل مضيفة في كافتيريـا أو موظفة أرشـيف أو خادمة لبطلة المسلسـل الـذي يعلم القاصي والدانـي أنهـا فعلا ترعرت خادمة حتـى كرمها القدر وتعلمـت الرقص إلى أن حشـروها في المسلسـلات، قبلت مسلسلًا أو مسلسـلين من هذه العينة، لكـن المخرجين التالين غيـروا التكنيك بعد ذلك.. تعمـدوا أن يدعوا أقل كومبارس في المسلسل يتحرش بي داخل الأحداث ويهاجمني ثم أستسلم لـه طبقًا للـورق، فينهال فعصًا بجسـدي وهو يتقرب بفمـه المفتوح بروائح

البصل والثوم شارعًا في تقبيلي، ثم جاء مخرج واقعي من أنصار مذهب الواقعية القذرة، وكان الدور لشخص متخلف وأبله يستثار بينما أنا أسير أمامه فيهجم على جسدي ويمزق ملابسي، ثم يعبث في مفاتني ويقبلني إلى أن يأتي البطل وينقذني من يديه، أجرى لي هذا المخرج عدة بروفات مع ممثلين ثانويين لم يقتنع بأدائهم، ثم أحضر لي شخصًا أبله تمامًا لم يمثل من قبل، ريالته تتساقط كالكلب «البولدج» وأمره بأن ينقض عليَّ من الخلف، صرخت وقلت له «أستوب» فتوقفت الحركة عدا الأبله الذي كان مصرًّا على الاقتراب مني، صرخت في وجهه أكثر ففزع وعاد إلى موقعه، لامني المخرج بعصبية وكاد يسبني لولا حذائي الذي اندفع وأغلق فمه، دخلنا بعد ذلك في تحقيقات وتجريس في الصحافة الصفراء ثم قضايا انتهت بالصلح بعد تدخل أطراف متعددة، ودفعت له كي أعوضه عن الحذاء الذي عانق وجهه، ولم أمثل بعدها في مصر لكني عدت وسوف أنشئ معهد أكاديمي يعلم التمثيل لهؤلاء الفشلة.

بالعودة مرة أخرى إلى موضوع «ملك» أضع ملاحظات كثيرة في «بلوك نوت» أعجبني تصميمه فاشتريته من قرطاسية ديوان، لم أعتد في حياتي على كتابة يوميات أو خواطر أو كل التفاهات التي كانت بعض المراهقات تفعلها، لكني اكتشفت متأخرًا جدًّا أني في أغلب خناقاتي واشتباكاتي مع طليقي «علي» كنت أنسى كثيرًا من تفاصيل النزاع خاصة الأشياء التي تدعم موقفي، بينما هو الذي تربى على حفظ كل تفاصيل المسرحيات المكتوبة والمنفذة وأدب التراجم، كان يستفزني كثيرًا وهو يرتب لي أخطائي تصاعديا ويغفل عامدًا اتهاماتي الصحيحة التي وأنا في أتون المعركة كنت

أنسى بعض دقائقها، كان يقف أو يجلس هادئا يلقي على وجهي بالاتهامات المخزية بصوت هادئ مسرحي رتيب وأنا أصرخ وأسبه وألعنه وألعن العيشة معه وأستغرق تمامًا في التنقيب داخل عقلي عما يثيره أو يهينه أو يعصبه، وفي المقابل كان يزداد هدوءًا ويستخدم أصابعه عن بعد لتهدئتي، وكان ذلك يصيبني بالجنون ويشعل غضبي وفي تلك اللحظة سواء كان موقع المعركة في مصر أو الخارج، وسواء كانت داخل البيت أو في مكان عام كنا لا نعدم مشاهدين يرون معاركنا.. يرون الهادئ العاقل «علي» وهو يحاول كبح المجنونة قليلة الأدب التي هي أنا، ثم يستخدم هؤلاء الشهود فيما بعد إذا ما رغب في مصالحتي أو في تبرير تصرف أحمق قام به تجاهي وناولته عقابه الفوري، وبعد أن تم الطلاق بيننا وتنازلت عن كل ما يقولون أنه من حقوقي، وتصورت أن بوجود «ملك» معه سأقطع دابر العلاقة نهائيا وأعتبره دخل حياتي دخولا عابرًا ثم تلاشى.. ها أنا معكوكة تمامًا وها هو يتلكك لي بسبب «ملك»، لذا استعنت لأول مرة بهذا البلوك نوت لكي أسجل فيه قبلما أنسى بعض التفاصيل الخاصة بـ«ملك» والغائبة عنه حتى إذا ما التقينا مرة أخرى أراجعها بسرعة قبل أن نشتبك في الخناقة وحتى لا يكتفي لساني في الدفاع باستخدام الشتائم فقط، وها أنا أعود إليه لأقرأ بعضه.. مركز تحسين السلوك الذي رأت أهم مدارس الخليج أنه المركز الوحيد القادر على تحسين سلوك «ملك» والذي قال لي عنه في محادثاتنا المشتركة إنه سيرحب على الفور باستقبال «ملك» طالما سندفع قيمة الرعاية بالدولار، اكتشفت فور زيارته ومقابلة مسئوليه أن هناك قائمة طويلة تنتظر دخوله ومن الصعب تخطيها لأي سبب، والمطلوب تسجيل اسم «ملك» والانتظار الذي قد يمتد إلى سنتين.. يعني لا «علي المنصوري»

ولا جـد جـدوده يقدر يدخلهـا، بينما لـم تأخذ مني مسـألة دخـول «ملك» المركز أكثر من أسـبوع، بحثت وتقصيت حتى وجدت أحد معارف «مامي» لا زال خبيـرًا مؤثـرًا فـي وزارة التعليـم وقابلته وبتليفون واحـد منه تـم قبول «ملـك»، ألا يدخل ذلك في ميزان حسـناتي! وتلومني لأني لـم أهتم بتنفيذ اقتراح المركز بإلحاق «ملك» بأي مدرسـة شهيرة تقضي فيها بعض الشهور ليسـهل متابعتها من اختصاصي المركز أو على الأقل أن أحضر لها مدرسـة متخصصـة وأعمل لها «لينك» مع المركز أحا يا «علي».. هل نسـيت أنك أخبرتني بأن مركز تحسـين السـلوك لن تمكث «ملك» فيه أكثر من شـهر أو بالكثير شـهرين ثم اكتشـفت مؤخرًا أنهـا يمكن أن تقضي فيـه عاما كاملًا.. بنـاء علـى كلامك فـي البداية يـا «علي» كيف سـأقدم لـ«ملك» في مدرسـة والفترة التي سـتقضيها في مصر لن تتعدى شـهرين، كما أنهم طلبوا إدخالها مدرسـة أو أن أدع معلمة تتابعها بعد انقضاء الشـهر الثاني لدخولها واعتبرته مـن قبيـل الفكاهة أو المسـرحيات السـركازم التي كنت تدرسـها لنا، كيف يـا عبقري يا سـابق عصـرك أقدم للبنـت في المدرسـة بعد مرور ربـع العام الدراسـي، وأنت تعلـم أن التقديم للمدارس بالحجز وحتى لو اسـتخدمت صـلات أبي أو صديقـات أمي التـي أفنت حياتها فـي التعليم مَن سـيتابعها فـي المدرسـة وفـي المركـز.. هل ما زلـت تتصور أنـي جارية أمـك.. أنت لا تهدف لتعليم ابنتك بقدر ما تهدف إلى تعويقي.. سـمعت بقراري الإقامة بمصـر فقـررت أن تنكـد علـيَّ حياتـي وتفسـد علـيَّ أي ارتبـاط محتمل.. بالضبـط كمـا توليـت تعليـم «ملـك» التمثيـل فـي الخليـج وهي فـي عمر الثالثـة بحجـة أن هـذا هو العـلاج الفعال للاسـتفادة من إفراطهـا الحركي، كأنـك ترسـل لي رسـالة عبيطـة بأن هـذه البنت سـتحل محلي فـي التمثيل

والفـن.. والمطلـوب منـي أن أرعى هـذه الموهبة وأدفن مواهبـي.. لا أنت ولا ألف مثلك قادرون على تعويقي.. وسـترى يا «علي» كيف سيدوي اسم المعهـد الذي سأنشـئه في غضـون عامين أو ثلاثة.. ولـن ألحقك به إلا بعد أن تجتـاز كل الاختبارات التي سـأضعها خصيصا لـك.. مثلما يريد المركز منـي أن أفعلـه بألا أجعل أيـة معلمة تدرس لـ«ملك» إلا بعـد أن أقدمها لهم وأخضعهـا لاختباراتهـم.. تقـول إني لا أحـب ابنتي.. ماذا تعـرف أنت عن الحب بخلاف أن روميو كان يغازل جوليت من أسفل بلكونتها، أنت سعيت لإلحـاق «ملك» بالمركز وورطتنـي معها.. وجعلتني ألتحـق به مثلها.. هل كنـت تتصور أن «ريم مطر» في أصفى أحلامك تخضع لأسـئلة وملاحقات وتقييـم مـن اختصاصيـات وطبيبـات المركز في كل مـا يتعلـق بـ«ملك».. كأنهـم عينوني جاسوسـة عليهـا وتتوالى الجلسـات وتعاد صياغة الأسـئلة كأنـي بلهاء لـن أعرف أنها لم تتغير أو كأنهم يشـكون فـي مصداقيتي وعلى وشـك إخضاعي لجهاز كشف الكذب.. لولا أنها ابنتي وأي تصرف أحمق من تصرفاتي الشـهيرة قد يدمر مستقبلها نهائيا، لسمعت في نشرات الأخبار مـا فعلتـه بهـم، يجعلوني أشـاهد أشـرطة فيديو صـورت للأطفـال وبينهم «ملـك» وهم يلعبـون كلًا على حدة ألعابًـا تركيبية مثـل الميكانو وخلافه.. وهم يلتزمون حد الأدب لأن المشـرفة وسـطهم، ثم تغادرهـم وهنا يبدأون في الاشـتباك وفي مقدمة المشتبكين ابنتنا العزيزة «ملك»، يصورونهم حتى يسـهل ملاحظة سـلوكهم وبناء على موافقة ولي الأمر التي وقعت عليها في اسـتمارة الدخـول إلى المركـز، لو رأيت مثلي مـا تفعله «ملـك» في انعدام الرقابة لأدركت عمق الجريمة التي أجبرتني على ارتكابها عن طريق الحقن المجهري.

جيهان العرابي

رغم أننا خرجنا من القاعة إلى الحديقة الكبيرة التي تطل على النيل، وانتهت وقائع الاحتفال الرسمي بالترقيات الجديدة في سلك القضاء، إلا أني كنت أتمنى أن يقذفني ذلك الهواء الطيب إلى خارج نادي القضاة، وكنت مكبلة بالزمن، فما أنا أشارك به الآن أحد الأمور العائلية التي كنت أعتقد أني بموت والدي نأيت عنها.. إلا قليلًا من المنغصات التي كان يتدخل بها أخي المستشار وزوجته في حياتي. إما بدعوى الاطمئنان عليَّ أو لومي أو ترشيح أزواج لي.. الغربة فقط كفتني أخي الطبيب وزوجته وأولاده الذين ينجبهم بعدد السنوات التي يعمل فيها هناك.. بت أكره المناسبات والأعياد الرسمية التي تقحمهم في حياتي ولو عن طريق الهاتف، وطريقة انتقالهم من التحية والتهنئة إلى الدخول في شرايين حياتي.. وها هو أخي الأكبر قد أصبح محاميًا عامًّا ودعاني إلى حفل تكريمه.. ولحسن حظي كانت «بسمة» في فترة وفاق مع «خيري» - أو هكذا ادعت - وهو في راحة منها ومن زوجته لأنه بصدد التحضير لمحاضرة مهمة في الاقتصاد.. وكانت لا تجد ما يشغل حياتها خاصة بعد أن انفصلت «رنا» عنا أو كادت بعد آخر زيارة قمنا بها لمواساتها في مصابها الأليم.. طلاقها الرسمي الذي تهادى فوق محمل من عربات الكارو حاملا عفشها خلال شوارع المعادي الهادئة حتى استقر في النهاية أسفل بيتها، ويومها عدت في حالة

استياء بالغة ليست مما فعله «فؤاد» طليق «رنا»، بل من برود «رنا» تجاه ما حدث، برود صدمني جدًّا وهشم التصور السابق الذي بثته إلى عقلي عن علاقتها الزوجية بـ «فؤاد» وهي تتكلم عن الأحاسيس والمشاعر أو حتى عن طريق نميمة «بسمة» عن هذه العلاقة أو ما رأيته وصدقته وهي قلقة عليه أو مبتهجة لترقيه في عمله أو لمجرد نشره ما يشبه القصة القصيرة في نشرة ما أو مرتعبة من أن يفسد والدها علاقتها به، لم يخطر ببالي قط أن تستقبل خبر طلاقها من «فؤاد» بهذه البساطة وتتخلى عن وحيدها الذي لم يشتد عوده بمثل هذه الأريحية.. بل تبرر قبولها هذا الوضع بإجابات غير منطقية.. بأن أخته التي حرمها الله من الزواج والأطفال تحب طفلها وستعتني به أكثر منها وأنها مطمئنة تمامًا إلى ذلك، كانت «بسمة» تحدجني بنظراتها حتى لا أزيد في الأسئلة وكنت أنظر إلى «رنا» أكثر صديقاتي قربا وأكتشف أني لم أعرفها بعد، وعندما فرت «بسمة» بسيارتها بسرعة أدركت أن هناك شيئًا بينهما غامضًا.. ترى ما الذي دبرته «رنا» وتعلمه «بسمة» وأجهله؟ عندما هاتفتني «بسمة» اليوم وأخبرتني بزهقها وجدتها فرصة لكي نلتقي وأعرف منها ما يشفي غليلي.. أخبرتها بحفل تكريم أخي ضمن جوقة من القضاة وأعضاء النيابة، وكنت أتصور أنها ستطلب مقابلتي عقب الحفل، لكنها فاجأتني باستعدادها لحضور الحفل، وافقت بالطبع وجاءت وخففت عني هذا الاحتفال السقيم، لكني بمجرد أن انفردت بها على منضدة بالقرب من حافة النهر هرعت إلينا «حنان» زوجة أخي بزيف المشاعر وفجاجة الابتسامات وكم المجاملات الفجة التي تثني على جمالي وشياكتي وفتنة «بسمة»، ثم جرتنا جرًّا إلى المنضدة الكبيرة التي يتصدرها أخي وتجاوره فيها أردية رسمية وسيدات تضيء على أعناقهن وحلمات آذانهن فصوص

الحجارة النفيسـة، ثـم كالمتوقع منها تمامًا بعد فتـرة زمنية قصيرة ودون أي داع عرفتنا على شـابين من رجالات النيابة كانت قد أجلستنا أمامهما بجوار «ريتـاج» ابنتها وتناولت منهما كارتيهما الشـخصيين ومدت يدها إلينا بهما، نظرت «بسـمة» تجاهي بابتسـامة مكبوتـة وقلدتني وأنا أضـع الكارتين في حقيبتـي بإهمال دون حتـى أن أتطلع إليهما، راقبتني زوجـة أخي منتظرة أن أرد الهبـة وأمنحهمـا كارتي الشـخصي، لكني قلت بفجاجـة: إننا لا نمتلك كروتا، فسـكتت زوجة أخي وقد أدركت أني على وشـك أن أفسد الأمسية، «بسمة» قررت أن تبدو محايدة وتبادلت الحوار مع شخص منهما كان يبدو عليه الاهتمام الكبير بها، ثم طلب منها رقم هاتفها وأعطته له ببساطة وبدت مبتهجة وهي تراه يسجل رقمها باهتمام.

غـادرت الحفـل قبيل السـاعة التاسـعة موعـد حضوري عـرض الفيلم الروائـي الذي أخرجـه «إبراهيم» وتولى مونتاجه «فريـد» وكنت قد رفضت تصويـره لأني لم أقتنـع بقصته الغرائبية، ولا ببطلته التي أشـاد بها «إبراهيم» كثيـرًا، وعندمـا التقيت بها لم أبلـع ادعاءها وتفاهتها، ورفضت «بسـمة» أن تصحبني إلى مركز الإبداع بالأوبرا حيث يعرض الفيلم، وقالت إنها ليسـت لديهـا طاقة صبر مثلي كي تتحمل نوعيـة هذه الأفلام وطلبت مني أن أتصل بهـا بعد نهاية الفيلم لكي تلحق بي إلى البيت، وقد كانت على حق فعلا فقد أغرقنـي «إبراهيـم» في ضوء كاب في أنقاض أحد القصـور القديمة والبطلة التـي يفضلها تصارع أوهـام وتصورات ثم تفيق في نهايـة الفيلم على انتهاء كابوس أطبق علينا بقدر أكبر مما أطبق عليها، وانتهزت فرصة احتفاء بعض الزمـلاء والصحفيين بصنـاع الفيلم واسـتأذنت «إبراهيـم» للانصراف على

أن نلتقـي فـي يوم آخـر للنقاش حول الفيلـم وهرعت إلى البيت ومارسـت طقوسي السريعة ثم استدعيت «بسمة».

كنـت قـد لمتها بحـذر على مـا فعلتـه وتركته خلفهـا عندمـا باتت معي فـي آخـر مرة واعتذرت بسـوء حالتها النفسـية وهـا هي تعـود للمبيت معي بالشروط الجديدة رغم أن حاجتي إليها هذه الأيام مختلفة.. وليست بسبب تسـاؤلاتي حول تصرفـات «رنا» التي أربكتني فقط، لكن بسـبب إحسـاس غالـب بالوحدة أستشـعره هذه الأيام، وبات يطبق على أنفاسـي ويشـعرني بأن الجدران والعوازل التي أتفنن في وضعها بيني وبين الآخرين باتت تسد علـيَّ أنفاسـي، حتى بـدت تلوح لي خواطـر عجيبة منها مثـلا أن أصير مثل «بسمة»، أهيم مثلها وراء سراب وأفتعل أنه حقيقة!

بعد أن ارتدت «بسـمة» قميص نومي الذي اخترته لها حتى لا تعبث في أشـيائي، مـدت يدها إلى حقيبتهـا وأخرجت منها الكارتيـن ومزقتهما وهي تضحـك وتقـول: «دي أقـارب Style ماتفهميش هما حاطينـا على قلوبهم وبيزعقـوا، عايزيـن يجـوزوا أي مطلقـة أو أرملة أو عانس بـأي طريقة، وأنا ريحت مرات أخوكي عشان تهمد»، ثم أردفت حوارها وهي تناولني كرة من فقاقيـع الهواء «Bubble» وعقبت: «ودي هدية مني عشـان متتقمصيش زي المرة اللي فاتت وعلى فكرة دي نص كيلو يعني مسموح لي أشاركك فيها».. ولما سكت جلسـت وأخرجت «اللاب» وركزت عينيها على شاشته، مرت فترة صمت طويلة اضطرتني لأن أسألها عن «رنا» حتى تترك ما بيدها، لكنها دون أن تحول عينيها عن الشاشة أجابتني ببرود: «رنا زي الفل.. وأحسن مننا إحنـا الاتنيـن». اقتربت منها ووضعت كفي على شاشـة اللاب وطلبت منها

أن تنحيه جانبا وتكلمني، أطاعتني وبدت منشرحة لاستفزازي وتبسمت وهي تخاطبني: «أيوه يا جيجي رنا كويسة.. وبطلي تتوغوشي علينا كأننا لسه أطفال»، اندفعت أقول لها: «يعني إيه معنى كلامك ده يا بسمة.. انتوا مخبيين حاجة عني؟».. ضحكت «بسمة» وقالت: «مش مخبيين حاجة.. بس على فكرة رنا عارفة طريقها كويس ومدام أصرت على الطلاق وما اهتمتش بنتيجته.. تبقى دي رغبتها.. وإوعي يا جيجي يكون جه في بالك إني ساندتها في الخطوة دي.. عشان يعني أنا مطلقة وعايزه أصحابي يبقوا زيي.. والكلام البيئة ده.. اسألي عمي أنا كنت ضد الخطوة دي تماما.. وهو كمان رغم إنه مش بيطيق فؤاد.. فكرة الطلاق ربكته وحاول عرقلتها شوية لكن رنا أصرت إصرار غريب.. والموضوع تم بمنتهى السلاسة.. سيبك من الموكب والجرسة.. المهم إن كل أطرافه سعداء دلوقت.. أو بيظهروا ده على الأقل.. الولد مع فؤاد عند أخته.. ورنا بتحضر لعمل أدبي كبير وأبوها رجعت روحه إلى حضنه.. ماحدش واخد الموضوع على صدره إلا إنتي يا جيجي»، تضايقت من نبرة «بسمة» وهي تنهي حوارها واتهامها المعلق فوقي بأني أضخم الأمور وأفترض مشكلات غير قائمة.. سألتها عن أحوال ابنها ويبدو أن ذلك ضايقها بشدة لأنها أجابتني بحدة: «على فكرة حازم كويس قوي ومتفوق في دراسته وبيبات في حضني كل يوم.. وبأكافئه كل ما يعمل حاجة كويسة في المدرسة أو في تدريبات السباحة في النادي.. وإن كنتي فاكرة يا جيهان إني من ساعة ما عرفت خيري بقى ابني في الدرجة الثانية تبقي غلطانة... ماما بعد ما خرجوها من شغلها معاش مبكر هي اللي شبطت في تربيته وده بصراحة أنقذها من حاجات كبيرة.. بقى عندها هدف تاني تعيش عشانه.. واختيارها تربيته كان قبل ما أعرف خيري خالص..

جيهان إنتي ممكن تكوني مش بتحبي خيري.. أو مش بلعاه.. أو خايفة عليّ منه.. كل ده مسموح لك عشان انتي صاحبتي من زمان.. بس عشان خاطري أوعي تفكري لحظة واحدة إني نسيت أمومتي»..

كان كلامها كالمطارق يدوي في رأسي ولولا اختلاجات الحزن التي تخللت عباراتها لوبختها، أو على الأقل دافعت عن نفسي أمام اتهامات بالغت في اتهامي بها.. ففي الحقيقة كانت فكرة إهمالها لابنها غير واردة في ذهني طول الوقت ولكن «رنا» بفعلتها الأخيرة ضخمتها حتى خيل إليّ أن هناك لعنة تطارد ثلاثتنا المنجبات منا والخاليات مثلي.. وهنا تذكرت «تميم» مرة أخرى وإذعاني لرغبته في تأجيل الإنجاب خمس سنوات وفراره مني بلا أثر.. وما أفعله بعده من رفضي لكل أشكال الارتباط وضمور حاسة الأمومة التي أفتعلها بالتنكيد على صديقاتي..

كانت «بسمة» قد عادت إلى «اللاب» وهي تختلس النظر تجاهي ثم ابتسمت وقالت: «ماتزعليش يا جيجي من كلامي إنتي عارفة إني بقيت في حالة توتر دائم.. سرمدي لا ينقطع.. الله يخرب بيت الحب وسنينه وأيامه.. لا وهو بعيد مرتاحة ولا وهو جنبي مرتاحة.. على رأي الأغنية.. المهم.. هتعملي إيه في الموضوع اللي عايزة تاخدي رأيي فيه؟»، اندهشت جدًّا وسألتها: «موضوع إيه يا بسمة؟ إنتي طلبتي تيجي عندي تغيري جو وأنا وافقت»، نظرت «بسمة» تجاهي بمكر وقالت: «ماشي أنا متطفلة وانتي مش عايزة مني حاجة.. ما علينا.. ممكن أسألك هتعملي إيه في موضوع عيد ميلاد أحمد الضوي اللي جاي بعد بكره؟»، أبديت اندهاشي وقلت باستنكار: «هو عيد ميلاده بعد بكره؟ وهاعمل إيه يعني.. عادي.. كأني

ماعرفتش»، ببسمة المكر ذاتها قالت: «عيب عليكي يا أختي.. إنتي لسه مكشماله قريب.. على الأقل خليكي مجاملة وابعتيله على صفحته بوكيه ورد ولا تورتة كبيرة أو أي استيكرز.. أنا عارفة إن أصحابه مالهمش في الحاجات دي وبدل ما تبقى صفحته عريانة زينيها شوية»، دورت الأمور في رأسي وقلت بحسم: «أنا مش هبعتله حاجة أنا آخر مرة بعتله رسالة اعتذار وماردش.. خليه كده عشان ميتمرعش.. وبعدين مش معقولة أحطله استيكرز وصفحته ماحدش بيعبرها.. حيكون شكلي إزاي؟»، قالت بثقة: «ابعتيله الاستيكرز داخل رسالة إنبوكس.. هتبقى حاجة لطيفة»..

لم أقتنع بفكرتها وسألتها بفضول: «قوليلي الأول إنتي عرفتي عيد ميلاده ازاي؟»، ضحكت بشدة وهي تقول: «إيه يا جيجي عليّ أنا.. ده أنا باخترق حسابات المحترفين هاغلب في حساب أحمد الضوي.. على فكرة وأكيد انتي عارفة أنا باسلي نفسي على طول في حساباتكم ولو حبيتي أوريكي شوية من مهازل أصحابك إبراهيم وفريد والصور الرقيعة اللي بيتفرجوا عليها سرًّا تعالي أوريكي».. أمسكت يدها لكنها واصلت الكلام: «عارفة المقولة السايدة دلوقتي إن النت خلى العالم زي القرية المفتوحة.. مش حقيقة على فكرة ده خلى العالم كله أوضة نوم»، قالت ذلك بانتشاء واضح مما جعلني أستفزها وأنا أستفسر منها: «طب جاوبيني بصراحة يا بسمة وماتزعليش مني.. معقولة بكل إمكانياتك دي مش قادرة تعرفي حاجة عن زوجة خيري ولا حسابها في الفيس بوك؟»..

تكدرت «بسمة» جدًّا لدرجة جعلتني أعتذر لها بسرعة، وكان اعتذاري هذا بمثابة مسكن سريع المفعول لأنها بعد أن شردت قليلا قالت: «عارفة يا

جيهان الغرفة المغلقة في كتاب ألف ليلة وليلة وفي أغلب الآداب العالمية.. اللي هي داخل قصر كبير مليء بالمتع لكن دايمًا سيد القصر يحذر من فتح الغرفة دي.. ودايمًا تفتح في النهاية وتخرج منها تعابين وحيات وجثث أموات بتنهش وتعض.. أنا حاسة إن خيري بدون ما يتكلم حذرني أفتح الأوضة دي.. اللي على واجهتها مراته لأني لو فتحتها هاواجه كل شرور العالم.. صدقيني يا جيجي بابقى كتير كأني على وشك الانفجار وباصحى وكلي رغبة في البحث عن مراته لكن شوية عقل بتردني.. ادعيلي يا جيجي إني أفضل صامدة لأطول مدة ممكنة»، ثم بكت «بسمة» واحتضنتها بشدة ولم أتمالك نفسي وبكيت معها.

ثم اتفقنا على ألا ننكأ الجراح ونتعامل كسيدتين من ربات البيوت نبتكر في صنع العشاء من المكونات الموجودة في الثلاجة، وحضرنا عشاءنا وأكلناه على ضوء الشموع بعد أن أطفأنا الأنوار بناء على اقتراح «بسمة»، ثم كلمها «خيري» وكان هذا غير مخطط له كما أخبرتني لاحقا وبعدما انتابتها فرحة غامرة جعلتني أترك لها الشرفة حتى تنتهي من مكالمته، ثم سألتها عن سر هذه الفرحة، فأخبرتني بأنه أبلغها أنه لن يكلمها إلا مرة واحدة في اليوم حتى ينتهي من محاضرته المهمة التي سيتفرغ لها خمسة أيام كاملة، وقد فعل ذلك في اليوم الأول بينما وهي عندي كلمها مرة أخرى في المساء، وعندما اندست في السرير أحسست بأنها على وشك أن تسامرني عنه، ذكرتها بالاتفاق الذي بيننا فسكتت، لكنها رغم ذلك اندفعت تتكلم قبيل النوم بينما أوليتها ظهري. قالت: «بعد طلاقي.. عشت كتير أتعرض لمعاكسات وتحرشات ورغبات وطلبات زواج من ناس واقعيين في الشغل وعن طريق

الجيـران والأقارب والصالونات.. لكني تجربتي البائسـة في الزيجة المنيلة اللي فاتت خلتني أشـوف الرجالـة دول كأنهـم هاموش.. أو أميبا.. ماحدش هزنـي من جـوه غير خيري اللي اتعرفـت عليه من العالـم الافتراضي واللي بسهولة وخلال شهور قليلة استطاع أن يبقى الوجود كله بالنسبة لي.. عشان كـده يا جيجـي مش عايزه أنبـش في العالـم الافتراضي لحسـن أقع في حد يكون له علاقة واقعية بخيري. ومرتاحة قوي إن خيري افتراضي وسـاعات باتجنـن وباحس كأن العالم الافتراضـي اللي انبهرت بيه ده بلعني جواه وإن بسمة التانية ماتت أو غرقانة في واقع قذر.. وبارتاح للتصور ده»..

ظلت تهذي بمثل هذه الأقاويل حتى استغرقت في النوم.. وعند الصباح أصرت على أن نفطر سـويا وأعدت الطعام.. ونحن في أول لقيمات ولابها بيدهـا تداعـب شاشـته بإصبعها فجأة توقفـت عن المضغ ثـم بصقت ما في فمها في الفوطة، وانهار جسدها وهي تنظر إلى الشاشة، خامرني شعور سيئ جدًّا وأنا أستفسـر عما حـدث، لكنها لـم تجبني بل أعطتني الجهاز لأشـاهد مـا رأته.. كانت صورة «خيري» تتصدر حسـابه وبجواره طفل جميل.. وقد كتـب أسـفل الصورة «مهنـد» ابني أغلى شـيء عنـدي في الدنيـا.. لم أفهم سـر انزعاجها.. فأعدت سـؤالها، أجابتني بأسـى.. بأنه لم يضـع صورة أبدًا لأولاده أو أحد أقاربه.. وأن هذه الصورة بمثابة رسـالة موجهة لها، حاولت أن أبـرر مـا فعله لكنها كانت مشـغولة بمكالمته، وعندما لـم يرد هرعت من أمامي لترتدي ملابسها وتخرج دون أن تعبأ حتى بإجابتي عما ستفعله وهي بهذه الحالة المجنونة!

ريم مطر

تـرك لـي حرية اختيار مكان السـهرة، فقدتـه إلى النـادي اليوناني برأس التيـن، كانت مؤشـرات البداية لا تبشـر بالخيـر خاصة بعد موافقتـه الفورية على كل ما أطلبه من مشروبات وأسماك وأحسست بأنه يتجاهل أني أحتفل معـه، لذا بادرته بالسـؤال عـن تاريخ اليوم، فقـال بحيرة: «3 مايو»، سـألته: «ألا يفكـرك هـذا اليـوم بشـيء؟»، أجاب بشـبه ابتسـامة: «بيتهيألـي ده يوم عيـد ميـلادي وانتي جاية معايـا نحتفل بيه أربع أيام كاملـة»، قلت له بغلظة: «وكان ممكن أحتفل بيه معاك أسبوع كامل كأنك بتطاهر لكن المنظر اللي انـت قاعـد بيه معايـا ده مش منظر واحـد عيد ميلاده النهـارده! والمفروض إن حبيبتـه قاعدة معاه وبتحتفل باليوم ده وياه»، سـكت ولـم يجب، فأكملت بفتـات الكلمـات التـي كانت تتصـارع بداخلي: «ملـك يا أحمـد قاعدة مع صاحبتـي وهي بترعاها كويس وملك علـى فكرة بتحب تقعد عندها.. يعني أنا باحتفل بيك مش على حساب بنتي.. ثم أنا كنت حاسة إني مقصرة معاك قـوي وبقالي فتـرة بارتب للاحتفـال ده.. النهـارده 3 يا أحمد وبقالي شـهر يا أحمد بأحسب.. وعملت البدع عشان دورتي تيجي بدري شوية وتخلص قبـل عيد ميلادك.. وفعلا خلصت إمبارح.. شـفت أنا مشـغولة بإيه وعاملة حسـابك حتـى في حاجات مابتتلمش عليها السـتات.. ليـه باين عليك مش مبسـوط.. أنا على فكرة بيجنني كتير الإحسـاس ده.. عشـان كده مش عايزه

حد يفكرني بيه وبارميه بسرعة ورا ضهري.. لأني اتولدت كده وعشت كده وعارفة إني هاموت لوحدي ومش هاممني إني أترمي في بلاعة ولا اتحرق ولا اتبخر.. المهم أعيش لحظات أحس إنها مكافئتي في الحياة الخرا دي»..

سكتنا لحظات ثم أحسست بأن عينيه قد تلونتا بدمعات، أسرع بإخفائها في شعري وهو يقبلني فصفا له قلبي، ثم أكلنا ورقصنا على أنغام أغنيات أعياد الميلاد كما أوصيت الـ«دي جي».. وتذوقنا التورتة التي أهداها لنا النادي وغادرنا.. أعرف أن البيرة والنبيذ يدفعانه إلى النوم لذا جعلته يشرب كأسين من الفودكا، لكنه بمجرد أن رقد بجواري في الفراش، صار يتلعثم كالممثلين السكارى النمطيين وأعطاني ظهره وفهمت منه بالكاد أنه سيغفو لمدة نصف ساعة، لكني زغدته في ظهره فالتفت بجذعه وفتح عينيه بقدر جهده، جذبته من عنقه وحولته تجاهي وبينما كان يدفن صدره بين ثديي العاريين أحسست ثم سمعت أصواتا مبهمة مصدرها معدته، هو أيضًا انتبه إليها فارتفع عني قليلا ووضع يده على بطنه ثم أغلق بيده الحرة فمه الذي انفتح كفم تمساح يتثاءب، دفعته برفق وصرخت فيه بأن يسرع إلى الحمام، وبينما أسمع صدى تقيؤه في الحوض، كنت أقطع له شرائح من حبات الكيوي حتى تغير نكهة فمه عندما يعود، وفعلت ذلك بآلية لأني اعتدت أمثاله من الرجال غير محترفي الشرب. وكنت مرتاحة لأن إفراغ معدته سيجعله يفيق بعدها ونحتفل واقعيا بيوم مولده، وفعلا عاد بجسد متماسك وعاتبني لأني لم ألحق به وتركته لمعاناته فصدمته بأن ما حدث له هو أسوأ ما يقرفني من السكر، قال إنه يعد كوبا من القهوة وسألني إن كنت أرغب في كوب معه، هززت رأسي بالنفي ثم غاب عن نظري دقائق ورجع

بكوبه وسيجارته، الرنة التي خصصها للرسائل اقتحمتنا وأنا أرقبه ينظر بتكاسل نحو محموله الموضوع على المنضدة الصغيرة، عندما صمتت الرنة قضم شريحة الكيوي التي مددت يدي بها إليه ثم رشف فوقها رشفة بن، شكرني لأني اهتممت بعيد ميلاده ولم أرد، ثم رن هاتفه برنة اتصال فتحرك بتكاسل نحو الهاتف ونظر إلى شاشته ثم أمسك به حتى انقطع الرنين، ولم يستطع كبت فضوله أكثر نحو الرسالة الأولى، وكما توقعت فتحها ونظر إليها واختلجت عيناه لجزء من الثانية، ثم افتعل أنه يبتسم في سخرية ووضع هاتفه في نفس الموقع وقال وهو يبرر كطفل ضبطته أمه وهو يكتشف أعضاءه: «ده عماد باعتلي رسالة يهنيني فيها بعيد ميلادي وكمان بيتصل».. ثم ضحك وهو يضيف: «فاكرني حاقوله أنا فين دلوقتي ومع مين!».. تأكدت أنه يكذب في إحدى المعلومتين.. بداخلي يقين أن الرسالة ليست من «عماد».. ربما الاتصال صحيح منه إنما الرسالة التي فاجأت وجه «أحمد» هي بالتأكيد ليست من «عماد».. هل أنا انشغلت عنه إلى درجة أن يلعب بذيله؟ أم كم العك الذي في حياتي عاد ليبني تصورات خيالية حولي كما حذرني الأطباء! لا لن أفسد هذه الأيام التي أعيشها مع «أحمد» كالسابق قبل أن يضع «علي المنصوري» طليقي السابق «ملك» في طريقنا.. نظرت تجاهه وقلت بتحذير وسخرية: «أحمد أنا مطلبتش منك تقولي على كل اتصالاتك ورسايلك ومطلبتش ده أبدًا من أي حد أكون مرتبطة بيه.. ولا بفتش التليفونات من ورا أصحابي.. من الآخر أنا مبحبش اتفاجئ أو أدي أي حد رخصة إنه يكذب عليا.. وعلى فكرة أول ما حطيت رجلي في إسكندرية قفلت محمولي خالص ومش ناوية أفتحه إلا واحنا مغادرين.. ومطلبتش ده منك.. قلت يمكن هيجيلك منه مكالمات شغل

أو مصالـح.. مـع إني ما افتكرش يوم إنك اهتميت بيـه وأنا معاك.. هنحتفل ولا هنفضـل نجيب في سـيرة الخرا عماد».. أسـرع «أحمـد» بإغلاق هاتفه وقفز إلى السرير وملأني تماما.

في الصباح سبحنا في «بيسين» فندق سان جوفاني الذي نقيم به والمكان الذي أحبه لأن والدي كان يحبه ويجعلنا نصطاف فيه كثيرا، وسألته إن كانت لديـه رغبة في تكرار ليلة الأمس، هز رأسـه موافقا بسـرعة كالتلميذ الخائف وعيناه معلقتان بمسـطرة مدرسـه، ضحكـت وقلت لـه إن كان مجهدًا وهذا طبيعي جدًّا بعد كل ما فعلناه وما فعلته أنا في البداية فقد رفض أحمد أن نقيم في شـاليه «اسـتيلا»، كي نكون على راحتنا به، لـذا أحضرته إلى هنا وطلبت منـه أن يتقـدم ويحجز غرفته، وعندما عـاد بمفتاح الغرفـة ذهبت إلى مكتب الاسـتقبال وطلبت رقم الغرفة المجاورة ولكن موظفة الاستقبال ثم مديرها رفضا بإصرار كأنهما يشكان في صلتي بـ «أحمد» ورضخت وتركتهم يضعوني في طابق يفصله ثلاثة طوابق عن «أحمد»، لكن بعد السهرة تركته يسبقني إلى الفندق ثم لحقت به في غرفته دون أن أهتم بهم.. وتعمدت أن نفطر سويا لكي تزداد شـكوكهم وسأرى اليوم ماذا بمقدورهـم أن يفعلوه! وبعد جلسة ممتعة في «اتينيوس» جربت فيها تدخين شيشة النعناع لأني عرفت أن المحافظ منع تدخينها وخصص لنا الساقي ركنا منعزلا ومراقبا خارج المكان لكي ينبهنا لو داهم المكان أحد رجال البلدية، وبعد أن استمتعت بهذا الفعل المحذور وفي أثناء تناولنا الطعام، دق هاتف «أحمد» الذي كان يريد تركه مغلقا في الفندق لكني طلبت منه أن يفتحه ويأخذه معه فقد تصله مكالمات مهمة وأخبرته بأنه ليس من الطبيعي أن يطيعني في كل ما أفعله، أنا صاحبة اقتراح فتح محموله! ووصلتـه مكالمـة وبعـد أن نظر إلى شاشـته قال بدهشـة: «إنها اسـتيلا»، ثم

وضعه بجواره حتى تنتهي الرنة، فكرت لحظات في سبب اتصال «استيلا» بـ«أحمد» وهي تعرف تمامًا أني متفرغة لإسعاده وتعرف تمامًا أن مثل هذا الاتصال قد يزعجني ويوترني، قال «أحمد» كأنه يقرأ أفكاري ربما تكون هناك مشكلة ولم يحدد طبيعة هذه المشكلة، لكني خمنت أنها ستكلمني بخصوص «ملك»، وكنت قد نبهت عليها بألا تخبرها بسفري ولا بعدد الأيام التي سأغيبها عنها، لأنها من الممكن أن تتحمل غيابي عنها أسبوعًا كاملا لا تهتم فيه بمجيئي ولا غيابي طالما يداخلها إحساس أني قريبة، لكن لو أدركت بأني بعيدة عنها ستفعل المستحيل لكي تجعلني أعود وألازمها.. أسرع «أحمد» يطلب رقم «استيلا» وناولني التليفون، وقبل أن أعاتبها أو أسألها عن ضرورة الاتصال.. وجدتها تفجر في وجهي المصيبة كأنها تنفض عن وجهها عقارب.. وصل «علي المنصوري» صباحا واتصل بي فوجد هاتفي مغلقًا ثم لم يجدني في البيت فأسرع إلى «استيلا» حيث وجد البنت وأنا غائبة عنها، حاول أخذها ومنعته «استيلا» بحجة أني في مشوار مهم وسأعود.. وقد رحل بعد تحذيرهم بأنه سيعود في الرابعة عصرًا وإن لم يجدني سيأخذ «ملك» ولو عن طريق الشرطة، الساعة الآن تقترب من الثانية والمفروض أن أكون في بيت «استيلا» عند الساعة الرابعة لمنع هذا المخبول من الشوشرة والتجاوز في حق «استيلا» وعائلتها.. طلبت منها أن تجعله ينتظرني حتى الساعة الخامسة بأية طريقة، وطلبت من «أحمد» أن يبقى في الفندق حتى أعود في الغد وإن كنت لست متأكدة مما قد يحدث، لكنه حمل حقائبنا في السيارة المؤجرة مصرًّا على العودة معي، قد تكون خرجت مني كلمات تعده بتعويضه عما حدث، لست متأكدة مما كنت أقوله بصوتٍ عالٍ وأنا أفكر بضراوة في لقائي مع «علي المنصوري».

أحمد الضوي

لم أرَ «ريم» بهذه الحالة من قبل، رغم كوني أعتقد أني ألممت بأحوالها وتحولاتها، صحيح أنها لم تنطق بكلمة أو كادت طوال رحلة العودة، لكنني أحسست بها كبحر كبير هادر وهائج يعافر ليخرج عن شاطئيه، وكنت أعرف أني لا أمثل لها شاطئًا ولا مرفأً ولا حتى ثكنة راحة كالتي يختلقها الجنود في خضم معاركهم، ومشاويري معها تحددها غالبا بخط غير مرئي والمفروض ألا أتجاوزه وإلا أرتني وجهًا آخر من الوجوه التي تخبئها، كان يغيظني منها في السابق أنها لا تظهر غيرة حقيقية عليَّ ولا تتساءل عن الأيام التي غبت فيها عنها ولا عن اللحظات التي أشرد فيها وهي تلازمني، اطمئنانها لوجودي بجوارها وأن لا مطمع للنساء فيَّ، أو ظنها المتعالي بأنه لن تهز مشاعري امرأة أخرى طالما هي في حياتي، كان يضايقني جدًّا لكن ماذا بمقدوري عمله؟ وحياتي جدباء فعلا! في مراهقتي لم أحب كسائر زملائي وإن كنت قد تنزهت مع بعض الفتيات اللواتي كانت فتيات أصدقائي يحضرهن إليَّ كي لا أفسد نزهاتهم أو أظهر ضيقي من الفسحة فيطيعني زملائي وينهونها، وفي الكلية أفسدت علاقات كان من الممكن أن تنجح لأني كنت «مدب» وواقعًا تحت تأثير خالي «حسام» ورفاقه الذين كانوا يعيشون في علاقات مفتوحة بحكم انفتاحهم السياسي، وأذكر أني انجذبت لفتاة من بينهم لكن خالي «حسام» قمع هذه العلاقة بحجة أن هذه الفتاة متعددة العلاقات وأنا بالنسبة لها

طفل غر، حتى تزوجت «جليلة» وأدفع حتى الآن ثمن تخلي عنها، وفي خلال مسيرة حياتي النسائية لا أنسى بالطبع مرحلة الفتيات اللواتي يشبهن «طفش» الخشب الذي أدخلهم «عماد» في حياتي وأزعجني، وأفلت منهن إما مستعينًا بـ«عماد» أو بمنحهن هبات مالية كبيرة، حتى دخلت «جيهان» في حياتي أو أدخلتها أنا بناء على تصور أنها الوحيدة التي تصلح للملمة حياتي المبعثرة، لكنها زادتها بعثرة لدرجة قربتني من «ريم» جدًّا وها أنا أستشعر القلق من اقترابي هذا.

«عماد» يلطعني في هذا المكان أكثر من نصف ساعة، عندما هاتفته بعد أن أوصلت «ريم» إلى مصر الجديدة، قال إنه في أكاديمية الشرطة بالعباسية وعلى وشك الخروج وطلب مني انتظاره أمام الأكاديمية كي نسهر احتفالا بعيد ميلادي الذي احتفلت به من غيره باعتباره درجة ثانية على حد قوله، وها أنا أقف في أحد الأماكن المرذولة التي إن لم يلاحقك أحد بالسؤال عن هويتك أو لماذا تنتظر ومَن تنتظر في هذا المكان.. تتابعك النظرات، وكلما أخرجت محمولك أو علبة سجائرك حدجك الحراس بنظرات يمكن اعتبارها مقدمات لشد أجزاء أسلحتهم وإشهارها تجاهك.. ابتعدت إلى الرصيف المقابل وكلما رننت عليه «كانسل» الرنة فيما معناه أنه سيخرج بسرعة، لكنه لم يخرج وقد «طهقت» ونويت الانصراف لكن ما الحيلة؟ فلو نفذت ذلك سيطاردني «عماد» طيلة هذه الليلة حتى يجدني.

كنت أريد أن أختلي بنفسي كي أعيد قراءة الرسالة العادية جدًّا من «جيهان»، ولكن لأنها رسالة من «جيهان» فهي رسالة غير عادية، أريد أن أفكر قليلا في كيفية الرد، هل أرسل لها: «كل سنة وأنت بخير

يـا جيهـان».. أو أتصـل لأشـكرها، كل تصـرف أتخـذه سـيكون لـه معنـى فـي دماغهـا، وأنا «زهقت» مـن تحليلاتها لكل مـا أفعله.. أنـا واثق من أنها تحلل كل شـيء بخصوصـي.. أفعالها اللاحقة لكل جلسـة أو مكالـمة معها تشـي بذلك.. «يا بنـت الحلال خلصيني من هذه الالتباسـات.. ما إصرارك علـى أن نبدو كمراهقين أو طفلين منشـغلين ببعضهما طوال الوقت يخبئان عواطفهما خلف لافتة كراهية كبيرة.. واجهيني في السر أو في العلن وقولي إنـك لا تريديـن أن تري وجهي بعـد الآن.. ولن تريه.. لكـن قوليها لو كنت تملكين الشجاعة.. قوليها».

توافـق خروج مقدمة سـيارة «عمـاد» مع اتصاله فتقدمـت نحوه وركبت بجواره بعد أن ألقى ما على الكرسـي إلى الكنبة الخلفية، كان يسـمع عتابي الغاضـب لهـذا الانتظـار الملـول دون أن يبـدي حتـى أدنى تبريـر، وعندما انتهيت قال بسـخرية: «هي عشـان صبنتـك بدري هتطلعهم عليـا»، قلت له بغيـظ: «مـش أنا اللي أخـد صابونة يا حيلتهـا.. طليقها رجع مـن بره وعايز يشـوف بنته»، فضم الحـوار لأني تضايقت وعندما وجدتـه يأخذ طريقا غير طريق وسـط البلـد، قلت له بنرفزة: «إنـت واخدنا على فيـن؟ على فكرة أنا مـش حابب نسـهر الليلـة دي.. أنا قلت آجي أشـوفك ونقعد فـي حتة قريبة ونخلي السـهر يوم تاني»، أجابني بليونة: «ماتقفـش كده على كلامي وعلى العمـوم احنا مش هنسـهر كتير أنا هـاروح البيت أغير هدومـي ونقعد في أقـرب مكان ترتـاح له»، كان في نيتـي المبيت عنده حتى تنتهـي مهلة الأيام الثلاثـة التي طلبت شـركة المبيدات أن نغلق الشـقة تمامًا فيهـا، لكني فجأة غيـرت رأيي وحمدت الله أنـي لم أخبره برغبتي في المبيت تليفونيا، قررت

أن أنهـي سـهرتي معه في وسـط البلد ثم أحجـز ليلتين فـي أي أوتيل صغير وليكـن فندق الأوديـون الذي لي به ذكريـات لطيفة. وعندمـا داهم «عماد» بسـيارته الشـارع الذي به بيته بدا علـى وجهه شـعوران متناقضان وهو يرى المـكان المخصـص لسـيارته والمحمـي بجنزيـر ضخم وعواميـد حديدية تحدد مسـاحته، تقـف أمامه سـيارة ركنها «السـايس» صفًّا ثانيًا وسـط عدد من السـيارات، وكان على الطرف الآخر صفان آخران من أرتال السـيارات والمسافة المتروكة لتحرك السيارات لا تتعدى حجم سيارة صغيرة، لمحت على وجه «عماد» تعبير رضاء عجيب لأنه ضبط السـايس وقد انتهك حرمة مكانـه وكان تعبير الرضا هذا ممتزجا باحتقان مفتعل ضبط إيقاعه مع وقوفه المفاجـئ بميـل متعمـد يجعل مقدمة سـيارته تـكاد تحف في باب السـيارة الواقفة أمام مكانه، وخلفية سيارته تقطع الطريق تمامًا أمام السيارات القادمة مـن الخلف، ثم نزل وزعق باسـتعراض مذهل زعقة أتت بالصبي السـايس من نهاية الشارع يهرول ويعتذر بشدة، وكلما اعتذر بخوف ازداد استعراض «عماد» مع تصاعد أصوات نفير السيارات من خلفه (ولم ينتهِ الأمر إلا حين تضرع السـايس إلى السـيارات العاجـزة عن المرور كـي تتراجع قليلا حتى يحل المشكلة)، ثم بمفتاح من ضمن سلسلة مفاتيحه وبسرعة شديدة حرك السـيارة التي تمنـع «عماد» من الركنة وأنزل الجنزيـر الحديدي حتى يدخل «عمـاد» مكانه، ولـم يظهر «عماد» أنه رضي عما فعله السـايس بل ظل يكيل له الشتائم ويهدده بأنه سيخرب بيته لو فعلها مرة أخرى، ثم أخبره في النهاية بأنـه لن يترك سـيارته تبيت حتـى صباح الغد بل سـينزل ليأخذها وحذره أن يجـد مـا يمنع خروجها عنـد العودة، ثـم تماهى عليه الأمر وشـخط فيَّ كي

أصعد معه لكنني رددت في ضيق بكلمة واحدة: «لا».. ثم أمرته بالمثل بألا يتأخر وإلا انصرفت، فنظر نحوي وانتبه لي لأول مرة ثم ابتسم وهز رأسه.

مرت دقائق ثقيلة حتى عاد الشارع إلى إيقاعه المعتاد ولم أجد ما أفعله في انتظار هذا الوغد، إلا تقليب الكتب والملازم التي رفعها من على الكرسي الذي أجلس عليه عندما أركبني جواره، وفضولي لرؤية محتواها قادني إلى البحث عنها في المقعد الخلفي، واكتشفت عندما وجدتها أن ظني به وبكتبه بعيد تمامًا عن الحقيقة، كنت أتخيل أنه رجع إلى قراءة دواوين الشعر التي تناسب ذائقته كدواوين «نزار» أو «رغدة» أو دواوين الشعر العامي، لكني اكتشفت أنها كتب مختلفة تماما.. كلها عن حقوق الإنسان مثل الشرعة الدولية لحقوق الإنسان أو مجموعة ملازم حررها مختصون في حقوق الإنسان وتضم مجموعة من الأبحاث بعنوان: «التوازن بين متطلبات الأمن وحقوق الإنسان».. قبل أن أندهش جعلني شعار وزارة الداخلية مع لوجو الأمم المتحدة أبتسم، إذن هذه هي الدورة التي يحضرها «عماد» هذه الأيام.. «عماد وحقوق الإنسان.. يا زين ما اختارت وزارة الداخلية!».. وبمجرد ما شرعت في قراءة الوريقات الأولى من البحث الأول حتى وجدت «عماد» فوق رأسي كأني استدعيته بها، لم يعلق على ما أفعله بل أدار محرك السيارة وهو يرقب السايس يقف كالزنهار كي يسهل لنا الخروج، وبعد أن أخلينا موقع سيارته لم ينظر تجاه السايس المنحني في تزلف ويده ترتفع أعلى قمة رأسه، وعندما خلفناه وراءنا نظر في مرآة السيارة وقال: «الواد ابن الوسخة ماهانش عليه حتى يلمع قزاز العربية»، قلت له بسخرية: «جرى إيه يا عماد! إنت بتتلكك للواد ده ليه.. حيلمع القزاز وانت قايله إنك نازل بسرعة إزاي.

وبعديـن أنا موجـود جواها يا بني آدم كان ناقص يغرقهـا بخرطوم الميه وأنا جوه..»، قاطعني بثقة مفرطة: «شوف يا أحمد.. العالم دي أنا عارفها كويس ولعلمـك أنا اللي سـمحت له يقـف هنا من الأسـاس بعد ما قرفته سـنين.. ولو عاملته بحنية يوم واحد.. تاني يوم هيخليني أمسـح شـخته»، سخرت منه أكثر وأنا أرد عليه: «قلت لي بقى هي دي حقوق الإنسـان اللي بيعلموهالك دلوقتـي فـي الأكاديمية.. إلا قولي يا عماد هما مالقـوش غيرك.. يظهر إنهم عارفيـن انك عايـز تقويم»، نظر تجاهي وقال باسـتياء: «أنا اللـي الحق عليا سيبتك تبعبص في العربية.. لو كنت عارف إنك حتركب معايا النهارده كنت خبيتهم في الشـنطة».. اندهشـت وسألته عن السبب، فتبسـم وقال: «عشان التلاقيـح اللـي عمال تلقحها عليّ من سـاعة ماشـفتها.. ولعلمك دي دورة رشـحوني ليهـا.. وقلت آخدها يمكن تحرك الترقيـة الزفت اللي كل ماتنزل حركـة الترقيات ألاقي نفسـي براها.. يمكن المرة دي في أغسـطس الجاي أفـرح بيهـا».. حاولـت أن أبدو جـادًّا معه وكلمته عن أهمية حقوق الإنسـان خاصة في هذه المرحلة بعد ظهور التقنيات الجديدة التي ساعدت كثيرًا في فضـح الانتهاكات، وأنه لو اهتـم حقيقة ببنود حقوق الإنسـان قد يبعده هذا عـن الانتهاكات وبالتالي يتجنب اللوم أو التأنيب أو تأخير الترقيات، شـخر «عمـاد» وهو يقول: «على فكرة الريـس بتاعنا وده حد كبير قوي في الوزارة قالنـا وهـو بيختارنا لحضـور الدورة دي. دول شـوية معرصيـن.. بنضحك عليهـم وناخـد فلوسـهم».. اندهشـت وقلـت لـه باندفـاع: «احا يـا عماد.. يعنـي انت بتحضرها وماعندكش رغبة حتى في الاسـتفادة منها».. قاطعني: «إنت أهبل يا أحمد.. تعرف سـاعات وأنا اقعد باسـمع الخرا اللي بيقولوه..

وعلى فكرة اللي بيدرسوا عيال نضيفة ومتلمعة وتحس انهم خارجين من الجاكوزي والاسبا وريحتهم حلوة ولابسين لبس براند.. بأتمنى إن واحد منهم يقع في إيدي مرة وأكهربه في عضوه أو أنفخه بخرطوم الهوا.. وأشوفه حيشخر زينا ولا هيقول واو زي بتوع الجامعة الأمريكية»، كاد قلبي يتوقف من الضحك، وظل ينظر تجاهي مندهشا وعندما سكت قال باستياء: «بس تعرف يا أحمد اللي بينرفزني بجد إن بعض الظباط زمايلنا اللي كانوا زيي.. بعد شوية بالاقيهم متحمسين للموضوع ده وبيصدقوه وده اللي حيبوظ الداخلية، أصل ولاد الكلب دول متعلمين كويس وبيعرفوا يلعبوا في مناطق حساسة زي علاقة التعذيب بالطلاق والعجز الجنسي وانه بينتهي بالمعذبين إلى أمراض نفسية خطيرة وانهيار أسري وخزعبلات كثيرة زي كده»، لم أشأ أن أؤكد له ذلك أو أتفق مع تحليلاتهم حتى لا أثيره أكثر وحاولت أن أثني على جهد الداخلية في الموافقة على حضورهم مثل هذه الدورات، لكنه قاطعني بسخرية أكثر وقال: «انت فاكر اللي بيحضروا الدورات دي ظباط ليهم علاقة أصلا بالتعذيب.. إنت غلطان.. شوف أنا بيحضر معايا مين.. ظابط بيشتغل مسئول مالي وإداري وظابط مسئول مطابخ وظابط بيشتغل بيطار سجن يعني مسئول عن المواشي اللي بتتربى وبتندبح.. ومعانا كمان مجموعة ظباط لسه متخرجين طازة.. أنا أكبر رتبة في المجموعة والوحيد اللي احتكيت بالمجرمين.. تعرف ودوني معاهم ليه؟ عشان أنا من الأقلية»، ثم ضحك بأسى.

وأدت السهرة بسرعة عندما اقتربت الساعة من العاشرة ويظهر أنني كدرته عندما تذكر عمله في الشرطة أو عندما سألته عن «كارولين» فأجابني

بغلظة: «خلاص عملتلها دليت من دماغي طالما اشتكتلك.. وكمان خايفة مني على بنتها كأني واد صايع بيشم كُلة.. تبقى مش لزماني.. وبعدين انت مش طلبت مني أخلع منها بتسألني عنها تاني ليه؟»، أحسست بجرحه فلم أخض في الموضوع أكثر وندمت على أنني في لحظة سكر أخبرته بمخاوف «كارولين» منه على ابنتها، وقد يكون تجاوزي معه بتأثير رحيل «ريم» المبكر الذي كنت أحاول جاهدًا عدم التفكير فيه ولا في تبعاته، تركني أمام أوتيل الأوديون كي أحجز الغرفة بعد أن طلب مني بلا اهتمام أن أبيت معه، وعندما أخبرته برغبتي في البقاء وحيدًا، لم يعاود طلبه فأدركت أني أفسدت احتفاءه بعيد ميلادي لما أجهضت ما كان بصدد إعداده للاحتفالية وبالحوارات المتشابكة التي دخلنا فيها.

كانت «شويكار» صديقة جاري «شريف» قد اتصلت بي وأنا عائد مع «ريم» ولم أنتبه لاتصالها لأن محمولي كان ما يزال صامتا، وقد اتصلت بها في أثناء جلستي مع «عماد» ولم ترد، وخمنت أن المكالمة بخصوص «شريف» لكن لم يقلقني ذلك لأنها لم تعاود الاتصال مما يشي أنه بخير، لكن بفضول اتصلت بها في الصباح ولم تجب اتصالي أيضا مما دفعني للذهاب إلى شقتي بعابدين بغرض التأكد من وجوده أو عدمه ولكي أفتح بعض نوافذ الغرف فيما عدا غرفة الحمام والمطبخ حتى أصرف بعض روائح المبيدات قبلما أستقر بها.

وعندما قابلني نباح الكلب تبسمت وأسرعت بفتح النوافذ ثم أغلقتها ورننت الجرس الرنات المتفق عليها حتى فتح، بدا كأنه ينتظرني وأجلسني وهو يغلق علينا الغرفة مما رابني جدًّا وأقلقتني الحيوية التي اكتسى

بهـا جسـده، كمـا كان هنـاك بريق غير طبيعي يتسـلل مـن عينيه، سـألته عن «شـويكار» فأجـاب بجفاء أنها بخيـر.. ثم أضاف بعد قليـل أنها أوصلته في الصبـاح إلـى المنزل ثم غادرت وأنه لـن يذهب إليها مرة أخـرى، ودون أن ينتظر استفسـاري، قال وهو يشـيح بيده: «فريد.. جوزهـا.. بقى بيغير عليها قـوي.. منـي أنا! تصور! أنا مش حابب أسـبب لها أي إزعـاج.. طلبت منها وهي بتوصلني إنها تكلمني في التليفون بس عشان تطمن عليا وحلفتها إني هاخليه مشحون ومفتوح على طول.. المهم أنا عايزك في موضوع مهم»..

ثـم تحرك نحو المكتبة وجذب حقيبة جلديـة صغيرة ناولها لي، وطلب مني أن أفتحها في أثناء شـرحه لما بها: «ده هارد كومبيوتر.. جديد.. خليت شـويكار تشـتريه عشـان أحتفظ فيـه بالكتب اللـي عايزها.. كنـت هاخليها تحملـي الكتـب دي بس بعد موضـوع فريد ده.. أنا خدته منهـا وقلتلها إنك هتسـاعدني في كده.. خد الهارد ده يا أحمد وحمِّلي كل الكتب اللي بتتكلم عـن الشـيوعية المعروفـة والمجهولة اللي مـع واللي ضد.. وعلـى فكرة يا أحمـد دول يطلعـوا حوالـي 30 ألـف كتاب»، صعقـت مندهشـا وقلت له: «يا أسـتاذ شـريف.. مدام الكتـب دي موجودة.. أحملهالـك ليه؟ دخل نت للكمبيوتـر بتاعك واللي تحتاجه منها اقراه»، انحنى وهمس: «هي موجودة النهـارده بـس مـش هتبقى موجـودة بكرة وهتتمسـح كلهـا.. لو لـي خاطر عندك.. أرجوك تعمل ده»، وأنا أغادر البيت والهارد في يدي وجدت نفسي أقول بصوت مسموع: «ربنا يستر».

جيهان العرابي

عرفت سريعا بالمصيبة الكبرى التي أخفتها «رنا» عنا، وتضايقت من «بسمة» بالذات لأني متيقنة من أنها شريكة أساسية في هذه الجريمة إن لم تكن المحرضة الأولى عليها.. وأن الإخفاء تم عني وعن عمي والد «رنا»، فامتقاع وجهه وزيغ عينيه وعدم تركيزه يدل على علمه بهذه المصيبة منذ أيام قليلة.. ورغم كرهه الشديد لـ«فؤاد» وحبه المريض لـ«رنا» فإنه استشعر خطرًا من إقدام «رنا» على تلك المصيبة التي قد تؤدي إلى جنون طليقها «فؤاد» بالكامل وتهوره إلى حد إيذاء فلذة كبده.. التي كانت تتعامل ببرود شديد وتفتعل الفرح والضحك والاستمتاع بالمناسبة وتبدو لا مبالية وقد أدركت أنها تلاحق طموحها الذي نهايته حتفها..

«بسمة» الجبانة أخبرتني هاتفيا بضرورة حضور عيد ميلاد «هشام» ابن «رنا» الذي بلغ العامين منذ يومين وقد احتفل «فؤاد» بعيد مولده في الموعد بالضبط، ثم سمح لـ«رنا» بالاحتفال به بعد يومين من المناسبة، حاولت التملص والإفلات والتعلل بانشغالات، لكن «بسمة» ضايقتني بإلحاحها وبتضخيمها لغضب «رنا» مني لو لم أحضر هذه المناسبة، وعندما اشترطت حضوري بدعوة شخصية من «رنا»، بعد دقائق طلبتني «رنا» وأصرت على حضوري لأنها ستعلن مفاجأة في نهاية الحفل ولم تخبرني بأية تفاصيل عنها، أعدت الاتصال بـ«بسمة» حتى أتخلص من فضولي لكنها بضحكة

شبه مبتذلة قالت إنها لا تعرف المفاجأة مثلي أيضًا ثم أردفت: «بكرة نقعد جنب الحيطة ونسمع الزيطة»..

استعانت «رنا» بمتخصصين في أعياد الميلاد لإعداد الحلوى وأداء الفقرات الفنية التي استمتع بها أطفال الجيران كما استمتعوا بالهدايا الرمزية التي وزعت عليهم، وكانت «بسمة» قد تعللت بمرض ابنها «حازم» عندما سألتها «رنا» عن سبب غيابه، ومر الوقت ببطء شديد ولم أتمكن من الانصراف خوفًا من تأويله بتأويلات عبيطة مثل أني أرملة بلا ذرية! وكنت كلما حاولت استقطاب «بسمة» لتنفلت معي كشرت حاجبيها مستنكرة ثم فحت كأفعى في أذني: «جيجي عشان خاطري نستنى مفاجئة رنا»، لم يكن في الشقة أشخاص لا أعرفهم ويصلحون للزواج من «رنا» كما توقعت عند سماعي بخبر المفاجأة، لكن خبث «بسمة» ضايقني أكثر مما تفعله «رنا» الآن وهي ترتدي ملابس مهرجة ووجهها مدهون كالبهلوان الذي تتنطط بجواره في محاولة لإضحاك ابنها «هشام» بينما الطفل ينظر إليها مشدوها وأعتقد أنه فوجئ بجنون أمه، ما هذا العك الذي يدور في عقلك يا «جيهان»؟ تصور خائب أن العريس المنتظر سيدخل علينا في نهاية الحفل وتقف «رنا» بجواره تعرفنا إليه.. كيف وصل هذا الخيال العبيط إلى عقلي.. خاصة بعد أن غيرت ملابسها الوقور وارتدت هذه الملابس التي لا أدري مَن اقترح عليها لبسها وساعدها في شرائها غير «بسمة» المعتوهة.. وهذه الأصباغ التي لونت بها وجهها من إنتاج الشركة التي تعمل بها «بسمة» أم من صندوق المهرج.. وكيف ستزيلها؟ وكيف ستتزوج أصلا في عيد ميلاد ابنها بهذا الزي؟ صحبة هؤلاء الفتيات ستمكن البلاهة من عقلي.. وكان هناك زهوقًا

آخـر غيري هـو «عمي»، نـادى على ابنته وهمـس في أذنهـا، بعدها توقفت الفقرات ووزعت الهدايا على الأطفال واصطحبهم أهاليهم وخرجوا، وفي أعقابهم المهرج والساحر قليل الحيلة الذي لم ينجح حتى في إبهار الأطفال دون العام الواحد ولم يتبقَّ غيري و«بسـمة» والعائلة السعيدة أونكل و«رنا» والابـن.. ثم جـرت «رنا» إلـى الداخل تسـتعيد هيئتها البشـرية وتضع ابنها في سـريره وأحسسـت بوالدها يقاوم أن يخبرني بالمفاجأة أو بالضيق الذي يركبه مخافة من «بسمة» التي ما تزال في حالة البهجة وربما مخافة مني حتى لا أمكنه من الحكي بتأثير حساسيتي من رغباته القديمة.

أخيرًا عادت «رنا» محتفظـة بضحكة المهرج على وجهها ومن داخلها أخرجـت فقرتهـا السـاحرة ووجهتهـا تجاهي مباشـرة، فأنا الوحيـدة التي جهلـت حتى تلـك الليلة حقيقـة المفاجـأة.. والمفاجأة يا سـادة يا كرام.. أن «رنـا» قد حصلـت على منحـة من إحدى الجهـات الثقافيـة بالولايات المتحدة الأمريكية لمدة ثلاثة أشـهر تبدأ من شهر يونيو القادم وتنتهي أول شهر أغسـطس، وهذه المنحة اسـمها «الكاتب المقيم» وهي تمنح لكتَّاب من مختلف دول العالم للتعرف على بعضهم البعض ومشاهدة أمريكا عن قـرب والكتابـة عن هذه التجربـة، أو أي كتابة أخرى حتى دون الاشـتراط بارتباطها بالدولة المضيفة، وستتجول «رنا» بناء على تلك المنحة في عدة ولايـات أمريكية ذكرت بعضها ولم أهتـم بمحاولة تذكرها.. ولبيان أهمية هـذه المنحة ذكـرت لنا أنها تقدمـت إليها عدة مرات إحداهـا قبل زواجها ولـم توفـق فـي الحصـول عليهـا إلا هـذا العـام.

صرفت عيني عن النظر تجاه فمها بالتحديق في وجه «بسمة» واختلاس النظر تجاه والد «رنا»، و«بسـمة» كلما لمحتني أدارت وجهها تجاه السـقف أو نحـو «رنـا» وفي النهايـة بدت أمامي كطفلـة بالت على نفسـها فجأة، أما والـد رنا فقد كان مشـتت النظر وقلقًـا ولم أتمكن من تخمين سـبب قلقه.. هـل خوفًـا على مـا فعلته «رنـا» بتهور وتأثيـر ذلك علـى طليقها «فـؤاد» أم لأنها سـتتركه ثلاثة أشـهر لن يتمكن فيها من رؤيتهـا.. وظلت «رنا» تضيف معلومـات وحقائـق بينت لي أنهـا كانت تخطط لذلك منذ مـدة طويلة حتى وهـي في عصمة «فؤاد»، فقد راسـلتهم فترة كبيرة حتى نجحت في الاختبار وأخفت ذلك عن «فؤاد»، وكان لديها جواز سـفر سـاري المفعول ومذكور فيـه أنها آنسـة وتعمـل فـي وزارة الثقافة وهو الـذي منحتهـم صورته لعمل تأشـيرة الدخـول، وحصلت علـى موافقة الوزارة بسـهولة، وفـي أثناء ذلك عملـت صفقة منح «هشـام» ابنها لـ«فؤاد» لتلهيه عمـا يدبر له ولتجعله يظن أنه يملك مسمار جحا الذي قد يعيدها إليه مرة أخرى، بت مشغولة بموقف «فـؤاد» عندمـا يعـرف ذلك ومـدى جنـون رد فعلـه، وعذرته لأنه سـيدرك أنهـا عاملته كـ«دبدوبها شـيكو»، الذي كانـت تحتفظ به منـذ طفولتهاوتبثه مشـاعرها الجياشـة وتشـكو لنا أحيانا من أنه لم يتأثر لوعكة برد أصابتها أو يهتـم لبكائهـا، وتذكرت أن «فؤاد» اسـتدعانا مرة بعد مرور سـتة أشـهر من زواجهما عقب مشـادة، وأخبرنا أنا و«بسـمة» بأن سبب المشادة أنها ما تزال تحتفـظ بدبدوبهـا «شـيكو» معها علـى الفراش وتضعـه بينهما ليـلا ويفاجأ بهـا صباحا وهي تحتضنه، ظهر الشـرود على وجهي لأنـي انتبهت لعيونهم السـت مصوبة تجاهي وبدت «رنا» وكأنها سألتني سؤالا لم أسمعه وتكرره «بسـمة»: «رنا بتقولك يا جيجي.. انتي معلقتيـش ليه على موضوع المنحة.

ولا باركتيلهـا»، قلت عـذرًا تافها وهو أنـي تأخرت على ابنـة أخي «ريتاج» ثـم نهضـت مـن فـوري وقبلتهـا وهمسـت لهـا: «ألـف مبـروك»، وتمنيت لهـا مسـتقبلا كبيـرًا فـي الكتابـة، واسـتأذنت في الانصـراف لكن «بسـمة» لبـدت فـي مكانهـا خائفة من انفـرادي بهـا وهي تبرطـم: «أنا هاقعد شـوية مـع رنا يـا جيجي.. أنـا بيتي قريب.. هرتـب معاها المطبـخ وبعدين أنزل»، ودون اعتبـار لوالـد «رنـا» ولا لـ«ونـا» ذاتهـا، اقتربـت مـن «بسـمة» التـي انكمشـت أكثـر عندما لامسـت كتفهـا وأمرتها بحـدة: «إنتي هتنزلـي معايا يا بسـمة عشـان تباتي معايا لأن ريتاج جاية تقعد عندي يومين.. وهي عندها امتحانـات الإعداديـة بعـد أقل من شـهر وعايزاهـا تحس إن بيتي مشـغول وترجع تاني بيتهم»، همسـت «بسـمة» بغلاسـة: «طب ما تعتذري لاخوكي عـن اسـتضافتها بحجـة انشـغالك»، أجبتها بغلظـة أكبر «حاولـت بس هو مـن ناحيـة ومراتـه من ناحية قعـدوا يقولـوا البنـت مكتئبة وعايـزة تغير جو واضطريت أقبل».

تحججـت «بسـمة» بأن أمها لن تسـمح لهـا بالمبيت خـارج البيت لأن مشادة نشأت بينهما بهذا الخصوص منذ أيام، اتصلت بأمها مباشرة وأنا أعلم بمـدى حبهـا لي واطمئنانها علـى ابنتها وهي معي ووافقـت الأم على الفور وبعد هذه المكالمة انصاعت لي «بسـمة» تماما، لم أكلمها حتى خرجنا من المنزل وحاولت «بسمة» الإفلات مني بإبلاغي بأنها ستقود سيارتها خلفي، مـددت يـدي وأمسـكت يدها وسـحبتها تجـاه سـيارتي وأدخلتها السـيارة وأغلقـت البـاب عليها بالمفتاح، وأنـا أدير المحرك قالت باسـتظراف: «هو إنتـي خطفاني يا جيهان؟ أنا بديت أقلق منك.. حاسـة بإنـك يا إما هتدخلي

بيا في عربية يا إما هتضربيني علقة سخنة»، قلت لها بسخرية: «هو أنا هاقدر أضرب بقرة زيك إزاي؟».. افتعلت الزعل وهي تزم شفتيها وتقول: «أنا بقرة.. ربنا يسامحك».

وأسرعت للحاق بموعدي مع «حنان» زوجة أخي في الملك الصالح، وكانت قد طلبت مني أن تمر عليَّ في البيت ولما اعتذرت لوجودي مع «رنا»، طلبت ببرود أن آتي إلى منزلهم في مدينة نصر لكي آخذ «ريتاج»، ورفضت طبعا ثم اتفقنا على اللقاء في هذه المنطقة المحايدة والتي نسأمر عليها بطبيعة الحال في طريق عودتي.

«بسمة» انتابها القلق من سكوتي وانزعاجي من التأخر على «حنان»، وجدتها تتكلم بطريقة المجرم الذي قرر الاعتراف خوفا من التعذيب: «شوفي يا جيجي.. أنا فعلا كنت أعرف بالموضوع ده من فترة وخبيت عليكي.. بس ده بطلب من رنا.. على فكرة إحنا بنعتبرك الصح الوحيد في حياتنا.. عشان كده هي خافت تقولك يبوظ الموضوع.. كانت عارفة إنك تقدري تقنعيها تقول لفؤاد.. وفؤاد كان هيقلب الدنيا.. هي شايفة إن مستقبلها في الكتابة أهم حتى من فؤاد وابنها.. سيبيها تسعى لتحقيق حلمها.. وعلى فكرة يا جيجي كل مخاوفك دي ممكن تطلع على فاشوش.. يعني ترجع من بعثتها ويكبر اسمها في عالم الكتاب وبعدين يرجعوا لبعض.. مين عارف؟».

لم أقاطعها فاستطردت: «إحنا عارفين إنك بتخافي علينا.. بس على فكرة إحنا كمان بنخاف عليكي أكتر.. إنتي أجملنا وأحلانا والرجالة حواليكي في كل حته وده يخوف اكتر.. واحنا بنكبر يا جيجي»..

صرخت قائلة لها: «على فكرة أنا من النهارده مش هاقلق على حد.. رنا خلاص خرجت بره الكادر ولما ترجع يحلها الحلال.. وربنا يستر عليها في الأيام القليلة اللي جاية وطليقها مايعرفش عنها حاجة عشان ما يبوظش حلمها.. أنا زعلت يا بسمة عشان خرجتوني من حياتكم ومن هنا ورايح هاعاملكم نفس المعاملة».

حاولت «بسمة» الاعتذار لكني طلبت منها تغيير الموضوع بينما الست «حنان» لم تأت بعد وتزعم أن هناك مشكلات مرورية مع أني واثقة أنها لم تنزل من بيتها إلا عندما أخبرتها باقترابي من المكان.

«بسمة» غيرت الموضوع بسؤالها عن «أحمد الضوي»، نظرت تجاهها فابتسمت، أجبتها بأنه كلمني واتفقنا على موعد، ضحكت وقالت: «هو انتي ليه بتمنتجي الكلام يا جيجي.. كلمك إزاي يعني؟ دا عيد ميلاده.. قولي إنك بعتيله رسالة تهنئة إنبوكس وهو رد بالتليفون»، قلت لها بغيظ: «لا يا فالحة بعتله رسالة SMS وهو كلمني بعدها.. ارتحتي؟».

قالت: «وفكرتي هتتكلموا في إيه ولا هتنكدي عليه إزاي؟».. لم أشأ الرد على هذه المعتوهة ولحسن حظي أتت «حنان» وقفزت «ريتاج» إلى المقعد الخلفي بينما أمها توصيني على نوع كاميرا جيد «Semi Proftional» يكون هدية للبنت بعد نجاحها، اندهشت لهذا الطلب لكنها أكدت أن «ريتاج» بنفسها هي التي طلبته، تخلصا منها قلت إني سأشتريها خصيصا لتكون هدية نجاحها مني، لكن «حنان» قالت بجفاء: «ابقي هاتيلها إنتي هدية تانية عشان أبوها مصمم إنه يدفع تمن الكاميرا».

فـي البيـت افتعلت «ريتـاج» أنها تريـد المذاكـرة وحاولت «بسـمة» أن تكلمنـي في موضوع «رنا» فرفضت تماما، ثم خرجت «بسـمة» إلى الحمام ورجعـت بعد قليل تتسـحب علـى أطراف قدميهـا وتقول بهمـس: «تعالي ورايا».. حاولت أن أسـتفهم منها لكنها شدتني من أصابعي وأخرجتني إلى الصالة حيث وجدت «ريتاج» جالسة تقرأ في كتاب من كتبها أو تدعي ذلك، المثيـر فـي الأمر أنها كانت ترتـدي «قميص نوم» من ملابسـي الخاصة وقد بـدا مثيرًا عليها جدًّا، وفوق ذلك ترتدي نظارتي الشمسـية، وتضايقت فجأة فنهرتها وقلت: «إيه يا ريتاج اللي لبساه ده..مش تستأذنيني الأول.. وبعدين نضارة شمس بالليل؟»، انسحبت البنت من أمامي بسرعة وطاردتها «بسمة» تطيـب خاطرها ثم عـادت وطلبت مني مراضاتها، وحينمـا تأهبت للذهاب إلى «ريتاج» وجدت بسـمة تقول: «ريتاج بقت نسـخة منك يا جيجي.. رغم إن لسه ماطلعلهاش حاجات بس بعد سنة بالكتير حتبقى كوبي»..

ضايقنـي ذلك جدًّا ووترني.. وبعد أن ذهبنا إلى النوم وكان تفكيري كله منصبـا علـى ما فعلتـه «رنا».. وجدت نفسـي لأول مرة أحلـم بوجه «أحمد الضوي» المسـجون وراء سـحابة من الحزن، وعندما استيقظت بهذا الحلم لم أستطع استعادة تفاصيله مطلقا..

أحمد الضوي

كان «عماد» يضحك بهيستريا وكفه تخبط سطح المكتب بينما قدمه تدبدب على الأرض: «يخرب بيتك يا أحمد.. دا إنت بقيت هوبا خالص.. عايزني أنزلك كام ألف كتاب من كمبيوتر الداخلية.. إنت قلت كام؟ وكتب عن الشيوعية؟ ده قسم مكافحة النشاط الشيوعي نفسه تلاقيه ما يعرفش عن كتب الشيوعيين أكتر من عشر كتب بالكتير».. لم تفلح معه إشاراتي بالتوقف أو بالكلام بصوت منخفض فتركته حتى انتهت قهقهته، ثم قلت له بحدة: «أولا أنا ما طلبتش منك أنا باحكيلك بس ومستني تدلني على حد يعمل ده بفلوس من المكاتب اللي مالية بين السرايات واللي بيعملولك حساب.. ثانيا الموضوع اللي باكلمك فيه لو ماعجبكش.. مش لازم تشردلي في مكتبك كأنك بتعلم عليا وتدل زمايلك عني»، قاطعني بضحكة ساخرة: «حيلك.. حيلك لو عايز أعلم عليك كنت عملت ده من زمان.. إنما انت بتقول موضوع فكاهي جدًّا ماخلنيش أمسك نفسي من الضحك.. ماتزعلش مني.. إنت ليه ماخليتش حد من شركتك يعملك ده وماتقوليش إنهم مش فاضيين؟» أجبته بالسبب الحقيقي وهو أني لا أرغب في أن يعرف أحد موظفيني بأني مهتم بالسياسة وكتبها، بدا عليه وكأنه يفكر ثم قال: «بس يا أحمد فكك من اللي طلب ده منك.. ده مجنون وعايز يشتغلك.. إنما لو كان يهمك قوي وفيه مصلحة من ورا الخدمة دي حادلك على

مكتب في بين السرايات، وحياخد منك فلوس كتير والفلوس دي نظير إنه يطنش، وطبعا مش هتقوله إنك من طرفي إنت هتدفعله اللي يقولك عليه وإكرامية كمان لأنك لو معملتش ده هيقولك سيبلي الهارد كام يوم وبعد ما تمشي بدقيقة هيبلغ عنك هنا في المديرية وتلاقي رجالتنا مستنياك وانت بتستلم الهارد».

أبديت استيائي من هذا اللف والدوران فظهرت الجدية على وجه «عماد» وقال بصوت منخفض قليلا: «أحمد أنت مش عارف إن الحكومة إمبارح مدت العمل بقانون الطوارئ لمدة عامين من يونيو الجاي لحد 31 مايو 2012؟ والموضوع ده مش ساكتين عليه بتوع المعارضة وممكن يعملوا شوية قلق في الشارع.. يعني ماينفعش تستهتر بموضوع زي ده.. يا تفكك منه خالص يا تشوف عيل صغير من قرايبك يعملك ده ودول عفاريت في النت»، طلبت منه عنوان مكتب الكمبيوتر إن اقتضت الضرورة لذلك وأوهمته بأني استمعت إلى نصيحته ثم انتبهت إلى أني لم أذكر له مَن طلب مني ذلك وحتى لا تتحرك حاسته البوليسية فيما بعد ويظن الظنون بأحد معارفي، وهو يمد لي الكارت ويطلب مني نقل البيانات قلت له إن جاري «شريف» هو الذي طلب مني ذلك، فضحك مندهشا وقال: «الراجل العجوز أبو عصاية عايز كل الكتب دي ليه؟ هو فاكر نفسه هيلحق يقراها؟»، قلبت شفتي وقلت: «مش مهم يعمل بيها إيه.. المهم إنه طلبها مني وأنا باحبه زي خالي الله يرحمه وهاحاول أنفذ طلبه».

ذهبت إلى مكتب الكمبيوتر مباشرة وقد صدمني مظهره الفقير وأجهزته القليلة، أشار أحدهم إلى صاحب المكان فتوجهت نحوه وأخبرته بأن

شخصًا مهما دلني عليه ولم أذكر الاسم ثم ذكرت طلبي، وكما توقعت نظر تجاهي بدهشة كبيرة وهو يكتم ضحكة ساخرة وقال وكأنه يصرف ذبابة من على وجهه: «متأسف يا أستاذ طلبك مش عندي»، قلت له بإلحاح إني أعرف أن الأمر يستلزم جهدًا كبيرًا وأنا مستعد أن أعوضه جيدًا لأن هذا الطلب هو موضوع رسالة الدكتوراه ولا بد أن أنجزها بسرعة، نظر نحوي بارتياب وقال إنه من الصعب تنزيل كل هذه الكتب، كما أن البحث عنها سيطول وليس لديه وقت كافٍ لذلك لأن امتحانات الجامعة على وشك البدء وهذا هو مصدر رزقه الأساسي، ولما ألححت أكثر قال بحدة إنه على استعداد أن يقبل في حالة أن أدفع خمسة آلاف جنيه مقدما ومثلها عندما أستلم الهارد عقب ملئه بما يقدر على جمعه من كتب تهم موضوع رسالتي، ولم يبد مرونة في تخفيض المبلغ أو يقدم أية تسهيلات.

غادرته وفي غايتي أن أمر على الشركة وأكلم السكرتيرة في الأمر وأقول لها نفس السبب الذي ذكرته لصاحب مكتب الكمبيوتر وأمنحها في النهاية مكافأة شهرين، لكني تراجعت وأنا في نصف المسافة ولم أشغل نفسي بالسبب، ثم هاتفتني «شويكار» وطلبت أن تراني في منطقة قريبة من عابدين لأنها تريدني في موضوع هام، وفور انتهاء مكالمتي معها الذي حددت فيه مكان المقابلة كلمتني «ريم»، ولم تكن المكالمة الأولى منذ العودة من الإسكندرية فقد كانت تكلمني يوميا مكالمات مقتضبة تخبرني فيها أن الأمور على ما يرام وكنت أحس أنها ليست كذلك، لكنها اليوم عادت «ريم» إلى ما كانت؛ تهرج وتضحك وتعلن دون كلمات دالة أن أمورها تحت السيطرة، ثم ذكرت أن لي باقي حساب معها وقيمته ليلتان يجب أن

نقضيهما معا، سألتها هل سافر طليقها؟ وكأني أكلم الفراغ لم ترد وعاتبتني بجفاء واتهمتني بأني غير مهتم بتسوية الحساب فضحكت واقترحت أن يكون لقاؤنا القادم في بيتي يومي الخميس والجمعة، ضحكت بسخرية وقالت: «يوم الخميس! أنت تراديشنال قوي.. خليها السبت والحد»، وعندما وافقت سألتني عن مستوى الشركة التي نظفت الشقة، وأجبتها بأنه ممتاز، سألتني مرة أخرى باهتمام: «يعني مش هلاقي ولا حتة زفت صرصار صغير»، قلت لها: «طبعا لا إلا لو انتي جبتي واحد معاكي»، ضحكت بشدة كأني قلت نكتة.

غالبا يهتز بداخلي شيء عندما تهاتفني «ريم» في اليوم الذي سألتقي فيه «جيهان»، ولا أدري سببًا لذلك وفي وسط مكالمة «ريم» استشعرت خطرًا عندما كلمتني عن الحساب، اعتقدت أنها ستطلب دفعة في هذه الليلة ولم أكن على استعداد لأن ألغي موعدي مع «جيهان» لأي سبب والحمد لله أني أربكت «ريم» بسؤال عن طليقها فلم تنتبه لتوتري.

بعد أن أغلقت السكة مع «جيهان» اكتشفت أننا تكلمنا اثنتين وعشرين دقيقة، وعندما عصرت ذهني لم أتذكر كيف امتلأت هذه الدقائق وسرت في الهواء، الاتصال بدر مني لأنها اهتمت بعيد ميلادي وتذكرته وأرسلت لي SMS، أخبرتني بأن الفيس بوك ذكرها به وقالت إنها كانت مشغولة بأمور لم تحددها وأعمال تعرض عليها وسألتني كيف احتفلت به؟ فكذبت وقلت ساخرًا لم يعبرني أحد، فضحكت ثم سكتت طويلا، قلت إن لها عزومة عندي لا بد أن أردها، فسكتت أيضًا، فحولت مجرى الحديث محرجًا لكنها بادرتني بأنها صاحبة الدعوة وستدعوني بمناسبة عيد ميلادي،

واختلفنا حول الداعي حتى وافقت أخيرًا وقبلت دعوتي، ولأنني لا أضمن مطلقا ردود فعلها سألتها عن المكان الذي تفضله؟ لكنها تركت لي حق الاختيار، ولما ذكرت لها مطعم سمك رائع على النيل، قالت بحدة وبدهشة وبعتاب كأني أعرف كل شيء عن حياتها: «سمك إيه يا أحمد اللي هاكله في الليل؟ أنا عمري ما أكلت سمك بعد الغروب!»، يا إلهي كيف أتعامل مع هذه المخلوقة التي لا أكف معها عن الدهشة، ثم أخيرًا اتفقنا على مطعم أبو السيد في الزمالك الذي يقدم أغلب أطباق الدنيا.

كان النهار قد بدأ يضيق وخفت أن تثرثر «شويكار» صديقة «شريف» بخصوص موضوعه، فأحرم من أن أستريح قليلا بعد الظهر قبل مقابلة «جيهان»، عزمت على إخبارها بمجرد لقائنا بأن وقتي ضيق، لكن وجهها بشحوبه وقلقه وتوتره جعلني صامتا أستمع إليها بكل انتباه، قالت إن حالة «شريف» في منتهى التردي وقد عادت شكوكه أكثر تجسيدًا في كل المحيطين به وأولهم بالطبع زوجها الذي سمح لها باستضافته، وكان في البداية يسر لها بشكوكه تجاه زوجها وكانت ترفق به وتحاول تهدأته، ثم عندما تمادى وبخته بعنف فاستكان قليلا حتى بدأ يجاهر أمام زوجها بأنه يعلم أن الأمن جنده جاسوسا عليه منذ انضمامه للتنظيم في منتصف الستينيات، وأن صلاته الأمنية مكنته من الزواج من طليقته، يقصدني أنا، كما اتهمه بأنه كان سببا في طلاقي منه، ثم تهور على زوجي بعد أن أصلحت بينهما وحاول ضربه بعصاه لكن تهاوى جسده وهو يسدد الضربة وسقطت العصا من يده لحسن الحظ، لأن زوجي لم يكن منتبها له وكان منشغلا بعمل كوبين من الشاي أحدهما له ليصالحه، عقب وقوعه وتشنجه أخذته إلى الطبيب وظل

تحت رعايته ليومين؛ ونصح الطبيب بعودته إلى المستشفى لكن «شريف» رفض بشدة وبكى واعتذر وطلب أن يعود معي إلى بيته، واضطررت إلى إعادته للبيت. كنت أستمع إلى «شويكار» باهتمام لكن حتى تلك اللحظة لم أدرِ ما هو مطلوب مني؟ ثم وجدتها بعد لحظة صمت تتمالك نفسها وتقول بسمت سيدة قوية أخبرها الطبيب بأن زوجها يحتضر فبدأت تجهز العدة لتشيعه: «شريف في الفترة الأخيرة.. من سنة تقريبا بقت بتجيله نوبات اكتئابية وميل شديد للانتحار رغم إن السيطرة في المستشفى كانت قوية إلا إنه حاول يعملها مرتين.. عشان كده أنا استغليت خوفه من أن أي حد يقتحم عليه الشقة ويقتله بأني أأمن المكان كويس.. غير موضوع الكلب أنا قفلت البلكونة والشبابيك بمتاريس حديد وهو كان فرحان قوي لأنه افتكر إني باحميه من غدر الناس وأنا كنت باحميه من نفسه.. أنا دلوقتي باكلمه 3 مرات في اليوم وبيرد عليّ حسب اتفاقنا.. بس عارفة إنه بعد كده مش هيهتم.. أنا مش شايفة حل إلا إنه يرجع المستشفى لفترة أكبر وأنا هاغطي إقامته هناك وهو كمان مش ناقصه فلوس.. بس ناقصه إقناع.. من جهتي أنا حسب معنوياته باحاول أدخل في الموضوع شوية شوية.. وأنا عارفة إنه بيحبك وكل حاجة أتقاعس في عملها له يهددني بإنك هتعملها.. عشان كده عايزاك تحاول تقنعه معايا بدخول المستشفى بس طبعا ما تقولوش إن احنا اتقابلنا واتكلمنا بخصوصه». لمحت ابتسامتي في نهايات كلامها فسألتني عن سببها وبادلتني الابتسامة عندما عرفت بموضوع تحميل الكتب. لكنها لم تعلق سلبا أو إيجابا، مما دعاني لأن أنهي الجلسة بوعدي لها بأن أفعل ما أقدر عليه بهذا الخصوص.

وفـي عجالـة هرعـت إلـى البيـت وصعـدت درجاتـه وصـوت الكلب فـي أعلـى نبراته، لكن هـدأ تمامًا بمجـرد أن رننت الجرس طبقا للإشـارة، أجلسـني وجلـس بجـواري وهـو منهك ثـم طلب منـي أن أدخـل المطبخ لعمـل شـاي، سـألته هـل يرغـب فـي شـرب الشـاي؟ لكنـه أومـأ تجاهي بضعـف فاعتـذرت بأنـي أكلـت وشـربت، قـال إنه يعتقـد أن هنـاك نصف زجاجـة برانـدي في مـكان ما بالمطبخ، أشـرت لـه بالرفض ثم شـرحت له أن ما يطلبه مني سـيأخذ وقتا طويلا لن يقل عن شـهرين بناءً على استشـارة المختصيـن الثقـاة، بـان على وجهـه الضيق من طـول المدة ثم قال بأسـي. «يـاه ماكنتـش فاكـر إنهـم هيخـدوا الوقـت ده كلـه.. بـس عشـان خاطري يـا أحمد ماتخليهمش يسـيبوا ولا كتاب واحد حتى لو كان تافه.. سـاعات بيكون فيه سـطر واحد مهم وسـط كتاب كامل».. سـألته باستفسـار: «يعني أخليهـم يبتـدوا؟».. أجـاب بصـوت خافـت: «خليهـم يبتدوا بـس يا ريت يلحقوني».. تعمدت تجاهل تشـاؤمه وسـألته عن أحواله، حدق في وجهي بدهشـة ونكس رأسـه وهـو يتمتم: «أحوالـي.. أحوالـي»... ثم رفع رأسـه ولمعـت عيناه وقال لي وهو يزفر: «تعرف يا أحمد.. أنا حالي دلوقتي عامل زي إيه؟ زي ما تكون إيد عملاقة مسكاني من قفايا ومدخلة راسي في لباس - كيلوت - الدنيا دي كلها».

هـزرت رأسـي وأنا فـي طريقي لدخول مطعم أبو السـيد طـاردًا منه كل أحـداث اليوم، لم تكـن «جيهان» قد وصلت بعد وخيرنـي «المتر» بين عدة مناضـد وقفت بينها حائرًا، أحاول تذكر المواقع التي تفضل الجلوس عليها فـي المطاعـم أو تصور المكان الذي سـيرضيها، ولـم تسـعفني ذاكرتي بغير

أنهـا تفضل أن يكون ظهرها محجوبا عن الناس لذا اخترت منضدة في ركن قصي، ووقفت حين دخلت حتى رأتني واتجهت نحوي بابتسامة ثم وضعت حقيبتها على المقعد الذي يجاورها وبلمحة سريعة تأكدت من نظافة المنضدة والكراسي وتذكرت أني ما زلت واقفا فمدت كفها تلامس كفي ثم جلست، أول كلمـة نطقت بها كانت: «المـكان زحمة.. وإيه الركن اللي مقعدنا فيه يا أحمد ده.. ركنة في الطرف.. كنت قعدنا وسـط الناس»، استأت جدًّا وقلت بجفاء: «لما وصلت ماكانش فيه غير المكان ده.. لو تحبي نروح مكان تاني أنا ماعنديش مانع»، كانت منشغلة بتنظيف عدستي نظارتها باللبادة الصغيرة وطبقتهـا بحـرص وأدخلتهـا بعناية داخل الجـراب ثم رفعت رأسـها بنفس الابتسامة وقالت: «ناولني المنيو عشان أنا النهارده جعانة قوي.. هاكل كتير وأدفعك دم قلبك.. عشان تبطل تعزمني».. ثم ضحكت.. تحب أطلبلك أنا ولا أنت هتختار؟» في ظروف أخرى ولو لم يكن ما استهلت به حديثها قد غاظني كنت قد تبسـمت وقلت: «اطلبيلي إنتي» لكني اخترت من المنيو فتة كوارع وطحالًا ولسـانًا وقطعًا من لحم الرأس، بينما طلبت هي لحمًا مشويًّا وأرز «بسـمتي» وعصير برتقال، وعندما وصلت أطباقي قالت لي إنها طهت هـذه الأصناف منـذ أيام ولولا ذلك لشـاركتني أكلها، ارتاحت نفسـي لأنها لـم تتأفـف من طلبي هـذا أو ادعت أنها لا تستسـيغه مثل «ريـم» التي عندما أخبرتهـا ذات مـرة برغبتي في هـذه الأكلة طالبتنـي بأن آكلها خـارج البيت خلسة وألا أبلغها بذلك لأنها لن تقترب مني لو عرفت بذلك. بعدها سألتني عن شـغلي فأجبتهـا بأنه على ما يرام لكنها نحت شـفاط عصير البرتقال عن فمهـا وقالت بليونة إنها عندما ذهبت في المرة الأخيرة لمقر عملي أحسـت بأني لا أتردد كثيرًا عليه من حديث السكرتيرة مع بعض الموظفين، وأدهشها

ذلك لأنها لا تزال تذكر همتي وحرصي على العمل في أول يوم التقينا فيه، ثم أضافت أنها تأمل ألا أكون قد تعرضت لبعض الملل من كثرة العمل وتداركت قولها بسرعة واستطردت بأنها أحيانا تزهق من العمل وإجازة قصيرة في شرم الشيخ أو أي منتجع آخر تعيدها إلى مسارها الذي تحبه، ثم صمتت في انتظار ما أتفوه به، وكنت في حيرة بماذا أرد؟ هل أخبرها بأني فعلا أكاد أكون في إجازة طويلة أتسكع فيها في جزر معزولة.. أحيانا جزيرة «عماد صدقي» وأحيانا جزيرة «ريم مطر» وأحيانا في جزيرة المطلق، وعندما تأسفت عن ثرثرتها في شئون لا تخصها، أدركت أني تأخرت في الجواب وانطلقت أقول كاذبا إني فعلا مشغول في تربيطات تخص عملي وتفتح آفاقًا أكثر لشغلي في تخوم المدن الجديدة، وإن هذا ما يجعلني بعيدًا بعض الشيء عن مقر الشركة لكن لا يمنعني من المتابعة، أسكتتني عن الاستطراد بإشارة من كفها الصغيرة وهي تقول. «أحمد أنا مش عايزة تفاصيل أنا كنت باستفسر زي أي اتنين أصحاب». قلت لنفسي ها هي قد عادت لتضع خطوط اللون الأحمر لتكون بمثابة فواصل العلاقة، وغاظني ذلك جدًّا فعدت إلى الصمت، انتبهت لسكوتي في الفترة التي أشارت فيها إلى المتر ليعيد مسح المنضدة ويرتب مفارشها، ثم قالت بابتسامة: «إنت عادة بتشرب اتنين قهوة بعد الأكل.. ما طلبتش التانية ليه؟».. ثم أضافت متفاكهة: «لو مش عامل حسابك.. أنا ممكن أعزمك عليها»، خرجت مني بسمة لا أدري ما شكلها، ثم طلبت القهوة الإضافية بينما هي تقول إنها قد بدأت تزهق من رتابة الشغل في مصر وإن المجلة التي بدأت تعمل بها مؤخرًا ومقرها الرئيسي في الرياض عرضت عليها منصبا كبيرًا بشرط الانتقال إلى هناك، وإنها تفكر في هذا العرض خاصة أن شقيقها الأوسط يعمل ويقيم

هناك منذ فترة كبيرة وسيسهل لها الإقامة هناك، أنهت حديثها وأنا في حيرة أشد.. ما هو المطلوب مني بالضبط؟ أن أبارك هذه الخطوة أو أطلب منها التريث! أن أطالبها بالإفصاح عن حبيبها المجهول الذي ستأخذه معها إلى هناك.. فبعد أن حكى لي «شريف» مرة أنه كان يظن «السادات» يخبئ جنودًا آخرين لكي يحارب بهم.. لازمني خاطر أن «جيهان» أيضًا طالما لا تستجيب لأية مشاعر ربما لديها حبيب مجهول.. لكن لا بد أن تعلن اسمه قبل السفر، ثم وسواس لعين هبط على ذهني وأوحى لي بأنها ربما تريد دفعي للتحرك أكثر.. وكنت قد أقسمت لنفسي أني لن أقع في مثل هذا الفخ، أنا في حيزها مهما اختلفنا أو تخاصمنا لكن لو أعلنت عن مشاعري التي تعرفها وتتحسس منها، سيكون هدفها قد تحقق وتعلنني حبيبًا من طرف واحد تضمه إلى قائمتها وتبعده عن واقعها.

فوجئت بها تقول لي بحدة: «على فكرة أنا كنت بادردش معاك.. مش بطلب رأيك»، لكن دهشتي من حدتها جعلتها تراجع وهي تقول: «معلش أصل لقيتك سكت فجأة وكأنك مش هنا»، أخبرتها بأني انشغلت فعلا بالتفكير في موضوعها لكني أرى أن تفعل الأصلح من وجهة نظرها وتمنيت لها التوفيق فشكرتني بامتنان، وظللت للحظات أحاول معرفة هل أقنعتها فعلا بحيادي أو ظهر من حواري رغبة حاولت جاهدًا قمعها بأن تبقى ولا ترحل.

وخلال تناولنا لبعض أطباق التحلية وجدتها تتنهد وهي تقول إنها مؤخرًا في حالة مصالحة مع النفس ولا تريد أن تكون في خصومة مع أحد.. وتريد أن تبقي على كل الأصدقاء برغم تجاوزاتهم وإن هذه الحالة ربما يكون

مرجعها القرار الخاص بالسفر الذي لم تتخذه بعد، وكنت أقول في نفسي: «ها أنت تعود إلى نفس المربع يا أحمد.. وها هي جيهان كما تعرفها.. حتى لو أن مستحيلا حدث وتزوجتها.. ستقضي العمر ليلة إثر ليلة تنتفض من سريرك فجأة لتتحسس وجودها بجوارك في الفراش».

***

لم أستطع أن أخالف «ريم» هذه المرة أو أقنعها بقضاء الوقت داخل الشقة، فقد رغبت في أن نتسامر ونحن نشرب في البلكونة، قالتها وهي تتكئ على سورها الحديدي وتتأمل الأبنية وحديقة القصر وعندما لم أعلق حسمت الأمر: «أصل الجو لطيف قوي الليلة دي والهواء منعش وأول ما البرد يشتد ندخل جوه»، تفحصت الأجواء بالخارج فلم أجد شرفات مفتوحة أو نوافذ يحتمل أن يطل منها متلصصون لذا أحضرت سجادة صغيرة وضعتها على سور البلكونة من منتصفها فتدلت من الجانبين، ولمحتها تبتسم فأشرت إليها بأن ترتدي ما يستر ذراعيها ونصف صدرها، هزت رأسها في عناد وقالت بحنق: «هو فيه إيه يا أحمد؟ مافيش حد جايب خبرنا هنا..»، أومأت إليها برجاء فخرجت من البلكونة باستياء، لكن عندما عادت وجدتني قد رتبت القعدة على أكمل وجه ووضعت المنضدة عند باب البلكونة من الداخل والكرسيين بمقربة من سور البلكونة ورصصت أطباق المزة التي شكلتها من الموجود في الثلاجة بجوار زجاجة المياه والكأسين، أما زجاجة الويسكي فقد زنقتها أسفل المنضدة تلاصق إحدى أرجلها، رجعت «ريم» بقميص نوم قصير لا ترتديه بل تسدله على نصفها العلوي من أسفل الرقبة وكان منظرها يثير

الضحك بفستانها الأسود الأنيق الذي صممت أن تخرج به إلى البلكونة ورفضت أن تغير بـه ملابس بيتية وبقميص النوم الـذي يتدلى من أعلاها بلونـه الأزرق الداكن، وبياض بشـرتها الـذي يكاد يضيء في غبشـة الليل خاصـة وقد حرصت على إطفاء أنـوار البلكونـة وجعلت مصـدر الضوء الوحيد يأتي من داخل الشقة، ضحكت وأنا أقول لها: «يخرب بيت عقلك إيه اللي عملاه في نفسك ده؟»، جلست وهي تزفر وتقول. «ما لقتش حاجة جـوه تنفـع أحطها على كتفـي. ما عندكش غيـر بطاطين وملايات شـكلها عـار.. حطتلـك قميص النـوم اللي كنت جايـة أغريك بيه.. كـده المفاجأة باظـت يـا حلـو.. حاقعـد معـاك بالأندر ويـر بس»، ثـم لاحظـت أن يدي بعـد أن صببـت لها أعادت الزجاجة إلـى موقعها أسـفل المنضدة فانحنت برأسـها وتأكدت من موقعها، ثم ضحكت بصوتٍ عالٍ وأنا أحاول جاهدًا بالإشـارة أن أجعلهـا تخفضه: «إيـه اللي انت بتعمله ده يـا أحمد.. ده احنا ولا في فرح بلدي بتاع سـينما الخمسـينيات.. عامـل متاريس واحتياطات أمنيـة مع إن الجيـران كلهم قافلين عليهم شـققهم وبيذاكـروا لولادهم»..

وبمجـرد أن قلـت: «إنتي عارفة يا ريـم فيه أيام والدتي اللـه يرحمها كانت مانعـة عليـا أطلـع البلكونـة دي إلا عشـان أرد علـى صحابـي فـي أضيـق الحـدود.. وبيتهيألـي إن والدتـي كانـت بتطلـع فيهـا بس عشـان تكنسـها بعـد الفجـر قبل النـاس ما تصحى»، زفـرت ريم وهي تقـول: «حكيتلي ده عـن السـت الوالدة ورغم إنـي مش مقتنعـة بيه.. بس يا أحمـد إنت كبرت دلوقتي ماشـاء الله وورثت الشقة ومن حقك تسـتمتع بكل سنتيمتر فيها»، أزعجتنـي سـخريتها التي حاولـت تخفيفها بضحكة خفيفـة لكني كنت قد تضايقـت فعـلا فتركـت لها المـكان مدعيا أن سـجائري نفـدت، لبثت في

الداخل قليلا ليس بغرض إفساد الليلة ولكن لأحاول أن أجد وسيلة لإفهام هذه المتمردة أن تربيتي مختلفة عن تربيتها وأن طبقتها بخلاف طبقتنا المتوسطة وانتمائنا الصعيدي المتشدد، كنت قد أشعلت سيجارة بالداخل وقبل انتهائها وجدتها تقتحم الغرفة ثم تقبلني وهي تعتذر بأنها لم تقصد إهانتي لكن القافية حكمت، ولم يقابلها غير صمتي فجلست بجواري على حافة الفراش ثم عصرتني بساعديها ودست فمها في أذني وهي تهمس: «بطل رخامة بقى وفكك.. هو أنا مش باسيبك تشتمني وتهيني؟!»، نظرت ذراعيها وأنا أقول بحدة: «عشان مزاجك.. وعشان ده هو اللي بيهيجك»، تبسمت بغنج وهي تقول: «وأنا عملت كده عشان تحسن أداءك وانت بتشتم وناوية أوريك ليلة ماشفتهاش في عمرك»، ثم سحبتني من يدي حتى أجلستني في البلكونة.

لم تكن قد حدثتني بما حدث مع طليقها والأسباب التي دعته إلى العودة المفاجئة غير بجمل قصيرة عبر الهاتف لم أستنتج منها شيئًا مفيدًا، ووجدت الفرصة ملائمة لأن أسألها، نظرت تجاهي طويلا كأنها تفلتر أفكارها قبل البوح بها، ثم أخبرتني بأنه كان يظن أنها تهمل في متابعة دراسة «ملك» أو يتمنى أن يكون ذلك حقيقيا حتى ينكد عليها حياتها، كي يضعها في خانة أن البنت لن تجد رعاية ولا اهتمامًا طالما هما منفصلان ومن ثم يعيد أسطوانة الرجوع إليها، لكنها واجهته ككل مرة بحدة وبالمستندات التي أخذتها من المدرسة والمعلمين الذين يتولون تعليمها، وأصرت على أن يذهب معها إلى المدرسة وهناك أكدوا له تقدم البنت فاعتذر لها وسافر على أن يعود مرة أخرى بعد إنهاء بعض ارتباطاته هناك.. سألتها بحسن نية هل آذاها طليقها

أو اشـتبكت معه في مشـادة كبيرة بخصوص البنت لأن منظرها وهي عائدة من الإسـكندرية كان في منتهى التوتر، نظرت لي بحدة واسـتنكار ثم قالت: «آذانـي؟.. علـي المنصوري يجـرؤ يؤذيني!» ثم ضحكت بسـخرية، عندها لزمت الصمت فقالت لي باسـتفهام سـاخر: «أحمد.. هو انت سـيرة طليقي علي المنصوري بتهيجك.. هو ده وقت مناسب نجيب سيرته؟»..

زودت كأسـي ثم أعادت الزجاجة إلى موقعها فـي محاولة لتخفيف أثر وقع كلامها عليّ وقالت إنها لم تذهب إلى أية سينما منذ فترة وطلبت مني أن أدعوها إلى سينما قريبا، أومأت بالإيجاب فاشترطت أن يكون فيلما أمريكيا متميزًا وبدار سينما جديدة من سينمات الفنادق أو المولات، وعدتها بذلك فسألتني هل طلبت أوردر عشاء؟ أجبتها بأني كنت سأسألها في التو ما الذي ترغب في أكله؟

عقـدت جبينهـا وزمـت عينيها لحظة وقالـت: «إيه رأيك نـاكل جمبري وكاليماري وسـمك؟»، أفلتت مني ضحكة لم أسـتطع السيطرة عليها وكان ذلك طامة كبرى، لأنها اندهشـت وسـألتني بحدة: «هو فيه إيه اللي يضحك في اللي أنا قلته؟ هي المنطقة بتاعتكوا ما تعرفش السـمك والجمبري.. هو مـا يبتزرعـش عندكم؟»، كنـت أجاهد لأوقف سـخريتها وفـي ذات الوقت أحاول اختلاق سـبب لضحكتي، أجبتها بأني تذكرت سكرتيرة كانت تعمل لديَّ وكانت لا تأكل السـمك بعد موعد الغـروب، لهذا ضحكت لأننا على مشارف منتصف الليل، لكنها تحولت كأنها «عماد صدقي» فجأة عندما يركبه عصب الاستجواب وسألتني: «السكرتيرة دي كانت عندك إمتى يا أحمد؟»، أجبتها بسـرعة: «قدمت اسـتقالتها من 3 سـنين»، فجأة وجدتها تضرب قعر

الـكأس على المنضدة لدرجة جعلتني أنتفض خوفا من أن ينكسـر بين يدها ثم قالت: «أحا يا أحمد.. لو عايز تكدب على ريم لازم تكون حذر جدًّا.. سألتها بدهشة واستنكار: «في إيه يا ريم؟ كدب إيه وصدق إيه هو ده موضوع يسـتاهل أصلًا نتكلم فيه»، قاطعتني بحدة أكبر: «طبعا يستاهل.. إنت نسيت من شـهرين لما طلبت منك نتعشى أنا وملك واتعشـينا الساعة عشرة بالليل زفت سمك وكاليماري.. ليه ساعتها ما افتكرتش سكرتيرتك إللي ما بتكلش السـمك بعـد الغروب؟»، كان مـا حكته حقيقيًّـا وكنت قد نسـيته وحاولت إقناعهـا بأن التذكر لا إرادي ويصعد إلى الرأس فجأة، لكنها قالت: «شـوف يا أحمد.. الكحول اللي بنتهبب نشـربه ده هـو اللي بيطلع فجأة.. من الآخر إنـت روحـت مـع واحـدة شـرموطة ولا مؤاخـذة اصطدهالـك البيـه عماد صاحبـك وهي اللي اشـتغلتك بموضوع الغـروب ده»، عندما نطقت بكلمة شـرموطة وجـدت نفسـي مسـتفزًّا أقاطعهـا بحدة وأنـا أقول: «لو سـمحتي يا ريم.. لو سمحتي يا ريم ماتشتميش حد ماتعرفهوش».. حدقت في وجهي طويلا ثم قالت: «بتطلب مني يا أحمد ما اشتمش حتة سكرتيرة استقالت من عندك من 3 سنين.. الظاهر الموضوع أكبر من كده بكتير»!

وظللنا على هذا الحال لأكثر من نصف ساعة أكاد أتوسل إليها بأن تهدأ وتزيل الخرافات من رأسها وبذلت جهدًا مضنيا حتى لانت أخيرًا أو افتعلت ذلك، ثم أعدت سـؤالها عما تطلب فقالت بسخافة: «أطلب لنا كباب وكفتة من اللي بيتاكل بعد الغروب»، جثوت على ركبي وقلت لها: «حرام عليكي.. هـو احنا مـش اتصافينا.. هو أنا كل مرة حاعيد نفـس الكلمة.. هو إنتي ينفع تتقارنـي بـأي امرأة أخرى في الكـون..»، ضربتني على صـدري برفق وهي تبتسم وتقول: «يا بكاش»، هنا أدركت أن الأمور استقرت إلى حين.

حـاذرت بعد أن حضر العشـاء التطرق إلى ما يكدرها أو يشـقلب حالها ولـم أغامر بمـلء بطني حتى لاتضطـرب معدتي مرة أخرى وتفسـد الليلة، وكان حرصـي على عدم إفسـادها بدافع الكثير من الرغبـة التي تتفنن «ريم» فـي توهجها وإخمادها وإرضائها، وبدافع آخـر لا يقل أهمية هو أن أصرف نظرها عن التشـكك في تصرفي الذي تسـرب إليها نتيجة لغبائي واندفاعي، وبينما كنت منشـغلا بوضع الكيس المملـوء ببقايا الأكل والأطباق والعلب الكرتونيـة والبلاسـتيكية فـي سـلة القمامـة، ووضـع الأطبـاق والأوانـي والكاسات في حوض المطبخ، كانت هي في حركة دائبة بين الحمام وغرفة النـوم، وعندمـا وجدتني قـد فرغت من مهامـي وأغلقت البلكونـة أخبرتني بأنها شـغلت سـخان الحمـام واطمأنت علـى نظافة البانيـو وجربت بالوعة الصرف خشية من انسدادها، تحركت من أمامها تجاه غرفة النوم وأنا أبلغها بأنـي سـأنتظرها في الداخل حتى تنتهي من حمامهـا، لكنها جذبتني من ياقة البيجاما وهي تقول: «إنت رايح على فين.. إحنا حنسـتحمى سـوا..»، قلت بدهشـة: «نسـتحمى بعد يا ريم مش قبل، ثم أنا لسـه مستحمي قبل ما تيجي بسـاعة»، لـم تفلتني وقالت بأمر: «قبـل وبعد زي الدوا.. أولا عشـان تفوق وانت عمال تمشـي زي الزجزاج، وثانيا عشـان وعدتك بإني هاوريك اللي عمرك ما شـفته تسـيبني أجهزك للي هاعمله فيك»، همسـت: «ربنا يسـتر»، فضحكت وهي تقول: «إنت كمان محتاج دعوات الوالدين».

لـم يكـن هنـاك جديـدًا في اسـتحمامنا غيـر أنهـا دعكت جسـدي أكثر ممـا قبل واسـتخدمت كريمات ودهانـات جديدة لم تجربهـا عليّ من قبل، وطلبـت مني أن أفعـل بها مثلما فعلـت وعندما كنت أترفـق بجلدها الناعم كانت تشخط فيّ وتدفعني إلى الشدة.. وعندما انتهينا طلبت أن نظل واقفين

وغمرتنا بمياه الدش، ثم تبادلنا تجفيف جسدينا وهممت برفع قدمي في طريقي للخروج من البانيو، لكنها أعادتني ورشت بعض الماء على كفها وملست بها على أعلى كتفي ثم رفعت الشعر الساكن في لحم كتفي من الخلف، ولأن مرايا الحمام كانت محجوبة بالستائر طبقا لهواجسها، لم أتمكن من رؤية ما تفعله بشعر كتفي الذي لمحت بصعوبة أطرافه واقفة بعشوائية، عندما أدركت محاولاتي لثني الرقبة ومعرفة ما يدور، همست في أذني: «تعرف يا أحمد أجمل حاجة بحبها في جسمك هما شوية الشعر دول.. لما بيرتفعوا فوق كتفك بيبقوا زي الجناحين»..

استدرت وابتسمت في مواجهتها وقلت: «هما دول بس اللي بيعجبوكي في جسمي؟».

فتحت عينيها على اتساعهما بتحدٍّ وقالت: «نسيت الحاجات التانية.. لو جدع تفكرني تاني بيهم»، ثم جرتني جرًّا إلى داخل غرفة النوم وأمرتني بأن أتجرد من كل ما أرتديه، مازحتها وطلبت منها أن ترتدي ما يثير فوق الكيلوت والبراه التي كانت تواجهني بهما، لكن قالت بمثل لهجة المضيفات حين يتلون إجراءات السلامة: «إنت ما تتكلمش خالص.. إنت تنفذ اللي أقوله وبس.. اللي كنت جاية ألبسهولك اتلفحتلك بيه في البلكونة.. واللي لبساه دلوقتي حيتقلع بميعاد»، وتجنبا للمجادلة نزعت كل شيء، وعندما انتهيت وجدتها تفرش ملاءة إضافية فوق ملاءة السرير وتأمرني بأن أضطجع عليها ثم وضعت على جسدي كريما لتليين العضلات وهي تقلبني كما يقلب الفران الخبز وأخبرتني بأن هذا تمهيدًا للمساج، ودلكتني بدقة وبسرعة كبيرة ثم أمرتني بأن أنهض وناولتني منشفة لأجفف جسدي وخطفتها مني لما

انتهيت، وكورتها بداخل الملاءة الإضافية التي تلوثت بالكريم وألقتهما في ركن الغرفة وهي تقول: «تبعتهم التنترليه مع باقي هدومك.. لحد ما أجيبلك شغالة كويسة تهتم بالبيت وتجيلك من الصبح وتمشي بالليل»، رفضت هذا العرض الذي كانت قد اقترحته في أوائل زيارتها لمنزلي، لكنها في هذه المرة لم تأبه لرفضي وقالت بحسم: «هو إنت مافيش في بقك غير كلمة لا أنا لما هاجيبلك واحدة يبقى أكيد أنا ضمناها.. وبعدين لو ماعجبكش أداءها اطردها.. بدل ماسايب قصرية الزرع اللي في البلكونة ورقها مصفر وطينتها متشققة من قلة المية.. وبعدين قولي إنت جايبها عشان الجيران يقولوا إنك بتحب الزرع. طب ليه مش حاطط نباتات ضل جوه الشقة؟»، هممت بالرد لكنها سارعت بالقول: «هانقيلك شوية نباتات على ذوقي وابعتهملك».. وفجأة ودون أن أنتبه دفعتني نحو السرير فاختل توازني وسقط نصفي الأعلى في منتصفه بينما باطن قدمي يلامس الأرض بصعوبة ثم قفزت فوقي.

ولم تمكني منها كي أبدأ الممارسة الجنسية بالشكل الذي اعتدته لكنها أمرتني أن أسترخي على الفراش وباعدت ركبتيها وقدماها تلامسان ردفيها ثم نزعت صدريتها فحاولت معاونتها بفك حبل سروالها، لكنها بسرعة لطمتني على ظهر يدي كأنها تفعص ناموسة وهي تقول: «مش قلتلك ماتمدش إيدك على حاجة من غير ما أقولك!»، ثم أراحت ساقيها بين فخذي وارتكزت على ركبتيها وربتت ثديها الأيسر وبإبهامها حركت حلمته قليلا وهي توجه الحلمة مباشرة نحو فمي، أقفلت عليها فمي باستمتاع ولم أتركها فضربتني برقة على خدي وهي تقول بدلال: «مش كده يابن العضاضة».. ثم وجهتني لما يجب أن أفعله وأطعتها كتلميذ

مجتهـد.. وكانت ترقبنـي بوله وأنا أداعبه بلسـاني ومقدمة أسـناني وأقبض عليـه بفمـي وأكرر الأمر وطالت المـدة حتى وجدتها مغمضـة العينين وفي عالـم غيـر العالـم وحلمتها تكبر وتشـتد بين لعابـي، وأمسـكت بكفي التي كانـت تعصـر ثدييها وفتحت عينيها ثم قبلتني بوله فـي فمي وتركت ركبتيها تنسـحبان إلـى الخلف حتى لاصقني جسـدها، ظننت أنه الوقت المناسـب لاحتضانهـا لكنهـا أبعدت يـدي بغلظة وثبتتهـا بجانبي كأنهـا تنوي وضعي فـي جوف حقيبـة، ثم ظلت تهبط من فوق جسـدي بنفس حالـة الالتصاق، وكلمـا هبطـت درجـة قبلـت المنطقـة المقابلـة بادئة مـن الرقبـة التي كنت لا أحتمل الإطالة في تقبيلها لأنها منطقة تدغدغني، وعندما هززت جسدي تذكـرت فنزلـت درجة أخرى إلـى الصدر، ثـم أعلى البطن واسـتقرت عند السـرة وداعبتهـا أولا بإصبعهـا ثـم جالت بلسـانها عند الحافـة طويلا بعدها أدخلـت لسـانها وكان زفيرهـا لـه ملمس نسـمة العصـاري.. وكنـت أظنها سـتتوغل أكثر لكنها اكتفت بذلك ثم اعتدل نصفها الأعلى وأمسكت بثديها الأيسـر ووجهت حلمته النافرة تجاه بطني، وبوغت وأنا أراها تدفع الحلمة في سرتي وتضغطها بقوة وهي في قمة النشوة تنهال عليّ بشتائم بذيئة طالما طلبـت منـي أن أقولها حتى تحصل علـى الأورجازم، كنت أكتـم ألمي وأنا أستمتع بتلذذها الجنسي حتى جذبت حبل سروالها بقوة وفتكت بي.

لا أعـرف هـل همـدت قبلهـا أو بالتزامـن معهـا، لأنـي عندمـا فتحـت عينـي بتأثيـر المعـارك الضاريـة التي اشـتعلت فـي كل موقع بجسـدي وقد آثـرت فـي النهايـة الاستسـلام وسـمحت للدمـاء بـأن تتدفق فـي مجاريها المعتـادة، ووجدتهـا راقـدة بجـواري فـي الوضع ذاتـه، على ظهرينـا، غير

أن عينيها كانتا تحدقان في السقف وعندما انتبهت لإفاقتي وصلتني حروفها مبتسمة: «قولي بصراحة إنت إيه اللي همدك.. السكر ولا الجنس؟»، رددت بسرعة: «الجنان الرسمي اللي عملتيه»، اعتدلت بنصفها العلوي بشيء من التكاسل وانحنت على وجهي فأبعدتها برفق بعد أن كادت تغلق مساحة التنفس: «خليكي بعيدة شوية يا ريم عشان أقدر أشم هوا»، ارتدت عني بسرعة إلى نفس رقدتها وهي تزفر. «دي آخرة اللي يحاول يسعدك!».. لبثنا بضع دقائق صامتين ثم خشيت أن يطول الوقت فتغضب، لذا ارتفعت قليلا عن الفراش بصعوبة بالغة وقلت لها فيما يشبه المرح: «ريم قوليلي هو انتي إيه اللي كنتي بتعمليه في سرتي؟»، ويبدو أنها كانت تنتظر سؤالي هذا لأنها لم تتمادَ في تقطيبتها وردت بسرعة: «جربت فيك حاجة جديدة إيه رأيك عجبتك؟».. أومأت برأسي وأنا أقول: «أيوه.. بس اتوجعت»، ضحكت بصخب كأني قلت طرفة وقالت: «أحسن عشان منبقاش إحنا بس اللي بنتوجع»، جاملتها بضحكة وأنا أطلب تفسيرًا لما فعلته فاعتدلت في نفس مستوى عدلتي ثم قالت: «بس يا سيدي أنا عملت زي الأمير في قصة سندريلا.. وقلت أنا مش هاتجوز إلا اللي سرته تناسب حلمتي وبيها أفض بكارة سرته»، ظللت فترة مأخوذًا مما قالته ثم وجدت نفسي أجاريها: «طب ونتيجة الاختبار طلعت إيه أنفع ولا لأ؟»، ضحكت هذه المرة بصخب أقل وميوعة أكثر: «هي ضيقة شوية بس هتوسع في المشي»، ثم أشارت بسبابتها في تحدٍّ: «وإن ماوسعتش بالذوق حاوسعها لك تاني بالعافية»، عاد الألم إلى تلك المنطقة فتحسستها وحاولت هي مساعدتي فأزحت يدها برفق، ثم أشرت بعدها إلى ثديي وقلت: «خلاص

المـرة الجاية أنا حاجرب»، اقتربت مني محدقة فيهما وابتسـامة اسـتخفاف تكبـر علـى وجههـا: «إيـه يـا أحمـد دول، دي تقـاوي زرع.. ممكـن تاخد شـوية هرمونـات لمدة سـنة واعرضهم عليا مـن تاني».. ثم قطبـت جبينها: «ولا أقولـك بـلاش الهرمونات لحسـن في الآخـر تبقى زيي»، ثـم تجنبت بسرعة قبضتي التي افتعلت أني أهوي بها على وجهها وعادت إلى ضحكها، وأعجبتني هذه الحالة فأعدت تهديدها بأني سـأفعل ذلك في المرة القادمة، غيـر أن هذه المـرة نظرت تجاهي بتأمـل وهي تقول: «يكـون في علمك إن حلمات الذكور هي الدليل على أن الرجال مش بيثقوا في النسـاء وواخدين حذرهم، عشان لما يجي يوم تطلق فيه النساء كل الرجالة، ساعتها حيكبروا صدورهـم.. ويولدوا برضه زي الستات بس بصعوبة عشان هيخلوا عضوهـم حامل للأجنة.. وسـاعة الولادة حيطـردوه زي ما بيطردوا حصوة الكلى من قناة الإحليل..»، وكانت عيناي متسعتين من الدهشة وكنت قد انتبهت وهي في نصف حوارها أنها تملي عليّ كلمات من كتاب ما، لذا عاجلتها بالاتهام: «ريـم إوعـي تقوليلـي إن ده كلامـك ولا أفـكار جاتلـك وانتـي قاعدة على التواليـت»، ضحكت بمـرح وأفاقت تماما: «من كتب طبعـا.. حتى الوضع اللـي عملتـه في سـرتك.. مش كنت باقولـك أنا أكثر ثقافة حتـى من خالك الله يرحمه وشلته.. على الأقل أنا باقرأ بلغتين تانيين غير العربي.. ولعلمك ده كتاب إيطالي اسـمه الجسـد(*) قريته بالإنجلش وكنت حجيبهولك هدية فـي عيد ميلادك بـس لما قريت فيـه عجبني وقلت أخلصه وأشـوفه مترجم

(*) جسد للكاتب الإيطالي تيتسيانو سكاربا

Tiziano Scarpa - ORIGINAL TITLE: CORPO

للعربي عشان أجيبلك نسخة»، استفزتني جملتها الأخيرة فقلت: «بيتهيألي إنك نسيتي إني مهندس وبأعرف إنجليزي وكنت باقابل الخبراء في شركتي القديمة وباراجع شغلهم كمان»، أحست بزعلي فمالت تقبلني من وجنتي وهي تهمس: «ماتزعلش يا بيبي أنا ما أقصدش.. أنا بهزر.. وبكرة هاعدي على مكتبة الديوان يمكن يكونوا استوردوه عشان النسخة اللي في إيدي اتبهدلت من كتر القراية». أعطيتها ظهري وأنا أغلق مصدر الضوء الذي ناحيتي وأهمس لنفسي: «من كتر القراية ولا الاستعمال؟». لطمتني بلطف على ظهري وأجابت بميوعة: «أنا اللي غلطانة عشان اخترت اني أعمل التدريبات العملية عليك».

***

فيما عدا الأيام التي أبيت فيها مع «ريم» أصحو مبكرًا؛ لذا استيقظت هذا اليوم في منتصف النهار ولما وجدت أن لا أمل في إيقاظها نزلت وأفطرت بالخارج وركنت بعض الوقت في مقهى قريب من البيت ثم اشتريت بعض مستلزمات البقالة وصعدت، وكان الشيء الوحيد الذي تم إضافته إلى تكوينها على الفراش هو الوسادة الصغيرة التي وضعتها بين فخذيها.. حاولت القراءة في الصالة وفشلت في التركيز ووترتني قطع الأثاث التي كانت قد حادت عن موقعها فأعدتها إلى موقعها الأصلي، وقد أحدث ذلك صوتًا مزعجًا لم أحاول السيطرة عليه لرغبتي في إيقاظها بسرعة حتى ترحل مبكرًا.. وعدت للتلصص عليها وكانت على ما هي عليه، أزحت ستارة النافذة قليلا من الجهة المخالفة لوضعها حتى يدخل الضوء الطبيعي دون أن يلهبها فتصحو لتخانقني، ثم سحبت سلة القمامة وأفرغتها في السلة

الكبيرة التي أمام باب الشقة وبينما أنا في سبيلي إلى غلق الباب أحسست بشيء خلفي فالتفت.. كانت «ريم» بملابسها الداخلية واقفة في منتصف البهو وأمام الباب مباشرة، فأغلقته بعنف وأنا أكاد أصرخ فيها: «إيه يا ريم ده! واقفة إزاي كده! مش يمكن حد من السكان يكون طالع ولا نازل»، وهي في اتجاهها للحمام قالت بزهق. «هي دي بونجور ولا صباح الخير بتاعتك! ثم بيتكم ده فيه حد من أصله؟».. أعددت لها إفطارها وانتظرت خروجها من الحمام وأنا أفتعل الضيق، لكنها خرجت وببساطة أعطتني وجنتيها الرطبتين لأطبع عليهما قبلاتي وجلست وهي تقول: «صباح الخير يا بيبي».. ثم مدت لي يدها بقطعة خبز فاعترضت بأني أفطرت فولًا وطعمية في الشارع، فدبت سكينها في قطعة الجبن وقطعت شريحة وضعتها في الخبز وقالت بضيق: «والله انت واطي.. مش كنت تستنى المتلقحة جوه وتفطر معاها؟»، قلت إني أعرف أنها لن تفطر فولًا وطعمية من محل بالشارع، لم تعلق وكانت تقضم الساندوتش بفتور فتأسفت لها على أني نهرتها عندما كان الباب مفتوحا، نظرت تجاهي ثم ابتسمت وهي تقول: «تعرف يا أحمد على قد الحاجات دي مابتعصبني على قد مبفرح وأنا بأحس بغيرتك عليّ.. ساعات لما بنكون خارجين وأنا لابسة جوب مفتوح من الجنب وحد في الشارع يبصلي بشهوة كنت بالمحك حتموت من الغضب وده كان بيثيرني أكتر من نظرات الناس»..

صممت على الخروج إلى البلكونة لتستطلع المكان بالنهار قبل حلول الغروب وأجبرتها على ارتداء جلباب من عندي.. وراهنت على أن الشمس الحامية ستجعلها ترتد سريعا إلى الداخل، وجلست في الصالة وبجواري محمولي الميت الذي حرصت على إغلاقه بمجرد

حضورها حتى لا يتسبب في أية مشكلات.. لكنها لم تتحرك من موقعها بعد فاضطررت إلى العودة إليها، وجدتها تستند على سور البلكونة بمرفقيها وتتطلع إلى حديقة قصر عابدين وشرفات القصر التي تطل على الحديقة، وقفت بجوارها لكنها لم تهتم وظلت في شرودها، ربت كتفها فأدارت رأسها تجاهي ببطء شديد وعيناها تحدجاني باستفهامات متعددة، مازحتها بقولي: «طبعا القصر ده بيفكرك بالذي مضى»، اعتدلت وانفجرت في وجهي بحدة: «آه ببابي ومامي وجدو الباشا وبأيام لما كنت أنا وأختي رويدا بنتمرجح في جنينة القصر واللي بيمرجحنا الملك فاروق بذات نفسه»، ثم انطلقت غاضبة إلى الداخل وأنا أحاول اللحاق بها وتهدئتها، وأخيرًا استكانت وأنا أكرر قولي بأني كنت أمزح، ثم نظرت في وجهي بإمعان وقالت بحزم: «على فكرة أنا كنت فعلا بافكر في بابي وأنا بابص على القصر هو دخل القصر ده وهو صغير مع باباه وسلم على الملك فاروق وخدوا صورة جماعية والصورة دي مع أختي في سويسرا حاخليها تعمل لها إسكان وتبعتهالي وأورهالك»، كعادتي قبلت ظهري يديها الاثنتين حتى ترضى عني، لكنها نهضت في اتجاه غرفة النوم، تذكرت أنها تريد رؤية ألبومات الصور القديمة فاتجهت إلى الغرفة الأخرى وانكببت أسفل سريرها أنقب ووجدت الصندوق الخشبي وبجهد دفعته إلى الخارج لكي أقلب محتوياته، لكني وجدت خلفه كرتونة مغلقة بإحكام وتذكرت أنها كانت موجودة من قبل سفريتي الأخيرة إلى أسوان لكن لم يسعفني ذهني بمعرفة ما بداخلها.. جذبتها وأزلت اللاصق الذي يحزمها ورفعت غلافها، كانت مقسمة إلى اثنتي عشرة خانة طولية بشرائح كرتونية، وكل خانة بها شيء مغلف بورق الزبدة، عندما أخرجت واحدًا ومضت الذاكرة فجأة.. كان طبقًا من البورسلين الفاخر يبلغ قطره خمسين

سنتيمترًا وعرضه حوالي عشرين سنتيمترًا ومزخرفًا بالمنمنمات العربية وعليه شعار الخديوِ، وهو في الأصل طبق «العاشورة» الذي كان يوزعه الخديوِ إسماعيل على أهل عابدين الذين في نطاق القصر والذين كانوا تابعين بشكل أو بآخر للعاملين بالقصر، وقد أهدت جارة محبة واحدًا لأمي فأعجبها جدًّا وظلت تتقصى وتطارد وتساوم مَن يملكون مثله على مدى سنوات حتى جمعت الاثني عشر طبقا والتي قررت أن تهبها لأخيها «حسام» عند زواجه، وعندما لم يتزوج «حسام» وشرعت في الزواج قبله، ذات لحظة انفرادية طلب أبي منها أن تقدم لي هذه الهدية في صبيحة يوم زواجي، لكنها رفضت بإصرار وقالت إنها منذ اللحظة الأولى لرؤيتها هذا الطبق قررت أن يكون هبة منها لـ «حسام» لو تمكنت من جمع الدستة وقد وفقها الله إلى ذلك ولن تتراجع، وحدثت مشادة بينهما وعندما عايرها أبي بأنها اشترت هذه الأطباق بفلوسه غضبت وهمت بإرسال مكتوب إلى بقايا عائلتها في أسوان لكي يرسلوا إليها بعض الأموال؛ وكانت لم تفعل ذلك منذ زواجها، فاختشى أبي على دمه وصالحها ولم يحدثها بشأنه بعد ذلك، وبعد أن مات خالي «حسام» وقررت أمي العودة إلى أسوان لم تأخذ هذا الصندوق معها، وعندما سألها أبي عما سيفعل به؟ لم تتراجع وقد عاكستها الأقدار وتخبره بأن يعطيه لي حتى أقدمه إلى زوجة المستقبل الثانية، بل قالت بلا اهتمام. «أعطه لأي أحد أو بعه لكي تحصل على أموالك»، أخبرني أبي بهذه الحكاية التي لم أكن أعرف عنها شيئًا البتة وهو في حالة من السكر البين قبيل أخذه العهد على نفسه بالتوقف عن الشرب والعودة إلى أسوان، لم ينتبني فضول مطلقا بشأن هذه الكرتونة وقد أعلمني أبي بمكانها ومحتوياتها، وها أنا الآن بعد سنوات أراها وأتلمسها وأقرر بشأنها قرارًا في مرتبة الجنون.

لـم تصـدق «ريم» نفسـها وهي تـرى هذه الهديـة وظلت تتأمل الشـعار الخديـوي بافتتـان، وكانـت تقبلنـي بين اللحظـة والأخرى ثم تعيد سـؤالي هل فعلا سـأهديها لها، وأردت أن أريها باقي المقتنيات كطلبها سابقا لكنها رفضـت بحياء لأول مـرة أراه على وجهها وبدهشـة سـألتها: «ليه؟»، قالت ببساطة حتى لا يفتنها شيء آخر وأتورط في إهدائه لها، ضحكت وقلت إنها لن تجد شيئًا آخر يستحق الاقتناء لكنها واصلت الرفض وبعد إلحاح طلبت فقـط الاطـلاع على ألبـوم زفافي وصورة لأمـي.. وفي الصندوق الخشـبي العائد معي من أسـوان وجدت بعض الكتب والمخطوطات الخاصة بخالي «حسـام» ثـم وجـدت الألبوم، فرحت «ريـم» وهي تخطفه مـن بين يدي ثم تتطلع إليه لكن ابتسامتها تلاشت فجأة، كانت أمي قد قصت «جليلة» من كل صور الفرح، وكنت أجهل ذلك بالطبع، وبعد أن يئست «ريم» من رؤية صورة واحدة لزوجتي السـابقة «جليلة» دفعت بالألبوم في يدي وقالت فيما يشـبه الابتسامة: «الحمد لله إن مامتك خدت لقب المرحومة دا أنا كنت هاشوف الأمريـن معاها»، ظللت أبحث عن صور لأمي حتى الصورة الجماعية التي كانت تجمع بيني وبين خالي «حسـام» وأبي وأمي وكانت معلقة في غرفتها والتـي خبأتهـا بعد وفـاة خالي، لم أجدهـا أيضـا، قالت «ريم» بنفـاد صبر: «خلاص أنا مش محتاجة أشـوف صورتها.. أنا كونت ليها صورة خلاص»، ثم بدأت تعبث في كتب خالي وكراسـاته، فقلت بتخمين: «أكيد أشـعار ليه مالحقـش يطبعها»، جذبت واحدًا مـن يدها وفتحت غلافه وضحكت وهي تشـير إلـى عنوانه وقالت: «مخطوطاتـه.. ده ديوان نجيب سـرور.. أنا قريته كتيـر أصله كان متداول بشـكل كبير في معهد الفنون المسـرحية»، ثم قلبت صفحاته وكلما قرأت مقطعًا كانت تضحك بشـدة، قالت بغنج: «أحا وكنت

بتقول إني أنا اللي علمتك البذاءة.. أمال إيه ده؟»، ولم تصدق أني لم أره إلا هذه اللحظة، وألحت عليّ كي تأخذه لكني رفضت بشدة لأنه بخط خالي فناولته لي بفتور وهي تقول: «على العموم مبقاش مهم لأن اللي حذرنا منه حصل.. واللي حيحصلنا في المستقبل القريب خرا محشي خرا متغلف في خرا».

بعد الغروب فتحت جهاز محمولها وأجرت بعض الاتصالات ثم سألتني إن كنت أرغب في بقائها هذه الليلة، رددت بحياء: «براحتك»، ضحكت ضحكتها اللعوب وقالت: «تبقى مش عايزني يا بطل.. باين عليك خوخت.. أمال لما نتجوز ونبقى مع بعض كل ليلة»، قاطعتها ساخرًا: «ما احنا كنا زي المتجوزين زمان.. إيه اللي فرق دلوقتي؟»..

نهضت في اتجاه الحمام وقالت: «ماتخدش كل حاجة على قلبك باهزر».. ثم أضافت: «وميل ميرسيه على الهدية».

بعد أن رحلت تنفست الصعداء وفتحت محمولي وتأهبت للخروج، ثم جاءني تليفون من «جيهان»، ظللت لفترة أرقب الشاشة بحيرة حتى انتهت الرنات، لم أكن رافضا أن أكلمها لكن شيئًا من القلق انتابني مع دهشة أصبحت تصاحبني مؤخرًا، كلما قابلت «ريم» اتصلت بي «جيهان» والعكس صحيح، بعد ذلك ندمت على أني لم أرد على اتصالها وفوّت الفرصة ثم هممت بالاتصال بها ولدهشتي الشديدة وجدتها تتصل للمرة الثانية، رددت هذه المرة بسرعة معتذرًا بأني كنت في الحمام، لكني وجدتها تتكلم بجفاف غريب وبأوامر غير عادية وهكذا جرت تلك المكالمة التي ممكن إدخالها في باب الطرائف والنوادر.

أحمد.. إنت فاضي يوم الأربع الجاي الساعة 7 مساءً.

(لحظة تفكير مفتعلة) ثواني يا جيهان.. لا ماعنديش حاجة اليوم ده.

طب ممكن تجيلي الكافتيريا الموجودة في الدور الأول بفندق سميراميس في التوقيت ده.

(بلهفة) طبعا هاكون هناك في الميعاد.

أحمد أنا هاطلب منك طلب رخم شوية.. إنت مش هتقعد معايا.. هتلاقيني قاعدة مع واحد أو ممكن تلاقيه لسه ماجاش.. المهم تقعد بعيد عنا وعينك على الترابيزة بتاعتنا لو لقيت صوته ارتفع ماتتدخلش.. أرجوك ما تتدخلش غير لما أنده اسمك.

(بقلق) في إيه يا جيهان خضتيني؟

ماتقلقش سوء تفاهم في حاجة تجارية.. أنا بس مش عايزة حد يحس بيك عشان خاطري.. لو مرت الأمور بخير ما تقربش من ترابيزتي حتى بعد ما يخرج.. ولو خرجت ماتخرجش ورايا.

حاضر.

ريم مطر

كان انبهار «استيلا» بأطباق البورسلين الخديوية مبالغ فيه جدًّا، وضايقني أكثر أنها بعد جحوظ عينها من روعة الزخارف والشعار بدأت تشكك في أنها مقلدة باحتراف.. ولا تصدق أنها من عصر الخديوِ إسماعيل أي من قبل عام 1860، أبعدت من أمامها الـ package المصنوع من خشب الزان الفاخر وهو الشيء الوحيد اللائق الذي وجدته في جاليري في وسط البلد بعد أن تركت «أحمد»، وأنا في طريقي لأخذ «ملك» أدركت أن «استيلا» لن تتركني في حالي وستحاول بشتى الطرق معرفة ما بداخل العلبة الكرتونية المعتقة التي بداخلها الأطباق، لذا غيرت وجهة سيارة الأجرة تجاه أحد الجاليرهات التي أعرفها، ووجدت بجهد كبير هذا الـ package الجميل والقديم الذي على أي حال لا يتناسب مع جمال هدية «أحمد»، اشتريته مؤقتا حتى أتقي سخرية «استيلا» عندما تراه وقررت بداخلي أن أحاول مرة أخرى في جاليرهات الزمالك حتى أجد ما يناسب هذه التحفة، أحست «استيلا» باستيائي من رد فعلها فحاولت أن تبدو خبيرة في الأنتيك وجذبت الـ package مرة أخرى تجاهها وتفحصته ثم مدحت خشبه بطريقة مبالغ فيها ثم أخبرتني بطريقة جدتي التي لم تتخلَّ عن تركيتها حتى بعد أن عاشت في مصر أكثر من سبعين سنة.. بعد أن دقت على خشبه بمتن إصبعها: «صندوقه كمان تحفة يا ريم.. تخيلي

ريحتـه فيـه لغاية دلوقت»، هـذه المرة رفعت الأطبـاق بصندوقها من أمامها ووضعتهـا بجواري في الجهة الأخرى وقلت لها بغيظ وسـخرية: «خلاص يـا اسـتيلا بلاش نتكلم في موضـوع الأطباق ده تاني»، ظلت تتمسـح كقطة جائعـة وهـي تهمس: «بـردون يا حبيبتـي أنا مـش قصدي أزعلـك أنا كنت عايـزة أتأكد بس مـن عراقتهم واتأكـدت خلاص من الصندوق»، شـخرت لهـا وقلـت بعلو صوتـي: «الصندوق ده لسـه جيبـاه من جاليري في وسـط البلـد وما اعتقدش إن عمره أكتر من سـتين سـنة، يعني أرجوكـي ما تفتيش يـا اسـتيلا ومن فضلـك ادخلي صحي ملك عشـان هاخدها معايـا»، لزمت «اسـتيلا» الصمـت لحظـات ثـم قالـت: «بـردون يا ريـم.. أنا أصلـي كنت مسـتنياكي عشـان أقولك خبر مهم خالص ولما شـفت الأطباق نسـيت كل حاجة»، قلت لها بنفاد صبر «خير إحكي.. الواد بتاع الكشـك دخلت فيه عربية نقل وخلصتك منه ومن كشـكه؟»، ابتسمت «استيلا» وقالت: «حاجة زي كده بالظبط»، قلت في نفسي: «يا دين أم النسوان لما يركبها السسبنس» وشخطت فيها: «ما تتكلمي يا استيلا أنا مجهدة وعايزة أروح»، هزت رأسها بتقصـع مصري وقالت: «أنا مش هانطق بكلمـة إلا لما تقوليلي مين جابلك الأطباق التحفة دي؟»، أجبتها بسـرعة بأنه «أحمد» متصورة أن هذا سـينهي فضولهـا، ابتسـمت ابتسـامتها التي تعلمتهـا عندما عملت كبرميـد في بداية حياتهـا فـي الهيلتون حتى تعتاد علـى إدارة مطعمهم وبارهـم وقالـت: «آه.. عشـان كده انفعلتي عليّ»، لم أمكنها من إكمال قولها وصرخت في وجهها ولعنـت «أحمد» ولعنتها ولعنت نفسـي وأريتها الانفعـال الحقيقي، تركتني حتى هدأت ولم تنطق ولـم تتأسـف حتى وانتظرت إلى أن تماسكت وطلبت منهـا أن تأتينـي بـ«ملـك»، نهضت بتكاسـل فـي طريقها إلى الحجـرة التي

بداخلها «ملك»، وكنت في منتهى الضيق لأني تغابيت عليها وهي صديقتي الغالية وسندي في القاهرة، حاولت أن أستوقفها لكي تعود وتخبرني بالنبأ السعيد الذي كتمته في صدرها طويلا إلى حين عودتي، لكن شيئًا ما منعني فسكت، وقبل أن تصل إلى غرفة «ملك» التفتت تجاهي ويبدو أن الخبر كان يأكل صدرها لأنها بضعف قالت: «ريم.. هو إنتي حقيقي مش مهتمة إني أقولك على اللي حصل؟».. فجأة وجدت نفسي أهرول تجاهها وأحتضنها وأمطرها بالقبلات ثم أعود بها إلى جلستنا، جففت دمعاتها وتوالت اعتذاراتي بأني مضغوطة ومتضايقة ويائسة وكنت في حضنها الوافر وهي تربت ظهري بلطف حتى تهيأت لإبلاغي بما حدث، وقد انقلب حالي تمامًا فور معرفتي بهذه الأخبار السارة، فرغم أن صاحب الكشك وأصحابه كانوا من أكبر مصادر الإزعاج لمطعم «استيلا» لكن جد جديد غيَّر المعادلة تمامًا فبات صاحب الكشك أقل خطرًا، الخرابة التي كانت تجاور البيت الملاصق لمطعم «استيلا» انتهى بناؤها الذي استغرق أكثر من ثماني سنوات، وكانت تعرض محلاتها وشقتها للبيع ثم حدث حادث مؤسف للابن الوحيد لصاحب هذا المبنى، صرع الابن في سيارته الجديدة على الطريق الزراعي، بعدها تغير حال صاحب العمارة وأوقف التعامل في شقق ومحلات المبنى، ثم عاد بعد الحج وقرر إعادة تأجير الشقق وتمليكها، لكن بخصوص المحلات التي تشغل الطوابق الثلاثة الأولى من المبنى، فجأة قرر تحويلها إلى مسجد، وحسب قوانين وزارة السياحة وإدارات التراخيص بالمحليات يحظر الترخيص للبارات ومحلات الخمور الواقعة بالقرب من دور العبادة والمدارس لمسافة أقل من مائة متر، ولأن مطعم وبار «استيلا» مرخص منذ ثلاثين عاما فلن يؤثر عليه وجوده بجوار

المسجد على مسافة تقل عن ستين مترًا، المشكلة الحقيقية في الشكاوى التي ستنهال على وزارة السياحة وعلى شياخة الحي سواء كانت كيدية أو حقيقية وقد تؤدي إلى سحب ترخيص البار أو التضييق عليه، أخبر «استيلا» بذلك الموظف الكبير في وزارة السياحة التي توصلت إليه وحكت له مشكلة البار بكل أبعادها، وجعل الدنيا سوداء في وجهها، وتركها تتقلب على نار هادئة لأكثر من أسبوعين، ثم زارها وأخبرها بالحل، طبعا بعد أن حدد الثمن وتقاضى نصفه مقدما، وكان مبلغا فادحا، وطلب منها أن تؤجر شقة كبيرة على أنها فرع للمطعم وبالتالي تنتقل كل مزايا الرخصة إليه بحيث إنها لو أغلقت المكان لأي سبب يكون البديل جاهزًا، ولأن شروط الفرع أن يكون في نفس المنطقة فقد أرت موظف السياحة شقتها ذات الغرف السبع التي تمتلكها، وقد عاينها الرجل وأبدى رضاءه عنها ثم اصطحب زملاء له مهمتهم إضافة الفروع ومعاينة الأماكن وأعجبوا أيضًا بالمكان وأخبروها بما يلزم لإعداده حتى يتم اعتماده فرعًا لمطعمها وبارها.. كان هذا هو الخبر السعيد الذي ملأني بالفرحة وأخرجني من الأفكار السوداء التي كثيرًا ما تراودني، وأبهجني أيضًا أنها بحثت عن مكان بديل تسكن فيه مع عائلتها ووجدته في الكربة بمصر الجديدة وستنتقل إليه بعد أن تجهز هذه الشقة وتعلن عن فرعها الجديد وتبدأ في استقبال الزبائن به، ياه «استيلا» الفراشة لاعبة الباليه التي ارتكنت للقعدة وترهلت وكنت أسخر منها ومن حركتها استطاعت أن تنهي مشكلة وتجد شقة بديلة في ظرف أشهر قليلة، وأنا على مدى عامين لم أتقدم خطوة في اتجاه مشروعي الذي أعادني إلى القاهرة. أريد أرضا شاسعة في منطقة عريقة لكي أبني عليها الأكاديمية التي تعتني بالتمثيل وفروعه.. لكن تعجزني الإمكانيات وكل مَن

توسمت فيهم المشاركة ولو بجزء يسير خذلوني.. ساويرس.. أبو العيش... أصدقاء أبي.. حتى أختي «رويدا» التي ستتقاسم معي ثمن بيع شقتنا الذي أسعى إليه قالت إنها غير مهتمة وعرضت أن تقدم لي نصف نصيبها على سبيل القرض أو الهدية ووبختها، «علي المنصوري» الذي كان يسخر من مشروعي وأنا على ذمته، عندما عاد مؤخرًا وبعد أن هدأت المشكلة تصور أني رضيت عنه وعرض أن يشاركني وبينما كنت أتطلع إليه بدهشة كان يسرد حيثيات عرضه بأنه دكتور جامعي متخصص في الإخراج المسرحي ووجوده في الأكاديمية سيدعم المشروع، وبأنه قادر على جلب الأساتذة الآخرين في التخصصات المختلفة، وبأني إن وافقت على جعله عميدًا للأكاديمية سيستقيل من أكاديمية الفنون ويعيش من أجل هذا المشروع، كان حد القرف من كلامه قد وصل مداه لكن لم أعلق إلى أن قال إن ذلك سيفيد في لم الأسرة، قدمت له التحية الواجبة والتي يتلقاها في كل مرة ولا يكف عن التكرار.. شخرتله ودرعتله...

أفقت على سؤال «استيلا» عما تم في موضوع مكتب الـ UN، الذي يؤجر شقتي، أجبتها بأنه لم يجد جديد لكن بما أننا بالقرب من نصف شهر يونيو ولم يخاطبوني كي يجددوا التعاقد.. أعتقد أنهم سيرحلون في نهاية يونيو بعد انتهاء العقد.

قالت «استيلا» ببساطة: «وإيه يعني أي منظمة تانية تأجرها وبأكتر من إيجارهم»، صرخت فيها: «أنا مش عايزة إيجار يا استيلا أنا عايزة أبيع واخلص أدي قرايبك التلت حسب القانون وأقسم الباقي مع رويدا.. وكل المنظمات والهيئات الدولية حتقول زي الـUN إنهم مش مسموح لهم

بتملك مقرات إنما بيأجروا الأماكن بمدد محددة لحين انتهاء المشروع اللي أجروا المكان عشانه».

قطبت «استيلا» جبينها ثم قالت: «حتتحل يا ريم.. زي ما اتحل موضوع المطعم.. نستنى بس لما يرجع ولاد خالتي ونشوف إن كانوا حيشتروها منك أو يبيعوهالك أو عندهم مشتري كويس».

قلت بزهق: «أنا مش هتنازل لهم عنها يا استيلا.. دول هيخسفوا بتمنها الأرض.. أنا هاتصرف.. ممكن بقى تصحي لي ملك».

نبرة صوتي العالية جعلتها تنهض وتتحرك بإيقاع أسرع تجاه الداخل.

أحمد الضوي

ذهبت إلى الفندق بملابس كاجوال (تي شيرت وبنطلون جينز) كالتي أتواجد بها في مواقع العمل، وكان هذا أول ظهور لي بمثل تلك الملابس أمام نساء تربطني بهن علاقة كـ «ريم» أو صداقة كـ «جيهان»، ارتديتها تحسبا لأن أتدخل في الوقت المناسب وأمنع الأذى عن «جيهان»، وكنت قد فكرت أن أصطحب «عماد صدقي» معي لكنني تراجعت لأن «عماد» قد يتهور ويعمل «شو» بوليسي يزعج «جيهان» بالإضافة إلى أنه لن يفلت فرصة إلا ويتندر فيها من علاقتي الغامضة بـ «جيهان» كما يتصور، «جيهان» أيضا قد يضايقها وجود «عماد» بالرغم من أنها لا تعرفه وجها لوجه وربما سمعت مني عنه بصفته صديق.. لأني أعرف أنها وشلة المثقفين الذين تسير في معيتهم يكرهون ضباط الشرطة كراهية التحريم وإذا عرفوا أن «عماد» ضابط شرطة وصديق لي ستنتابهم الشكوك المرضية حولي، وهم يتشككون في وجودي بينهم كما أشعر

وصلت قبل الموعد بربع ساعة وتحيرت في اختيار المكان الذي سأجلس فيه لكي أراقب منضدة «جيهان»، بالرغم من معرفتي للموضع الذي تفضله لكنني كنت غير متيقن من أنها ستختاره هذه الليلة، فهي لن تجلس بشروطها لكن ستجلس حسب جلسة الشخص الذي ينازعها الأمر التجاري.. لكن ما هو هذا الأمر موضوع النزاع وأنا حسب ما أعرفه

عـن «جيهان» أنهـا رفضت عروضا تجاريـة كثيرة واختـارت الفن عن يقين واقتنـاع.. ليـس مهما موضوع المشـكلة.. المهـم أنها بداخل مشـكلة وتريد دعمـي.. أخيرا اختـرت المنضـدة التي بنهاية التـراس المطل علـى النيل.. وجلست أغرب جلسة في تاريخ الفندق بأن أعطيت ظهري للنيل كي أتمكن مـن ملاحظة كل القاعة، وأجذلت العطاء للسـاقي مقدما وأنا أخبره بأني قد أغير جلسـتي بعد فترة فانحنى ومنحني ابتسامة المضيفين حال رضائهم عن البقشـيش، لـم يكن بالمكان غيـر بضع مناضد مشـغولة وظللت فترة أخمن المنضدة سـعيدة الحظ التي سـتجلس عليها «جيهان»، دون أن أشغل نفسي بـأن الأمور بيـن «جيهان» وشـريكها قد تتطور وتسـتدعي تدخلـي، وإذا ما تدخلـت هـل أنا قادر على حسـم الأمور لصالحي أم سـأضيف خيبة أخرى لن تنساها «جيهان» مطلقا.

فـي السـابعة والربـع دخلت «جيهـان» المـكان، بفسـتان لونـه برتقالي مـن الشـيفون وأسـفله بطانة تحجب الجسـد وعلـى كتفها وشـاح حريري أسـود بثقوب دقيقة أو زهور صغيرة على حسـب رؤيتي من تلك المسـافة، ولعنـت الطقـس اللطيـف الـذي مكنهـا مـن ارتـداء هـذا الفسـتان الفاتن، كنـت أتمنـى أن تتدثـر فـي بالطـو سـميك وقبعـة فـرو روسـية وقفـازات لا يصلح اسـتخدامها إلا في الإسـكيمو.. وتسـاءلت هل يصلـح هذا الرداء لإنهـاء علاقـة تجاريـة؟ وبينما كنـت أفكر كانـت واقفة في مدخـل المكان تتفحصـه بعينين متواريتين خلف عدسـة نظارتها الداكنـة.. لـم تحـرك رقبتها يمينًا أو يسـارًا ولعلها رأتني وتجاهلت.. وفجأة وقـف جسـد ذكر بالغ فارع في تمام أناقته.. بدلة شيك لعلها «براند».. رأيته من ظهره ورأته «جيهان» من

وجهه وكان لحسن حظي يجلس في منتصف المكان وأنا خلفه وتفصلني عنه منضدة واحدة خالية، تقدمت «جيهان» بخطوات أنثوية وبابتسامة جادة بينما مد الرجل خطواته تجاهها وانحنى قليلا وهو يسلم عليها بحرارة ثم جاورها في رحلة رجوعه إلى منضدته، كان يتكلم وكانت تهز رأسها ثم أجلسها أمامه بطريقة الناس المهذبين.. جذب لها الكرسي وانتظر حتى جلست.. أجلسها في الموضع الذي أعرف أنه يعجبها.. في مواجهة النيل معشوقها الذي يحجبه عنها منضدة فارغة ومنضدة يجلس عليها حارسها الشخصي ووراءه زجاج عازل للصوت وعوادم السيارات.. خلعت نظارتها وتطلعت أمامها حيث الرجل الذي يجالسها ومن خلفه أظهر واضحا لها، رأتني ولم تومئ إيماءة بالرأس بل خفضت من رأسها وهمست له، فتحرك بسرعة وأخلى مكانه ووقف حتى بدلت موضعها لتجلس مكانه، تحيرت جدًّا من هذا التصرف.. هل لا تريد أن تراني وهي تتحدث في المشكلة فترتبك؟ أم أرادت أن تمكنني من رؤية وجه الرجل وشفاهه بحيث أتحرك بسرعة عندما يحتدم الخلاف؟ ثم غاظني بعد ذلك أنها تحررت من الوشاح وعلقته في المقعد الخالي بجوارها.. رغم أن تلك اللحظة كانت من لحظات سعدي.. ففستانها السواريه أبرز جزءًا أنا مفتون به في جسدها.. وهو ربلة كتفها لو صح هذا التعبير الذي بقي في ذاكرتي من «افتكاسات» خالي اللغوية الذي كان يتباهى بشرحها لي.. ربلة الكتف مثل ربلة الساق وهو بطن الذراع الأسفل الذي ينتهي بالإبط.. كنت مفتونا بتلك المنطقة عند «جيهان» ولا أدري لماذا؟ ربما لأن جسدها كله كان محجوبا عني وعندما رأيتها في المرات الأولى وكانت تصور وهي مرتدية تي شيرت

«كـت» لمحـت هذا الجـزء فأسـرني وتلصصـت عليهـا دون أن أمكنها من ملاحظتي، ثم لم أرَ منها بعدها شيئًا مطلقا غير هذه اللحظة التي أحدق في ظهرها وربلتيها بتصريح منها.. ويبدو أن مضيفها صمم أن تشـرب مشروبها أولا دون أن يتحدثـا فـي صميم المشـكلة.. لأني رأيت بسـماته وجسـدها السـاكن المطمئن وهو يحدثها أحاديث ودية، ثم بعد فترة طويلة بالنسبة لي وجدتهـا تقف فجأة فأوقفت الشـوكة فـي الفراغ الذي أمـام فمي وتحفزت للقيام، غير أنه سـبقني ووقف وظل يعتذر لها فيما يبدو حتى أقنعها بالعودة مـرة أخـرى إلى المنضـدة، كنـت أرغب في طلـب كأس من الويسـكي مع الطعام لكن خفت أن أجد نفسـي قد أنهيـت نصف زجاجة وبغير قدرة على الدفاع عنها لذا ألغيت الفكرة وبقيت منتبها ومتحفزًا جدًّا.. لكن حركة شفاه الرجل كانت حركة طبيعية مما زاد من توتري لغموض ما بينهما.. ثم وجدته يخرج من حقيبته جواز سفر ويناوله لها كي تتصفحه، بعد أن أنهت تصفحه أرجعتـه لـه بينما الدم الفائر يتصاعد إلى رأسـي.. هل من المعقول أن يكون هـذا الرجل هو حبيبها المجهول؟ الذي يرفض أن يصطحبها إلى السـعودية فتهدده بإنهاء العلاقة وتحدد له موعدًا نهائيا في هذا المكان، بحضور مغفل هـذا الزمان، ثم يأتي الحبيـب بما يثبت رغبته في الاقتران بها بجواز السـفر وعليه التأشيرات اللازمة! هل يعقل أن تكون «جيهان» بهذه النفسية والروح الانتقامية؟ لو كانت كذلك فعلا وفعلت ما أنا أهرتل به سـأكون مسـخة هذا العصر.. هممت بالتحرك نحوهمـا والجلوس بينهما ومحادثتها علنيا طالبا منهـا تفسـير هذا الموقـف.. لكني تراجعت.. شـيء ما طلب منـي أن أصبر وأنتظر نهاية هذه الليلة السوداء.

لكن الباقي من تلك الليلة كان ضاريا.. كان هدوؤهما والمشروبات الإضافية التي «طفحاها» بمثابة إبر مسمومة تنغرز في جسدي.. ياه.. ما الذي يحدث لي؟ لماذا أنا بالنسبة لـ«جيهان» و«ريم» كشنطة الحريم التي تلازمهن ولا تفارقهن ويضعن فيها كل ما يحتجنه.. مشابك شعر wipes.. توك.. إيشاربات.. سجائر وولاعات.. أولويز.. غيارات.. وعندما ينقطع حزام تلك الشنطة أو تتمزق.. ينسين صحبتها الطويلة ويلقينها.. عرفت الآن لماذا لم تأت «جيهان» بأحد أصدقائها الأنتيم لكي يحضر هذه المهزلة.. إنها لا تكف عن إرسال رسائلها لي كي تزيحني من طريقها.. وأنا متبلد أتجاهل إشاراتها أو أخطئ تفسيرها أو أتعمد ذلك.. هل أنا ماسوخي أهوى أن يعذبني أحدهم؟ بين يدي «ريم» تملأ واقعي وألف وأدور خلف «جيهان» كي أملأ خيالي.. لو نجوت من هذه الليلة.. يا رب يا قدير سأعيد حسابات حياتي وقد أخرج منها صنف الحريم كله...

تجاهلت كل رسائل «جيهان» فجعلتني كالعبد المختص ببريد الوشم.. الذين يحلقون رأسه ويوشمونه برسالتهم وبمجرد أن ينمو شعره يرسلونه خارج الحدود المحاصرة بالأعداء.. وبعد أن يجتاز كل الوعورة والمصاعب ويصل إلى المرسل إليه الذي يحلق رأسه ويقرأ الرسالة ثم يقطع ذلك الرأس حتى لا يقرأ الرسالة أحد، وها هي تقطع رأسي بجواز سفر.

تأمل الساقي الطعام بدهشة عندما وجده على حاله بينما أنا أطلب رفعه، اقترح بدائل لكنني طلبت شيك الحساب وعندما «انكشح» من أمامي لم تكن «جيهان» على مقعدها وخمنت أنها ذهبت إلى الحمام، لكن الساقي بعد فترة عاد بشيكين أحدهما لي والآخر للرجل الذي كان يجالسها واستفزني

ذلك، كأني كنت أنتظر أن تلوح بيدها لي مودعة أو تأتي إلى منضدتي وتقول شكرًا، وقد قالتها فعلا بعد أكثر من نصف ساعة عبر رسالة SMS ليس فيها غير هذه الكلمة!

وأنا في قمة غيظي قبلما أخرج من الفندق، لم أثق في تمام اتزاني وخفت أن أتعرض لمكروه لو خرجت بهذا الحال، فتجولت قليلا في رواق الطابق الأول والميزانين والأرضي، عبرت أمام فتارين زجاجية بها ملابس وعطور؛ وموظفي بنوك وصرافة، ومطاعم صغيرة وتوكيلات عالمية، وهاجمت أنفي كل أنواع الروائح صناعية وطبيعية.. وإذ فجأة لمحت ظهر «ريم» يقرأ بإمعان اسم الديسكوتيك، ثم تتحرك لتسد مدخله منتظرة، حتى هرول نحوها أحد العاملين فسألته عن شيء ما فأشار لها إلى أسفل، كان القلق قد انتابني فور أن لمحتها وظننت أنها تتبعتني وحمدت الله أني لم أكن أجالس «جيهان» لأنها لو رأتني في ذاك الوضع.. الشيطان أدرى بما ستفعله.. ولست أخاف على نفسي.. كنت أخاف أن ترى «جيهان» مني وجهًا جبانًا نجحت كثيرًا في إخفائه.. ثم تنبهت وتمنيت لو كانت «ريم» قد عجلت من قدومها ورأتنا ونحن نتكلم لأي سبب وأطاحت بها كي أنال ثأري منها.. كانت «ريم» قد استدارت وواجهتني واعرضت ابتسامتي لأنها شاطئي ومرساي في تلك اللحظة.. لكنها حدقت في وجهي بدهشة واستنكار ثم مرت بجواري بعد أن وسعت ممر الفراغ الذي بيننا.. بدهشة ناديت عليها: «ريم.. ريم».. لكنها لم تلتفت، أسرعت الخطى خلفها حتى لحقت بها وتقدمت عليها بخطوة ونطقت اسمها بحدة، لكن السيدة فزعت وتراجعت بخوف وأدركت في الحال أنها لم تكن «ريم».. تشبهها فعلا

إلى حد التطابق لكن هذا الوجه الأبيض المشرب بالحمرة المميز لـ«ريم» تحول عند الغضب بالنسبة لتلك السيدة إلى شيء آخر.. كان بعض العاملين ينظرون بتأهب نحونا وكنت أعتذر بشدة وكانت السيدة تزداد قرفا وشكا في نواياي مما دفعني للاختفاء بسرعة من أمامها ومغادرة الفندق مستقلا سيارة من سيارات الأجرة الواقفة في حرم الفندق، وفي السيارة وصلتني رسالة «جيهان» المبتسرة تشكرني بعد أن تذكرت أخيرًا أني نفذت ما طلبته مني بالحرف، سألني السائق عن وجهتي فأشرت إليه أن يمهلني حتى أنهي مكالمتي، كنت أريد أن أسكر إلى حد الغيبوبة ولن أتمكن من ذلك بمفردي في البيت لأني لا أدري ما الذي سأفعله بنفسي وأنا على هذا الحال المزري، اتصلت بـ«عماد» فوجدته غير راغب في السهر بالأماكن العامة وعلل ذلك بزهقه وطلب مني أن أسهر عنده في البيت، وافقته بشرط ألا يطلب تفسيرًا لحالتي وأن يدعني أسكر ونحن نتسامر في أية موضوعات غير شخصية، ضحك بهزل وهو يوافق على شرطي، أخبرت السائق بوجهتي فاستاء معللا ذلك بأننا في طريق الكورنيش المؤدي إلى المعادي وتغيير الوجهة إلى سراي القبة سيأخذ وقتا، بغلظة طلبت منه أن يوقف السيارة وينزلني لآخذ سيارة أخرى، فتأسف بمسكنة ثم واصل سيره.

بصراحة هذه من المرات النادرة التي احترم فيها «عماد» شروطي باذلا كل جهده لتلبية احتياجاتي التي لم أطلبها مطلقا لكنه كان يخمنها وينفذها بسرعة: «أحمد.. نجيب شوية مزات.. عندي كيوي ومشمش حموي زي السكر ينفع قوي مع الكونياك.. ممكن أكلم البواب يجيبلنا شوية فول سوداني وفسدق.. معلش الشيبسي قليل بس لو خلص ممكن أحمرلك شوية بطاطس»..

كنت قد كلمت حبيبته «كارولين» منذ فترة قريبة لكي أطمئن أنه لم يعد يضايقها ولم يتعرض لها بطريق مباشر أو غير مباشر، أو حتى مكالمة بدعوى الاطمئنان عليها، وفاجأتني بأنه لم يعد يتصل بها مطلقا ولم تعد تراه ولا حتى مصادفة وشكرتني بشدة لأنني حققت لها المستحيل من وجهة نظرها، ثم بصوت حاولت جاهدة أن تخرجه طبيعيا ومحايدا سألتني عن حاله فأخبرتها بأنه «زي الجن» وفي سبيله للترقي في الشرطة فشكرت المسيح الذي هداه وأم النور التي أنارت بصيرته، أحسست بعد مكالمتها أنها تفتقده وخيل لي في تلك اللحظات أني لو أخبرت «عماد» بمكالمة «كارولين» سيبتهج وقد يخرجني ذلك مما أنا فيه ثم تراجعت عندما بدأ يتكلم عن متاعب شغله وقرفه، وأضجرني ذلك لكنني كنت مضطرًّا إلى سماعه حتى تنتهي هذه الليلة العصيبة، وانتبه إلى أني غير منصت إليه عندما سألني عن تفصيلة ذكرها في كلامه ووجدني غير متذكرها فأعاد سردها دون أن يحسسه هذا بأني طهقت من بطولاته المزعومة.. قلت له إني بحاجة إلى قضاء أسبوع أو عشرة أيام في الإسكندرية دون «ريم».. عدد لي أصدقاءه الذين يملكون شاليهات رائعة وأنه ممكن أن يستعير أحدها فهو صاحب أفضال وكان يضيفهم في الشالية الذي كان يملكه قبل بيعه، ثم ذكر أيضًا فنادق واستراحات تملكها وزارة الداخلية وتؤجرها بأسعار مخفضة لضباط الشرطة وأبدى رغبته في أن يستأجر لي إحداها، كنت أرمقه بضيق حتى أنهى كلامه وعندما لمحني هكذا قال بدهشة: «في إيه يا أحمد؟ أنا باسهلك الأمور!»، بحدة قلت: «يا عماد أنا محتاج راحة فائقة أنا هاحجز إما في سيسل أو وندسور أو كريون.. أنا باحب الخدمة هناك.. لو تحب تيجي 3 أو 4 أيام يبقى جميل.. أنا كده كده هاخد سويت»، فكر قليلا ثم قال:

«تمـام لو الأمور هديت شـوية ممكن أجيلـك واحتمال أعمـل مأمورية في سـيدي جابر عشان أسـاعد الأولاد هناك يظبطوا أقوالهم.. أصل الموضوع داخل في عك». قاطعته في دهشة: «موضوع إيه»؟ ضحك بشدة وهو يقول: «يخرب دماغك يا أحمد أمال أنا باحكي إيه من الصبح.. الواد خالد سـعيد اللي بلـع لفة البانجو واتخنق بيها.. العيال بتـوع المنظمات المتمونة قالبين الدنيا على الداخلية»..

تذكـرت أنـي طالعت بعـض الأخبار عن تلـك الحادثة فعلقـت: «عماد بعيدًا عن شـغلك أنا حسـيت من اللي قريته إن الموضوع ده فيه تعذيب!».. قاطعنـي باعتـراض: «هو كل واحد اتشـد مـن قفاه يقول اتعـذب.. وبعدين الـواد مـات وماقالش حاجة والفيديو متركب.. إنـت كويس انك بعدت عن المثقفين ولاد الكلب اللي ماورهمش إلا الكلام.. كلام وبس»..

ثم قلب «عماد» شفتيه وهو يتأملني وأضاف: «فكك من كلام السياسيين اللـي عايزيـن يولعـوا البلـد.. وخليـك في النسـوان اللـي عايزيـن يولعوك بجاز».

جيهان العرابي

- It's over.

صرخت «بسمة» في وجهي بطريقة مباغتة لدرجة اضطرتني لرفع صوتي في وجهها متسائلة:

- أوفر   أوفر.. إيه هو اللي أوفر يا «بسمة»!

- اللـي بتعمليـه فـي «أحمد» ده مايخشـش العقل.. يعني إيـه تجرجريه وراكـي وتخليه يقعد في الأوتيل يراقبك وانتي معاكي راجل مايعرفوش من غير ما توضحيله الموضوع.

ثرت في وجهها وأنا أدافع عن نفسي:

- أقولـه إيه يا «بسـمة».. إن اللـي قاعدة معاه طليق صاحبتـي «رنا» وأنا باحاول أصلحهم.. كده ماكنش هييجي.

حدقت في وجهي وهي تقول بتحدٍّ:

- لا طبعـا.. كان هييجـي.. لـو رايحـة تقابلـي دراكـولا كان هييجـي.. وبعدين تقوليلي من أصله ييجي معاكي ليه؟

قاطعتهـا بحـدة: «عشـان فؤاد يعـرف كل أصحابنـا وطلب منـي أقابله لوحدي.. وده الوحيد اللي ماشفهوش ولا يعرفهوش ومش معقولة هاخدله

أخويـا ولا حـد من طرفه فيفهمنـي أخويا غلط.. عرفتي بقى أنـا اتزنقت فيه إزاي؟».

لم يبـدُ عليها الاقتناع وظلـت «تقاوحني» وتعدد المخـاوف والمخاطر التي من الممكن أن أتعرض لها بسبب تصرفي هذا، وأنا أحاول تهوين الأمر لكن دماغها التآمري أفسـد كل محاولاتـي لدرجة أربكتني وجعلتني أطلب منها أن تذكر خطرًا واحدًا قد يأتيني من جهة «أحمد»، سكتت فترة وشردت كأني فاجأتها بالسـؤال ثم قالت بعجالة: «واحد عمالـة تقربيه منك وتبعديه وقـت ما تعـوزي.. وهو يوم مـا يزعل منك بيرجـع من أول مكالمـة.. اللي يسـتحمل ده منك أكيد شـخص سـيكوباتي.. ودول بيبقوا خطر قوي بدون مقدمات خصوصا لما بيتصوروا في النهاية إنهم انضحك عليهم»، قلت لها معترضة: «بلاش فلسـفة.. أحمد مش كده وهو عايـز يصاحبنا يبقى يتحمل بقـى»، عوجـت «بسـمة» فمهـا سـاخرة وقالـت: «يصاحبنا! ده مـش بيطيق حـد منا.. ماعنـدوش في الكون غيـر جيهان وبس».. ثـم ضحكت ضحكة مبتذلة.

طلبـت منها أن تنهي هذه المحادثة السـقيمة وتركز فـي الأهم وأخبرتها بمحصلـة لقائي مـع «فؤاد» طليق «رنـا»، لكنها طلبت منـي أن أصف اللقاء بالتفصيـل، أخبرتها بأنه اختارني لكي بفاتحني في الموضوع لأنه متشـكك في أنك دبرت كل شيء وأنك أصل كل البلاء، ورغم خنقته وغضبه الشديد مـن «رنـا» فقـد قال إنها كانـت طيبة وإنـك أفسـدتيها، لم تتأثر «بسـمة» بما سـمعته وقالت باسـتهزاء: «عادي جدًّا إنه يعتبرني رأس الشـيطان.. عشـان أنـا أكتر واحدة كنت ملازماها مـن أيام خطوبتها وبدايـات جوازها.. لأنك

كنتي مشغولة بتميم الله يرحمه ثم حصلت الوفاة وبعدتي عنا.. طبيعي إنه يحس في دفاعي عنها إني ضده إنما الأخ ده ما افتكرش ولا مرة من اللي صالحتهم فيها.. على العموم مش مهم أنا مش عايزة أشوفه تاني حتى لو رجعوا لبعض»، قاطعتها: «بسمة سيبك من الموضوع ده ونشوف المهم عشان رنا صاحبتنا».. وعندما وصلت إلى اللحظة التي أخبرني فيها بأنه سيسافر مع الولد وأراني جواز السفر الذي أضاف فيه ابنه، امتقع وجه «بسمة» لحظة ثم قالت بادعاء: «جيجي ده تهويش بيعمله عشان هو مش عارف يوصل لها وعايزنا نوصل ده لرنا»، بغلظة رددت عليها: «مش تهويش يا بسمة ده حيسافر فعلا واحتمال الليلة دي أو بكره.. أنا حسيت إنه اختار يقابلني في أضيق وقت قبل سفره عشان لو بلغت والد رنا مايعملش حاجة تعطل السفر».. أسقط في يد «بسمة» وقالت بحيرة: «كده الأمور اتلخبطت جدًّا.. نعمل إيه دلوقتي؟ تفتكري نبلغ أبوها!»، اعترضت بعنف: «نبلغ مين يا بسمة؟ إنتي اتجننتي؟ وإوعي تعملي شملولة وتكلمي رنا عن طريق النت.. خليها تركز في البعثة بتاعتها ولما ترجع يحلها الحلال»، سكتت «بسمة» قليلا ثم قالت: «بس كده رنا هتزعل منا قوي لما تعرف بعد ما ترجع»، بغيظ قلت: «ما تزعل.. إنتي مش قلتي إن عندها استعداد تدفع الثمن.. تدفع.. أو تشوفلها مخرج يا أم العريف!».. صاحت تعاتبني: «جيجي إنتي لسه مصرة إني عملت معاها خطة السفر.. أحلفك بإيه عشان تصدقي.. وعلى العموم بيتهيألي الجوازات مش هتخرجه مع ابنه إلا بتصريح من الأم.. ده طفل عمره سنتين»، تأملتها فترة وأنا في حيرة من ثقتها الشديدة في سذاجة «فؤاد» لكن في النهاية اضطررت لمواجهتها بما أخبرني به وهو أنه لم يهتم في بداية طلاقه من «رنا» بتوثيق تنازلها عن حضانة الطفل في الشهر العقاري، لكن

بعدما عرف بسفرها إلى أمريكا استشار محاميه فأكد عليه ضرورة توثيق هذا التنازل، لأنها ببساطة تستطيع استرداد حضانة ابنها فور عودتها من أمريكا لو ادعت أمام القاضي أنها فعلت ذلك مضطرة لدواعي سفرها لأن الزوج كان سيمنعها من السفر، وأثبتت ذلك بشهادة رسمية من الجوازات تثبت تاريخ خروجها ثم دخولها إلى البلاد الذي يوافق الفترة التي تم فيها الطلاق (هنا امتقع وجه بسمة جدًّا فأدركت أنها وضعت مع رنا هذه الخطة لاستخدامها عند رجوعها).. سألتها: «مالك يا بسمة؟».. ردت بعد برهة: «فؤاد ده طلع مش سهل وأكيد حيسافر فعلا وممكن يطلع معاه أخته العانس تربي ابنه في الغربة!».. قلت لها بتشفٍّ: «حيسافر؟ ده أكيد سافر فعلا بعد ما خرجنا من المطعم.. وهو فعلا مش سهل وقعد يبرر لي خناقاته مع رنا ويتهم أبوها بإنه السبب ويتهمك بإنك المحرضة وطلعني ملاك عشان ماكنتش باتدخل كتير ولما باتدخل باصلح مش باخرب.. زي ما قال.. بس طلع موضوع الأدب ده معشش في دماغه.. قاللي في نهاية القعدة إنه حيكتب في الغربة وحيوريها إبداعه اللي حيتفوق عليها مش زي إبداعها اللي بيخدمها فيه إنها أنثى وبتكتب حاجات مكشوفة».

ضحكت «بسمة» باستهجان وقالت: «إبداعه؟ يبقى يورينا بقى إن شاء الله.. هنشوف مين اللي هيرقعله قصصه ويتحايل على اللي يسوى واللي ما يسواش عشان ينشرله». ثم نظرت في ساعتها وجرت إلى شنطتها وأخرجت منها المحمول ثم استأذنتني وهي تضعه في كفها ملاصقا لخدها وتشير باليد الأخرى إلى أنها ستتكلم في الشرفة.. كنت أعرف أنها ستكلم «خيري» ولأن الوقت قد تأخر عن العاشرة مساءً فلم يعد لها إمكانية أن

تقابلـه ثم تتأخـر عن بيتها فتلاقـي الأمرين مـن والدتها التي عظـم توبيخها فـي الفترة الأخيرة كما اشـتكت لي «بسـمة»، وبناء عليه سـتكلمه لأكثر من سـاعة وتوترني حتى تدفعني لنهرها بالإشارة والإيماءة حتى تنهي مكالمتها ثم تسـتلقي جواري في الفراش مسـتاءة تدعي الإرهاق حتـى تغفو.. عندما طلبتها هذا المسـاء وأخبرتها بضرورة لقائنا، تحججت بأنها سـتحضر ندوة اقتصاديـة ولن تتمكن من الحضور، كدت أطلب منها أن نلتقي في الغد غير أن فضولي دفعني لسـؤالها: «هو خيري حيحاضر فيها يا بسـمة؟».. أجابت باندفاع: «لا خيري مش من المحاضرين بس احتمال لما ينفتح باب المناقشة بعد المحاضرة يعمل مداخلة»، استفزتني جدًّا فصرخت في الهاتف: «يا رب دماغـك هو اللي ينفتح.. بقولك عايزاكي في حاجة ضروري تقوليلي أصله احتمـال ومداخلـة.. إنتي مش هتخلصي مـن البرود بتاعـك ده؟»، بصوت متوتـر قالت: «فيه إيه يا جيهان.. مالـك بتتنرفزي عليا كده؟»، اضطررت أن أبالـغ وأنـا أبرر لها: «أنا كنـت في مقابلة مع فؤاد طليق رنا من شـوية وناوي على مصايب ولازم نتقابل بسرعة يمكن نمنع الكارثة دي».

صمتـت تمامًا لوهلة ثم قالـت تحت تأثير الأفلام السـيكو التي تدمنها: «هو قالك إنه بعد ما عرف بسفر رنا رايح يقتل باباها!».

كتمت الضحكة حتى لا أفسد خطة استدراجها وقلت بغموض: «تعالي بسـرعة يا بسـمة بأسـرع ما يمكنك..»، غمغمت بما يفيد أنها ستسـتأذن من «خيري» الأول لكنني أغلقت الخط قبل سماع باقي كلامها.

فوجئت بـ«بسـمة» واقفة تتأملني بعتاب وغيظ لدرجة دفعتني لسـؤالها عـن هذا البوز العدائـي، قالت بغيظ: «المحاضـرة خلصت وخيري راح مع

واحـد صاحبـه من المحاضرين يتعشـوا فـي لابوديجا ورفـض إني أحصله عشـان مـا أحرجـوش لأن صاحبه هـو صاحب الدعـوة»، ابتسـمت وقلت أداعبهـا: «كل زعلـك ده يا بسـمة عشـان عشـوة.. اترزعي وأنا هاعشـيكي أي حاجـة تطلبيهـا حتـى ولـو كانـت سـيمون فيميـه وفوجـرا»، حدقـت فـي وجهـي ثـم قالـت: «مـش ناقصـة اسـتظراف يـا جيهـان.. أنـا لاهاكل ولا أطفح»، أشـرت إليها لتجلس فجلسـت بإيقاع مراهقـة متمردة وأنا أنظر نحوها بدهشـة، لما طالت نظرتي قالت بتحد: «أنا هاقعد معاكي نص ساعة تانية وهانزله أول ما يديني رنة»، بدهشـة سـألتها: «تنزلي لمين يا بسـمة؟»، بابتسـامة قالت: «لخيري طبعا مش لازم يعوضني عن الوقت المسـتقطع»، اندفعت: «إنتي كده هتتأخري يا بسـمة وتهددك مامتك بأنها تسيبلكم البيت إنتي وابنك»، قالت بلامبالاة: «ماتقلقيش أنا عاملة حسابي»، ثم اختفت من أمامي وبقي فقط صوتها: «أنا داخلة أعمل لنا اتنين نسكافيه».

جلسـنا بالشـرفة وكنـت مجهـدة مـن أحـداث اليـوم فلزمـت الصمت وسـاعدني علـى ذلـك أنها كانت في شـغل شـاغل عني تنظر إلـى المطلق، داعبتنـي نسـمات الهـواء حتـى كـدت أغفـو لكنـي أفقـت علـى سـؤالها: «قوليلـي يـا جيهان هـو لما فـؤاد وراكي الباسـبور أحمـد شـافه؟»، أجبتها بـلا ترد: «طبعا شـافه.. أنـا أول ماقعدت جـات قعدتي قدامـه وترني جدًا فغيـرت المـكان وخليـت فـؤاد قدامـه والمسـافة كانت قريبـة جـدًا.. انتي بتسـألي ليـه؟»، ضحـكـت ضحـكات قصيـرة متلاحقـة وهـي تقـول: «الله يخرب عقلك يا جيهان.. داحنا كنا فاكرينك أعقل ما فينا.. إزاي ماسـألتيش نفسـك أحمد هيقول لنفسـه إيه وهو بيشـوف المنظر ده؟»، انتبهت ثم قلت بـلا اهتمـام: «هيقـول إيه يعنـي؟ ما أنـا قايلاله إن فيـه بينا موضـوع تجاري

متشابك».. وبمزاح: «تفتكري حيفتكر إني باعمل في بيزنس تأشيرات الحج والعمرة».

قاطعتني بسخرية: «لا يا خفة.. ارجعي شوية لورا.. قابلتيه مرة وعشان تبعديه عن التفكير فيكي قولتيله إنك هتسافري السعودية عشان الأوضاع هنا بدأت تسوء.. وقاوحتيني وأنا صوتي اتنبح أقولك مش هيصدق ده لأنه عارفك كويس زينا وأكيد سمعك قبل كده وعرف إنك مش بتهتمي بالتجارة.. يعني أكيد قال لنفسه يمكن حد من إخواتها جاب لها عريس وهتسافر معاه، ويمكن يكون صرف النظر عنك.. أو قعد يعيط زي الولايا.. تقومي بعدها بفترة بسيطة تجيبيه لمكان يشوفك مع واحد بتتكلموا في موضوعات هو مش عارفها.. وفجأة الواحد ده يطلع الباسبور ويدهولك وانتي تبصي فيه.. ياللا يا شاطرة يا خريجة معهد السينما.. حطي سيناريو للي دار في مخ أحمد ساعتها»..

كنت مندهشة من تصورها الذي أزعجني فعلا لكني لم أعلق.. ووجدتها تكمل: «يا إما هيقول إن سفرها حقيقي وجايبة عريس المستقبل عشان تكيدني.. أو إن المشكلة اللي بينها وبين حبيبها كانت إنه ماعندوش رغبة في السفر ولما وراها الجواز صالحته»..

نطقت أخيرًا: «بسمة إنتي بتبالغي.. أنا مش كده وأحمد عارف ده.. ما تكبريش المواضيع»، أعادت النظر إليّ بابتسامة مستفزة وهي تسألني: «طب ممكن أعرف بعد فؤاد ما مشي أحمد مسألكيش عن اللي كان بيحصل قدامه»، بدهشة أجبتها: «سألني؟ أنا ماتكلمتش معاه أصلا.. أنا مشيت قبل فؤاد ولما وصلت البيت بعتله رسالة SMS قلتله فيها شكرًا»، فغرت «بسمة»

فمها ثم قالت بعدم تصديق: «عملتي كده فعلا يا جيهان؟».. أومأت برأسي، قالت بيأس: «يظهر مافيش فايدة فيكي.. هو انتي يا بنت الحلال كنتي مأجرة جوز جزم وبعد ماخدتي غرضك منها بترجعيها.. شوفي يا جيجي يا حبيبتي أنـا حاديكي نصيحـة واحدة مقابل مئات النصايح اللـي نصحتيني بيها.. في أقـرب فرصة تقعدي مع أحمد تشـرحيله اللي حصل بالظبـط وإيه الدواعي اللـي خلتك تخبي.. ضـروري يا جيجي حتى لو قررتي إنك ماتشـفوهوش تانـي.. تقعـدي معاه مـش تكلميه فـي التليفـون». وجدت نفسـي أقول لها حاضر وقد يكون ذلك بدافع أن أخرسها مؤقتا..

ثم دخلنا في حوارات عادية بعدها ووجدت أنه من غير اللائق أني لا أسألها عن أحوالها مع «خيري»، قالت إنها بعد عتابها الشديد له عقب وضع صورة ابنـه علـى صفحته في الفيس وكان قد ضايقها فـي رده الأول عندما قال لها: «وانتي مالك؟»، ثم صالحها بعد أن غضبت منه، وأخبرها بأنه وضع الصورة بمناسبة عيد ميلاد ابنه وليس كما تتوهم ليكيدها وأنه لم يسألها أو يطلب منها يوما رفع صور ابنها التي تملأ حسابها وأنها اقتنعت بأنها ظلمته، واكتشفت بعد ذلك أنها أحيانا تتعمد أن يخاصمها لأن صلحه لها من أجمل أشـياء الدنيا.. كانـت عيناها في تلك اللحظة قد لمعتا جدًّا وعادت لها ابتسـامتها الحقيقية ثـم مالت نحوي وهمسـت كأنها تفضي لي بسـر: «جيجي هـو انتي مالفتش نظرك حاجة غريبة في حساب خيري في الفيس من أسبوع»، أجبتها بدهشة: «لا طبعـا.. هـو أنـا من إمتـى باتلصـص على الحسـابات؟»، قالـت بضيق: «مـن غيـر تلقيـح.. أكيـد ظهرت علـى الهوم بيـج بتاعتـك»، نفيـت رؤيتي لأي شـيء مهـم بخصوصه، صوتهـا ارتفع قليلا وهي تقـول: «أصل خيري

غيـر الحالـة الاجتماعيـة بتاعتـه»، باندفاع قلـت: «كتب مطلـق»، ضحكت «بسـمة» وقالـت: «يسـمع من بقك ربنا.. بـس هو غير كلمة متـزوج.. يعني شـالها خالـص وحـط كلمة تانيـة مكانهـا».. ولمـا تأخرت في سـؤالها عن أهميـة هـذا التغييـر قالـت بانتصـار: «كتـب إنـه: In a Relationship»، ضحكـت وقلـت: «وده اللـي خلاكـي مبسـوطة قـوي؟»، قالـت بتمـنٍّ: «خـلاص قربـت اللحظـة اللـي هيكتـب فيهـا علـى حالتـه الاجتماعيـة: In a Relationship with بسـمة عمـارة.. ويحـط الرابـط بتـاع حسـابي»، نهضـت بفـزع وأنا أقول: «إنتي اتجننتي يا بسـمة.. كل أملـك في الدنيا إنك تنفضحـي قـدام العالـم كلـه؟»، قالـت باسـتخفاف: «مش مهـم أي حد في الدنيـا.. المهم يعتـرف بأني موجودة في حياته.. بعد كده كل شـيء يهون.. هو الاعتراف ده مش إشهار برضه يا جيجي؟!».

أتتهـا الرنة المنتظـرة فكلمته وعندما علمت بقـرب وصوله هرعت تعدل مكياجها وتخلصت مؤقتا من جنونها.. وعندما انتهت سـألتها متى سـتعود؟ فأجابـت بدهشـة: «أرجع فين يا جيجي.. أنا هاسـهر مع خيـري في أي نايت للصبح.. أنا عايزاكي بس لما تكلمك مامي.. لو حصل يعني.. تقوليلها نايمة مجهدة ومش قادرة أصحيها».. ثم انخفض تون صوتها: «أنا أصلي قلتلها إني هابـات عنـدك».. قلت بحزم وصرامـة: «أنا مش هاكدب يا بسـمة.. كل اللي هاعمله إني هأقولها إنك لسـه ماوصلتيش عندي»، قالت في تضرع: «عشـان خاطري ماتعمليش كده.. هتقلق أكتر.. اقفلي المحمول لغاية الصبح عشـان خاطري ووطي صوت تليفون البيت»، لـم أعلق على كلامها، فانحنت تقبلني فـي وجنتي ثم في مفرق شـعري، لحظتها أتتها الرنة الثانيـة فاندفعت خارجة دون أن تتحقق من اتصاله.

أحمد الضوي

مكثت في الإسكندرية سبعة أيام كاملة ممتعة ولعل أروعها على الإطلاق أني تلقيت خمسة اتصالات من «جيهان» لم أرد عليها.. الأول وأنا في طريقي إلى الإسكندرية، ثم يومين بلا اتصال وأعقبتهما باتصالين في يوم واحد، ثم صمت طويل تم خرقه في النهاية وأنا في طريق العودة باتصالين الفارق بينهما أربع ساعات، لم أرد ولم يأكلني قلبي أو يدفعني فضولي لمعرفة ما الذي تريده مني.. أن أحمل لها الشنط إلى المطار.. أن أكتف الأخ بسلامته الذي كانت تقابله وأدخله عنوة إلى جوارها في الطائرة.. أو لعلها تريد وداعي.. أو ربما تأجل سفرها لفترة أخرى وتريد أن تحيدني فربما تكون في حاجة لي.. ليس مهما.. «جيهان» أصبحت في حكم الـDelete.. «شويكار» صديقة «شريف» اتصلت بي في اليوم الأول من المصيف ولم أرد عليها أيضًا لكني أرسلت لها رسالة SMS أبلغتها فيها بأني في الإسكندرية لقضاء بعض الأعمال وسأعود قريبا وبمجرد عودتي سأتصل بها، «شويكار» لم تعاود الكرة أما «ريم» التي أخبرتها بسفري من قبل الشروع فيه بأيام ثلاثة - وهل كنت أجرؤ على غير ذلك؟! - وتعجبت في البداية من هذا القرار وطلبت مني تأجيله حتى تنهي بعض أعمالها مع «استيلا» ثم تجيء معي، لكني أكدت لها رغبتي في الراحة فوافقت وقالت إنها ربما تأتي لزيارتي وتمكث معي يومًا أو يومين فرحبت وذكرت لها أنني حجزت في فندق كريون وأعطيتها رقم الغرفة المزدوجة، وفسرت

سبب اختيارها بأن «عماد» قد يأتي أيضا لمدة يومين.. علقت بأنها لو جاءت ووجدت «عماد» موجودًا معي ستأخذني لنقيم في أي أوتيل آخر ولن تعبأ باعتراضي، فضحكت وقلت لها كيف أعترض ووجودها أجمل مليون مرة من سحنة «عماد» وصفا صوتها فأيقنت بأنها رضيت تمامًا عن السفرية.. وهي في الحقيقة لم تأتِ لا يومين ولا يومًا واحدًا لكن كانت تهاتفني في أوقات مختلفة من اليوم وكنت أترك محمولي مفتوحا حتى أطمئنها تماما، وكانت في أحيان كثيرة تتصل بي عن طريق الرسيبشن ويبدو أنها استطاعت تجنيد إحدى موظفات هذا القسم التي بدت لي «لحوحة» وكثيرة الأسئلة وكانت تتابعني بعينيها المركبتين على «رومان بلي» من لحظة ترك أو أخذ مفتاح الغرفة إلى حين خروجي من بوابة الفندق.. أما «عماد» فقد حضر في اليوم الثالث وأعلن رغبته في البقاء يومين.. لكنه لم يمكث معي غير يوم واحد ثم غادر بحجة أنه مطلوب على وجه السرعة في القاهرة، لكني خمنت سبب رحيله المفاجئ فقد تركني لزيارة مديرية الأمن بالإسكندرية ويبدو أنهم هناك صرفوه بلطف لأنه عاد وغير خطة بقائه، ولعل هذا من حسن حظي فاليوم الذي قضاه معي والليلة التي باتها في سرير يجاورني كانا من أكثر الأوقات إزعاجا في رحلتي، فقد أفسد علاقتي بموظفي فندق أحبه بأوامره العسكرية وصوته العالي، ورغبته من وراء ظهري في تخفيض قيمة إقامتي والتي أخبرني بها مدير الفندق مصادفة، بالإضافة إلى مقارنات فارغة بين الطعام في هذا الفندق والطعام في أندية وفنادق الشرطة من حيث الجودة ورخص السعر، لم يتوقف إلا عندما نهرته بشدة وأنا أسخر من أكل نواديهم المدعوم من المواطنين الغلابة، نظر تجاهي بدهشة كأني تحولت فجأة ثم قال: «إيه النغمة الجديدة دي

يـا أحمـد.. مش قلتلـك بطل قرايـة جرايـد المعارضة»، هزأت مـن كلامه: «هـو فيه جرايد معارضة يـا عماد.. دي بقت كلها زي بعـض»، كان قد نوى أن يسـافر في المسـاء لذا دعوته إلـى الغداء في «أبو قير» بعد أن سـبح قليلا في مسـبح سـان جوفانـي وحكيت له باختصـار مخل بعض مـا حدث بيني وبيـن «ريـم»، وعلق بنظرة حسـد: «إنت مقضيها حلو مع السـت دي.. بس take care»، لكن ونحن نأكل السمك في «أبو قير» جلجل بضحكة صاخبة وهو يمضغ الأكل ولم يعبأ بدوران عيون الزبائن إلينا ثم شـرب زجاجة مياه كاملة بعد أن كاد «يشرق» واضطررت لخبطه في ظهره حتى يتجشأ ثم هرول إلى دورة المياه وعاد منها والماء ما زال يبلل وجهه وعيناه ما زالتا محتقنتين وجلس يأخذ أنفاسه ثم قال: «يخرب بيتك يا أحمد.. ده انت كنت هتموتني بجـد.. إنـت بتقع علـى النسـوان دي فين.. واحـدة بتربي سـحالي وغربان وتغطـي المرايات بالليل لحسـن تشـفطها.. والتانية ما بتكلش السـمك بعد الغـروب.. صدقني يـا أحمد أنا النهارده بس خفت عليك بجد».. ثم سـرح بنظـره: «بس مش عـارف نهايتك حتكون على إيد ميـن؟»، قاطعته بغضب: «فـال الله ولا فالك.. إخرس بقى».. سـكت وأنا أحاول أن أفهمه مزايا كلتا المرأتيـن.. «جيهان» و«ريـم».. وإنهما غيـر تقليديتين.. نظـر تجاهي كأني مريـض عليـه أن يتحمله ثم هز رأسـه وقـال: «طيب.. ياللا بينـا ننزل محطة الرمل عشـان أسـتحمى وأغير في الفندق وبعدين ننزل علـى أي كافيه نقعد شوية قبل ما أسيبك وأروح».

لكنه في الكافيه وقبيل سفره مباشرة يبدو أنه كان يضمر لي ما يعكنني.. تطرقنـا إلـى حـوارات عديدة ثم حـول الكلام إلـى موضوعـه المفضل أيام كان ضابطـا عظيمـا في المباحث العامة.. ولـم أرغـب في إيقافه عن الحكي

خاصــة وقد زعــل مني مرة زعــلًا شــديدًا وصالحته بصعوبة بسـبب أنه كان يحكـي إحدى بطولاته في البحـث الجنائي.. حين تم اسـتدعاؤه في حادثة مقتل سيدة ولـم يكن المجرم قد ترك خلفه أية بصمات أو أدلة، لكنه بمجرد النظر إلى منفضة السـجائر وجدها مملوءة بأعقاب سجائر مارلبورو وعقبي سـيجارتين LM وبجولـة صغيـرة أمـام البيـت اكتشـف أن المكوجي الذي يستأجر محلًّا أسفل البيت يشرب سجائر LM وضيق عليه الخناق فاعترف المكوجـي بجريمتـه.. كنا في حالة سـكر بيِّن فسـخرت بشـدة مـن عبقريته المباحثيـة و«عداهالـي»، لكـن عندما أعدت السـخرية منه في اليـوم التالي تحول إلى وحش وكاد يبطش بي وتركني وهو لا يكاد يسيطر على أعصابه.. تركتـه بعدهـا يحكي كل بطولاته وكنـت أثني عليه كذبـا ومجاملة.. قال إن سـيدة جميلة أرملة كانت محط أنظار جارها المهندس.. لكنها كانت عفيفة وأفسـدت كل محاولاته للتقرب منها في غير الحلال.. وكانت هذه الأرملة في الوقت ذاته في نزاعات كثيرة مع الورثة بخصوص ما تركه زوجها المتيسر وكانت رمانة الميزان في صالح الورثة لأنها لـم تنجب.. المهم أنها توصلت إلى محـامٍ كبير (وكان بالمصادفة من معارف «عمـاد» أو أصدقائه!) ونجح هذا المحامي «العقر» في جعلها تربح بعض القضايا ثم سـاومها على نفسها كـي يمكنها من الحصول علـى أكبر جزء من التركة.. وقـد قبلت في النهاية واتفقـا على موعد.. وتهيأ وتأهب المحامي للمغامرة وتناول قرصي فياجرا وللأسف توقف قلبه عند عتبة باب غرفة نوم الأرملة، وأسقط في يد الأرملة ولـم تجد حلا إلا الدق على باب جارها المولـع بها وهي ترتدي غلالة نوم شـفافة وطلبت منه أن يلحق بها إلى داخل شـقتها.. عندما دخل الشقة وهمّ

بهـا أشـارت إلى الجثـة الهامدة علـى الأرض وتضرعت إليـه أن يضعها في سيارته ويلقي بها في أي مكان مهجور ثم يعود ليأخذ مكافأته.. غادر الجار الشـقة مسرعا واتصل بالشرطة فورًا.. دخل «عماد» بصفته خبيرًا في البحث الجنائـي، فحـص الجثة وعرف أنهـا لصديقه الذي طالما طلـب منه أن ينتبه لمكـر السـتات لكن فـات الأوان.. كان «عمـاد» ينظر تجاهي بعـد أن أنهى حكايتـه الزفت كأنه يطلب رأيي فيما قاله.. كنت مغتاظًا جدًّا وسـببته بضيق وطلبت منه أن يكف عن حكاياته الكئيبة.. وكان يحدق في وجهي مندهشـا ويقول: «هو فيه إيه يا أحمد؟ مالك مش على بعضك؟»، عاقبته بسخرية مرة لعله يفهم: «يا عماد.. زي ما بيقول العامة الملافظ سـعد.. عمال تحكي إنه صاحبك ومات في مغامرة جنسية وتلقح بإن جارها مهندس وعايزني أسقف علـى حكايتـك».. افتعل أنه انتبـه وقال بصوت قوي: «واللـه ما قصدتش يا أحمد.. إنت اللي على راسـك بطحة أنا كنت باحكي عشـان نتسلى لحد ما الشمس تغيب وأسافر إنما إنت قفلتني أنا مروح دلوقتي حالا».

وتركته يسـافر وقد ضاعت بهجة اليوم التي حاولت استردادها في الأيام التاليـة لسـفره ونجحـت في بعـض الأحيان إلـى أن عدت إلـى القاهرة مرة أخرى.

أخبـرت «ريـم» بعودتي فسـألتني على الفـور هل أرغب فـي لقائها هذا المسـاء، فضحكـت ضحكـة اسـتفزتها وجعلتهـا تقـول. «مالـك بتضحك ضحكة الشـبعان.. هو انت كنت مقضيها في الإسـكندرية.. عموما أنا مش فاضيـة الليلة دي ولا بكـرة.. وبعدين متفكرش إنـي ملهوفة عليك فاضلك يـوم واحـد من هديـة عيد ميـلادك.. عايـزة أدهولـك وأخلـص»، قلت لها

متضاحكا: «أفهم من كده إن بعد اليوم ده حسابي حيبقى كيت وماليش حق في أيام تانية»، قلدت ضحكتي بسخرية وهي ترد: «برافو.. بعد ما أسدد اللي عليا أبقى أفكر أديك فترة تانية ولا مالوش لازمة»، هممت بمواصلة الحوار لكنها قاطعتني بحزم: «سي فيني يا أحمد أنا ورايا بلاوي وخلاص اتفقنا نتقابل بعد بكرة»، أنهيت المكالمة وقد اطمأن قلبي لوجود يومين إضافيين خاليين يمكن أن أرتب فيهما أوضاعي، وكالمعتاد كلما ركنت إلى مثل هذا التصور تلاحقني الأحداث وتجثم فوق صدري، بمجرد دخول الشقة وتأهبي لارتداء ملابس البيت، داهمني صوت الجرس بدقات رتيبة متواصلة تنبئ عن علم الزائر بأني موجود.. فتحت الباب بضيق تحول إلى دهشة وأنا أرى «شويكار» غارقة في اللون الأسود..

علمت منها أن «شريف» قد توفي في المستشفى بعد أن مر بفترة عصيبة هناك، كان يخضع فيها لمراقبة مستمرة حتى لا يؤذي نفسه أو يؤذي الآخرين، وأن الأطباء أجمعوا بعد وفاته على أن مرضه بالاكتئاب الهوسي Manic Depressive الذي كان قد أصيب به في منتصف شبابه عقب تعرضه للاعتقال أكثر من مرة قد عاوده في الفترة الأخيرة في أشرس صوره، عاتبتها لأنها لم تخبرني ساعة احتضاره حتى أقوم بالواجب فقالت إنها اتصلت بي وإني رددت عليها برسالة تفيد بأني في مأمورية عمل لذا لم تعاود الاتصال، ثم قاطعت محاولاتي في إلقاء اللوم عليها وقالت بأسى إنها وزوجها قاما بالواجب ودفناه في مسقط رأسه في بني سويف ووجدا بعض أقاربه من الدرجة الرابعة فكلفوهم بمتابعة إجراءات «إعلام الوراثة» والحصول على مستحقاتهم من إرثه الحكومي «راتب المعاش».. وأضافت

أنها جاءت لجرد الشقة والاحتفاظ لبواقي أهله بالأغراض والأشياء المهمة قبل تسليم الشقة إلى صاحب المنزل.. ثم طلبت مني بإلحاح أن أصطحبها إلى الداخل لأخذ الكتب التي أهتم بها أو أي غرض يهمني أن أحتفظ به كي أتذكر «شريف» على الدوام، تلكأت وتقهقرت وأنا أخبرها بعدم رغبتي في أخذ شيء لأني غير مهتم بالكتب ولست في حاجة تعينني على تذكر «شريف»، لكنها قالت إن هذه وصية «شريف» بجدية جعلتني أتبعها على الفور.

ألقيت نظرة بعجالة على المكتبة ولم أمد يدي على كتاب واحد، وبجوار سرير غرفة نومه كان هناك «عود موسيقى» عتيق، طلبت مني أن أحصل عليه فأومأت برأسي رافضا.. تقدمتني إلى المطبخ وهي تقول إن به شيئًا سيهمني أن أحتفظ به، وكنت ألاحقها بدهشة وأقول لنفسي. «مصيبة لو كانت تعتقد أني من الممكن أن أهتم بأخذ ثلاجته أو بوتاجازه»، لكن لحسن حظي وحظها أنها مدت يدها بداخل المطبقية وجذبت منها موقد سبرتو نحاسًا لامعًا مخصصًا لعمل القهوة وبغطائه النحاس الموضوع على شريط إشعاله وثلاث كنكات مقاسات مختلفة، اضطررت لقبولها منها لأنها مقلدة بإحكام وأنا أفضل شرب القهوة بهذه الطريقة التي ورثتها عن أمي.. كانت هناك رائحة تضايقني منذ دخولي إلى المطبخ وكنت أتعجل خروجي منه واكتفيت وهديتها بين يدي بضم أنفي حتى أتقي هذه الرائحة، ولما لمحتني أفعل ذلك جذبت أحد أدراج الجزء الخشبي من المطبخ.. وكان درجا سفليا غويطا وكبيرًا وهنا زادت الرائحة تفشيا.. لكن فضولي غالبني لكي أتبع إشارة يدها المتوجهة إلى محتويات الدرج.. كانت هناك

مجموعة كبيرة من العظام التي ساهمت في جلبها إليه لإطعام كلبه.. وكان مصدر الرائحة تعفن بقايا اللحم الملتصق ببعض هذه العظام. أشحت بوجهي بأسى فأغلقت الدرج وهي تقول إنها ستلقي بها في الخارج، ثم ذكرتها هذه العظام بالكلب فأشارت إليّ لأتبعها مرة أخرى إلى داخل غرفة النوم.. وشدت من أسفل السرير صندوق كرتون صغيرًا وأخرجت منه جهاز كاسيت في حجم قبضة اليد وبداخله شريط كاسيت، ثم مدت يدها إلى عمق الصندوق وأخرجت شريطين آخرين وناولتني الجهاز والأشرطة وقالت بعينين دامعتين: «لم تعد لهم حاجة بعد الآن»..

وضعت عدة القهوة في مطبخي وكنت قد تركت الكلب في الرسبشن، وها أنا أتأمله بدقة متناهية.. جهاز صغير عادي مغطى بقطعة من الجلد الصناعي لونها رمادي ومثقوبة في الصدر حتى تمكن الجهاز من التنفس.. هذا هو السر الحربي الذي أطلعني عليه «شريف» بعد أن وثق فيّ تماما.. كان يخاف من فكرة أن يتم الاعتداء عليه بداخل الشقة ويقتل، لذا لطع على باب الشقة الخارجي قطعة كروية من المعدن مطبوعًا عليها وجه كلب كاسر بأنياب أسد ومكتوبًا أسفل الوجه: «احترس من الكلب».. ثم اشترى هذا الجهاز مع الأشرطة التي بها نباح كلب شرس وكان يشغل الكاسيت بمجرد سماع خطوات تدب على درج البيت.. وأوهم كل سكان البيت والجيران بأنه اشترى كلبا ضاريا.. وتفاهم مع جزار المنطقة لكي يشتري منه العظام لكلبه.. ثم تملك هذا الإيهام منه تمامًا حتى بت أعتقد أنه صدقه.. وأسرف «شريف» في وصفه للطريقة التي يأكل بها كلبه أو يتدلل أو يزوم أو يعض، خاصة بين رواد المقهى القريب من البيت.. وكان ينسى أحيانا أنه قال عن

نوعـه مـرة إنه كلـب «دوبرمـان» ويذكر أنه كلـب «بولدوج» أو «بوكسـر».. وعندمـا ينتبـه أحد رواد المقهـى إلى أنه غيـر فصيلة الكلب كان «شـريف» يحتـد ويصرخ فيه: «أنا قلت بولدوج.. هو أنا مش هاعرف نوع كلبي.. إنت أكيد سـمعت غلط».. وكان يدعي أحيانا أنه اشـتراه من كلية الشرطة وعمره ثلاثة أشـهر وتولـى تدريبه كبيـر المدربيـن.. فيواجهه واحد من الجالسـين العارفيـن بـأن كليـة الشـرطة لا تبيـع إلا نوعًا واحـدًا من الـكلاب ليس من النـوع الذي ذكره، فيتراجع بسـرعة ويقول إن صاحبته أهدتـه إليه ويهيأ إليه أنها أخبرته بأنها اشـترته من كلية الشرطة.. وهكذا.. أما كميات الطعام التي يأكلهـا الكلب في الوجبـة الواحدة فكانت تتعاظم كل فتـرة.. وكذلك عنفه وشراسـته التي قد تصل بالكلب إلى جز عنق اللص من قضمة واحدة كانت تصـل أحيانا إلـى أن قلامة ظفره قد تبقر بطن اللـص.. وبمرور الوقت زهق الرواد من حكاياته وعاملوه بغلظة ثم تجنبوا مجالسته حتى اضطر إلى إلغاء فترة جلوسه على هذا المقهى.. هذا الجهاز الصغير الذي كان يحتمي خلفه «شريف» في حوزتي الآن.. وأرغب في سماع صوت نباح الكلب ولو لمرة واحدة.. مع أن هذا الصوت في أتون مرض «شريف» كان يزهقني ويصرفني عن التواجد بالبيت.. أحن إلى سماعه الآن.. لكني سأقاوم رغبتي هذه حتى لا أزيد من توتر «شـويكار» التي ما زالت تجرد شـقة «شـريف» قبل أن تنهي وجوده كلية من هذا المكان.

جيهان العرابي

وأنا في «لوبي» مقر نقابة السينمائيين في انتظار تجديد الكارنيه قابلت «محسن أحمد» أحد أساتذتي الكبار في التصوير، مرت فترة كبيرة ولم نلتقِ فجلس يسامرني وأسعدني أنه رأى فيلم «إبراهيم» الروائي القصير الذي صورته وأثنى على عملي جدًّا ثم أعاد الكرة كباقي الأستاذة الذين تعلمت على أياديهم بأن أعود إلى السينما الروائية بالشروط التي ترضيني لأني - حسب رؤيتهم - سأكون إضافة متميزة لهذا الفن، وعدته بابتسامة باهتة، فربت كتفي بابتسامة كبيرة وهو يخبرني بأنه يعلم مقدار عندي وصلابة دماغي اللذين يدفعاني إلى هجر هذه التجربة لكنه يتمنى أن يرى قريبا فيلما سينمائيا كبيرًا من تصويري. أومأت برأسي بابتسامة صافية وأنا أغلق رنات «بسمة» المتوالية التي تتعجلني للحاق بها، وكان الساعي قد أتاني بالكارنيه وبقية نقودي وكنت قد انتهيت من شرب كوب الليمون الذي دعاني «محسن أحمد» عليه ولم يتبق بيننا إلا مجرد حكايات قصيرة عابرة من الجهتين عن ذكرياتنا في أيام المعهد كأستاذ وكطالبة.. الرنات الملحة جعلته ينتبه ويزعم أن أمامه موعدًا مهمًّا ويودعني بحرارة وينصرف، غادرت المكان بعد أن وبخت «بسمة» تليفونيا. وأكملت التوبيخ بعد أن وصلت إلى المكان الذي كانت تنتظرني فيه والذي لا يبعد عن مقر النقابة بخمسين مترًا.. وهو المكان الذي اختارته بنفسها

وهـي تبـدي الضيـق من مرافقتـي إلى النقابة حيث سـترى بعض المشـاهير مـن الممثلين والعاملين فـي المجال وقد هرموا وأصابهـم «ألزهيمر» وكل أنواع الأمراض مما سـيدفعها للاكتئاب وهي بحاجة هذه الأيام إلى مساندة معنوية.. وعندما دخلت مطعم «لاتشـيزا» حيث تنتظرني، وجدتها قد أنهت طعامهـا وأمامهـا زجاجة نبيذ قـد أتت على نصفهـا، وكان مزاجهـا في قمة الروقـان، ظلت تسـمع تأنيبـي وتوبيخي بابتسـامة كانت تكبر مـع كل صفة رخمـة اتهمتها بهـا مثل اللحوحة.. الباردة.. التي لا تفهم أن معنى إسـكات اتصالها أني مشـغولة بأمر هام.. يئسـت من رد فعلها النشوان فجلست بغيظ بينما قالت هي ببسـاطة: «تحبي أطلبلك بيرة مع الأكل ولا تشـاركيني قزازة الوايـن؟»، حدقـت فيها ثـم رددت بغلظة: «ومن إمتى أنا بشـرب يا بسـمة؟ هو الواين طير عقلك خالص؟»، قالت ببجاحة: «عارفة إنك بطلتي تشـربي بعد تميـم الله يرحمه.. بس مايمنعش تاخدي كاس.. عشـان تقدري تحلي الأمور المعلقة»، شـخطت فيها حتى انتبهت وبدأت تفيق وأنا أقول: «بسمة أنا لا عندي أمور معلقة ولا هاشـرب.. وبعدين مش سـاعة إلا ربع سـيبتك فيهـا تعمـل فيكي كده.. ولو فضلتي كده هامشـي»، ظلت تسـترضيني حتى دمعت عيناها وأشـفقت عليها فسألتها بقلق: «بسمة فيه إيه؟ إنتي زعلانة من حاجة؟»، أجابت بسرعة وهي تنفي بسبابتها اليمنى يسارًا ويمينًا: «لا والله.. بالعكس أنا فرحانة قوي».. ثم سكتت بضع ثوان: «ويمكن ده اللي وترني»، لـم أجد بـدا من طلـب الطعـام وتناوله حتـى أهيئ نفسـي جيدًا لسـماعها. وأمرتهـا بألا تمد يدها إلـى زجاجة الواين مرة أخرى، ثـم طلبت لها فنجال قهـوة دوبـل وأطاعتني دون اعتراض مدعية أن سـبب طلبهـا الواين تأخري عليهـا، كذلك التزمـت بما وافقتني عليه وأنا أطلب الطعام وهو ألا تحادثني

في موضوعات مهمة حتى أنهي طعامي، وعندما انتهيت واغتسلت وعدت وجدتها تتأملني بخبث كأنها تنتظر إشارتي لكي تبدأ شكواها.. سألتها مباشرة: «خيري مضايقك يا بسمة؟»، ردت بسرعة: «لا.. بالعكس إحنا في أحسن أحوالنا».. طلبت منها أن تخبرني بما يضايقها، فأبدت دهشتها من تصوري أنها متضايقة وقالت إنها فقط زهقانة وترغب في بعض الراحة، وتتمنى أن تقضي إجازة ولو لمدة أسبوع واحد في أي مكان ناء حتى تعيد شحن نفسها من جديد، قلت لها بدهشة: «بسيطة خدي أجازة من شغلك وروحي الساحل الشمالي أو مرسى مطروح أو شرم الشيخ»، هزت رأسها كأني لم أضف جديدًا، تنبهت إلى أنها ربما تريد أن أصحبها في هذه الرحلة وقلت في نفسي ما المانع؟ فالجو قد بدأ يشتد حره لذا ربت ظهر يدها الملقاة على المنضدة وأنا أقول لها بحماسة: «خلاص شوفي انتي عايزة تروحي إمتى وقوليلي وأنا هارتب أموري وأروح معاكي»، أفلتت منها ظل ابتسامة فظننت أنها تدبر أن يصطحبها «خيري» لذا لزمت الصمت.

ثم عادت إلى طبيعتها وسألتني بابتسامة خبيثة: «إنتي عملتي إيه يا جيجي مع أحمد؟»، أجبت بجفاء: «ولا حاجة طبعا.. واحد اتصلت بيه مرتين ومردش.. عايزاني أعمل إيه معاه؟».. بنفس المكر قالت: «مش يجوز عنده ظروف.. إنتي فاكرة لما ظلمتيه وفي الآخر طلع بيدفن والده في أسوان»، لم يكن هذا العذر قد خطر في بالي لذا أسرعت بقولي: «إنتي دخلتي صفحته ولقيتي حاجة؟»، ضحكت بفجاجة وهي تقول: «ماتقلقيش لقيتها زي ما هي صحراء جرداء.. بس أنا باخمن مش معقولة جيهان العرابي بنفسها تتصل بيه مرتين ويكبر دماغه»، قاطعتها بحدة: «بسمة بطلي الخفة

اللـي انتي فيهـا دي وقوليلي عايزة توصلـي لأيه»، قالت باهتمـام: «أنا مش بتريـق واللـه يـا جيجي.. بس عشـان خاطـري حاولـي تتواصلي معـاه بأي شـكل.. أصـل أنا باخاف مـن الناس الجوانييـن دول.. لحسـن يكون بيدبر مصيبـة لنفسـه أو ليكـي».. زعقـت فيهـا بتحـدٍّ: «أعلى مـا في خيلـه يركبه ومتحاوليـش تخوفيني عشـان أنا مباخفش أصلا»، ظلـت فترة تهدئني حتى اسـتكنت وهي تدعـي أن «أحمد» شـخصية هشـة ويمكن أن يؤذي نفسـه، لأسـكتها أخبرتها بأنه إن لـم يتصل بي في غضون هذا الأسـبوع سأزوره في مقـر شـركته وإن لـم أجده سـأدع السـكرتيرة تتصل به في أي مـكان يتواجد فيـه وتخبـره بوجـودي. ثم رفضـت رفضًا تامًّـا أن تواصل الـكلام في نفس الموضوع، سرحت بفكرها ثم وجدتها تبتسم فجأة وهي تقول: «على فكرة الكاميـرا اللـي جبتيها لبنت أخوكي ريتاج عاملة شـغل جامـد»، تذكرت أن هذا الموضوع بالذات سـبب لي ضيقا منها ومن بقية أصحابي فقلت بحدة: «إيـه اللي عجبك بالذمة في الصور العبيطة اللي صورتها ريتاج ونزلتها على صفحتها.. بني آدميين مشـوهين ومعوجين وبتسـتخدم الفلاش غلط وإنتي مابتبطليـش تعملي لايـكات.. ووراكي إبراهيم وفريد كأنهـا خبيرة عصرها في التصوير»، دافعت «بسـمة» عن نفسـها بهبل: «بنشجعها يا جيجي.. بنت صغيـرة وعايزيـن نحببها في هوايتها»، قلت بغيظ: «اللـي انتوا بتعملوه يقتل أي موهبة.. ده على فرض إنها تملك موهبة أصلا.. دي مش بتحب التصوير مـن أصله وكانت من سـنتين مابتحبـش تتصور، بدل ما تنقـدوا اللي بتعمله بتشـجعوها بدون حسـاب وبتزرعوا الوهم جواها»، سـكتت «بسـمة» وهي تنظـر تجاهي وأنـا أتوعد «إبراهيـم» و«فريد» لأنهما لا يكتفيـان باللايكات

وإنمـا يعلقـان على الصـور بأنها عظيمة، ثـم تذكرت الصـور الحديثة لوجه «بسـمة» التي وضعت إحداها صـورة لصفحتها وكل يومين «تشيّر» صورة أخـرى فقلـت بغيظ: «وانتـي بما إنك بقيتـي عبقرية في التصويـر.. هو اللي بيفهـم فـي التصوير يحط الصـور بتاعتك دي؟»، قالت لي بتحـدٍّ: «مالهم.. جالـي عليهـم 275 لايـك»، ارتفع صوتي: «صور وحشـة.. البنـي آدم اللي صـورك بـوظ اللقطـات بالفوتوشـوب.. قفـل مسـام وشـك وخلاكي زي وش جثـة غرقانـة تحـت الميـه.. ميتة مبتسـمة ومندهشـة»، كانت «بسـمة» تحدق في وجهي بدهشـة غيـر مصدقة أن صورها الحديثة بهذا السـوء، لذا اضطررت لأن أفهمها كيف يفسـد الفوتوشـوب طزاجـة الصورة ثم ذكرت لهـا رأي «فالتـر» بأن الرتـوش هي انتقام الرسـام الرديء مـن الفوتوغرافيا، فغرت فمها وسـألتني: «يعني إيه؟»، ضحكت ووعدتها بأن أشـرح لها ذلك بالتفصيـل فيما بعد، قالت بأسـى: «أصل كل الصـور اللي كنتي مصورهالي يـا جيجـي كانت بالحجـاب أو قديمـة ماينفعـش أحطها.. واحنـا عارفينك بترفضـي انتا نطلب منك تصورينا.. لازم ده يبقى بمزاجك.. ومن سـاعة ما خلعـت حجابي ماطلبتيش إنك تصوريني»، ابتسـمت فـي وجهها ووعدتها بأن أرتب لها سيشن «Session» تصوير قريبًا..

نظـرت إلـى سـاعتي فتوتـر وجههـا لحظـة ثـم قالـت: «إنتـي فعـلا يـا جيجي ممكـن تيجي معايا أسـبوع نغير جـو»، هززت رأسـي بالموافقة، قالت بهمس: «بس أنا زهقت من مصايف مصر وعايزة أسافر أي حتة تانية»، انتبهت فسـألتها على الفور: «من الآخر يا بسـمة إنتي عايزة تروحي فين؟»، قالت بسـرعة كمن يلقي بجمرة ملتهبة من يده: «نفسـي أروح تركيا في أول

الشـهر»، واجهتها بغلظة: «وطبعا خيري هيكون في تركيا في نفس الوقت»، ردت معترضة بسـرعة: «لا والمصحف الشـريف.. مش هيكون في تركيا»، سـألتها بغلظة وبسـخرية: «أمـال فين يا حبيبتـي؟»، أجابت بخجـل: «عنده سـيمنار فـي ألمانيا وممكـن يقطعه بأجازة 3 أيـام في تركيـا»، ألقيت النقود علـى المنضدة وقلت بحسـم: «أنا مـش رايحة معاكي أي حتـة خارج مصر يا بسـمة.. وفري على نفسك الكلام»، أمسكت بيدي ضارعة وهي تؤكد لي أن أمها لن تسمح بسفرها إلا بصحبتي، نظرت يدها وانصرفت.

أحمد الضوي

لم أطق البقاء في البيت بعد أن أنهت «شـويكار» جردها لشـقة «شريف» ورحلت، شـغلت الكاسيت وسـمعت نبـاح الكلب بضع دقائـق ثم غالبني الأسـى، فارتديـت ملابـس الخروج وسـهرت مع «عمـاد» الـذي ألح عليّ بقضـاء الليل عنده، وكان متفهمًا فلم يصر على مشـاركته الشـراب وتجنب أن يحكـي لـي بطولاته المباحثية التي كانت تفسـد سـمرنا ويبـدو أن وجهه المجهـد وترفعـه عـن الإلحاح عليّ بأسـئلته محاولا استكشـاف مشـكلتي دفعني لأن أسـأله عن سبب ضيقه، فزفر وقال إن شغله هذه الأيام لا يترك له دقيقـة واحدة للراحة.. ثم انتبه لوجـودي وأخبرني بأن أبقى على راحتي في البيت لو جاءه استدعاء في منتصف الليل وخرج بسببه، وأشار لي بأن أغلق الباب خلفي وأنه لا داعي لأن يترك لي المفتاح حتى أوصده جيدًا فلن يجرؤ أحد على اقتحام شقته، قلت له إني سأنصرف بعد قليل طالما أنه في الحالة جيم التي تستلزم أن يكون على أهبة الاستعداد لتلبية أوامر الاستدعاء فورًا، ضحـك وهو يقول: «لا ج ولا خ أنا بأقول احتمال ومتتلككش وانت حالك حال كده.. رلكس ولو حبيت تحكيلي حاجة اتفضل»، ثم سكت، ووجدت نفسـي أحكي ما حصل من «جيهـان» بتفاصيل تذكرتها أمامـه وكانت غائبة عنـي، وعندما انتهيت ضحك ضحـكات متواصلة وهو يخبـط بقدميه على الأرض بعد أن وضع كأسـه علـى المنضدة مخافة أن ينسـكب وكان يقول:

«بنت الإيه.. دي اللي كنت بتقولي عليها ملاك ماشي على الأرض.. عملاك كوبـري ومن جبروتها جيباك تشـوفها وهي بتقابل عشـيقها»، انفعلت عليه: «اخرس يا عماد»، تدارك قوله وأضاف: «آسف يا سيدي.. حبيبها.. جوزها القـادم.. وات إيفر.. تعرف أنا لو منك كنت عملت إيه؟»، سـألته وأنا أتوقع إجابـة مختلـة مثله أو أكثر، قـال: «كنت رحت قعدت مـع الراجل ده بعد ما مشـيت وعرفت منه إيه الموضوع اللي بينهم بالظبط.. ولو كان بينهم علاقة أو شـروع في علاقة أخلص منها فورًا بعملية قتل مش رحيمة».. ثم سـكت لحظة وأضـاف: «اعملها وعلـى ضمانتي أجيبلك حكـم مخفف»، صددته بسخرية: «عماد شكرا على نصيحتك.. كفاية كده على الموضوع ده وأرجوكماينفتحش تاني»، ثم نهضت باتجاه غرفة النوم وأنا أقول: «تصبح على خير»، لحقني صوته وأنا على مشـارف الغرفة يدلني على مكان الجلابيب المكوية أسـفل شماعات البدل، استدرت وأخبرته بموت «شريف»،لكنه عقد جبينه وقال بدهشـة: «شـريف مين؟»، دخلت الغرفة بغيـظ فلحقني وعندما عرف أنه جاري العجوز، افتعل الأسـى وقال: «ربنا يرحمه».. ثم أكمل بسـخافة: «أهـو مالحقش يملا الهـارد بالكتب اللي بيحبها»، أدرت له ظهري بحثا عن جلباب النوم فعاد إلى زجاجته.

كان الصبـاح معتـدلا ولطيفـا وخاليا مـن المواعيد لأن «ريـم» أمهلتني يوميـن.. وكنـت غيـر مهتم بحضورهـا ليس زهـدًا فيما تقدمه لـي من حياة صاخبة وإشباع.. بل من فكرة أنها منحتني ثلاثة أيام بمناسبة عيد ميلادي لم يتبقَّ منها غير يوم ستملأه بشحناتها غدًا.. «ريم» بالنسبة لي هي الغموض.. المفاجآت.. وبهذا الإعلان تفسد أهم ميزاتها..

عندما جعت ذهبت عامدًا إلى مطعم أسماك على النيل، افتتح منذ فترة قصيرة ولم أتمكن من تجربة قائمته ومميزات موقعه، وكان للمطعم درجات رخامية على مستوى الشارع تنزل به إلى مساحة من النجيلة الخضراء تتناثر عليها مناضد تعلوها مظلات شمسية أو مطرية كالأشرعة.. وجزء من هذه المساحة عليه بناء حديث من دورين بمساحة معقولة به المطعم الداخلي المكيف.. رفضت أن آكل بالداخل وأشرت إلى «المتر» ليجلسني على إحدى المناضد الملاصقة للنيل.. لم يكن يجلس بالخارج عدد كبير فسررت لذلك.. كانت «جيهان» تتصل بي للمرة السادسة أو السابعة ما عدت أحسب.. ووجدت نفسي أبتسم لا بفعل الاتصال بل بفعل التوافق بين طلبي للسمك طعامها المفضل وبين رنتها.. نظرت إلى السماء.. كانت الشمس ما تزال مفعمة بالقوة وأمامها الكثير لكي تهرم وتغادر.

عندما نزلت الأطباق جرت إلى منضدتي مجموعة قطط من اتجاهات شتى وهي تشتبك بقوة في حرم المنضدة للسيطرة على مكان تستطيع فيه تلقي الهبات.. كان «الجرسون» ما زال يضع أطباق السلاطات والخبز وخلافه وفي الوقت ذاته يضرب بقدمه أبدانها.. وكان صوتها مزعجًا جدًّا وهي تزوم بنية الإرهاب.. وعندما أبدى وجهي استياءً من هذه الجلبة ابتسم «الجرسون» وهو يشير إلى قطعة صغيرة من البلاستيك على شكل مسدس، أمسكه بقبضة يده وهو يريني كيف أدوس على زناده، ثم أطلق منه رشاش مياه على القطط ففرت سريعا ومن دورق بلاستيك مملوء إلى حافته بالمياه أعاد تزويده بالذخيرة.. أعجبتني اللعبة جدًّا ومضيت آكل

وألهو في الوقت نفسه بمسدس المياه وأطلق رشاشه على القطط وكنت في سعادة غامرة كطفل في بداية تعرفه على الأشياء.. وحمدت الله أن «ريم» لم تكن معي حتى لا توبخني بحجة أني شرير أؤذي القطط.. رغم أن ادعاءها حب الحيوان كنت أراه زائفا في كثير من الأحيان التي تبدو فيها ساديتها.. «جيهان» كانت ستنظر تجاهي بدهشة وعلى وجهها سمات عدم تصديق أني من الممكن أن أفعل هذا بكائنات لطيفة وصغيرة... أحا.. (يا لتلك الكلمة التي لازمتني منذ معرفتي بريم).. لكن ليست هناك كلمة غيرها تعبر بفصاحة عن الشيزوفرنيا.. تخاف على القطط والطيور وتجتث رؤوس البشر بلا رحمة.

عدت إلى البيت بعد الساعة السابعة.. وفوجئت وأنا أهم بفتح باب شقتي بصوت موسيقي يتسرب من الداخل.. أدركت أن «ريم» بالداخل.. سحبت المفتاح ورننت الجرس لتفتح لكن وصلني صوتها غريبا كأنه يأتيني من عقب الباب: «أحمد افتح الباب وادخل»، للوهلة الأولى أدركت صحة حدسي بأن صوتها يأتيني من أسفل.. كانت منحنية على إحدى قدميها وأصابع ذراع نفس الجهة تلامس مشط القدم بالكاد وكانت قدم الجهة الأخرى مع الذراع الآخر يحلقان في الفضاء.. وهي تبدل بينهما مع إيقاع الموسيقى.. ثم أدت رقصة باليه صغيرة.. وكانت ترتدي بدلة استرتش ملتصقة بجسدها لونها أسود ويبدو أنها البدلة التي ترقص بها الرومبا والزومبا في الجيم الذي اشتراكه بمبلغ خرافي كما أخبرتني سابقا.. لكني أعتقد أنها في الجيم لا بد أن ترتدي أردية أخرى أسفله حتى لا تبدو مثلما تظهر لي الآن.. تركتها وخرجت إلى الشرفة لأنه لم يعجبني أن أرد على

قدمها المشرعة في وجهي وهي تحاورني.. وكنت مستاءً لأنها خالفت موعد الغد وأتت الآن وفي الأمر شبهة أنها ترتاب فيّ.

أنهت ما تفعله ولحقت بي ثم قبلتني بسرعة على وجنتي وقالت بعجالة إنها عرقت كثيرًا وستدخل لتستحم. ثم انتبهت وسألتني إن كنت سأدخل معها.. أومأت بالرفض فضحكت بليونة وانصرفت..

عادت إلى الرسيبشن حيث لم أتحرك بعد.. ثم أشارت إلى الكاسيت الصغير الخاص بـ «شريف» وقالت باستهزاء وافتعال. «الله على الكاسيت ده.. تحفة.. ده أكيد بتاع باباك.. ما افتكرش شفت حاجة زيه حتى واحنا بيبهات»، ثم أكملت بنفس اللهجة: «وده بيشتغل؟ يعني جربته.. بصراحة أنا خفت ألعب فيه ينفجر في وشي»، لما وجدتني ساهما ولا أشاركها تهريجها قالت باهتمام: «فيه إيه يا أحمد.. إنت ليك معاه ذكريات؟».. أخبرتها بموت «شريف»، ولم يبد على وجهها أي تأثر بموته وعندما لاحظت استنكاري قالت إنها ستأخذ مني رقم «شويكار» مرة أخرى لأنه ضاع منها وتعزيها.. لكن بعد أن أخبرتها بكل شيء عن الكاسيت ضحكت بجلبة ومرح. وظلت تقلب في أزراره ثم تسمع صوت النباح وتعاود الضحك وأنا أطالبها بالهدوء حتى لا يسمعنا الجيران ويظنوا أننا لا نأبه لموت الجار، ثم جلست بجواري وقالت: «أصلها فكرة عبقرية.. وأنا لما سألتك مرة عن نوع الكلب اللي بيزعجنا ده وانت قلتلي بولدوج.. قلت في نفسي إنك بتقول أي حاجة عشان أنا عارفة صوت الكلب البولدوج كويس. ولما اتعزمنا عندهم وماسمعتش صوت للكلب قلت يمكن نايم في الحمام أو البلكون».. ثم انتبهت لنقطة ما لأنها ركزت في وجهي وبان عليها الضيق، وسألتني: «وانت خبيت عليّ

يا أحمد.. فيها إيه لما كنت تقولي.. ياه ده انت كده ممكن تكون مخبي عليا بلاوي»..

لفترة طويلة ظلت على هذا المنوال حتى أقنعتها بأني عرفت ذلك مصادفة وجعلني «شريف» أقسم بإني لن أخبر مخلوقا بهذا الموضوع.. ولأنه كان غير متزن نفسيا لم أغامر بكشف سره، قالت وهي تضغط على الحروف: «غير متزن نفسيا».. ثم قبلت دفاعي وسكتت..

مضت الأمسية بعد ذلك جميلة وانتهيت من دفع آخر قسط في هدية عيد ميلادي ونبهتها إلى ذلك فابتسمت وقالت: «أديني عملت اللي عليّ.. عشان عندي الأيام الجاية حاجات كتيرة لازم تتحسم ويمكن تبعدني عنك شوية»..

قلت مبتسما: «ما تغيبيش عني كتير».

ضحكت عاليا وقالت: «بعينك.. هافضل كابسة على نفسك لحد ما تفطس»..

ثم تذكرت شيئًا فأضافت: «ويمكن أطلب منك قريب تيجي معايا فرح في النادي السويسري بتاع واحدة أخت جارتنا أنا واستيلا.. ومش عايزة أخش عليهم بإيدي فاضية»، وضحكت.. تذكرت أنا أيضًا شيئًا وليتني ما تذكرته.. وأخبرتها بأني رأيت واحدة تشبهها بالضبط بشكل يكاد يكون متطابقا في فندق سميراميس، وأني حاولت أن أكلمها وأرجعت ذلك إلى فرط حبي لها وأنها تشغل تفكيري ليلًا ونهارًا.. وفاجأني وجهها الممتقع جدًّا.. وطلبت أن أعيد ما قلته وهي تسألني وعيناها زائغتان: «هي كانت

تشـبهني للدرجة اللـي بتقولها؟».. قلت بخبث: «بـس من غير روحك اللي مدوخانـي»، بوغت بيدهـا تمتد إلى الكـوب الذي أمامنا وتلقـي به تجاهي فتفاديته بصعوبة وزادني رعبا صوت تكسر زجاجه واندفاعها الجنوني وهي تهرول خارج الشقة.

جيهان العرابي

لـم تفارقنـي نظـرة «بسـمة» التي تحولـت من نظـرة متضرعة إلـى نظرة ترمينـي بخيانتهـا بعد أن رفضت مشـاركتها المؤامرة الرخيصـة، ولذلك لم أتصـل بها حتى لمجـرد الاطمئنان على سـلامتها العقلية وعندمـا رأيت الـ Status الحزيـن الـذي صـدرت بـه صفحتهـا والتـي تقـول فيـه «إنها رغم طعنـات الأصدقاء قادرة على مواصلة الحيـاة والمقاومة والنجاح والغفران لكل من أسـاءوا إليهـا».. ووجدت «خيري» أول من عمـل لها لايك وبعده مجموعـة من زملائها ثـم «ريتاج» ابنة أخـي «الهاطلة» وتحـت هذا الكلام الأبله عشـرات من التعليقات التي إما تشـاركها الرأي أو تزايد عليها وتسب الأصدقـاء الخائنين.. هذا الـStatus رفع ضغطي جدًّا وكدت أتجاهله لكن رغبت في أن أترك أثرًا يدل على مروري على صفحتها، لذا عملت لها لايك وكتبت تعليقا في ظاهره أني معها وفي باطنه الاستهزاء بها، وكنت أدرك أنها بمجـرد رؤيته ستسـتفز وتكلمني لكنهـا لم تفعل ذلك وقد مـر على تعليقي ساعات ست ودقائق عشرين، واكتشفت أني في الشرفة منذ فترة كبيرة وبين الحين والآخر أتطلع إلى جهاز محمولي كأني أتسـول منه اتصالا أو أتوسل إليـه أن يرن.. حتى لو كان الاتصال مـن إبراهيم أو فريد.. هذا الجهاز الذي كان لا يتوقف عن الرنين أو الإضاءة إن اغتلت صوته، بدا لي جثة في سبيلها للتحلـل، واكتشـفت أيضًـا أني أقلد المراهقـات الجدد وأتفحـص كل فترة

شاشـته لأتأكد من أن الإطار الصغير الدال على تمام الشـحن مفعم بالطاقة وأن إشـارة سـلامة الشـبكة موجودة بدرجاتهـا القصوى الخمـس، لم أكن أنتظـر اتصالا من «أحمد الضوي» فقد أهنت نفسـي بكثـرة اتصالاتي وكان يعاقبنـي بالتجاهـل.. لم أكـن خائفة من رد فعله على تصرفـي معه في المرة الأخيرة بناءً على تخيلات «بسمة» الغرائبية.. «أحمد» لن يؤذيني.. أنا أدرى بـه منك يا «بسـمة».. أنا فقط متأثرة بشـدة بعد أن راجعت مـا فعلته به وأريد أن أعتذر عن ذلك اعتذارًا خفيا يحسه دون أن يتمكن من الإمساك به كضوء فلاش صدم الوجه فجأة وتبدد.. إن لم يكلمني في الغد سأزيله من محيطي وأمحو رقمه من هاتفي و«أبلكه» أيضًا من العالم الافتراضي.. قاطعني رنين الهاتف وفوجئت بأني جعلت تون رناته في أعلى مستوى، وكان الاتصال من أشـخاص غير مرغوب فيهم كالعادة.. تـرددت في الرد على اتصال «حنان» زوجة أخي لكن الرنين العالي المتوالي أجبرني على فتح الخط.. كلام فارغ كثيـر تناثـر من كل فتحـات المحمول منتحـرًا على الأرض حتـى أتى وقت الهـدف من الاتصـال.. «ريتاج» ملت مـن النادي والنزهـات وتريد أن تقيم عندي بضعة أيام قبل أن تسافر معهما إلى شرم الشيخ.. رفضت بدبلوماسية بحجـة أني منهمكة في تصوير فيلم تسـجيلي.. وأني لا أسـتطيع خلال أيام التصوير أن أنهي العمل بمزاجي لكي أعود مبكرة لرعاية «ريتاج».. ببرودها المعتاد طلبت مني أن أصطحب «ريتاج» معي في لوكيشن التصوير، رفضت بحدة وعللت ذلك بأن منتج العمل يرفض وجود من ليس لهم علاقة بالفيلم في اللوكيشن.. لم يبد على صوتها الاقتناع لكنها دعتني إلى مصاحبتهم في رحلة شرم الشيخ وقلت ربنا يسهل لو انتهى الفيلم سأذهب معهم أو ألتحق بهم هناك.. صمتت السكة بعد أن سلبت شريطًا كبيرًا من طاقتي الإيجابية.

رنة جديدة أخرجتني من أفكاري وأسعدتني فقد أحسست بأنها بمثابة القطرات التي ستجر وراءها سيلًا منهمرًا.. وابتهجت أكثر وأنا أرى اسم «عبد الهادي الوشاحي» يزين شاشة محمولي، لبيت بسرعة فأتاني صوته صاخبا بوهن، وظل يعاتبني فترة كبيرة ويسبني بمزاح لأني لم أعد أسأل عنه، تحججت بأني تورطت في أعمال كثيرة ولمته أيضًا لأنه لم يعد يتصل بي وكأني اختفيت من حياته.. ضحك ضحكة هادئة وقال إني حساسة وهو يفضل أن يتجنب الفتيات الحساسات.. ضحكت بدوري فسألني بلوم أليس يستحق أن أعمل عنه فيلما تسجيليا.. اندهشت وقلت إنه طبعا يستحق لكني لست مخرجة.. قال إنه لن يهتم بمن هو المخرج طالما أنا التي سأصور إسكتشاته ومنحوتاته.. بعد لحظة تفكير قلت إن هذا شرف كبير لي.. فقاطعني بضحكة تخللها سعال خفيف وقال: «يا بكاشة».. أخبرته بصدق وبعزم أني سأسعى إلى ذلك بأسرع ما يمكنني.. وسأجلس معه جلسات مطولة في أثناء التحضير للفيلم.. ضحك مرة أخرى بصوت حاول أن يجعله عفيا كالسابق لكن السعال هذه المرة كان أشد.. وبعدما استعاد أنفاسه قلت له بلهفة: «سلامتك»، أجابني بسرعة: «الله يسلمك»، ثم سألني بدهشة عما إذ كنت بعيدة عن أجواء التشكيليين هذه الأيام.. فأجبت بنعم في سبيلي لشرح السبب.. لكنه قاطعني وهو يقول. «عشان كده»، اندهشت ووجدت نفسي أقول له بسرعة: «هو فيه إيه يا أستاذ وشاحي؟»، أخبرني بما كدرني فعلا بأنه مر بفترة مرضية عصيبة لكنه نجح بإرادة حديدية في التغلب على هذا المرض الشرس وها هو قد بدأ يعود إلى طبيعته.. ثم أوقفني بحدة وأنا أكاد أقسم له بعدم معرفتي.. وقال

ببهجة يتسرب منها الأسى: «عارف والله يا جيجي.. وقفتك الكبيرة مع تميم بتدل على ده المهم ماتنسيش موضوع الفيلم».. أكدت له أني سأبذل ما في وسعي لكي يتم قريبا. بعد أن انتهت المكالمة مكثت فترة أفكر في أنسب جهة لإنتاج هذا الفيلم، لقيمة «الوشاحي» الفنية الكبيرة ولحساسيته الشديدة تجاه جهات دعم الإنتاج الفني الغربية، ووجدت أن الأفضل أن يتم إنتاج الفيلم من خلال المركز القومي للسينما وذلك سيستلزم اتصالات حقيقية لإقرار ميزانية تليق بالفنان الكبير وسيأخذ مني جهدًا خارقًا لإقناع أحد المخرجين الشباب أو الزملاء بإخراج الفيلم لأن غالبيتهم جهلاء بالفن التشكيلي ولن أسمح بقبول كتابته أو إخراجه على سبيل السبوبة. بمن فيهم «فريد» و«إبراهيم» صديقاي.

المكالمة الثالثة وصلني رنينها وأنا أعد النسكافيه بعد أن أحبطت من المكالمات الإيجابية التي تضل طريقها إلى شرفتي.. تلك المكالمة التي دفعتني للجري وأنستني التأني الذي كان يجري فيَّ مجرى الدم بجسدي.. وعندما حدقت في شاشة المحمول وأنا أقيم جسدي الذي كان على حافة التعثر.. دهشت جدًّا.. واضطربت.. وأعدته بسرعة إلى موقعه كأنه محمول لا يخصني.. ثم تركته وعدت إلى المطبخ أمشي الهوينى عائدة إلى ما كنت عليه.. ووصلت إلى الصينية التي عليها «مج» النسكافيه وزجاجة المياه وعدت بهما بنفس مشيتي البطيئة وصوت الرنات المتواصلة يتزايد بفواصل صغيرة من الصمت.. وسكت المحمول بالتزامن مع جلوسي وبينما أرقب بدهشة الرقم ثلاثة لعدد مرات الاتصال تصاعد من الجهة الأخرى صوت هاتف المنزل وكنت قد سهوت عن جعله على الوضع الصامت.. أدركت

أني في مأزق والأخت «بسـمة» التي تتهمني سـرًّا في العالم الافتراضي بأني طعنتها هي السبب في هذا الموقف المربك الذي أواجهه.. فقد كان الاتصال الذي أهرب منه هو اتصال من «تانت وجيدة» أم «بسمة»، ولأني غير معتادة على تبادل الاتصال معها إلا في المواسـم والمناسـبات السعيدة والأزمات لا قدر الله.. فقد أدركت أنها تطلبني لكي تسأل عن «بسمة» أو لعل «بسمة» أخبرتها بأنها ستزورني أو تبيت عندي وهي في حاجة ملحة لتكلمها.. وربما «حـازم» ابن «بسـمة» تعرض لمكروه.. وعشـرات من الاحتمالات السـيئة راودتني.. وكنت على يقين أن «تانت وجيدة» لن تتركني في حالي اليوم إلا إن أجبت على اتصالها.. لذا انتظرت بعض الوقت ثم اتصلت بـ «بسمة» لكي أعرف منها ما الذي أخبرت أمها به؟ لكني وجدت هاتفها مغلقًا فعرفت أنها معه في مكان ما في إحدى جزر المتعة والمكتوب عليَّ بصفتي صديقتها أن أنظف آثارها، توقفت الرنات فترة في الهاتفين وأنا بداخل شرنقة من الحيرة والحنق على «بسـمة» وربكتي هذه دفعتنـي لارتكاب بلوى لو أنا في نصف طبيعتي لكنت ترددت ألف مرة قبل فعلها، لكني فعلتها وأرسـلت sms إلى «أحمـد» ثم أبعدت عني المحمـول كأنه قفاز قاتل مشـرب بالدم.. ورحت جيئـة وذهابـا في طرقات الشـقة أفعل أشـياء عبيطة، وفكرت حتـى أن أفتح غرفـة «تميم» الموصدة على أدواته لعلـي أتخلص من حالة الملل والترقب التي تلبستني، ثم أحجمت فلن أستبدل واقعًا أخشاه بذكرى غيبها الموت.. وعـاود المحمول الرنين في إحدى رحلات طوافي بالمكان، جلسـت على مبعـدة منه خائرة القوة وقلبي يخفق قلقا حتى انتهت رنات الاتصال وماتت لفترة أقوى من تحملي.. كنت أخشى أن يرد «أحمد» على رسالتي المجنونة باتصال أو برسالة.. وغالبني فضولي في النهاية وأمسكت بالمحمول أتطلع

إلـى شاشـته برهبـة.. وتغير حالي إلـى النقيـض وتنهدت في ارتيـاح عندما وجـدت الاتصال من «تانت وجيـدة».. اتصلت بها على الفور دون أن أفكر أو أدبر أو أخترع حكاية تبرر غياب «بسـمة».. اتصلت بها كي أشـغل الخط حتى أقطع على «أحمد» سبل الرد. وفاجأني أن «تانت وجيدة» لم تتصل بي رغبـة فـي معرفة أين تختفي ابنتها؟ فقد بـدأت المكالمة بأنها انتهزت فرصة انشـغال «بسـمة» في حفل زفاف إحدى زميلاتها واتصلت بي لكي تدردش معـي.. اعتـذرت «تانـت» في البدايـة لتدخلها فـي أمر خاص بـي، وهذا ما أقلقنـي أكثر، قاطعتهـا بريبة: «خير يا تانت؟»، لم تجـب فاضطررت إلى أن أخبرهـا بأنها في منزلة أمي وأنا أقدرها كثيـرًا، وكان ذلك حقيقيا، ثم طلبت منها برجاء أن تسرع في إخباري بما تود قوله.. قالت إنها سمعت من «بسمة» أن هناك عرضًا كبيرًا قدم إليّ من شركة عالمية لتصوير مقر ومصانع الشركة فـي تركيـا.. وأن إتمـام هذا العرض يسـتلزم سـفري إلى تركيا لمدة عشـرة أيـام.. وأنني بعد أن كنت متحمسـة للعـرض جدًّا إلا أننـي تراجعت وأفكر في رفض العرض، لأني لم أسـافر خارج مصر بعد وفاة «تميم»، و«بسـمة» تعتقـد أن هذا السـبب هو الـذي جعلني أميل إلى رفض العرض، و«بسـمة» منـذ أن سـمعت مني بأني قـد أرفض العـرض وهي مكتئبـة لأن هذه فرصة لا تعوض من حيث المال والشـهرة.. وقد أخبرتني باستعدادها لأخذ إجازة من عملها لتسـافر معي حتى لا أنفرد بنفسـي وأفكر فـي «تميم» وأعتذر عن السفر أو لا أكمله.. وأني رفضت بشدة..

(طيلـة كلام «تانـت وجيـدة» لـم أنطق بحـرف وكنت في أتون مشـاعر شـتى.. الغيظ أولها.. والدهشة من مقدرة «بسمة» على الكذب وتأليف هذا السيناريو المحكم.. ومحاولة لي يدي عن طريق أمها التي أحبها..).

أكملت الأم المكالمة وهي تكاد تتوسل إليَّ لقبول العرض مع تعهد لم أطلبه منها بأن تراعي ابن «بسمة» طوال غيابها كما تفعل دائما.. وقالت أيضًا إن «بسمة» قد اكتشفت أن لها رصيدًا كبيرًا من الإجازات وإن لم تستفد منه سيلغى من حسابها عند نهاية العام (كدت أضحك فقد أخبرتني «بسمة» بنفسها أن مديرها الأعلى أنبها كثيرًا على أنها أخذت كل إجازاتها السنوية والمرضية والاعتيادية ومأموريات العمل منذ أن أصبحت كالسنام لجملها «خيري»).

في النهاية سألتني «تانت وجيدة» بقلق إذا كنت اقتنعت بكلامها وسأوافق على العرض؟ أجبت بإجابة قاطعة: «لا»، خفت صوت «تانت وجيدة» وقالت بتوسل: «عشان خاطري يا جيهان ماتضيعيش الفرصة دي».. قلت لها بصوت حاولت ألا يبدو حادًّا: «أنا أدرى يا تانت بمصلحتي وماتزعليش مني.. بس أنا قررت ما أسافرش لحاجات تانية تميم مالوش دخل بيها خالص»، قالت بصوت واهن: «اللي تشوفيه يا بنتي!».. وقبل أن تغلق الخط فكرت في أن أداعبها وفي الوقت ذاته أغيظ «بسمة» مثلما غاظتني فقلت لها: «تعرفي يا تانت أنا ممكن أسافر في حالة واحدة بس إنك إنتي اللي تيجي معايا»، قالت بدهشة: «ياريت أنا دلوقتي بقيت ست كبيرة مش حمل السفر.. بسمة ما شاء الله شعلة نشاط هتنفعك أكتر مني»، قلت بصوت قوي: «أنا ماكنتش باهزر يا تانت.. والله لو وافقتي هسافر معاكي على طول في أول الشهر الجاي»، ثم تداركت: «ميعاد بداية عملي في تركيا».. سكتت «تانت» ولم ترد، فقلت لها قبل إنهاء المكالمة: «فكري يا تانت وخدي رأي بسمة وأول ما توافق كلميني على طول».

أحمد الضوي

بعـض القلـق اعترانـي هذه المـرة من رد فعـل «ريم» العنيـف المفاجئ ومحاولتهـا إصابتـي بالكـوب، لكـن لـم أندهش مـن تصرفها، فقـد جربته علـى مدى علاقتنا وأحيانا بهياج وثورة أشـد خاصة فـي المرة التي اتهمتني فيهـا بقتـل «صفاء»، وكانـت قد بحثت عنهـا طويلا ولم تجدهـا وكنت بنية صادقة أعاونها في البحث، وحينما خرجت إلى الشـرفة متطلعا إلى أسـفل، وجـدت جثتهـا تفتـرش سـطح الجمالـون لمحل الخضـر والفاكهة أسـفل شـرفتها بالضبـط، وكان هـذا السـطح مبطن بشـرائح من الصـاج المجلفن الفضي، وفي مجرى من مجاريه ترقد جثة «صفاء» التي لقيت حتفها قبل أن تكتسـب لونه، وقـد كافأتني «ريم» على اهتدائي إلـى جثة «صفاء» بالصراخ والزعيـق واتهامـي بالقتل وكانت في أثنـاء ذلك تربح كل المسـاحات التي أنسـحب منهـا، وكانت قبضات يدهـا تصل إلى كل الأماكن المكشـوفة من جسـدي، وعندمـا فررت من أمـام جنونها مزقت أصابعهـا قميصي من دبر، وكادت أظافرهـا تنشـب في ظهـري.. وكنت فـي هذه اللحظة في المسـافة الذاهلـة المتسـائلة بين هل هذا مزاح ثقيل أم غضـب حقيقي؟! لكنها كانت تتمادى أكثر إلى أن فتحت دولاب الملابس على مصراعيه ومزقت ملابسي الخفيفـة بيدها المجردة، والثقيلة بمقص كبيـر، وأنا أرقبها بذهول وتوجس ولا أفعـل شـيئًا بخلاف إشـعال سـيجارة من أخـرى.. وحيـن وصلت إلى

غياراتي الداخلية أحسنت معاملتها قياسًا إلى ملابسي الخارجية.. أخرجتها من الدولاب ثم كومتها وخرجت بها إلى الردهة الخارجية للطابق الذي نقيم فيه.. وكانت تروح وتجيء من أمامي ولا تراني كأنني شبح.. وفي إحدى جولاتها عادت بزجاجة الكحول التي نمون بها السبرتاية ودلقتها بالكامل على الغيارات، ثم أشعلت فيها النار بقداحتي الذهبية التي أهدتها إليَّ في عيد ميلادي السابق.. والغريب أنني رأيتها تهدأ كلما توهجت النار الخضراء.. ثم طردتني من شقتها بالملابس التي أرتديها وكانت لحسن الحظ تصلح للسير في الشارع.. عدا شريحتين طويلتين عاريتين في قميصي من دبر.

كان ذلك في أوائل علاقتنا، ولم يكن قد مر على ارتباطنا أشهر أربعة.. وكنت عندما أخلفت ورائي بيتها على يقين بأن هذه العلاقة قد انتهت إلى الأبد بدعم من طرفيها. وقبل أن يكتمل الشهر عادت لي واعتذرت بشدة وعللت ثورتها بمشاكل مع طليقها لم ترد أن تثقل صدري بها، ولم أقبل اعتذارها في البداية لمدة أسبوع كامل على ما أذكر، كانت تأتي فيه أحيانا إلى شقتي دون موعد مسبق وتجدني أعاملها كزميلة عادية، وأحيانا كانت تأتي ولا تجدني فتنتظرني أمام باب الشقة وعندما أراها وأسألها منذ متى تنتظر؟ كانت تدعي أحيانًا أنها على وضعها هذا منذ ساعة أو أكثر وكنت لا أصدقها بالطبع فأنا أعرف أنها لا تطيق الانتظار لمدة دقائق، لم أكن أكذبها، كنت فقط أهمل التعليق على كلامها وأتركها تدخل خلفي.. وكنا نأكل معا ونتكلم في أمور عامة وأرد عليها بالكاد وبدبلوماسية وبدون حميمية.. وأحيانًا كنت أنزل بمجرد أن يأتيني هاتف وأتركها في الشقة بعد أن أطلب

منهـا أن تتحـرك بحريتها داخلها وإن تأخـرت وأرادت الانصراف فلا مانع، حـدث هذا مرتيـن.. المرتان لم أجدهـا عند عودتي، لكن المـرة الثانية هي المميزة لأني عندما رجعت في نصف الليل وجدت الشـقة على غير حالها، نظيفة ومرتبة وشـرائح من قصاصات وورق ملون تملأ كل منافض السـجائر التي أملكها، وكانت جدران الرسيبشن بأكملها ملصق عليها قصاصات مربعة صغيـرة بألوان الطيف وعليها كتابات بالقلم الفلوماسـتر السـميك.. الكتابة بعضها أبيات من الشعر الصوفي الغزلي الجميل والبعض الآخر كلمات من تأليفها باللغة العربية، بسيطة ولا بأس بها من عينة: «أحبك جدًّا»، «لم أعرف حاجتي إليك إلا عندما افتقدت حبك».. وهكذا.. والعبارات الفرنسية على قدر فهمي تكررت فيها كلمة الحب كثيرًا..

عجـل هـذا بصلحها الـذي كنت قـد قررتـه فعـلا بعدمـا رأيتهـا تقمع كبرياءهـا وهي لا تكف عن محاولات الصلح معي، وعقب هذه الإعلانات الرومانسـية غفرت لها وصالحتهـا، ومن تلك اللحظة عـادت علاقتنا لفترة لا بـأس بهـا وخفتـت قليلا بظهـور ابنتها «ملك» فـي حياتنـا.. وكان خفوتًا مقترنًـا ببعض التواصـل.. وأذكر أنها أخبرتني يوما بأنهـا بعد خصامها معي (اعتبرت ما فعلته معي خصاما؟!) سافرت لمدة خمسة عشر يوما إلى أختها في سويسرا للنقاهة من خصامي..

هـذه المـرة لم تمـر أيام خمسـة علـى الواقعـة الأخيـرة.. والقلـق منها مصـدره أنـه لا سـبب معقـولًا لمحاولتهـا تشـويه وجهـي، بخـلاف المرة السـابقة التـي ماتـت فيهـا «صفـاء» وكنـت أدرك إلـى أي مـدى تحبهـا أو تتظاهـر بذلـك.. كمـا أنـي هـذه المـرة لمحـت ذراعهـا وهـو يرتفـع

في الهواء إلى مداه محاولا النيل مني، وأدرك أنه لم يكن تهويشا ولا غضبًا مفتعلًا..

ولم أجد من أحكي له غير «عماد»، لذا أنا هنا الآن في نادي الشرطة بالجزيرة، و«عماد» في المطبخ يوصي الطهاة على طعامنا ثم سيغير ملابس السباحة ويعود، سمعني هذه المرة بإنصات شديد وبان على وجهه قلق وخالف توقعاتي بأنه سيسخر من هذه الحكاية ويجعلها مصدرًا رئيسيًّا للتندر، استأذن مني أن أمهله فترة للتفكير لأن ما أقوله خطير جدًا.. وطلب مني أن أصبر حتى نتغدى ثم نتكلم في الموضوع..

بدأت أحب هذا الـ«عماد» من انزعاجه لما حدث لي واكتشفت أنه الصديق الوحيد الذي أعرفه.. ولا أدري لماذا كنت أتظاهر بأنه ليس صديقا رغم أني لا أكاد أفارقه.. لعل سببه خالي «حسام» الذي كان يكرههم.. كأني كنت أشعر به يراقبني من العالم الآخر.. بعد وفاة خالي «حسام» لم يعد لي من أعتمد عليه.. فلجأت إليهم.. عذرًا يا خالي فلست مثلك.

لم يتكلم «عماد» معي أثناء تناول الطعام إلا بأسئلة عن جودة الطهي وحرفية الشواء الذي أشرف عليه بنفسه، وأخبرني أنه لم يسمح لهم بتقديم أطباق السلطة الخضراء إلا بعد أن أعادوا غسل الطماطم والخيار والجرجير أمامه، وكان ذلك من الأمور العادية عندما يشاركني «عماد» الطعام.. الجديد هذه المرة أنه كان يقطع اللحم باهتمام ويضيفه في طبقي رغم رفضي ويصر على أن أتناوله كأم تحرص على تغذية ابنها جيدًا.. وتحملت ذلك في أول الأمر لكن عندما زاد عن حده أوقفته بحدة..

بعد انتقالنا إلى مكان آخر بعيدًا عن ضجة اللاعبين والسباحين وجدت «عماد» يطلب مني باهتمام أن أحضر السجل التجاري لشركتي حتى يتمكن من استخراج رخصة سلاح لي، قلت له بدهشة: «سلاح إيه يا عماد؟ هو أنا بأعرف استعمله أصلًا وبعدين أنا عندي فوبيا من الأسلحة»، نظر إليّ طويلا كمن ينظر تجاه غريب من غرائب الطبيعة ثم قال باستهزاء: «لو مش بتعرف تستعمل السلاح بسيطة هاعلمك في يومين.. إنما لو عندك الفوبيا يبقى السلاح مالوش لازمة خالص.. إنت بس جهز نفسك لرصاصتين يخرموا دماغك»، ثم سكت وبان على وجهه الفشل في حل مشكلتي.. بعد فترة صمت قلت له: «هو انت يا عماد ماعندكش حلول تانية غير السلاح؟»..

انفجر في وجهي قائلا: «بص يا جدع إنت.. إنت زهقتني خالص.. إنت لازم تتغير.. الموضوع مش انك سقت عربية واحد صاحبك وانت طالب وعملت بيها حادثة فالحل إنك ما تسوقش خالص.. ريم دي خطر جدًّا وقلتلك تعملها محضر عدم تعرض.. بصتلي كأني طلبت منك حاجة قبيحة.. طلبت منك تغير كالون الشقة قلتلي مايصحش جايز ترجع تصالحني تلاقيني غيرت الكالون تتجنن أكتر.. بطلب منك تتسلح وتحتاط بتقولي فوبيا وملوخية.. شوف يا أحمد إنت آخرتك قربت وده مش تنبؤ ده من خبرات شغلي في المباحث.. وهتتقتل يا إما من ريم يا إما بسبب جيهان.. وسيبك من دين أم الرومانسية اللي مخلياك متصور إن ريم هترجع وتكتبلك كلام غزل على الحيطة.. هي فعلا هتكتب على الحيطة بدمك بعد ما تخلص منك».. قلت له بغيظ: «خلاص يا عماد رسمت مشهد موتي

وارتحت.. مافيش مشكلة.. بس أحب أوضحلك تاني إن ريم مش مجنونة.. جايز تكون عصبية جدًّا أو انفعالية بس من واقع عيشتي معاها في منتهى العقل، وأنا مش قلقان من الكلام الفارغ بتاع القتل والانتقام اللي حشوا بيه مخك من أيام الكلية ومن اللي شفته وانت شغال في المباحث الجنائية»، قاطعني صارخًا: «كلية إيه ومباحث إيه يا أحمد! إنت مغيب ما بتقراش الحوادث؟ ما سمعتش من أيام عن سواق شركة المقاولين العرب بعد ما وصل الموظفين مقر الشركة طلع الآلي وضرب زمايله بالنار؟ السواق ده يا أحمد 30 سنة في الشركة ماعملش مخالفة واحدة ولا خد جزاء.. خليك كده عايش في الأوهام.. شفت أنا كنت متيم بكارولين إزاي وعملت أد إيه عشان أقرب منها سواء بالخدمات اللي اتطوعت أعملهالها أو حتى عن طريق الغيبيات.. لما وصلت الأمور إنها بتشك اني ممكن أتحرش ببنتها إيفون زي ما قالتلك، أنا نسيتها خالص ومسحت رقمها من المحمول عشان ما اضعفش مرة وانا سكران وأسأل عليها.. أنا حتى يا أحمد مبمرش من مكانين في القاهرة ولو كلفوني بذلك رسميا.. المنطقة اللي فيها المحل بتاعها.. والمنطقة اللي فيها بيتها».. ثم أضاف بأسى: «مع إن المكانين دول كانوا من أجمل الأماكن اللي بتردلي الروح لما اتخنق»..

تعاطفي مع شجنه أنساني مؤقتا محاولة فك لغز من ألغاز «ريم»، ولأخرجه من هذه الحالة ولرغبة بداخلي في أن يعرف آخر تطورات الأمور مع «جيهان» أريته رسالتها الأخيرة التي كانت تقول فيها: «أحمد أنا فعلا متضايقة منك.. إنت الوحيد من أصدقائي اللي قلتله على محنة اتورطت فيها.. وطبعا باشكرك على تلبية طلبي.. لكن زعلت لأنك ما تابعتش إيه

اللـي حصـل وتوابع الموضـوع ده زي أي صديق مهمـوم بأصدقائه وكمان ماردتـش علـى تليفوناتي.. أشـكرك وآسـفة علـى إزعاجـك وأوعدك مش هيتكرر اتصالي تاني»..

قـرأ «عمـاد» الرسـالة مرتيـن مـن متابعتـي لعينيه التـي تنحـدر وتصعد بانفعـالات مختلفـة ثم أعـاد لي المحمول وقال باسـتفهام مسـتفز: «وطبعا إنت رديت على الكلام الفارغ ووقعت زي الجردل للمرة العاشرة»، قلت له بغيظ: «لا مردتش من إمبارح وبعدين ليه كلامك الزفت ده.. إيه جردل دي؟ أنا غلطان أصلا إني وريتك الرسالة»..

أمعـن «عمـاد» نظره في وجهي وقـال بغيظ ممتزج بسـخرية: «أحمد أنا قلتلـك على نهايتك.. وزعلت مني.. وأنا نهايتي كنت بتصورها دايما بدفعة رشاش في صدري من حد أذيته جامد، أو بدفعة رشاش من الآلي بتاعي في صـدر حد من قيـادات الداخلية حرمنـي من حق من حقوقي قبـل ما يدوني صابونة اللواء ويصرفوني من الخدمة.. دلوقتي حالا نهايتي أضيف لها تصور جديد..»، قاطعته باهتمام: «وإيه هو؟»، أجاب وهو يشرع إصبع سبابته تجاه وجهي: «إن تجيني أزمة وأطب سـاكت من استسلامك للوليتين دول!»، ثم بـدا وكأنه يفكر وقال: «بجد يا أحمد.. إحنا لازم نرجع زي زمان.. لا نحب ولا نتـورط فـي الحب.. ونقضيها زي زمان مع نسـوان بتدينا المتعة ليوم أو شهر وبعدين بتحل عن رقابينا»..

وقبـل أن يتمـادى في فلسـفته العميقـة رن محمولي وظهر على شاشـته اسـم «استيلا» فاندهشت وفرحت جدًّا لدرجة أني قبل الرد جعلته يرى اسم المتصل، ثم أخذت التليفون بعيدًا عنه حتى لا يشوشر على أفكاري.

لم تكلمني «استيلا» عن خلافي مع «ريم» كما تصورت، لكنها أخبرتني بالفرع الجديد للمطعم وبأن افتتاحه بعد أسبوع وبضرورة حضوري مع من أرغب على أن أؤكد لها عدد الأفراد قبل يومين من الافتتاح حتى تعمل حسابها لأنه افتتاح محدود وخاص بعض الشيء.

لما رجعت بالمحمول وأخبرت «عماد» بمحتوى المكالمة ضحك وقال بسمات العالم ببواطن الأمور: «مش قلتلك.. أهي ريم جهزتلك مسرح الجريمة وهتصفيك هناك عشان الخبر يبقى في كل الجرايد».

سألته بحزم: «من الآخر هتيجي تتصفى معايا ولا خايف؟».

بتوابع ضحكته رد: «هاجي طبعا.. ده افتتاح يعني خمور ممتازة وعشا مالوش مثيل وهدايا عينيه».. ثم لاحظ أني مندهش من فكرة الهدايا فهز رأسه يؤكد ذلك: «أيوه المحلات الشيك بتهدي هدايا في الافتتاح.. كرافتات.. موبايلات.. فلاشات.. المهم كل ده على حساب صاحب المحل».

ريم مطر

أخطأت لسماعي نصيحة «استيلا» بالتوجه إلى عيادة الدكتورة «ميرهام» لعلها تجد حلًّا لتشوشي الأخير.. و«ميرهام» هذه طبيبة عمرها أقل من الثلاثين وعيادتها بموقعها وديكوراتها وعلاقتها بمطعم «استيلا» (أمها في الحقيقة من زبائنه الأساسيين) كل هذا يدل على أنها من طبقتنا.. و«استيلا» ظلت تزن على رأسي كثيرًا أن أغير طبيبي وأذهب إليها بحجة أن الجيل الجديد من الأطباء خاصة الذين أنهوا دراستهم في الغرب، تفوقوا على الأطباء الذين لهم باع كبير من الشهرة والخبرة.. والخبرة بالذات مطلوبة في كل ما يتعلق بالنفسي. وهذه المرة بعد أزمتي الأخيرة مع «أحمد» طلبت مني بإلحاح زيارتها وأن لا أتكلم معها، إلا فيما يخص مشكلتي مع «أحمد».. وألا أخبرها بأي شيء عن تاريخي المرضي حتى لا أدخلها في متاهات..

البنت ظريفة جدًّا وجسدها يصلح للأيروبيك، ووجهها الذي تمتزج به مساحات براءة وشر في الوقت نفسه يؤهلها لأن تصبح مشروع ممثلة جيدة.. ولو تحقق حلمي في الأكاديمية سأدعوها للاشتراك فيها.. كانت ككل الأطباء الذين يفتعلون الأهمية جالسة تكلمني بنصف وجه، والنصف الآخر ينظر إلى شاشة اللاب الذي سجلت به ما قلته وعملت لي ملفًّا حتى تتابعني.. سألتني هل ترددت على أطباء نفسيين من قبل؟ وبناء على الخطة

التي اتفقت عليها مع «استيلا»، نفيت ذلك بطريقة مبهمة بأن أخبرتها عرضا بأني في الخليج ذهبت إلى طبيب نفساني بريطاني عقب ولادتي لـ«ملك»، وكتب لي عدة مهدئات جعلتني أتخلص من رهاب أن هناك قطعة من اللحم حية تتقلب بجواري وأخشى أن أنام فجأة وأجد نفسي قد بططتها.. وكلما حاولت أن تجعلني أعود فلاش باك إلى تلك الفترة، أخبرتها بأنه لا أهمية لذلك فأنا ظللت لفترة كبيرة بخير وأرجعتها إلى موضوع «أحمد».. وحاولت بعد ذلك أن تدخل بي أنفاقًا مهملة مثل لماذا لم أتزوج «أحمد» طالما أنا مطلقة؟ وهل أحبه أم أسلي وقتي؟ وهل يحبني لدرجة الرغبة في الزواج بي أم يفضل أن أظل في خانة الرفيقة؟ زهقت منها وطلبت إيضاحا لحالة الرغبة في تدمير كل شيء التي تنتابني على فترات، فسكتت ثم قالت باستسلام إني لم أمكنها من تحليل الحالة لأني مصرة على التحكم في ذاكرتي وإغلاق الطرق التي قد تؤدي إلى فتح سراديب الذاكرة الموصدة، أمسكت نفسي عن شتمها لعدم رغبتي في أن تفقد «استيلا» زبونة مهمة وتظل تلقي باللائمة عليّ، ولأساعدها أخبرتها بأني قد اتصلت بطليقي السابق «علي المنصوري» وطلبت منه أن يسرد لي كل مساوئي وأخطائي بحياد والتي جعلت عيشته معي لا تطاق كما كان يدعي، رغم أنه الآن يتمنى ظفر هذه العلاقة، ابتسمت الطبيبة وهي تقول لي برافو بالطريقة التي تقولها الأم لطفلتها عندما تعمل «بيبي» لأول مرة بمفردها.. ثم سألتني لماذا طلبت ذلك من طليقي؟ فأخبرتها بأني فضلت أن أرى عيوبي من وجهة نظر الآخرين وأراجع هذه العيوب وأحاول تلافيها حتى تنجح علاقاتي المستقبلية، اتسعت ابتسامتها كبلهاء نموذجية وهتفت بمرح: «برافو»، كتمت الشخرة وأنا أخطف منديلًا ورقيًّا من أمامها وأفتعل أني أتمخط فيه وأقول لها: «باردون».. تأملتني بدهشة ثم قالت:

«وقدرتـي يا ريم تعرفي أخطائك من وجهة نظـر الآخر وتقتنعي بأنها أخطاء فعلا مش افتراءات منه يبرر بيها فشل العلاقة الزوجية؟».. قلت لأكيدها رغبة مني في إنهاء هذه الجلسـة التعسـة: «يا دكتور ميرهام. أنا ما سـألتش طليقي السابق بس.. أنا سألت كل اللي ارتبطت بيهم قبل جوازي بعلي وبعد طلاقي منـه وقبـل ارتباطي الأخير بأحمد»، كانت فقط ترسـل لي بنظرات مندهشـة وكنـت أنتظر أن تسـألني عن عددهم أو صفاتهم لكنها لم تفعل، اسـتطردت في النيل منها: «هما في المجمل حوالي عشـرة.. اللي قدرت أفتكرهم.. لما رجعت أسـألهم لقيـت أربعة منهم ماتوا.. وواحد شـتمني ورفـض يرد عليا وواحـد هاجر الأربعة اللي باقيين ردوا علـيّ.. بس المحصلة في النهاية.. إن المميـزات اللي عنـدي من وجهة نظر بعضهم هي عيـوب من وجهة نظر التانيين والعكس صحيح.. وبقيت مش عارفة راسـي من رجلي.. تفتكري يا دكتورة أتعامل مع صنف الرجالة دول إزاي؟»..

كنـت مبسـوطة باضطراب المـاوس في يدهـا وبأنه قد ركبهـا العصبي.. وعندما أظلم وجهها بعدما أغلقت اللاب فلتت مني ابتسـامة ثم وقفت أسلم علـى يدها الممتـدة أمامي وأنا بالكاد أسـمع صوتهـا الهامس: «مـدام ريم.. الجلسة انتهت وأنا شايفة إنك مش محتاجة جلسات تاني شرفتينا»..

قابلتني «استيلا» بضحكـة صاخبة لم تنجح ضجـة المطعم في إخفائها وقالـت لي: «يا مفترية.. Dix Amoureux.. عشر حبيبة غير اللي ناسياهـم.. دلوقتـي البنـت تقـول إيه عن أمها اللي ليـل ونهار بتقعد عندي.. هو عشـان اتضايقتي من الجلسـة ترمي في وشـها قنبلة»، علقت بابتسامة: «هي لحقت تقولك وأنا سيباها من ربع ساعة»، سحبتني «استيلا» إلى مكتبها وهي تقول:

«دي قالتلي على كل الجلسة وانتي لسه ماركبتيش الأسانسير».. ثم بداخل المكتب أخبرتني بأنها دعت «أحمد» إلى افتتاح الفرع الجديد، لكنها لم تستطع دعوته إلى حفل الزفاف بالنادي السويسري «لأن ده هيبان أوفر قوي لأنه مايعرفش العروسة وهيحس إني جيباه مخصوص عشان تتصالحوا.. افتتاح الفرع الجديد مناسبة كويسة وتبان طبيعي جدًّا إني بأدعوه بغض النظر عن إنكم متخاصمين أو متصالحين.. لأننا أصدقاء»..

قلت لها بتحدٍّ: «بس أحمد مش هييجي.. ولما تعاتبيه بعدها هيتحجج بأي حاجة»..

قالت بثقة: «لا هييجي.. إيه يعني حدفتيه بكوباية بعد ما استفزك.. إنتي عملتي فيه أكتر من كده.. ومازعلش»..

كنت قد قررت قرارًا وأعلنته: استيلا.. بعد ما نخلص من موضوع الفرح بكرة.. أنا هاروحله تاني يوم وأصالحه غصب عنه»..

ضحكت «استيلا» وهي تهز رأسها: «برافو»..

تذكرت الطبيبة البلهاء التي لم تكف عن قول: «برافو».. فضحكت بشدة واتسعت دهشة «استيلا».

جيهان العرابي

تحملت جهدًا غير طبيعي كي أفاجئ «الوشاحي» وأزوره في ورشته، وكان «كريم فرنسيس» قد أعطاني عنوان منزله بمدينة نصر الذي نقل إليه ورشته لظروفه المرضية.

جلست على صالون عتيق في انتظار أن تبلغه السيدة التي استقبلتني بحضوري، أتاني صوته من الداخل وهو ينطق اسمي بقوة لكن من حنجرة مبحوحة، ثم بدأت دقات عصاه تقترب، وقفت تأهبا لاختصار المسافة ولأطلب منه المكوث مكانه حتى آتيه بنفسي لكني ترددت، هلت طلعته المصحوبة بصوت يصر على أن يظهر قويا كالسابق ولم أتمكن من التفرس في ملامحه لأني فوجئت بيده الحرة من العصا تدفع يد السيدة التي كانت تهم بمساعدته على تخطي الدرجة الوحيدة التي تفصل الرسيبشن عن الغرف الداخلية، ثم مد يده بحماسة وهو يطلق عبارات مثل: «أخيرًا يا ندلة.. ده أنا قلت مش هنتقابل تاني»، تجنبت يده الممتدة فطرفت عيناه ثم بوغت وأنا أشب على كعبي وأقبله على وجنتيه، رفع رأسه الذي كان قد انحنى بسرعة لتلقي قبلاتي ونظر لي بامتنان ثم طلب من السيدة أن تحضر لنا عصير برتقال..

دخلت في موضوع الفيلم مباشرة وطلبت منه أن يعطيني بعض الصور والبروشورات الخاصة بمعارضه ومنحوتاته سواء في مصر أو الخارج وكل

مـا كتـب عنه باللغـات الحية، ورغـم أنـه كان يجلس بصعوبة وأكاد أسـمع صـدى أنفاسـه وهـي تصطـدم بأعضائـه الحيويـة، إلا أنه نهض ولـم يختل توازنـه واقتـرب منـي محاولا جـذب يدي لكـي يريني بعض الإسكتشـات والمنحوتـات بالداخـل، ابتسـمت رافضة ومعللـة ذلك بأنه سـيكون هناك معاينة تفصيلية عندما نحدد الشـكل النهائي للإسـكربت، جلس مرة أخرى وعلى وجهه عدم الاقتناع بكلامي وكنت في الوقت ذاته مسـكونة بإعجاب خفي بهذه الروح الوثابة التي رغم ما تعانيه من آثار مرض قاسٍ لا تمكنه من هزيمتها بسـهولة، وأتعجب بنفس المقدار من «تميـم» الذي تمكنت روحه المنهزمـة من إيقاف كل أعضائه الحيوية رغم سـلامتها التامة من أي مرض عضوي!

ثـم سـألني «الوشـاحي» عن مقترحـي لمن سـيخرج الفيلـم فذكرت له صديقي «إبراهيم» وقلت إنه مجتهد ودءوب، قال إنه رغم ثقته في اختياراتي لكنه يفضل أن الذي يخرج فيلمه يكون من المخرجين المشهورين المحبين للفن التشـكيلي مثل «داود عبد السـيد» أو «محمد خان» أو «خيري بشـارة» وذكـر الفيلـم الذي أخرجه «خيري بشـارة» في أول حياتـه الفنية عن المثال الكبير «عبد البديع عبد الحي» وكان يتذكر بعض تفاصيله ويصفها لي لكني لم أعلق بسـبب عـدم رؤيتي لذلك الفيلم، وعندما انتهى أخبرته بأني لسـت علـى معرفة شـخصية بـأي من هـؤلاء المخرجيـن وطلبت منه إرجـاء هذا الموضوع حتى نجد أولا جهة الإنتاج المتحمسـة وبناء عليه يمكننا مخاطبة أحدهـم، قال إنهم أصدقاؤه وسـيجعلني أقابلهم وأتكلـم معهم عن الفيلم، ولأني لا أحب هذه الطريقة وهي أن الشخص موضوع الفيلم يتصور أنه كل

شيء في الفيلم ويظل يقترح من يكتب فيلمه ومن يخرجه ومن يصوره ومن يضع موسيقاه التصويريه، بان على وجهي الضيق ففهم «الوشاحي» وقال لي ضاحكا: «خلاص يا جيهان أنا سايب نفسي.. وأنا أضمنك برقبتي.. سيري على بركة الله».. قالها بطريقة الصور الغنائية في الإذاعة قديما، فضحكت وفي أثناء ذلك كلف السيدة بجمع بعض المواد الورقية مثل صور أعماله وسيرته الذاتية وبعض ما كتب عنه وطلب منها أن تضع كل ذلك في دوسيه وتعطيه لي.

وبعد أن انصرفت السيدة، عاد مرة أخرى يتكلم كالحالم عن تصوره لبعض مشاهده، سكت ولم أنطق وتركته يتخيل ما يريد، انتبه بعد فترة لصمتي فعلق بذكاء: «إنتي طبعا كنتي بتقولي في نفسك إيه الراجل ده اللي عمال يتدخل في حاجات مش شغله.. عندك حق والله.. أنا بس باحاول أقول حاجات يمكن تلهمك»، ابتسمت وقلت له إن الأفضل أن يوفر ذلك إلى حين يجالسه كاتب السيناريو، قال إنه كان يفضل أن أكتب أنا سيناريو الفيلم بالإضافة إلى التصوير، سكت تمامًا فأضاف ساخرًا: «خلاص يا جيهان أنا مش هادَّخَّل تاني بس عشان خاطري مش عايزه زي الأفلام اللي بيعملها التلفزيون للفنانين التشكيليين ومافيش فيها غير كاميرا زووم على اللوحة أو التمثال ومعلق حربي بيعلق على اللقطات ويقول: «وها هو الفنان يستخدم اللون الأحمر القاني لون الدم والشفق.. وكلام زبالة كتير زي ده».. شاركته الضحك وأنا أعده بأن يعلق على الفيلم صوت نسائي مميز وألا أستخدم عدسة الزووم إلا فيما ندر.

عـدت إلـى البيـت بعد أن اشـتد حر الشـمس ولـم ألحـق بموعدي مع «إبراهيم» و«فريد» لتأخري بسـبب «الوشـاحي»، الذي لم أكن أعلم أنه غير عنوانـه ولأنـي بقيت عنده أكثر ممـا قدرت، وكنت قد اتصلـت بـ«إبراهيم» وطلبت إرجاء الموعد إلى المسـاء فقال إنه سـيتواجد بمقهى القصر العيني السـاعة الرابعة ومعه «فريد» لأن لديهما مواعيد متلاحقة وأنهما سـينتظران حضوري..

تحممت وتناولت بعض الطعام ثم رقدت قليلا وأفقت على ما يشبه رؤيا أو حلمًـا لم أتذكر تفاصيله، لكن المدهش فيه أني كنت أصور «الوشـاحي» وهو يشرح رؤيته لأحد تماثيله وكنت مندمجة تمامًا مع ما يقوله «الوشاحي» بينمـا المخرج يصـرخ في «الإيربيـس» بأن أكتفـي بهذا القدر مـن التصوير وأقطـع على «الوشـاحي»، وعندما زاد صيـاح المخرج التفـتُّ إليه بغضب وعينـي متنمرة فانكمش جدًّا ولم يقدر علـى مواجهتي بعينيه.. المدهش أن هذا المخرج كان «تميم».

لم يشـغلني هـذا الحلم كثيـرًا وأبعدته عـن ذهني كأنه من المسـلمات، ثـم تذكـرت أن «بسـمة» لم تتصل بـي منذ مكالمتـي مع أمهـا، وكنت أدرك أنهـا فـي قمة الغيظ ولا أسـتبعد أنها تكـون قد عملت لي «بلـوك في الفيس بـوك» فهي موتـورة، وضحكت من هـذا التصور.. ثم انتابنـي بعض الضيق لفكـرة أن تجعلنـي جسـرًا تمـر عليـه إلـى رغباتهـا، وعملـت «Search» علـى المؤتمـر الدولـي لإدارة معلومات الأعمـال الذي سـينعقد في مدينة «روسـبتوك» بوسـط ألمانيا، ووجدت أن مدة المؤتمر أربعـة أيام وتعجبت مـن أن «خيـري» أبلغهـا بـأن وجـوده هناك لمدة شـهر، ثـم انتبهـت إلى أن

«خيري» حججه لا تنضب و«بسمة» على استعداد لتصديقه ولو قال لها إن «هتلر» ما زال حيا وإنه ذاهب لمقابلته هناك، هي حرة في روحها لكني لن أنساق وراءها حتى تحت أي مقولة كبرى مثل «إنتي صديقتي الوحيدة.. إنتي أختي التي لم تنجبها أمي»، ثم ظهر طيف «رنا» فجأة وهي تحدثني مرة عن جنون «بسمة»، قبل أن يتفقا ويصبحا كالحلة وغطاها، وأن «بسمة» كلما رأت فتاة جديدة تعلق على كتابات «خيري» لا تهمد حتى تتعرف عليها ثم تصطحبها معها في أثناء لقائها بـ«خيري»، دون أن تخبر «خيري» قطعا، ثم تركز على تفاصيل اللقاء منذ أول لحظة منه هل بان على أي منهما أنهما كانا يعرفان بعضهما من قبل؟ هل اهتم «خيري» بشكلها وملبسها أو بتعليقاتها أم استاء من وجودها؟ وهكذا، وعند نهاية اللقاء تبدو «بسمة» في قمة السعادة لعدم اهتمام «خيري» بالفتاة، علقت «رنا» أثناء تواجدي معها بأن «بسمة» تبدو كمن تجمع الدجاجات لديك البرابر وأنه في يوم ما ستعجبه إحداهن ويطير بها بعيدًا.

دفعني فضولي لفتح الفيس بوك ومعرفة إن كانت «بسمة» قد «دلتتني أو بلكتني». لكني وجدت صورتها بالفوتوشوب ما تزال بين قائمة أصدقائي، أكملت الاستطلاع وتفحصت صفحتها، ووجدتها قد نشرت صورة لشخص رياضي تبرز عضلاته من كل أجزائه وكان هناك تعليق أعلى الصورة يقول: «إن كوبًا واحدًا من الماء، ينظف الجسد من السموم».. صورة عادية من الصور التي تنشرها منظمة الصحة العالمية، أعادت «بسمة» نشرها لكي تكتب تحتها تعليقها الخاص وهو: «فيه ناس عايزين مية نار عشان ينضفوا».. طبعا استفزني تعليقها وأضحكني

لأنـي أحسسـت أنهـا تقصدنـي أنـا.. وتعجبـت أنهـا لـم تعمـل لـي TAG أو MENTION.. وتوعدتها في سري بأن أريها ما لم تره من قبل.

ذهبت إليهما في المقهى بعد السـاعة السـابعة حتى يكونا قد تخلصا من «المـزز» التي يوهمانهن بالتمثيل أو العمـل بالإعلانات، لكني وجدتهما ما زالا جالسـين مع بعضهـن، وبمجرد أن سـلمت عليهما من بعيد وجلسـت فـي الركن المقابل صرفا البنـات على الفور واتجها ناحيتي بابتسـامة كاملة الاسـتدارة. وقبل أن أفتح دوسيه «الوشـاحي» عرضت عليهما الانتقال إلى أحـد الفنادق القريبة لكنهمـا رفضا فأدركت أن لديهمـا مواعيد أخرى على المقهى ذاته.

عنـد توغلـي في موضوع الفيلـم توصلت إلى أن لا فائـدة ترجى منهما، وكنت قد فرشـت بعض صور منحوتات «الوشاحي» أمامهما على المنضدة ومنهـا التمثـال المعنـون بالقفزة المسـتحيلة من النحـاس المطروق وصور بعـض تماثيل البوليسـتر (استشـراف وإنسـان القرن 21 وشـهيد دنشـواي) وتمثال «البرد» من خامة الخشـب والذي كنت مفتونة به جدًّا وكان يشعرني بالبـرد كلمـا نظرت إليه حتى لو كنا في أغسـطس، كانا يقلبـان النظر فيها بلا أحاسـيس كأنهما ينظران إلى ورق الكوتشـينة دون لعـب، وصدرت عنهما بعض تعبيرات عبيطة عن صور تمثال «السنباطي» و«طه حسين» باعتبارهما أكثر شهرة من الأفكار المجردة مثل تمثال القفزة المستحيلة، صبرت عليهما ولم أطوِ الأوراق وأنسـحب واسـتمعت بملل إلى «إبراهيم» وهو يدعي أنه متحمـس لإخراج الفيلـم رغم صعوبة موضوعه لأنه ليـس هناك قصة مثيرة في حياة «الوشـاحي» ممكـن الارتكاز عليها، كما أضـاف أن المهمة صعبة

أمامي لأني سأصور إسكتشات 2D وسأنقل تماثيل مجسمة 3D إلى شاشة 2D، أسكته بحدة وأنا أعيد تذكيره بأن «تميم» علمني كيف أقيم العلاقات بين المساحات المسطحة والأجزاء النافرة والبارزة، «فريد» قال إن الموضوع متميز لكن علينا قدر كبير من العمل لإقناع بعض رجال الأعمال من محبي اقتناء الأعمال الفنية بدعم الفيلم، زادت حدتي معهما وأخبرتهما بأني و«الوشاحي» لن نعتمد في إنتاج هذا الفيلم على رجال الأعمال أو أي مؤسسات تمويل خارجية، بان على وجهيهما الإحباط وقررت في تلك اللحظة استبعادهما من الفيلم، ويبدو أن هذه كانت رغبتهما لأن «إبراهيم» أخبرني بأنه لن يكون قادرًا على إنجاز فيلم جيد لفنان كبير من خلال الميزانيات الضعيفة التي تعتمدها المؤسسات الحكومية مثل التلفزيون والمركز القومي للسينما التسجيلية، وأضاف «فريد» بأنه لن يتحمس أحد للفيلم حتى في هذه الأماكن إلا بعد كتابة تصور تفصيلي أو Script للفيلم، وأن هذا سيكلف مالًا لأنه يستلزم كتابة احترافية، أخبرتهما بأني سأكلم «خيري بشارة» ليتعاون معي، وعقب دهشة صغيرة سكت الاثنان.

أردت التنكيد عليهما قبل مغادرتي للمقهى فلمتهما ووبختهما على اللايكات التي يدلقانها على كل ما تصوره «ريتاج»، تبادلا النظر بتعجب ثم ارتخت عيونهما وأخيرًا قال كل منهما ما قالته «بسمة» من قبل: «بنشجعها.. أصلها بنت أخوكي..»، وأضاف «فريد» أنه لاحظ أن زميلاتها في المدرسة أحيانا يسخرن من صورها فأراد أن يدعمها، وبخته بسخرية وأنا أقول له إن زميلاتها الصغيرات يفهمن في التصوير أكثر منكما. وكنت قد استشعرت من نظرتهما المتبادلة أنهما يخفيان شيئًا، حدقت فيهما وطلبت بحدة أن

يطلعاني على ما يخفيانه، استسلم «إبراهيم» بسرعة وقال دون أن يتلقى نظرة دعم من «فريد» إن «ريتاج» أرسلت لهما رسائل على الخاص تطلب منهما أن يرشحا لها بعض الكتب الفنية التي تساعدها على اجتياز امتحان القبول في معهد السينما، فاض الكيل وصرخت فيهما دون مراعاة لمن يجاورني من رواد المقهى: «انتوا مجانين بنت لسه هتدخل أولى ثانوي تطلب منكم الطلب ده وماتفهمهاش إن ده غلط لأنه فوق سنها»، تدخل «فريد» وأخبرني بأنهما قالا لها ذلك لكنها ظلت تلح فذكرا لها بعض الكتب التي سارعت بتحميلها من المواقع المجانية، أعلنت لهما بغضب مكتوم انتهاء المناقشة فتأثرا، ثم قال «إبراهيم» إنه سيعمل لها HIDE ولن يرد عليها بعد ذلك وأمن «فريد» على كلامه ثم سألني هل يعمل لها بلوك؟ فرفضت حتى لا تتصور «ريتاج» الداخلة على عالم المراهقة بسرعة أني أحاربها خوفا من المنافسة ثم جاءتني رسالة من «أحمد الضوي» بها كلمة واحدة: «إنتي فين دلوقتي؟».. الغريب أني رددت عليها بسرعة برسالة تخبره بأني في المقهى، والأغرب أنه لم يضايقني السؤال المستفز الذي اكتفى به في رسالته.. والمدهش أن هذه الرسالة خلصتني من شحنة الغضب الناتجة من حواري المستفز مع التوءمين الملتصقين وغيرت مزاجي قليلا إلى الأفضل.

لكني بعند قررت ألا أبقى إلا نصف ساعة فقط سواء لحقني أو لم يلحقني، وقد مرت نصف الساعة بسرعة والتوءمان يحاولان إدخال البهجة على قلبي بمجموعة من «النكت» المتحفظة الجديدة، ثم ضبطت منبه المحمول على ربع ساعة إضافية، حضر «أحمد» بعد انتهائها بخمس دقائق،

وبمجـرد أن ظهر تهيأ «فريد» و«إبراهيم» للانصراف ولـم أطلب منهما البقاء فغادرا فور السلام على «أحمد».

أعتقد أني في ذلك المســاء فقدت بعض الألجمة التي كنت أسـتخدمها مع الأغيار، لأني تحدثت معه بكل صراحة عن مشـاكل «رنا» وطبيعة اللقاء مع طليقها ومخاوفي منه عليها وأخبرته عرضا بأني صرفت النظر عن السفر إلى السـعودية وقررت البقاء في مصر لأن هناك مشـروعا كان «تميم» يتمنى أن ينجـزه ولـم يتم لوفاتـه وقد قررت أن أتمه نيابة عنه. كنت معروفة وسـط زملائـي بالصدق ولم أكن أكذب إلا فيما نـدر وكان كذبًا أبيض فقط، لكني اكتشـفت في هذه اللحظة بالذات أن كذبـي الأبيض زاد كثيرًا في وجود هذا الغامض المبهم.

أحمد الضوي

نزلت من التاكسي في نهاية شارع التحرير عند صيدلية شهيرة كي أشتري بعض مستلزمات الحلاقة والكريمات، ثم خرجت في اتجاه البيت، وأنا على مقربة منه لمحت ضوء شرفتي مضاءً ومؤخرة جمجمة «ريم» بالشعر الأسود الوافر في وضع الجلوس، فزعت جدًّا وهرولت ناحية المدخل وأنا ألعن جنونها وأتصورها وهي جالسة بملابس لا تستر عريها في الشرفة أمام كل الأنظار، وارتعبت أكثر لاحتمال جلوسها عارية تمامًا إمعانًا في كيدي وإغاظتي، وحرت فيما سأفعله معها، لو أنبتها بصوت عالٍ سترد لي الكيل كيلين وتزعق بأعلى صوتها حتى ينتبه الجيران، ولو خاطبتها بهدوء وطلبت منها الخروج من البلكون متسللة لكي ترتدي ما يسترها ستسبني وتعود لها ذاكرتها السينمائية كالعادة وتقول لي: «جرى إيه يا أحمد؟ مالك متقمص فيلم باب الحديد وناقص تقولي: هجوزك هنومة».

بدون رن على الجرس أو دق على الباب فتحت ودخلت.. وكانت كل أنوار الشقة مطفأة عدا البلكون، وظلت في وضع الثبات لم تحرك حتى رأسها لتعرف مصدر الضجة التي صاحبت دخولي، كان ضوء البلكون يلقي على وجهها بظلال ذهبية وسط إظلامين من الداخل والخارج وزادني ذلك رهبة منها.. وكلما اقتربت ملأني التوجس، كنت على يقين بأن صوت

خطواتي المرتبكة وصلها بقوة، لكنها لم تهتم بالالتفات.. وعندما وصلت إلى عتبة البلكون رأيتها بأوضح ما يكون وبأكثر الأزياء دهشة وحشمة، كانت ترتدي فستانًا أسود مخمليًّا يطول الكعبين وعليه جاكيت خريفي فاحم ومطرز بخطوط حريرية فضية عند الإسورتين والرقبة.

لفت رقبتها تجاهي بإيقاع أفلام الرعب وبفم عليه ظل ابتسامة قالت: «مساء الخير يا أحمد أنا آسفة إني جيت من غير ميعاد».. ثم بتهدج طفيف: «أنا كنت محتاجاك قوي»، قبلت وجنتيها وأنا أخبرها بسعادتي لوجودها ثم جلست قبالتها، وأنا أفكر في موعد «عماد» الذي اقترب وكيف سأتخلص منه؟ اعتذرت مرة ثانية لأنها أضاءت نور البلكون وقالت إنها في البداية جلست في الظلام حتى لا يميزها الجيران لكن بعض الخفافيش مرقت بجوار البلكون مع صياح كروان بصوت حاد، وقد أزعجها ذلك وخشيت أن خفاشًا ما يكون قد ولد بعيب خلقي وفقد بوصلته فيصطدم بوجهها لذا انسحبت وجلست دقائق في الرسيبشن، لكن لم تتحمل فعادت وقررت إضاءة البلكون، مددت كفي واحتضنت كفها وأنا أعيد إخبارها بأن هذا لم يزعجني ، زادت ابتسامتها ثم طلبت مني أن أقترب، وتحسست وجهي ورأسي بدقة (كأنها تفليها من القمل) وفي ذروة اندهاشي سألتني بهمس وإشفاق عما إذا كانت تسببت في أي جروح بجسدي عندما قذفتني بالكوب، أومأت برأسي نافيا، طلبت مني برجاء ألا أكذب، فقلت بتأكيد إنه لم يحدث لي شيء، نهضت وقبلت جبيني وهي تهمس: «الحمد لله يا حبيبي»، ثم استغرقت في تفكير قالت في أعقابه كلاما كأنه موجه لي ولآخرين يشاركوننا الشرفة: «غريبة قوي أمال أنا ليه مش عارفة أنام من ساعتها وباصحى على كوابيس إني جرحتك جامد وما فيش حتة في

جسمك مش مغطيها الدم»، قلت لها بمزاح وأنا أريها باطن العقلة الأولى من سبابتي: «اتجرحت بس جرح قد خرم الدبوس هنا في صباعي وأنا بألم القزاز المكسور»، قربت باطن سبابتي من عينيها وكانت الندبة قد اختفت، لكنها لم تعلق وإنما قبلت هذا الموضع أكثر من مرة وهي تحمد الله على سلامتي وتسب نفسها لأنها تسببت بجرحي.. ثم همت بأن تعلل لي أسباب ما حدث، فطلبت منها التمهل حتى أعود بزجاجة الويسكي من الداخل وكنت قد قررت أن أرسل رسالة اعتذار إلى «عماد» عن الذهاب إلى نادي رجال الأعمال، لكنها فاجأتني تمامًا بعدم رغبتها في الشراب وبطلبها ألا أشرب أنا أيضًا إلا بعد أن تغادر لأنها مرتبطة بموعد مع «استيلا»، كنت قد تعرضت إلى جديتها المخيفة مرة أو مرتين من قبل، وأذكر القلق الذي صاحبني طويلا بعد جديتها السابقة، الآن وبالألوان الداكنة التي تستتر خلفها والإظلام الذي يحيط بنا امتلأت بالهواجس، ثم اعتذرت كثيرا عما فعلته وذكرت لي أن لديها هاجسًا من الموت كأغلبنا، لكنه يتضخم ويتوحش في مدد معينة بتأثيرات غامضة أو بمؤثرات استشرافية، وقد استشارت أطباء في هذه الهواجس وتعددت آراؤهم ووسائل علاجهم بلا فائدة، وإن اتفقوا على أن حادثة انتحار الشاب العربي في الفندق التي تكاد تكون شاهدتها عن قرب هي سبب كل تلك المصائب، ثم أخبرتني بأنها التقت عرافة مغربية في باريس أثناء إحدى سفرياتها مع العائلة وأن هذه العرافة أخبرتها بأشياء في ماضيها كانت قد نسيتها وذكرتها لها بالتفصيل، وكلمتها عن إخفاقات مستقبلية وقد حدث بعضها لكن المخيف أنها أخبرتها بأنها ستتورط في النهاية في دم كثيف.. لكنها لم تستطع تحديد إن كانت ستكون الضحية أم الجلاد.. والمخيف أكثر أنها ذكرت لها علامات

نهايتهـا وهـي بتمـام رؤيتها أو رؤية أصدقاء حميمين لها لسـبع شـخصيات تماثلهـا بالضبـط، وطلبت منهـا ألا تذكر ذلك لأحد، وقد رأت بنفسـها بعد تلـك المقابلة مع العرافة ثلاث شـخصيات تماثلها بالضبـط كأنها تنظر إلى نفسـها في المرآة، إحداهما في القاهرة والاثنتان الأخريان في الخليج. وقد بلغ بها التهور أنها في المرة الثالثة أصرت على الحديث مع شبيهتها وكانت إسـبانية واندهشـت في البداية من هذا التماثل ثم تحـول الأمر إلى كوميديا سـوداء سخيفة عندما ظنت أن «ريم» سحاقية.. المرة الرابعة كانت في شرم الشـيخ و«اسـتيلا» لفتـت نظرها إلـى هذا التشـابه: «وللآن لم تعرف سـبب ثورتي عليها وقراري بالمغادرة الفورية المصحوب بعدم الرغبة في الذهاب إلى شرم الشيخ مرة أخرى.. ولا زالت استيلا تعتقد أنني ثرت بسبب الغيرة أو لظنـي بأنه لا يوجد من يشـبهني»، ثم ربتت «ريم» خدي وقالت بمسـكنة إنـي رحـت ضحية حسـن نيتي وأنـا أخبرها برؤيتـي للفتاة التي تشـبهها في الفندق وأعدد في مزايا الحسن في كليهما.. ولـم تدرِ بشيء إلا وهي تقذفني بما في يدها.. ثم أضافت بدهشـة أن هذه المرة كانت أقل المرات من حيث رد الفعـل رغم أن الخطر بـات يلوح مقتربًا جدًّا.. لم يتبقَّ إلا أن ترى هي أو أحد أصدقائها شـبيهتين متماثلتين لها ولحظتها ستغادر هذه الحياة وتتركها للشبيهات المسوخ.

ضحكـت بحسـاب حتـى لا أسـتفزها ولا أسـخر منهـا إنمـا لأطمئنهـا وأطرد عن دماغهـا هذه الخزعبلات، وقلت كلامًا كثيرًا وحكيت عن بعض مقالـب الدجالات، لكنها كانـت تنظر تجاهي بعين لامعة كعدسـة زجاجية وبشـبح ابتسـامة تتهمني بالجهل والسـذاجة، ثـم أوقفتني وهـي تبلغني بأن هـذه هـي معتقداتهـا وقد بنتهـا بناءً على حقائـق وأنا حر فـي آرائي عن هذه

المعتقـدات، وأضافـت أنها أخبرتنـي بهذه الحكاية ليس لمجـرد أن تبرر
حـدث وأغضبني فقـد كانت بسـهولة تسـتطيع مصالحتـي دون أن تخبرنا
بالسـبب ولكنهـا أخبرتنـي به لكي تفسـد هـذا المصيـر المعلق فـي رقبتها،
فقـد حذرتهـا العرافـة مـن أن تخبـر بـه أحـدًا دون أن تذكـر السـبب، وأنها
تذكرت المعتقد الشـعبي الذي درسـته في معهد الفنون المسرحية أن العامة
لا يخبـرون أحدًا بأحلامهـم الجيدة حتى تتحقق وما إن يـروا حلمًا ثقيلًا أو
كابوسا يسـارعون بإفشائه حتى يفسد، لذا تبعتهم وأخبرتني حتى تتحرر من
هذا المصير، ثم غامت عيني «ريم» وهي تضيف بأسى أنه ربما تكون العرافة
قد حذرتها من إخبار أحد حتى تأخذ فرصها الكاملة في الحياة، وتسمع عن
أو ترى مثيلاتها السبع وربما اللعنة المعلقة على رقبتها أن نهايتها تحدث عند
إبلاغ الآخرين بهذا الأمر سواء ثلاث مثيلات أو أربع أو خمس.. احتضنتها
كـي أهدئها لكنهـا كانت جامدة جـدًّا وأبعدتني برفق بعد فتـرة قصيرة وهي
تضحك ضحكة كبيرة ساخرة.

عـدت إليها بالنسـكافيه البلاك الذي طلبته فوجدتها لاتزال لديها شـهية
للـكلام لأني بمجـرد جلوسـي أخبرتني بأمر أكثر إثارة.. سـألتني بابتسـامة
واسـتعلاء لمـاذا لـم أعد أسـألها عن البيت الذي تنوي شـراءه أو اسـتئجاره
والذي يسـعى لها فيه «إمبابي»، أخبرتها بأني أنتظر في كل لحظة خبرًا سـارًّا
منهـا بأنهـا وجدت البيت الـذي يصلـح أكاديمية، علت ضحكتها بسـخرية
فجـة وهي تقـول: «أحمد إنت زيك زي الآخرين في قرارة نفسـك إني مش
هالقى البيت ده وإن مافيش مشروع من أساسه»، هممت بالكلام فقاطعتني:
«أرجـوك مش عايزة أتكلم فـي الموضوع ده عايزة أتكلـم في موضوع تاني
كان سـبب برضـه في تغير حالتـي قبل ما اجيلك المرة اللـي فاتت»، أنصت

باهتمام، فاستطردت: «إمبابي ده سمسار صغير قوي من منازلهم.. يعني لا عنده مكتب ولا سكرتارية ولا كمبيوتر.. مرة وأنا مع استيلا في مشوار في حي الزيتون لقيناه قاعد على كرسي خشب حقير جنب المنادي، كان قاعد وحاطط جنبه يافتة مكتوبة بخط معفن إنه سمسار.. بعد ما مشينا خطوتين في اتجاه المكان اللي رايحينه لقيت نفسي مشدودة إني أبص عليه تاني.. مش هتصدقني يا أحمد.. لقيته لسه قاعد على نفس الكرسي والمنادي جنبه وبنت صغيرة بتعمل شاي واقفة معاهم بتصب الشاي. كانت البنت والمنادي والعربيات وواجهات المحلات اللي وراهم كلها بالألوان الطبيعية.. إمبابي بس كان بالأبيض والأسود.. اتفزعت جدًّا ولما بصيت تاني لقيته اتلون زيهم بالألوان الطبيعية، من اللحظة دي بقى السمسمار بتاعي.. سمسار من عوالمي.. وماكنتش بخاف منه بالعكس كنت باحس إنه في لحظة حيديني إشارة.. على فكرة ده مش خبل ولا جنون.. ارتبكت بس لحظة بسيطة لما كنا عنده في البيت من الأصوات العالية والريح اللي كانت بتهاجمنا وتحس إن مافيش مصادر جاية منها.. ومن مراته وقلقها مننا ومن جريهم المفاجئ عشان يخبوا الطيور اللي كانت بتستنجد بجد.. إنت كمان كنت خايف وعايز تخرج من المكان ده بأي طريقة.. أنا مريت على إمبابي قريب وملقتوش في مكانه.. وماجرؤتش أروح بيته.. لكني سألت المنادي عنه ودفعتله كويس لحد ما قالي على شغلة إمبابي الحقيقية.. تعرف يا أحمد إيه هي الشغلة دي؟ رئيس العمال بداخل مشرحة زينهم.. واشتغل فيها وعمره 10 سنين لحد لحظتنا دي.. هتقولي وإيه يعني ما هي مهنة زي كل المهن! أيوه بس فيه ناس المهن هي اللي بتختارهم مش هما اللي بيختاروها.. والمختارين دول المهن دي بتديهم منح أو لمسات

سحرية.. يعني إمبابي ده مثلا، والكلام ده عرفته من صاحبه المنادي، لما بيعدي بالقرب من أماكن فيها طيور وحيوانات داجنة.. الصغير منها بيموت فورًا والكبير يا إما بيجيله عقم يا تجيله حالة سعار تخليه يفضل ينقر في زمايله لما يخلص عليهم.. عشان كده إمبابي ممنوع يعدي من شارعين في حي الزيتون عشان فيهم محلات طيور اكتشفوا سحره، وفي البيت زي ما شفت أنا وانت.. مراته وعياله بيجروا يخبوا أقفاص الطيور»..

ثم سكتت «ريم» برهة وهي تتأملني لترى تأثير ما قالته وبعدها أكملت. «لما عرفت ده حسيت إن إمبابي بذات نفسه إشارة وإني خلاص قربت من العالم التاني.. وعلى فكرة بعد العملة اللي عملتها معاك وبعد ما قعدت لوحدي أراجع اللي بيحصل قلت لنفسي مش فارقه.. ماحدش بيعرف الزمن اللي فاضله ويمكن يكون تقديره هناك أكثر من تقديره هنا أو العكس وتلاقيني قاعدة على أنفاسك لأكبر وقت ممكن».

ثم ضحكت «ريم» ضحكة كبيرة عقب ما قالته، واضطررت لأن أجاريها، ولم أجد ما أعلق به على كلامها غير تأمل شاشة المحمول لعل «عماد» أرسل لي SMS لم أنتبه لها، سألتني ببسمة: «مستني مكالمة مهمة؟»، ابتسمت أيضا وأنا أجيب: «أيوه مهمة جدًّا.. من عماد أصله مصمم إنه يوريني نادي العاصمة ويعزمني هناك الليلة دي»، قالت باستخفاف: «النادي اللي في جاردن سيتي على فكرة مش لطيف.. وأغلبه رجالة خارجين من باترونات التمانينات وستات نصهم سيلكون مغشوش»، همست لها: «تيجي معانا؟»، زمت فمها باعتراض واضح وهي تقول: «روح انت وعماد بتاعك ده.. واقضي السهرة بتتفرج عليه وهو فاتح بقه على الكومبارسات وبتوع التوك شو ونفسه حد منهم يعبره ويسلم عليه».. ثم أضافت بحسم:

«وانت طبعا هتجيب عماد معاك في افتتاح محل استيلا بس يا ريت مايجبش معاه حد من النسوان الـ FAKE اللي بيحب يصاحبهم»..

قلت لها موضحا: «أنا كنت هاجيب عماد معايا عشان احنا كنا متخاصمين.. لكن دلوقت هاعتذرله عشان نبقى براحتنا».

قالت باعتراض: «لا طبعا تجيبه مدام دعيته أنا أصلا هاكون مشغولة مع استيلا وهارقص كل الرقصات مش هاستنى لما سيادتك تتعطف وترقص معايا مرة واحدة.. خليه معاك وهابقى أقعد معاكم من فترة للتانية.. وكمان نسيت أقولك طليقي في مصر دلوقت وحاليا معاه ملك في الساحل ويمكن يرجع في أي وقت ويلحق الافتتاح»، قلت بدهشة: «وإيه يعني.. فيها حاجة لما يلاقينا قاعدين مع بعض..؟».

قالت بدهشة: «طبعا ما فيهاش حاجة.. أنا بس مش عايزة ملك تنتهز الفرصة وتغلس عليك إنت وعماد»، تذكرت أنني لم أدعها للبقاء طالما هي وحيدة فطلبت منها ذلك فقالت: «لا النهارده أنا مش في المود.. ولازم أرجع لاستيلا عشان نرتب إزاي هنروح الفرح بكرة»..

استعدت للانصراف فتأملتها ثم قلت بابتسامة: «على فكرة حلو قوي الـ Dress المحتشم اللي لبساه ده.. طالما عندك حاجات زي دي مابتخرجيش بيها معايا ليه؟».

تأملتني لحظات ثم جذبت حقيبتها وقالت ساخرة: «لا عندي وباخرج بيها لما باروح حفلات المكفوفين»..

ثـم قبلتني على وجنتـي وقالت إن رمضان على الأبـواب وإنها تفكر أن تقضي الشـهر كله في الخارج وأن ألحق بها أسـبوعًا أو أسـبوعين منه، قلت لها: «هاحاول»..

قالت بفجاجة: «لا هتحاول ولا حاجة.. أنا حفظاك.. كل شوية هتقولي هاجي وبعدين أروح وأرجع ألقيك زي ما انت».

***

نزلـت بسـرعة حتى أسـتقل سـيارة «عمـاد» الـذي هاتفني بأنـه يخترق شـارع شـريف، وكنت قد صرفت النظـر عن الذهاب معه بعـد مرور نصف سـاعة على رحيل «ريـم»، لكنه اعتذر بشـدة عن تأخره وقال إنه سـيخبرني بالسـبب عنـد اللقـاء. لمحنـي «عمـاد» وأوقـف سـيارته دون إنـذار أمامي وتلقـى سـباب السـيارة التـي كانـت خلفه ونـزل يعنـف قائدها الـذي لان، رغم أنه على حق، بمجرد رؤيته لجسـد «عماد»، وعندما عاد لموقعه خلف الدريكسـيون وسـمعني أعيب عليـه وقفتـه الفجائية وتهـوره على صاحب السـيارة المحق قال باسـتهتار: «سـيبك منهـم دول ولاد وسـخة.. لو كنت سكتله كان هيشتمني أنا وانت».

في نصف المسـاحة كما قدرتها سـألته عن سـبب التأخير فأجابني وهو يزفـر: «النقيـب صفـوت اللي كان شـغال معايا في قسـم العمرانيـة زمان.. ممكـن تكون شـفته مـرة.. المهـم هو دلوقتـي في قسـم أول مدينـة نصر.. وكان فيه عيال من بتوع السياسـة ملمومة عند شارع عباس العقاد.. فضوهم وخدوا منهم شـوية.. وواحدة باينها مرافقة واحد منهم.. جت سـألت عليه في القسم وهو في الحجز قبل ما يترحل.. وصفوت قالها على مكانه.. تقوم

بنت الكلب تبلغ عنه تفتيش الوزارة وتقول إنه كان بيقولها كلام بذيء وعايز يتحرش بيها.. صفوت بلغني بده فجريت عشان ألحق بتوع التفتيش بدل ما يعملوا تقرير خره يضيع مستقبل الشاب ده خاصة إنه الأخ الأصغر لأستاذي اللواء المتقاعد علي بدر.. وفعلا لحقت الموضوع بس بتوع التفتيش أصروا إن البنت تغير أقوالها وأخدت جهد عشان أقنعها بده وأغريها بإني حاخفف صيغة المحضر بتاع صاحبها.. وفين وفين لما اقتنعت وخلص الموضوع».
ضحكت بصوت خافت وأنا أسأل «عماد»: «بس هو فعلا ماقلهاش كلام بذيء ولا اتحرش؟»، نظر «عماد» تجاهي وهو يعدل توازن السيارة ثم قال: «دي كدابة بنت وسخة ولا مد إيده عليها خالص.. هي سألت عن الولد المقبوض عليه وقالت هو فوق ولا تحت فرد عليها».. انتبهت وضحكت أكتر: «عماد.. هو أنا مفتش داخلية.. قولي الظابط صاحبك قال إيه بالظبط»، ضحك «عماد» جدًّا وقال: «هو قالها فوق وتحت ومن ورا وقدام.. ولسوء حظه كان فيه مدنيين في الأوضة شهدوا معاها».. ضحكت مرة أخرى بشدة وأنا أردد كلامه: «فوق وتحت ومن ورا وقدام.. وأكيد عمل مؤثرات بعينيه وإيديه.. وعمال من الصبح تقولي مظلوم.. على فكرة انتوا بقيتو مجموعة عايزة الـ...»، قاطعني بحدة: «إخرس.. لولا كده كان الشعب المتنيل ده ياكلنا حيين»..

جيهان العرابي

أحسست في الفترة الأخيرة بأني أنظر إلى الحياة كأنها شيء يخص الآخرين لذا بدأت موسم التنزيلات وليس التنازلات، أوكازيون لم أفكر فيه مطلقًا من قبل، وشرعت فيه الآن، وأضرار إقامته أقل بكثير من هجره وعدم الالتفات إليه، لن أقفل بابًا أمام أحد بداية من هذه الساعة، سأعطي «أحمد» فرصة وسأمنحها أيضًا لـ «فريد» و«إبراهيم» رغم أنهما من دقائق أكدا لي صحة نظرتي عنهما.. لا أمل فيهما على الإطلاق.. ليس بسبب زيغ العيون على «النسوان» فأنا قادرة على لجمهما.. وليس بسبب اللا طموح فـ «أحمد» مثلهما وأنا قادرة على بثه في أيٍّ منهما كما حاولت بقدر جهدي مع «تميم».. وأنا الآن أنضج من أيام «تميم».. سأهبهما فرصة أخيرة بالرغم من أني في أشد حالات الاستياء من محاورتي السالفة معهما بخصوص فيلم «الوشاحي».. الذي أرادا أن يتكسبا منه تجاريًّا لا فنيًّا، وتعاملا معي فيه على أنه سبوبة أو فرصة لاستجداء رجال الأعمال والربح منهم على حساب العمل، قادرة أنا أيضًا على إعادة صياغة عقليهما وميولهما لو رضيت بأحدهما.. وسأوارب الباب الذي بيني وبين «حنان» زوجة أخي الذي كنت أوصده في وجه ترشيحاتها لعرسان رأتهم أو قابلتهم مع أخي وخمنت أنهم فرص لا تعوض.. سأمنحها ثلاث فرص تقدم لي فيها ثلاثة عرسان عليهم الطلا.. وأنا أعرف أنها ستستنفد فرصها في أقل من شهر..

«رنـا» و«بسـمة» كانتـا تظنان إلى حـد الجزم أن عزوفي عـن الزواج من فرط حبـي لـ «تميم»، وبأني في قرارة نفسـي أعتقد أني لن أجـد له مثيلًا أو بديـلًا.. وأعذرهمـا لأنهمـا لم تريـا غير غيـاره الخارجي.. أنا التي عايشـته وخبرته وكتمت إحباطاته وفشـله عن كل المحيطيـن.. وأنا التي في أحايين كثيرة أتمنى أن أرتبط برجل ليس به مزايا «تميم» التي صنعتاها في خيالهما، رجل عادي متفهم وقابل للتطويع وفائض بالنقائص من وجهة نظرهما..

لقـد قابلـت «أحمد الضـوي» اليوم بنـاءً على هذا التصـور، وفي خطتي القادمـة أن أقابـل كل رجل رآني فتوقف ثم أقبل نحوي وابتسـم وارتعشـت يداه وهو يسلم عليَّ.. أنا لن أنتظر حتى تكبر «ريتاج» وتتحول إلى «جيهان» أخـرى، ثم تحل محلـي ولا يبقى أمامي إلا انتظار أن أزينها في يوم عرسـها وأتصـور بجوارهـا وتجاملنـي مدعـوات الزفـاف وهـن يعلـن أن العروس الجميلة «طالعة لعمتها».

I have a dream.. لـديَّ حلم وتعاظـم ما إن رأيت «تميم».. كان حلمًا كبيـرًا لكنـه مفعـم بالبسـاطة.. أن نسـعد معًا.. ونحقـق أكبر قدر مـن أمانينا وطموحنا.. وأن نكبر ونشيخ معًا.. كلٌّ منَّا ظهير للآخر..

وخذلني «تميم» عندما غيب نفسه بالموت.

أحمد الضوي

سخر «عماد» بشدة من شرط حضور حفل افتتاح فرع «استيلا» الجديد بالتاكسيدو أو الأسموكنج والنساء بملابس السهرة، وحاول أن يبلطج ويتحدى أن يمنعه أحد من الدخول وهو مرتدٍ ملابس عادية، لكني أفهمته أنه لا ضرورة لاستعراض عضلاته أو اختبار قدراته فلو أصر ودخل كيفما يريد سينظر إليه كمنبوذ، كما أنه بذلك سيعرضني لزعل «استيلا» وغضب «ريم»، بعد أن تصالحنا وأمنت جانبها، «اتقمص عماد قمصة فتاة مراهقة» وقال إنه لن يذهب لأنه ليس بصدد الدخول إلى دار الأوبرا حتى يلبس ملابس معينة. كذلك ليس لديه في دولابه أي «زفت تاكسيدو»، ضحكت وأخبرته بأني سأشتريه له هدية وأغريته بالنساء والخمور وأطايب الطعام وبحاجتي إلى وجوده بجواري حتى اقتنع، لكن عندما مددت يدي بكارت الفيزا إلى محل الملابس، أبعد يدي وقدم كارته الذهبي ودفع به ثمن البدلة ومسلتزماتها..

في الطريق ظل يذكرني بفتيات التقينا بهن مرة أو مرتين ويتميزن بالأناقة والجمال، ثم يحاول إقناعي باستدعاء اثنتين منهن لمرافقتنا في الحفل، رفضت بإيماءة من رأسي فقال بسخرية: «لو انت خايف من ريم لتبهدلك.. أنا ماليش دعوة بيها أجيب مُزِّتي وأقعدها معانا..»، رفضت بحدة فقال معلـلًا إصراره: «ما هو ما ينفعش يا أحمد نقعد على ترابيزة قرعة.. وكل

اللـي هييجـوا معاهـم نسـوان!».. طلبت من السـماء أن تصبرنـي عليه حتى تنتهـي هذه الليلة وأفهمته بهدوء أن منضدتنا لن تكون خالية من النسـاء لأن «ريم» و«اسـتيلا» ستتناوبان الجلوس معنا.. كما أننا سنكون جميعًا ملهوين فـي بروجرام الحفل المبهـر كما أخبرتني «ريم»، سـكت على مضض وهو يغمغـم: «هنشـوف ولـو ماحصلـش ده حاتحرش بـأي واحـدة فردانية.. نظـرت إليه بجانب عيني وأنـا أتامل أناقته في الـزي والجنزير الذهبي الذي يطـوق عنقه ويتدلى منه الصليب و«الإنسـيال» البلاتيـن الذي يزين معصمه ووسـامته الملحوظـة، وكيف لا يتفق ذلك مع البالوعة التـي يتدفق منها ماء المجاري والتي يطلق عليها مجازًا فمه. وأتعجب!

دخلنـا إلـى المـكان وكان قد تبدل تمامًـا عن المرة الوحيـدة التي زرت «اسـتيلا» في مسـكنها مع «ريم»، ورغـم المدة القصيرة التي حولت الشـقة السـكنية إلـى مطعـم فايف سـتار إلا أن المكان بـدا وكأنه لا ينقصه شـيء، لا أعتقد أن مهندس ديكور واحد هو الذي تمكن من هذه الحلول العبقرية، لا بـد أن مكتـب ديكور كبير هو الـذي تولى ذلك وخطط لـه ونفذه في هذه المـدة القصيـرة، وقطعًـا حصل علـى مقابل كبير و«اسـتلا» لـم تبخل على المكان بشـيء، لا في الأثاث ولا في الإكسسـوارات والموتيفات.. الصالة الكبيرة يتوسـطها بيسـت تحيط بـه مجموعة كبيـرة من المناضد وكراسـيها والغرف السـبع تنوعت الجلسات والطرز فيها وبعض الشرفات استخدمت كأركان خاصة..

حضنتني «ريم» وقبلتني وأنا أسـتعرض المكان وقبلت وجنتي «استيلا» وأنـا أهنئها وسـلم عليهمـا «عماد» بتحفظ أرسـتقراطي مصحـوب بقبلات

علـى الأيدي، قادتني «ريـم» إلى المنضدة المخصصة لنـا وكانت في موقع متميز يشرف على أغلب المكان، وبعيد بعض الشيء عن البيست وهمست لـي بأنها اختارت لي هذا المـكان لأني لا أحب الصخب، ثم طلبت مني أن أكـون على راحتـي ولا أهتم بوجودها على مائدتي لأنها ستكون مشـغولة بمؤازرة «اسـتيلا» حتى ينتهي الافتتـاح على أكمل وجه.. وانصرفت متجهة إلى شـخص يبدو أنه مدير المحل الجديد وأشـارت له على منضدتنا وعلى الفـور توالت علـى المائدة أطباق المـزات الصغيرة الممتلئة بالبتون سـاليه وسـاليزون والكانبيه Canapé وهي شـرائح صغيرة من عيش التوست عليه سـلامي بقري أو سيمون فيميه أو كفيار أو قطع لحم رومي مدخن، وكذلك أنـواع مختلفة من الجبن الفاخر والسمبوسـة المحشـوة بالخضار أو اللحم المفـروم ثم الجاتوه سـواريه.. كان «عماد» يحـدق في كل صنف ينزل على المائـدة بإحباط ثم همس لي. «اسـتلم يا معلـم.. كل المزات دي معناها إن مافيش عشـا»، همسـت له بغيظ: «وانت محتاج عشا ليه مدام كل الأصناف دي قدامـك؟»، أشـار إلـى زجاجـة النبيـذ الموضوعة علـى رأس الطاولة وقـال: «نبيـت في يوم حر زي ده.. هو ده ينفع برضه؟»، أقبلت علـيَّ «ريم» فأخبرتهـا بـأن «عمـاد» يريد ويسـكي بـدلًا من النبيـذ، ابتسـمت وأومأت برأسـها ثم صحبتني بعيـدًا عن المنضدة بحجة تهنئة عائلة «سـلفاجوس»، تقصد زوج «اسـتيلا» وشقيقها، بالافتتاح، ونحن في طريقنا إليهما همست لـي: «إوعـى يكـون صاحبـك دماغـه خفيفة يسـكر ويجرسـنا»، ضحكت وأنـا أطمئنهـا بأنـه حـوت في الشـراب، فأضافـت ضاحكة: «وفـي الأكل كمـان إنت ماشـفتش بيحط حتـة الكانبيه في بقه إزاي وتخـرج إيده من غير عيدان الخلة»..

بمجرد عودتي وجدت وجه «عماد» وقد تغير إلى الأحسن بتوافد النساء الأرستقراط الحسناوات وهن يدخلن بدلال وينضون عن أجسادهن قطع الثياب الموشاة الإضافية التي كانت تستر صدورهن وأذرعهن في الشارع، لتضيء الأجزاء التي كانت محجوبة عند الدخول بقدر أكبر من اللآلئ والماسات المتناثرة حول أعناقهن أو معاصمهن أو آذانهن.. كان «عماد» غير منتبه لجلوسي بجواره وهو يمعن النظر فيهن ويكاد يهمل مَن كانوا بصحبتهن سواء كان زوجًا أو شقيقًا أو رفيقًا أو سيدات مسنات أنيقات أبطأ الزمن حركتهن قليلًا لكن لم يتمكن من إخفاء آثار جمالهن البائد..

ملأ «عماد» كأسين ثم ناولني كأسي بأدب جنتلمان وهو يهمس بابتسامة: «أهي ابتدت السما تندع شوية الظاهر إنها حتبقى ليلة ليلاء..»، ابتسمت وقد راقني أن مزاجه اعتدل وزال خوفي المستتر أن يغادر الحفلة فجأة فأضطر إلى مسايرته.

بدأ الحفل بكلمات روتينية قصيرة من المدير عن تاريخ المطعم الرئيسي وأهمية فرعه الذي يُفتتح حاليًا والأماني بأن يتزايد عدد الفروع في المستقبل القريب، ثم تقدمت «استيلا» وألقت تحية للجميع ولم تنزل عن الـ Stage وإنما دعت شقيقها ثم زوجها إلى الصعود لإلقاء التحية، ولحسن حظ المدعوين أنهما كانا جاهزين للفقرة وواقفين بجوار الـ Stage، وإلا لاستغرق وصولهما إلى الميكرفون دهرًا لحركتهما البطيئة، وفور نزولهما أخذت «استيلا» الميكرفون مرة أخرى وقدمت على عجالة «بروجرام» الحفل الذي تخلله تصفيق حاد من المدعوين، خاصة عندما قرأت اسم فرقة الباليه الروسي التي ستقدم استعراضًا مميزًا تم إعداده

خصيصًا للحفل، ثم ناولت مدير المطعم الميكرفون ليعلن وهو يشير إلى بنورة زجاجية ممتلئة بالأوراق المطوية حملها له أحد السقاة، ثم وضعها على منضدة صغيرة في خلفية الخشبة بحيث يراها أغلب الحاضرين، أعلن المدير أن كل أسماء الحاضرين موضوعة داخل البنورة وفي نهاية الحفل ستُجرى «تامبولا»، والفائزون سعداء الحظ سيحصلون على جوائز كبيرة، رغم أني كدت أجزم بأن صوت تصفيق «عماد» عندما سمع اسم استعراض الباليه الروسي كان من أعلى الأصوات، لكنني تيقنت وأنا أسمع صوت تصفيقه عقب كلمة جوائز كبرى أنه هذه المرة أكثر دويًّا، زجرته بعيني فاقترب من أذني وهو يهمس: «إيه اللي مضايقك؟ ما كل الناس بتسقف وبعدين ما كلهم عارفين إن التامبولا دي تعريصة كبيرة واللي هيفوز فيها حد من أهل استيلا أو صاحبتك ريم ومش بعيد يطلع اسمك معاهم»، لم أرغب في مجادلته وسكت على مضض وفضلت أن أتابع استهلال الحفل ببعض الموسيقات العالمية التي نجحت في جذب البعض إلى البيست، وجاهدت «استيلا» لكي ترقص على الإيقاعات السريعة بينما تفوقت عليها «ريم» التي نظرت نحونا بنظرة فيها نشوة وانتصار، وفي نهاية هذه الرقصة أقبلت «ريم» و«استيلا» نحونا وجلستا معنا، وبادر «عماد» بتقديم كأسين مملوئتين حتى حافتيهما لهما.. سألتنا «استيلا» لماذا لم نرقص؟ فأجبت بأني لم أدخل في الـ «مود» بعد، بينما قال «عماد» وكأسه تكاد تحجب عينيه: «حنتحرك بس لما نسخن شوية بس على الله ماحدش يشتكي من رقصنا»، زجرته بعيني وامتعضت «ريم» بينما قالت «استيلا» بابتسامة: «من غير لمس يا جنرال ولا دوس على الرجل وارقص بعد كده على راحتك»، ابتسم «عماد» ابتسامة عريضة تليق بسعادته بلقب جنرال الذي أسبغته عليه «استيلا»، ومن

الواضح أنها تضمر أن تطلب منه فيما بعد خدمة شرطية، همست لي «ريم» بأنها ستطلبني للرقص بعد أن تمر هذه الفقرة السريعة، لأنها تريد أن تختلي بي بعض الوقت عقب الرقصة، كان «عماد» يرقبها وهي تهمس لي وعندما ضبطته اضطر للالتفات بسرعة إلى «استيلا» وسألها مباشرة عن جوائز التامبولا، ابتسمت «استيلا» واعتذرت بأن الجوائز سرية ولا تستطيع الإعلان عنها، قال لها بفجاجة إنه يتمنى أن تكون الجوائز عينية فاخرة حتى يفرح بها كل الحاضرين سواء فائزين أو لم يحالفهم الحظ.. وليست مثل بطاقات الـVIP Treatment، في تلك اللحظة تدخلت «ريم» بعنف ساخر وقالت: «عماد بيه لا يمكن أن تكون هناك جايزة تعمل تفرقة بين الزبائن.. ده مش أصول الإدارة»، نظر «عماد» تجاهها وابتسم بغيظ وهو يقول: «أنا بهزر على فكرة يا ريم هانم».

اضطررت لتلطيف الجو بالمزاح وقامت «ريم» لتراقصني وفوجئت بـ«استيلا» تنهض «عماد» وهي تدعوه لمراقصتها..

كانت «ريم» تتحرك أمامي وخلفي بخفة متناهية وكان «عماد» و«استيلا» يتحركان في مساحة محددة، لكني انتبهت لعدم تركيز «ريم» في الرقصة بقدر ما كانت عيناها تعسعسان في أرجاء المكان كله بحثًا عن ركن تنفرد فيه بي، وقد وجدته أخيرًا بحكم خبرتها في تضاريس هذه الشقة المماثلة لشقتها المجاورة، وإيقاع الرقصة يخفت قادتني إليه وأجلستني على مقعد من المقعدين الوحيدين في هذا الركن المنزوي والقريب من مخرج السلم الخلفي الذي يلقب بسلم الخدم، تركتني بضع دقائق لتخبر أحد السقاة بحاجتنا إلى كأسين من

الـBlue Label من الزجاجة التي تتقاسمها مع «استيلا»، وقد راقتني هذه الجلسة وأحسست بأن «ريم» ابتكرتها خصيصًا لكي تتكلم معي، وكانت النشوة قد تمكنت من رأسي وأزاحت كل المخاوف مما قد تقوله «ريم»..

أخبرتني «ريم» بأنها ستغادر القاهرة ثالث أيام رمضان متجهة إلى سويسرا للقاء أختها وإبلاغها بآخر تطورات شقتهما الموروثة، والتي تتلخص في رفض المنظمة العالمية لشرائها، كما أن أقارب «استيلا» من مالكي العمارة يميعون الأمر ولا يتحدثون بصراحة عن طلباتهم المالية في حالة التنازل عنها، كما أنهم ذكروا عرضًا لـ «استيلا» أنهم سيحصلون على نصف القيمة حتى يتم بيع الشقة لأحد الراغبين في شرائها.. ثم احتدت «ريم» وسبتهم وقالت إن نصف القيمة شيء كثير ورفضت هذا العرض، مما جعل «استيلا» تقترح على «ريم» أن تضم شقتها إلى الفرع الجديد لمطعمها ولن تتحمل أية تكلفة خاصة بالتشطيبات والديكورات، وستحصل في مقابل ذلك على نصف الإيراد شهريًا بعد خصم التكاليف، وأضافت «ريم» أنها استاءت من داخلها من هذا العرض لكن رغم ذلك طلبت من «استيلا» أن تشتري الشقة طالما ستستفيد منها تجاريًا وأن تقنع أقاربها بأخذ نسبة الثلث فقط، لكن «استيلا» تحججت بأن ليس لديها أموال سائلة تكفي للشراء بعدما دفعت أغلب ما تملكه في إنشاء هذا الفرع الجديد، كما أنها لا تفضل أن تشرك أخاها وزوجها في هذا المشروع المقترح وتريد أن يكون «بزنس» خاصًا مع «ريم» فقط، وأخبرتني «ريم» بأنها لم توافق أو ترفض اقتراح «استيلا» لكنها طلبت أن تمهلها حتى تعود من سويسرا بموافقة «رويدا» على التصرف، ثم أخبرتني «ريم» أيضًا بأن طليقها عاد أمس من الساحل وأبلغها بأنه سيسافر

ليقضي باقي الصيف في تركيا وسيصطحب «ملك» معه، وسيحاول جاهدًا إلحاق «ملك» بإحدى المدارس الخليجية المتميزة ولو لم ينجح سيعود بها إلى القاهرة، وقد يستقيل من عمله هناك ويستقر في مصر ثم سبَّته سبابًا سريع الطلقات وهي تسخر من فكرة تصييفه في تركيا بعد أن كان يصطاف بجوار قواقع البلهارسيا.. ثم نظرت في وجهي بحدة وقالت إنها ستعود بعد عيد الفطر مباشرة وإني لو افتقدتها يمكن أن ألحق بها في فيينا التي ستقضي فيها أكثر من خمسة عشر يومًا وستلتقي هناك صديقيها «هايدي» و«مصطفى صلاح».. سألتها بجدية وكيف سأعرف مقر إقامتهم هناك، ضحكت ضحكة كبيرة وهي تقول: «أحمد بطل تستعبط عليَّ أنا أعرف عدد الشعر اللي فـ... شعرة شعرة.. وعارفة إن مصطفى بيكلمك على الـ Skype وإنت بتكلمه ساعات.. وبعدين أنا مش هاسيبك من غير تليفونات يعني ممكن تعرف مني.. والمهم إنك لا هتيجي ولا هتنيل فبطل تطلع ديني أرجوك..»، لم أرد فشربت ثمالة الكأس وسألتني: «أحمد.. هو لما أنا أرجع ممكن نتجوز؟».. أجبت بسرعة: «طبعًا»، سألتني مرة أخرى بوجه محايد: «حتى لو ملك كانت معايا؟»، هززت رأسي وقلت: «طبعًا يا حبيبتي.. ملك حته منك»، قاطعتني بفجاجة: «فكك من المجاملات أنا بسألك بجد.. يعني ممكن تتجوزني وانت عارف إني حارفض أخلف تاني؟»، ابتسمت وقلت: «أنا أصلًا اللي كان مانعني إني أتجوز تاني موضوع الأولاد ده»، قالت وكأنها تختبرني: «أحمد إنت أصلك صعيدي وأنا عارفة إن موضوع الخلفة ده حاجة مهمة عند الصعايدة»، ضحكت بصوت عالٍ وقلت لها: «أنا مش صعيدي إلا في السرير»، ضحكت بمرح وأنهضتني لنواصل متابعة الحفل خاصة وقد مرت

«استيلا» علينا مرتين ولم تنبس بكلمة ومر «عماد» مرة واحدة ابتسم لي فيها بخبث.

دخلنا إلى أجواء الاحتفال وبوغتت «ريم» بمنضدة عليها شخصان يبدو أنها تعرفهما.. هزت «ريم» رأسها للسيدة الجميلة اللطيفة التي كانت تواجهنا لكن السيدة تجاهلتها، أحسست بثقل خطوات «ريم» فسألتها عما يحدث خاصة وقد ضمت يدي إليها كأنها تحتمي بي وكان هذا غريبًا جدًّا، أجابتني «ريم» بعد أن استردت نضارتها بأنها ظنت أن هذه السيدة زميلة من زميلات الدراسة لكنها اكتشفت أنها مخطئة، لم أبلع هذا التبرير لأن السيدة كانت في نهاية العشرينيات ولا يمكن أن تكون زميلة لـ «ريم» في أي مرحلة دراسية.

عدنا إلى المائدة فوجدت «استيلا» ومعها رجل وسيدة يجلسون مع «عماد» وارتحت إلى ذلك فقد كنت قلقًا من ضجره، وبمجرد وجودنا في حرم المنضدة استأذنوا وبادرني «عماد» قبلما أجلس بأنهما من أصدقاء «استيلا» وكانا في حاجة إلى مشورة أمنية، أعلنت استراحة قصيرة تم فيها النداء على «استيلا» لحضور «التامبولا» فهرعت إلى الـ Stage وهي تجذب «ريم» لتتبعها لكن «ريم» رفضت بحدة، مدت طفلة صغيرة لا تتعدى العامين وكانت مجهزة بملابس جنيات الأفلام الأسطورية يدها إلى البنورة الزجاجية وأخرجت ثلاث ورقات على التوالي، باستعراض مبالغ فيه كانت «استيلا» تتناول كل ورقة من المدير وتنطق الاسم بميوعة شديدة مع تهنئة بالفوز أولًا بالفرنسية ثم بالعامية، ولم يكن اسمي ولا اسم «ريم» ولا أحد من أقارب «استيلا» ضمن الفائزين كما توقع «عماد»، لكن

كان اسـمه فـي الترتيـب الثاني، وعندما قبلتـه بعد «ريم» قال لـي وهو يكتم ضحكة: «مش قلتلك تعريص!».. وكانت جائزته هي اشتراك ستة شهور في عضويـة الفرع وخصم 50٪ على فواتيره خلال هذه المدة، وقد عاد «عماد» بكارنيـه فضي مصمـم بأناقة يتيح له الدخول طوال مـدة الفوز، أراه لي وهو يكتم ابتسـامة سـخرية، كانت «ريم» شـاردة مع المنضدة التـي عليها المرأة الشـابة ورفيقها فنقرت بإصبعي على كتفها لتلتفت إلينا، وقلت لـ «عماد» ما طلبتـه مني ونحن في خلوة الركن القصي أنها بمناسـبة سـفرها إلى الخارج تدعونـا إلـى الإفطار فـي هذا المـكان في أول شـهر رمضان، هـزت «ريم» رأسـها بينما ابتسـم «عماد» وقال بفجاجة: «هي اسـتيلا خدت تصريح تقدم خمـور للمصريين في رمضـان؟»، أجبته بحدة: «إفطار بس يا عماد ومافيش زفـت خمور هـو انت عايز تقفلهـا المكان في أول شـهر»، ادعـى أنه يمزح بحرج، وحلَّ وقت شـو الباليه الروسي المثير الذي تابعته معنا «ريم» لبعض الدقائـق، ثم اسـتأذنت وهي ترقب الشـبق المفضوح الـذي ينهمر من عيني «عماد» وتقول إنها ستتركنا على راحتنا، ولـم يأبه «عماد» لانتقادي تصرفاته عقـب انصراف «ريم» وقال بلا مبالاة: «عادي دي حفلة هما داعيينا ننبسـط ولا يطلعوا دين أمنا!».

كانـت «ريـم» خلال الشـو وبعده تـروح وتجيء فـي المكان بـلا تركيز ورابنـي ذلـك، وانتهزت لحظة اقترابها من منضدتنا وأشـرت لها بالانضمام إلينا، أطاعت إشـارتي وجلسـت وهي تفتعل الابتسـام وعندما سـألتها عما بها قالت: «لا شـيء»، وأوهمتها بأني اقتنعت بينما تضاءلت الحفلة بكاملها داخلـي ولـم يبقَ منها في بؤرة بصري غير المنضدة التي غيرت مزاج «ريم»، ثـم بدأت رقصـة جديدة وأقبل بعـض الحاضرين من النسـاء والرجال على

الدخول إلى الحلبة ومن بينهم الرجل الشاب وصاحبته، وهنا نهضت «ريم» بسرعة وهي تسألني إن كنت سأشاركها الرقص وكان ذلك بحدة ملحوظة لدرجة جعلتني أتردد في الرد مما جعلها تندفع إلى الـ Stage بمفردها و«عماد» يرقبنا بدهشة، رقصت «ريم» وسطهم بحيوية فائقة حتى إن بعض المشاركين توقفوا ليتابعوا رقصها وبعضهم كان يصفق لها أو يفسح لها مجالًا لكي تؤدي رقصتها المثيرة، لكنهم لم يعرفوا هدفها النهائي وكنت قد أدركته عندما رأيتها تتجه صوبه بظهرها وقد نجحت فعلًا في التفريق بين الزوجين الشابين، ثم مدت يدها بتلقائية شديدة وأمسكت بقبضتي الرجل ورفعتهما إلى أعلى، وعندما أصبحت في مواجهته أطلقت ابتسامة كبيرة ثم دارت بجسدها بسرعة وأصبح ظهرها بالكامل يكاد يحتضن الرجل، ويداها ما زالتا ممسكتين بيديه.. كانت في تلك اللحظة في مواجهة امرأة الرجل التي كان وجهها قد أصبح بدرجة شحوب الموتى وبدا لي أنها تهمس لها بكلمة، وفجأة وجدت المرأة تنسحب من الـ Stage في وضع البكاء بينما «ريم» تدور مرة أخرى لتواجه الرجل ثم تترك يديه وتنحني لمن يصفقون لها، وكان الرجل يصفق أيضًا كالمجذوب.. ثم انتبه إلى أن رفيقته غادرت فنزل بسرعة وراءها كي يلاقي مصيره الذي خمنته وأنا أراه يهرع محاولًا منعها من الخروج لكنه فشل تمامًا..

توجهت «استيلا» إلى «ريم» فور نهاية الرقصة واحتضنتها وهي تربت ظهرها وأخذتها بعيدًا لتتكلم معها، وانتهزت الفرصة وغادرت الحفل بسرعة و«عماد» يلاحقني، وفيما بعد ورغم غضبي الشديد انتبهت جدًّا لـ «عماد» الذي لم يتحدث معي واحترم صمتي حتى أوصلني إلى البيت.

جيهان العرابي

«تفتكـري هيرجعلي؟»، «تفتكري بيحبنـي؟» «تفتكري اتضايق من اللي عملته فيه آخر مرة؟».. وحشتني «بسمة» جدًّا ووحشتني أسئلتها العميقة مثل التي خطرت في بالي هذه اللحظة.. عشـرة أيام لم نتبادل فيها الكلام ورغم مشـغوليتي الشـديدة في تلك الأيـام، إلا أنها كانت تمرق مـن بين ومضات فلاش كاميرتي في عز الشـغل، واليوم وجدت نفسي أفكر فيها طيلة اليوم.. وأدركت أنها غاضبة مني فعلًا.. فثلاثة أيام مرت من شهر رمضان ولم تتصل لتهنئنـي به كعادتها وتتفق معي على الإفطار سـويًّا، يومي الأول في رمضان كان فـي بيـت أخي بعـد أن أصر - بنـاءً على توجيهات حرمـه «حنان» - أن أفطـر مع العائلـة.. لم تفلح حججي هـذه المرة وذهبت صاغـرة ويبدو أني كنت أضمر في نفسي أن أقلب ليلتهم نكدًا.. فقد حضرت في موعد الإفطار بالضبط كالضيوف العاديين حتى أقطع عليها المسـامرة التي دائمًا ما تقلبني إلى عدائية.. لكن يبدو أنها كانت مصرة على استفزازي وإخراج عرق الغباء منـي حتى أبدو أمام أخـي الأكبر الذي في مقام الأب - كما يسـتفزني دائمًا بهذه المقولة - كأني لا أراعي مشاعره، خلال الإفطار، كانت كريمة وسخية بمناولتـي قطع اللحم الممتازة ودلق كل أشـكال الخضـار في الأطباق التي أمامـي وتقطيـع شـرائح الكنتالـوب إلى قطع صغيـرة كما أفضلهـا، وبذلت مجهـودًا كبيرًا فـي إفهامهـا أن تتركني أفطر بحرية، وكانت تبتسـم ابتسـامة

فهم ثم تعاود كرمها وخلال ذلك تتطرق إلى موضوعات السادة القضاة ووكلاء النيابة من تلاميذ أخي، ويصدف أن كل مَن تذكرهم عزاب، وتعدد في مزاياهم كتجار العبيد والجواري، وبعد أن تذكر مزايا كل شخص منهم تومئ إلى أخي لكي يكمل من عندياته مزية إضافية.. وكان لكلامها تأثير فعال في تقليص معدتي والاكتفاء ببعض اللقيمات التي أكلت فأعلنت انتهاء أكلي وشكرتها على مجهودها ولم أهتم باحتجاجاتهم خاصة «ريتاج» التي كانت تلح بعشم.. ولم أتحرك من أمام المائدة قبل أن أعلن لهم أني وجدت شخصًا متميزًا وأدرس طبائعه وأخلاقه على مهل وعندما أرتاح لفكرة الاقتران به سأبلغهم على الفور. سأل أخي باستفهام مستفز «أكيد فنان من أصحابك»، لكني لم أعلق، وتجهمت «حنان» لبرهة حتى اعتقدت أنها ستأخذ عمولة لو زوجتني بنفسها، أما «ريتاج» فقد أسرعت بمسح فمها وقفزت لتقبلني وأنا أحاول التملص منها وإفهامها أن التهنئة سابقة لأوانها.

مع أطباق الحلوى تفرغت لـ «ريتاج» وطلبت منها أن تلحق بي في الشرفة وهناك ظللت أعدد لها أخطاءها خصوصًا مراسلة أصدقائي الذكور دون أن تعلمني، وأبين لها مدى المشاكل التي قد تنشأ عن ذلك، ثم عرجت إلى الموضوع الأهم وهو هواية التصوير التي تحاول أن تقلدني بها، وفكرة الالتحاق بمعهد السينما بينما هي لم تدخل المرحلة الثانوية بعد، قلت كل ذلك بهدوء شديد لكن البنت كانت تمتقع بمعدل أسرع من كلامي ثم فرت من أمامي باكية وأغلقت عليها باب حجرتها، سألني أبوها غاضبًا عما فعلته بها، وتوحش وجه «حنان» وهي تلومني وتقول: «حرام عليكي تزعليها في شهر رمضان»، طلبت من أبيها أن يسألها هي عن السبب، ووجهت حدتي

نحو «حنان» وأنا أقول لها إني أدرى بما أقوله وبالأوقات التي تناسب ذلك، ثم غادرت بعد أن شكرتهما وتمنيت لهما شهرًا طيبًا.

في اليوم الثاني اتصلت بـ «بسمة» مرتين لكن هاتفها كان مغلقًا مما اضطرني للاتصال بـ «فريد» و«إبراهيم» واتفقت معهما على الإفطار في أحد مطاعم وسط البلد، واليوم هو اليوم الثالث من رمضان وقد أنهيت طهي طعامي بأنواعه المختلفة الكثيرة لكي أضعه على مائدة لن يشاركني فيها أحد. لذا أعدت الاتصال بـ «بسمة» ووجدت الهاتف ما زال مغلقًا ورابني ذلك فأنا أعرف أنها لا تغلقه كل هذه الأوقات حتى يكون جاهزًا ومهيئًا لاستقبال مكالمات «خيري» ثم العمل ثم الأصدقاء.. ربما اشترت خطًّا جديدًا وحجبت رقمه عني وأغلقت الخط القديم أو ألقت به في الشارع.. لو حدث ذلك فعلًا سيلزم «بسمة» سنوات لكي تصالحني.. ومثلما هي تفعل فتحت «اللاب توب» ودخلت على حسابها فلم أجد شيئًا جديدًا بعد موضوع ماء النار التي قصدت مضايقتي به.. من خلال صفحتها حاولت الدخول على صفحة «خيري» لكني وجدت أن لا جديد في صفحته أيضًا.. واستبد بي فضول إلى رؤية صفحة «فؤاد» طليق «رنا» وأنا أخمن أنه حذفني من قائمة أصدقائه كما فعل مع «بسمة» منذ فترة كبيرة، لكني وجدت الحال على ما هو عليه، فأنا ما زلت صديقة له ووجدت في صدر صفحته عبارة: «هذا زمان ردي»، وابتسمت لأني متأكدة لو «رنا» ما تزال على ذمته ما كانت تركته يكتب هذه العبارة نصف العامية نصف الفصحى التي تفضح تدهوره اللغوي.. ثم حاولت المرور على صفحة «رنا» فوجدتها غير موجودة كما اتفقنا معها.. وانتبهت لشيء مهم.. «رنا» الصديقة المفضلة لي إلى وقت قريب غائبة عني منذ حوالي شهر ونصف الشهر لكني لم أفكر فيها ولم

أفتقدهـا، والأوقـات الضئيلة التـي تذكرتها فيها كانت بخصوص المشـاكل التي سـببتها لـ «فؤاد».. بينما «بسمة» التي من داخلي كنت أعتبرها في منزلة أقل من «رنا» لا أحتمل البعد عنها بضعة أيام.. وحاولت تحليل الأمر سريعًا ووصلت إلى – وقد أكون متجنية على «رنا» – أن «بسمة» بطبيعتها وتلقائيتها ووضوحها أصدق من «رنا» العاقلة المتزنة الخبيثة الماكرة..

قلـب هـذا التحليـل يومـي بعـض الوقـت، ورغم إجهـاد الصـوم وحر أغسـطس الشـديد الذي لم أواجهه بالتكييف، فأنا لا أسـتخدمه إلا لماما.. عندمـا تتجاوز درجة الحرارة الـ 43.. رغم ذلـك وأثناء المقارنات الموغلة في الطفولة بين «رنا» و«بسمة»، رجحت كفة «بسمة» وتوارى وجه «رنا» إلى الخلفية.. «بسمة» التي تتهلل فرحة بانتصاراتها الصغيرة.. كفرحتها الشديدة بأن توصلت إلى أن اسـم أم «خيري» هو «عائشـة»، وسيصبح بمقدورها إن تخلى عنها أن تسـترده بالسـحر الأسـود الذي لا ينجح بدون اسم الأم وأثر منـه.. أذكرها وهـي في أوج علاقتها بـه عندما كانت تسـتأذنني في مكالمته في الشـرفة أو الغرفة وأتركها لسـاعات وأعود فأجدها تكاد تطير.. أو عندما يتخاصمان وتظل تعدد لي محاسنه ومناقبه.. أو في مناقشتنا السياسية أحيانًا عندمـا كانت تتبنى آراءه، خاصة الاقتصادية منها، أو تذكر مقولات لأسـماء لا أعرفهـا، وعندما أسـألها عنهم أكتشـف أنهم أصدقاء «خيـري».. أو حتى فـي الأوقـات التي كان يغيظها فيهـا.. وقد حدث ذلك مـرة وهي في بيتي.. أخبرتنـي بأنها ضايقته لسـبب ما وتركهـا غاضبًا وطلبت دخـول غرفة النوم لعمـل chat معـه.. تركتها وبعـد ربع سـاعة صرخت من الغضـب ونادتني وأشارت نحو اللاب توب والـ CAM على وجهها، فرفضت أن أظهر معها فـي الكادر فيرانا، لكنها همسـت لـي بأنه أغلق المايك وليـس موجودًا أمام

جهـازه، اقتربت وكانت «بسـمة» في ذلك الوقت تكتب لـه على الكيبورد.. «رد عليا يا خيري.. إنت هتجنني.. كل ده عشان بحبك قوي».. وعلى نافذة الـلاب التي من المفروض أن تراه فيها.. وجدت إصبع إبهامه وعليها رسـم وجه في حالة ضيق.. وكلما كتبت «بسـمة» عبارة.. يهز «خيري» إصبعه عبر الجهة الأخرى يمينًا ويسارًا وأحيانًا يحني إصبعه ويضايقها.. وكانت ترجوه وتتوسـل إليه أن يكلمها وجهًا لوجه فيزيد في اللعب بإصبعه.. أخبرته بأنها لـن تنزاح من أمـام اللاب إلا بعدما يخبرها بأنه سـامحها.. في تلك اللحظة خرجـت إصبعـه من الـكادر ودخلت إصبع يـده الثانية وعليها وجه مبتسـم وأشار لها مودعًا.

استيقظت على التوقيت الذي حددته قبل الإفطار بساعة ونصف، وأخذت حمامـي علـى عجالـة والغريب أني تذكـرت خلاله أني قد منحـت «حنان» زوجة أخي ثلاث فرص لاختيار عريس لي، وفي أول اختيار صددتها بعنف ولا أدري سـببًا لسـهوي هذا ولا للحدة التي أغلقت بها الموضوع بادعائي أني وجدت الشـخص المناسـب الـذي أعرضه للاختبارات.. مما سـيقلب علـيَّ أخي وعائلته الصغيرة وسـيقلب عليَّ أيضًا أخي المقيم في السـعودية وزوجتـه وأولاده، الذي بقـدر اهتمامه بتكويـن الثروة الضخمـة يهتم بتتبع تصرفاتـي عبـر «حنان» و«ريتـاج»، وكان يهاتفني أحيانًا فـي غضب وعندما وبخته بشـدة ذات مرة أعلنني فتـاة متمردة عاصية بحاجة إلـى إعادة تربية.. تذكرت أيضًا مع رغاوي الشـامبو المخرج «خيري بشـارة» الذي كلمته عن طريـق الرقم الذي حصلت عليه من الأسـتاذ «محسـن أحمد» لكني وجدته خـارج نطاق الخدمة، ثم كلمني بعدها بأيام «محسـن أحمـد» وأخبرني بأن «خيري بشـارة» في أمريكا وطلب مني مراسـلته في الفيس بوك.. ووجدت

حسابه وطلبت إضافتي إلى قائمة أصدقائه وقبل بسرعة أدهشتني، فأرسلت لـه رسـالة صغيرة أشـكره وأخبـره بموضوع فيلـم «الوشـاحي» ورغبته في أن يتولـى إخراجـه.. ومنذ أن أرسـلت الرسـالة لم يصلني رد مـن «خيري» ربمـا لانشـغاله.. لكنـي تنبهت إلى أنني لـم أفحص بريدي فـي الفيس بوك وكانـت الإشـارة الحمـراء تعلـن وجـود سـبع رسـائل لـذا كان أول شـيء فعلتـه بعد انتهاء الحمـام هو فحص بريدي، وفعلًا وجدت «خيري بشـارة» يخبرنـي أنه سـعيد جـدًّا بأن يخرج فيلمًـا عن صديقه الجميـل «عبد الهادي الوشـاحي»، وسـعيد أيضًا للعمل معي لأن معنى أن يرشـحني «الوشاحي» لتصويـر هذا الفيلم هـو إيمانه بموهبتي، كما أضاف «خيري» بأنه اطلع على ما تيسـر من الأفلام التي شاركت بالتصوير فيها، الوثائقية والروائية القصيرة والتصويـر الفوتوغرافـي لبعـض المعـارض التشـكيلية من خـلال الروابط الموضوعـة علـى صفحتي وانبهـر بموهبتـي! ويتحمس جدًّا لإخـراج هذا الفيلـم كنواة لعمل عدة أفـلام مهمة عن التشـكيليين المهضوم حقهم مثل: «صبحي جرجس» و«جميل شفيق» وغيرهما، حمستني جدًّا رسالة «خيري بشـارة» فكتبت له عبارة شـكر كبيرة وفوجئت أنه موجـود في نفس اللحظة Online وفي التو دخل يحاورني كتابة ودخلنا في دردشة كبيرة ملخصها أنه في أمريكا بصحبة ابنته وسـيعود في أوائل شهر يناير من العام القادم.. وبأننا يمكن أن نستغل هذا الوقت في عمل Script جيد للفيلم.. وقال أيضًا إنه يعمل على فيلم قصير عن عائلته من تصويره وإخراجه وقد اشترى من أمريكا كاميرا Canon 5D موديل هذا العام 2010 وهي كاميرا مذهلة تعطي نتائج احترافية تمامًا وكتب لي اسم الموديل ورابط الشركة المنتجة، وطلب مني أن أراجع مواصفاتها وإمكانياتها لأعرف إن كان محقًّا في تصوره، كما أنه سيرسل لي

DVD به بعض الشوتات التي صورها بهذه الكاميرا لكي أتأكد من النتائج.. كان الوقت قد سرقني واكتشفت أنه لم يتبقَّ على موعد المغرب إلا نصف ساعة فاعتذرت له بأني مضطرة للانصراف لتجهيز الإفطار.. تمنى لي إفطارًا شهيًّا أنا وزوجي.. قلت له إني أرملة وسأفطر بمفردي.. كتب بسرعة أنه كان يتمنى وجوده بالقاهرة في هذه اللحظة ليشاركني الإفطار! تركت إجابتي معلقة فوق الكيبورد ولم أنزلها البتة لتلامس الحروف، وهرعت لتسخين الطعام.. ليس كله بالطبع، بل صنفان فقط منه بالإضافة إلى السلطة الخضراء..

وعقب أن غادرت مائدتي التعيسة عاودتني الحاجة إلى «بسمة» وضبطت نفسي مستغلة وأنانية.. فحاجتي إليها لأني أفتقدها بشدة ولأني أيضًا أحتاجها كي يصبح بمقدوري دعوة العزاب الثلاثة إلى إفطار رمضاني في بيتي، يذوقون فيه طعم المأكولات البيتي لا طعم أكل الأسواق المجبرون على أكله، والعزاب الثلاثة هم على الترتيب: «إبراهيم» و«فريد» و«أحمد الضوي»، ولن أستطيع دعوتهم بدون وجود محرم! فماذا سيقول جيران فضوليون عن فتاة تدعو ثلاثة شباب إلى شقتها؟ وغلبتني حاجتي إلى «بسمة» فأعدت الاتصال بها وكان الخط مغلقًا أيضًا لكني لم أركن هذه المرة إلى الاستسلام، اتصلت على الفور بوالدتها «وجيدة» بدعوى تهنئتها بالشهر الكريم، وبادرتني بعتاب شديد لأني انتظرت أيامًا ثلاثة حتى أتذكرها وكان من المفروض عليَّ في هذه الظروف أن أتصل بها على الأقل مرة كل يومين، اندهشت بشدة مع قلق فتك برأسي فسألتها بخوف: «ظروف إيه يا تانت؟».. ردت بدهشة: «إيه يا جيهان انتي مش دريانة إني أول مرة أقضي رمضان من غير بسمة؟»، اندفعت: «ليه هي بسمة فين يا تانت؟»..

واكتشفت كالزوج آخر من يعلم أن الأخت «بسمة» سافرت إلى مدينة بازل بسويسرا حيث مقر شركة التجميل العالمية التي تعمل بها، بالنيابة عن شركتها لحضور اجتماع أممي لكل فروع الشركة حول العالم بغرض تحسين خدمات الشركة وتلبية احتياجات عملائها، وستقضي «بسمة» عشرة أيام في سويسرا، خمسة منها لحضور ندوات وزيارة مقر الشركة وإعداد بحوث، والخمسة الأخرى تخصم منه يوم الحضور والعودة والثلاثة الباقية لزيارة مدينة بازل.. كان هذا هو نص حوار «تانت وجيدة» التي قالته لي نقلًا عن «بسمة» مع إضافة بسيطة أن «بسمة» حمدت الله لأني اعتذرت عن سفرية تركيا، فلولا ذلك لرفضت المهمة التي كلفتها بها إدارة شركتها، أو اعتذرت عنها وصاحبتني في مهمتي حتى لو كلفها ذلك الاستقالة من شركتها.. ثم أضافت «وجيدة» من عندياتها أنه ربما تحرجت «بسمة» من إخباري برحلتها إلى سويسرا حتى لا تقلب عليَّ مواجع رفضي لرحلة تركيا.. خلص كلام «وجيدة» واتفقنا على أن أفطر معها في نهاية هذا الأسبوع حتى أخفف عنها غياب «بسمة».

ألغيت فكرة خروجي والتسكع مع «فريد» و«إبراهيم» حتى موعد السحور وأطفأت كل أنوار الشقة فيما عدا سهريات صغيرة في الأركان وأغلقت المحمول وفصلت مخرج هاتف المنزل وجلست بالشرفة في سكون.. أسخر من قوتي المزعومة وقد سبرت غورها جيدًا وأتأمل بحسد مسكنة صديقتي اللتين انقلبتا إلى قوى مدمرة وحشية.. إحداهما غامرت ببيتها وطفلها وسافرت إلى أمريكا لتحقق حلمًا من أحلامها، والأخرى لم تأبه بكل قيود العمل ولا بتهربي من مصاحبتها لمقابلة حبيبها وفكرت ودبرت واخترعت حكاية صدقتها الأم على الفور، ومن المؤكد أنها اخترعت قصة أخرى أقنعت أصحاب عملها بالسماح لها بالسفر.. بينما أنا ما زلت في انتظار ما لا يجيء.

أحمد الضوي

مـن جهتي اقتنعت تمامًا هـذه المرة بتبريرات «ريـم» ونفضت الغضب عنـي تمامًا، كانت قد لحقت بي في شـقتي ومعها «اسـتيلا» التي لـم تكن قد رأت بيتي مطلقًا، كنت بالكاد قد خلعت ملابس الخروج ولبسـت «شـورت وتي شـيرت» عندما سـمعت أصوات خطوات تصعد وكنت أظنها ستكمل الصعـود إلـى الطابق الأعلى لكنهـا توقفت عندي، ولـم يكتمل تخميني إلا ورأيت «ريم» تدخل أولًا والمفتاح ما زال مشرعًا في يدها وتتبعها «استيلا»، وكنـت طوال مسـافة العودة غير مصدق أن تفعل «ريـم» بي هذا على الملأ، تلتقي بعشـيق سـابق فتعابثه لتسـتثير غيرة زوجته أو رفيقته دون أن تلقي بالًا إلى «شوال» الجوافة الذي معها ويدعوه الناس «أحمد الضوي» جهلًا! ولم أكن أفكر في وسـائل انتقامية ولا قرارات مصيرية بخلاف هجر «ريم» تلك الفتـاة الملتصق بها والتي أرتاح كثيرًا عندمـا تكون بعيدة ولم أفكر كثيرًا في الرابـط الخفـي الذي يربطني بها هل هـو الجنس أم غرابـة أطوارها أم لعدم وجـود البديـل أو أن البديل أحيانًا يكون أمر وأعقد منها، وكنت مسـتاءً جدًّا أن كل هذا الشـو الاسـتعراضي فعلته «ريم» أمام «عماد»، آه لو لم أصر على وجـوده بعد عودتي إلى «ريم».. عندما علـم بعودتي إليها طلب مني إعفاءه مـن حضـور الافتتـاح، لكني برغبتـي وبناءً أيضًـا على رغبتهـا ألححت في حضوره وهددته بعدم الذهاب إن لم يأتِ معي، كأننا من داخلنا كنا نتمنى أن

ننفضح أمام «عماد»، وما أدراك ما «عماد»؟ «عماد» سيجعل هذه الحكاية لبانة في فمه ينكد عليَّ بها بين الفترة والأخرى.

أعطيتهما ظهري كأني لا أرغب في مقابلتهما.. لكن «ريم» هرولت وسبقتني ووقفت أمامي وأشارت إلى «استيلا» وهي تعيب سلوكي خاصة و«استيلا» تزورني لأول مرة، التفت ورحبت بـ «استيلا» ونقلت «ريم» بسرعة ثلاثة كراسي إلى موقعي وكأنها تخشى أن أرفض التحرك من مكاني، كانت «استيلا» تتابعها بدهشة بينما نجحت أنا في التحكم في عضلات وجهي، جلسنا وبادرت «ريم» بالحديث شارحة الموقف كله من «طقطق لسلامو عليكو» كما يقول العامة، أخبرتني بزيارتها للطبيبة النفسية «مريهام» بناءً على نصيحة «استيلا» بعد خلافها معي، وكيف سخرت منها هذه الطبيبة فاضطرت إلى مبادلتها سخرية بسخرية وهي تذكر عدد عشاقها، وأنها نسيت كل هذا الموقف فور مغادرتها العيادة النفسية، وأشهدتني على أنها تعاملت برقي عندما شاهدتها في الحفل بينما تعاملت الطبيبة بقلة أدب ووقاحة وأشاحت وجهها عندما حيتها برأسها، وذكرتني «ريم» بأنها لا تنسى ثأرها مطلقًا وقالت إنها ظلت تفكر وتدبر في وسيلة لإغاظتها، وعندما بدأت رقصة الفالس رأتها فرصة جيدة لكيدها، ودخلت بينهما في أثناء الرقص وانتشلت الزوج منها ولم تكتفِ بذلك بل عندما تواجهتا فوق الـ Stage أخبرتها بسرعة بأن الذي يراقصها هذا واحد من عشاقها الذين نسيتهم. ضحكت بتحفظ مما جعلها تومئ إلى «استيلا» التي أسرعت بإخراج لاب توب صغير وأنا في دهشة شديدة، فتحت «استيلا» اللاب على صفحة في الفيس بوك للطبيبة «ميرهام» وأطلعتني على صور

البروفيل والبيانات وتأكدت فعلًا أن التي رأيتها في الحفل كانت هي الطبيبة كما رأيت أيضًا صورًا لها مع زوجها الذي راقصته «ريم»..

وقبل أن أهم بتوجيه أي انتقاد آخر لسلوكها أثناء الحفل نهضت وحضنتني وقبلتني على وجنتي، ولما وجدتني ساكنًا قبلتني في فمي ثم جلست على حجري، وقد خجلت جدًّا أن يتم ذلك أمام «استيلا» خصوصًا وهي لم تفعلها مطلقًا من قبل أمام أصدقائها سواء ونحن نصطاف سويًّا أو في زيارات ودية، نطرتها بسرعة من فوق حجري حتى كادت تقع على «استيلا» التي استغرقت في ضحكة ممطوطة لم تستطع أن تزيل الدهشة بالكامل من وجهها.. ثم نهضت «استيلا» لتتفرج على الشقة وأومأت إلى «ريم» بأن تساعدها في التجول وتنير لها الأمكنة، عادتا بعد فترة قصيرة و«استيلا» تمدح في الموقع وعراقة البيت واعتبرت ذلك من قبيل المجاملة لأن شقتها في الاتساع والعراقة والطراز المعماري تفوق شقتي عشر مرات، وقلت ذلك فعلًا لكن «استيلا» أشارت إلى الشرفة وهي تقول إن موقعها وجوها وما تطل عليه لا يقدر بثمن، وطلبت أن تجلس فيها قليلًا، ورغم أن الوقت كان بعد منتصف الليل إلا أني وافقت بابتسامة وسألتهما عما تودان شربه، فأكدتا لي اكتفاءهما بما أكلتاه وشربتاه في الحفل، وسعدت جدًّا أن «ريم» أرجعت كراسي الشرفة قليلًا إلى الوراء حتى لا تلفتا النظر ولم تهتم بالرد على «استيلا» وهي تسألها عن السبب، وحتى عندما طلبت «استيلا» من «ريم» إضاءة الشرفة سألتني «ريم» بخبث إن كنت قد غيرت لمبة الشرفة المحروقة وقبل أن أتورط في الرد، أجابت نيابة عني بأني طبعًا نسيت كعادتي، ثم أشارت لي «ريم» كي نتحدث قليلًا في الداخل بعد أن استأذنت «استيلا».

وجهتني إلى طريق المطبخ وهي تهمس بأن ذلك أفضل حتى لا تظن «استيلا» أننا تركناها من أجل غرض دنيء، وبداخل المطبخ حاصرتني في أحد أركانه وقالت لي: «أحمد أنا بحب غيرتك طبعًا بس ما أحبكش تظن إني في علاقة تانية أو كنت في علاقة مع حد ولما قابلته صدفة باسود عيشته.. لا يا أحمد أنا اللي أسيبه بكنسله خالص من حياتي ولو تصادف وقابلته مرة تانية مبشوفهوش بالمرة.. أما بخصوص إني عاملة علاقة من وراك.. ده مستحيل لأني واحدة بنت ناس ومتربية كويس وعمري في حياتي ما فتحت رجلي لرجلين في نفس الوقت».

انطلقت مني ضحكة صاخبة وأدتها بسرعة عندما وضعت يدها على فمي وهمست: «هتفضحنا قدام استيلا.. تقول إيه دلوقت علينا؟ يالا نروحلها بسرعة بدل مخها ما يروح بعيد»، وبينما نحن في الطريق إلى «استيلا» توالى همسها: «أنا عايزة أعرف إيه اللي ضحكك من كلامي»، ابتسمت ولم أرد، فاستطردت وهمست بتحدٍّ: «أيوه متربية تربية باشوات ولو هاقلب على الحتة الوسخة اللي تعلمتها على كبر هتشوفوا مني أيام سودة بجد».

«عماد» لم يقتنع بكل ما سردته عن صلح «ريم» لي وعن انتقامها من الطبيبة النفسية التي سخرت منها ولا باصطحابها «استيلا» معها لتؤازرها وتدعمها أمامي، كما أنه لم يُبدِ أسبابًا لعدم اقتناعه كان فقط يكرر كلمة Take care حتى زهقني، وطلبت منه بحدة ألا يتعمد تخويفي من «ريم» لأني أولًا لا أتصور أنها تؤذيني في يوم من الأيام أذية قاتلة، وثانيًا أنا غير مهتم أصلًا بحياتي الفارغة هذه، لزم «عماد» الصمت لحظتها وعندما طلبت

منه أن يصطحبني لكي نفطر معهم في أول يوم من رمضان كما سبق واتفقنا، حاول التملص في البداية ثم سايرني بعد أن أكدت له أنها ليلة وداعية لـ«ريم» ولن تحدث فيها مشكلات، وافق وهو يقول بابتسامة: «أشك!».. لكن تلك الليلة مرت بسلام وسط زبائن الفرع الجديد الذين بدوا صائمين عن حق واحترموا تقاليد الشهر، وانتظروا ساعة كاملة دون تدخين أو حتى شرب الماء في الخباثة، لدرجة أن «عماد» التزم بذلك رغم أنني همست له أكثر من مرة أن يدخل الحمام أو المطبخ ليشرب سجائره لكنه رفض، وبعد الإفطار انتحيت بـ«ريم» وعرضت عليها أن أودعها في المطار فرفضت لأن موعد السفر عند الفجر وأشفقت عليَّ أن أستيقظ مبكرًا وأنا صائم وأجهد نفسي في وداعها، وقالت إنها سترسل لي SMS عند وصولها وعندما عدنا مرة أخرى إلى موقعنا وسط «استيلا» و«عماد»، قالت «ريم» وهي تضحك إنه بما أننا عازبان فإنه بمقدورنا تناول الإفطار كل يوم في المطعم وغير مسموح لنا بدفع الحساب، وستحاسب هي عندما تعود، وهزت «استيلا» رأسها بالموافقة، وأبديت امتعاضًا فوريًّا لاحظته «ريم» بسرعة فعدلت كلامها إلى أنها تتمنى أن أتردد على هذا المطعم كثيرًا في رمضان لأنها تعلم أني أحب أن آكل في رمضان أكلًا بيتيًّا، والطهاة هنا متميزون ووافق «عماد» على رأيها، فضحكت «استيلا» وهي تقول له إنه بمقدوره الحضور إلى المطعم في أي وقت من رمضان ليتناول وجبته دون أن يدفع حتى الـ 50٪ الباقية بعد الخصم الذي فاز به.

كنت مسرورًا لأن «عماد» لم يلح عليَّ في الانصراف رغم أنه لم يتناول نقطة خمر واحدة في تلك الليلة، وعندما انصرفنا أخيرًا كان في مزاج طيب

ومعقـول وبدا عليه الاقتناع بـكل كلمة قالتها «ريم» عن الواقعة الأخيرة، بل كان قد زايد عليها أيضًا وسألها لماذا لم تخبره بأن هذه الطبيبة تضايقه حتى يتصرف معها، تدخلت «استيلا» ضاحكة وقالت إن «ريم» لا تنتظر من أحد أن يأخـذ حقها وقد تصرفت تصرفًا سـيجعل المطعم يفقد زبونة مهمة وهي أم الطبيبة التي لحسـن الحظ كانت في الخارج مع والد الطبيبة ولم تكن في المطعم ذلك اليوم.

سألني «عماد» ونحن نقترب من بيتي هل «ريم» ستسافر لقضاء الصيف فـي أورُبا فقط أم لديهـا بيزنس مع أختها هناك؟ فضحكـت وقلت له إنها ما تزال تبحث عن ممولين للأكاديمية التي تنوي عملها وإنها مسافرة للتصييف وفي الوقت نفسـه لإعادة إقناع أختها بالمساهمة في مشروعها، أو بالموافقة على بيع شقتهم التي في نفس الطابق الذي به الفرع الجديد لمطعم «استيلا»، وأنا أسـتعد للنزول من السـيارة سـألني «عماد» لماذا لم أفكر في مشاركتها أو حتـى أعـرض عليها ذلـك طالما أنا مهتم بهـا إلى هذا الحـد، أجبته على الفور أني عرضت عليها هذا العرض في أول مرة تكلمت معي فيها عن هذه الأكاديمية فغضبت بشدة وقالت لي إنها لا تشارك أبدًا الرجل التي تكون في علاقة معه حتى تستطيع إن شـاءت أن تنهي علاقتها به دون أن يكون بينهما شيء ملتصق برقبتها كالعلقة يظل يستنزفها حتى الموت.

جيهان العرابي

هذه من المرات النادرة التي لم أستمتع فيها بشهر رمضان رغم انقضاء خمسة عشر يومًا منه، لم أغادر منزلي فيه غير بضعة أيام تعد على أصابع الكف الواحدة، أفطرت في أحدها مع «فريد» و«إبراهيم» والفنانة ثقيلة الظل بطلة فيلمه الروائي القصير الذي يدعون أنها صاعدة وأنا على شبه يقين بأنها هابطة، لم يكن في خطتي الإفطار معها وعندما دعياني إلى الفطور في الخارج لم يذكر أحد منهما أنها ستكون بصحبتهما، وفي الحقيقة وافقت من زهقي وأنا عاقدة العزم على دعوتهما إلى الليلة السنوية المعتادة في شهر رمضان بمجرد عودة «بسمة»، وقد تكدرت وأنا أراهما بصحبتها ويبدو أن ملامحي وشت بضيقي، خاصة والنجمة المفتعلة ابتسمت عند مقدمي ابتسامة مستفزة، وبينما الأطباق تنزل إلى المائدة قلت بقصد إحراجها أن نتقاسم الفاتورة فاحتج «إبراهيم» محتدًّا وأعلن أنها دعوته ولن يقبل مني جنيهًا واحدًا ورأيت «فريد» يومئ لي بأن أقبل فسكت، وأكلت الممثلة بسرعة وافتعال وأعلنت اكتفاءها بحجة الريجيم ونهضت فلحق بها «إبراهيم» تجاه الحمامات، وبدا على «فريد» أنه يتحين هذه الفرصة لأنه توقف عن المضغ وأخبرني بسرعة بأن «إبرهيم» متيم بهذه الفتاة، وقد لان دماغها أخيرًا وقبلت أن يتقدم لها ويخطبها ووضعت شروطا للزواج بها وافق «إبراهيم» عليها كلها وأنه ينوي بعد العيد خطبتها

والزواج منها في خلال أشهر قليلة، اندهشت لأني لم أعرف هذا الموضوع من قبل وذكرت ذلك لـ «فريد» فضحك وقال إن «إبراهيم» كان يخشى لو أخبرني بالموضوع في بدايته أن أنجح في جعله يصرف النظر عنها، وطلب من «فريد» ألا يتحدث في هذا الموضوع معي، اندهشت للحظات من تصور «إبراهيم» ثم قررت ألا أضيع وقتي في هذا العبث، وأخرجته على الفور من حلبة السباق التي جائزتها الحصول عليَّ، وصرفت النظر أيضا عن فكرة كانت قد خطرت في بالي بأن أدعو «فريد» و«إبراهيم» و«أحمد الضوي» إلى الإفطار في بيتي دون انتظار «بسمة» وأحل مكانها «ريتاج» ابنة أخي، لكن بخروج «إبراهيم» من الكادر لن تصح دعوة «فريد» و«أحمد الضوي» بمفردهما للإفطار معي حتى في حضور «ريتاج».. سيبدو هذا مشهدًا تلفيقيًّا.. عليَّ أن أعاود الاتصال بـ «بسمة» التي عادت منذ أربعة أيام ولم تجب على اتصالاتي إلا بجفاء شديد وحياد غاظني، إلى درجة أني قررت معاقبتها بعدم الاتصال بها حتى تحتاجني وتجد نفسها مضطرة إلى وجودي، لكنني أعود فأتذكر أني عاملتها بقسوة ورفضت بحدة فكرة السفر معها وأرسلت لها برسالة سخرية عن طريق أمها، يجب أن أتحملها بعض الوقت فأنا أفتقدها فعلًا.

عندما عادت الفتاة مع «إبراهيم» وجدت نفسي مدفوعة لتهنئتهما بمشروع الخطبة، ونهضت الفتاة بافتعال لتقبلني على وجنتي وتشكرني وابتسم «إبراهيم» بخجل ودهشة، بينما لم ألتفت إلى «فريد» الذي كنت واثقة أنه في وضع مذرٍ بعد أن أفشيت السر الذي خصني به وأضمرت أن أعتذر له فيما بعد، فأنا أحب الوضوح ولن أتظاهر بأني لا أعرف بمشروعهما.

كانـت في حافظـة بريد محمولي رسـائل تهنئة كثيرة لـم أهتم بتفحصها أو الـرد عليهـا، لأنـي أكـره الـرد علـى رسـائل بـلا روح وتبـدو كنصوص المحفوظات المدرسية، لكن الرسـالة الضوئية التي كانـت تهاجمني كلما فتحت المحمول بأنه ليسـت هناك مساحة لاستقبال رسائل جديدة دفعتني لقراءتها على عجل ومحوها، وضمن هذه الرسائل وجدت رسالة من «رنا» أرسـلتها مـن أمريـكا لتهنئنـي برمضـان وذكرت فـي الرسـالة أن المحمول المرسـل منه الرسـالة خاص بالجهة الراعية للأدباء الزائرين وليس ملكًا لها وأنها لم تستخدم خطًّا أمريكيًّا بعد، سررت لعدم اضطراري للرد عليها ومن ثـم نفتـح بوابات لا أفضـل فتحها إلا عنـد عودتها إلى مصـر، ووجدت أيضًا رسـالة من «أحمد الضوي» تهنئني بشـهر رمضان مرسـلة في اليوم السادس منه كأنه تذكره فجأة أو تذكرني فجأة وغاظتني الرسـالة لكونه فضل إرسالها عـن طريق المحمول كأني زميلة عمل ولم يهتم بتهنئتي عن طريق التليفون، لكني كنت أشـعر بوحدة شديدة ولست في حال يسمح لي برفاهية المعاملة بالمثل، لذا انهارت مقاومتي في غضون نصف يوم واتصلت به أرد له تهنئته وأبشره بأني سأدعوه إلى الإفطار عندي قريبًا بعدما أتفق مع كل الشلة كعادتي السنوية، لكنه قال إنه يصطاف في الإسكندرية منذ خمسة أيام وأمامه عشرة أيام أخرى حتى يعود وسـيوافق ذلك اليوم الثامن والعشرين من رمضان في الفترة التي نعد أو نشـتري فيها الكعك وترفع الدعوات، ثم أبدى أساه لعدم وجوده في القاهرة لكي يلبي دعوتي وأحسست من داخلي بأنه أسى مصطنع، لذلـك عندمـا مزح بعدها وقال إننا يمكن أن نتقابل في العيد ونقضي سـهرة معًـا في إحدى لياليه، قلت له دونما لحظـة واحدة من التفكير إنني لن أكون فـي القاهـرة فترة العيد وسـأكون في السـاحل، ورد ذلك عفـو الخاطر لكن بعـد أن انتهت مكالمتنـا وجدتها فكرة لطيفة ومن الممكن أن أقنع «بسـمة»

بالمجـيء معي، وسـأقبل وجودها حتى لـو كان «روميو بتاعها» سـيقيم في غرفة تجاورنا، ويبدو أن هذا التنازل الذي فكرت فيه وصلها بتوارد الخواطر فـي نفس اللحظة، لأنها هاتفتنـي ودعتني لاختيار يوم أفطر فيه معها بصحبة «خيـري» في أي مكان أفضلـه، غاظني أنها ربحت مسـاحات باعتذاري لها عـن غلطتـي معها لكني لـم أكلمها بحـدة أو أُجب دعوتها، فقـط قلت لها: «ربنا يسـهل».. ولأنها تتوقع هذا الرد أضافت بسـرعة بأنـي ممكن أن أدعو «إبراهيـم» أو «فريـد» أو «أحمـد الضـوي» وعملـت Streess على حروف الأخير وهي تتكلم، أخبرتها بأني سأصطحب «فريد» وأتفق معه على موعد مناسـب، بانت الدهشة على صوتها وكررت اسم «فريد» مرتين ثم اضطرت للقول إن «خيري» سيسـعد جدًّا بلمتنا على الإفطار، ووجدتها تهمس عقب هذه العبارة وهي تسـألني متى سأدعو الشـلة إلى الإفطار في منزلي، فهمت غرضها على الفور.. إذن دعوتها غير بريئة، جعلت «خيري» يبدو كأنه الداعي إلى الإفطار بالخارج حتى إذا أقمت حفلتي أجد نفسـي مضطرة إلى دعوته، ولـم أشـأ إغضابها وأخبرتها بأني سـأختار يومًا مناسبًا أدعو فيه الجميع وفي قرارة نفسي كنت قد اتخذت قرارًا بعدم استضافتهم في بيتي في رمضان هذا العام.. ولن أرهق نفسي في إعداد الطعام وطهوه وبهدلة بيتي وسماع ثرثرات فارغة والتربص بأية بوادر مشاحنات ووأدها.. لا داعي لكل هذا وعندي من الحجج والمبررات ما يكفي، وفي ختام مكالمتها سألتني بخبث هل دخلت إلى حسـاب «رنا» في الفيس بوك؟ رددت بدهشـة متسـائلة: «هل فعَّلت رنا حسـابها وهي مـا تزال في أمريكا؟».. ضحكت «بسـمة» وهـي تخبرني بأن «رنا» أول أمس فعَّلت حسابها و«شيَّرت» صورًا لها في عدة ولايات أمريكية مع الأدباء الذين يشـاركونها هذه الفاعلية من شتى بلاد العالم، كنت لا أزال مندهشـة من جرأتها على نشـر هذه الصور التي قد تثير جنون طليقها، بينما

كان الاتفاق معها على الانتظار إلى أن تعود إلى القاهرة، لكن «بسمة» استهانت بمخاوفي وأكدت لي أن «رنا» تفهم مصلحتها جيدًا ولن تتخذ هذه الخطوة إلا وهي قد درست أبعادها، كما أن من حقها أن تنشر صورها وهي بصحبة كل هذا الجمع من أدباء العالم، لأن وجودها في أمريكا خطوة مهمة في طريقها الأدبي وحلم يحلم به كثير من المبدعين، ومن حقها أن تفتخر بذلك وتبين مكانتها الأدبية الجديدة، صرخت في «بسمة»: «مكانة إيه وهباب إيه يا بسمة؟ إنتي نسيتي إن طليقها خد الولد وخرج بره البلد، ولو كان عنده النية للصلح والرجوع نشر الصور دي في التوقيت ده هيجننه خالص.. وابقي قابليني لو شافت ابنها تاني.. أنا اللي قابلته وسمعته وحافظة ملامح وشه لغاية دلوقتي»، ببلادة ردت «بسمة»: «جيجي اطمني خالص.. طليقها هيرجع وهيتصالحوا.. هي أدرى بيه مننا ومدام جواه فيروس الأدب حيبقى محتاجلها خاصة بعد مكانتها الجديدة اللي بتتريقي عليها»، لم أقتنع بكلام «بسمة» وقلت بجدية: «كانت تصبر لما ترجع مصر وتعرف اللي حصل في غيابها وبعدين تنشر صورها»، قالت «بسمة» بسخرية: «هو بعد العيد بيتفت الكحك يا جيجي؟»، قبل أن تنهي المكالمة سألتها سؤالًا أخيرًا: «إنتي عملتي Chat معاها يا بسمة؟»، ردت «بسمة» بحزم: «لا طبعًا هو أنا عبيطة أديها فرصة تجرني في الكلام وأقولها على موضوع ابنها وأنكد عليها وهي في آخر أيام البعثة».

رفعت صوت التلفزيون بعد أن كنت قد وضعته على حده الأدنى، لكني لم أتحمل الأجزاء التي رأيتها من مسلسلاته وبرامجه لأكثر من نصف ساعة، فنمت مخمودة إلى أن يوقظني المنبه قبيل السحور.

ريم مطر

تحاصرني المرايا بأشكالها وأنواعها وصفاء مائها التي دخلت إلى مركز تجمعها حيث لا ملجأ لي في هذه اللحظة إلا هي.. كان يجب أن يطلقوا عليه «مجمع المرايا» لا «دورات المياه العمومية».. كنت أمرق بجانبي الأيمن من أمامها محاذرة أن يخطفني بريقها.. وكانت سيدات ومسنات وآنسات ومراهقات يتزين أمام عتبات المرايا وكان هذا يحميني بعض الشيء، فالسرية تفرض على كل مرآة التزام الحرص وعدم فضح عوالمها، ومن ثم فهذا التجمع البشري النسوي المحدود سيمنعها من خطف الشخص المختار إلى عالمها السري المجهول كما يأمرها سيدها، وأنا بما فعلته مؤخرًا في الساعات القليلة الماضية من المفترض بي ألا يرهبني المجهول، لكني اكتشفت أنه أكثر رعبًا من واقعي ومما أنا متورطة فيه، لذا عبرت بسرعة نحو أول باب حمام مفتوح وأغلقته على الفور، وخلعت ملابسي كلها وأعدت ارتداء الزي الذي اشتريته بعجالة طبقًا للدور الجديد المفترض أن أتقمصه في رحلة هربي، وانتهيت بسرعة من عملية الاستبدال، وكان الشعر الأشقر المستعار قد استقر على رأسي ولم يتبقَّ غير وضع لمسات صغيرة من المكياج تناسبه، وإلقاء نظرة على وجهي الجديد أمام مرآة طيبة تمنحني فرصة أخرى للبقاء في هذا العالم كي أكمل انتقامي، وبما أني أستبعد وجود مرآة طيبة في مجمع القطارات هذا العملاق بأنفاقه وقطاراته وموظفيه

ومسافريه. لذا عندما أطللت بجبهتي خارج الحمام ولم أجد غير فتاة واحدة أمام خمس مرايا بأحواضها.. خمس مرايا ذكور وأعضائها الجنسية تنطلق منها المياه لكنها ساكنة الآن تترقب جسد الفتاة الوقفة أمام إحداها، أرجعت جبهتي بسرعة ولم أتشجع بالخروج، ففتاة واحدة لا تكفي لحمايتي وربما تكون فتاة وهمية من عوالم المرآة تنتظر أن أجاورها ثم تدفعني من الظهر، ولحسن حظي ازدادت الجلبة فجأة وعندما تطلعت بحذر أكثر كانت النساء قد تزايدن في المكان فخرجت من الحمام وانتظرت حتى أتمت إحداهن تزينها وحللت مكانها وأنجزت مهمتي بسرعة.

الآن أنا شقراء بجسد أبناء شمال أورُبا ومن الصعب أن يكتشفني أحد حتى لو بثوا صوري في كل تلفزيونات العالم، لكن إجادتي التمثيل لا يجب أن أدعها تدفعني للتحدي بالوقوف أمام الشاشات التي توجد في كل الأبنية والأقبية، وفي فتارين المحلات وفوق شبابيك حجز التذاكر وأعلى سيور نقل الحقائب، وفي أمكنة تفريغ الشاحنات الضخمة، وعلى شاشتها تتدافع صور كل منتجات العطور وأدوات التجميل والألبسة والأغاني القصيرة والرقصات، والأنباء العاجلة التي من المحتمل أن تكون صورتي قبلما أتبدل موضوعة مع تحذيرات مني أو مكافآت تهدى لمن يستدل عليَّ، أنا الآن فتاة أخرى وسأنطلق في قطار سريع وجهته النمسا، ولحسن حظي عندما أقمت عند أختي «رويدا» لم أخبرها بأن وجهتي التالية هي مقابلة صديقتي «هايدي» في فيينا كما تواعدنا، ومن عظيم الحظ أيضا أن «رويدا» لا تعلم شيئًا عن «هايدي» غير أنها من أصدقاء طفولتي وقد انقطعت صلتي بها منذ زمن، وإلا لكانت أخبرت الشرطة بوجهتي وأفسدت خطة هروبي، أنا لم

أقصـد ما فعلته غير أنني فعلته وقد كان، اسـتفزني بما فيه الكفاية وتحملت، جعـل «رويـدا» تتـردد في عمـل توكيل لـي بالقنصليـة المصرية فـي جنيف يسـمح لي بالتنازل عن الشـقة نيابة عن نفسـي وعنها، وطلب أن نؤجل ذلك بعض الوقت حتى يأتي إلى مصر وسـاعتها سـيحصل على أفضل سعر للبيع أو التنـازل وسـيكون الأقدر فـي الاتفاق مع أصحاب البيـت وإقناعهم بعدم المبالغـة في النسـبة التي سـيحصلون عليها، أعدت إخباره بهـدوء بأن معنى هـذا أن مشـروعي سـيتأخر أكثر وأنـا في حاجة ملحـة لأي مبلغ كـي أبدأ به توضيـب المـكان الـذي سأشـتريه خصيصًـا للمشـروع، أصر علـى موقفه، طلبـت منه أن يعود إلى عمله ونرجئ الموضوع إلى الغد حتى أتيح له فرصة للتفكيـر، لكن قدره كان يراوغه وجعل رأسـه أصلب مما قبـل، وقال إنه من أجلـي سـمح بتغيـب «رويدا» عـن العمل هذا اليـوم ولحق بهـا وأن محله لا يحتمـل غيابهمـا ليومين متتاليين، ثم حسـم الأمر وأومأ لأختي «رويدا» بـأن تعطيني ردًّا، وكما توقعت بالضبط اعتذرت «رويدا» بابتسـامة شـاحبة وقالت لنؤجل ذلك إلى أول العام القادم وسـتأتي هي و«سـليم» للتصرف في الشقة، لكن الذي لم يتوقعاه أنَّ نصل سكين التفاحة الذي لم أستخدمه في قطعها، هذا النصل الأبيض اللامع انطفأ وميضه داخل جسـده، وانفجر الـدم وسـط صرخـة مكتومة لـ «رويـدا» أعقبها صـوت صدى سـقوطها علـى الأرض بينما تخاذل جسـد «سـليم» على مقعده، قفـزت إلى غرفتي وسـحبت حقيبتي وأوراقي وعبرت عليهما دون أن أراهما، لكنني شممت الدم.. دم طازج ملأ رأسي كمنبه قوي جعلني قوية ومنتبهة وحاسمة ضمن خياراتي السـريعة المحدودة، بعكس الدم الذي انفجر بمقربة مني وأنا في سـن الثامنة عشـرة على عتبات صالـة القمار والذي ظل هاجسـي لفترات

طويلة، ركبت وسائل مواصلات كثيرة حتى لا يفلح أحد في تعقبي ونجحت أخيرًا في الوصول إلى لوزان، إلى التي زاملتني منذ سنوات أثناء عملي لمدة محدودة في أحد الفنادق وكنت أشاركها السكن، لكني لم أجدها ولحسن حظي للمرة الثانية أنها تركت عنوانها الجديد لصاحبة المسكن فدلتني عليها، توجهت إليها مباشرة ووجدتها لكن لم يرُقني المسكن الجديد لأنه عبارة عن أستوديو غرفة واحدة ونتوء نصفه حمام ونصفه مطبخ، قابلتني «مليكة» بحميمية واستضافتني دون أسئلة ملحة واكتشفت أنها تركت الفندق للاستغناء عنها وضاقت بها الأحوال وتعمل الآن جليسة كلاب، تقضي مع الكلاب ساعات أفضل مما قضتها مع البني آدميين، وإن عائدها مجزٍ وعيبها أنها تنتقل بين شقق وأستوديوهات وقصور، وأنها كلما ارتبطت بعاطفة مع كلب لا يطلبها أصحابه فيما بعد لظروف شتى، كانت «مليكة» كريمة معي جدًّا وكنت أحمل لها مشاعر طيبة منذ الفترة التي سكنا فيها معًا والتي بدأت بالمشاكل لأن «مليكة» كانت سحاقية وقد حاولت معي وتغابيت عليها ثم تصالحنا، ولم تعد تقرب هذه المنطقة مرة أخرى، لذا كنت أنام على الكنبة الوحيدة التي تمتلكها وكانت تنام على الأرض حسب رغبتها وإلحاحها وقد أخبرتها بأني سأغادر إلى القاهرة في اليوم التالي، ورجتني أن أمكث معها أسبوعًا على الأقل لكني ادعيت ارتباطي بعمل مهم في مصر ووعدتها بالعودة مرة أخرى، وعندما كانت «مليكة» بصحبة الكلاب التي باتت تفضلها على الناس، كنت قد تركت لها مبلغًا كبيرًا من المال من فرط امتناني لضيافتها التي أخرجتني تمامًا من معاناة التفكير فيما فعلته، ثم رحلت إلى زيورخ في اتجاه محطة القطار الدولية.

خضت الرحلة التي قررت أن تكون نهايتها فيينا حيث سألوذ مؤقتًا بـ «هايدي»، وبعد أن تستقر الأمور قليلًا سأتنقل بين البلدان المجاورة، ومن حسن حظي أن كل بلدان وسط أورُبا حاليًا ذات حدود مفتوحة على بعضها البعض، وأنهم يفترضون في الداخلين والخارجين حسن السلوك فلا يهتمون باستيقافهم والاستفسار منهم عن أسباب الدخول أو الخروج، وفي القطار كنت آمنة إلى حد ما وأشعر برضاء لأني أتقنت تنكري الذي جعل الوجوه تعبرني دون توقف ولو للحظة كي تتفرس فيَّ، وظللت أقلب صفحات الرواية الفرنسية التي بين يدي بإيقاع زمني ثابت للدلالة على أني أقرأها. رغم أني حاولت ذلك وفشلت تمامًا لاضطراب فكري، واستغرقني هذا تمامًا إلى درجة جعلتني لا أنتبه لصعود راكب من محطته والجلوس بجواري أو بالذين يجلسون أمامي وركبهم تكاد تلامس ركبتي، وبعد أن غادرت القطار لم أتذكر إن كانوا إناثًا أم ذكورًا، وطبقًا لخطتي ركبت في المقصورات العادية وابتعدت عن السفر في كابينة نوم فردية، لأن هذه الكبائن معرضة أكثر للتفتيش أو الاسترابة ممن بداخلها، ثم أخيرًا وصلت إلى فيينا واخترت مطعمًا منزويًا لأتناول غذائي ومشروباتي وأفكر قليلًا فيما سأخبر «هايدي» به عند وصولي.. وبعد ساعة أو أكثر من التفكير وتفنيد كل الاحتمالات قررت أن أخبرها بكل ما حدث لأني لا أشك لحظة واحدة في ولاء «هايدي» وحبها ومتانة صداقتنا التي لا تستلزم بقاءنا معًا لفترات طويلة، هناك فقط مشكلة كبيرة هي التي جعلتني أتردد كثيرًا في الحديث معها بصراحة عما ارتكبته، حبيبها ورفيقها وزوجها المحتمل «مصطفى صلاح» الذي يقيم معها حاليًا، والتي خططت ودبرت أن تنقل مكان عملها إلى أحد المكاتب الصغيرة في فيينا لتكون بالقرب منه وضحّت في سبيل

ذلـك بالكثيـر، مهما أقسـمت لي بأنهـا لن تخبـره بحكايتي ومهمـا أقنعتني بصدقها في ذلك، ومهما اجتهدت في تعليمها أن تتماسـك وتحيِّد ملامحها حتى لا يبدو عليها قلق ما يجعل «مصطفى» يسـتريب، سـتخذلني في لحظة إما للفضول الذي دائمًا يقود الإنسـان إلى حتفه عندما لا يحتفظ بالأسـرار، وإمـا لأنهـا أنثى تحـب وأنا أدرى الناس بـ «هايدي»، سـتكافئ «مصطفى» عقـب لحظـة أورجازم فائقة بـأن تخبره بحكايتي، وهنا سـتحدث مجموعة مـن المصائـب، إما أن يبلغ البوليس عني على الفور وإن كنت أسـتبعد ذلك خوفًـا علـى «هايـدي» لو كان يحبهـا بقدر نصف مـا حكته «هايـدي»، وإما أن يجعـل «هايـدي» تسـتضيفني ليومين أو ثلاثـة بعد علمـه بمصيبتي على ألا أريهمـا وجهـي مـرة أخـرى، وأن أقسـم لهما إنه فـي حالـة القبض عليَّ لا أخبـر البوليـس بأنـي كنت فـي ضيافتهما حتـى لا تفسـد محاولاتهما في اكتسـاب الجنسـية، أو مـن الممكـن أن يكـون «مصطفى» مـن معدن طيب ويقبـل أن يضيفنـي إلى أجل قصير حتى أفكر في رحلـة الهرب التالية، لكن حتى هذا الاحتمال خطير جدًّا لأني سـأظل أنظر إليه بتشـكك وهذا يجعل ذهنـي يضطـرب أكثر وتحدث المصائب لذلك، وهنـاك أيضًا نقطة لم تغب عني، أن «مصطفى» سيبلغ «أحمد الضوي» على الفور من خلال الـ Skype ولا أدري كيف سـيتقبل الأمر؟ لكن من المؤكد أن القاهرة كلها سـتعرف.. وأنـا التي لم أتصل بـ «اسـتيلا» لأعرفهـا بما حدث ولا عنـدي النية لذلك، لكن ليس بمقـدوري التحكم في الآخرين بعد ما فعلته.. هناك احتمال كبير أنه بعد أن بثت وكالات الأنباء السويسـرية وقائع جريمتي أن تكون صوري وصور أصدقائي في أورُبا على كل الشاشـات ويصبح لا داعي لإخفاء خبر معلـن عـن «هايدي»، وأجدها تفتح بابها وتسـتقبلني بالأحضان وتسـحبني

إلـى الداخل حيث رجال شـرطة منتظريـن في ضجر وصولـي إلى محطتي الأخيـرة. وطبقًا لما درسـته فـي الدرامـا وتطوراتها وتحولاتهـا ربما يكون البوليس السويسـري قد منع الصحافة ووكالات الأنباء من الحديث أو نشر أخبـار الجريمة كنـوع من التكتيك للقبض على القاتـل الآمن! ياه يا «ريم»، ما كل هذا الجنون؟! بعد أن كنت قد حسـمت موضوع ذهابي إلى «هايدي» عاودنـي التـردد ثم قررت فـي لحظة عبثية أن أذهب إلى أقرب صالة سـينما وأرى فيلمًا كيفما اتفق لعلي أجد إشارة به تحسم ترددي.

أحمد الضوي

فعل «عماد» أقصى ما يمكنه وتفرغ لي تمامًا وأنهى احتياجاتي في سرعات قياسية محترمًا رغبتي في عدم المجادلة وقد ساعده على ذلك أن لديَّ تأشيرة Schengen تتيح لي دخول مناطق الاتحاد الأورُبي، وكان «مصطفى صلاح» قد حجز لي غرفة في فندق أربع نجوم في الحي الثاني بمدينة فيينا بالقرب من منزله وعمله في Wiener Philhar Moniker «أوركسترا فيينا الفيلهارموني» والذي يؤدي عرضه في Wiener Staatsoper «أوبرا فيينا» كما كتبها أثناء الـ Chat وهو يخبرني بأن «ريم» واقعة في مشكلة كبيرة تستلزم وجودي إلى جوارها، وقد حاولت طويلًا أن أجعله يفصح عنها لكنه رفض وأقسم إن «هايدي» لم تخبره بما تورطت فيه «ريم» لكنه لم يقدر أن يلتزم الصمت ولا يطلب مني ضرورة الحضور الفوري، وشدد على أن أبذل كل جهدي لكي آتي قبل أن تغادر «ريم» النمسا وتخفي آثارها.

كان من الممكن أن أتغافل عن الأمر وأنا على شبه يقين من أن «ريم» ستتغلب على الأمر مهما كان وتنتهي الغمة أو لا تنتهي وأكمل حياتي كيفما اتفق، لكني وجدت نفسي مدفوعًا إلى السفر للوقوف إلى جوارها مهما كان ما فعلته ومغبة ذلك على مستقبلي إن كان لي مستقبل ما زال مدخرًا، وأخبرت «عماد» بأن «ريم» في مأزق وبرغبتي في السفر السريع، وتساخف

في البداية مؤكدًا أن «ريم» قد قتلت أختها وزوج أختها ومجموعة من جيرانها وأنه من الأفضل ألا أتورط في الأمر، وسببته ورفضت مساندته وقلت له إني سأتصرف بمفردي، لحظتها اعتدل وبدأ يعاونني بهمة ونشاط حتى أنهى لي إجراءات السفر وصحبني إلى صالة المغادرة والضباط يحيوننا ثم همس لي وأنا بصدد ركوب الباص الذي سيحط بي على سلم الطائرة: «حاول أول ما توصل تبعتلي رقمك النمساوي عشان أنا هاكون اتصرفت وعرفت حد من الزملا اللي في الإنتربول وهابعتلك رقمه عشان يساعدك هناك»..

كان الباص بركابه في انتظاري وعلى وجه أمين الشرطة ابتسامة لزجة موجهة لزي الشرطة الذي يرتديه «عماد»، وكنت على آخري من الضيق والقلق والسخافة، ووجدت صوتي يعلو و«عماد» ينكمش وأمين الشرطة مندهش وأنا أكاد أسبه معلنًا أني لن أعرفه مرة أخرى ولا أريد أن أرى وجهه مرة ثانية.

جيهان العرابي

أصر «الوشـاحي» علـى مقابلته وسـط أصدقائه ومحبيه فـي أول ظهور علنـي لـه بعـد شـفائه بمطعم «أوسـتريل» بوسـط البلـد، وقابلنـي بترحاب وبشاشة وبما أمكن أن يسترده من قوته السابقة، لكني لم أحتمل البقاء معهم طويـلًا، لعـدة أسـباب منها ضيـق المكان وصخبه الشـديد بوجـود كل هذا الرهط من مريدي هـذا الرجل الجميل، ولأن فتات الأحاديث التي وصلت إلى أذني متعثرة كانت كلها مجاملات أو ذكريات تجمعهم به سواء زملاء له أو من تلاميذه أو صحفيين من المهتمين بالشـأن التشـكيلي، كما أن المكان تعبـأ في خـلال وقت قصيـر بالدخان حتى كـدت أختنق لدرجـة أني عندما همست لـ «الوشاحي» برغبتي في الرحيل، وفشل في استبقائي مستنفدًا كل مبرراتـه طلبـت منه برجاء أن يغـادر مع صحبته إلى مـكان آخر مفتوح حتى لا تنتكس صحته، ولحظتها ظن «الوشـاحي» أن هذا هو السبب الرئيسي في رحيلي فطلب الفاتورة وهو يطلب مني اختيار مكان آخر على مزاجي، لكني اعتذرت عن إكمال السهرة معه بحجة ارتباطي بمقابلة أخرى ووعدته بلقاء قريب في مكان على النيل أختاره له بنفسي.

وأنا في طريقي إلى مقابلة «بسـمة» و«خيري» على أحد مقاهي البورصة تذكـرت الحلـم الذي داهمنـي مؤخرًا وأزعجني بشـدة ورأيت فيـه «تميم» يراقبنـي وأنـا أعمل على آلـة المونتاج، كان خلف ظهـري يتفحص ما أفعله

وكنت أراه كطبيعة الأحلام بشكل جيد رغم أني محنية على الآلة، كانت «الشوتات» تتوالى أمامي لبعض الأعمال الفنية لـ«الوشاحي» وكنت أختار ما أحبه منها وأمزج ذلك بأجزاء من لقاء طويل مع «الوشاحي».. وكان «خيري بشارة» يظهر من بين اللقطات متحمسًا ويستخدم يديه كالإيطاليين ويهتف: «إكسلينت يا جيجي».. ثم تلاشى «خيري بشارة» فجأة وفريم جسده استطال واعرض حتى تشكل بجسد «تميم» ووجهه حين يغضب جدًّا.. وكان «تميم» في تلك اللحظة يتهمني بأني استخدمت «الشوتات» التي التقطتها له في سمبوزيوم أسوان في فيلم «الوشاحي».. اتهمني بالخيانة ولم يتهمني بالسرقة وظل يردد كلمة «خائنة» وأنا عاجزة عن الرد حتى أفقت من هذا الحلم..

الحلم الذي كنت فيه سعيدة في ثلاثة أرباع زمنه، ربعه الكابوسي الأخير أزعجني جدًّا وعندما صحوت لم أستطع أن أحلل مشاهده العبثية تحليلًا منطقيًّا.. ففيلم «الوشاحي» ما زال مشروعًا على الورق وأنا سأقوم بتصويره فقط ولا علاقة لي بمونتاجه، كما أن «تميم» لم يسمح لي بتصويره وهو يعمل في أثناء زيارتي لسمبوزيوم أسوان الدولي فكيف أستخدم هذه الشوتات لصالح «الوشاحي»، ثم إن «الوشاحي» هو أستاذ «تميم» وملهمه لماذا إذن كل هذا الضيق واتهامات الخيانة؟

قررت عدم إخبار أحد بهذا الكابوس؟ حتى «بسمة» التي بت أحكي لها كثيرًا مما يمر بي لمجرد إضاعة الوقت. وبمجرد ما فكرت في ذلك اتصل بي «الوشاحي» طالبًا حضور الاحتفالية بشفائه، ووافقت على الفور لكني غادرت بسرعة ربما لأني وسط الهدير الصاخب هناك كانت تعابثني

ومضات فكرية خاطفة تسائلني عن دلالة هذا التوافق العظيم بين انتهاء حلم أتهم فيه بخيانة «تميم» لصالح «الوشـاحي» باتصال «الوشاحي» بذات نفسه طالبًا ضرورة حضوري!

كان مقهـى البورصـة مزدحمًـا جـدًّا ومـن الرصيـف المقابل لـه رأيت «بسـمة» جالسـة مع شـاب وفتاة لا أعرفهما فقررت الاتصال بها، وبعد أول كلمـة تبادلناهـا حـددت موقعي بدقة وظلت تشـير إلى مكانهـا ببلاهة وهي تدعوني للقدوم إليها، ولـم تتوقف إلا بعد أن صرخت فيها وأنا أخبرها بأني لن أجلس معها وسط هذا الزحام الكبير وطلبت منها أن تلحق بي في حديقة جروبي عدلي، قالت إن «خيري» في مشوار وسيعود إليها على المقهى، قلت لهـا بغيظ أن تخبره بأنها سـتلتقيني هناك حتى يلحـق بنا، برطمت بغمغمات أعرفها عندما توافق على شـيء لا يروقها فخمنت أن خطتها كانت أن تنتظر «خيري» حتى يجيء وتباهي به الشاب والفتاة اللذين يجلسان معها. وصلت إلـى حديقة جروبي ونصف حواري مع نفسـي لم يكتمل وكنت بحاجة إلى الاختلاء بتلك النفس الصعبة دقائق قبل مجيء «بسـمة» لعلي أحسـم بعض الأمور، ويبدو أني لـم أنتبه إلى «الجرسون» النوبي وهو يحييني بابتسامة في أثناء قيامه بعدل كراسـي المنضدة، التي كانـت تبدو من بعيد كغربان تنقض علـى فريسـة متعبـة، أدركت بعـد انصراف «الجرسـون» غلظتـي وجهامتي فنهضـت ولحقت به واعتذرت له بشـدة بحجة الانشـغال، وكان ممتنًّا جدًّا لاعتذاري وخجولًا ويحاول بشـتى الطرق إيقافي عن الاستطراد، وهو ينظر يمينًا ويسـارًا في أرجاء الحديقة المشـغولة فقط ببضـع مناضد عليها أزواج محبـة، كأنه يخشـى أن يلاحظ أحـد أني أعتذر له، عدت إلـى منضدتي وقد تغيرت حالتي بتأثير الابتسامة الخجلى للنوبي المسن الجميل.

وبمجـرد أن تجهزت لتهيئة مسـاحات التأمل في رأسـي، رنَّ المحمول واسـتأت عندما لمحت اسـم «فريد»، كنت قد ضقت بتغلغله في حيزي في الفترة الأخيرة، ويبدو أن «فريد» بعد أن تأكد من عثور توءمه «إبراهيم» على ست الحسن والجمال النجمة الصاعدة ونيته بالزواج منها أحسَّ بأن الطريق قـد خلا أمامـه لاقتحام حصوني. ولأنه الآن بات بعيدًا عـن قرينه «إبراهيم» سواء برغبته، أو بناءً على رغبة الأمورة السنيورة التي أملتها على «إبراهيم».. فقد أصبحا الآن شبه منفصلين ولـم يعُدا كالسابق توءمين ملتصقين كتشنيعة «بسمة»، ومن المحتمل أن «فريد» يريد تعويض ذلك بالالتصاق بي وفرض نفسـه علـى وجودي فأصبح يكثر مـن اتصالاته وطلباته الالتقـاء بي إما لأنه يفتقدنـي أو لأنـه يريـد أن يأخذ رأيي فـي موضوع وغالبًا مـا يكون موضوع «فاكس» كما تقول «بسـمة» عن الموضوعات التافهة، ولحسن حظه أني لم أعـد «جيهان» القديمة، بات صدري أرحب كثيـرًا وبتُّ كوارثِ ثروةٍ لم تكن في الحسبان صار يوزعها بدون حساب، بتُّ أعطي فرصًا تلو الفرص وقابلت مرشـحًا للزواج مني في بيت أخي بين فرحة امرأته «حنان» ودهشة أخي التي لم تتوقف، ورغم أنها منحتني أسـوأ ما في سلتها. قاضٍ مسنٌّ فوق الخمسين وأرمـلٌ مثلـي ولديه أربع فتيات أكبرهن في الجامعـة وأصغرهن في المرحلة الإعدادية. في عصر آخر من عصور حياتي كنت سـأرفض بغلاسـة – هذا إن كنت وافقت على مقابلته أصلًا – وسأمنع زوجة أخي من فتح هذا الموضوع نهائيًّا، لكنني رفضت بأدب وعندما انصرف الرجل اعتذرت لها وطلبت منها بهدوء أن تجمعني فقط بمَن يقربني في السن وليس في عهدته أطفال، وسألني أخي كمحقق يرتاب في المتهم ماذا فعلت بالشـخص الذي قلت إنه مناسـب وأدرس حالته على مهل؟ أجبته بأنه ما زال في موضع الاختبار.

لكن الشخص المقصود سواء كان هامش شعوري ساعتها يقصد «أحمد الضوي» أو «فريد» أو سواهما ما يزالون تحت الاختبار و«الضوي» بالذات ينفلت كشمع ساخن يصبه نحات غير محترف في قالب.

اتصل بي «أحمد الضوي» وهنأني بالعيد وقال إنه متاح في القاهرة ويمكنني لقاؤه في اليوم الذي أختاره، لكني بتشفٍّ أخبرته بأني أصطاف في الساحل وعند عودتي سأتصل به، ومرت أيام وليالٍ ولم يتصل بي بعدها، وعندما زهقت من مطاردات «فريد» اللا مرئية اتصلت بـ «أحمد الضوي» لعلي أعيد التوازن إلى حركة المحيطين بي، ربما ذلك يجعل «فريد» يهدأ ويعرف أنه ليس بمفرده في عالمي، لكني وجدت محموله مغلقًا مرات كثيرة ثم أطعت نفسي أخيرًا واتصلت على شركته وهناك أخبروني بأن «أحمد الضوي» في مهمة عمل في النمسا، ولم أدرِ هل مهمة عمله تلك من تأثير كلامي السابق معه بضرورة الاهتمام بشغله أم لأمور أخرى لا أعلمها، بينما «بسمة» علَّقت ساخرة بأن «أحمد الضوي» هو مجموعة خلايا من الغموض، وأني في النهاية سأكتشف أنه متزوج اثنتين على الأقل، ومُلقٍ بهما في الصعيد، وعللت ذلك بأنه لم يكلمني مطلقًا عن أصوله الجنوبية ولو بدافع التقرب مني، لم آخذ كلامها بالجد لأن على رأسها بطحة، عاود «فريد» الاتصال فوبخته برسالة قصيرة أعلمه فيها بانشغالي وأنتقد اتصالاته المستمرة، ثم كلمتني «بسمة» وقالت إن «خيري» لا يرد عليها لانشغاله وستنتظر في مكانها حتى يرد وتخبره بتغيير المكان الذي ستنتظره فيه، رددت بحنق عليها وأمهلتها نصف ساعة فقط هددتها بالانصراف بعدها، وكانت «بسمة» قد أصبحت من أعمدة عالمي الجديد وبتنا لا نفترق كثيرًا وقضت معي بضعة أيام في الساحل بمفردها، وادعت أنها سترفد من الشغل

لكثرة إجازاتها مع أني واثقة أن «خيري» لو طلب منها السفر معه إلى أستراليا لحصلت على كل الأيام التي ترغبها مدفوعة الأجر من شركتها، وجاء «خيري» إلينا في المصيف - بعد أن استأذنتني «بسمة» - ورحبت بذلك لكنه سهر معنا في الإسكندرية وبات في فندق قريب وفي الحقيقة بدأت نظرتي تتغير تجاهه إلى الأفضل، وأعجبت برجاحة عقله وتفكيره المنتظم وكانت «بسمة» في الوقت ذاته قد بعدت عن استفزازي بالتحرشات المتبادلة والتي سبق ووبختها عليها، وازددت قربًا من «بسمة» في الآونة الأخيرة جدًّا بعد وصول «رنا» من رحلتها الميمونة في أمريكا، وكنا قد ذهبنا لتهنئتها بالعودة ومشاركتها مصابها الأليم في اختفاء طليقها وابنها، وقد أدت أمامنا «شو درامي سخيف» يعود لأيام «أمينة رزق»، وادَّعت أن فرحتها برحلة الأشهر الثلاثة العالمية تبخرت عند عودتها وسماعها بالخبر الفظيع، وقالت إنها ستتفرغ لرحلة بحث عن ابنها في كل بقعة من بقاع الدنيا، وإنها مستعدة للتنازل عن كل ما حققته من مجد! في مقابل سماع صوته مرة واحدة، وفي الحقيقة كان الأب المتواجد وسطنا هو الوحيد الذي تأثر بدموع ابنته، بينما أنا و«بسمة» كنا نتناوب احتضانها ثم ننظر إلى بعض وعيوننا تكاد تشي بنا وتعلن لهما أننا غير مصدقين هذا الانفعال الزائف، مرتان فقط زرناها بعد ذلك. وسمعنا هراءً كثيرًا ينطلق من فمها وكانت «بسمة» تغافلها وتغمز لي وهي تسألها عن أيامها في أمريكا، فتدعي «رنا» أنها غير مستعدة للكلام في هذا، ثم سرعان ما تفتح اللاب توب وترينا صورها في كل الولايات التي زارتها وقرأت فيها قصصها. وفي كلتا المرتين كانت «بسمة» تؤكد لي أن «رنا» ستنجح في معرفة البلد الذي اختفى فيه طليقها «فؤاد» وستوفق في إرجاعه إليها وتظبيطه على وضعها الجديد، وكنت أشكك في كلامها إلى

أن أخبرتني بأن «رنا» عندها مقابلة تلفزيونية في مساء الغد في برنامج شهير ومذيعة أشهر ويراه الناس في الداخل والخارج وطلبت مني رؤيته، وحتى لو لم تطلب كان فضولي سيقودني إلى مشاهدته، وكنت أظن أن «رنا» ستظهر في فقرة من فقراته لكني اندهشت من تقديم المذيعة لـ «رنا» باعتبارها أديبة متحققة ورفعت رأس مصر في الخارج واهتم العالم بترجمة أعمالها! وأنها في سبيل الوطن تعرضت لمحنة شخصية وتريد أخذ رأي المشاهدين فيها! صُعقت من هذا الجزء الأخير وطلبت «بسمة» على الفور ووجدتها تضحك بشدة على الجانب الآخر ثم تهمس لي: «مش قلتلك رنا بتعمل فخ لفؤاد.. أهي حطتله حتة الجبنة وإن ماطلعش راسه عشان ياكلها أكيد حد من زمايله في البلد اللي مختفي فيه هيقوله أو يتبرع ويعمل مداخلة يفضح مكانه»، لم أكن أتصور أن «رنا» من الممكن أن تفعل ذلك ونفيت بشدة، لكن «بسمة» واصلت همسها: «شوفي الحلقة كلها يا جيجي وأنا هاشوفها ويَّا مامي عشان عارفاها بتحب الأفلام الهندي وهتتأثر قوي بمشكلة رنا اللي كانت مش طايقاها من ساعة سفرها أمريكا.. يمكن ده ينفعني مستقبلًا لما أحب أعمل حاجة مجنونة»..

أنا التي درست أربع سنوات في معهد السينما وعملت لفترة في ذلك المجال، وأدعي أني ملمة بعناصره من التصوير والإنتاج والإخراج والسيناريو والمكياج والديكور وخلافه.. لم أكن سأقدمها على الشاشة بهذا القدر من المهارة التي أطلت بها علينا.. فستان أسود شيك جدًّا ومكياج خفيف إلى درجة عدم الملاحظة وعينان كأنهما كفَّتا عن البكاء في التو واللحظة وشحوب الفتاة المسكينة التي غدرت بها الدنيا على حين غرة، تكلمت «رنا» فيما يشبه الهمس عن رحلتها وطالبتها المذيعة أكثر من

مرة برفع الصوت وساعدت في نقل صوتها الهامس بإعادته مرة أخرى إلى المشاهدين صاخبًا.. وكانت «رنا» كلما مضى الوقت تعتدل ذاكرتها وتذكر الطريف والمهم في رحلة الأشهر الثلاثة، وهي بعثة عادية ينضم إليها كتاب عاديون من مصر كل عام وتمر دون جلبة أو ضجيج، لكن «رنا» حولتها بقدرة قادر إلى مهمة قومية.. وفي الفقرة الأخيرة من البرنامج تجلت مقدرة «رنا» التمثيلية التي ما زلت لا أصدق أنها تمتلكها وكنت أظن أن «بسمة» هي الوحيدة منَّا التي بمقدورها أن تمثل، تحشرج صوتها في بداية الحكي واحتبس حينًا وانهالت عليها المذيعة بالمناديل الكلينكس لتمسح دموعها التي بدأت في النزول مع عقدة الحكاية، والتي ملخصها أنها تركت ابنها وطلبت الطلاق من زوجها الذي تحبه لأنها لم تستطع أن ترفض مهمة تُعلي من قيمة مصر، وكانت متخوفة أن زوجها سيمنع سفرها فاتخذت هذه الخطوة الخطأ، وأعلنت أمام الجمهور أنها أخطأت في حق زوجها ويكفي عقابًا أنها طُلِّقت من أعظم زوج في العالم وأنها الآن لا تريد شيئًا في الوجود غير سماع صوت طفلها، وأنها على استعداد تام للتنازل عن كل ما حققته في الأدب أو اعتزاله نهائيًا في مقابل أن ترى طفلها لمرة أخيرة، بكاء طويل أجبر المذيعة على أن تجعل المشهد أكثر سوقية عندما نهضت واحتضنتها ودمعت عيناها تضامنًا مع «رنا» لتملأ الشاشة كلها، ثم سمحت المذيعة بالمداخلات التي جاءت كلها في صالح «رنا» حتى إن إحدى المشاهدات اتصلت ولعنت طليقها، فاحتدت «رنا» وطلبت منها مسامحته معلنة للمرة المائة أنها أخطأت في حقه وفي النهاية واجهتنا المذيعة وهي تسبل عينيها.. وتجاهد لكي تقول كلامًا عاقلًا يدفع بطليق «رنا» إلى أن يسامحها أو على الأقل يمكنها من رؤية طفلها وهذا كله من أجل مصر!

أُذيع هذا البرنامج منذ ثلاثة أيام وقد أشارت إليه بعض الصحف لكن حتى الآن لم يطل «فؤاد» برأسه لكي نعرف مخبأه، وتراهني «بسمة» أنه سيفعل ذلك في القريب العاجل ومن داخلي أنا الآن أشد اقتناعًا بكل ما تؤكده «بسمة» حتى لو كان من قبيل الخرافات.

مضت نصف الساعة وعندما هممت بالرحيل اكتشفت أني لم أطلب مشروبًا بعد، لذا ناديت «الجرسون» كي يجهز علبة من الشيكولاتة وكيلو ساليزون ثم وجدت «بسمة» تندس بيننا وتطلب الأصناف نفسها وتجلس، وقالت في عجالة إنها ستبقى معي نصف ساعة فقط إلى أن يمر علينا «خيري» لأخذها إلى السينما، ثم تداركت وسألتني إن كنت أرغب في صحبتهما فاعتذرت. جاءت سيرة «رنا» في أول حديثنا كما اعتدنا مؤخرًا ولم يكن هناك جديد يُضاف، ثم سألتني «بسمة» فجأة عن رؤيتي لتجربتي مع «تميم» بعد مرور كل هذا الوقت، كدت أعتذر عن عدم الإجابة ثم وجدت نفسي مدفوعة للكلام، قلت لها إني فتنت بـ «تميم» وبفنه ومقولاته الكبرى التي جعلتني أتبناها وأرددها وراءه، وكان هذا من أكبر أخطائي فقد صنعت «فريم» لـ «تميم».. فريم أخلاقي ومعرفي لم يستطع الإفلات منه.. إنه بالنسبة لي أهم الرجال وجعله هذا لا يغير عليَّ أو يتظاهر بذلك، فهل من الممكن أن يغير الشخص الذي صنعت منه أسطورة وجعلت لا أحد من الرجال يماثله؟ وربما جعله هذا يكظم غيظه ويئد انفعالاته ولا يصرح بضيقه من بعض الرجال الذين أعرفهم أو على صلة بهم.. وجعلني لا ألحظ أي انفعالات سلبية تجاههم.. وعندما تبنيت آراءه عن الفن والمثل بمجرد أن حاول الإفلات منها تهشمت أجزاء كبيرة من صورته بداخلي.. ولعل هذه الصراعات هي التي أودت به مبكرًا!

وقالت «بسـمة» إن ادعاءها بأنها طُلِّقت من زوجها السـابق بسبب بُخله فيـه بعض الحق، لكن المشـكلة الحقيقية كانت كامنـة في أنه كان أقل دخلًا منهـا بكثير.. وفي بداية الزواج اشـترت له أمها سـيارة يذهـب بها إلى عمله وكانـت تسـاهم بنصف نفقـات البيت وهي النصـف الثاني. وقد اكتشـفت مؤخـرًا أنه كان يخاف منها لذا كان يلازمها.. وعندما اشـتد عوده وترقى في عمله وازداد دخله بانت رذالاته وسـخافاته وعلاقاته النسـائية.. واكتشـفت الأم أنه في سبيله للزواج من زميلة له في العمل دون علم «بسمة»، وتدخلت الأم وأبلغت أهل الفتاة وأفسدت الزيجة وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهـر البعير.. طلبت «بسـمة» بإصرار الطلاق منه بعد أن اكتشـفت أنه عاش معها سـبع سنوات.. أربع سـنوات منها أسير خوفه من أن يسحب من أسفل قدميه بساط الرفاهية.

بعد أن بُحنا ببعض أوجاعنا واسـترحنا.. قالت «بسـمة» إن كل ما عانينا منـه بتأثيـر مراهقتنا الغبية، اندهشـت وطلبـت منها أن تفسـر كلامها فقالت وهـي تضحك: «ما انتي عارفة يا جيجي أنا ورنا كنا من عشـاق عمرو دياب ومهووسـين بيـه قد إيه.. لدرجة إن لما قرينا فـي المجلات إنه عليه ضرايب كبيرة ومش قادر يدفعها.. طلبنا من كل بنات المدرسـة تشـتري كل شرايطه عشـان ماينحبسـش.. إنما إنتي يا جيجي لا سـألتي فينا ولا اشـتريتي شريط واحـد»، ضحكـت وقلت: «أنـا بصراحة ماحبتـوش أبدًا»، نظرت «بسـمة» تجاهـي بغيـظ وقالت: «عارفـة ما انتي كنتـي متيمة بالمطربيـن العجيبة زي الحجار ومنير ومدحت صالـح.. خصوصًا أغنية: أنا عايز اعيش في كوكب تانـي.. طول عمرك خيالية قوي».. اسـتفزني قولها فقلـت: «مالها الأغنية..

دي مـن أجمـل أغانيه»، حدقت في وجهي ثم قالـت بضحكة صاخبة: «هي حلـوة فعلًا.. أحسـن مـن الأغنية اللي كانت رنـا بتنم بيها عليكـي لما كنتي بتهشـي المعجبين زي الدبان»، سـألتها بدهشـة: «أغنية إيه دي؟».. أوقفت ضحكتهـا الممطوطة وقالـت: «بس ماتزعليش».. هززت رأسـي فأكملت: «أغنية سـمير الإسـكندراني.. يارب بلدي والمجتمع والناس.. اللي آخرها بيقول فيها لو مت اجعلني طوبة يعلوا بيها جدار»، اغتظت وقلت لها: «على فكرة إنتي سـافلة زيها بالظبط»، ظلت تبرر لي بأن «رنا» تقصد أن مشـاعري تجمدت بعد وفاة «تميم»، فطلبت منها السكوت ولحسن الحظ رنَّ تليفونها فنهضنا سويًّا متأهبتين للمغادرة.

أحمد الضوي

قابلنـي «مصطفـى» في ردهة الفندق الذي كان قـد حجز لي غرفة لطيفة به، كنت قد أخذت تاكسـي من المطار إليه مباشرة رغم أنه أرسل لي خريطة مفصلة لأسـرع طريقة للوصول إليه باستخدام الباص لأنه أرخص كثيرًا من التاكسـي، لكني لم أكن في وضع يسمح لي بحسابات الخسارة والربح وأنا فـي ظـل هذا الظـرف الصعب وقلق شـديد يملؤني بخصـوص «ريم»، كان «مصطفى» على علم مسـبق بأن «ريم» سـتزورهما عقب مغادرتها سويسـرا فمـا الـذي جعلـه يظن أن «ريـم» متورطة في شـيء مـا؟ ورغـم أن معرفتي بـ «مصطفى» ليسـت كبيرة مجـرد بضعة لقاءات وبضع سـاعات طويلة عبر الفضـاء الإلكتروني دعمت معرفتي به ووثقتني في آرائه وهذا ما دفعني إلى المجـيء، كان أحيانًا ونحن نتهاتف أو ندردش عبر الـ Skype يسـألني عن أموري مع «ريم»، وكنت أحس بأنه يخفي شيئًا يود أن يبوح لي به وحاولت كثيرًا اسـتدراجه للكلام، لكنه كان حذرًا جدًّا ويبرر أسئلته برغبته في معرفة تطـور الأمـور بينـي وبيـن «ريم» وهل سـتصل إلـى الـزواج؟ ويخبرني بأن «هايـدي» كلمته كثيرًا عـن صداقتها بـ «ريم» ثم يتمنى لـي التوفيق.. وكنت أبلـغ تهنئاته المحملة برغبة مسـتترة في ألا أواصل طريقي مع «ريم».. كنت أحس بما يخفيه بين سـطوره وسـألته كثيرًا عن موعـد زيارته للقاهرة؟ ليس رغبـة حميمة فـي أن أراه وأتكلم معه فـي الأمور العامة كمـا أخبرته، ولكن

لأعرف منه ما نجحت «ريم» في إخفائه عني وربما تدلُّهي في حب جسدها أعماني عن ملاحظته.. «مصطفى» لم يعد إلى القاهرة لكنني ذهبت إليه والمحصلة واحدة، ولا بد أن أعرف ولو أقل القليل مما تعرفه «هايدي» عن صديقتها «ريم» وأخبرت «مصطفى» به.

موعدي مع «مصطفى» كان ليلًا عقب فراغه من أداء بروفته في أوبرا فيينا وقد اتفق معي على العشاء سويًّا، ثم أبيت في الفندق على أن أتوجَّه إلى منزلهما غدًا في المساء لرؤية «ريم»، حيث سيكون متواجدًا في البيت لأنه ليس مرتبطًا بعمل ليلي في الغد، وقد كلمني في هاتف غرفة الفندق وهو ينهي بروفته وطلب مني انتظاره في ردهة الفندق، ولقيني بترحاب شديد ومحبة خالصة وكلما هممت بالسؤال عن «ريم» أوقفني ونحن نسير طالبًا مني الانتظار حتى ندخل المطعم الذي حجز لي طاولة فيه، وقال وهو يدخل إلى مصعد الباركينج: «والله ريم بخير اطمن»، وكان المطعم فخمًا وجميلًا ومدهشًا لكني لم أكن بحاجة إلى أن يشرح لي «مصطفى» طرازه المعماري ويذكر العظماء الذين تناولوا الطعام به، أو كيف لم يدمر في أثناء الحرب العالمية الثانية لأن ربة الجمال كانت تحرسه، سألته مستفزًّا عن ثمن الوجبة به، فضحك كثيرًا وقال إنه لم يقصد أن يقول إنه يستضيفني في أغلى مطاعم فيينا - رغم أنه كذلك - لأنه يحصل على بطاقات تتيح له خصمًا يصل إلى 50 ٪ في هذا المطعم ومطاعم مثيلة عقب الحفلات الكبرى التي يشارك فيها، وهنا تذكرت «عماد» فتبسمت، ولما وجد «مصطفى» أني ما زلت متوترًا في انتظار أن يخبرني بما حدث وليست لي رغبة في انتظار الطعام الذي أوصى به أو تناوله اضطر للكلام، أقسم «مصطفى» في البداية إن «هايدي» لم تخبره بأي شيء يخص مشكلة «ريم» هذه المرة، ونجحت

تمامًا في المحافظة على وجه شمعي طيلة الأيام الأربعة الفائتة منذ حضرت «ريم» إليهما، صحيح أنها تعجبت جدًّا من مداهمة «ريم» لنا دون إعلان عن حضورها، وكان هذا غريبًا جدًّا منها طبقًا لما قالته «هايدي»، وغير ذلك لم تصرح بشيء له معنى، حتى عندما سألها «مصطفى» عن تنكر «ريم» الغريب ساعة حضورها والذي جعلهما لا يعرفانها من الوهلة الأولى إلا بعد أن تكلمت، أجابته «هايدي» بأن «ريم» تحن كثيرًا إلى أيام عملها بالتمثيل وكانت كثيرًا ما تفاجئ أصدقاءها بتقمصها لشخصيات غريبة، وأنها هذه المرة أرادت أن تتنكر في هيئة فتاة أورُبية وتتحدث وتسير مثلهن في بلد أورُبي لترى إن كان سيكتشفها الناس أم أنها أتقنت الدور تمامًا، وكلام كثير من هذا الهراء طبقًا لما قاله «مصطفى» بررت به «هايدي» كل تصرف كان يبدر من «ريم» لحظتها ويندهش منه، وكان «مصطفى» في تلك اللحظة يومئ لي ليجعلني متفقًا مع رأيه وكنت قد بتُّ أشك في «مصطفى» نفسه وفي رجاحة عقله، وظننت أنه أحضرني بناءً على توهمات في رأسه، وكنت في الوقت ذاته أحسب ردود أفعال «ريم» على زيارتي ومدى عمق غضبها لحظة رؤيتي أتلصص على وجودها حتى في أورُبا، وكدت أخبر «مصطفى» بأني لن أزورهم في الغد وسآخذ الطائرة عائدًا إلى مصر، لولا أنه بدأ يركز أكثر في كلامه وبدأت كفة الميزان تميل ناحيته، قال إن «ريم» تعشت معهما ليلتها وكانت تتكلم في أمور عادية مثل أنها قادمة من سويسرا بعد أن زارت أختها واطمأنت عليها كما زارت بعض أصدقائها هناك، وأنها جاءت إلى فيينا كما وعدت «هايدي» وأرادت مفاجأتها بتنكرها الغريب وأنها لن تمكث طويلًا، فقط بضعة أيام إلى أن تتأكد من أن طليقها ومعه ابنتها «ملك» قد عادا إلى الخليج حتى تلحق بهما وتزور ابنتها وتعود بها إلى القاهرة،

وأضـاف «مصطفـى» أن كلام «ريم» منطقي وتسلسـله طبيعـي لكن ما لفت نظره أو سمعه على الأخص بما يتميز به كأغلب الموسيقيين من أذن مرهفة، أنـه رغـم أن «ريم» كانت تتكلم ببطء وبثبات عيـن إلا أن صوتها كان يتهدج بدرجـة لا تُلحـظ، ورغـم أنها حافظـت على ترابـط الأفكار إلا أنهـا عندما ذكـرت كلمة ابنتهـا اختلجت عيناها لحظـة كأنها تتذكر اسـم ابنتها ثم قالته بفرحة الاكتشاف، كنت مستغرقًا تمامًا فيما يقوله «مصطفى» ويبدو أن ذلك أرضاه لأنه بدأ يشرح أكثر: «أحمد.. الصوت مهمته إنه ينقل طاقة الفكرة من الداخل إلى الخارج والصوت يشـمل إيقاع الصوت ونسيج الصوت ونغمة الصـوت ولكل شـخص عجينة تخصه وتبين انفـراده اللي ممكن نقول عليه التنغيـم.. وصدقنـي يا أحمد التنغيم بتاعها لحظتهـا كان بيحمل طاقة مرعبة لدرجة إني شميت في صوتها ريحة الدم».

ارتبكت جدًّا ثم طلبت منه ألا يسـتطرد، وجاء العشـاء وحاولت جاهدًا ألا أزعلـه بعـدم الأكل وأجهض حفاوته بي، لـذا تناولت لقيمات من بعض الأصنـاف ثم تكلمنا في أمور عامـة وعند الانصراف أكدت له حضوري في المساء التالي بعد عودتهما من العمل وأخذت كارته الشخصي لكي أستدل على المكان.

ريم مطر

الفتـرة التي كنت أتواجد فيها بمفردي في شـقة «هايدي» عندما تغادرها هـي و«مصطفى» بسـبب عملهمـا، كانت هي الفترة الآمنة فـي حياتي والتي أعود فيها إلى «ريم» الطبيعية.. ما هذه الكذبة التي قلتها؟ متى كنت طبيعية؟ في مراهقتي.. في طفولتي.. في شبابي.. كلها مراحل مختلطة في ذهني.. ما زلت أحس بأني وليدة صغيرة قوية الملاحظة رغم أني لم أنطق بعد وتهدهدني خادمـة أرمينية وأرى كل هذه الأحداث تتدافع في الهواء كأنها تناشـدني أن أنتقـي مـن بينها فتـرة آمنة أختـار البقاء فيهـا.. لكن لا أمـان.. حتى في تلك اللحظات القليلة المختلسة من عالمي. أود أن أتوقف عن التفكير حتى ولو بالموت.. لكن هناك جارة مزعجة ألمانية في حدود الثلاثين من عمرها ولها زوج في حدود الخمسين من نفس الجنسية «لابدان» في الشقة المجاورة.. تلك الجارة اسـمها «هايكا» وزوجها الكهل اسمه «إيفالد».. وهو كاتب من منازلهم لأفلام وثائقية يعرض بعضها في «الناشـينوال جيوغرافيك».. وهي متفرغـة لكتابة مـا يمليه عليها ويبدو أنها كانت سـكرتيرته في أحد الأيام ثم صعَّدهـا إلى مرتبة الزوجة، ويبدو أيضًا أنهـا قد ملَّته أو زهقت منه وتريد أن تغير الـCarrer حتى ولو تحولت إلى سـحاقية.. كانت قد لمحتني وأنا أعد القهوة الفرنسـية في مطبخ «هايدي»، ولأني لم أتخلَّ عن الحذر خاصة بعد جريمتـي، كنـت أرتدي الباروكة الشـقراء فـي الأماكن المجروحـة بنوافذ، حيتنـي السـيدة وثرثرت بالألمانيـة ورددت عليها ببعض مـا أعرفه منها وأنا

أتجنب أن تنجح في اكتشاف تنكري، لأن الضوء كان يكشفني جدًّا في موقعي والظل يمنعني من أن أحدد تفاصيلها جيدًا، وخرجت من المطبخ بسرعة حاملة قهوتي، وظلت المسكينة بعد هذا اللقاء العابر للمناور تدق جرس الشقة وتخبط عليها برقة ثم ببعض الحدة تود أن تكمل التعارف، لكني لم أستجب لها على الإطلاق، وعندما رجعت «هايدي» أخبرتها بما حدث فأخبرتني بسيرة موجزة للسيدة «هايكا» وزوجها «إيفالد» وأضافت أنهما قوم لطفاء وليس لهما أصدقاء كثيرون في فيينا، وأنهما يتزاوران معهما بالتبادل في مناسبات عدة مثل أعياد الميلاد أو أعياد الزواج، اندهشت وقلت لـ«هايدي»: «أعياد ميلاد إيه وزواج إيه يا هايدي.. انتوا جيتوا فيينا بعد عيد الميلاد وبعدين هو إنتي اتجوزتي مصطفى عشان يبقالك عيد زواج»، بادلتني «هايدي» الابتسامة بضحكة وقالت: «مش الكريسماس يا ريم.. عيد ميلادي وعيد ميلاد مصطفى أما أعياد الجواز فقصدي عيدهم»، قلت لها: «ما علينا بس أرجوكي قولي أي حاجة للست الحشرية دي عشان ما تزنش إنها تتعرف عليّ»، وفي الحقيقة لم أكن مهتمة بالست وزوجها لكني كنت أعطي انطباعًا إلى «هايدي» بأني باقية معها لمدة طويلة خاصة وقد أوشكت على مغادرة فيينا ولم أكن قد حددت بعد محطتي الجديدة، وإن كنت أرْجح أن تكون في بلد إفريقي متخلف إلى حد ما وبدائي، لأرى ما تمنيت أن أراه وأخطط له ولأبعد عن التكنولوجيات والتقنيات وفي ظل رحلات هروب متواصلة.

أعتقد أني لن أكمل مكوثي مع «هايدي» أربعة أيام أخرى، وهناك بؤرتان في تفكيري الآني قد أستقر بإحداهما.. ألمانيا أو تركيا، وأفضل الأخيرة لأن وجودي هناك كشقراء أورُبية سيبعد الشك عن كوني شرقية

وراءهـا مصيبـة، تبقـى مشـكلة تدبيـر جواز سـفر مـزور أتحرك بـه بحرية، وهذه مشـكلة ليسـت هينة وتسـتلزم أن أعـدل في خطتي وأذهـب أولًا إلى برليـن بالتحديـد حيث سـأجد مـن ضمن الجاليـة التركيـة المنتشـرة هناك مَـن يتقـن تنفيـذ الأعمال القـذرة، لكن مـاذا سأسـمي نفسـي؟ «مونيكا».. «بريجيـت».. «صوفـي».. «أم الخيـر»؟وأي جنسـية سـأختارها؟ البـلاد الكبـرى المتقدمـة سيسـهل كشـف وثائقهـا عـن البـلاد التـي تمثـل نقاطًا لا تُرى على الخريطة.. فرسـان مالطة.. سـان مارينو.. قبرص.. وصولًا إلى الأكبر قليلًا.. السويد والدنمارك..

انقطع تفكيري بمجرد دخول «هايدي» المفاجئ قبل موعدها بساعتين، ورابني ذلك بشدة خاصة وقد دخلت وهي في حالة غير طبيعية من الفرحة، واسـتهلت المقابلة باحتضاني وتقبيلي ولـم ترد على سـؤالي عن سبب ذلك إلا بأنهـا تحمل أخبارًا سـعيدة جدًّا، ولـم أرها عند الدخـول حاملة بجانب حقيبتهـا إلا مظروفًا كبيرًا يتسـم بالأهمية من خلال الشـعار الرسـمي الذي لمحتـه من بعيد، كنت أغلـي من الفضول والاسـترابة وأتوقع في كل لحظة أن يقتحـم البوليس الشـقة ويقبضوا عليّ، وكانت في منتهى البرود تسـألني إن كنـت جائعـة كي تحضر لـي الأكل؟ بحـدة أخبرتها بأني أكلـت من فترة بسـيطة.. فنهضت وهي تقول إنها سـتعد لنا كأسـين من الفريمونت وتعود، كنـت كعصفـور صغير فـي قفص، أقبل صاحبـه عليه وهو فـي حالة جنونية وأمسـك بقفصـه وظـل يهزه بعنف فـي كل الاتجاهـات، والعصفـور الذي هـو أنـا يتخبط في أرجائه.. رأسـه حينًا فـي أرضية القفـص أو مصطدمة مع قضبانـه أو تنهمـر الحبوب الصغيرة على جسـده.. والعصفور يصرخ عندما

يخونـه جناحـاه وبدلًا مـن أن يكونـا أداة نجاة يقودانه مباشـرة إلـى الألم.. ثـم توقـف الرجل عـن هزِّ القفـص وأعاده إلـى مكانه وفتح بابـه كي يخرج العصفـور الملقى علـى أرضية القفص هامـدًا تتلاحق أنفاسـه بالكاد وعينه علـى الخـارج لكنه يعجز عن الانفـلات.. أنا هكذا الآن أرقـب النهاية بينما تنهـال على رأسـي المصائب.. وجال عقلي في أرجاء الشـقة كي أتذكر أين رأيت الآلات الحادة الكفيلة بالدفاع عن نفسـي وطعن الخائن.. لكنَّ شـيئًا من رضاء غريب داهمني و«هايدي» عائدة بالزجاجة وكأسـين فارغين على الصينية.. لعلها خافت أن تصب الكأسين في الخارج فأظن أنها وضعت لي سـمًّا أو منومًا.. وأتت بالمشـروب كي نحتسيه - على عينك يا تاجر - وهنا أنَّبت نفسي أن يخطر ببالي أن أسبب أذى لـ «هايدي»..

الـكأس أصبحت عدة كئوس حتى اسـتطاعت «هايـدي» امتلاك الجرأة كي تتكلم فيما يخصني، ورغم أني جاريتها في الشـراب شـفطة بشـفطة إلا أني لم أسـمح للكحول باستلابي، وظللت في أعلى درجات التركيز.. لكن يبدو أنه تمكن مني بعض الشيء لأني لم أقاطعها ولم أسبها أو أضربها وهي تخبرنـي على مهل وهي تتحسـس كلامهـا بأنها أخفت عنـي أمورًا تخصني يوميـن كاملين.. بـدأت كلامها من النهاية.. وهي تطلب مني أن نشـرب في نخب الأيام السـعيدة القادمة فابتسمت من هذا المزاح السقيم لكني عملت cheers وتلقيـت قبلاتها التي غمرتني بها عقب ذلك بدهشـة ولم أنطق، ثم قالـت لي بابتسـامة عريضـة: «ريم على فكرة سـليم جوز اختـك حي وزي الفـل ومـا اتقتلـش زي انتي ما فاكـرة»، كنت متماسـكة لذا قلـت لها بحدة عاديـة: «هايدي ما تعمليش عليـا دكتورة.. الصنف ده بأكرهه جدًّا.. أنا مش

مجنونة ولا بيتهيألي.. ولو في آخر كلامك هتقوليلي إني مارحتش سويسرا أصلًا وإني باتوهم.. غوري من قدامي وأنا حاخد شنطتي وأمشي»، قامت «هايدي» وعاودت أخذي بالحضن مثل أم مصطنعة وجلست بجواري طالبة مني أن أتركها تتكلم ثم أعلق في النهاية، قالت إن «استيلا» دخلت عليها أول أمس على الـ Skype وهي في العمل، وإنها كانت لا تنوي الرد عليها لولا الإلحاح، وأن «استيلا» اطمأنت أولًا على سلامتي ثم ذكرت لها أن أختي «رويدا» اتصلت بها وسألت عني بإلحاح، وأجابتها «استيلا» بأنها لا تعرف عني شيئًا بعد مغادرتي مصر، وأن «رويدا» قالت لها إن هناك مشادة بسيطة حصلت بيني وبين زوجها «سليم»، هربت «ريم» بعدها متصورة أن «سليم» تأذى، وأنها فقط تريد أن تخبرني بأن «سليم» بخير وأنهما سامحاني على ما فعلته تحت تأثير الغضب، وأكملت «هايدي» بأنها أحست أن ذلك بمثابة كمين لاصيطادي لذا أخبرت «استيلا» بأنها لم ترني ولم تسمع عني منذ فترة، لكن في اليوم التالي فوجئت بأن «رويدا» هي التي تخاطبها واضطرت للحديث معها لأنها افترضت لو لم تكلمها ستتأكد ظنون «رويدا» بأنها تعرف عني الكثير، وبأنها ربما ضيفتني عندها، قالت لها «رويدا» مثلما قالت لـ «استيلا» وشرحت لها بالتفصيل أن الطعنة كانت طعنة جانبية لامست غشاء الرئة وأنها عندما أفاقت لحسن الحظ لم تنزع السكين، رغم أنها همت بذلك وهي تمسح البصمات عن يد السكين، وأنهم في المستشفى نجحوا في إنقاذ حياة «سليم» وتقبلوا حكاية «رويدا» التي روتها عن ملابسات الحادث بأنهما كانا ذاهبين إلى العمل وتذكرت أنها نسيت محمولها فغادرت السيارة، وفوجئت عند عودتها باثنين ملثمين يهاجمان زوجها وأصابه أحدهما بهذه الطعنة.. وقد أكد «سليم» أقوالها عند

إفاقته بعد أن أملت «رويدا» عليه ذلك قبيل حضور الشـرطة إلى المستشفى لأخـذ أقوالـه، وأضافت أن الأمور تمـام ورجتها أن تخبرني بأي وسـيلة أنه نجا من الطعنة حتى لا أتورط في مشـاكل أكثر، وأضافت «هايدي» أن ذلك لـم يقنعهـا لـذا لم تخبرني بشـيء بـل جعلها هذا تحـس بـأن الحلقة تضيق مـن حولـي، وترددت فـي أن تطلب منـي الرحيل حتى لا أظـن أنها ضاقت مـن استضافتي، ظهـر الأمس فقـط تحققت «هايـدي» - كمـا ادعت – من أن «سـليم» بخير عندمـا جعلته «رويدا» يكلـم «اسـتيلا» ثـم يكلم «هايدي» بعد ذلك والكاميرا تسـتعرض كل جسـده وهو يتحرك أمامها بكل سـهولة، ولحظتهـا أطلقـت «هايدي» صرخة فرح لفتت انتبـاه «رويدا» بأني أقيم عند «هايـدي»، لذا تدخلت «رويدا» بسـرعة وقالت إنها سـتذهب إلى السـفارة المصريـة فـي الغـد لعمـل تنـازل بخصوص شـقة مصـر الجديـدة يتيح لي تأجيرهـا أو بيعهـا أو التصرف فيها كيفما أريـد دون الرجوع إليها، وأضافت «هايـدي» أنها لـم تنم ليلة الأمس وذكرتني بأنهـا رجعت مع «مصطفى» في سـاعة متأخرة جـدًّا حتى لا ألحظ عليها شـيئًا، وكانت فعلًا قـد اتصلت بي في تليفون المنزل وأخبرتني بارتباطهما المفاجئ في عشـاء عمل، وأدركت أنهمـا يريـدان فسـحة من الوقـت يختليان فيه فلـم أعقب، قالـت إنها ظلت خائفة طوال الليل وتطاردها الهواجس بأن هذا ربما يكون فخًّا مدبرًا بإحكام وقـد خانتنـي ودلت عليَّ، وكانت قد أخفت عـن «مصطفى» حقيقة ما يدور فلـم تجـد مَن تلجأ إليه بوساوسـها.. ثـم تلقت في مقر عملهـا الذي تركت عنوانه لـ «رويدا» هذا المظروف الخاص بالسـفارة المصرية في سويسـرا.. هنـا نطـت «هايدي» من جواري وأتت بالمظروف الـذي لم أقربه مما دفعها إلى فتحه وإخراج ورقة التنازل الموثقة من السفارة، وفحصتها وتأكدت من

حقيقتهـا، وتركتني «هايـدي» لحظات، ثم طلبت منـي أن أخاطب «رويدا» على الـSkype وأشـكرها فأرجأت ذلك بعض الوقت ودخلت الغرفة التي استضافتني فيها «هايدي» وأطفأت النور وخلعت كل ملابسي ورقدت أتأمل أحوالي وساءني جدًّا أني أخفقت في تسديد الطعنة. ثم خرجت وطلبت من «هايدي» أن تفتح الـ Skype وحدثتهما بمرارة القاتل الذي أفلت من الشنق الذي يسـتحقه بجدارة بعفو هزيل من ولي عهد تولى الحكم في التو بعد أن أباد عائلته.

جـاء «مصطفى صـلاح» وتناول معنا الغداء وقال إنـه ليس مرتبطًا بعمل في المساء واقترحت «هايدي» أن نخرج سويًّا للاحتفال، وباغتها «مصطفى» بالسـؤال عن أسباب الاحتفال فارتبكت ولاحقتها بأني أود الاحتفال معهما لقـرب مغادرتي، في تلك اللحظة لمحت تـرددًا ما على وجه «مصطفى» لم أتمكن من تحليله وخاصة عندما طلب منى تأجيل الاحتفال إلى الغد..

وفـي بدايـة مسـاء اليـوم التالي ظهـرت حـركات مريبة مـن «مصطفى» أربكتني أنا و«هايدي». وكانت تتم كلها من خلال تليفونه الذي يرن فيأخذه بعيـدًا ثم يعود وهكـذا أكثر من ثلاث مرات.. ثـم دق جرس الباب ونظرت «هايـدي» باندهـاش إلـى «مصطفى» الـذي تجاهلهـا وفتح البـاب ليدخل «أحمد الضوي»!

عندما لمحته وقد جعل منه القلق شخصًا مسنًّا ويائسًا، ابتسمت والتفت إلـى «هايدي» ولسـان حالي يقـول: «كيف اعتقدت أن هناك سـرًّا يمكن أن يحجب عن اثنين متحابين يتقاسمان فراشًا واحدًا؟»

أحمد الضوي

كان دخولي إلى شقة «مصطفى صلاح» بمثابة قنبلة انفجرت في الموجودين، حتى إن «مصطفى» أيضًا ارتبك رغم علمه المسبق بقدومي وجهوده في توجيهي عبر الهاتف حتى لا أتوه في السكة، كانت نظرة «ريم» أكثرهم غرابة لأن فيها مزيجًا من الدهشة والاستنكار والحيرة والغضب ولمسة بهجة، وكانت نظرة «هايدي» نظرة متحيرة متعجبة، وعندما تحولت «ريم» بنظرتها إلى «هايدي» ارتبكت في وضع الدفاع عن نفسها، مرت بضع ثوانٍ قليلة حتى انتبه «مصطفى» واحتضنني ونهضت «هايدي» من مكانها بارتباك أكثر، بينما لم تتحرك «ريم» من مكانها حتى صافحت «هايدي» واتجهت إليها، فقامت واحتضنتني ولم تفلت يديها الملتفتين حولي ووجدت نفسي أربت ظهرها برفق شديد وبتواصل، بينما كان «مصطفى» من خلف ظهري يعلن كأنه أمام كرسي الاعتراف بأنه الذي استدعاني - وهو يوجِّه كلامه إلى «ريم» - بعد أن أحسَّ بأن «ريم» تواجه متاعب ما، ثم أضاف بغرض تبرئة «هايدي» بأنها لم تخبره بشيء وقالت إن الأمور بخير فزاده ذلك حيرة، وجعله يتصل بي عبر الـ Skype ثم فوجئ بحضوري إلى فيينا على الفور للاطمئنان على «ريم» لذا أعطاني العنوان، أمسكت «ريم» بكفي وأجلستني بجوارها وبدت كأن «مصطفى» لم يقل شيئًا، مما جعل «هايدي» تتقدم نحونا وتمسد شعر «ريم»،

وعندما رفعت «ريم» رأسها نحوها بنظرة متسائلة، نكست «هايدي» رأسها وقالت إن ما يقوله «مصطفى» حقيقي وإنها لم تخبره بشيء، فابتسمت «ريم» وقالت إنها تصدقها، ثم عبرتها بسرعة وكانت أصابع يدي ما تزال تتخلل نهايات شعرها والتفتت إليَّ وقالت بابتسامة أكبر بأني لو كنت تقدمت في الحضور وجئت منذ ساعتين لكنت قد وجدت شعرها أشقر، لم أفهم فربتت ركبتي وقالت إنها ستحكي لي كثيرًا ثم سألتني هل تغديت؟ فأجبتها بنعم، فقالت إنها ستدعوني إلى الخروج لكي تفرجني على بعض ما تيسر من فيينا ثم نتعشى في الخارج، وكنت في أشد الخجل لأنها تعاملت وكأن «مصطفى» و«هايدي» لا وجود لهما عن قصد وسوء نية، قلت وليس في نيتي إحراجها إن «هايدي» و«مصطفى» طبعًا سيكونان معنا لأنهما أدرى بمعالم فيينا، فضحكت بافتعال وقالت: «طبعًا هو احنا كنا هنخرج من غيرهم! بس ما تقلقش لو تاهوا منا لأني برضه أعرف فيينا كويس»، ووجدت «هايدي» تنظر إلى «مصطفى» بارتباك ثم تعتذر لنا بأنها ستكون مشغولة لبعض الوقت هذا المساء لإنجاز بعض البيانات الخاصة بالعمل، ولحق بها «مصطفى» وقال إنه أيضًا يلزمه ساعتين بروفة على البيانو وأنه من الممكن أن يلحق بنا، لم تعلق «ريم» على أيٍّ منهما لكن فقط استأذنت لأخذ حمام وتبديل ملابسها، وبمجرد أن أغلقت عليها باب الحمام نهضت تجاه «مصطفى» واعتذرت له عن هذا الجو الكابوسي، فضحك وقال إنه معتاد على ذلك، بينما ابتسمت «هايدي» وهمست لي تطالبني بألا أقلق على مشاعرهما فهي تعرف «ريم» جيدًا وتحبها كما هي، ثم اقتربت مني «هايدي» ورجتني أن لا أطيع «ريم» وأتعشى في الخارج، لأنها تنوي أن نتعشى جميعًا هذه الليلة بمناسبة انتهاء الغمة ووجودي في فيينا، وأضافت

أنها ستبذل جهدها كي تجعلها ليلة لا تنسى، وعندما سألتها مندهشًا عن أي غمة تقصد! ابتسمت وهي تضيف أن «ريم» ستخبرني بكل شيء، ثم عادت «ريم» بعد زمن قصير وهي في أوج تأنقها كأنها تستعد لقضاء ليلتها في الخارج وضقت بذلك لكني لم أصرح به، لأن هذا معناه أني لا بد أن أبذل جهدًا مضاعفًا لإعادتها مبكرًا حتى تحضر الحفلة التي ستقام على شرفي.

بمجرد خروجنا من البيت طلبت منها أن نجلس في أقرب مكان إلى ذوقها لأني لا رغبة بي في السياحة، وأني أفضل أن أسمعها حتى أطمئن عليها، نظرت لي نظرة جانبية مبتسمة ولم تعلق، وفعلًا لم يستغرق التاكسي الذي ركبناه نصف ساعة ووصلنا إلى المحل الذي قادتني إليه، وكانت في الطريق قد أشارت إلى موقع أوبرا فيينا التي يعمل فيها «مصطفى» والتي كانت على مسافة قريبة من مسكنه كما أشارت إلى المكان الذي تعمل فيه «هايدي» كما أخبرتها بموقعه.

ظلت تتكلم لأكثر من ساعة نسفت خلالها نصف زجاجة النبيذ التي اكتفيت منها بكأسين وجعلتني أحس بأني داخل أجواء فيلم عربي من أفلام السايكو والجريمة، كانت منطلقة في الحديث دون فواصل وبدون أن تضع «فلاتر» لخطورة ما تقوله، لدرجة أخافتني منها جدًّا، لكني بعد فترة هدأت عندما أحسست بتعمدها إيصال هذا الشعور لي، ربما لتختبرني أو لتحذرني أو لعلها تتكلم مع نفسها دون أن تراني، وصفت بدقة كيف طعنته بعد أن غاظها، ورحلة تنكرها وهروبها ونجاحها في الإفلات، والترتيبات التي كانت تعدها لمراحل الهروب التالية، وكيف كانت تظن أن شاشات تلفزيونات العالم تتصدرها صورتها، وأنها لم تخف من ذلك بقدر خوفها

من أن يتمكن البوليس من القبض على شبيهاتها الثلاث الباقيات وينقصف بذلك عمرها، ثم حدثتني عن المؤامرة التي تمت من خلف ظهرها ومكنت أختها «رويدا» من معرفة مكانها لتحس ببساطة أنها خائبة لم تتمكن من تسديد طعنتها بدقة، وأن انحراف الطعنة أسفل الثدي الأيسر جعلها طعنة جانبية فاشلة مست فقط الغشاء البللوري للرئة، وأن «سليم» نجا وطوق عنقها بجميلين.. الجميل الأول عدم إبلاغ الشرطة عنها والثاني أنه وافق «رويدا» على أن تمنحها تفويضًا بالبيع أو الإيجار لشيء كان يرغبه بشيء، ومن المؤكد أن «رويدا» دفعت ثمن ذلك - كما هي معتادة - وهذا جميل آخر تضعه «رويدا» على رأسها، لكنها لن ترد جميلًا طوقها به أحد وستشنقهم بحبال هذه الجمائل.

كانت النهاية السعيدة لهذه المصيبة قد أراحتني فحاولت تغيير الموضوع، وبدأت بلومها على معاملة «هايدي» القاسية بينما «هايدي» احتضنتها وحمتها، وهنا تنمرت عيناها وصرخت في وجهي بالعربي لحسن الحظ، لأن كل مَن يجاورونا التفتوا تجاهنا ولزموا الصمت، قالت بانفعال شديد: «أحا يا ضوي أنا لسه قايلالك ما حدش ليه جميل عندي».. ثم نظرت بتحديق نحوي وأضافت: «حتى انت.. ما تفتكرش عشان هزيت طولك وجيت فيينا تبقى جاملتني.. أنا عارفة لو كنت قتلت فعلًا وقلتلك.. ماكنتش هاشوفك تاني ومش بعيد قبل ما تركب الطيارة وتغور تبلغ عني».

سكتنا فترة بعد ذلك ويبدو أنها شعرت بأنها ضايقتني وأخافتني لأنها داعبت بكفها ظهر يدي ثم قالت: «ماتزعلش يا أحمد.. أنا شفت أيام بنفسجي.. ومحتاجة فترة راحة طويلة عشان أهدأ.. وبعدين أنا باحب هايدي

وهي بتحبني.. وهتستحملني.. وأنا بردلها خيانتها لما قالت لمصطفى وهما فوق بعض حكايتي وهو قالك.. لو ما كانتش المشكلة اتحلت كان زمان اتقبض عليَّ من غبائها»، قاطعتها بحسم وأخبرتها بأن «مصطفى» لم يعرف شيئًا من «هايدي» لكنه استشف ذلك من نبرات صوتها، نظرت لي بدهشة ثم قالت: «وبعدين أنا في اليومين اللي قعدتهم معاهم كانت بتغيظني وهي مش بتقصد.. لما كانوا بيدلعوا على بعض ساعة الأكل.. وتشد من إيده الجورنال وهو يقفز عليها عشان ياخده.. ولا لما كانت بتقلبله كوباية النيسكافيه أو تأكله بالمعلقة في بقه»، ضحكت بشدة وأنا أقول: «بالذمة ده كلام يا ريم.. هو انتي كنتي في إيه ولا إيه!».. مالت نحوي بضحكة صاخبة وهي تقول: «وأنا كنت أعمل إيه يعني.. هو أنا مش بشر»، وفوجئت بأن مَن يجاورونا أيضًا لزموا الصمت أمام صخب ضحكاتها فطلبت منها أن ننصرف.

وفعلًا بذلت جهدًا فائقًا حتى أقنعتها بضرورة حضورنا الحفلة المقامة على شرفي في بيت «هايدي» و«مصطفى» حتى لا نكسر بخاطرهما، ولما وافقت أخيرًا اشترطت شرطًا مدهشًا أن لا أعود للمبيت في الفندق وأن أبيت معهم في الشقة، اعترضت بأن ذلك قد يضعني في موقف حرج لكنها هونت من الأمر وطلبت أن أترك ذلك لها، ونحن في رحلة العودة سألتها مرة أخرى عن سبب مبيتنا معهما بينما من الأسهل أن تبيت معي في الفندق، فضحكت وهي تقول إن ذلك كان مخططها في البداية لكنها غيرت رأيها لما أخبرتها بأن «هايدي» مصممة على أن نتعشى في بيتها، وفي الحقيقة لم أفهم سببًا لهذا التحول.

ونحـن نهـم بدخول البيت كانـت قد تبدلت تمامًا إلـى الأفضل، وعلت وجهها ابتسـامة خلابـة وهمسـت لي برغبتهـا أن تكـون هذه الليلـة جميلة واستثنائية، وطلبـت منـي أن أهتم بـ «مصطفـى» وأدع لها «هايـدي» حبيبة عمرهـا، ودخلت بهـذه الروح فعلًا وارتمت في حضن «هايدي» المبتسـمة فـي ذهول وغمرتهـا بقبلاتها وهي تشـكرها على وقوفها معهـا، و«هايدي» تحـاول إسـكاتها بـلا جـدوى، ثـم صافحـت «مصطفـى» بابتسـامة امتنان وجعلـت كفه بين كفيها ثم نظرت تجاهي وطلبت مني أن أسـمح لها بتقبيله علـى وجنتيه، وقـد وافقت بإيماءة من رأسـي وأنا في غاية الدهشـة من هذا الاستئذان العجيب! وكنت فيما مضى عندما أعاتبها لأنها تقبل كل مَن هبَّ ودبَّ مـن أصدقائها أو زملائهـا القدامى الذين نلتقيهم فـي الأماكن العامة، كانت تنظر لي بدهشة وتقول: «إيه التخلف ده يا أحمد؟ أنا بابوسهم مجاملة ولعلمك أنا باحس بعد البوسة إني بوست فردة جزمة».

وبعد هذه الفرحة المبالغ فيها سـألت «هايدي» عن وقت بدء الاحتفال، فنظرت «هايدي» إلى سـاعتها وقالت إن الطعام الذي طلبته سـيأتي في تمام العاشـرة، وكان باقيًـا على ذلك الموعد حوالي سـاعة وربـع، وردت «ريـم» بكلمة Trés bien بعد تنهيدة ارتياح واستمرت في جلستها، وعندما أحست بحاجتنـا لتبريـر الكلمة التي نطقـت بها، أضافت لأن سـيكون لديها الوقت لأخذ «شاور» ثم تغيير ملابسها، ولما كنت بنفس البنطلون الجينز والسويتر الجلدي الذي هبطت بهما إلى أرض المطار فقد أعدت النظر إليهما لأتأكد من نظافتهما وأنهما سيناسبان ما سترتديه، ولمحتني فقالت ضاحكة: «إنت يـا بيبـي زي القمر حتى لـو كنت قالع ملط»، ثم ضحكـت برقاعة، قالت لها «هايـدي» بصوت أقرب إلـى الهمس والرجاء إنها ترغـب في دعوة جارهم

في الشقة المقابلة وزوجته لحضور العشاء ليكون للاحتفال شكل كرنفالي، ردت «ريم» بنفس إيقاع الضحكة السابقة: «كرنفالي يا دودو.. إنتي ناوية تجرسيني.. أنا ماعنديش مانع وأهو أشوف اللي بتقولي عليها مراته دي وجهًا لوجه وتشوفني كويس بدل ما تتلصص عليَّ»، ثم انتبهت «ريم» فجأة واستطردت وهي ما تزال توجه الكلام إلى «هايدي»: «على فكرة يا دودو الولية دي كانت بتشوفني واحدة أورُبية شقراء.. لما تشوفني كده هتقوليلها إيه؟»، ردت «هايدي» بسرعة: «هي عرفت مني إنك ممثلة مصرية هاقولها ده دور بتعمليه في فيلم مصري بتدور أحداثه في فيينا»، وهي تضحك قالت «ريم»: «برافو يا دودو فكرتي بسرعة لكن برضه عملتي سكربت شرقي تافه.. هو معقولة فيلم مصري بيتصور في فيينا يستعينوا فيه بممثلة مصرية تعمل دور واحدة أورُبية شقرا.. هما الشقر خلصوا من أورُبا»، ثم استأذنت «ريم» لكي تعدل مكياجها وخلفها خرجت «هايدي» لتوجيه الدعوة للجار، بينما اقترب مني «مصطفى» وقبل أن أعتذر له عما حدث من «ريم»، ابتسم وربت ظهري طالبًا مني ألا أشغل بالي بما يحدث في فيينا وأن أنتبه جيدًا عند الرجوع إلى مصر، حاولت الاستفهام منه عما ينبهني إليه، لكنه اكتفى بقوله: «خلي بالك من نفسك ومن ريم.. وخصوصًا ريم عشان الضغوط عليها خلتها ساعات بتتصرف تصرفات مش متزنة».. ثم سألني عن موعد مغادرتي، فأجبته بأني لو وجدت مكانًا في الغد سأغادر، سألني مرة أخرى إن كانت «ريم» وافقت بسهولة على هذه المغادرة السريعة، انتبهت إلى أنه اعتقد أنها ستصاحبني فأعدت عليه ما أخبرتني به «ريم» عندما كنا بالخارج، من أنها ستقضي أسبوعًا آخر في فيينا وستنقل إقامتها إلى فندق مناسب حتى لا تشغلهم أكثر، وحتى تكون لديها فرصة كبيرة للتجول في أنحاء فيينا،

وأنها بعد ذلك ستغادر إلى الخليج للاطمئنان على ابنتها ثم تعود في النهاية إلى القاهرة، بدا على «مصطفى» الارتياح قليلًا، لكن لم يخبرني بالسبب وبالمثل لم أجد بي رغبة لأن أخبره بأن مخطط الرحلة التي سردته عليَّ «ريم» لم أقتنع به وأن الشك يملؤني بأنها موهت عليَّ ولا أحد يدري ما هو اتجاهها الحقيقي؟

بدأ الحفل البسيط جميلًا واستهله «مصطفى» بعزف بعض المقطوعات الكلاسيكية على البيانو، ورقص الجار الألماني «إيفاليد» مع زوجته «هايكا» وأنا مع «ريم» ثم مع «هايدي» لانشغال «مصطفى» بالعزف، وأدركت لماذا اعتقدت «ريم» أن السيدة التي مع الألماني ليست زوجته لأنه كان فوق الخمسين والفتاة أقل من الثلاثين وتبدو مثيرة جدًّا وتتوق للارتواء، وشعرت بسرعة أن «ريم» وضعتها في رأسها وبدأت أقلق من مرور هذه الليلة بخير، وتأكد ذلك عندما رأتني الزوجة الصغيرة أراقص الفتاتين فاعتقدت أن هذا «سلو بلدنا» واقتربت مني بهدف أن أراقصها، فادعيت الإرهاق وانسحبت إلى مقاعد السفرة ولمحت «ريم» تراقب المشهد بدون انفعال ظاهر، وكانت «هايدي» قد أخبرتهما بأن هذه الحفلة مقامة على شرفي لزيارتي الأولى للنمسا فأحضر كل منهما هدية بسيطة.. الرجل أهداني مجلدًا فاخرًا عن تاريخ النمسا وأهم معالمها، وأهدتني زوجته رابطة عنق شيك، وكانت «ريم» تشرب بلا انقطاع قبيل العشاء وفي أثنائه وكنت أعرف أنها لا تسكر بسهولة وأعرف أيضًا أنها من الممكن أن تفتعل السكر بغرض الإهانة، أو السخرية من شخص يضايقها، وقد بدأ ذلك فعلًا عندما سألتها السيدة بالألمانية وتولت «هايدي» الترجمة عن عملها في السينما، وردت «ريم» بغلاسة وقلة أدب وكانت تسبها وهي مبتسمة لكن ترجمة «هايدي» أنقذت

الموقف، ثم وجهت لي السيدة أسئلة عن عملي أجبت عنها، لكن أسئلتها زادت وخاضت في مناطق أخرى مثل ما عمر زواجي بـ«ريم»؟ وهل أنا سعيد أم اعتدت الأمر؟

استفزت «ريم» وبحركة سوقية بذراعها أشارت إلى السيدة الألمانية الصغيرة وهي توجه رأسها إلى «هايدي» وقالت لها بتحذير «هايدي إبعدي الولية الـ.. هايكا دي عن أحمد ولا أغرز في وشها السكينة ومش هاخيِّب المرة دي». ارتبكت «هايدي» وتوتر «مصطفى» بينما اعتقادي المسبق بأن «ريم» ستنهي الاحتفالية بمصيبة جعلني صامتًا، وبادرت «هايدي» بالحديث لهما بالألمانية فهزا رأسيهما وابتسما وقالت «هايدي» لي وهي تتجنب «ريم» بأنها أخبرتهما بإجهادنا وأنهما سيغادران بعد أن يأخذا كأسين أخيرتين في نخبي، وأسرع «مصطفى» بصب الكئوس التي فرغت وسرعان ما ارتفعت بلغات مختلفة واصطدمت بكأسي، ولتجبرهما «ريم» على المغادرة السريعة لم تترك كأسها إلا فارغة فانتبها وأعادا احتساء ما في كأسيهما بعجالة، واحتضنني الرجل بحميمية وسلمت عليَّ السيدة بصعوبة لأن زوجها كان يسبقها بخطوة.. ثم ترددت السيدة وهي تواجه «ريم» التي حسمت الأمر بحركة تمثيلية واقتربت منها واحتضنتها وقبلتها قبلتين حارتين وسط دهشتنا كلنا، وبمجرد خروج الضيفين التفتت «ريم» نحو «هايدي» واعتذرت لها بعبارة فرنسية طويلة جعلت «هايدي» تبتسم وتشرع في إخلاء منضدة السفرة من الأطباق، وحذت «ريم» حذوها وهي تأمرنا أنا و«مصطفى» بمساعدتهما، وخلال بضع دقائق تكومت الفوارغ في حوض المطبخ وانهمكت الفتاتان في غسلها والرطانة بالفرنسية، بينما

جلست مع «مصطفى» ندردش مرة أخرى في موضوعات بعيدة عما حدث في الاحتفال.

أحضر «مصطفى» لي جلبابًا نظيفًا من جلابيبه كي أقضي به باقي الليلة وأدرك وهو يراني أبتسم أني أسخر من قصر قامته بالنسبة لي فقال ضاحكًا: «اعتبر نفسك سلفي ليوم واحد يا أخي»، بادلته الضحكة وأنا أقول: «سلفي مع ريم؟ دي حاجة ماتركبش خالص!»، وفي داخل الغرفة التي خصصتها «هايدي» لـ«ريم» وأصبحت ضيفًا عليها الآن، بعد أن سخرت «ريم» من جلبابي قالت إنها مجهدة تمامًا وأراحني ذلك فأعطيتها ظهري تمهيدًا للاستغراق في النوم، وتركتني حتى تمكن النوم مني ثم أفقت منزعجًا على ضربة قوية على ظهري مصحوبة بسخرية: «هو إنت ما بتصدق.. خلي عندك شوية دم.. قلتلك هاغيب عنك فترة كبيرة تقوم تديني ضهرك»، تمهلت قليلًا حتى اختفت آلام الضربة المباغتة واستدرت تجاهها وأنا أقول بغيظ: «ريم هو إنتي ياتكلميني فرنساوي ما أعرفوش.. يا عربي ما أفهموش.. إنتي مش قلتي تعبانة ومجهدة وجسمك متكسر عايزاني أفهم إيه من كلامك ده؟»، افتعلت أنها مقموصة وأولتني ظهرها وهي تغمغم: «اتخمد لتكون فاكرني باتمحك فيك»، داعبت ظهرها فلم تتحرك، دسست وجهي في شعرها ثم همست في أذنها أسألها عن موعد عودتها بالتقريب لكي تتفرغ لمشروعها بعد أن منحتها أختها التنازل، استدارت وواجهتني وحدقت في وجهي ثم أجابت بأنها لا تدري متى ستعود إلى القاهرة لأنها في حاجة إلى راحة كبيرة، خاصة وأن «رويدا» يمكن أن تستبقيها فترة في سويسرا، ولأن سويسرا لم تكن في مشروع ترحالها الذي أخبرتني به من قبل، ظهرت الدهشة على وجهي فانتبهت وقالت بسرعة: «ماكانش في نيتي

أرجع سويسـرا بس بعد الـ Compelment اللي عملته رويدا وجوزها لازم أروح أعتذر لهم وأشكرهم».

المواقعة الجنسـية التـي تمت بيننا هذه المرة كانـت من أغرب المرات، ليس لاختلاف في التفصيلات الخاصة بنا، ولكن للموضوع والانكشـاف، فمـا إن بدأنا إلا وأصدرت «ريم» أصواتًا واهتزازات، وكلما حاولت إغلاق فمها نطرت يدي، وأنا في أشد الانزعاج لأن الصوت تجاوز غرفتنا واحتمال أن يكون عبر شـقتنا إلى شـقة الجيران، لأن حوائط المبنى لا يتعدى سمكها «نـص طوبـة»، ومـن المؤكد أن هـذا الإعـلان المجاني الذي تفعلـه «ريم» تقصـد به الإغاظـة خاصة وأنـا أدرك أنـه مفتعل تمامًـا، ومصداقًـا لكلامي عندمـا انتهينـا صممـت أن تسـتحم في الحال ولم تسـتمع لكلامـي بتأجيل الاسـتحمام حتى الصبـاح، وخرجت وتركـت باب غرفتنـا مفتوحًا لآخره، وكانـت تجرجـر قدميها علـى الأرض كأن السـكر قد تمكن منهـا ولم يكن ذلك حقيقيًا، وعندما عادت لم تسمح لي بانتقادها وأمرتني بالسكوت حتى لا أفسد مزاجها السعيد كما ادعت، وفي الصباح الباكر عندما استيقظنا على حركة «مصطفى» و«هايدي» في أرجاء الشقة، تدللت كي تعيد الوصل لكني رفضت رفضًا تامًّا وعندما أبدت ضيقًا كبيرًا همست في أذنها بأنه يكفي جدًّا «شو» الأمس، لمعت عيناها ثم ابتسمت.

تمكنـت مـن السـفر في مسـاء هـذا اليـوم الجديـد بعـد أن راق الفندق المتواضـع الـذي كنت أقيـم فيه لـ«ريـم» وراقتها غرفتي فحجزتها لنفسـها أسـبوعًا كامـلًا دفعته مقدمًا أمامي، رغم أن المحاسـب طلـب منها أن تدفع أجـر ليلتيـن فقط مقدمًـا! وارتبت فيما فعلته وأحسسـت بأنهـا تنوي جعلي شاهدًا لم يرَ شيئًا وأنها بصدد فعل مصيبة في تلك الأيام السبعة!

جيهان العرابي

طلب مني «الوشـاحي» أن ألتقي به في جاليري المشربية حيث سيذهب لرؤيـة أعمـال بعـض الفنانين الشـباب، وأنه سـيدعوني بعدها للعشـاء لأنه يفتقدني، اعتذرت عن موضوع العشاء لارتباطي السابق مع بعض الأصدقاء وطلبت أن أكتفي بشرب مشروب معه ومجالسته لمدة نصف ساعة، ضحك كثيـرًا عبـر الهاتف مـن أنني أمنحـه وقتًا محـددًا كالأطباء النفسـانيين وظل يساوم متفاكهًا حتى أوصل المدة إلى ساعة كاملة، وقتها لم أكن قد ارتبطت بمواعيـد مـع أصدقاء، لكني كنت أخشـى من أن جلسـتي معـه وانفراده بي يفتح شـهيته لثرثرة أكثر فلا أسـتطيع الإفلات، ويشـاء القدر أن قبل موعدي مع «الوشـاحي» ببضع سـاعات تتصل بي «بسـمة» وتدعونـي لمقابلتها في العاشرة مساءً في وسط البلد لأنها ستحضر ندوة مهمة في نقابة الصحفيين، وأفهـم مـن كلامهـا أنها سـتحضرها مـع «خيـري» وأنهـا أخبـرت والدتها «وجيـدة» هانـم بأنها سـتبيت معي، لـذا «جبت من الآخـر» وطلبت منها أن تحضـر إلى منزلي لتبيت معي في أي موعد بالليل بشـرط ألا تكون السـاعة قد تجـاوزت الثانية عشـرة، وصلتني ضحكتها مجلجلة وهـي تقول: «إنتي إيه يا جيجي الواحد ما يقدرش يسـتهبل عليكي.. لازم تفقسيني وتحرجيني وبعدين إيه موضوع الساعة اتناشر ده؟ هو أنا داخلة بيت طالبات؟»، رددت بحسم: «بسمة.. كبيرك الساعة اتناشر أنا عايزة أنزل بكرة بدري علشان ورايا

معاينة.. اتفقنا؟!»، قالت: «أنا هاكلمك قبل ما آجي ولو مرديتيش هاشوف بانسيون أتخمد فيه أو أنام في الشارع». وبعد هذه المكالمة بفاصل زمني قصير كلمني «أحمد الضوي»، وكانت هذه المكالمة هي الرابعة منذ أن عاد من سفره، وكان يطلب لقائي في كل مرة وأتحجج بحجج مختلفة حتى إني نسيت بعضها الآن، أذكر فقط أن في مكالمتنا الأخيرة التي مر عليها أكثر من أسبوع كامل اكتشفت أن الحديث معه طال عما هو معتاد، وأنه بصدد التمهيد لكي يحكي لي أسباب سفره فقاطعته بغلظة وطلبت منه ألا يحدثني في أمور شخصية، وامتد الصمت من جهته فدعوته باسمه حتى أتأكد من أنه ما زال على الخط، ولم يجب واغتظت جدًّا من كونه فعلها وأغلق الخط فناديته بصوت أعلى، رد عليَّ بصوت منخفض منكسر: «أيوه يا جيهان»، ولم أجد ما أقوله يبرر ندائي عليه غير بقولي له إني متورطة بشدة في العمل، وإنني سأنهي هذه الارتباطات في خلال ثلاثة أيام وإنه يمكنه الاتصال بي بعدها كي نتقابل ونتحدث، جرجر شباك الصمت وراءه وقال بصوت قوي متحدٍّ بأنه سيتصل بي بعد أن أفرغ من شغلي، ولم يتصل بي بعد فترة الانشغال الوهمي التي ذكرتها له لا بيوم ولا باثنين ولا بثلاثة، ويبدو أنه تناول حبوب الشجاعة اليوم واتصل بي، ويبدو أنني خفت أن أغامر وأعتذر عن عدم مقابلته، لأني بسرعة حددت له موعدًا في المساء وانتبهت بعد انتهاء المكالمة المبتسرة بيننا بأن الموعد الذي سمحت له فيه بمقابلتي سيكون بعد ساعة من بداية مقابلتي مع «الوشاحي»، ويشاء الحظ أني أتاخر عن موعد لقائي بـ«الوشاحي» في جاليري المشربية بنصف ساعة ضيعتها في تبديل إطار السيارة الذي لم أكتشف أنه فارغ من الهواء إلا بعد أن ركنتها

بالجراج يومين، وسايس الجراج العبقري لم يكتشفه أيضًا إلا وأنا بصدد الخروج اليوم وكان الإطار البديل مثقوبًا أيضًا، وهكذا تجمعت الظروف كي تؤخرني، ليس مهما كل هذا.. فيحدث ذلك كثيرًا لعموم الناس. الذي أفزعني أنه لم يحدث مطلقًا شيء مماثل لسيارتي التي أهتم بها بقدر اهتمامي ببيتي، وهذا معناه أن ذهني مشغول في أشياء، وقد أجهدت ذهني أكثر في محاولة لإدراك ما أنا مشغولة به لكني فشلت تمامًا.

أخبرني «الوشاحي» بأنه موجود حاليًا في كافيه «ريش» وكان لديَّ انطباع غير جيد عن هذا المكان من أحاديث «تميم» عنه، و«تميم» كان يحب المكان لقدمه وعراقته لكنه لا يحب معاملة العاملين به للزبائن وكذلك بعض رواده المحبطين، ولأنه لم يسبق لي الجلوس فيه وكل معرفتي به من خلال رؤيتي له من الخارج، لذا توجهت إلى المكان بفضول كبير، لكن بمجرد أن دخلت الصندوق الحديدي الخارجي للمطعم المزروع بمناضد متراصة على الجانبين في هيئة صفوف أشبه بعربات القطار، ورأيت دخان السجائر والسيجار يقاسم الجالسين المقاعد، أدركت أني لن أتحمل البقاء فيه دقيقتين، كان «الوشاحي» من مكانه بالصف الثاني يشير إليَّ بالتقدم، وهرعت نحوه ولمته على الجلوس في هذا المكان غير الصحي وهو لم يتعافَ بعد، ابتسم وأشار لي بالجلوس وعندما رأى إصراري على المغادرة، أخرج من جيبه بعض الأوراق المالية وتركها في الصحن الصغير، ونهض بصعوبة ولم أجد مفرًّا من تأبط ذراعه الأيسر بينما كانت يده اليمنى ممسكة بعصاه التي يستند إليها، مررنا بالمنضدة التي كانت في مدخل المحل من جهة اليمين وكان جالسًا عليها رجل ضخم متجهم الوجه حتى وهو ينظر تجاهنا ويرد على تحية «الوشاحي»، وبعد أن عبرناه وخرجنا

قال «الوشـاحي» هامسًـا: «ده صاحب المحل»، ضحكت عندما تذكرت أن «تميـم» كان يصفـه لي بأنـه كالمدرس المخضـرم الذي يجلـس وراء مكتبه يراقـب تلاميذ الفصل وينتهز الفرصة لعقابهم، وعندما أخبرت «الوشـاحي» بما قاله «تميم» ضحك ضحكة عالية، ثم سـرنا فوق الرصيف و«الوشـاحي» كعادته يشـدني ويقربني منه حتى أسـمعه، ويستعين في ذلك بجذب ذراعي، أو لمـس يـدي، أو يطـوق ذراعـي، وكان هذا الاحتـكاك الجسـدي يوترني جدًّا ويدفعني للانفلات بسـرعة لكن كنت أتراجع على الفور وأسـنده حتى لا يختـل توازنه حتى عبرنا الرصيف المقابل، وكان «الوشـاحي» قد أخبرني بأنه سيذهب بي إلى كافتيريا «الجريون» كي نجلس في حديقتها، واستحسنت ذلـك رغم أني لم أجلـس فيها من قبل ولكن وجود حديقـة يغري بتجربتها، الجهـة الأخرى من الطريق حيث توجد سـينما قصر النيل ونادي السـيارات وكافتيريـا الجريـون. كمـا أشـار إليهـا «الوشـاحي» كان عبورها فـي منتهى الصعوبة لأنه لا توجد بها إشـارات مرور ولا يحزنون، وكان سيل السيارات ينهمـر فبـدأت أتنهد في ضيق، وفجأة وجدت «الوشـاحي» يمـد عصاه أفقيًّا ويأمرني بالعبور وتوقف سائق تاكسي بصعوبة وهو يرى «الوشاحي» متقدمًا على مهل، لحقت «الوشاحي» في أثناء خروج رأس سائق التاكسي من السيارة وهو يهم بالزعيق فيه، لكن «الوشاحي» بادره بصوت قوي صارخًا فيه: «أقف يا حمار.. أنا فنان قومي»، بهت السائق وظل ينظر إلى «الوشاحي» ببلاهة ثم ابتسـم وأدخل رأسه إلى موقعه وراء الدريكسيون، كانت السيارات المندفعة عندما رأت سائق التاكسي يتوقف، قد قلدته ووقفت هي الأخرى حتى مررنا بسـلام.. وعندما وصلنا إلـى الجهة الأخرى قال «الوشـاحي» بانتصار: «هو كده شعب مايجيش إلا بالشخيط!».

خاب ظني بمجرد دخولي حديقة الجريون لأني تصورتها مثل حديقة جروبي عدلي ولم تكن في اتساعها وعتاقتها، كانت فقط لا بأس بها من جهة الهواء المتجدد الذي لا يجثم فوقه دخان السجائر والشِّيشة، لم يحدثني «الوشاحي» في موضوع فيلمه التسجيلي وسرني ذلك لأنه دعم عندي فكرة اعتداده بنفسه إلى جانب ثقته في تقديراتي الزمنية وبحكم تفويضه لي بقرار البدء، وكان قد سألني عدة أسئلة عامة وتخللتها أسئلة عن نشاطي العملي، ثم حاول أن يتطرق إلى حياتي الشخصية مستعينًا بخفة دمه ولؤمه، لكن ملامحي وشت باستنكاري فتوقف، ويبدو أن هذا كان موضوعه المفضل لأن الضيق والزهق ظهرا على وجهه فجأة وراحت عيناه تجولان في المكان وتتقافزان فوق المناضد التي بها نساء، وتتراقصان عند المنضدة التي تتعالى فيها ضحكة نسائية لعوب، وهاتفني «أحمد» في تلك اللحظات فانتبهت إلى أن موعدي معه قد حان وتحيرت لوهلة في كيفية التصرف وهل سيتحمل أن أرجئ موعده نصف ساعة أخرى؟ لكنه بادرني بأنه في وسط البلد ويريد معرفة المكان الذي سيلتقيني فيه، أخبرته بأني في الجريون بصحبة صديق وأن موعدي على وشك الانتهاء، شعرت بوجومه على الجانب الآخر ولا أدري ما الذي جعلني أقترح عليه أن يلتقيني في الجريون حتى يسهل عليَّ التخلص من هذا الصديق عندما يدرك أننا على موعد، مرت لحظات صمت ثم سألني بصوت معدني أجوف عن المكان ووصفته له وأنا أستعيد الكادرات البصرية التي مررت بها بصحبة «الوشاحي».

كان «الوشاحي» على وشك إنهاء زجاجة البيرة الوحيدة التي سمحت له بها نظرًا لظروفه الصحية، وكنت أتعجله عبر طاقتي الداخلية بأن يرحل وأن يأتي «أحمد» بعده فلا يجده لكن يرى كل آثاره على المنضدة التي نجلس

حولهـا.. الكـوب الذي شـرب فيـه البيـرة والبقايا فـي قعره وآثـار بصمات ضخمة على زجاجه، طبق الترمس الذي أنهى «الوشاحي» نصفه تاركًا قشره بإهمـال في نفس الطبق عـن عمد، وكنت قد لـمَّحت لـ «الوشـاحي» عقب رجوعي إلى المنضدة بعد أن كلمت «أحمد» أنه للأسـف موعدي التالي قد أزف، فنظـر تجاهي بالنظرة اللئيمة ذاتها التي كانت من على مسـافة تنغرس فـي وجهي وأنا أكلـم «أحمد» والتـي دفعتني لإعطاء ظهري لـه، ثم قال إنه سـيطلب «الشيك».. لكنه تكاسل في طلبه.. وحين طلبه تكاسل «المتر» في إحضـاره، وحينما نظـر «المتر» تجاه منضدتنا في إحـدى المرات أومأت له بغضب فذهب بسـرعة تجاه «الكاشـير» وظل واقفًا أمامه، وبسـبب كل هذا العبـث الزمنـي وجـدت «أحمـد» واقفًا علـى رأس منضدتنا و«الوشـاحي» ينظـر تجاهـه بتسـاؤل، بينما لمحت بسـمة رضـاء على وجـه «أحمد» وهو ينظر إلى «الوشـاحي»، اضطررت بسـرعة لأن أعرفهما على بعض، ورحب «الوشاحي» به بشدة واعتذر عن عدم استطاعته الوقوف لمصافحته ثم أشار إليـه كـي يجلس، وكانت الثواني التي اسـتغرقها «أحمد» في الجلوس كافية جدًّا لانتقال خبث عين «الوشاحي» إلى الفم، إذ وجدته يقول بأدب مصطنع إنه لن يفرض نفسـه علينا وسـيتحرك فور وصول «الشيك»، ووجدت نفسي حائـرة فـي إيجاد رد لا يؤلم فسـكت، لكن «أحمد» تورط فـي الكلام وقال إنـه سـمع عـن «الوشـاحي» كثيرًا - وأشـك في ذلـك - وانفرجت أسـارير «الوشـاحي» وتبـادلا بعـض كلمـات المجاملة ممـا دفعني لإلقاء «كرسـي فـي الكلـوب» فطلبت من «الوشـاحي» أن يجلس قليلًا معنـا، وجاء كلامي متزامنًا مع نزول الحافظة القطنية الحاوية على الشـيك، فوضع «الوشـاحي» يـده عليها ثـم طلب زجاجة بيرة لـ «أحمد» وأخرى له وسـألني مترددًا هل

سأشرب عصيرًا مرة أخرى، وفاجأته وطلبت «كابتشينو» وهنا ابتسم «الوشاحي» بسمة رضاء لتأكده من أني بهذا رضيت عن بقائه، وزدت الطين بلة وقلت إنني كنت لا أظن أنهما سيتوافقان في الآراء خاصة أن أحدهما مهندس والآخر فنان، لكن كليهما اعترض على كلامي، فـ«أحمد» انبرى يعدد حبه للفن و«الوشاحي» أفاض في ذكر التشابه بين الهندسة والفن التشكيلي من حيث «البلان والمنظور والإسكتش والنسب» وحتى في استخدام الخامات.. الحديد بالذات وسرد قائمة بمنجزاته فيه.. وفي خلال دقائق معدودات كانا قد انسجما جدًّا مع بعضهما، ورأيت دون قصد منهما «الوشاحي» يريد رضائي بإظهار الحميمية مع «أحمد»، و«أحمد» يريد أن يبدو لطيفًا مع مَن أجالسه، وظللت أرقب حوارهما الممل القائم على معلومات وحقائق أعرفها، ولم أتدخل إلا قليلًا وتعمدت في تدخلي اعتراض كلام «أحمد» حتى أزيح من مخيلة «الوشاحي» أنه قد يكون هناك شيء بيننا.

استمرأ «الوشاحي» الجلسة وبدا «أحمد» راضيًا وحلَّ بي ضيق أن يظن «أحمد» بعد رحيل «الوشاحي» أنه لم يجلس معي كما يجب ويصر على أن ننتقل إلى مكان آخر ليتكلم، وكنت سأغضبه برفضي، لكن أتت نجدة مفاجئة من «بسمة» التي كلمتني الساعة العاشرة وقالت إنها جاهزة للحضور إلى بيتي، كانت تتكلم بانفعال مفرح يشي بأنها تريد اللقاء بي على وجه السرعة، أخبرتها بأني ما زلت في وسط البلد ولم ينتهِ لقائي بعد، قالت بإحباط إنها ستنتظر في أحد المقاهي حتى أنتهي من اللقاء، وجدت نفسي أطلب منها الحضور إلى الجريون وهممت بوصف المكان فقاطعتني بضحكة قائلة: «جيجي.. أنا دايسة على كل حجر في وسط

البلـد تفتكـري مـش هاعـرف الجريـون؟»، وفعـلًا هبطت علينـا في خلال دقائق، وسـلَّمت على «أحمد» بحرارة وسـألت عن أحواله بأسئلة متلاحقة وغاظنـي أنها سـلمت على «الوشـاحي» بعادية شـديدة رغم أنـي قدمته لها بفخـر، وضايقتني أيضًا لمعة عينيها حين رأت «أحمد» بصحبتي كأنها تؤكد لنفسها شيئًا، أخطأت بإحضار «أحمد» إلى هنا وعالجت الخطأ بآخر عندما جلبـت «بسـمة» أيضًا، وها هو «الوشـاحي» فـي قمة الانبسـاط بعد أن رأى «بسـمة» تنضم إلينـا. وضمن أن الجنس الناعم سـيزيد علـى المائدة، ودعا «الجرسـون» للإسـراع بالحضور وسأل «بسمة» بسـرعة عما تشربه فنظرت لـي، فأسـرعت بإخبارهمـا بـأن «بسـمة» تريدني فـي موضوع خـاص وأننا سـننتقل إلـى مائدة مجـاورة، وتجاهلت نظرة «أحمد» الدهشـى والاسـتياء الـذي علا وجه «الوشـاحي» ودعاه لأن يطلب زجاجتين مـن البيرة أخريين له ولـ«أحمد»، لكني اندفعت وطلبت منه بضيق أن يكف عن الشرب فعدل الطلب إلى زجاجة واحدة وأسـرع «أحمد» بطلـب إلغائها قائلًا إنه أيضًا لن يشـرب، ووجدت نفسـي أقول له: «إنت مش مقصود بالكلام ده يا أحمد.. الأسـتاذ الوشاحي عيان واللي شربه كفاية»، ثم أشرت إلى «الجرسون» كي يسرع بتنفيذ الطلب. جلسنا على المنضدة المجاورة وأحنت «بسمة» رأسها كأنهـا تخفـي وجهها في صدري وهمسـت: «جيجي.. هو انتي كان نفسـك تطلعـي ناظرة مدرسـة.. إنتي مـش ملاحظة إنك بتعامليهـم ولا كأنهم عيال صغيـرة عندك في الحضانة!»، طلبت منهـا أن تعجل بما تريد أن تحكيه لي، لكنها تمانعت وقالت: «خلينا نحكي في البيت أحسـن»، شخطت فيها دون أن يعلـو صوتي وهمسـت: «يعني إحنا سـبناهم وجينا هنا عشـان نحب في بعـض»، قالت بدهشـة: «إنتي اللي جبتينا هنا يا جيجـي تحبي نرجعلهم؟»،

بغيظ قلت لها: «إهمدي واقعدي واحكي من غير ما تعلي صوتك»، ابتسمت وهي تقول: «حاضر يا ست الناظرة»، ثم أخبرتني بأن الفأر قد ظهر وأطل برأسه من البحرين، وأنه اتصل بـ «رنا» وسبها في مكالمة ثم عاتبها في أخرى ثم اتفقا على العودة مرة أخرى - كانت «بسمة» آنذاك تنظر لي بشماتة - وأن عودتهما ستكون علانية لأن «رنا» تحدثت مع المذيعة التي تناولت مشكلتها وسرت المذيعة بهذا الخبر السعيد، ورأت فيه فرصة لترويج أكثر لبرنامجها فاتفقت مع إدارة القناة على تحمل تكاليف إقامة فرح جديد لـ «رنا» و«فؤاد» بحضور كل نجوم المجتمع، يذاع في أوله جزء من الحلقة السابقة، وأدهشتني «بسمة» وهي تخبرني بأن «فؤاد» وافق على ذلك، ثم أضافت أن «رنا» هي التي أخبرتها بكل ذلك وبأنها ستدعونا قريبًا إلى حضور الفرح، لم أعلق واكتفيت بقولي بحدة إني لن أحضر هذه المناسبة حتى لو كلفني ذلك خسارة «رنا» نهائيًا.

أحمد الضوي

حاول «عماد» أن يقنعني بأنه وجد فتاة أحلامه والتي سيتزوجها قريبًا، وكان هذا التلاقي في خلال بضعة أيام سافرت فيها إلى النمسا وعدة أيام أخرى بعد رجوعي افتقدته فيها، ولم يصرح بتفاصيل أكثر ولم يدعُني لمقابلتها وكان هذا غريبًا، لكني التمست له العذر فقد يكون جادًّا هذه المرة ويريد أن يداري على شمعته كي «تقيد»، ثم سمح لي برؤيتها أول أمس الذي وافق مرور شهر كامل على رجوعي، وأدركت بمجرد جلوسي ما كان خالي «حسام» يخبرني به عن أن بعض الرجال يظلون أسرى تجربتهم الجنسية الأولى، فإن كان أول اكتشاف لرجولتهم في جسد خادمة يظلون طيلة عمرهم يطاردون هذا النموذج من النساء، و«عماد» أطلعني على تجاربه الأولى المتعددة وكنت أستشعر كذبه فيما يرويه لأنه كان يضيف ويحذف من التفاصيل كأنه يؤلف حكاية لا يروي واقعة، لكني عندما رأيت هذه الفتاة وكانت بالمناسبة عمرها 23 سنة وذات مظهر طفولي، ولم تكن قد تزوجت من قبل وقالت إنها ارتبطت بنصف إكليل مع تاجر مشغولات ذهبية في شبرا واكتشفت أنه نصاب فانفصلت عنه، وقال لي «عماد» فيما بعد المقابلة إنها التي وشت به وضبط وهو يبيع ذهبًا مغشوشًا بالنحاس ويزوِّر في ختم الصاغة، و«عماد» التقاها عن هذا الطريق.. فتاة تشي بخطيبها الذي ردًّا على خيانتها اتهمها بأنها كانت تنوي فك خطبتهما لكي ترتبط بمسلم

وتحوله إلى مسيحي، ولأن هذا الموضوع شائك جدًّا تم استدعاء «عماد» لحله واكتشف ادعاء الخطيب لكنه وقع في براثن الخطيبة، تلك الخطيبة التي تدعى «ميراند» في غاية الفتنة والجمال المبتذل في رأيي والذي يفضح وضاعة بيئتها رغم ادعائها بأنها درست في مدرسة «سان بول» وتخرجت في كلية الألسن.. وعندما أخبرني «عماد» بأنها مانعت في البداية فكرة الارتباط الزوجي به، بعد أن حاول اختبارها بدعوتها إلى بيته فلقنته درسًا لن ينساه و«كيّفه» سبابها له، ثم سرعان ما أخبرته بأنها تدرس الموضوع وجعل هذا «عماد» منشرحًا جدًّا وعصر كفي بقبضته وهو يناشدني أن أتمنى له التوفيق لأن هذه هي آخر فرصة بالنسبة له، ضحكت بسخرية وأنا أقول له: «عمدة يا صديقي إنت بتتكلم جد؟».. نظر لي بإمعان وقال. «أنا عمري ما كنت جد زي النهارده»، أكملت الضحك والقهقهة، مندهشًا قال: «هو فيه إيه يا ضوي.. إنت تعرفها قبل كده؟»، نفيت ذلك بالطبع ثم سألته هل عرفها جيدًا؟ أجابني بثقة: «كل التحريات اللي عملتها أثبتت إنها ماكدبتش عليَّ في حرف واحد»، قاطعته بزهق وأنا أقول: «عماد.. إبعد الشرطة عن موضوعات الحياة.. أولًا أنا شايف إنها مبهرجة أكتر من اللازم.. في هدومها ومكياجها والرقاعة اللي بتحاول تكبتها عشان إحنا قاعدين معاها بس.. ثم دي واحدة أول ما نشنت نشنت على تاجر دهب.. ويمكن لما اكتشفته وحبت تقسم معاه اختلفوا ففضحته.. والأهم من ده ممكن تقولي إيه اللي هيخلي واحدة عندها 23 سنة ترتبط بواحد على بوابة الخمسين.. أكيد منصبك! ماحدش بيحتاج يحتمي في حد إلا لو كان ناوي يعمل مصايب أو يكون بيعملها فعلًا.. والحاجة التانية اللي ممكن تجذبها ليك.. فلوسك وورثك وانت واحد مقطوع من شجرة.. يعني هي اللي هتكوش على كل حاجة في

النهايـة».. ظـل «عماد» ينظر لـي ولا يتكلم وكأنه لم تخالجـه نفس الأفكار ممـا دعانـي لأن أكمل: «إحنا نعرف بعض كويس يـا عماد.. وأنا متأكد إنك بعبعـت لها بكل حاجة وانت متخيل إنـك بتتكلم مع طفلة.. قلتلها على كل مغامراتك النسائية عشان توحي لها إنها هتتجوز راجل شادد حيله.. وقلتلها على ورثك وفلوسـك عشان تغذي أحلامها في المعيشة السوبر والرحلات لجميع دول العالم.. عشان كده دماغها زنت.. واللي ماتعرفوش يا صاحبي إنهـا في خلال أيام قليلة هتطاردك بموضـوع الجواز ده وهتوحيلك إن ناس كتيرة عايزة تتجوزها عشان تلحق وتخطفها».

كنـت أتوقع مقاومـة «عماد» أو اعتراضه بأسـانيد علـى اتهاماتي للفتاة، لكني فوجئت بانكماشـه وحسرته واهتمامه وهو يسـألني ما العمل؟ طلبت منـه أن يبطـئ معدل اللقاءات معها بحجة العمـل وأن يتابعها بدقة فقد أكون مغاليًا في تقديراتي ويظهر أن البنت مظلومة وليست كما أظن.

سـكت «عماد» ولـم نتطرق لهذا الموضوع خلال نصف السـهرة الأولى خاصـة بعـد توافد بعض زملاء «عمـاد» إلى منضدتنا وكانوا فـي أزياء مدنية لحساسـية المكان الذي كنا نجلس فيه، وقبيل انتهاء السهرة كانت المنضدة قـد خلت، وكانت حالة النشـوى قد تمكنت منـا ووجدته يضحك جدًّا وهو يقـول: «تعرف يـا أحمد إن إحنـا الاتنين ولاد وسـخة ونهايتنـا هتكون زي الخرا.. تفتكر أهالينا دعت علينا قبل ما يتنيحوا.. ولا إحنا زرع شيطاني زي ما جينا عشوائي هننتهي عشوائي».

شـتمته لأنه شتم أهلنا ضمنيًّا ثم سـألته عن سبب هذا الهراء الذي ينسل من بين أسـنانه فأجاب بنفس الضحكة المسـتفزة: «يعني تفسر بإيه النسوان

المحترمة اللي باكون السبب في تطفيشها.. وتلاقيني في نفس الوقت باجري بالمشاوير ورا العاهات ومنبع العكننة.. وتفسر بإيه برضه إنك مركز مع اتنين.. مجنونة في الأغلب هتقتلك.. وعاقلة هتخليك تنتحر بمزاجك».

الغريب أني لم أعترض على كلامه والأغرب أنني بعد أن افترقنا ظللت أفكر بإمعان في عبارته الأخيرة، خصوصًا وأني عندما رجعت من السفر وسألني عن الورطة التي وقعت فيها «ريم»، لم أخبره بحقيقة أنها تعدت على زوج أختها وطعنته، تفاديت شماتته ورويت له رواية أخرى أحكمت تفاصيلها وأنا في الطائرة.. عن فشلها في جعل أختها توافق على بيع الشقة مما أثر على معنوياتها ودخلت في مرحلة من السكر الانتحاري، ولم تتوقف عن الشرب وهي في بيت صديقتها حتى انهارت ودخلت مصحة للعلاج من الإدمان، ولأنها كانت حالة طارئة تم علاجها بسرعة وشفيت تمامًا.. وكان «عماد» ينصت لي باهتمام وأنا أحكي، وبدا غير مصدق.. وبعد أن أتممت رواية حكايتي عقب بابتسامة: «كويس يا أحمد إن الحكاية مرت على خير.. وكويس إنك مارجعتش بيها.. أوروبا حلوة قوي لنوعيتها.. يا ريتها تستقر هناك ونرتاح»، بغضب مفتعل سألته عن سبب هذه الرغبة قليلة الذوق، فقال ضاحكًا: «هو انت زعلت.. طب يا ريت تيجي بسرعة عشان انت الظاهر حياتك اتعودت على السسبنس».

«ريم» الآن في فرنسا كما حدثتني منذ يومين، ولم تحدد موعدًا لمغادرة فرنسا لكنها قالت إنها بعد فرنسا ستتجه إلى إيطاليا وقد تزور فينيسيا والفاتيكان قبل أن تمر على سويسرا لقضاء بضعة أيام مع أختها.. ولم أكن في الحقيقة متأكدًا من صحة أقوالها وهل هي في فرنسا أو سويسرا

أو ما زالت في النمسا أو في الخليج.. الشيء الوحيد الذي تأكدت منه أنها مكثت في الفندق الذي أقمت فيه الأسبوع بكامله الذي حجزته أمامي وقد أبلغني «مصطفى» بذلك، وهذا الموقف لا يقدم أي معنى فإنها تعلم علم اليقين بأني سأرسل خلفها «مصطفى» لكي يتقصى عن المدة التي قضتها في الفندق.

«ريم» قالت إنها ستختتم رحلتها بالمرور على الخليج لرؤية «ملك» وجلبها معها إلى القاهرة، وقلبي يحدثني بأنها قد تكون في القاهرة الآن!

الفنان «الوشاحي» الذي عرفتني عليه «جيهان» شخص استثنائي. لقد أحببته جدًّا وصارت بيننا صداقة وقد زرته في بيته وأراني ورشته والأعمال التي يعكف عليها.. واندهشت جدًّا مما أبدعه خاصة من خامة الحديد التي هي عماد مهنتي.. شيء مبهر جدًّا أن يعيد خلق الجمال من بقايا الحديد الذي نهمله ونستتفه شأنه.. وقد عرضت عليه أن يزور موقع عمل شركتي حاليًا في حدائق الأهرام لكي يختار من بقايا الخامات ما يروق له، لكنه استثقل المشوار فاتفقت معه أن أرسل إليه مهندسًا بسيارة الشركة كي يستقلها ذهابًا وإيابًا من الموقع، قال إنه عندما يحس بأنه أفضل سيتفق معي على موعد الزيارة، الغريب وأنا في زيارته تلك قال في أثناء كلامه إنه سيريني «كتالوج» يضم صورًا لأعمال المرحوم «تميم» زوج «جيهان»، وسألني عن تفاصيل معرفتي بها وأثنى عليها وهو يضيف أنها سيدة صعبة جدًّا، ولم أعلق على كلامه، ثم سألني بشيء من الوقاحة هل سبب اهتمامي بمعرفته والتصادق معه لأنه بمثابة الأب الروحي لـ «جيهان»، وبان على وجهي الضيق فادعى أنه يمزح، وقد انزعجت فعلًا من تصورهم كلهم

- المثقفون- بأني جاهل في مسائل الفن ومعرفة الفنانين، خالي «حسام» كان محبًّا للفن وزرت معه معارض فنية ورأيت عروضًا سينمائية طليعية وحضرت ندوات إبداعية وسياسية، ليس معنى أن أكون مهندسًا أني جاهل بالإبداع ومبدعيه.. «جيهان» اندهشت وأنا أقول إني سمعت عن «الوشاحي» وها هو «الوشاحي» نفسه يظن أني أسعى لصداقته من أجل «جيهان».

وتوثقت صلتي أيضا في الفترة الأخيرة بـ «خيري» الذي عرفتني به «جيهان»، وأعجبت جدًّا بمنطقه وألمعيته وقدرته الإحصائية والذي لا تعرفه «جيهان» وقد تكون «بسمة» عرفته.. أني التقيت «خيري» مرتين من دونهما وتغدينا في إحداهما معًا.. وأننا في هاتين المرتين لم نتحدث بشأنهما على الإطلاق وسعدنا باللقائين.. مصيبة لو ظن «خيري» أيضًا أني سعيت لتوثيق الصلة به من أجل «جيهان».. قد تكون لـ «جيهان» مكانة كبيرة في قلبي لكني أفتقد وجود أصدقاء بحياتي ولا أريد أن يفسد الأمر تخمينات ليست حقيقية.

بعد أيام قلائل أخبرني «عماد» بأنه قد صرف النظر عن موضوع «ميراند» وأنه اقتنع بوجهة نظري وبدأ يراقب تصرفاتها بتربص ورأى فيها ادعاءً وملاوعة، وأنه تمكن من زيارة خطيبها في السجن ولم يؤكد أنها عرضت عليه أن تقاسمه أرباحه من تزوير ختم الصاغة «الدمغة المضروبة» على سبائك النحاس المطلية بالذهب، إنما أقسم إنها عرفت أنه يفعل ذلك منذ فترة كبيرة ولم تعترض أو تنهاه عن فعل ذلك، وعندما بدأ يتقاعس ويرفض أن يلبي طلباتها المغالى فيها كي يتم الزفاف، وشت به وأبلغت عنه، ثم

شكرني «عماد» بخجل وهو يقول إنه كان كالثور الذي يدير الساقية وهو مغطى العينين، لكن الثور أفضل حالًا منه لأنه على الأقل يجلب المياه بينما هو لا يجلب إلا المصائب، وقال لي بعتاب أخوي إنه استمع إلى نصائحي مرتين إحداهما بخصوص «كارولين» والثانية بخصوص «ميراند» وإنه اتبع نصيحتي ونجا، ويتمنى أن أستمع مرة إلى ما يحذرني منه بخصوص «ريم» و«جيهان»، استفزتني هذه المقايضة السخيفة لكني لجمت الرد في فمي وسكت.

جيهان العرابي

لا تحتمـل أذنـي المكالمـات الطويلـة أو حتـى أي مكالمـة تتجـاوز الهـدف المنـوط منها، ويوترنـي الصوت المبحوح الهامـس الذي لا تتضح تفاصيـل كلامه عبـر الأثير، وكذلك الصوت العالـي الصاخب، ورغم ذلك فالاستثناءان اللذان التزمت بهما في عدم تجاهل المكالمات كانا لـ «بسمة» و«الوشـاحي»، و«بسـمة» كلامهـا عبر الهاتـف أغلبه همسـات لأنها تدعي إخبـاري بأسـرار ما، ومعظمها أسـرار خائبـة وحتى لو كان من ضمنها سـر خطيـر فلا يستلزم تلك الطبقة التي تتكلم منها والتـي تجذبها من قعر بطنها لأننا نتحادث عبر الهاتف ولن يسمع أحد غيرنا هذه المكالمة، «الوشاحي» استثنيته لظروفـه المرضيـة من أصحاب الأصـوات الهـادرة وإن فقد بعضًا منهـا بتأثير العلـة لكنه افتعلها هذه المرة لكي يظهر أنه ما زال بخير، خمسـة وأربعون دقيقة كاملة أطلقها كالقذائف في أذني وغالبها لغو وثرثرة ومطالبة بألا أكف عن الاتصال به والاطمئنان عليه وأن نلتقي بين الحين والآخر، ثم نميمة لطيفة عن المجتمع التشكيلي لا أعرف معظم أبطالها، أما فيما يخص حياتي وأعتقد أن هذا هدفه الرئيسـي من المكالمة، فإنه أخبرني بأن «بسمة» جميلـة و«مهيبرة»، وأنه كان يتمنى أن تجلس على منضدته، لكنه لاحظ أنها مهتمة بأن تخبرني بأشـياء شـخصية لذا لـم يغلس ويطلب منها مجالسته، ثم سـألني بعفويـة هـل هي بخيـر؟ طمأنته كي أسـد مجرى فضولـه، فلاحقني بالأهـم وأخبرني بأن «أحمد الضوي» شـاب لطيف جـدًّا ومهذب وأنه زاره

فـي البيت وتعرف على ورشـته ورأى بعض الأعمال التـي لم تكتمل وأخذ منه بعض «البروشـورات» التـي فيها صور لأعماله، وأضـاف أن «الضوي» عرض عليه أن يأخذه بسـيارة إلـى الموقع الذي يعمل مقاولًا فيه لكي ينتقي بعض فضلات الخامات التي قد يرى فيها «الوشـاحي» أهمية ما، ثم سـكت «الوشاحي» لحظات وطلب مني وهو يتحسس كلامه بأنه سيكون جميلًا لو صحبتهما إلى الموقع فإن ذلك سيحمسـه أكثر للذهاب في هذا المشـوار.. (لا يـرى بعـض البنـي آدميين أن بضع كلمـات ممكن أن ترفـع الضغط إلى حـد الخطـر)، ووترني هذا الطلب جدًّا وتماسـكت حتـى لا يخرج مني رد غير لائق خاصة لـ «الوشاحي» أستاذ «تميم» ولظروفه المرضية.. لذا سكت تمامًـا ولـم أنطق، حتى أتاني صوتـه مبتهجًا كأنه كان يمـزح وقال: «والله يا جيهان أنا اللي طالب الطلب ده وأحمد ما يعرفش حاجة عنه»، قسـمه أيضًا ضايقني أكثر فقاطعته بحدة: «أستاذ وشاحي.. حضرتك تطلبه.. هو يطلبه.. أنـا ماليـش فيـه.. دي حاجـة خاصة بيكـم ما تشـركنيش فيها مـن فضلك»، لهجتي الرسمية جعلته يغير مجرى المحادثة بسرعة إلى رغبته بقدوم الشتاء الحقيقي بأسـرع ما يمكن حتى يشتي في أسوان ويتم نقاهته، وأنه سيقيم في فنـدق «كتراكت» لأن فندق «بسـمة» يثير فيه ذكريات مؤلمـة، لم أعلق فعاد ليقـول لي إنه مندهش من أن «أحمد الضوي» الذي تخرج مهندسًـا معماريًّا يؤسـس شـركة مقاولات مختصـة بالأعمـال الإنشـائية، قلت لـه ربما هذه الشـركات هي الأكثر ربحًا عـن المكاتب المعمارية هذه الأيـام، وكأنه كان ينتظر إجابتي ليعترض عليها قال بسـرعة: «ما افتكرش إن ده السـبب.. لأن المعماريين الجيدين بيكسبوا أضعاف شركات المقاولات.. ولأن في المدة البسيطة اللي عرفت فيها أحمد عرفت منه إنه سايب إدارة الشركة لمهندسين

تانييـن.. وده مش أسـلوب واحد مهتـم بالتكويش على كل دخل شـركته»، لـم أفهم ماذا يقصد «الوشـاحي» بهذا الحديث الطويل عن «أحمد» فسـألـت مباشرة وبشيء من الحدة: «أستاذ وشاحي أنا مش قادرة أفهم إنت بتستفسر منـي، ولا عايـز تقولي حاجـة بطريقة غير مباشـرة؟»، ووجدته بعد سـكون لبضـع ثوانٍ يسـتطرد: «أنا أقصد يـا جيهان إن المعماريين عندهم إحسـاس بالعظمة والتفوق لأنهم بيخلقوا من الفراغ أشـياء جميلة والإنشائيين بعدهـم بيحولوها لواقع.. عشـان كده هما على قمة الهرم الهندسي بينما الإنشائيين هـم الجنـود المجهولـون.. لما واحد معماري كان شـاطر في شـغله زي ما قاللي يروح ناحية العمل الإنشائي.. يبقى من عشاق الظل ومش هيبقى فيجر في أي حاجة تانية».. وصلتني رسالة «الوشاحي» المستفزة واضطرتني لفك لجـام الذوق واللطف وأنهيت المكالمة بقولي: «أسـتاذ وشـاحي مش انـت بس اللي عرفت الأسـتاذ أحمد من فترة بسـيطة.. أنا كمـان وما اعتقدش إنه يهمني إنه إنشـائي أو معماري أو عاطـل عن العمل.. وميهمنيش برضه إنك تصاحبـه أو تعاديـه.. وأرجـوك كلامنـا في المـرات الجاية يبقـى في حدود صداقتنـا الشـخصية والعمـل اللي متعلـق بينـا».. وكان «الوشـاحي» يكرر أسـفه واعتـذاره وكنـت صامتة إلى أن حسـمت الأمر بكلمة: «مع السـلامة يا أستاذ».

اكتفيـت في ذلك اليوم بتلـك المكالمة الموترة، وتلقيت مكالمات على التوالي لم آبه لها، ثلاث منها من جهة واحدة أدهشـتني لكن لـم يتغلب عليَّ فضـول للـرد على إحداهـا.. واحدة من «رنا» ثـم زوجها «فـؤاد» وأعقبهما مباشرة مكالمة من والد «رنا»، خمنت من هذا التكثيف أنه بخصوص دعوتي إلـى حفل الزفاف الذي سـيذاع على الملايين، وكنت قـد نويت ألا أحضره

مهما كان، باقي المكالمات كانت من «حنان» زوجة أخي و«ريتاج» و«فريد» و«إبراهيم» و«بسـمة»، وكلهم استسلموا لعدم ردي عدا «بسمة» بالطبع التي لاحقتني بـ SMS تطلب فيها ضرورة لقائي لأنها في شدة الاكتئاب من شيء مفرح جدًّا، رسالتها أضحكتني وجعلتني أتصل بها وأتفق معها على موعد في المساء.

كنت كلما نزلت منطقة وسط البلد تعثرت في «إبراهيم» و«فريد» دون مواعيد مسبقة، إنما اليوم كان خاليًا من «إبراهيم» لأنه يسابق الزمن كي ينهي تجهيزاته قبل موعد دخلته الذي حدده بعد أسبوعين في نادي الإعلاميين بالمنيل، وقد دعاني إلى حضوره منذ أيام خلال مكالمة طويلة كانت تبوح بسعادته وأكدت له حضوري، وطلب مني أن أدعو نيابة عنه أصدقائي الذين أحب وجودهم في هذه المناسبة لأن عددًا قليلًا من أقاربه الباقين سيأتون من المنصورة، وأنه يريد أن يبدو صاحب عزوة خاصة أن عائلة خطيبته كثيرة العدد، كما أن الفرح سيمتلئ بنجوم الصف الثاني وهو يريد أن تكون الكثرة للناس الطبيعيين، ضحكت وقلت له إني سأحاول جلب بعض الأصدقاء الذين تعرفوا عليه في مناسبات سابقة، ولم يكن بذهني لحظتها غير «بسمة» فهي تحب «الزيطة» والتجمعات الجاذبة للنميمة، وعلى ذكر «إبراهيم» أنا لا أرى سببًا لاتصاله اليوم غير الدردشة فيما أحضره أو هو مكلف بإحضاره ويريد مني الاستفسار عن أفضل أماكن بيعه، أو يريد أن يفاجئ زوجة المستقبل بهدية في الصباحية وتكون على ذوقي، ولم أرد على اتصال «فريد» لأن في مكالمتنا السابقة التي بادرني فيها بالحديث بعادية شديدة كأي زميلين، كان يسألني عن أفضل هدية مناسبة لـ«إبراهيم» وهل أفضل

أن أشاركه في هدية قيمة باسمينا، وقد رفضت ذلك بالطبع وقلت له الأفضل أن يختار كل منا هديته وأنه لو كان متحيرًا بهذا الخصوص فليسأل صديقه الأنتيم «إبراهيم» عن الأشياء التي تنقصه ويقدم له إحداها، ثم سألني بخبث هل أفضل أن أتوجه إلى قاعة الفرح بصحبته أم ألتقيه هناك؟ أجبته بصوت مستاء بأني سأكون مشغولة مع «بسمة» بالتجهيزات الأنثوية للمناسبة لذا من الأفضل أن يسبقنا إلى هناك، وهنا تلون صوته وتمسكن وقال إنه يريد مقابلتي على انفراد للحديث معي في موضوع مهم، وكلما طلبت منه أن يصرح به أو يلمح بموضوعه في التليفون كان يتلجلج، فأدركت ما ينوي أن ينفرد بي بسببه واضطررت لأن أطلب منه في غلظة تأجيل هذه الموضوعات التي ليس لها أصل أو فصل إلى ما بعد زواج «إبراهيم»، ولعله هذه المرة كان يريد مكالمتي من باب الرذالة كي يعيد المحاولة. أتت «بسمة» وقبلتني بسرعة على وجنتي، ثم جلست ووضعت حقيبتها الكبيرة على المقعد الذي يجاورها وأزاحت كل الأشياء الموضوعة على المنضدة في الجزء الذي يقابلها.. كوب عصير وزجاجة مياه أرجعتهما برفق إلى حيزي، وبأصابعها أبعدت علبة المناديل الكرتونية إلى الطرف الأقصى من المنضدة، ثم عاملت فازة الزهور بمنتهى الوقاحة وأمسكتها من عنقها كأنها تود خنقها مما دعاني لمد يدي وأخذها منها بسرعة ووضعتها على يميني، انتبهت وقالت بسرعة: «سوري يا جيجي.. دقيقتين بالظبط وأبقى كلي ليكي».. وأخرجت «اللاب» من حقيبتها ووضعته في المساحة التي أجلتها ورفعت جزءه العلوي وقبل أن تهم بالكتابة وهي في انتظار الضوء الأخضر قالت بنفس الابتسامة: «سوري يا جيجي للمرة التانية على فازة الورد.. في حاجة

ضروري تتعمل دلوقتي ومتتحملش دقيقة واحدة تأخير».. وأضاء اللون الأخضر وجهها ومدها بطاقة عجيبة جعلتها تبدو أمامي ككائن خرافي بأيدٍ وأعين كثيرة وهي منكبة فوق اللاب.. واستغرقت فعلًا بضع دقائق ثم تنهدت في ارتياح وأغلقت اللاب ووضعته في حقيبتها ثم أجابت عن سؤال لم أنطق به: «الحمد لله يا جيجي.. شيَّرت حاجة مهمة جدًّا على صفحة خالد سعيد..ماينفعش تستنى».. كانت قد ضمتني إلى تلك الصفحة دون أن تستأذنني وعندما عاتبتها استغربتني وقالت: «جيجي الوقت اللي إحنا فيه ده مش عايز سلبية ولو مش عجباكي الصفحة ممكن تخرجي منها بكل سهولة»، كنت أعرف أن «خيري» تخللها كلها لكني لم أستوعب أنها تنطق بلسانه وتحارب حروبه ولم أكن في حالة تسمح بالمجادلة وقتها لذا أنبتها فقط ببضع كلمات على محاولتها إثبات الوطنية على حسابي، وأفهمتها أني أقدر منها على التمييز بين الأفعال الثورية والمراهقة الثورية، وطلبت منها ألا تحشرني بعد ذلك في مواقع أو توقع عني على بيانات دون استئذاني واعتذرت لي بينما لم أخرج من الصفحة، وتجنبًا لتكرار هذا الموقف لم أعلق على ما فعلته أمامي في التو واللحظة، إنما سألتها مباشرة في صميم الموضوع الذي ساقتني به إلى هنا.. لماذا هي شديدة الاكتئاب من موضوع مفرح جدًّا؟ قالت وفي عينيها حيرة إن «خيري» قد أخبرها أن هناك احتمالًا كبيرًا أن يسافر إلى أمريكا في نهاية يناير القادم لدراسة أحد التخصصات المهمة لحياته العملية، وأن مدة هذه الدراسة عامان، وأنها بمجرد أن سمعت منه هذا فوجئت بأن روحها وهي تغادر جسدها تدميها من الداخل حتى إنها كانت على وشك أن تتقيأ دمًا، لكنه لاحقها بقوله إن الجامعة التي

يخاطبها إذا وافقت على موضوع أطروحته وأصبح من المؤكد مغادرته مصر لعامين كاملين، سيرتب أوضاعه في أمريكا في الأشهر الثلاثة الأولى ثم يعود للزواج منها والعودة بها معه.

لم تكن بي رغبة في أن أصدق احتمالات في المطلق ولذا لم أتهلل فرحة لما تقوله ولا افتعلت ذلك مراضاة لها إنما قلت بحيادية: «اللي انتي قولتيه لغاية دلوقتي مش بطال إيه اللي كأبك؟»، رمتني بنظرة شزرة ولوت فمها وهي تقول: «مش بطال؟ جوازي من خيري مش بطال؟!».. لأنجو من قمصتها اضطررت للملاينة: «ما أقصدش موضوع جوازك يا بسمة.. أنا باتكلم على السفر والإقامة في أمريكا.. بتضايقني سيرة البلد دي بعد اللي عملته في رنا»، قالت «بسمة» كأنها غير مهتمة بتبريري إن الذي ضايقها أن «خيري» لم يفكر في اصطحابها كزوجة أو حبيبة إلا بعد أن رفضت زوجته السفر معه وصممت على البقاء في مصر مع الولدين، وأنه حاول إقناعها عدة مرات وفشل تمامًا وحينئذ فكر فيها كواحدة من البدائل، والذي يقتلها أكثر أنها مدركة جيدًا أنها بديل غير أصيل وأنها ستظل حتى النهاية رهينة بمزاج زوجته التي قد تغير رأيها بعد سفر «خيري» وتوافق على مصاحبته، وحينها سيدير لها ظهره بكل بساطة تاركها خلفه يقتلها الغل والمرارة، وفي الحقيقة رأيت أن «بسمة» استخدمت لأول مرة عقلها فيما يخص «خيري»، لكني رحمة بها وشفقة عليها ظللت أستبعد مخاوفها وأحاول إقناعها بأن زوجة «خيري» لن تتراجع بناءً على الحكايات القليلة التي حكاها «خيري» عنها لـ «بسمة» والتي أطلعتني عليها، واستطعت بعد فترة أن أقويها وأجعل مزاجها يعتدل وتأثرت جدًّا وهي تقول لي بتضرع: «جيجي.. أنا عارفاكي

حقانيـة وبتقولـي للوحش إنت وحش في عينه.. تفتكـري إن خيري هيرجع وياخدنـي.. ولا بياخدني على قد عقلـي؟ من الآخر تفتكري إني ممكن في نهاية المطاف أترزع في سـرير واحد جنبه رسمي؟».. ضحكت بتحفظ بعد أن اكتـظ المقهـى وأنا أقول لها: «مافتكرش يا سـومة إن فيه راجل مهما كان يقدر يتغلب على مكرك وسـهوكتك وتباتك ورمـي جتتتك.. ومهما قاوموا شوية هيسلموا في الآخر»، ضحكت «بسمة» بشدة وقد أعجبها ما قلته.

تكلمنا بعد ذلك في اتصالات أسـرة «رنـا» المتابعة، فضحكت وقالت إنـه تـم تحديد موعد حفل رجوع «فؤاد» لـ«رنا» وسـيعقد في أوتيل هيلتون رمسيس الخميس القادم، أي بعد أسبوع بالضبط من الآن، وأضافت «بسمة» أن «رنـا» توقعـت ألا أجيب علـى مكالماتهمـا ورجتهـا أن تقنعني بحضور الحفـل، وأن لا يظـل قلبي أسـود تجاهها وهـي معترفة بخطئهـا وتتمنى أن أسـامحها وأحضر زفافها الثاني على نفس العريس، قاطعت «بسـمة» بغلظة طالبـة منهـا عدم التدخل بيني وبين «رنا» ومعلنة بحسـم بأني لن أحضر هذا الفرح ولو أدى رفضي هذا إلى نفيي من حياتها، طبطبت «بسمة» على كتفي وأقسـمت إنها أخبـرت «رنا» بأنها لن تتدخل بيننا ثـم أخبرتني بأني حرة في قـرار حضـور الحفل أو الغيـاب عنه لكنها تـرى أن أواجه «رنـا» بذلك لأن عـدم ردي عليهـا فيه إهانـة للصداقة التي بيننا، وكان ذلك فـي نيتي فعلًا لذا أبلغتهـا بأنـي سـأفعل ذلك فارتاحـت، ثم تذكرت «بسـمة» شيئًا وقالته لي بحذر: «جيهان فيه وقفة يوم الاثنين الجاي عند نقابة الصحفيين عشـان قمع الحريـات واللي منظمها أدباء وفنانين من أجـل التغيير.. يا ترى حتحضري الوقفـة وتصـوري ولا هتكبـري؟»، نظرت لهـا بإمعان ولم أعلق فتبسـمت

وهـي تشـوح بيدها وتقـول: «عارفة اللي انتـي كتماه في قلبـك.. أنا لا أدباء ولا فنانين وحاحضر بمناسـبة إيه؟ أقولك يا سـتي عشـان أنا دلوقتي واحدة مهتمة بالشـأن العام»، ضحكت جدًّا مـن ردها ولكي لا أغضبها عقبت بأني سـأحضر، فسـرت بذلك واسـتطردت دون أن تنتبه وعقبـت: «حلو قوي يا جيجـي وهيكـون معانا خيري طبعًا وأحمد الضـوي»، وجمت للحظات ثم دهشـت ونظرت لها نظرة قاسـية محملة بلوم وعتـاب اضطرتها للدفاع عن نفسها بسرعة: «آسفة يا جيجي ما اقصدش حاجة والله.. أنا نفسي اندهشت قوي لما خيري قاللي»..

أشـرت لهـا بالتوقـف وأخبرتها بموعـد زواج «إبراهيـم» وبمكان حفل الزفـاف وبحاجتـه إلى معارف لمؤازرتـه، وطلبت منها حضـور الحفل هي و«خيـري» إن لم يكن مرتبطًـا بمواعيد أو ندوات، فقالـت بفرحة: «هجيبوا معايا طبعًا ولو كان وراه ميعاد مع الأستاذ سمير أمين نفسه أستاذه وملهمه.. يمكـن حضـوره الأفراح اللي ورا بعضها دي يفتح نفسـه علـى الجواز»، ثم ضحكت بنبرة أسى.

وكانـت شاشـة محمولـي قد أضيئت عدة مـرات وقد ضايقنـي أن ثلاثة منهـا تخص «فريد»، وأحسسـت بـأن فضول «بسـمة» يأكلهـا فأخبرتها بأنه «فريـد» فقالت بخبـث: «ردي عليه يـا جيجي مدام بيتصل كتيـر يبقى عدى وشـافنا وبيتصل يسـتهبل»، قلت بتحدٍّ إني لن أرد عليه ولو اقتحم جلسـتي سـأصرفه بغلظة، تسـاءلت «بسـمة» عن سـبب ضيقـي منه، فأكـدت لها أنه لا شـيء عميقًـا يضايقني منه ولكني أحس أنه بعـد أن تأكد من أن «إبراهيم» سـيتزوج اعتقد أن السـاحة قد خلت له ومن المتوقـع أن يعيد طلب الزواج

منـي، وأنـه لا يريـد أن يصبـر حتى بعـد أن يتـم «إبراهيم» زفافـه، ضحكت «بسـمة» وعلقـت بغلاسـة بأنه ربما يتمنـى أن يتم زواجه مني فـي نفس ليلة «إبراهيم»..

كانـت جلسـتي قـد طالـت، وقلت لــ «بسـمة» إنـي سـأنصرف، لكنها أخبرتنـي بـأن «خيري» سـيأتي في خـلال دقائـق ورجتني أن أنتظر وأسـلم عليـه وأن أتفضـل بالبقاء معه قليلًا حتى ينهي مشـروبه، كانت عينا «بسـمة» تتوسـلاني فبقيـت، وفعلًا في غضون دقائق أشـارت «بسـمة» وهي تبتسـم إلـى سـيارة «خيري» وهو يجاهـد ليجد ركنة على الرصيـف المقابل، وكان بصحبتـه شـخص لـم أتبينـه من تلك المسـافة، وكنت منشـغلة بعـودة أذرع «بسـمة» الكثيـرة وهـي تعـدل ميكاجها وتسـوي خصـلات شـعرها وتنظر إلـى ملابسـها لتقيم مـا لـم يكن معتـدلًا، ثم هبـط علينا «خيـري» وبصحبته «أحمـد الضوي».. وجلسـا علـى راحتهما وطلبت «بسـمة» لهمـا ما يودان شـربه، وبادلت «خيري» بعـض الكلمات عن أحوالـي وأحواله ثم وضعت قيمـة حسـابي أسـفل فازة الـورد واعتـذرت لهـم باضطـراري للرحيل لأن عندي موعـدًا مهما وأوليتهم ظهري تخترقه النظرات المتحيرة والمتسـائلة والمغتاظـة كيفمـا كانت. لـم تفلـح «رنا» في إثنائي عـن تصميمي على عدم حضـوري فرحها، رغم أنها حلفتني بكل غـالٍ ورخيص، ولوحت بأن عدم حضـوري بمثابة طعنة فـي القلب، ورغـم اعتذارها عن حجـب أمور كثيرة عنـي تحـت زعم أني قويـة وكنت سـأؤثر علـى قراراتها.. قلت لها بحسـم إنـي لـن أحضر لكني سـأراه مثـل الجماهير عبر شاشـة التلفزيـون، أغلقت الخـط بزفرة اسـتياء وتحدٍّ ولـم أهتم بذلك مطلقًا، ثم لاحقنـي «فؤاد» بعدة

اتصـالات اضطرتني آخرها لمكالمتـه حتى أوقف هذا الإلحاح والزن، وإذا كنت لم أطع «رنا» وهي تحلفني بخاطرها من أجل أن أتواجد، فكيف كنت سأطيع هـذا الرجـل وهو يحلفنـي بخاطره، وكيـف أفهمـه أن مقابلتي معه السـابقة لأسمع شكواه من «رنا»، ليسـت معناها أني أميل إلى كفته، وأنه إذا خاصم خاصمت، وإذا صالح صالحت، كنت في هذه المكالمة أكثر قسـوة من مكالمتي مع «رنا» ولم أُتح له الفرصة لكي يتمادى في شـرح ملابسـات عودته إلى «رنا» واعتذرت بحدة، وفي سـياق هذا الموضوع الممل رفضت أن أرد علـى اتصاليـن مـن والد «رنـا» زهقًا من الحديث في هـذا الموضوع وهربًـا مـن أن يلمح بطريقة ما إلى فكـرة الارتباط بي التـي جعلها أرجوحة تبعده عن العجز والهرم. لم أشـاهد طبعًا وقائع نقل فرح «رنا» و«فؤاد» عبر الأثير ولم أمكن «بسـمة» فيما بعد من أن تتفوه بكلمة عن مشـاهداتها هناك سـواء كانـت طريفة أو سـاخرة، وفيما بعـد حضرت حفل زفـاف «إبراهيم» وكنـت أصطحـب «ريتـاج» معـي، بينما أتـى «الضـوي» بصحبـة «خيري» و«بسـمة»، وكان «فريـد» هناك منـذ الغروب كما أخبرني بذلـك، وقد انتقى لنا منضدة مناسـبة من وجهة نظره في مواجهة «البيست» الخشبي المتواضع المنصوب على الرمل، وكانت كوشة العروسين على يمين «البيست»، بينما هناك ممر على اليسار يفضي إلى «البوفيه»، وكنت أتابع فقرات الحفل بزهق أحاول إخفاءه وكانت «بسـمة» قد تجنبت أن أتكدر لأي سـبب ما فجلست بجـواري وعلى يمينها «خيري» ثم «أحمـد»، وكان «فريد» قد حجز المكان الـذي علـى يسـاري ولـم يضايقني ذلك رغـم يقينـي بتعمـده الجلوس في هـذا المكان، لكـن الذي وترني منه أنه جعل هذا الكرسـي بمثابة اسـتراحة

المحـارب، وكان كثير الحركة داخل النادي وكلمـا رأى زميلًا أو صديقًا أو أحـد الممثلين الجدد هرع إلـى أماكنهم وأغرقهم بالأحضـان والقبلات ثم يعود إلى جواري يشـير إليهم ويهم بإعطائـي معلومات عنهم، وكنت أصده بـلا فائدة، لكن عندما رأى المخرج «داود عبد السـيد» وكان بالمصادفة في النـادي وقدم لمجاملة «إبراهيم» أو زوجتـه الله أعلم، همس لي «فريد» بأن نذهـب لتحيته وهنـا لقي مني نظـرة ازدراء فانكمش كالفأر ثم تسـحب بعد فتـرة وذهب لاحتضانه وتقبيله، ورغم أني التـي وجهت الدعوة إلى «أحمد الضوي» إلا أنني لا أتذكر أننا تبادلنا كلمتين طيلة وجودنا في الحفل.

وكما توقعت بالضبط، ألح «فريد» في مقابلتي بعد حفل زفاف «إبراهيم» ممـا دفعنـي للموافقة حتى أنهـي هذا الموضـوع المعلق اللـزج الذي كنت علـى يقين من أنه سـيطلبه مني، واخترت موعـدًا كنت قد قررت فيه حضور مظاهرة «كفاية» وتصويرها وكانت «بسـمة» قد أبلغتني بأنها ستحضرها ولم تقل سـتحضرها مع مَن؟ لكني خمنت صحبتها وقـد صح تقديري، وكانت تظاهرة حماسية في نطاق نقابتي الصحفيين والمحامين وكان عددها لا بأس به بالمقارنة بما سـبق أن صورته من تظاهراتهـم.. وكنت قد أخبرت «فريد» بـأن يقابلنـي على مقهى البورصة بعـد التظاهرة لكني فوجئـت به يترصدني هنـاك ويعيق حركتي وأنا أنتقي أوضـاع وأماكن التصوير مما دفعني لحدجه بنظرة قاسـية ليبتعد عني. ثـم وجدت نظرات «أحمد الضوي» تأكل عدسـة كاميرتـي وهو فـي قلب التظاهرة مع «خيري» و«بسـمة».. وهنـا أدركت أنه تـورط بالكامـل وضايقني ذلـك تمامًا، كمـا كان يضايقني ذلـك فيما مضى مـن صديقـي «إبراهيـم» عندمـا اتخذنـي هدفًا وبـدأ يتقرب منـي بمبالغات

كثيـرة.. وكنـت كلما قلـت أمنية عرضيـة أو كلمة عبثية فـي حديث معهم.. تذكرهـا وفاجأنـي بأنه أحضرها لـي أو قدمها لي بمبالغـة.. مثلما قلت ذات مـرة إنـي أفتقد أمي ويخطـر ببالي كثيرًا وهـي تطعمني الفصوص السـكرية لثمـرة «القشـطة»، وكان كلامـي هذا في غيـر أوانها لكنه اجتهـد وأحضرها لـي وقدمها باحتفالية مبالغ فيها وسـط نفس الأصدقـاء الذين قلت ذلك في حضورهم، مما غاظني لكني لم أسـتطع إغضابه وشـكرته بسـخرية، أشـياء كثيـرة مثـل ذلك خنقتني مـن «إبراهيم» لأنه جعلني محاصـرة طوال الوقت بعيونه وآذانه وحريصة على الدوام في وجوده على ألا أصرح برغبة أو أمنية إلى أن قسوت عليه بعد أن تمادى في ذلك وتخلصت من إلحاحه.. «أحمد» فـي نفـس الموقـع الآن رغم أن موضوع الهدايا قد حسـم مـن البداية إلا أنه يهديني أشياء غير منظورة ومنها ما هو متورط فيه الآن.. انتهت التظاهرة بعد تأهب قوات الأمن للاشـتباك.. وكانت «بسـمة» تجرجر «أحمد» و«خيري» وهـي تلاحقني أنـا و«فريـد»، وعندما نادتني بعد أن اتسـعت المسـافة التي بيننـا، التفـتُّ وأخبرتها بأني سـأجلس قليلًا مع «فريد» فـي مقهى البورصة، ووجدتها تبتسـم وتسارع بالقول إنهم سيجلسون في مقهى التكعيبة وتطلب مني عندما أنتهي من الجلسة أن أهاتفها.

لم تسـتغرق الجلسة طويلًا واستفزني جدًّا تردده ولجلجته عن الحديث المهم الذي ينوي إخباري به بينما كان كثير الإلحاح في طلب هذه المقابلة، طلبت منه أن يشـرب كوب الليمون لأني حرصت على ألا يتركه على حاله حينما يغضب من كلامي، وبعد أن شـربه طلبـت منه أن ينتهي من موضوعه بسـرعة، وطلـب طلبه فاكفهـر وجهي وبان ضيقـي وأعطيته درسًـا في عدم

انتهاز الفرصة وأعدت ما كنت أقوله له ولإبراهيم عن أننا إخوة قبل أن نكون أصدقاء ولا شيء غير ذلك.

أتت «بسمة» بمفردها بعد انصراف «إبراهيم» وأخبرتني بمجرد جلوسها بأن «الضوي» غادر متجهمًا بعد أن افترقت عنهم، وأن «خيري» جلس معها في مقهى التكعيبة وحين اتصلت بها تركها تعود إليَّ وسيأتي ليأخذها بعد ساعة، أخبرت «بسمة» بأني رفضت العرض المتوقع من «فريد» بالزواج فضحكت وهي تقول: «أنا كنت عارفة طبعًا إن ده هيحصل.. وطبعا إنتي متوقعة التاني اللي هيتقدملك الأسبوع ده برضه».

قلت بتحفز «عارفة طبعًا ومجهزاله الرد اللي يوجع».

قالت بتأثر: «حرام عليكي.. إديله فرصة طيب.. ولا أقولك اعملي زي والد عبلة حبيبة عنتر واطلبي منه يجيبلك النوق العصافير.. أو يهديكي مصباح علاء الدين».

زغرت لها بعيني وقلت: «بطلي خفة يا خفة».

قالت وهي تضحك: «أصل أنا بصراحة يا جيجي مش عاجبني البطر اللي بتعمليه ده؟»، استفزتني الكلمة لكني بعد ثوانٍ وجدت نفسي في موقع المدافعة عن موقعي وأنا أقول لها بحيرة: «بسمة إنتي مش قادرة تفهميني.. إنتي عارفة أنا رفضتهم ليه؟ عشان ما قدموليش نفسهم صح.. وكنت باقفل من كل ما واحد منهم يبدأ كلامه بإنه عايز يتجوزني.. ماحدش منهم قاللي: باحبك يا جيهان.. نفسي قوي أسمع الكلمة دي حتى لو كنت حارد عليها بعنف وغباء»!

ريم مطر

اختـرت توقيتًـا بين العصر والمغـرب وكنت غير متأكدة مـن أن «أحمد الضـوي» بداخـل شـقته؟ وهيأت نفسـي لـكلا الاحتمالين، وكنت أخشـى احتمالًا منهما الأشـد قسـوة.. وهو المواجهة، لأني كنت غير واثقة إلى أي مـدى سـيأخذني الارتجال فيها؟ وأي سـقف سـيجعلني أتوقـف وأكتفي؟ وعقـب بضـع رنـات مـن جـرس البـاب تأكـدت أن الشـقة خاليـة، فتحت ودخلت.. واتجهت إلى غرفة نومه حيث وجدت بيجامته ملقاة فوق السرير متشـابكة مع الملاءة والكوفرتـا والبطانية البني التي لـم أكن أحب أن أتغطى بها للرسـوم «الكيتش» التي تملؤها، وكانت هـذه الفوضى محيرة فقد تعني أن «أحمـد» خـرج علـى عجالة لشـراء بعـض المسـتلزمات وسـيعود على الفور، أو صحا متأخرًا وتذكر موعدًا مهمًّا فأسرع للحاق به، ثم لمحت فردة شبشب الحمام مقلوبة على ظهرها كصرصار قذر فتشاءمت وأحسست بأن هناك شـرًّا على وشـك القدوم، لذا أسرعت بوضع المفتاح في كالون الباب مـن الداخل حتـى لا يتمكن من الدخول قبل أن أنهـي مهمتي وأتخلص منه نهائيًّا.

وكان فـي تصـوري بعـد أن نزعت ملابسـي كلهـا، أني سـأقوم بالمهمة بينما أسمع إحدى السيمفونيات الكلاسيك أو حتى على الأقل صوت نباح الكلب المسجل.. لأني كنت أرغب في اجترار أيامي معه واسترجاع أسوأ ما

فيها وتشويه أفضلها حتى لا يتبقى منه شيء.. ثم استبعدت فكرة الاستعانة بالموسيقى وأنا أتحسس جسدي الحر بعد أن نثرت كل ما أرتديه في أرجاء الشقة، وخطر ببالي لوهلة أن أقف في البلكون الذي يخافه عارية هكذا.. وكان ذلك سيجرسه تمامًا في هذا الحي لكن كان سيمنعني عن إتمام ما أنا مقبلة عليه.. فأنا أريد أن أدميه.. أن أجعله ينزف قطرة تلو قطرة.

قفزت إلى البانيو الذي امتلأ إلى حافته فطرطشت المياه خارجه وظل الماء يتدفق ويتساقط على أرضية الحمام، فأغلقت صنبوره ثم أسندت ظهري إلى حافة البانيو الصيني العتيق، ولفت نظري تآكل المينا البيضاء في أجزائه الكثيرة التي بدت كقروح مرضى الجذام في نشرات منظمة الصحة العالمية، دهشت لأني تحممت في هذا البانيو البائس مرات عديدة ولم أبصر هذه التقرحات، ووجدته حاضرًا في ذهني فأغمضت عيني كي أغيبه فازداد حضورًا.. وبدأت تنتابني رعشة كادت توصلني إلى الغيبوبة، لكني استعدت صلابتي بسرعة وتماسكت وبدأت أركز جيدًا في التخلص من سمومه.. وجعلت بطني يعصر أمعائي دون معاونة من يدي، وبدأت أضم فخذي وأبعدهما وأنا أحزق وأحزق.. وفي حزقة مؤلمة أخيرة، تباعد فخذاي وصرخت بآهة ألم حتى اندفع من أسفلي.. ورأيته يخترق المياه ويصعد.. قمع من البراز الذهبي بقاعدة خضراء رمادية.. تبوأ سطح المياه منتصرًا فخورًا بجبروته وبخار ماء حوله كالهالة.. تأملته للحظات بسرور لأني تمكنت أخيرًا من التخلص منه.. من اللحظة فصاعدًا.. لن يكون هناك وجود لشخص اسمه «أحمد الضوي» في حياتي.. ثم فتحت الصنبور مرة أخرى فتحة صغيرة جدًّا.. وبدأ الماء يتحرك مرة أخرى وكان القمع مقاومًا

شرسًـا.. وكما قاوم قوانين الجاذبية بدأ بدهاء يلاعب انسياب المياه الشرهة لتفتيته.. دار مع المياه وكان التصاقي بظهر البانيو حائلًا أمامه، لكني احترمت رغبته في الحياة وقدَّرتها وتزحزحت للأمام كي أساعده على التحليق، وبدأ يـدور مـن حولي دورات متتاليـة وأطراف قاعدته تنهـزم وتتفتت.. وفي كل مرة نتواجه يناشـدني حمايته حتى صرخ مستجديًا إنقاذه.. فأغلقت الصنبور وخرجـت مـن البانيـو فخفتت حركـة المياه وتمكـن من الاسـتقرار فوقها، ورحت أتأمل ارتعاشـته الواهنة وتأرجحـه البائس وادعاءه الزائف بالصلابة والتماسـك، بينما هو يتداعى وينهار قطعة قطعة في نزعه الأخير.. مددت له يد الرحمة!

أحمد الضوي

تدفق إلى أذني صوتها هذه المرة قويًا واثقًا من نفسه وفي الوقت ذاته معجونًا بالرجاء واللطف، وكانت هذه هي «كارولين» الحقيقية كما عرفني عليها «عماد» قبل أن تربطهما العلاقة العاطفية، وكانت قد قفزت من التحيات إلى الموضوع الذي تريدني بخصوصه بسرعة مدهشة، قائلة إن ابنة عمها التي في الوقت نفسه أعز صديقاتها تريد أن تبني فيلًا على قطعة أرض تملكها مساحتها 800 متر في منطقة 6 أكتوبر، ولأن قريبتها ليست لها سابق خبرة في التعامل مع شركات المقاولات فقد كلفت «كارولين» بذلك، وقد أثنت «كارولين» على شركتي من واقع أنها تعرفني جيدًا - على حد قولها - ورجتني أن أقبل هذه العملية البسيطة، وقبلت لأن نطاق هذه الفيلا في نطاق عملي فشكرتني جدًّا، وهي تسألني إن كان عنوان شركتي ما زال بنفس العنوان فأكدت لها ذلك، ثم سألتني هل حدثت تغييرات في أرقام التليفونات فنفيت ذلك، عقب ذلك ترددت لوهلة وهي تطلب مني أن أصمم رسوم الفيلا المعمارية بنفسي ولا أترك ذلك لأحد المهندسين، أكدت لها أني سأفعل ذلك فشكرتني بحميمية وأنهت المكالمة.

لم تسأل «كارولين» عن «عماد» وأحواله طيلة المكالمة، وكان أثناء حديثنا يقود سيارته وأنا بجواره وهو يصفر بفمه لحنًا لعبد الوهاب، مما دعاني لتعمد نطق اسمها أكثر من مرة وأنا أرقب «بروفيل» وجهه.. كان

ثابتًـا ولا مباليًا ولـم يظهر عليه تأثر فيما عدا أنه أغلـق فمه وأوقف صفارته، وعندمـا انتهـت المكالمة وأعدت هاتفي إلى مكانه فوق تابلوه السـيارة عاد إلـى التصفير بصـوت أعلى، كأنه يخبرنـي أنه ليس بحاجة إلى سـماع كلمة عنها، وكنت في الوقت نفسه أفكر في الوقت الذي قررت فيه أن تكلمني في موضـوع تجاري لعلي أخبرها بشـيء عن «عماد»، وأيضًـا ما بذلته من جهد لتبدو لي عبر الأثير سـيدة مسـتقرة قد نفضت من رأسها الرجال أو بالأصح نزعـت «عماد» من ذاكرتها، بينما كشـفت المكالمة عـن افتقادها الموحش لـ «عمـاد»، وجعلني ذلك أتعاطف معها وأقدم إلى «عماد» ملخصًا سـريعًا لمكالمتنا، لكنه قلب شـفتيه وقال ببرود: «مبحبش النسوان اللي بتتمحك.. أنا ندمت أصلًا إني كنت سايبلها نفسي زمان.. فكك خالص منها يا أحمد»، سكت لحظات ثم قلت له بحسم إني سأنجز لها ما طلبته بسعر التكلفة، لأني لا أحب أن أخذل أحدًا كانت هناك مودة بينه وبيني فيما سـبق، ابتسـم وقال بسـخرية: «براحتك يا أبو مودَّة.. بس اعمل حسـابك لو اتعرضت لمشـكلة وانـت بتعملها الفيلا دي.. إنسـى إنك تطلب مني المسـاعدة.. ولو هيكون بينكم مواعيد شـغل تبلغني قبلها عشـان ما أطبش عليـك والاقيها.. أنا مش عايز أشوف الست دي تاني..»، ثم انطلق يصفر مرة أخرى.

اختفـى «عماد» مني عدة أيام مشـغولًا لشوشـته في أحداث بناء كنيسـة العمرانيـة الـذي تم وقـف العمل فيهـا لأن الترخيص كان خاصًـا ببناء مبنى خدمـات وليس كنيسـة، وتظاهر عـدد كبير من الأقبـاط اعتراضًا على وقف العمـل واندلعـت بينهـم وبيـن قـوات الأمن مواجهـات كبيرة أسـفرت عن مصرع شـخصين وسقوط عشرات الجرحى. وبعد أن هدأت الأمور كلمني «عماد» ظهر اليوم وأنا في الشـركة وسـألني عن الموعد المتوقع لانصرافي

وعندما أخبرته بأني سأنصرف في السادسة مساءً، قال إنه سيمر ليأخذني لكي نسهر هذه الليلة سهرة كبرى يتخلص فيها من الإرهاق العصبي الذي واجهه في الأيام الأخيرة، ووافقت على الفور فقد كنت أفتقده أيضًا بعد انشغالي في الفترة الأخيرة بالعمل وبارتباطي بشلة «خيري عباس» صديقي الجديد وصاحب «بسمة» صاحبة «جيهان».

صرفت النظر عن الأكل في الشركة كي أتغدى مع «عماد» كما وعدته وبمجرد ما ركبت معه قادنا حتى مطعم «خريستو» في آخر شارع الهرم ولم يتجاهل التساخف كعادته، وقال لي عندما اقتربنا من المطعم: «قربنا أهه من خريستو بس للأسف حنوصل بعد الغروب ويمكن تكون ما بتحبش تاكل سمك بعد الغروب.. تحب نرجع وناكل فراخ عند أندريا»، ثم ضحك كطفل عابث، نظرت نحوه بغيظ وقلت له: «هو انت خلاص ما بقتش تعرف غير مطاعم اليونانيين.. الظاهر إنك معجب باستيلا»، ضحك مرة أخرى وقال: «استيلا! يا ريت ليها أخت.. كنت اتجوزتها وبقينا نسايب!»، بعد أن انتهينا من الطعام، قلت له إن من الأفضل أن ننام ساعتين ثم نتقابل لنسهر، لكنه اعترض بشدة وهو يقول: «خليها تعب بتعب نكمل في أي نايت ونسهر ونسكر لما ندرمغ.. أنا واحشني السهر قوي».. واتفقنا على الذهاب إلى «شيراتون» المطار لكن بعد أن نبدل ملابسنا فربما يسعدنا الحظ بفرائس جديدة.

طلبت من «عماد» أن يصعد معي حتى أنتهي من حمّامي السريع لكنه قال إنه سيستغل الوقت في ملء إطار السيارة وغسيلها بمحطة البنزين وحذرني من التلكؤ والتأخير.. وبمجرد أن دخلت بهو البيت أحسست بأن

هناك شيئًا غير طبيعي حدث أو يحدث.. كان أصحاب الشقتين اللتين في الدور الأرضي قد باعوها لأحد محال النظارات منذ حوالي شهرين لكي يتم استخدامها كمخزن.. وكان دخول وخروج العمال محملين بالبضائع قد أضفى حياة صاخبة على الجزء الأسفل من البيت، وكان بعضهم قد ألف وجهي وأدرك أني من السكان فكانوا يفسحون لي الطريق بأدب جم وهم يعتذرون في نفس الوقت الذي يحيوني فيه بحرارة.. هذه اللحظة لزمهم الصمت.. بعضهم دخل مسرعًا إلى باب إحدى الشقتين المفتوحتين على مصراعيها.. وربما لمحت أحدهم يتلصص من الداخل.. واثنان كانا يتقاسمان حمل كرتونة مملوءة بالبضاعة توقفا في مكانهما ودسَّا رأسيهما في الكرتونة وغمغما وهما يردان تحيتي..

الصمت الذي أدهشني حجب عن أذني سماع صوت قوي متواصل.. أدركت بعد لحظة تركيز أنه صوت نباح كلب «شريف».. ارتبكت للحظات وصعدت الدرج بسرعة وكلما صعدت طابقًا كان الصوت يتوحش.. وعندما وصلت إلى طابقي كان الصوت مريعًا.. والمشهد الذي يواجهني أكثر رعبًا.. فقد كان باب شقتي مفتوحًا نصف فتحة والصوت يشغل فراغها كله.. وكانت المياه التي قابلتني على بسطة الدور الثالث والتي تصورت أنها بقايا مياه تسربت من مسح أرضية الدور الخامس.. اكتشفت أن مصدرها شقتي، وعندما اندفعت وجدت المياه تغمر كل أرضيات الشقة.. خلعت حذائي وألقيته خارج الشقة متصورًا أن هناك ماسورة مياه معطوبة في الحمام.. لكني وجدت خرطوم المياه ساقطًا بجانب إحدى قصاري الزرع ويطلق رشاشًا من المياه، أسرعت إلى الحمام لغلق الصنبور فوجدت صنبور مياه الحوض أيضًا مفتوحًا عن آخره وكذلك خلاط البانيو الذي تتدافع المياه من

جوانبه.. أغلقت كل مصادر المياه ورفعت كل أغطية بالوعات صرف المياه وشمرت بنطلوني وأمسكت بالمساحة أوجه المياه إلى البالوعات وأنا لا أتصور مَن فعل بي هذا ولأي سبب.. ثم بدأت أرى بعض الخسائر كشرائح خشب الباركيه التي انفصلت بفعل الضغط الشديد للمياه ثم سبحت قليلًا وهمدت أخيرًا.. ولحسن حظي لم تصل المياه إلى الغرف لأن ميل أرضية الصالة كان متجهًا إلى باب الشقة.. ثم لفت نظري أن مفتاح الشقة موضوع في فتحة الباب من الداخل. المفتاح ذو الدلاية الفضية لمفتاح النيل الذي أعطيته لـ «ريم».. وكنت في دخولي الأول قد خضت المياه كي أصل إلى جهاز التسجيل لأكتم صوت نباح الكلب وخطف بصري شيء لم أحدده بدقة من هول ما كنت أراه.. أنا الآن في طريقي إليه.. وأذكر أنه كان أعلى شاشة الكمبيوتر الذي يجاور جهاز التسجيل الذي ورثته من «شريف»..

ما أراه الآن لا أصدق أنه واقع.. قطعة من البراز موضوعة بعناية فوق بعض ورق المناديل الكلينكس البيضاء.. وهناك بطاقة حمراء من بطاقات «ريم» المفضلة منغرزة في القطعة.. مددت يدي بحذر والتقطتها من جانبها النظيف وقرأت ما بها وأنا أحس بأن هناك عيونًا أخرى في أماكن كثيرة تقرأ معي.. «أحمد هل تذكر أني في أول لقاءاتنا قلت لك لو زهقت منك سأخرجك مني وأعيدك كما رأيتك أول مرة.. ها أنا أعيدك كما تسلمتك أول مرة»..

ثم امتدت يد وأخذت مني البطاقة والتفت فوجدت «عماد» يقرأها بإمعان.. ولم أكن محرجًا منه إنما عقلي كان يدور كطاحونة انفلت عيارها.. أخمن عدد الجيران الذين استفزهم صوت الكلب فصعدوا أو

نزلـوا لمطالبتي بإسـكاته ودخلوا مـن بابي ورأوا عاري.. لحسـن حظي لم يعـد من الجيـران القدامى أحد يقيم في هذا البيت عدا سـاكنة مسـنة مقعدة فـي الطابق الأعلى.. لسـت راغبًا فـي أن أظل في أذهانهم لفتـرة كبيرة وهم يعقدون المقارنات بين سلوكي وسلوك أمي.

كان «عمـاد» فـي تلك اللحظـات قد أنهـى معاينته للشـقة كلها بفحص الباب الخارجي، ولفت نظره شـيء جعله يسـرع بجذبـي من يدي لمعاينته، وكان الذي أثار انتباهه أنها زنقت لسان الكالون بمسمار خشابي صغير حتى يظـل مفتوحًا ولا يوصد كلما دخل أحد الجيـران ورأى المصيبة وهمَّ بغلق الباب خلفه.. لأنها ببسـاطة تعمدت أن يرى الجميع ما فعلته بي.. والغريب أن أحـدًا لم يلمس هديتها ولعل هذا من حسـن طالعـي، ربما الذين اندفعوا داخل الشقة أوقفتهم المياه عن التوغل فيها، أو ربما لم يصعد أحد ولم يهتم أحـد بنباح الكلب في هـذا البيت الذي يبدو مهجورًا في أغلب أيامه، التفت ورأيت «عماد» ينتحي بهاتفه فارتعبت وأسـرعت بخطفه من يده وأنا أقول: «بتكلـم ميـن يا عماد؟».. أجاب مندهشًـا: «باكلم حـد صاحبي في المعمل الجنائي للوزارة»، قلبت شفتي غيظًا منه وقلت ساخرًا: «عماد إنت هتجيبهم يعملـوا إيـه بالظبـط؟ يفحصـوا الخـرا؟! هـو انت عايـز تجرسـني أكتر من كده؟!»، انتبه ثم قال مدافعًا عن نفسه: «لا هنجيبهم يفحصوا البصمات اللي على المفتاح وفي كل مكان في الشقة»، ربت كتفه وقلت: «أنا وانت عارفين يـا عمـاد إن اللي عملت ده ريـم وبصماتها فـي كل حتـة.. هنجيبهم ليه؟»، قـال بصوت كله انفعال: «إيه البرود اللي حـل عليك ده يا أحمد.. هنجيبهم عشان إثبات الحالة اللي هتخلينا ناخد إجراءات ضد المعتوهة دي».. قلت

بـلا اهتمام: «عماد أنا مش هاخد أي إجراء ضد ريم.. ومش هاعرضها لأي تحقيـق». نظـر نحوي بتعجب شـديد ثم قال: «والمسـيح الحـي إنت بقيت أجـن منها.. البنـت دي إن ماوقفتهاش حالًا هتدبحك بكـرة بالكتير.. على العموم إنت حر في حياتك.. أنا هنزل اشـوف أي حد بتاع كوالين أجيبه في إيدي يغير كالون الشقة مبدئيًا.. وبعدين نتناقش في موضوع المجنونة دي». أخبرته بحسـم أني لن أغير كالون الشـقة اليوم وسـأتصل غدًا بالشـركة كي يأتوا لإصلاح الباركيه والأضرار الأخرى وسـيغيرون الكالون أيضًا، سكت «عمـاد» لحظات ثم طلب مني أن أجهز شـنطة أضع فيهـا غيارات وملابس وأذهب معه، دهشت من لهجته الآمرة ووجدت صوته يعلو أكثر وهو يقول: «إنت كمان عايز تنام هنا وسـط الميه والزفت ده.. إنت هتيجي معايا وتنسى الشـقة دي شـهر على الأقل وسيبك من البلادة اللي انت فيها دي.. أنا بقيت خايف من السـت دي أكتر منك»، انصعت ودخلت أجهز شـنطتي ثم طلبت منه غلق باب الشـقة خلفنا. لكني وجدته يدخل الشـقة مرة أخرى ويعود بما تركتـه «ريـم» وقـد أخفاه في كيس أسـود، ولما رآني مندهشًـا قال بسـرعة: «كنت عايز تسيب الخرية دي قدام عمالك!».

في الطريق إلى شـقته وجدتـه يلف ويدور حول مواضيـع تخص أهمية الحـذر من «ريـم»، ومنها أن نذهب إلى «اسـتيلا» ونخبرها بالواقعة ونبلغها بتحذير شديد لـ «ريم» حتى تخاف ولا تجرؤ على فعل شيء آخر، ابتسمت بسـخرية وأنا أقول: «عماد.. ريم لو عايزة تقتلني كانت اسـتنت جوه الشـقة وعملـت عملتها، أو قابلتني عادي وبعدين تغزني بسـكينة وأنا نايم معاها.. ريم يا عماد قصدت إنها تهيني ومش هتوريني وشـها تاني.. يعني مش بعيد

دلوقت تكون خارج مصر.. زي ما جات من غير ما تقولي»، سألني باهتمام: «تحب أأقول لحد من زمايلي يجيبلك خط سيرها أو بمجرد ما تدخل مصر تاني يبلغونا نعمل حسابنا؟».

خوف «عماد» عليَّ جعلني أترفق في الرد عليه وقلت له بليونة: «عماد.. أنا حاسس إني مش هاشوف ريم تاني.. وعلى فكرة طول ما كنت مرتبط بيها ماجاليش الإحساس ده إلا الليلة دي.. وحاسس كمان إنها مش هترجع مصر طول ما أنا موجود فيها.. فعشان خاطري اقفل على الموضوع ده.. وحتى لو مرة سهرت عند استيلا بعد شهر أو سنة كأنك متعرفش حاجة»..

وبعد أن صمت لدقائق عاد يسألني إن كنت راغبًا في السهرة المتفق عليها، لكني التزمت الصمت ففهم وقادني مباشرة إلى بيته وتركني أغرق في أفكاري وأستعيد حياتي مع «ريم» بسرعات خاطفة لعلي أجد ما أستحق أن أكونه في النهاية.. فضلة براز!

جيهان العرابي

صارت شقتي بمثابة استراحة لـ «بسمة».. تكلمني وهي في مأموريات عمل خارج مقر الشركة ثم تتطرق إلى موضوعات معقدة تطلب بعدها أن تأتي لكي تحكيها بالتفصيل، وكنت أخذلها أحيانًا وأتعمد عدم استقبالها بحجج مختلفة، لكني في المجمل كنت أدعوها للحضور حتى تبدد مللي.. هي الآن في الرسيبشن عاكفة على جهاز الكمبيوتر لأن به برنامجي الـ photo shop والـ free hand اللازمين لإنهاء شغلها.. وقد مرت نصف ساعة ولم تنهه وتبدو منشغلة بما تفعله جدًّا، حتى إنها لم تسمعني وأنا أسألها إن كانت تريد أن تتغدى أو تشرب أي مشروب؟ ولم تسمع أيًّا من الأغنيات التي تفضلها بصوتٍ عالٍ كعادتها.. لذا احترمت تفرغها لأداء مهمة وظيفية رغم حاجتي لسماع ثرثرتها..

أخيرًا سمعت صوت جهاز «البرنتر» وهو يطبع فأدركت أنها أنهت حاجتها، ووجدتها تدخل عليَّ وبيدها حوالي خمس ورقات وضعتها أمامي كأنها تريد أخذ رأيي في التصميم.. وقربتها من مجال إبصاري ورأيت العجب العجاب.. الست التي ظننتها متفانية في شغلها كانت تصمم روشتة عيادة طبيب باطنة باسمه ومؤهلاته وزمالته في أدنبرة وعنوان العيادة.. حدقت فيها دون أن أعلق، فأخذتها من يدي وهي تقول: «هو أنا كان لازم أقولك

يا جيجي إني هاعمل روشتات مضروبة عشان رصيد إجازاتي خلص؟».
قلت لها بسخرية: «وكمان روشتات مضروبة يا بسمة وأنا اللي افتكرت إنك صممتي روشتة لدكتور من أصدقاء خيري.. على العموم مش مشكلة يا حبيبتي.. بس انتي ليه ماعملتيش تصميم لروشتة دكتور نفساني عشان دول بيدوا إجازات طويلة؟»، جلست أمامي وقالت وهي تمعن النظر في وجهي. «الله يسامحك يا جيجي عايزاهم يقولوا في الشغل إني باتعالج نفسيًّا ويدوني إجازة مفتوحة؟».. ضحكت وربتُّ كتفها وأنا أقول: «مش قصدي طبعًا يا بسمة.. بس قوليلي هو الاسم الموجود على الروشتة ده حقيقي ولا مضروب؟»، أجابتني بثقة: «حقيقي طبعًا وعشان أريحك هو صاحب خيري بس شغال في مستشفى الدمرداش وماعندوش عيادة.. وكلمته ووافق إنه يمضي الروشتة ويكتبلي أدوية وأجازة 4 أيام»، قلت لها: «مع إني باتشائم من ادعاء المرض بس اعملي اللي تحسي إنه ميورطكيش في شغلك»، ووجدتها فجأة قد شردت كأنها تجتر شيئًا منذ زمن بعيد، ثم قالت لي وهي في دهشة شديدة: «إنتي فاكرة يا جيجي زمان لما كنت متهببة متجوزة.. بعد الطلاق كنت كل شوية باشتكي من تعب شكل.. يا في دماغي.. يا في بطني.. يا مش قادرة أدوس على رجلي.. ومن بعد ما عرفت خيري عمري ما اشتكيت من حاجة.. الله أكبر أنا الظاهر هاحسد نفسي.. بس دي الحقيقة.. مبقاش عندي رفاهية إني أعيا أو اشتكي من تعب.. حتى في عز أيام البرد لما كانت بتجيلي سخونية بالليل وأعراض رشح وافتكر ان عندي ميعاد الصبح مع خيري كنت باقوم زي الجن.. إنتي مش فاكرة يا جيجي؟»، «لا مش فاكرة يا بسمة ومن فضلك ماتخليش حد أبدًا يبقى بالنسبة لك محور الكون»، لم تعجبها إجابتي وبدا كأن هذه الفكرة أضاءتها من الداخل وأسعدتها جدًّا،

لأنهـا تحركت على الفـور وجذبت اللاب وكما تفعل عـادة وهي في أعلى حالاتها المعنوية.. انتقت أغنية تناسب وضعها الحالي.. ثم انتقلت واللاب في حجرها لتجلس بجواري ونزعت أحد طرفي السـماعة من أذنها اليسرى ودسته في أذني لأشاركها سماع الأغنية في حركة Fake جدًّا جعلتني أنزعها بسرعة وألقي بها في حجرها وأنا أقول لها باعتراض: «إنسي الحركات اللي كنتـي بتعمليهـا إنتي ورنا.. إنتـي عارفة كويس إني لا أحب أشـرب ورا حد ولا ألمس حاجة حد.. حتى لو كانت توءمتي».. نزعت طرف السماعة الآخر من أذنها كأنها لا يعجبها ما تفوهت به، ثم أغلقت اللاب وقالت وهي تزفر: «أديني قفلته وانتي اجري بسرعة حطي ديتول في ودنك»، ولكي أوقف هذا الخبل ملت وقبلتها في أذنها فتبسمت ثم قالت وهي تضحك ضحكة كبيرة: «وبعدين خفي على رنا شـوية.. أصلها كلمتني إمبارح وقالتلي خلي جيجي ترضى عني عشان حياتنا اتلخبطت خالص»، بدهشة قلت: «وإيه اللي لخبط حالها ما هي لسـه في شـهر العسـل وكل اللي عايزاه حصل»، قالت «بسمة» بنفـس الضحكة: «شـهر العسـل! هو انتي ماعرفتيش إن من أسـبوع سـمكة قرش هجمت على شـاطئ الفندق اللي قاعدين فيه في شرم الشيخ وعورت 4 سياح أجانب.. وإمبارح سايحة ألمانية قتلها القرش في فندق ريجينسي.. ودي أول مـرة تحصل في شـرم الشـيخ»، لـم أكن أتابع الأخبـار فلم أعرف عن الحادثتين شـيئًا، كما أني كنت قد نبهت على «بسـمة» ألا تخبرني بشيء عـن «رنا»، لذا لـم أسـتطع معاتبتها بأنها لـم تخبرني وسـكت، لكن «بسـمة» انطلقت تكمل. «المهم رنا وفؤاد سـابوا شـرم الشـيخ وطلعوا على الغردقة يكملوا الأيام الباقية من شهر العسل.. بس هي قالتلي إنها غلطت في حقك وطالبة تسامحيها عشان أمورها تمشي»، قلت كأني أقر واقعًا إنني سامحتها

فعلًا لكني لست على استعداد أن أتكلم معها في المستقبل القريب. ثم هممت بالقيام وأنا أقول لها: «يالا بينا نتبل الفراخ عشان نحطها مع صينية البطاطس في الفرن وناكل قبل ما يجيلك استدعاء وتنزلي جري»، لكنها ضمت إحدى كفيها كثمرة كمثرى تطلب مني أن أمهلها بعض الوقت كي تتصل بـ «خيري»، فجلست مرة أخرى خاصة وقد تكلمت في محمولها أمامي فأدركت أنها مكالمة عامة لا تحتاج إلى خصوصية، وانتبهت لها وهي تقول: «مدام ميعاد الزيارة من ستة لحد تمانية خلص شغلك وعدي بعربيتك قدام بيت جيهان وأنا هانزل أروح معاك»، وعندما أنهت المكالمة ابتسمت في وجهي وقالت: «أنا جاهزة أدخل معاكي المطبخ»، وطوال وجودنا بالمطبخ نعد ما سنأكله كانت هناك ظل بسمة على وجهها لا تريحني، ونحن نرص الأطباق على المائدة ونستعد للجلوس قلت لها بسخرية: «بيتهيألي كده من مكالمتك مع خيري انكوا هتزوروا مريض.. خلاص هتلاقي دكاترة كتير هناك أي واحد منهم يوقعلك على الروشتة»، ابتسمت «بسمة» ولم ترد وتشاغلت بقطع جزء من صدر الدجاجة، كنت قد توقعت أنها ستزور مريضا من عائلة «خيري»، وقد ضايقتني فكرة ظهورها العلني معه الذي قد يجعل عائلة «خيري» تظن أنها صاحبته وتضايقها، لذا أضفت: «سومة يا حبيبتي أنا مقدرة حبك لخيري بس مش لدرجة إنك تظهري عيانًا بيانًا قدام عيلته»، ضحكت «بسمة» بشدة وهي تحاول منع فمها من قذف الطعام ثم قالت: «إيه الخيال الجامد ده يا جيجي.. عيلته مرة واحدة.. يا ريت أعرف تفتوتة حد من عيلته وأنا أرمي بلايا عليه وعليهم.. ده حد عيان من صحاب خيري»، ثم لمحت نظرة خبث تعمدت «بسمة» أن تطيلها دون أن أدري لماذا وهي تضيف: «وعلى فكرة يا جيجي لو ماعندكيش حاجة مهمة ممكن

تزوريه معانا وتكسبي ثواب زي الجمعيات الخيرية اللي بتساعديها»، ضايقتني سخريتها المبطنة فأشرت إلى الطعام بحد الشوكة وأنا أقول: «كلي يا بسمة.. أنا أصلًا غلطانة إني اتكلمت معاكي في حاجة تخصك»، ضحكت مرة أخرى ضحكة بلهاء وهي تقول: «تخصني.. ههه.. دي تخصنا كلنا»، وهنا قلدت إعلانًا تجاريًّا تافهًا، مما دفعني لأن آكل في صمت، وعندما أكلنا وغلسنا الأطباق ووضعناها في أماكنها كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة فاستأذنتني «بسمة» في الاستحمام، واندهشت لخروجها السريع ومحافظتها على نظافة الحمام، ووجدتها تقول لي إنها خرجت بسرعة من الحمام حتى تتيح لي قضاء وقت أطول بداخله، واندهشت من تصورها أني سأستحم أيضًا كأننا مقبلتان على الخروج معًا فقلت باعتراض: «ومين قالك إني هاستحمى دلوقت؟ أنا هاستنى لما تخرجي وأعمل اللي عايزاه»، لكنها ضحكت بارتباك وهي تقول: «أصل أنا كان نفسي تجربي شاور جل جديد من إنتاج شركتنا أنا لسه مستخدماه حالًا»، قلت لها باعتراض: «إلا المنتجات اللي بترشحيها لي يا بسمة.. أنا خلاص اتعلمت»، ثم انصرفت من أمامها وأخذت حمامي بالمساحيق التي أفضلها وخرجت شاعرة بالانتشاء فوجدتها تنظر نحوي بإعجاب وبمكر وعلى وجهها بسمة ثقة، وهنا انتبهت إلى أني دون أن أقصد فعلت ما كانت تريده بالضبط وغاظني ذلك جدًّا لكني لم أعلق.

عندما اقتربت الساعة من الخامسة وجدت توترها يزداد واندهشت جدًّا فقد كانت أتمت مكياجها على الوجه الأكمل، ولن تستغرق دقائق في ارتداء ملابسها إذا ما كلمها «خيري» عقب وصوله فلماذا القلق؟ ولماذا كلما همت بالكلام معي حول موضوع ما ارتبكت وتراجعت؟ اعتقدت أنها تنوي

استعارة طقم المجوهرات الذي صممه «تميم» خصيصًا لي والذي كانت مفتونة به وحاولت كثيرًا استعارته ليوم واحد ورفضت، وازددت ضيقًا من هذا الإصرار البائس.. أنا أكره هذه الحجارة التافهة التي قتلت «تميم» في النهاية ولا أحتفظ بها إلا كشاهد قبر له.. وأخيرًا وجدتها تتحفز وهي تتنهد كأنها عامل إضاءة يتخلص من أثقاله في موقع التصوير وقالت: «جيجي.. تعرفي المريض اللي هنزوره أنا وخيري ده مين؟»، سألتها بدهشة ساخرة: «مش قلتي حد من أصحاب خيري.. هو أنا أعرف خيري عشان أعرف حد من أصحابه أصلًا؟»، عبرت سخريتي بسهولة وقالت بصوت منخفض: «المريض ده هو أحمد الضوي يا جيهان.. ومحجوز من يومين في مستشفى كليوباترا.. كان في العناية وزاره خيري إمبارح والحمد لله بقى كويس وانتقل لغرفة عادية النهارده والزيارة من 6 لحد 8»، كنت على أرجوحة من القلق والغضب والاستياء تطيح بها ريح عاتية واندفعت ألومها بعنف: «بسمة أحمد بقاله يومين في المستشفى وانتي بتكلميني كل يوم بمعدل من 5 إلى 6 مكالمات إن ماتقابلناش ومخبية عليَّ وكمان بتستعدي لزيارته من غير ما أعرف؟»، وجدتها تصمت ويبدو أنها تفكر بسرعة في إيجاد مبررات قوية ثم حسمت أمرها وقالت: «جيجي.. إنتي فاكرة من أسبوع لما جيتلك في كافتيريا أرابيسك وقلتلك إن شقة أحمد الضوي اتسرقت إنتي عملتي إيه؟ أفكرك يا جيجي.. شخطتي فيا وقولتيلي بالنص: وأنا مالي شقته اتسرقت ولا اتحرقت.. بليز يا بسمة أي حاجة ماتخصنيش ماتطوعيش تقولهالي.. عشان كده ماجبتلكيش سيرة عيا أحمد الضوي.. خفت منك بصراحة»، قلت لها بعتاب شديد: «دي حاجة مختلفة.. صديق واتعرض لأزمة صحية كان لازم تقوليلي فورًا»، لكنها استمرت في تبريرها السخيف وقالت: «ما هو الأزمة دي جاتله بسبب الشقة»، قلت لها بدهشة: «وإيه اللي يخلي حد اتسرقت شقته

يحصله ده.. هو اتسرق منه مبالغ كبيرة؟»، ردت بسمة: «حسب كلامه لخيري ما اتسرقش حاجة مهمة.. بس المجرمين بهدلوا الشقة خالص»، ثم أضافت: «يظهر إنه خاف لو كان جوه الشقة وهما بيقتحموها كانوا قتلوه ولا عملوا فيه حاجة وحشة»، تركتها في لغوها ودخلت لأرتدي ملابسي بسرعة.

وفي المستشفى كان «أحمد» منهكًا لكنه يتظاهر بالقوة وكان في غرفته صديق له يبدو أنه حميم جدًّا لأنه كان دائم الحركة في الغرفة وخارجها مستدعيًا الممرضات والأطباء والفراشين لتنظيم الغرفة وتغيير قنوات التلفزيون، كما أنه - وهذا هو الأهم - عندما سمع اسمي تقدم نحوي وسلَّم عليَّ بمبالغة، وضايقني ذلك جدًّا وضايق «أحمد» أيضًا ولشفقتي عليه لم أُبدِ امتعاضًا، وضعت «بسمة» علبة الشيكولاتة التي أحضرتها على المنضدة التي تجاور «أحمد» وتناولت باقة زهوري وأخرجت الزهور الصناعية من الفازة ووضعت بعشوائية الورد البلدي الأحمر مع الزنبق الأبيض في الفازة فخرج تنسيقها بائسًا وزادته بؤسًا وهي تثني على الورد الذي أحضرته «جيهان»، كأن «أحمد» لم ينتبه إلى أنه كان بصحبتي عند دخولي، وكان صديقه يشرح ما حدث للشقة وتفاصيل أزمة «أحمد» وهو في ضيافته وبدا أنه مبالغ جدًّا وهو يتعمد توجيه الحديث لي متجاهلًا «خيري» و«بسمة»، وأحسست أن «أحمد» يناشدني بعينيه عدم تصديق صديقه أو يعتذر عن فاجوميته.. وسعل «أحمد» فهرعت «بسمة» تسند رأسه على صدرها وتسقيه الماء في قطرات متباعدة، وكان «خيري» مبتسمًا ويسند «أحمد» معها بيده في حميمية، وصديق «أحمد» ما زال يتكلم بعد أن اطمأن أن «أحمد» في رعاية «بسمة» و«خيري»، وكنت على بعد شاسع منهم وفي حيرة كيف ائتلفوا معًا وأنا قابعة في شرنقتي.. وتمنيت للحظات لو طردتهم من الغرفة وصرخت في «أحمد» كما كنت أصرخ في «تميم» بأن ينهض ويقاوم.

أحمد الضوي

وقفـت حائرًا أتلمس أكتاف بدل خروجي المنتصبة داخل دولابي وأدير ما يلفت نظري منها وبعد إلقاء نظرة سريعة أفلت إصبعي فتعود إلى مكانها، ثم انتبهت إلى أن المدعوين في الغالب لن يرتدوا أزياء رسـمية لأن أغلبهم سـيكونون من الفنانين لذا انتقلت إلى الضفة الأخرى من الدولاب وانتقيت أفضـل بنطلـون وقميـص وبلوفر كنت قد اشـتريته مـن فيينا ولـم ألبسـه من قبل، وكأن تلمس هذا البلوفر قد اسـتدعى بلد المنشـأ فقـد جاءتني مكالمة مـن «مصطفى صلاح» على الفور، قال إنه قلـق عليَّ لأنه لم يعد يراني على الـ Skype واتصل بي مرتين على تليفون البيت ولـم يجدني وكان محمولي مغلقًا، كلمته عن أزمتي الصحية التي داهمتني فجأة لكن لـم أذكر المتسـبب فيهـا وطلبـت منه برجاء شـديد ألا يخبر «هايدي» حتـى لا تعلم «ريم»، قال إنهما منذ أن غادرت «ريم» هولندا لـم يسـمعا عنها أي شـيء، وسـألني عن أحوالنا فقلت له إن «ريم» يبدو أنها هجرتني واستقرت في الخليج مع ابنتها وربمـا عادت إلـى طليقهـا، وفوجئت بأنه تنهـد بارتياح وقالي لـي: «إحمد ربنـا يـا أحمد إنك خلصـت منها بالسـهولة دي»، ولما حاولت أن أستفسـر منـه أكثـر، تملَّـص وقال إنه بنـى رأيه هذا علـى مجرد تصـورات ورؤى من الصعـب تفسـيرها، وطالبني بسـرعة الدخـول في علاقة جديـدة كي أوصد البـاب نهائيًّا على احتمال عودة «ريم» إلـى حياتي مرة أخرى، ثم أضاف أنه

قـد يأتي إلى مصر في مارس القادم وسـيلتقيني لنتحـدث في أمور كثيرة. لم أتأثر بما قاله أو أوحى به عن «ريم» ورغم ذلك كنت متضايقًا.. فقد أهانتني بشـدة رغـم أني لم أتسـبب لها في أي ضـرر ولو بدون قصـد.. وبوغت بما فعلته وتماسـكت وظننت أني قوي ثم وجدت نفسـي ملقًى في مستشـفى، ولحسـن حظي أني كنت فـي ضيافة «عماد» وكان موجودًا لحظتها وأسـرع بنقلـي.. ويعلم الله لو لـم يكن بجواري ماذا كان سـيحدث؟ وقد اسـتقبلت مكالمـة «مصطفـى صـلاح» التـي فـي كل ثنيـة مـن ثناياهـا تحذيـر لي من «ريـم» ببرود مماثل لموقفـي وأنا أرى قطعة البراز التـي مثلتني بها.. هل لو انفعلت وغضبت لجنبت نفسـي السكينة والهدوء اللذين يجران الموت في أعقابهمـا؟ نصحنـي «مصطفـى» بالدخول في علاقة جديـدة، لكني لن أتبع نصيحتـه لأنـي أحب! أحـب كمراهق في القـرن الثامن عشـر.. لا أجرؤ أن أقـول لمـن أحبها أني أحبها حتـى لا يضيع هذا الحلـم الجميل ويضيعني.. ولا أعـرف هـل تحبني أم لا فهي كعبير زهرة يتخلل روحـك ثم يفر هاربًا.. لـو كنت أحب صورة على جدار أنظر لها يوميًّا في الصباح والمسـاء لبضعة أشـهر لابتسـمت الصورة تبادلني المشـاعر أو تجهمت كي تصرفني عنها.. لكنـي أحـب «جيهان»! و«جيهـان» ضوء قمر أراه من قعـر البئر التي ترديت فيها.. أناشدها البقاء وأحلم أنها يومًا ستستجيب.

دعتني «جيهان» أمس إلى حفل بمناسـبة العام الجديد سـتقيمه في بيتها اليـوم 31 ديسـمبر وقالت إنهـا غير معتادة علـى فعل ذلك لكنهـا قررت أن تخالـف عادتها هذا العام ربما يأتي العام القادم أجمل.. ودعتني لأن أحضر شـخصًا أو اثنين مـن أصدقائي إن رغبت في ذلك علـى أن أبلغها كي تعمل حسابها.. أخبرتها بأني سأحضر بمفردي.. قالت بحسم إن جميع مَن دعتهم

يعلمون أن عيد ميلادها غدًا وقد اشترطت عليهم عدم إحضار أية هدايا بهذه المناسـبة وستكون حادة جدًّا مع أي شـخص يخالف هذا الشرط.. وجدت نفسي أهمس بتردد وأقول لها: «كل سنة وانتي طيبة يا جيهان».. لكنها افتعلت عدم سـماعي.. ولو كنت قد هنأت الصـورة المعلقة لكانت قد اهتزت على الأقل.. بينما قالت «جيهان»: «أحمد الحفلة حتبتدي السـاعة عشـرة مسـاءً وحتنتهي الساعة واحدة بالليل وبسمة وخيري جايين بس ماتعتمدش عليهم عشان دول متعودين على التأخير»..

إذن هـي تريـد أن أحضـر مبكـرًا وفـي نفـس الوقـت لا تريـد هديـة في عيـد ميلادهـا ولا ترد علـى التهنئة.. الأفضـل أن أذهب إلـى الخليج وأفتح صـدري لــ «ريم» حتـى تطعنني بدقة بدلًا مـن هذا الجنون.. لكني سـأفعل الأكثر تهورًا.. اليوم في الحفل سأختلي بها وأقول لها: «أحبك يا جيهان».. وليحـدث ما يحـدث.. أنا متضايق لأني لم أطلب مـن «عماد» أن يأتي معي رغم أن «جيهان» سـمحت باصطحاب شـخصين كأنها تنظم حفلة زفاف أو ربمـا طلبها هذا كان اسـتثناءً لي، المهم أني لـم أتـردد لحظة واحدة في قرار اسـتبعاده، لأني خشـيت أن يظهر معي ويتعرف أحد الحاضرين على هويته الشـرطية كأن وظيفته الرسـمية هذه عارًا أو مرضًا معديًا أخشـى انتقاله لي، رغم أن وظيفته هذه ساعدتني كثيرًا ومكنتني من أشياء صعبة كما أن «عماد» أصبح صديقًا لي بالتقادم، والإحساس بأني أستعر منه يخنقني، لكني أقترب منهـم يا «عماد» أكثر مما تعلـم.. هؤلاء المثقفون الذين تكرههم حبا وكنت تتمنى أن تصبح منهم، وهم يكرهونك وظيفيًّا.. رداء وكاب ونجوم نحاسية لامعـة وأشـرطة وفي أزماتهم يهرعـون لكم لنجدتهم.. أعـرف أنك تحبني وتلتمـس لي الأعذار.. لو اكتشـفوك وأدركوا أن هناك صلة بيننا سـيفصلون

الحبال الدائبة المهترئة التي تجمعني بـ «جيهان».. أعرف كيف تصيبهم الحساسية من وجودكم بجوارهم.. سواء كان وجودًا عفويًا أو مقصودًا.

اتصل بي «خيري» وقال إنه سينهي موعدًا ويمر ليصطحبني فتملصت منه حتى لا أذهب إلى الحفل متأخرًا كما نصحتني «جيهان»، كما أني في المشاوير التي يصطحبني فيها «خيري» ويكون في نهايتها مقابلة «جيهان».. كنت أتحسب جدًا حتى لا يظهر على وجهي قلق أو اهتمام يشي بشيء ما ويلتقطه «خيري» فيخبر به «بسمة» صديقة «جيهان» وتتعقد الأمور، وقد راقني أن «خيري» في فترة مرضي والمخبول «عماد» يسهب في شرح الأضرار التي حدثت بشقتي من جراء اقتحام اللصوص قد ذكر الباركيه المنزوع وأضرار في الأبواب والشبابيك مما جعل «خيري» فيما بعد يبتسم بخبث وهو يقول: «خلع خشب الباركيه وتكسير الشبابيك ده مش شغل حرامية يا أحمد.. دي واحدة منكادة منك يا خلبوص»، ثم ضحك وابتسمت ولم أعلق، لكن سررت بأن ذهنه انطلق إلى منطقة أخرى وبعد عن منطقة «جيهان».

أغلقت باب شقتي المصفح القبيح الذي اقترحه «عماد» على مهندس شركتي الذي تولى تجديد الشقة في فترة غيابي بالمستشفى، وقد صدمت عندما رأيت هذه المفاجأة التي أعدها لي «عماد» واستأت جدًا، لكني لم أستطع أن أنهر المهندس لأنه نفذ تعليمات شخص غيري حتى لو كان صديقًا لي ويراه كثيرًا معي في الشركة لأن ذلك سيحرج «عماد» جدًا، لكني عندما انفردت بـ «عماد» انهلت سخرية على مقترحه الذي كان يظن أنه يؤمنني به، بينما بعبقريته لفت النظر إلى شقتي وجعلها هدفًا للصوص الذين

سيخمنون أن وراء هذا الباب المصفح خزائن قارون، كما أن هناك نقطة ضعف ظاهرة لأي عين فاحصة وهي حلق الباب الضعيف المرشوق فيه عدد من الكانات الحديدية وبعتلة صغيرة يمكن فتحه بسهولة، كان «عماد» فاغرًا فمه وهو يسمع شرحي ثم قال باستياء: «باقولك إيه يا أحمد.. أحسن حل تتخلص من الشقة دي وتجيبلك شقة تانية في مصر الجديدة ولا منشية البكري».

وأنا في طريقي لأخذ تاكسي إلى منزل «جيهان» جاءني اتصال منها أربكني جدًّا قبل أن أرد، تصورت أنه حدث شيء طارئ دعاها لتأجيل الحفل فابتأست، ثم ظننت أنها تريد أن تطمئن على أني في طريقي إليها فابتهجت، لكنها بادرتني بسؤال عن موقعي الحالي، وعندما عرفت أني على وشك التحرك، طلبت مني بعادية شديدة أن أمر على محل «لارين» للحلويات الذي على مقربة من بيتها وأحضر لها 2 كيلو ساليزون وباتون ساليه وأن أحرص على إحضار «الرسيت» معي لأنها ستدفع القيمة بالكامل ولن تقبل بغير ذلك، ثم أغلقت الخط وهي تقول: «متتأخرش.. الضيوف بدأوا يحضروا».

وبينما كنت أشير إلى سيارات أجرة متعجلة ولا تتوقف، كنت أفكر في تلك المكالمة وهل هي تقربني أم تبعدني من القرار الذي اتخذته اليوم؟

جيهان العرابي

بعد صلاة الجمعة مباشرة حضرت «رنا» وسط دهشتي الشديدة بحجة أن عدد المدعوين أكبر من طاقتي على إعداد طعامهم، كأنها تريد إعادة الوصل من جديد وكأن الجفوة التي بيننا.. سحابة صيف، ولم أكن بحاجة إلى أي مساعدة وإلا لطلبت من «ريتاج» أن تعاونني وصرفتها مبكرًا، وكنت في حرج أن أذكر ذلك صراحة لـ «رنا» واكتشفت حرجي فأدركت أن الهوة التي حدثت بيننا ذات غور عميق، وبعد دقائق من دخولها لم أعهد إليها إلا بتقطيع الخضر والبطاطس ومناولتي التوابل والزيوت وسلق الدجاج وتقطيع اللحوم حسب تعليماتي، وعندما رغبت في فعل ما هو أكثر من ذلك أوقفتها وأنا أحاول إفهامها بلطف زائد بأني أرغب في أن أطهو كل شيء بنفسي هذا اليوم بالذات، وأريد سماع الثناء على طهيي دون مشاركة من أحد، تقبلت «رنا» الأمر في البداية بدهشة ثم ابتسمت بخبث وهي تسألني إن كان سيحضر ضيوف جدد لا تعرفهم، وفكرت بسرعة في إجابة تغيظها ثم أومأت برأسي، فسألتني بلهفة وهي تجذبني من يدي كصديقة حميمة: «مين يا جيجي؟ هو إنتي معقولة هتخبي علي؟»، أجبتها ببرود: «الفنانة الصاعدة مرات زميلي إبراهيم المخرج»، بان الاستياء على وجهها جليًا ثم انسحبت من المطبخ وهي تقول إنها سترتب الرسيبشن وإذا احتجت إليها أنادي عليها، كان هناك وقت طويل أمامي ولم أكن متعجلة وبما أني قد أنهيت التحضيرات الأولية كما خططت، خطر في بالي أن أقنعها بالنوم ساعة أو ساعتين ثم نصحو

لكـي أكمل ما بدأته، ووجدتهـا كما توقعت قد مرت بالرياشـة على الأثاث الذي لم تكن عليه ذرة غبار واحدة ثم استلقت تقرأ كتابًا، استلقيت بجوارها وسـألتها عن أمورها مع «فؤاد»، فوضعت الكتاب بيننا بشكل هرمي وقالت بابتسامة عريضة إن أمورها مع «فؤاد» تمام التمام، وإنها لو شاءت أن يحضر لها لبن العصفور سـيحضره قبل أن تطرف عيناها، ابتسـمت وأنا أحدق فيها بإعجـاب، فقد كانت هذه «رنـا» أخرى غير التي تربت معي وكانت إلى فترة قريبة تشـكو بضعف ومسـكنة، وعندمـا أزعجتها نظرتـي الطويلة قالت بثقة إن «فـؤاد» اقتنـع بأنها في منزلة أدبية متميزة الآن وبدأ يقدر ذلك كثيرًا، وبث ذلـك فيـه روح التحـدي وأصبح يقبـل إرشـاداتها الأدبية بسـهولة وينفذ ما تنصـح به لدرجة أنه أنهى مجموعته القصصيـة الأولى منذ أيام قبل أن تنهي هـي روايتها التي بدأت كتابتهـا في أمريكا، وأن هيئة الكتاب وعدته بالنشـر السـريع وأنـه مهتـم جدًّا بصدور هـذا الكتاب حتـى يأخذ بـه عضوية اتحاد الكتاب، اندهشت من أن تكون أمنية كاتب هي الدخول في عضوية مؤسسة وقلـت لها ذلـك فضحكت وقالـت: «يا جيجـي العضوية دي مهمـة جدًّا.. دي تخليـه ينشـر بسـهولة آراءه في بريـد الأهرام ويكتب تحت اسـمه عضو اتحـاد الكتـاب»، ضحكت جدًّا من سـخريتها التي أكدت لـي أن هذه «رنا» مختلفـة تمامًا ويا ويل «فؤاد» منها. واسـتيقظت على تليفون «بسـمة» الذي كنت أتوقعه وقالت إنها لن تقدر أن تجيء مبكرة سـاعتين كي تساعدني كما وعدت - ولم أطلب منها ذلك - لأن هناك ظروفًا جدَّت، وعندما ضحكت وأخبرتها بأن هذا توقعي وعليها أن لا تقلق لأن «رنا» معي منذ الظهر، قالت إنها سـتحضر كبابًا وحمامًا محشـوًّا وطالبتني بألا أسرف في طهي اللحوم، وبختها وأقسمت على طردها لو فعلت ذلك، تراجعت وقالت إنها ستحضر فاكهـة فقلت لها عندي ما يكفي كما أن «رنا» أتت محملة بالفواكه، وطلبت

منها ألا تأتي متأخرة عن الساعة التاسعة لأني لن أسمح لها بالدخول بتاتًا بعد هذا الموعد، فضحكت وهي تقول: «يا حضرة الناظرة عشان خاطري ماتطردنيش عشان أنا قايلة لماما إني هبات عندك.. يرضيكي أبات في الشارع وانحرف».

فوجئت بـ«رنا» تنظر تجاهي بدهشة شديدة مما سمعته من مكالمتي مع «بسمة» والضحكة التي اختتمنا بها المكالمة، فعرفت أنها متحيرة من هذا التقارب اللافت بيننا، وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة وحان وقت التفرغ الكامل للمطبخ فهرعت إليه ولاحقتني «رنا»، وبدأت تساعدني فيما كلفتها به من أعمال خفيفة وهي تسألني أسئلة روتينية عن المدعوين وعددهم، واندهشت لأني لم أدعُ أيًا من الجيران هذه المرة ولم أعطها سببًا لذلك غير أني مهتمة بجمع المقربين، سألتني هل «بسمة» ستحضر تورتة عيد الميلاد، واندهشت عندما أكدت لها أن هذا الحفل ليس بمناسبة عيد ميلادي كما أخبرتها بالتليفون لكنه احتفال بالعام الجديد.. وأني لن أقبل هدايا أو تهاني غير بمناسبة العام الجديد، ووسط اندهاشها المفرط رنَّ جرس الباب، وكان زوجها «فؤاد» أول الحاضرين فرحبت به وطلبت منها أن تبقى معه في الرسيبشن لاستقبال باقي المدعوين.

أحمد الضوي

كنــت أعرف أغلب الموجودين لكن بيننا مســافات، كان «فريد» قد جاء بعـد «إبراهيـم» وزوجتــه اللذين يجلســان أمامــي، وكان هناك مكان شــاغر بجواري لكنه سحب كرسيًّا وجلس بجوارهما بعد أن حياني بحميمية زائفة كالخديــن الباردين اللذين صدرهما لــي «إبراهيم» وأنا أقبلـه مهنئًا له على زفافـه، الذي دعتنــي إليه «جيهــان» وكان مصدومًا عندما رآنــي فيه، وكانت «رنـا» مشــغولة بزوجهـا وبين الحين والآخـر تتحرك من جواره ثــم تعود له بمشروب أو تدفن فمها في أذنه تفضي إليه بسر، ولـم يكن «خيري» قد حضر بعد ولا «بســمة» بينمــا حضر بعض العاملين في مجال الســينما من أصدقاء «جيهان» و«إبراهيم» و«فريد» لكني لا أتذكر أسماءهم التي همسوا بها وهم يسلمون كأنهم أعلام، وبينما ضيقي يزداد من نمو الأحاديث التي لا أشارك فيها وارتفاع صوت الـDVD بأغاني من اختيارات «فريد» الذي كان يتحرك في كل اتجاهات الشــقة كأنــه المهندس الذي صممهــا.. أنهت «جيهان» ما تفعلـه بالداخل وقدمت إلينــا وقبل أن تجلس لمحتني منكمشًــا في مقعدي فاندهشــت ثــم قالت: «أحمد إنــت الوحيد اللي ماجيتش قبل كده.. عشــان كده مش قاعد على حريتك.. تعالى معايا أوريك الشــقة»، ثم أولتني ظهرها وكانــت دليلي إلى الأماكن التي تجول فيها أنفاســها.. كانت أغلب الأبواب موصدة وكانت تقف أمامها وتشير: «هنا غرفة النوم.. هنا الحمام الخاص..

هنـا المطبـخ.. هنـا حمام الضيـوف.. هنا ورشـة تميم جـوزي»، ونحن في رحلـة العودة قالت لي: «لو بتشـرب يا أحمد متتكسـفش إشـرب.. أنا على فكرة مابشـربش والحاجات دي مـن بقايا البار بتاع تميـم الله يرحمه.. بس ماتشربش كتير إنت لسه خارج من أزمة صحية.. كما إني مبسمحش بالهرتلة واللـي بيتجاوز بطرده على طول»، وأعادتني إلى مكاني بعد أن أوصتني بأن أتحـرك على راحتـي دون انتظار مجيء «خيري» لأنـه أيضًا أول مرة يحضر إلى شقتها..

وبمجرد ما جلسـت صببت لنفسـي كأسًـا مزدوجًا يعينني على الصمود حتى يأتي «خيري»، ومع أول رشـفة دخل «خيري» وحيانا وجلس بجواري بينما «بسـمة» اتجهت إلى الداخل حيث «رنا» و«جيهان» وزوجة «إبراهيم» وسيدتان أخريان في المطبخ يتأهبن لنقل الطعام إلى منضدة السفرة، وصب «خيري» كأسًا مثلي وهو يسألني بهمس. «إيه الأخبار؟»، حدقت فيه متفهمًا فأضاف: «تفتكر هيبقى فيه رقص احتفالًا برأس السـنة ولَّا حنقضيها شـرب واحنا قاعدين نبص لبعض»، ابتسمت وقلت له: «وأنا إيش عرفني.. أنا أول مرة آجي هنا.. مسـألتش بسـمة ليه قبل ما تدخل»، ضحك وهو يلكزني في جانبي: «أنا لو كنت سـألتها السـؤال ده ماكنتش خلصت.. إنت عايز ترقص ليـه؟ ولما بتكون معايا مبتطلبش ترقـص ليه؟»، قلت له: «احتياطيًا يا خيري ماتبقـاش عنـدك أحلام عريضة بيتهيألـي جيهان مش هتسـمح بكده»، قلب شـفتيه ثم بلع كأسـه بسـرعة وهو يقول بجدية: «لو كلامـك طلع صح وفي الآخر هترسـي بـس على Happy New Year نعمل بعدهـا إننا تعبنا وننزل نكمل في أي نايت»، ضحكت وهززت رأسي بالموافقة دون أن أعنيها لأني لمحت فيه جزءًا ما من «عماد».

وحدث ما توقعناه وتوالت الأغاني الاحتفالية عربية وغربية ورقص على إيقاعها بعض الرجال وفي مقدمتهم «إبراهيم» و«فريد» تخلُّصًا من القعدة الملتزمة، وصفقت النساء ولما تحول الأداء إلى شبه الابتذال غادرتنا «جيهان» لتحضر أشياء، وفي كل مرة كنت أهم بملاحقتها كي ألقي في وجهها بقنبلة الحب كنت أتراجع لسبب ما.. إما لأننا في أول السهرة أو لأن «بسمة» في الحمام وقد تخرج وتفسد لحظة اختلائي بـ«جيهان»، ثم قررت أخيرًا أن أبثها مشاعري بعد أن تنتهي هذه السنة الكئيبة لعل لحظة سعدي تكون في باكورة العام الجديد..

ودعتنا «جيهان» إلى مائدة السفرة فتقدمنا «إبراهيم» وزوجته، وبدلًا من الجلوس سحب سرفيس ووضع عليه ما راقه من الطعام وقلدته زوجته ثم رجعا إلى مكانهما، وتبعهم كل الموجودين، وكانت «جيهان» قد نهضت عن مقعدها على رأس المنضدة وبدأت تتابع الأيدي التي بنهايات معدنية تغرف بها الطعام، وترشح لهم أطعمة إضافية ليذوقوها أو يجربوها وكنت قد وضعت بطبقي أقل القليل حتى لا ترتبك معدتي بتأثير ما شربته. لكنها أمرتني بأن أملأ طبقي من باقي الأصناف فأخذت لفافتين من محشي ورق العنب مع الكبيبة، لكن ذلك لم يعجبها فأشارت إلى «بسمة» التي كانت قد اختارت لـ«خيري» ما يأكله، وتحركت «بسمة» بسرعة وأخذت طبقي وملأته..

أُطفئت الأنوار لحظة ميلاد العام الجديد وعند عودة الضوء كان كل رفيقين بعد أن اختلسا قبلتهما يهنئان بعضهما بهمس، وكان فرادى الرجال أمثالي مشغولين بصب أو تفريغ الكئوس في أجوافهم.. ولم تكن «جيهان»

بيننـا على الإطـلاق في نطاق الرؤيـة.. وعندما نهضنا يحيـي بعضنا البعض بحميميـة ملتزمة.. قدمت «جيهان» من داخل الداخل وسـلمت على رجال الغرفة بيد وقور وابتسامة فاتنة.. أما النساء فقد احتضنَّها وقبلنها..

وقررت أن أنهي ترددي وأقولها لـ «جيهان» وأخلص مما أنا فيه، خاصة وقد انتشى جميع الموجودين باللحظات الأولى المبهجة من العام الجديد، وبدأوا يتحركون بحرية في أنحاء الشـقة ويتكلمون في ثنائيات أو جماعات صغيـرة، وبدأت أرقبهـا كصقر عجوز ينتظـر أن تحوم الفريسـة بالقرب من حيـزه، ولحقت بهـا وهي تهم بدخول المطبخ وكانت قـد انتبهت لخطواتي فالتفتـت وتأملتني بدهشـة وقالت بهمس: «أحمد.. أنـا وريتك الحمام قبل كده.. اللي إنت هتدخله ده المطبخ.. أرجوك وقف شرب لو تعبان واستريح شـوية لحـد خيري ما يوصلك»، رجعـت بالخزي والعار وجلسـت وأنا في منتهى الضيق.. فقد تصورت تهتهتي وترددي سكرًا بينًا، لكن إصراري على إنهـاء هذا الأمر العالـق جعلني لا أفكر في مغادرة المـكان بقدر ما أفكر في اللحظـة التالية المناسـبة، وكنت أسـابق الزمن حتى لا تأتي سـاعة مغادرتنا الحفـل دون أن أقولها.. وجاءت الفرصة التالية خاطئة تمامًا، فقد كانت في طريقهـا إلـى غرفة نومها لسـبب ما ولحقـت بها وهي أمام الغرفـة، فالتفتت بقسـمات وجه وحشية تسألني في غضب: «أحمد.. هو فيه إيه.. جاي ورايا لحـد أوضـة النوم؟»، كنت قد نسـيت معالم الشـقة كما عرفتنـي عليها أول الليلة لذا ارتبكت بشدة واعتذرت وأخبرتها بضعف أني أريدها في موضوع مهـم، سـألتني باسـتنكار وغضـب: «موضوع إيـه؟!»، لكن صـوت جرس الباب المتواصل قطع حديثنا، وحلت محل غضبها دهشـة شديدة وهمست بقلـق: «مين اللي هييجي الوقـت ده؟».. ثم انطلقت نحو الباب وهي تطلب

خفـض صوت الــDVD، وكنـت ألاحقها أيضًا أقاسـمها قلقهـا، وفتحت البـاب ووجدت إحـدى الجارات تكلمها بهمس، وظننـت أنها تعاتبها على ارتفـاع أصواتنـا والجلبة التي تصدر منّا، قلت لنفسـي إن الحفـل انتهى في التو دون أن أريح وأسـتريح، ودخلت وجلسـت على مقعد «بسمة» الشاغر لأكـون بجوار «خيري»، وعادت «جيهان» بوجه شـاحب واتجهت مباشـرة إلـى الــDVD وبدلًا مـن أن تغلقه وجدتهـا تبحث عن محطة بـث معينة.. وكانت شذرات من أغنيات بلغات مختلفة تمس آذاننا ثم استقرت «جيهان» علـى محطة تبـث الأخبار، وهنا عرفنا بأن حادثة إرهابية ارتكبت في كنيسـة القديسين بالإسكندرية وقد نتج عنها عدد كبير من القتلى والجرحى..

سـاد الصمت ثم الأسـى المـكان.. ولم يجرؤ أحد على رشـف رشـفة جديدة من كأسـه، ثم تأهب الجميع للانصراف وكنت في مقدمتهم وتبعني «خيـري» لكي يوصلنـي إلى البيت.. ولا أذكر أننـا تكلمنا في الطريق ولكن تلاشـى ضيقـي مـن أنني لم أصـارح «جيهـان» بحبي بل وأحسسـت براحة شـديدة لأني لم أطلب منها ذلك في هذه الليلة لأن سـواء ردها كان بالسلب أو الإيجـاب ما كان سـيغير شـيئًا من حالة الإحباط والاكتئـاب التي أصابتنا كلنا بسبب هذا الحادث.

***

كان «عمـاد» قـد تضايق مني جـدًّا عندما اعتذرت عن عدم قضاء سـهرة ليلـة رأس السـنة في فندق «الماسـة» مع بعـض زملائه كما اتفقنـا من قبل، وكان كعادتـه قد عدد لي مزايا السـهرة التي من ضمنهـا أنهم منحوه خصمًا كبيـرًا وحجـزوا لـه في مكان متميـز، ولأنه لم تكن برأسـي خطـة بديلة فقد

وافقـت، لكـن عندما دعتني «جيهان» لحسـت موافقتي لـ«عمـاد» وأخبرته بأنـي لن أحضر وتحملت سـبه ولعناته وصوته الهـادر المندفع من الهاتف، ثـم أخبرته ببسـاطة أني مدعو إلى حفل ببيت «جيهـان»، ولأن دماغ «عماد» كان فـي الأصـل «مبولـة» عامة، وجـدت حاله قد تغير وضحـك ثم همس: «هتقضوا راس السنة لوحدكم يا بختك»، هنا شتمته واتهمته بالخبل وأفهمته أني مدعو مع آخرين لقضاء السهرة عندها.

وأنـا راجع من بيـت «جيهان» بعد أن أنزلني «خيـري» بالقرب من بيتي، اتصلـت عـدة مرات بـ«عمـاد» لكي أعرف مـا يحدث لكنه لـم يرد، وقلت لنفسـي لعله مندمج في الحفلة ولم يعلم بما حدث أو عرف وقرر استكمال الاحتفـال معتمدًا على أن زملائـه يقومون بواجباتهم، وفي ظهر اليوم التالي عندمـا اسـتيقظت وجدت اتصـالًا منه فكلمتـه ووجدته حزينًا جـدًّا وعندما حاولـت الاستفسـار منـه عـن وقائـع ما حـدث رد بغبـاء: «افتـح التلفزيون ولا خُـش علـى النت هتعرف كل حاجـة»، وبعد ثوانٍ مـن الصمت يبدو أنه أحـس بضيقي لأنه اعتـذر بعجالة وأنهى المكالمة وهو يقول إنه سـيكلمني مرة أخرى لأنه مشغول جدًّا اليوم.

ولـم تكـن هذه هـي المـرة الأولـى التي أكتشـف أنـي بائـس اجتماعيًّا ولا يوجد شـيء أفعله، بعد انشغال «عماد» وبعد أن منحت موظفي شركتي هـذا اليوم إجـازة على اعتبار أنه صباحية عيد الميـلاد، وكنت متضايقًا أيضًا لأن «خيـري» أخبرنـي وهـو يعود بـي إلى البيـت أمس أن «جيهـان» اتفقت مـع صديقاتها البنـات على اللقاء صباحًا في مكان ما سـتحدده لهن - كأنها تخشى أن يقتحم جلستهن أحد الرجال! - لكي يحتفلن معها بعيد ميلادها،

ولـم أفهـم بالضبط ما سـبب ضيقـي أو دواعيـه، أو لماذا أنا مهتـم بحضور عيـد ميلادهـا البناتي أصلًا؟ وبـدأت أحس بأني في حالة عـدم اتزان، لكني لـم أتوصل إلى أسـبابها وهل هي أسـباب تتعلق بعلاقتي مـع «ريم» وكيف تخلصت مني أو بما أنا مقدم عليه مع «جيهان» التي أشـعر بأنها لن تمنحني ربـع الوقت الذي قضيته مع «ريم» قبل أن تبلغني بنتيجة الاختبار، «جيهان» ستسـحب مني ورقة الامتحان في الدقائق الأولى منه لأنها تشعر أن وضعها الحالي أفضل وتريد أن يظل هكذا إلى الأبد!

لـم تتح لي فرصة للقاء «عماد» لبضعة أيام بعد حادثة كنيسـة القديسـين وكلمنـي عدة مـرات في اللحظـات الأخيرة قبيـل موعدنا يعتـذر بأنه كُلِّفَ بعمـل ما، لدرجة أني تصورت أنه يدعـي ذلك كي يعاقبني على التخلي عنه في ليلة رأس السنة المشئومة تلك، لكن السماء في الأيام الحارة المتتالية لا تبخل علينا أحيانًا بنسـمات باردة لطيفة.. «جيهان» كلمتني اليوم في حوالي الساعة الثانية وأخبرتني بأن هناك وقفة للمثقفين في ميدان طلعت حرب ضد الإرهاب وموعدها السـاعة السادسة، وسـألتني إن كان «خيري» قد أخبرني بهـا فنفيت ذلك وبان على صوتها الدهشـة، ثم قالت لو أني مهتم بالحضور أنسـق مـع «خيـري»، ووجدتها فرصـة لادعاء الزعـل من «خيـري» لأنه لم يخبرنـي بهـذه الوقفة وقلت لها بحسـم إني لن أتصل بـ «خيـري»، وبعد أن أنهي عملي في الرابعة سأتغدى في وسط البلد ثم أحضر في الموعد، قالت إنها اتفقت مع الأسـتاذ «الوشـاحي» أن تمر عليه في مقهى ريش قبل الساعة السادسـة لكي يحضرا الوقفة سـويًا، وجدت نفسـي أخبرها بأني سـأتواجد بالقرب مـن مقهى ريش في نفس التوقيت، بعد لحظات من الصمت طلبت

منـي أن أتصـل بها قبل التوجه إلى الوقفة لكي نحمي الأسـتاذ «الوشـاحي» من التدافع!

ولكني فوجئت بخروجها بمفردها، وعندما سـألتها عنه ابتسمت وقالت إنه سـيتبعنا، ولـم أفهم كيف سـيلحق بنا بتعبـه ووهنه وعـكازه، ويبدو أنها فهمت ما يدور في رأسي لأن ابتسامتها اتسعت وهي تقول: «أصل معاه بنتين مـن تلامذتـه في فنون جميلة هيوصلـوه لغاية الوقفـة»، وانتبهت لحضورها الفاعليـة بـدون حقيبة الكاميرا فسـألتها أيـن تركتها؟ قالت بجديـة إنها غير مهتمـة اليوم بالتصوير بقدر اهتمامها بالتنديد بالإرهاب، وقد كابدت بشـدة أن تظهـر علـى ملامحي الفرحة لأنها سـتبقى لأطول فترة بجـواري دون أن تقفـز كالعصفور وراء الشـخصيات العامـة والكادرات البصريـة المتميزة.. وكان الميدان قد ظهر جليًّا أمامنا من خلال حركة السيارات البطيئة المتعثرة التي يسـتطلع سـائقوها ماذا يحدث من خلف زجاجها.. أشرت لـ «جيهان» كي تخترق الممر الذي يصل شارع طلعت حرب بشارع قصر النيل فتبعتني، وبينما نحن على عتبات الممر الذي خلا من الناس كأن القدر يمنحني عالمًا موازيًا أهدأ وأخف وطأة، سـألتني «جيهان» عمـا كنت أريد أن أقوله لها في الحفلة، وفوجئت لأني لم أكن أتوقع أن تسـألني هذا السـؤال لتعاليها وربما لأنها خمنت السـبب، لذا ارتبكت قليلًا وعندما لمحت ابتسـامتها خفت أن تكون تلك الابتسـامة فخًا ورأيت أن الاسـتهبال أفضل وأكثـر أمنًا، ومن ثم أخبرتها بأني كنت أريد أن أسـتأذنها في أن أرسل لها في صباح عيد ميلادها باقـة زهور، وقفت ونظرت تجاهي بدهشـة ثم قالت: «وهل إرسـال الزهور يتطلب إذنًا؟»، أجبتها بأني خفت من تحذيرها لأصدقائها بعدم إرسال هدايا

لعيد ميلادها، قالت بابتسامة: «لا أعتقد أن هناك مَن يرفض تلقي الزهور»، اندفعت وقلت لها إني كنت أخشى أن تمزق زهوري مثلما فعلت في عيد ميلادها الأسبق، فغرت فاها واتسعت عيناها ثم ضحكت بشدة وهي تسألني عن الشيء الذي جعلني أعتقد أنها مزقت زهوري حينها، أخبرتها بأني انتظرت كثيرًا أن تشكرني وعندما لم يحدث ذلك ظننت أنها مزقت الباقة بزهورها، ضحكت بصفاء وقالت: «ياه يا أحمد ده إنت تنفع تكتب سيناريوهات لطيفة.. أنا يمكن اتضايقت لأنك بعت الورد كأنك بتقولي مع إنك معزمتنيش على عيد ميلادك أنا مش حاعاملك بالمثل وهاهنيكي بيه ويمكن عشان كده نسيت أشكرك»..

وبعد أن مشينا خطوتين إضافيتين قالت وهي تفتعل التأثر: «أحمد ماتزعلش مني أنا الورد بتاعك ما استلمتوش من الأصل، وشخطت في الولد اللي جايبه وبعدين صعب عليَّ إديته إكراميته وطلبت منه يتصرف في الورد»، قلت لها: «مافيش مشكلة»، وأكملنا نصف الطريق دون كلام، ثم التفتت تجاهي وقالت بدهشة: «على فكرة أنا كنت باهزر.. هو صحيح يا أحمد إنت بتصدق أي حاجة تتقال؟»، ابتسمت وقلت وأنا أنظر في عينيها: «آه بس من ناس معينة».

والميدان على مشارف عيوننا وخوذ الجنود وهراويهم تلوح أمامنا، قالت لي: «إيه لازمة القوات دي كلها واحنا حنقف وقفة سلمية؟»، قلت لها إنهم من الممكن أن يكونوا خائفين من تحول الوقفة إلى مظاهرة ضد الحكومة، قالت: «ربنا يستر وتكمل الوقفة على خير ويراعوا حزننا»، وهنا انتبهت إلى أنها ترتدي فستانًا أسود جميلًا واندهشت جدًّا لأني لم ألحظ

تسـريحة شعرها ولا لبسـها رغم كل هذه المسافة. وعندما وصلنا أخيرًا إلى الميـدان كانت هناك أكثر من سـيارة أمن مركزي متراصة في شـارع محمود بسيوني الموازي لشارع قصر النيل في مواجهة حزب التجمع، وكانت هناك بعض سـيارات الأمن المركزي في الجانـب الأيمن من الميدان عند مدخل شـارع صبري أبو علـم.. وكان المثقفون مجتمعين في ثلاثـة أماكن متقاربة مـن صينيـة الميـدان.. مجموعة أمام مكتبـة مدبولي، ومجموعـة أخرى في الجهـة المقابلة أمـام مدخل جروبي طلعت حـرب، والمجموعة الثالثة غير مرئيـة لأنها محتجزة فـي الممر الذي بين حزب التجمـع وأتيليه القاهرة في الشـارع الضيق المسـمى بشـارع كريم الدولة، وكان جنـود الأمن المركزي وراء متاريسـهم فـي نهايات الشـارع، لذا لـم نرَ هذه المجموعـة لكن كانت تصلنا هتافاتهم وأغانيهم رغم أنها كانت وقفة صامتة تنديدًا بالإرهاب..

كنـت أنا و«جيهان» ضمـن المجموعة الواقفة أمـام جروبي في مواجهة مجموعـة مكتبة مدبولي وكان جنود الأمن المركزي يتشـكلون بهيئة نصف قـوس أمام كل مجموعة.. وكانوا أقـرب إلى مجموعتنا التي تقف حرة دون متاريـس بينمـا المجموعة المقابلة كانت ترتكز علـى المتاريس الحديدية.. وكان منظـر الجنـود مرعبًا بتجهمهـم وبنظراتهـم المندهشـة والكارهة لنا، وبخوذهـم وبنادقهـم وهراويهم وعصيهم الكهربيـة.. ورأيت على الجانب الآخر الأديب «بهاء طاهر» والشـاعر «أحمد فؤاد نجم» وكنت أعرفهما من وسـائل الإعلام، وأشـارت «جيهان» لي علـى أحد الأشـخاص بجوارهما وقالـت لي إنه الناشـر «محمد هاشـم».. والذي لفت نظري فـي مجموعتنا أن الممثـل «لطفي لبيب» كان بيننا وكانت عينـاه حمراوان من البكاء، وكان

يسب رجال الشرطة والحكومة بشدة إلى أن تمت تهدئته، كذلك فوجئت بسيدة خمسينية جميلة ترتدي الأسود وشعرها منكوش من الغضب وتبكي بانفعال شديد وهي تدين الحكومة والشرطة وعندما سألت عنها «جيهان» قالت إنها ناشرة واسمها «فاطمة البودي».. ومن الأمور المدهشة أني بنظرة استقصائية أدركت أن عدد الجنود الذين يحوطون كل مجموعة لا يقل عن ثلاثة أمثال المتظاهرين في صمت، ثم تمكن «فريد» من إيجادنا وفوجئت به يقف بيني وبين «جيهان» وهم يوزعون علينا الشموع التي سنشعلها حدادًا على الضحايا، وعندما تنبهت «جيهان» له وهو يشعل لها شمعتها، حدجته بنظرة قاسية فانسحب من بيننا، وكان الطقس باردًا في لطف لكن نسماته كانت تصارع شعلات الشموع فتترنح يمينًا ثم يسارًا وبعضها ينطفئ، وأرسلت نظري عابرًا الجنود المتراصة بين المجموعتين ووجدتهم على الضفة الأخرى يضعون شموعهم بداخل عبوات المياه المعدنية البلاستيكية الفارغة المقصوصة إلى منتصفها وأخبرت «جيهان» بذلك، فسألتني من أين نجد زجاجات فارغة الآن؟ أجبتها بأني سأحاول أن أجد بعضها في كافتيريا جروبي، لكن في تلك اللحظة تحرك أحد قادة القوة المكلفة بنا من الذين كانوا يجلسون طوال هذه الوقفة على كراسي فاخرة جلبوها من جروبي، ويلعبون في أجهزة محمولهم كأنهم غير عابئين بما نفعله.. نهض أعلاهم رتبة وكان عقيدًا أسمر اللون ذا بنية ضخمة وقصيرًا إلى درجة ملفتة وأعتقد أنه نجح في كشف الهيئة بوساطة ما، مشى هذا العقيد بخيلاء وصلف متجهًا إلى مجموعة مدبولي وتكلم معهم بصوت قوي لكن لم نسمعه بدقة، ثم اتجه نحونا رغم أننا كنا الأقرب إليه من البداية..

همس أحد الواقفين معنا: «خلي بالكم النمر الأسود جاي عليكم»، انفلتت بعض البسمات المسموعة، وكنت في الصف الثاني لكن في منتصف المجموعة بالضبط. وكان ذلك هدفا مثاليًا لسيادة العقيد الذي اقترب من الشخص الذي يقف أمامنا وقال موجهًا كلامه للجميع: «خلاص غنيتوا ورقصتوا وولعتوا الشموع.. ياللا بقى روحوا رسالتكم وصلت»، استُفز بشدة الرجل الذي أمامنا وقال له بصوت جهوري: «إحنا واقفين ضد الإرهاب.. تمشونا ليه؟ هو حضراتكم مع الإرهاب؟»، احتقن وجه العقيد واقترب بشدة من الرجل لدرجة أني تصورت أنه سيضربه وسيكون ذلك بمثابة إذن للجنود بالتعدي علينا، لكني فوجئت بالعقيد وقد انتفخت وجنتاه من هواء رئتيه ينحني ويطفئ الشمعة التي بيد الرجل، ثم يتحول إلى الشمعات الأخرى التي ما زالت مشتعلة بالصف نفسه يملأ رئتيه ويطفئ بغيظ، كأنه طفل مشاكس يطفئ شموع أخته قبل أغاني عيد الميلاد، ثم شخط فينا بصوت قوي يأمرنا بالانصراف وأخذ الجنود وضعيات الهجوم فانصرفت مجموعتنا وتناثرت.

كانت «جيهان» ما تزال بجواري وكلما تحركنا تهمس لي بلطف وتستأذنني لكي تسلم على أحد زملائها الفنانين الذين كانوا في الوقفة ولم ترهم إلا بعد فضها، وقابلنا «الوشاحي» بصحبة الفتاتين على رصيف مقهى «ريش» وقال إنه كان في مؤخرة الوقفة، ثم دعانا للدخول واعتذرت «جيهان» لارتباطها بموعد في البيت، واعتذرت أيضا بحجة أن لديَّ موعدًا مهما، وظل «الوشاحي» يحاول إقناعها وانشغلت باتصال «عماد» الذي كلمني أخيرًا وقال إنه في الوزارة وعلى وشك إنهاء اجتماعه ولما عرف بأني ما زلت في نطاق عابدين أخبرني بأنه سيمر عليَّ لنسهر في

أي مكان نتفق عليه، انتظرت «جيهان» إلى أن أنهيت مكالمتي ثم أقبلت نحوي وظننت لوهلة أنها ستخبرني بنجاح «الوشاحي» في إقناعها بدخول «ريش» وتدعوني للدخول معها، وقررت أن أرفض مهما كانت النتيجة، لكنني فوجئت بأنها تملصت منه وأخبرتني بأن سبب دخولها المكان بينما أنا أجري مكالمتي لأنها رأت عبر الزجاج أستاذها المصور «محسن أحمد» وهرعت لتحيته، ثم سألتني عن وجهتي فارتبكت ولم أدرِ هل هي تقصد أنه بإمكاننا قضاء بعض الوقت في أي مكان بمفردنا أم هو سؤال عفوي، وبوغت بضحكتها الرقيقة وهي تعلق على ترددي: «جرى إيه يا أحمد هو انت مش عارف إنت رايح فين؟»، أجبتها بسرعة متفاديًا الحرج: «رايح البيت في عابدين»، ازدادت مساحة ضحكتها المنخفضة وهي تقول: «كل الوقت ده عشان تقول إنك رايح بيتكم؟ أنا بسألك عشان راكنة العربية في جراج باب اللوق ومدام ده طريق بيتك يالا نتمشى لحد العربية»، ونحن في الطريق أخبرتها بدهشتي لعدم حضور «خيري» الوقفة، لكنها قالت بمزاح: «إنت بس اللي ماكنتش مركز.. خيري وبسمة كانوا واقفين عند مكتبة مدبولي وشاورولي في أول الوقفة وشاورتلهم»، كنت أتحين الفرصة لشرح سبب ترددي في الإجابة عليها عندما سألتني عن وجهتي، لذا أخبرتها عرضًا بأن الذي اتصل بي صديقي «عماد»، وسكتت «جيهان» طويلًا لدرجة أقلقتني، وكنت خائفًا من أحد ردودها المعتادة من عينة: «وأنا إيه دخلي بعماد وأصدقائك»، لكنها سألتني السؤال الذي كنت أخشاه: «أحمد.. هو صاحبك عماد بيشتغل إيه بالظبط؟».. أجبتها بلا فاصل زمني يدل على ارتباكي: «ظابط في الداخلية!».. وبدأت أحكي قصة معرفتي به فأوقفتني قائلة: «أحمد مافيهاش حاجة إن واحد صاحبك يكون ظابط.. كلنا عندنا

قرايب وصحاب وأزواج صاحباتنا ظباط.. وفيهم الكويس وفيهم اللي زي الزفت.. إنت ليه عايز تبرر لي معرفتك بيه؟»، قلت بصوت منكسر: «خفت من المثقفين يا جيهان.. ده الشخص الطبيعي بيفتكروه مخبر.. وأنا عارف إنهم كانوا شاكين فيَّ أنا.. عايزاني أقول إن أعز أصحابي ظابط شرطة؟»، ابتسمت وقالت في صفاء: «عندك حق.. بعضهم عنده إحساس مرضي بالأهمية وبيتصور إنه مستهدف ويبدأ يشك في كل اللي حواليه ثم كل الناس.. بس ماتحاولش تخجل من حاجة زي دي تاني.. اللي عايز يعرفك على كده أهلًا بيه واللي مش عايز إلغيه من حياتك خالص»، قلت لها: «حاضر»، وكنا قد وصلنا إلى سيارتها وقبل أن تدخلها قالت لي: «أحمد أنا عرفت إنه ظابط من بسمة اللي عرفت عن طريق خيري.. ما فيش حاجة بتستخبى.. عشان كده اللي في قلبك قوله على طول».

وانطلقت السيارة من أمامي وكلمتها ما تزال تصاحبني: «اللي في قلبك قوله على طول».. هل هي تقصد ما فهمته؟ أم هذه بعض مفرداتها المفخخة؟

جلست على مقهى بلدي في عابدين إلى أن أتى «عماد» واقترح أن نسهر في مصر الجديدة وأبيت عنده، وكنت في حالة رضاء وانتشاء فوافقت دون جدال، لكني أخبرته بأني لن أشرب اليوم، فالتفت تجاهي مندهشًا ثم استفسر هل ما زالت معدتي مضطربة، فأجبته بحسم أن معدتي بخير لكن لا رغبة لي في الشرب، لم يعلق إنما في أول انحراف بالطريق سار فيه وقال بأسى إنه لا داعي للذهاب إلى أي «نايت» طالما لن أسكر وإنه سيتوجه بي إلى مطعم لنأكل وسيشرب في البيت.

وبعد أن أنهينا طعامنا سـألني كيف قضيت يومي؟ فأخبرته بما حدث لنا فـي وقفة الميدان ضـد الإرهاب وكيف عاملنا زميلـه بصلف وغرور وكنت أصف بدقة حركاته واستعراضه وأسـخر منها وأنا أظن أنه سـيتعاطف معنا لوقوفنـا ضد مَن قتلوا وأضروا برعايا كنيسـته، كان ينفـث دخانه في وجهي ويجاهـد أن يبدو فـي هيئة الناصح الأمين وهو يقول لي: «أحمد أنا مش كل مرة حاحذرك من العيال بتوع وسط البلد.. وأقولك إحنا مجندين منهم كتير ومـش عايز حد يجيب سـيرتك ويتعملـك ملف ويتعلم عليـك.. أنا عارف إنك بتروح هناك عشـان جيهان.. بس زمايلنـا ما بيفرقش معاهم جيهان ولا عطيـات.. ومن الآخر دول شـوية عيـال صراصير بس الدولـة مش ممكنانا نفعصهم.. عشـان ليها مصلحة في وجودهم.. بيتـزوا بيهم الغرب ويبان إن عندنا شوية حريات وديمقراطية.. أنا عارفك كويس لا بتاع سياسة ولا خرا.. إخلع منهم.. وخلي صاحبتك تخلع معاك ودي نصيحتي الأخيرة ليك وكل واحد متعلق من عرقوبه»، كنت مندهشًا من أنه مهتم بمستقبله الوظيفي عن ديانتـه وانتمائـه.. إنـه حتى لم يتعاطف مع شـركاء وطن واحـد انتفضوا لما حدث للكنيسة ووقفوا صامتين كي يشعلوا شمعة على أرواح الشهداء، ولـم أقدر على كبت هذه الأفكار وواجهته بها فقال متفلسفًا بسخرية: «الدين لله والوطن للجميع»، ثم ألقى نظرة عابرة على فاتورة الطعام وترك النقود دون أن يهتم كعادته بمناقشة «المتر» في سعر كل طبق مسجل في الفاتورة.

جيهان العرابي

حولت «بسـمة» شقتي إلى ما يشبه غرفة العمليات، بعد أن جاءتني فور انتهـاء شـغلها فـي الرابعة كمـا اتفقنا ومعها مـا اقترحته لغدائنـا من الدجاج المشـوي والسـلطات، لمجـرد أني أخبرتها بشـعوري ببعـض متاعب البرد فطلبت مني عدم بذل أي مجهود في المطبخ وأتت لي بمجموعة الإنفلونزا وبكميـة من الطعام تكفي أسـرة كاملـة، وبعد أن أكلنا بعضـه طلبت منها أن تعـود بالباقي فزعلـت ثم قالت لي بخبث أن أحتفظ بـه لأن الله وحده يعلم إن كنا سـنجده في الأيام القليلة القادمة أو لا، ولأني في الفترة الأخيرة كنت قد تعودت على هرتلتها لم أعلق، وبدت منشغلة بما ستفعله وهي تستأذنني فـي البقاء قليلًا في الرسيبشـن كي تنهـي بعض الأعمـال، وتركتها ودخلت إلى غرفة نومي وكانت بين الحين والآخر تدخل الغرفة ثم تحادثني وحينما يصلها اتصال تغادرها وتبقى في الرسيبشن بين المحمول واللاب، وخمنت أنها تسـاعد «خيري» في «تشـيير» بعض الأخبار، وأعجبتني حماستها لأنها وجـدت ما يشـغلها، وما يشـغلها مهما كان حقيقيًـا أو مزيفًـا جعلها جميلة وحيوية، وعندما عادت هذه المرة وسـألتني إن كنت سـأنزل معهم في الغد، ابتسمت وقلت: «نعم»، قالت إنها بمناسبة إجازة الغد ممكن أن تأتي إليَّ في الصباح وننزل معًا، وكنت أعلم أن موافقتي على هذا الاقتراح معناه أن أظل رهينة إرادة «خيري» في توقيت استدعائها للنزول وقد يكون ذلك مبكرًا أو

متأخرًا عن اللازم، لذا أخبرتها أني سأنزل براحتي، ابتسمت وطلبت مني ألا أتأخر عن الانضمام إليهم وأن أتصل بها لأعرف مكانها بالتحديد، هززت رأسي لكنها بخبث متعمد قالت: «ولو كنتي متفقة مع أحمد تتحركوا سوا يبقى مافيش مشكلة عشان هو بينسق مع خيري»، قلت لها بغيظ: «بسمة بطلي استهبال أنا متكلمتش مع أحمد من يوم وقفة طلعت حرب وبطلي كمان حالة النكوص اللي انتي فيها دي.. إحنا مش أصحاب في ثانوي اتعرفنا على شابين وحندخل السينما سوا»، قلبت شفتيها وقالت بسخرية: «نكوص؟ يا ريت نفسي أرجع بنت سبعتاشر ومحملش للدنيا هم»، ثم سألتها عن «رنا» وهل ستنزل للمشاركة في التنديد بالشرطة في عيدها، ضحكت «بسمة» وقالت: «طبعًا لا.. دول مالهمش في السياسة مركزين قوي في الشهرة وده يخليهم يمشوا جنب الحيط»، سألتها هل تظاهراتنا في الغد ستجعل الحكومة تتحرك وتجبر وزير الداخلية على الاستقالة؟ أجابتني بلسانها بكلام وضعه «خيري» في عقلها بأن الأمور قد تتطور لو نجحوا في حشد أكبر عدد ممكن من الشباب وقد تتغير الوزارة بأكملها، ضحكت وقلت لها لو بلغ عدد المتظاهرين ضعف وقفة طلعت حرب سيكون هذا شيئًا رائعًا، لكنها نظرت لي بإمعان وأخبرتني باستعلاء وبادعاء خبرة في السياسة بأن العدد سيكون كثيرًا جدًّا إلى درجة لا تتصور، وأن كل المؤشرات على النت تؤكد ذلك سواء بالنسبة للدعوات بالنزول أو تشيير هذه الدعوات وتحديد أماكن التجمعات في كل المناطق، كانت في حالة إيمانية عميقة بأن هذا سيحدث مما اضطرني لهز ساعدها وأنا أقول لها: «بسمة فوقي ده عالم افتراضي وعشان ينزل على أرض الواقع مش بالسهولة اللي انتي فاكراها.. صحيح إن اللي حصل في تونس شجع بعض الناس

وخلي بعضهم يقول إحنا الدولة العربية الأكبر إزاي ما أخدناش خطوة زي دي.. لكن ده على مستوى الحلم بس.. وبكرة حتشوفي إننا حنقف زي كل مرة ساعتين وبعدين يشخطوا فينا ونروح».

تركتني «بسمة» أبوح بما في قلبي ثم قالت بنفس النظرة الحالمة: «جيجي أنا واحدة مؤمنة بالعالم الافتراضي عشان هو اللي اداني أحلى سنين عمري، بينما الواقعي اللي بتقولي عليه سرق حياتي كلها.. أنا السنة والأربع شهور اللي خرجلي فيهم خيري من الواقع الافتراضي اللي بتسخري منه هما هدية السما ليا.. هما اللي مسحوا عذاباتي كلها».. ثم دمعت عيناها، فاندفعت لاحتضانها حتى صفت وسحبتها من يدها إلى المطبخ كي نعد كوبين من النسكافيه، وبينما نحن عائدتان بالمشروب سألتني إن كان «أحمد» قد تكلم معي أثناء وقفة طلعت حرب في الموضوع الذي كان يطاردني بسببه أثناء الحفلة، وكانت عندما أخبرتها بما حدث قد علقت على الفور بأنه سيعرض عليَّ الزواج، أجبتها بأنه أخبرني بأنه يريد أن يرسل لي باقة ورد، ضحكت «بسمة» بشدة وقالت: «يخيبك يا أحمد.. ورد إيه اللي انت جاي تقول عليه.. إنت هتخش في الموضوع إمتى؟»، سكت ولم أعلق، لكنها لم تسكت وسألتني مرة أخرى: «جيجي أحمد استوى خالص وأنا حاسة إنه بكرة هيتقدملك وحاموت وأعرف حتعملي معاه إيه عشان ده مش زي إبراهيم وفريد ولو عاملتيه زيهم ممكن يتبخر»، زجرتها بعيني وأنا أقول لها: «بسمة هو انتي بتهدديني.. طبعًا حارفض وبغلاسة لو بدأ كلامه بالكلمة الرخمة: عايز اتجوزك يا جيهان؟ وحسك عينك تقولي كده لخيري اللي ممكن يقوله؟»، ضحكت «بسمة» وقالت: «قصدك أغششه.. ده حتى

لو غششته ممكن يقول غلط.. وبعدين اطمني لا أنا ولا خيري اتكلمنا في حاجة زي دي أصلًا وما أقدرش أقوله أحمد عايز يتجوز جيهان ليفتكرني بالقح عليه وعايزة أورطه.. المهم إيه اللي انتي بتعيدي وتزيدي فيه يا جيهان.. عايز أتجوزك زي باحبك.. خصوصًا وانتي عارفة أحمد بيحبك قد إيه.. ده أنا بيصعب عليا وهو قاعد معانا بيتكلم مع خيري وأنا عاملة نفسي باكتب على الكيبورد وأقول بس إني هاقابل جيهان من غير ما ارفع راسي من على الكيبورد بالاقي ركبه بتترعش زي اللي هيدخل في كوما.. جيجي المرة دي معلش بلاش إصرارك على الاختبار ده.. لو قال إنه عايز يتقرب منك بأي صيغة ردي عليه وريحيه»..

نظرت لها باندهاش وقلت لها: «هو في إيه يا بسمة مالك متحمساله قوي المرة دي؟»، قالت كأنهما زملاء هم واحد: «بيصعب عليَّ يا جيجي.. الأيام الأخيرة دي رامي نفسه علينا يا عيني ولما بينزل معانا ومبيشفكيش باحس إنه بيجر رجليه من الحزن.. حتى خيري لاحظ وقاللي يظهر إن كان في حياته واحدة اتخلت عنه فجأة وملقاش غيرنا ينسى فينا أوجاعه.. ولأول مرة خيري يغلط في تحليلاته.. أنا بس اللي عارفة إن العكس هو اللي بيحصل إنه اكتشف إن حياته اللي فاتت خواء مالهاش لازمة بعد ما عرفك كويس وحبك جدًّا.. زي حالتي مع خيري.. عشان كده أنا حساه قوي يا جيهان».

أحمد الضوي

كنت قد تقهقرت قليلًا عن «بسمة» و«خيري» الذي كان بطبيعة الحال كلما سرنا بضع خطوات في المظاهرة تقدم الصف الذي أمامه وأومأت لي «بسمة» للّحاق به، وعندما اقتربنا من الميدان كنا على وشك بلوغ أول التظاهرة، وكان الميدان مليئًا بسيارات الأمن المركزي وعقداء وعمداء ولواءات جالسين على كراسي وبجوارهم رتب أقل يتابعون التظاهر ببسمة استخفاف، وكانت بجوارهم باقات ورد أهداها لهم متظاهرون شرفاء سبقونا بمظاهرة أشيك وأكثر تنظيما قدَّموا فيها باقات زهور ومصاحف وأعلام لرجال الشرطة في عيدهم، وكانت «جيهان» قد كلمتني واتفقت معي على اللقاء في المظاهرة، وها قد بلغنا هدفنا ولم تأتِ، وكنت في موقع وسط بين الانشراح والأسى، لأن «جيهان» لو تأخرت أكثر ستجد المظاهرة قد انفضت ومبلغ سروري أننا قد نتمكن من الانفلات عن «خيري» و«بسمة» ونذهب إلى أي كافتيريا ويفك الله عقدة لساني وأبوح، وكان يشاغبني الأسى بأنها قد تتكدر عندما تجد المظاهرة قد تفرقت وعندها يتغير مزاجها وربما تنصرف بسرعة عائدة إلى بيتها، لذا عندما كلمتني وقالت إنها تركن سيارتها في المكان المعتاد بباب اللوق وسألت عن مكان تمركزنا قلت لها ميدان التحرير، ثم أخبرتها كذبًا أني قريب من ميدان باب اللوق لأن سجائري قد نفدت، وكانت هناك صفوف تتعدى العشرة قد أصبحت بيني وبين «خيري»

وبسرعة خرجت من المظاهرة إلى الأماكن الخالية بالرصيف حيث الباعة خارج محالهم مع بعض المارة المستائين من الهتافات، أو الذين يرقبون اختفاء هذه الطوابير من أمامهم بسرعة، أو يقلبون شفاههم تعجبًا من هؤلاء المجانين.

لحقت «جيهان» وهي تخرج من بوابة الجراج وسألتني على الفور عدة أسئلة متتالية عن عدد الناس ومدى حماستهم وهل تعرض لهم الأمن، وأخبرتها بأن عددهم لا بأس به بالمقارنة بالتظاهرات الأخرى لكن حماستهم هذه المرة أعلى بكثير وأن الأمن يشخط ويهدد لكن لم تحدث أية احتكاكات حتى الآن، قالت باستنكار: «يعني إيه عدد لا بأس به وأنا جاية شفت مظاهرة مالهاش آخر جاية على التحرير»، قلت لها وأنا بالمظاهرة كنت أسمع الكثير من هذه الأقاويل لكن لم أجد مظاهرات جديدة تنضم، قالت بغضب: «باقولك شايفة مظاهرة منهم وأنا جاية بالعربية تقولي أقاويل»، قلت لها بارتباك إني لا أقصد تكذيبها إنما أنا أنقل لها ما يدور في ميدان التحرير بالضبط، وسرنا فترة قصيرة بدون كلام كشقيقين تخاصما وحال الكبرياء بين أن يبادر أحدهما بصلح الثاني، ثم انهزمت كالعادة وقلت لها: «على فكرة يا جيهان أنا بطمن نفسي العدد المرة دي أكبر من كل مرة، وأنا لأول مرة أشترك في مظاهرة حقيقية ومن خوفي منها اعتبرت الأعداد عادية».

وجدتها تحدق في وجهي ثم ابتسمت ابتسامة كلها ضوء وقالت: «أحمد أنا برضه خايفة وأنا آسفة إني انفعلت عليك ويمكن ده حصل لما سمعت منك إن العدد قليل اتخضيت بجد.. ولو حابب ترجع وماتشاركش ارجع

واستناني في أي مكان ولما تخلص المظاهرة نتقابل»، أحسست بالاستياء من هذه العبارة وتكدرت فعلًا وعندما لمحت تكشيرتي تراجعت وقالت: «خلاص ماتزعلش أنا برضه ما أقصدش ممكن إحنا الاتنين نرجع نقعد في أي مكان». وفي الحقيقة في أي وقت آخر كان كلامها هذا سيجعلني محلقًا في السماء لكني عندما سمعته في تلك اللحظة ضايقني وجعلني أقول لها: «جيهان الشارع اللي احنا ماشيين فيه هيودينا على ميدان عبد المنعم رياض وممكن مانعرفش ننضم للمظاهرة اللي فيها خيري وبسمة.. إحنا لازم ندخل شمال في شارع الفلكي وبعدين شارع محمد محمود»، استمعت لي وهي تبتسم ثم قالت: «كويس إني ماخدتش معايا الكاميرا عشان المسألة لو فيها جري مافيش حاجة تعوقني»، ثم ضحكت وهي تومئ لي وتقول: «مش إنت بتعرف تجري كويس؟»، ابتسمت وقلت لها بحماسة: «أجري بس؟ ده أنا بعرف انط حواجز وأطلع على السقالات ماتخافيش عليَّ».

وما كنا نمزح به واجهناه هناك، كانت الأعداد قد تزايدت جدًّا وتحرك الأمن في محاولة لفضها وألقى بقنابل الغاز بكثافة، كأنه كان ينتظر وصولنا ليعلن الحرب، وانفلتنا في الأزقة المتفرعة من الميدان، واختبأنا في مناور العمارات نلتقط الأنفاس ونغمر وجهينا بالبيبسي كي يخفف من تأثير الغاز، وفجأة وجدنا نفسينا في ميدان عبد المنعم رياض وأعداد غفيرة متجهة إلى مبنى التلفزيون بماسبيرو فانضممنا إليهم ووقفنا معهم نهتف هتافاتهم وفي غضون نصف ساعة كان العدد الذي يحاصر هذا المبنى أكثر من خمسة عشر ألفًا من المتظاهرين الثائرين، الذين هبوا فجأة يتصايحون في جنون بناءً على إشارة من أحدهم تجاه أحد شرفات المبنى حيث وجدنا وزير

الإعـلام أنـس الفقي في شـرفة مكتبه يتابـع المظاهرة وهو يتكلـم في هاتفه المحمـول، ثم أغلقه ودلدل رأسـه من الشـرفة وعندما تلقى سـيل اللعنات وهتافات الغضب انسـحب بسـرعة إلى الداخل، بقينا على هذا الوضع أكثر من سـاعة ثم أشار علينا أحد منظمي المظاهرة بالعودة إلى التحرير لمؤازرة زملائنا، واسـتدارت المظاهرة كقطار عفي نزعت القضبان التي يسـير عليها فانطلق معتمدًا على اندفاعه وخبرته..

وعندمـا وصلنـا الميـدان كان الكـر والفر على أشـده وسـيارات الأمن المركزي منفلتة بلا مكابح وقنابل الغاز تنهال بعشـوائية وبدأت أسعل بشدة فهمسـت «جيهان» لـي بأنها تعبت وأننا لا بد أن نسـتريح في أي مكان حتى نهدأ قليلًا ثم نعاود المشاركة، ودخلنا كافتيريا في نهاية شارع طلعت حرب وقبـل جلوسـنا طلبت منـي أن أذهب إلى الحمام لأغسـل وجهـي وأطعتها رغم أني كنت متعبًا جدًّا وقدماي تشـتاقان للسـكون، وعندما عدت أخذت «جيهان» دورها في الاغتيـال ثم طلبنا كوبين من الليمون وتكلمنا بحماسة عما يحدث حتى جاءني تليفون من «خيري» يسألني عن موقعي وكنت أنظر تجاه «جيهان» وأنا متردد في إخباره بالمكان الذي أجلس فيه، لكنها أومأت برأسـها فأخبرتـه وفي غضون نصف سـاعة أتى إلينا «خيري» و«بسـمة» في حالة يرثى لها وأخبرانا بأن الأمن حسـم الأمر وفض التظاهرات كلها، وبان الأسـى علينـا، وبعـد أن ارتاح «خيري» قليـلًا انطلق في شـرح إيجابيات ما حـدث والجهود التي بذلـت من أطراف عديدة لنجاحهـا وقدرة تكنولوجيا المعلومـات على هزيمة القوى الفاشـية.. وقال في ثقـة إن الأمر لـم ينتهِ بعد وإننا سـنرى خـلال الأيام القليلة القادمة تصاعدًا أكثـر في التظاهرات ينهك

الشـرطة تمامًا، وفي داخلي اعتبرت ما قاله على سـبيل اللغو وعندما خرجنا وانفصلنـا أنـا و«جيهان» عنهمـا، قالت «جيهـان» إن «خيري» يبالـغ مبالغة شديدة ويؤمن تمامًا بالواقع الافتراضي مثله مثل بسمة تمامًا.

وكنـت كلما تقدمت في سـيري مع «جيهان» إلـى الجراج وجدت الأمر مختلفًا عما قبل، على كل ناصية سيارات مصفحة وضباط شرطة يفحصون بإمعـان وجوه المـارة، وأحيانًا يسـتوقفونهم طالبين الهويـات، أو يأمرونهم بصلـف بالاتجـاه إلى شـارع آخر لأن هذا الشـارع مغلق دون أسـباب، وقد تعرض لنا أحدهم وأشـار إلينا كي نتقدم إليه وهو يثني إبهامه ثم سـألني عن وجهتنـا، أجبته بغيظ مكبوت: «إحنا رايحيـن بيتنا في باب اللوق»، تفحصنا لحظـات ثم صرفنـا دون أن يطلب منا الهويات، وكنا قـد اقتربنا من الجراج وأنـا أتمنـى أن ملاكًا محبًّا لرسـوم الكرتـون يمد خط المسـافة بين الجراج ومكانـي الآنـي إلـى أطـول ما يمكـن كي نظـل سـائرين، وكنت غيـر عابئ بآلام القدم وبرئتي التي تتقلص كثيرًا وتكاد تخنقني وبالسـعال الذي شـرخ زوري، ووسـط كل هذا وجدتها تنظر لي وتقول سـاخرة: «رايحين بيتنا في باب اللوق!».. وسـكت تمامًا، فماذا أقول لهذه المخلوقة؟ ضابط يستوقفنا وبجـواره جنديـان وسـونكي بنادقهما مشـرع في جسـدينا وخلفهم سـيارة مملـوءة بجنـود متحفزين للقتال.. ماذا أقول له؟ ذاهب لتوصيل الأسـتاذة؟ أنـا آسـف لا أريد ملائكة ولا زبانية ولا خطوطًـا تمد أو تقصر. أريد فقط أن أصل بيتي وأنام و«إن شا الله ما قمت»..

فوجئـت بها تنظـر لي وهي وراء دريكسـيون سـيارتها وتسـألني: «إنت سـارح فـي إيه يا أحمد؟ أنا ناديـت عليك مرتين»، قلت لهـا إن الغاز ما زال

يحرق عيني، فضحكت وقالت: «عشـان مش لابـس نضارة زيي.. إنت بعد كـده تلبـس نضارة شـمس.. أنا الظاهـر صحتي جت على الغـاز كان عندي بوادر إنفلونزا ولما شـميت الغاز خفيت»، ثم انطلقت وتركت لي ضحكتها التي كلما تجاهلتها وأنا في طريقي عادت وتأبطت يدي من جديد.

وقفلتنـي «جيهـان» تمامًا فـي تلك الليلة وسـدت رغبتي التـي راودتني ونحن نسـير معًا بأن أول شـيء سـأفعله عند عودتي أن أتصـل وأطمئن أنها اجتـازت الأكمنة ولم يضايقها أحد، وكنت سـأفعل ذلك رغم أني أقسـمت مـن مدة قريبة بـألا أتصل بها عقـب أي خروجة تجمعنا معًـا، لأني اتصلت بها عقب وقفة كنيسـة القديسـين لأطمئن على وصولها البيت، وكانت أول كلمة قالتها لي وهي تسـتقبل اتصالي: «أيوه يا أحمد في حاجة ضاعت منك واحنا في المظاهرة؟»، نفيت ذلك بدهشـة وأخبرتها بالسـبب الحقيقي وهو الاطمئنان عليها وعلى وصولها البيت سالمة. صمت طويل ثقيل ثم رد بائخ رخم تلقيته منها كالآتي: «أحمد هو إنت بتوصل طفل الحضانة وعايز تطمن دخل الفصل ولا مادخلش؟ أنا بخير وبعد كده كل ما أمشـي عشـرة متر في الشارع حاطمنك».

اليـوم كان عنـدي حجة للاتصـال لكنها بططتها بكلامهـا الذي غاظني، لـذا لـن أتصل ولن أسـأل عنهـا ولن أفكر حتى فـي اللحظات التـي جمعتنا اليوم ولا في أحداث اليوم نفسـه، ولم أفتح الكمبيوتر لكي أعرف حتى ماذا دار فـي المناطق الأخرى وباقي محافظات مصـر، ولم أتصل بـ«عماد» كي أطمئـن عليه وأكذب عليه أيضًا وأقول إني كنـت في مكان آخر، ولن أتصل بـ«خيري» الذي طلب مني أن أتصل به ليلًا كي يبلغني بترتيبات الغد.

ومر اليوم التالي كما توقعت بلا أحداث وكأن شيئًا لم يحدث بالأمس؛ لا مصابين ولا شهداء كما كان «خيري» يحدثنا عن إصابتهم القاتلة برصاص الخرطوش، وبدا الأمر وكأنها دورة جديدة من دورات الانتفاضات الثورية المحدودة، وكنت قد تجنبت المرور على «عماد» في المديرية خشية أن أراهم منهمكين في وضع قوائم للنشطاء السياسيين فأستاء من ذلك، وفي الشركة أخبرني مهندس التنفيذ بأن الفيلا الخاصة بصديقة «كارولين» أنهوا حفرها وسيصبون قواعدها العادية والخرسانية في بداية الأسبوع القادم، وسألني إن كنت أحب أن ألقي نظرة أو أستلم الخشب والتسليح بنفسي، فطلبت منه أن يبلغني فور انتهاء الحداد كي أراجع التسليح، ثم اتصل بي «عماد» وكان صوته عاديًّا وبادرته بأني كنت على موعد مع «جيهان» في أمريكين طلعت حرب وعندما غادرنا وجدنا بعض القلق في الشارع، قال ببساطة: «العيال ولاد الوسخة عايزين يقلدوا اللي حصل في تونس بس خدوا علقة العمر واحنا حاليًا عمالين نلم فيهم»، سألته هل عنده نية للسهر في المساء، فضحك وهو يقول: «يا عم هو انت بقيت فاضيلنا ربنا يهني سعيد بسعيدة وأنا كمان الشغل واخدني ومش قادر أفلفص من الاستدعاءات وأنا حابب كده عشان البلد دي تنضف.. لكن عمومًا في خلال يومين تلاتة حافضالك ونسهر سهرة جامدة بمناسبة القضاء على الواغش.. وحبك الجديد».

وكانت ثقة «عماد» المفرطة التي يتكلم بها قد أقلقتني جدًّا وبددت تمامًا أحلام اليقظة التي سربها «خيري» داخلي، وقبيل انصرافي من الشركة اتصل «خيري» وبكلمات مقتضبة جدًّا قال إنه سيتواجد في وسط البلد وقد يمر عليَّ في المنزل ليلًا لو ظروفي تسمح، وأبديت ترحيبي بالطبع لكنه أغلق

الخط سـريعًا، وظللت فترة مندهشًـا مـن هذا الاتصال الغريب وتوجسـت قليـلًا خاصة أنه لم يطلب مني لقاءه على أحـد المقاهي كالمعتاد وفضل أن نلتقي في البيت.

وكان «خيري» متحمسًـا بدرجة أشـد ومتفائلًا وظل يحكي لي أن الأمر قـد أفلـت مـن الحكومـة وأن الحشـود تتجمـع، وأن وزارة الداخلية بدأت تحـذر مـن أعمال شـغب علـى الممتلـكات العامـة والخاصة كأنهـا تعطي إذنًـا للبلطجية بالتدخل، وأن قنوات التلفزيون تذيع أفلامًا عن الجاسوسـية للتشـكيك فـي المتظاهريـن، قلـت لـه معترضًا إنه لـم يحدث شـيء اليوم، فابتسـم ابتسـامة الخبير وهو يقول: «إيـش عرفك إنت بتاخـد مصادرك من تلفزيـون الحكومـة؟»، قلت له إني لا أشـاهد التلفزيون مـن أصله لكن في ذهابي وعودتي من الشركة لم أرَ ما يريب، سألني بعد أن نظر إلى ساعته هل يمكـن أن يبيـت معي؟ ووافقت بسـرعة وأنا أؤكد له أني كنت سـأطلب منه ذلك، ثم سـألته إن كان يحب أن يشـرب معي كأسًا فقال مبتسمًا: «يا ريت»، ودخلـت لأعد المزة وأحضر الزجاجة ومسـتلزماتها، وعندما عدت وجدته قـد أخرج من حقيبته بعض الأوراق البيضاء السـميكة مقاس 20 × 30 سـم وكان يكتب عليها بقلم عريض شـعارات سياسية لزوم الغد، كانت شعاراته قوية ومختصرة لكن خطه السيئ المتعرج قلل من تأثيرها، أخذت منه القلم وفـردت ورقـة أمامـي وطلبت منـه أن يمليني، وبـدأ يتابع خطي بدهشـة ثم بإعجـاب ومزق الورق الـذي كتبه وجعلني أعيد نسـخه، ومن تلك اللحظة صرت خطاط الثـورة كما كان «خيري» قد أطلق عليها، وخلال اليوم التالي الموافـق الخميـس 27 ينايـر كما أكد «خيـري» عليَّ أن أحفـظ تاريخ الأيام

جيدًا لأنها ستخلد في التاريخ وهو يتابع ابتساماتي الساخرة بدهشة، وفي ذلك اليوم كنت بمعية «خيري» ورفاقه في وضع الحركة والسكون، نتجمع في أماكن متفرقة بعيدة عن التحرير ثم نقترب من الميدان فتنهال علينا قنابل الغاز فنتقهقر بسرعة، ثم نختار مكانًا نستريح فيه ونحسب خسائرنا التي كنت أظن قائليها يبالغون في حقيقتها، كنت أسمع أصوات فرقعات لكني لم أكن أجيد التمييز بين طلقات الرش والخرطوش مثلهم، وكنت أكتب لهم لافتات جديدة في فترات الراحة، ولفت نظري أن سقف المطالب كان يرتفع بمعدل كبير على مدار اليوم، لكن رغم هذه الجرأة الكبيرة التي انتابتني ولم أكن أعتقد أنها ستحل بي في يوم من الأيام، والتي لم أكن أعرف سببًا لها غير أني زهقت وأرغب في الانتحار، بالرغم من ذلك كنت أحس بأني مهمش.. ما زلت على الهامش لا أتقدم إلى الصفوف الأولى وأحرص أن أكون من أوائل الفارين، وقبيل الدخول في أي مكان به شبهة خطر أتفحص بعيني الأبنية وشرفاتها وأسطحها خوفًا من القناصة الذين قالوا إنهم يترصدون بنا، وكانت «بسمة» قد حضرت في حوالي الساعة الرابعة و«خيري» منشغلًا بالأحداث فطلب مني على استحياء أن أقابلها بعيدًا عن الميدان وأجلس معها وأقنعها بعدم الدخول حتى لا تتأذى، لأن الأمن فقد صبره ومن المتوقع أن يتعامل بوحشية وأن أؤكد لها أنه سيلحق بنا بسرعة، رغم أني فعلت ما طلبه مني بالضبط إلا أن ذلك ضايقني جدًّا على اعتبار أنه عاملني مثل «بسمة» كأننا محمية طبيعية يجب ألا تمس، كما أن «بسمة» أفقدتني صوابي بمحاولتها المتكررة دخول الميدان وبتعمدها أن تسألني عن سبب عدم حضور «جيهان» مع أنها اتفقت معها على المجيء، ولم أرد

فطلبت مني أن أتصل بها لكي أعرف هل نزلت أم لا؟ بحجة أنها اتصلت بها ثلاث مرات ولم ترد، مما دعاني لأن أقول لها في ضيق إني لن أستدعي أحدًا ولن أفرض رغبتي على أحد، ونسيت «بسمة» همها لدقائق كانت خلالها تنظر لي بدهشة بالغة، وعندما تأخر «خيري» صممت «بسمة» على دخول الميدان فطاوعتها، وهناك لقينا أشد المتاعب وفقدنا أثر «خيري» وانهال علينا الغاز وعرقلتنا جحافل الفلول الهاربة من الخرطوش والرصاص الحي، واستطعت أن أنزوي بها في أحد الممرات وكانت تبكي هلعًا على «خيري» الذي لا تعرف مصيره وكنت على يقين من أنه بخير، لكن سيارات الأمن المكلفة بالتشويش على منطقة الميدان وما يجاورها نجحت تمامًا في ألا نتواصل عبر الأجهزة المحمولة، وكان مزيج الخل والدقيق الذي دهنت به إحدى الفتيات وجهينا قد أراحني من تأثير الغاز قليلًا، ولم تتوقف «بسمة» عن البكاء إلا بعد أن توجهت بها إلى مقهى صغير وسط مناور عدد من العمارات، وكان الدخول إليه صعبًا جدًّا لأنه لا بد من النزول إليه عبر عدد من الدرجات الأسمنتية، وكان مغلقًا أمام السيارات وكان مخبئًا ممتازًا دلني عليه «خيري»، وبعد فترة قصيرة دخل «خيري» المقهى وعندما رأته «بسمة» هدأت واستكانت وأخبرته كذبًا أن دموعها من تأثير الغاز.

كان المقهى الصغير يشغي بالثائرين الذين وزعوا علينا علب الكشري التي اشتروها بمساهمات مالية صغيرة من المتواجدين، وبعد أن أكلنا وشربنا وارتحنا طويلًا ونحن نسمع قصص بطولات وشهداء وتحليلات، أمرنا «خيري» بسمت القائد بالخروج للاستطلاع وجاء الاستطلاع في غير صالحنا.. كانت الشوارع مظلمة تمامًا ولا يسير فيها إلا عدد قليل من الناس

فرادى.. ومصفحات الأمن وسيارات الإسعاف تخترقها بسرعات كبيرة.. ولحسن الحظ أن منظرنا لم يلفت نظرهم فيتوقفوا ويعتقلونا ولعل وجود «بسمة» وسطنا وهي تتأبط «خيري» بتعمد صرف نظرهم عنا، ثم سأل «خيري» «بسمة» أين ركنت سيارتها؟ فأخبرته بأنها خشيت من الحضور بها فلا تستطيع الدخول في ميدان التحرير أو تتأذى وهي داخل السيارة لذا ركبت «تاكسي» ونزلت منه عند ميدان الأوبرا، استحسن «خيري» ما فعلته ثم أخبرها بأنه سيوقف لها «تاكسي» تعود به إلى البيت، رفضت وهي تتعلل بأنها ستجد «جيهان» في وسط البلد وستعود معها، لكن «خيري» حسم الأمر وأوقف التاكسي وفتح لها بابه فدخلت دون أن تنبس بكلمة، وبعد ذلك استأذن مني بدعوى ضرورة وجوده في البيت حتى يطمئن أولاده على سلامته، ثم همس لي وهو يشد على يدي بأنه سيصلي صلاة الجمعة غدًا في مسجد صلاح الدين بالمنيل لأن هناك مسيرة ستتجمع عقب الصلاة ووجهتها ميدان التحرير، وسألني عن رغبتي في المجيء؟ قلت له في عجالة إني سأكلمه بعد الصلاة ونلتقي في الميدان.

لم أجد أحدًا منهم في وسط البلد بعد صلاة الجمعة ولم أتوصل هاتفيًا إلى «خيري»، وكنت أسير بمحاذاة المحال المغلقة وكلما دخلت شارعًا اكتشفت مهاربه قبل الدخول، وكلما رأيت تجمعات أمعنت النظر فيهم خوفا من أن يكونوا من الناس الذين تأثروا بما يقوله عنا الإعلام الرسمي ويستعدون لضربنا، ثم بدأ الميدان يمتلئ من جوانبه الخمسة وازدادت الاشتباكات وهرول المتظاهرون في اتجاهات شتى أوقعت ببعضهم أرضًا ودهسوا بالأقدام، وازدادت الفرقعات وأصوات الطلقات وظللتنا سحب

من الغاز، وهرولت بسـرعة ورأيت فيما رأيت سـيارات أمن مركزي مقلوبة ومحترقة وسيارات إسعاف معطوبة بينما المصفحات الصفراء تسعى وراءنا بكل جهدها.. لكني أفلت بتراجعي إلى ميدان عابدين متفاديًا وزارة الداخلية والشـوارع المحيطة بها، واحتميت بمنطقتي دون الصعود إلى شقتي إلى أن نجح «خيري» في الاتصال بي، وأخبرني أنه في مقهى بجوار حلواني الفاليرو بالتوفيقيـة ومعه «بسـمة» وبعـض الرفاق، وعندما وصلـت إليهم فوجئت بـ «جيهـان» بينهم فاكتفيت بتحيتهم دون أن أصافحهم وجلسـت أسـتمع إلى ما كانوا ينصتون إليه قبل حضوري على لسان واحد منهم يضع ضمادة على إحـدى عينيه، وكانـت الضمادة كبيـرة ومغطاة ببقع دم وتـكاد تغطي نصف الخد، وكان في تلك اللحظات يشـلح فردة من بنطلونه ويريهم ندبات كثيرة مـن تأثيـر بنادق الـرش أصيب بها يـوم 25 كما قـال، وقاطعه شـخص آخر يرينـا بعـض آثار الرش في أعلى ذراعه وكان مزهوًّا بها وسـعيدًا، وخشـيت أن يتبـارى كل واحد من الموجودين في اسـتعراض خدوشـه وجروحه في هـذا المـزاد العلني، ولا أجد ما أتباهى به غير كعبـي قدمي اللذين تورما من الجـري، وكنـت مندهشًـا في الوقت نفسـه من «خيـري» الذي لـم يخبرني بوجـود «جيهان» خاصة وقد لاحظت أن مشـروبها قـد نفد، وهذا يدل على وجودهـا منذ فتـرة، وكانت «جيهان» علـى مبعدة مني ويفصلنـي عنها أكثر مـن خمسـة رؤوس أعرف منهم رأسـين فقط عـن طريق «خيـري»، ثم نظر أحدهـم في سـاعته وطلب منَّا أن نتحرك تجاه التحريـر فنهضوا على الفور، واقتـرب مني «خيري» وسـلم بيده وهمس في أذني بأني أسـتطيع انتظارهم فـي المقهى لأني لم أشـرب شـيئًا وأنهم سـيعودون بسـرعة، لكنـي أهملته

ونهضت واتجهت إلى مقدمة المجموعة متعمدًا لأن «جيهان» و«بسمة» وفتاتين أخريين كن في المؤخرة، ولأن شارع طلعت حرب كان مشتعلًا بالصراع غير المتكافئ لوجود عدد كبير من المصفحات والمركبات التي تعلوها مدافع قنابل الغاز، فقد انفلتنا إلى شارع جانبي أوصلنا إلى شارع شامبليون، وفي ميدان عبد المنعم رياض كانت الحرائق في أكثر من موقع وفوارغ الطلقات وكبسولات الغاز في كل مكان، وكان عدد المتظاهرين ضخمًا يتحركون هجومًا إلى الأمام على شكل موجات عاتية ويتراجعون أيضا كذلك، ووجدت نفسي أتحرك دون معاناة جسدية في كل مكان وبلا خوف من إصابات طائشة كأني محمي بحجاب ساحر إفريقي، ورغم ذلك كانت عيناي على «جيهان» ورفيقاتها وصرخت فيهن مرة كي يبعدن عن نهر الطريق الذي تهاجمه مدرعة مجنونة.. وفجأة رأينا العربات والمصفحات تتراجع بسرعة شديدة وسرت الأخبار بأن الثوار قد نجحوا في الاستيلاء على عدد من سيارات الشرطة وعربات الأمن المركزي، ثم وصلتنا أخبار شبه مؤكدة بأن الشرطة قد انسحبت بالكامل فتصاعدت همهمات الفرحة، وتحركنا بحرية أكبر وبحذر أشد خوفًا من الاندفاع المتهور للجموع، وكانت على البعد بجوار الأعلام واللافتات بعض الملابس الرسمية التي تركها خلفهم رجال الشرطة، ثم علمنا أن طلائع من قوات الجيش بدأت في النزول إلى الشوارع وتم الهتاف الحماسي لهم، وفجأة سمعنا ثم تأكدنا من أن هناك قرارًا من الحاكم العسكري بفرض حظر التجول بداية من الساعة السادسة مساءً ووقعنا في حيص بيص لأن زمن بدء سريانه سيحل بعد نصف ساعة بالضبط. وقالت «جيهان» إنها ركنت سيارتها

في جراج الأوبرا ثم طلبت من «بسـمة» أن تبيت معها لصعوبة وصولها إلى المعـادي قبل موعد الحظـر، وتحركت «جيهان» بعجالة وترددت «بسـمة» لثـوانٍ حتـى زغـر لها «خيـري» وهو يطلـب منهـا أن توقف «جيهـان» لأننا سـنوصلها، ووجدت نفسـي متورطًا في موكب توصيلها إلى الجراج، وكنا نسـير كلعبة الكراسـي الموسـيقية مَن يكن على اليسـار يصبـح على اليمين بعـد خطوات، وأنا و«خيري» نحيط بهما وسـط ناس متعجلين سـائرين في نفـس اتجاهنا أو قادمين نحونا، وندور حول دبابـات ومصفحات واقفة في عـرض الطريق ونمر أحيانًا بين متاريس أقيمت بعجالة، ولم أكن قد تبادلت مع «جيهان» إلا بضع كلمات منذ أن رأيتها هي تحيات مقتضبة وسـؤال عن الحال، ثم أجبرنا على المرور على شـكل طابور بين مدرعتين اقتسـمتا نهر الطريـق أمام البنك المركزي وعدة بنوك محلية، وكانت «جيهان» في مقدمة الطابور تليها «بسمة» ثم «خيري» وأنا بعدهم، والتفتت «بسمة» إلى «خيري» وسـألته بقلق هل سـينجح فـي الوصول إلى بيتـه قبل السادسـة فأخبرها أنه سـيبيت في أحد فنادق وسـط البلد ليتابـع الأحداث، وعندمـا تجاوزنا هذا الممـر الضيق وكنا على وشـك الوصـول إلى جراج الأوبرا كانت «بسـمة» تحـاول إثنـاءه عن فكرة المبيت في فندق في وسـط البلـد بالذات لأن ذلك قـد يعرضه للقبض عليـه، وكانت محقة تمامًا في ذلك، وإن كنت متأكدًا من أن محاولتهـا إبعاده عن المبيـت في الفنادق كانت بغرض إقناعه بمرافقتهما ولا يصبـح هناك مفـر أمام «جيهان» إلا اسـتضافته، وكنت فـي ذات الوقت مندهشًـا مـن أنه لم يقـل إنه سـيبيت معي. ولم أشـأ التدخـل لحظتها فربما أفسـدت خطة فـي دماغ «خيـري» لا يريدهما أن يعلما بها، لكـن لما احتدم

النقاش مع كل مظاهر الذعر في الشـارع التي منها هرولة الناس تجاه مدخل متـرو أنفـاق محطة العتبـة التي مررنـا عليها منـذ لحظات، قلت بحسـم إن «خيري» سيبيت معي، ووجمت «بسمة» للحظات ونطقت «جيهان» أخيرًا: «أحمد بيتكلم صح.. أحسـن حاجة إن خيري يبات معاه»، وتم حسـم الأمر وكان قـد انقضـى مـن نصف السـاعة الباقية عشـر دقائق فهرعـت «جيهان» و«بسـمة» تجاه مصعد الجراج وتذكرت «جيهان» قبل غلق الباب أن تحيينا بيدها، وفي البيت سـألته لماذا لـم يخبر «بسـمة» من البداية أنه سيبيت معي؟ فقال ضاحكًا: «مش كل حاجة تتقال للسـتات يـا أحمد.. لو كنت قلت كده من الأول حتتصور بسمة إني واخد إذن منك أروح وآجي على الشقة ومش بعيـد لمـا نتزنق في الشـوارع الأيام الجايـة تقول مش هاقدر أروح وتسـتنى تعزم عليها بالبيات». اندهشـت لكني لـم أعلق، وبعد أن تعشينا معًا وتحدثنا كثيـرًا عـن تصوراتنا لما قد يحدث، سـألني «خيري» أين مـكان التلفزيون؟ فأخبرتـه بأني تخلصت منـه منذ زمن. فضحك وقال عنـدك حق، ثم عكف علـى الكمبيوتر وكانت سـرعة جهازي بطيئة اشـتكى منها عـدة مرات حتى أغلقه يائسًـا وسـحب كتابًا من المكتبة ورقد بجواري يقرأه، وكنت في قلق على «عماد» لكني تجنبت مكالمته حتى لا يظن أني أشمت به، أو أسمع منه تهوينًا مما حدث وتهديدًا بما هو قادم، وتعطلت الخطوط بعض الوقت أثناء محاولة «خيري» الاتصال بعائلته فطلبت منه أن يجرب الخط الأرضي وفعلًا تمكن من مكالمتهم، وعندما اقتربت السـاعة من العاشـرة والنصف بعد أن احتسـينا بضع كئـوس توقف «خيري» طالبًا مني أن نحـاول النوم مبكرًا لأن الغد سـيكون يومًا طويلًا، ويتوقع أنهم سـيقاومون الثوار بأعنف الطرق، ثم

استأذن «خيري» في الاتصال بـ«بسمة» وظل يكلمها وهو مضطجع بجواري لمدة تزيد على نصف الساعة، وكنت أغالب النوم ثم يقهرني وأصحو لأجده يتكلم بصوت كسول وسماعة التليفون في راحة كفه وملاصقة لأذنه، وقد تراخت كفه مرة فسقطت السماعة بين ثنايا اللحاف وجذبها من السلك ثم عاد إلى وضعه السابق، وتخيلت للحظات أن «جيهان» ترقد الآن بجوار «بسمة» وتستمع إلى ما تقوله لـ«خيري»، وتتخيلني في وضعي هذا وتريد أن تتكلم معي كما أريد بالضبط، وتضم قبضة يدها كما أضمها الآن وتضعها مثلي بجوار أذنها وتتخيل أنها تكلمني وأكلمها..

صحوت مبكرًا في حدود السابعة صباحًا لكني لم أجد «خيري» بجواري إنما وجدت ورقة كتب فيها أنه ذهب إلى الميدان، ولم أتمكن من التواصل معه هاتفيًّا فذهبت وراءه أستطلع الأمور، وعن طريق الدروب المتعرجة التي اكتشفت أمانها وصلت إلى الميدان فوجدت به أعدادًا كبيرة إلى درجة ملفتة وشعارات مرفوعة كصواري السفن العملاقة وأعلامًا ومتاريس تغلق البوابات يقف عليها شباب، قالوا إنهم من اللجان الثورية وفحصوا هويتي ثم أدخلوني، ولففت الميدان كله خلف مسيرات تهتف ضد النظام وكنت أتراجع عند زواياه التي تحددها مدرعات الجيش، وبذلت جهدًا جبارًا حتى وجدت «خيري» يقف أمام فتحة خيمة في منتصف الميدان بجوار عدد كبير من الخيام الأخرى تتوسطهم خيمة كبيرة موضوع عليها لافتة باسم المستشفى الميداني، سحبني «خيري» إلى الداخل وأخبرني بأن الثوار عند بداية الحظر دخلوا إلى الميدان في مجموعات كبيرة لينضموا إلى القلة الموجودة والتي كانت تدافع عن مواقعها بعد انسحاب الأمن بضراوة،

وأخبرني أيضًا بأن قوات غير محددة الملامح هاجمت الميدان مرتين ليلًا، مرة الساعة الواحدة صباحًا ومرة في الفجر وأطلقوا بعض الرصاص الحي وقتلوا بعض الموجودين، لكنهم في النهاية انسحبوا ولم يتمكنوا من دخول الميدان.

***

الصمود في الميدان جعل الناس تتوافد عليه وتطمئن وأصبح لا خوف علينا ونحن وسط الجموع، الإشاعات والمخاوف كانت كلها منصبة على أطراف الميدان حيث القناصة ومَن يخطفون الثوار ويقتلونهم ويلقون بجثثهم في مقالب القمامة.. وكان «خيري» قد سحبني من يدي عندما أبديت تشككي إلى الجزء المحصور بين مجمع التحرير وجامع عمر مكرم؛ حيث أشار إلى بقعة كبيرة من الدماء القانية التي حوطها الموجودون بقوالب الطوب وقال إنها دماء شهيد قنصوه عند الفجر، وأصبت برعدة خفيفة وتراجعت بسرعة ثم سرعان ما نسيت ما رأيته عندما انهمكت داخل الخيمة أكتب اللافتات.. «الشعب يريد إسقاط النظام»، وغيرها من الشعارات المتجددة وعثر «خيري» في مروره المتكرر على لجان أمن الميدان على «بسمة» و«جيهان» واتجه بهما إلى الخيمة، وبينما كنت منهمكًا في تجويد خطي على إحدى اللافتات وجدت صوتًا رقيقًا يهمس: «برافو عليك يا أحمد»، وأحسست أن ثمة مكافأة نلتها على واجب فالتفت إلى «جيهان» وابتسمت، وعندما انتهى ما أنا مكلف به وجدت «جيهان» تعدل عدسات الكاميرا ثم تسألني إن كنت أرغب في مصاحبتها وهي تلتقط صور المتظاهرين، وكان الأمر شاقًّا جدًّا أكثر مما أتوقع، كانت تسبقني بخطوة

والكاميرا تخفي نصف وجهها، وأنا أحاول تجنيبها الاحتكاك الجسدي من المندسين أو النشالين أو الذين أتوا ليتصوروا ويتفانوا في اتخاذ «بوزات» أمام الكاميرا، وكان الإعلام الرسمي يحاربنا بضراوة ويطلق علينا العملاء وأصحاب الأجندات والممولين، وكان بعض المحسوبين علينا يضايقون «جيهان» وهم يسألونها بإنجليزية رديئة: «من أي بلد أنتِ؟!»، وكنت أرد بغلاسة وأنا أفهمهم أنها مصرية حتى لا يظنوا أنها عكس ذلك ويؤذونها فيما بعد، وظلت الاتصالات مقطوعة حتى بعد أن رحلت «جيهان» وجرجرت معها «بسمة» التي كانت ترغب في تجربة النوم في الخيام كبعض الثوريات الموجودات، واختصتني «جيهان» بالكلام وقالت إنها ستأتي في العاشرة صباحًا بأطعمة ومياه معدنية بعد أن عرفت بنيتي و«خيري» في المبيت في الميدان، وفعلًا نفذنا ذلك وحدث أن حاولنا الخروج ليلًا لإحضار أطعمة لكن أمن البوابات حذرونا بشدة، وصوت الطلقات الذي يأتي من بعيد جعلنا نعود واكتفينا بما وزعه علينا الرفاق من الأطعمة الشعبية والسميط، وهاجمنا الليل و«خيري» مع بعض رفاقه يضعون ورديات لأفراد أمن البوابة ويختبرونهم حتى لا يندس بينهم شرطي أو عضو حزب وطني أو موظفو الجهات السيادية، وعندما هدأت الأمور دخلنا الخيمة لننام لكني استيقظت سريعًا لأن الأغطية لم تكن كافية وأخبرت «خيري» برغبتي في الخروج وإحضار بعض البطاطين من البيت فطلب أن يأتي معي ليستطلع الأمور في الخارج، وخرجنا بعد أن أرشدنا أحد أمن البوابة إلى الطرق الآمنة التي نتجنب فيها البلطجية ومدرعات الجيش، وكانت الحواجز قد انتشرت في أغلب الشوارع المحيطة بالميدان وظهرت الأسلاك الشائكة للمرة الأولى على ما أعتقد، وتجنبنا ما أمكن منها وبخاصة لجنتان من اللجان الشعبية،

الأولى كانت عند وزارة الأوقاف، وقد سمحوا لنا بالمرور بعد أن أبرزنا بطاقتينا وادعينا أننا نبحث عن صيدلية لشراء دواء ضروري، والثانية عند ميدان عابدين وقد تعرف بعضهم على وجهي فحيوني باحترام مبالغ فيه أرجعته إلى أنهم رأوني أكثر من مرة و«عماد» يوصلني إلى البيت وكانوا يعرفون أنه ضابط كبير في الداخلية.

بمجرد الدخول طلب «خيري» مني حزم البطاطين التي سننزل بها، وعندما أخبرته بصعوبة النزول بهذه البطاطين والأغطية والحظر لم يزل ساريًا، نظر لي بدهشة وقال: «أمال إحنا جايين ليه؟»، أخبرته بأن ظهري قد تيبس من النوم على الأرض فوق سجادة لا سمك لها وبحاجتي إلى حمام ساخن، ورجوته أن ننام في الشقة لبضع ساعات فقط حتى نصبح قادرين في الغد على مواصلة التظاهر، نظر إلى محموله وقال: «ثلاث ساعات نوم تكفي»، وضبط المنبه ليوقظنا في السابعة فأسرعت بأخذ حمامي، بينما قال «خيري» إنه سيذهب مبكرًا في الغد إلى بيته ليطمئن على الأولاد ويغير ملابسه ثم يعود، ولما خرجت من الحمام وجدته قد نام تمامًا وتجهزت لكي أضطجع على السرير غير أن رنين هاتف المنزل أوقف حركتي، وأسرعت بالاتجاه إليه متصورًا أن «بسمة» تجرب الاتصال لعلها تجد «خيري» في المنزل، وخاب ظني فالمتصل كان «عماد» ومن الواضح أنه كان في حالة من السكر البين، كان يبدو مذهولًا وغير مصدق ووصلني خوفه وقلقه وهو يمزج الضحك بالبكاء ويخبرني بصوت مترنح بأن اللجنة الشعبية التي نصبها صبيع الشارع قد استوقفته ولم يكن موعد بدء الحظر قد حلّ، وطلبوا الاطلاع على هويته رغم أنهم يعرفونه وفتشوا حقيبة سيارته ووجدوا زجاجة

الويسكي وصندوق البيرة الذي نزل خصيصًا لشرائها، فقالوا كلامًا سخيفًا عن مشترياته وعن سكره وكانوا يحاولون بشتى الطرق استفزازه والاحتكاك به، وفي كل لحظة تمر يزدادون عددًا ورغبة في التنكيل به وبدأوا يسبون الشرطة والعاملين فيها ويتهمونهم بالشذوذ، وأقسم لي «عماد» أنه لو كان معه مسدسه لأطلق النار عليهم ثم على نفسه، وأنقذ الموقف وقوف سيارة أخرى للتفتيش كان بها طبيب من جيران «عماد» وكانوا يعرفونه وأشاروا له بالمرور، لكنه نزل من السيارة وتوسط لـ «عماد» فقبلوا الوساطة.. لم أجد ما أقوله لـ «عماد» إلا إنني سأمر عليه في الصباح، لكنه طلب بإلحاح ألا أفعل ذلك وطمأنني بأنه متماسك وأضاف أنه سيمر عليَّ في عابدين بالملابس المدنية لنذهب ونتفرج على ما يحدث في التحرير.

أحسست بتقلب «خيري» في السرير وأنا أتهامس مع «عماد» في التليفون لكنني عندما أنهيت المكالمة وجدته نائمًا بعمق، وفوجئت به عند السابعة صباحًا قائمًا على رأسي يوقظني حتى ننزل سويًّا، ولم ينتظر حتى نفطر أو نغير ريقنا وقال إنه قلق على مَن في الميدان ويجب أن نلحق بهم بسرعة، وعند خروجنا من البيت رأيت بعض أبناء الحتة وسط مجموعة من البلطجية قد أقاموا حواجز من الصاج ووقفوا خلفها بأسلحة قوامها الطوب والعصي والسكاكين الطويلة التي تشبه السيوف الرديئة، وكانوا يجمعون زجاجات المولوتوف التي تصل إليهم من بدروم أحد البيوت القديمة، نظروا تجاهنا في شك فألقيت عليهم السلام وأنا أقول لهم ما كنت أقوله لعمالي: «شدوا حيلكم يا رجالة»، فابتسموا وتطوع أحدهم وقال: «الموضوع كله حيخلص النهارده»، وبعد أن تجاوزناهم ابتسم «خيري» وقال لي: «كويس اللي انت

قلته أنا كنت حاسس إنهم زي الكلاب البوليسية بيشمشموا علينا وهيعرفونا ويعلقونا في بوابة البيت».. ثم فوجئت به يقول لي بتعاطف: «أحمد إنت مش لازم تسيب عماد صاحبك عشان ممكن يتأذى في المكان اللي ساكن فيه، أحسن حل جيبه وقعدوا معاك»، أخبرته بأني سأمر عليه اليوم وأحاول إقناعه، وسكت وأنا أشعر بالخزي والعار لأني انشغلت بما أنا فيه عن «عماد» الذي وقف بجواري كثيرًا، وعزمت على الذهاب إليه قبيل بدء سريان الحظر والمبيت معه ثم إحضاره إلى بيتي صباحًا رغم خطورة ذلك عليّ شخصيًا فأغلب الجيران في الشارع رأوه كثيرًا بالبدلة الميري.

وعندما وصلنا إلى الميدان تأكدت ظنون «خيري» وسمعنا من الزملاء أنه دارت معارك طاحنة في الليل عندما هاجمت مجموعات كبيرة من البلطجية الميدان من مداخله الكثيرة في محاولة لاقتحامه، لكن لم يفلحوا إنما سببوا أضرارًا كثيرة أفدحها أنه نتج عن هجومهم وفاة أربعة شهداء وإصابة أكثر من ثمانية من الثوار، وقد كلفني «خيري» بكتابة لافتة جديدة بشعار جديد بينما اجتمع حوله عدد من منظمي المسيرات والثوار والمكلفين بأمن مداخل الميدان وسمعته ينبه عليهم بالتفتيش الدقيق، وبألا يتركوا البوابات مهما كان الثمن ويحذرهم من أن أنصار النظام سيحاولون اقتحام الميدان بشتى الطرق لإجلاء الثوار منه، وأنهم إن نجحوا في ذلك ستتعلق كلنا من رقابنا في الميدان، وهذا ليس كل شيء فسيظل هذا الميدان يزعجهم ويقلق مضاجعهم وأنهم في النهاية سيبنون عمارات ومباني في حرمه حتى يلغوه نهائيًا، وبينما هو يتحدث أتى أحد القادمين وأخبره بأن هناك معركة كبيرة من جهة فندق سميراميس في محاولة لدخول الميدان من بوابة جامع عمر

مكـرم، كمـا أن البلطجية يهاجمون سـيارات المتطوعين التـي تحمل المياه والأطعمة، وهنا نظر «خيري» تجاهي وسـأل عن السـاعة وعندما عرف أنها التاسـعة اقترب مني وهمس أنه سـيخرج كي ينتظر سـيارة «جيهان» ويدلها علـى طريـق بوابـة الجامعة الأمريكية وسـينبه أفراد حراسـتها بالسـماح لها بالدخـول لإنـزال الأطعمة ثم العودة بسـرعة، ثم توجه ناحيـة فتحة الخيمة وعاد بسـرعة ليسـألني إن كنت أرغب في الذهاب معه؟ انهمكت في الورق الذي أمامي وطلبت منه أن يذهب بدوني لأني سـأتفرغ لاستنسـاخ الشـعار الجديد، وخرج وكانت تأتيني أخبار عن معارك من جهات مختلفة وتصرخ فـي أذنـي الميكروفونـات المنشـورة فـي الميـدان، والتـي تحذر بيـن الفينة والأخـرى مـن أن هناك بلطجيـة يحاولون اقتحـام بوابة ما، وتناشـد الناس بالتجمع أمام هذه البوابة لحمايتها، وكنت قلقًا بعض الشـيء على «خيري» و«جيهان» و«بسمة» و«عماد» واكتشفت أني غير قلق على نفسي واندهشت لذلك، وفات وقت كثير لـم أتمكن من تقديره حتى دخل «خيري» ومن خلفه «بسـمة» و«جيهان»، وسلمت «بسـمة» عليَّ بحرارة بينما ابتسمت «جيهان» وهـي تمعن النظـر فيما أكتبـه، وعندما انتهيت مـن اللافتة التـي كنت منكبًّا عليها طلبت مني «جيهان» أن أتوقف، ثم جلسـت بجواري وتبعتها «بسمة» و«عماد» وفتحت «بسـمة» لفة بها بعض الساندوتشـات وضعتها بيننا وأكلنا كلنـا من الأكل الذي أعدته «جيهان» كما أخبرتنا «بسـمة» بذلك، ثم شـربنا الشـاي من «تُرمُـس» أتيتا به مـع الأكل، وقال «خيري» إنه سـيخرج لمتابعة المسـيرات الجديدة وهرعت «بسمة» وراءه، وقالت لي «جيهان» إنها تنوي أن تصـور الوجوه الجديـدة المعتصمة في الميـدان، وانتظرتني حتى لففت الأوراق التي كتبتها ثم خرجنا سويًّا من الخيمة، وكنت قد ألممت بالأماكن

الشائكة في الميدان لذا توجهت بها إلى الأماكن الهادئة، واكتشفت «جيهان» ذلك بسهولة فعاتبتني بغضب: «أحمد أنا مش سايحة جاية أتفرج على الأهرامات.. إنت من نص ساعة عمال تلف بينا حتت على الجوانب فيها ناس قليلة.. أنا عايزة أصور الأحداث والمسيرات.. ومش عايزة حد يخاف عليَّ.. ممكن؟»، لم أنطق إنما دخلت معها في مناطق التلاحم والتكدس وكادت تداس أكثر من مرة، وفي النهاية وجدتها تنظر إلى شرفات العمارات المحيطة بالميدان والتي بها بعض السكان يتابعون ما يحدث في الأسفل، وأخبرتني أنها تتمنى أن تتاح لها فرصة التصوير من إحدى هذه الشرفات، قلت لها إني سأتصرف، وعدت بها إلى الخيمة منتظرًا «مراد» أحد زملاء ميدان التحرير القاطن في شقة بالميدان وقد صعدنا إليه أنا و«خيري» أكثر من مرة لاستخدام الحمام، وعندما أتى أخبرته بطلب «جيهان» فرحب بشدة، واستهبلت وأنا أطلب من «جيهان» أن تصعد معه لكي تصور ما تريد فنظرت لي بغضب، ابتسمت وصعدت معهما وقابلنا «أم مراد» وشقيقتيه التي أكبرهما في سن العشرين، واللتين كانتا تتلصصان علينا بلطف بعد أن تسلما علينا، واطمأنت «جيهان» تمامًا لهن، وتركتها بالشرفة تصور بعد أن حذرتها برفق من الشرفات المحيطة التي قد يكون بها بعض القناصة كما أخبروني، ونزلت أنا و«مراد» بعد أن طلبت مني «جيهان» العودة بعد ساعة لأخذها، ورجعت في الوقت المحدد وأخذتها بصعوبة لتمسك «أم مراد» وشقيقتيه بوجودها معهن ولم يتركنها حتى وعدتهن بالحضور إليهن كلما تواجدت بالميدان، وبينما «أم مراد» تسلم علينا طلبت مني أن آخذ بالي من «جيهان»، فارتبكت وفي ظني أن «جيهان» ستتنرفز كعادتها لكنها ابتسمت وقبلت السيدة وابنتيها.

دُرنا بعد ذلـك دورة كاملة في الميدان وكنت أرقبها وأحمي ظهرها وأنا مشـغول جدًّا بــ «عماد» وبما قد يفعلـه من تهور أو جنون، وفـي التفاتة من التفاتـات «جيهان» أحسـت بكدري وضيقي فسـألتني وأخبرتهـا بالمكالمة بالتفصيـل، وفوجئـت بأن «جيهـان» تأمرني بتـرك كل شـيء والذهاب إلى «عماد» في الحال، أخبرتها أني سـأفعل ذلك قبل بدء الحظر بسـاعة، لكنها نهرتنـي بشـدة وعنفتني لأنـي لم أذهب إليـه بمجرد انتهـاء مكالمته لأنه في ظـرف صعـب لم يتوقـع حدوثـه مطلقًا وأنـه قد يـؤذي نفسـه أو الآخرين، اقتنعـت وأخبرتهـا أني سـأعود بهـا إلـى الخيمـة وعندما يحضـر «خيري» و«بسـمة» سـأتركها معهما وأذهب إليـه، ووجدتها تتوقف فجـأة وهي تنظر نحـوي بتعجـب وضيق شـديدين وأخافتني إلـى درجـة أن آلاف الناس في الميـدان اختفـوا فجأة وبقيـت عينا «جيهـان» الحمراوان وصوتهـا الحانق: «أحمـد.. إمشـي دلوقت مـن قدامي.. هو أنـا بضاعة هتسـلمها.. ولا طفلة تايهة من أهلها»، حاولت أن أتكلم لكنها استطردت بنفس الغضب: «إمشي دلوقت من فضلك وروحله».

وبعـد أن سـرت خطوتين وجدتها تلحـق بي وتخبرني بأنها سـتوصلني بسيارتها، كنت لا أزال مأخوذًا من حدتها لذا رفضت عرضها وأخبرتها بأني سـأتصرف وسـأعود مرة أخرى إلى الميدان.. وبينما بوابة الميدان تلوح لي بجانبيها المحتشـدين بطابورين من الرجال والنسـاء.. كنت لا أزال مندهشًا من عرضها لتوصيلي بسيارتها.

***

فوجئت عندما وصلت أمام شقة «عماد» في الثالثة ظهرًا بأن اللافتة النحاسية التي تبين هويته منزوعة من الباب، واندهشت لموضوع اللافتات النحاسية معي، أولًا لافتة خالي ثم لافتة كلب «شريف» ثم لافتة «عماد»، كلها تم تركيبها بحرص زائد من أصحابها وباهتمام، ثم نزعت بسرعة وبإهمال.. وأنا لم أضع لافتة باسمي في شركتي أو على باب شقتي كأني أعترف ضمنًا بأني غير موجود من الأصل.

فتح لي «عماد» بعد فترة عندما نظر في عدسة الباب السحرية. ووجدت السكر قد أنهكه أو لعلها الهزيمة. وظل يهذي ويسب ويلعن في الأولاد التافهين الذين سيدمرون البلد، ولم أفهم كيف هم تافهون وفي نفس الوقت قادرون على زعزعة أمن الوطن، وقال إنهم سيعودون أشرس مما قبل ولن يقبضوا على أحد بعد اليوم ولكن سيبخرونه أو يذيبونه في حمض الكبريتيك المركز، وأخبرني بأسى إن كنت أصدق أنه سمع بأذنيه الحرافيش والعاملين بالمنطقة الذين كانوا ينحنون عند قدومه أو خروجه يسبونه بالاسم وبصوت جهير ويتندرون فيما بينهم بأنهم سيضعون كل عصي المنطقة في شرجه، ثم بكى، واعترض عندما رفعت زجاجة الويسكي من أمامه لكنه لم يكن قادرًا على نزعها من يدي، ثم استسلم ونام لمدة ساعة وعندما استيقظ أطعمته بيدي من الطعام الذي أعددته في مطبخه وأكلت معه، وكان لا يهضم الأكل بل يكومه في شدقيه ثم يلفظه في منديل كلينيكس أبيض على شكل كرة ويضعها على المنضدة. وابتسمت غصبًا عني لأني تذكرت هدية «ريم» الأخيرة التي على نفس لون المنديل الورقي، وسألني بغضب لماذا أبتسم؟ فأخبرته بمصيرنا المشترك وأنا أشير لبقاياه فضحك جدًّا وقال: «مش أنا

قلتلـك إن احنـا ولاد وسـخة ودي أقل حاجة حتحصلنـا؟»، وطلبت منه أن يجهز نفسـه للإقامة فـي بيتي، لكنه اعترض بشـدة وقال إنه سـينتظر مصيره في شـقته، ثم أخبرني بأن لديه خمس قطع سـلاح ولن يمكن أحدًا من أذيته إلا بعـد انتهاء ذخيرته، سـألته لماذا نزع نحاسـة الباب فقـال بغيظ لأنه كلما دخـل أو خـرج وجد بصاقًا عليها، وطلب مني أن نشـرب سـويًّا بعد الأكل، فرفضت بشدة وصرخت فيه بالتوقف وأمرته بالاستحمام وفعل لكنه رفض مرة أخرى العودة معي، وكان الوقت يمر بسـرعة وكنت قلقًا على «جيهان» وأريد الاطمئنان عليها قبل بدء الحظر لذا ناشـدته المجيء معي وألا يكابر، وذكرتـه بأفضاله نحـوي وبأنني كنت أطيعه. لكنه أصر ثم قال باسـتخفاف: «لـو خايف علـيَّ تعالى اقعد معايا هنا ونلقى مصيرنا سـوا»، ويئسـت تمامًا مـن إمكانية زحزحته عن موقفه، ثم سـمعنا صوت جـرس الباب يرن وكلما طالـت الرنـة كان «عماد» ينكمش أكثر في مقعده ثم أشـار لي بوهن أن أنظر في العدسـة لكي أسـتطلع مَـن القادم، وأوصاني بشـدة ألا أفتـح إلا بعد أن يحضـر طبنجتـه من الداخـل، لكني بمجرد نظـرة عابرة في العدسـة فتحت الباب بسـرعة لأن القادمة كانت «كارولين»، ودهشت لرؤيتها جدًّا بينما ظل «عماد» في مقعده مرعوبًا ومنكمشًا ومنكسرًا.

وقفت «كارولين» أمامه وأمرته بأن يحزم ملابسـه ليقيم عندها، وسكت «عماد» تمامًا وهو ينظر تجاهي كمَن يستنجد بي، لكني خذلته وتوجهت إلى غرفـة نومـه وأنا أطلب منه أن يأتي معي لكي يختار الملابس التي سـيضعها فـي حقيبتـه، وتراخـى «عماد» لحظـات لكن اللهجـة الآمرة لـ «كارولين» ارتفعت فنهض مندهشًا وتبعني إلى غرفة النوم، وظللت معهم حتى انتقلت

الحقائب إلى صندوق سيارتها وعرضت «كارولين» توصيلي لأقرب مكان من وسط البلد لكنني رفضت وعندما انطلقت السيارة من أمامي شعرت براحة شديدة.

لكن أمام السيل المنهمر من السيارات المتدافعة في جنون وعدم وقوف سيارات الأجرة انقلبت سعادتي إلى همٍّ كبير، فقد كنت أتمنى أن تكتمل سعادة اليوم باللحاق بـ «جيهان» قبل أن تنصرف، وفشلت في الوصول إلى الميدان قبيل الحظر وحتى بعد أن أنزلني سائق التاكسي في قلب شارع عماد الدين وهرولت نحو الميدان، منعتني معارك حقيقية في ميدان طلعت حرب وبالقرب من الأوبرا من التوغل أكثر باتجاه الميدان، وكانت الساعة قد تجاوزت بدء سريان الحظر بأكثر من أربعين دقيقة لذا اختصرت الطريق نحو بيتي وقد أيقنت أن «جيهان» و«بسمة» قد رحلتا وقلت لنفسي إني سأحاول الدخول مرة أخرى بعد منتصف الليل، ورقدت مهدودًا ونمت من فرط إحساسي بسوء الحظ، ثم استيقظت على تليفون من «كارولين» تخبرني فيه بأن الأمور تمام، وقالت إنها لن تعيده إلى شقته إلا بعد استقرار الأمور، حذرتها من أن تظهر شفقة ما تجاه «عماد» لأن ذلك سيثيره جدًّا ويحوله إلى مجنون، أبدت اندهاشها من كلامي وهمست بأنها تحب «عماد»، فابتهجت وتمنيت لهما التوفيق، ثم لم أعد التليفون إلى مكانه بل اضطجعت أنتظر مكالمة من «جيهان» ولست أدري السبب لكن إحساسًا ملأني بأنها ستتصل وتطمئن عليَّ، وجاءني الاتصال فعلًا ورفعت السماعة مشدوهًا لصفاء بصيرتي، وأتاني الصوت قويًّا ولائمًا ومباغتًا، كانت «ريم» على الطرف البعيد تصرخ: «أنت فين يا أحمد؟ عمالة أتصل بيك على المحمول من أول

امبارح وكلمتك في البيت أكتر من مرة»، قلت لها إن الاتصالات مقطوعة، فقاطعتني بضيق: «باكلمك من قبل ما تتقطع واتصلت باستيلا وقالت لي في الأول إنهم قاطعين الاتصال على بتوع التحرير إوعى تكون بتروح معاهم يا أحمد.. مافيش فايدة من اللي بيتعمل ده»، سكت تمامًا ولم أنطق، فاستطردت: «صدقني يا أحمد سواء بتوع مبارك كسبوا أو الشباب دول المحصلة واحدة.. اسمع كلامي وهاجر أي بلد أوربي وعيش حياتك.. أحمد أنا مش باقولك كده عشان نرجع لبعض.. أنا خلاص رجعت للبغل اللي كنت متجوزاه.. ورميت طوبة الدنيا.. واحنا الاتنين نستاهل بعض وقاعدين مترصدين لبعض زي اتنين أعداء قدامهم سلاح في نص المسافة بالظبط، وكل واحد عينه على السلاح ده ومستني التاني يغفل شوية عشان يمد إيده ويقتله، أحمد أنا باتصل بيك عشان أقولك حاجة واحدة بس تريحك وتجاوب على السؤال اللي بيحيرك.. أنا عملت كده معاك ليه؟ عشان بصراحة من أول ما عرفتك كنت مستتفهاك قوي وعجبتني منك حتة الشجاعة اللي قربتك مني أول ما اتعرفنا.. واتعاملت معاك على كده.. وبعد شوية لقيتك أحسن من كتير عرفتهم واتخلصت منهم بسرعة.. بس كنت طول الوقت باحس إنك أقل مني وأحيانًا أصغر.. وده كان مخليني مطمئنة إني في أي وقت أقدر أشوطك بره حياتي.. لكن في الفترة الأخيرة إنت قربت مني قوي وبقيت أشعر بالخطر وبقيت باقلق عليك وعايزة أشوفك كتير ولما حصلت مشكلة سويسرا ولقيتك سايب كل حاجة وجاي ورايا لحد فيينا.. كنت الخطر بعينه وحسيت إني مش هاقدر أفلت منك وحسيت إنك كبرت قوي وأنا ما استحقكش.. وكان لازم اتخلص منك وأهينك

عشان ماتفكرش تدور عليَّ تاني.. أنا مش باتكلم عشان أقولك أنا آسفة يا أحمد.. أنا باتصل عشان أقولك إهرب بحياتك من بلاد ملعونة.. وزي ما قلتلك دي معركة خسرانة.. على رأي إبسن.. الأغلبية دائمًا على خطأ»، ضحكت وقلت لها: «بس احنا مش أغلبية»، وفوجئت بها تكمل بجدية مسرحية بعد أن نهرتني كي أسمع رأيه بالكامل: «أما الأقلية فنادرًا ما تكون على صواب».. لأستفزها سألتها: «هو مين إبسن ده؟».. سكتت لحظات ثم قالت بصوت متردد مغتاظ: «أمك يا أحمد»، ولأول مرة أسمعها تتردد في شتم أحد، وأدركت لحظتها اتساع الهوة بيننا، ثم رددت بأسى: «مصيبة يا أحمد لو كنت لسه مافهمتش»، ثم أغلقت الخط بينما أنا أسترجع كلامها ويصعب عليَّ حالها وما آلت إليه لحظات، ثم يوجعني مرة أخرى عقابها فألعن اليوم الذي جمعنا معًا.

حتى جاءتني المكالمة الموعودة من «جيهان» وصح توقعي، سألتني في البداية هل أتيت بـ«عماد»؟ وعندما أجبتها بلا، ارتفعت حدة صوتها إلى ما يقرب من التوبيخ وهي تتعجب من برودي الذي قادني إلى ترك صديقي يعاني أزماته بمفرده، تركتها تلقي ما بجوفها ثم قلت لها: «جيهان أنا ما سبتش عماد في البيت لوحده لأنه مش في البيت دلوقت.. صاحبته جت وخدته وأنا حملت معاهم الشنط»، المفاجأة أسكتتها لوهلة ثم قالت: «كويس عشان لو كنت اتخليت عنه ماكنتش حافوتهالك»، ضحكت وقلت: «هو انتي يعني كنتي بتفوتيلي حاجة؟!»، عبرت جملتي تمامًا ثم قالت: «أنا كان نفسي أبات في الميدان قوي النهارده زي بسمة وخيري»، بدهشة سألتها: «هي بسمة في الميدان دلوقت؟»، غمغمت بنعم فاستطردت: «طب مدام بسمة في الخيمة

ماقعدتيش معاها ليه؟»، أجابت بعد لحظة تردد: «عشان بسمة زي فرقع لوز كل ما خيري حيخرج يتابع الناس هتخرج معاه»، ابتسمت وفي نفس الوقت حافظت على حياد صوتي لذا قلت لها: «ملحوقة بكرة بإذن الله نبات في الميدان»، قالت بسرعة: «إن شاء الله»، سألتها عن موعد حضورها في الغد فقالت: «عشرة الصبح كويس؟»، أجبتها: «كويس قوي تحبي استناكي في حتة وأدخلك الميدان؟»، قالت إنها لن تأتي بالسيارة ويمكن أن تقابلني في أقرب مكان من بيتي، بسعادة خرساء قلت لها أن تطلب من السائق أن ينزلها مكان سينما أوبرا القديم فهي منطقة آمنة بعض الشيء وإنني سأنتظرها هناك، قالت بصوت قوي: «تصبح على خير»، فاندهشت جدًّا وانشغلت عن الرد، فسألتني لماذا لم أرد؟ فضحكت وأنا أقول لها: «أصلك يا جيهان أول مرة تحييني بصوت عالي.. وأنا لما كنت باحييكي في نهاية أي مكالمة ماكنتش باسمع نص الحروف»، ضحكت بشدة وهي تقول: «من هنا ورايح يا أحمد هتسمع كل الحروف».

هذه المكالمة غيرت خطتي من المبيت في الميدان هذه الليلة إلى المبيت في مكاني، وأصبحت في غير حاجة إلى التحقق من مشاعرها بقدر ما أنا في أشد الحاجة إلى لحظة مناسبة وسط هذه الأحداث كي نصبح كيانًا واحدًا، وكانت مشاعر طيبة ومتفائلة تراقصني وهي تهمس في أذني بأني غدًا في أرض الميدان سأحقق أمنيتي، وتدلل على صدق نبوءتها بالاتصال الذي كنت أنتظره من «جيهان» وها قد حدث.

وفي الصباح عندما قابلت «جيهان» وجدت وجهها متجهمًا وسألتها عن السبب فلم تجب، وتضايقت جدًّا لأني اعتقدت أنها عادت إلى سابق عهدها

وبعد أن منتني بالوصل تراجعت، ومشيت بجوارها صامتًا مكتئبًا، وبعد عدة خطوات لمحتها تنظر إليَّ بجانب عينها ثم سألتني إن كنت قد استمعت إلى خطاب الرئيس ليلة أمس، قلت لها بصوت محايد إني لم أهتم أصلًا بخطابه، قالت إنه ألقى خطابًا مؤثرًا لوح فيه بأنه يتمنى أن يموت في مصر ونفى أنه كان يريد أن يورث ابنه، ضحكت وأنا أقول: «هو لسة عايز يلبسنا العمة؟»، لكن «جيهان» لم تبتسم وقالت بخوف: «للأسف الخطاب أثر في ناس كتيرة صحيح إنهم ماكنوش بيشاركوا معانا بس كان فيهم اللي بيتعاطف معانا.. أنا دلوقتي خايفة قوي على الناس اللي في التحرير»، تفهمت منطقها وحاولت أن أقنعها بأن هذا الخطاب جاء متأخرًا جدًّا لحسن الحظ، وأنه لن يؤثر كثيرًا على الموجودين في التحرير وباقي محافظات مصر، قالت وهي تنظر نحوي بود: «أتمنى إن يكون كلامك صحيح»، ثم أخبرتني بأن قنوات التلفزيون الحكومية والخاصة المملوكة لرجال الأعمال استضافت ناسًا كثيرين يناشدون معتصمي التحرير الخروج من الميدان ويعددون محاسن النظام والرئيس، كما استضافوا أدباء وفنانين كانوا يبكون خوفًا على مصر لو نجحت المؤامرة ضد الرئيس، وأنهم استضافوا صديقتها الأديبة «رنا» التي قدمت مشهدًا تراجيديًّا وهي تناشد إخوتها الكتاب من الفنانين الذين انخدعوا بضرورة مغادرة التحرير، هممت بالكلام لكن «جيهان» أشارت لي بألا أقاطعها وأكملت.. وبعد المقابلة مع «رنا» بقليل كلمتها وكانت قد وصلت إلى بيتها ووبختها على ما قالته، وبعد أن سمعت كلامي كله طالبتني ببجاحة وقلة ذوق بأن أطلب من الذين أعرفهم ويقيمون بالتحرير أن يغادروه ويتركوا الرجل العجوز مدة الأشهر الستة الأخيرة في حكمه، وأن يحققوا له أمنيته بالدفن في مصر، بدا واضحًا جدًّا أن «جيهان» في منتهى التأثر من

تبـدل صديقتها فقلت لها كلامًا كثيرًا عن تحـولات الأصدقاء وأن المعارك تفـرز المعادن الأصيلـة حتى قاطعتني وهـي تقول: «أحمـد كل اللي بتقوله عارفـاه وعندي أكتـر منه ورنا صاحبتي من الحضانـة وأعرفها كويس واللي بيحصلها أنا كنت متوقعاه بصورة أو بأخرى.. بس لما حصل اتصدمت فيها جامد.. لأني كنت لسـة براهن على الحتة النضيفة اللي جواها اللي للأسف كانت بتصغر جدًّا في الأيام الأخيرة».

ودخلنا الميدان ورأيت تأثير خطاب ليلة الأمس واضحًا على كل الوجوه المتفقـة معه والرافضة لـه، كان الميدان قد تحول إلى بقـع متناثرة من الناس على شـكل دوائر يتحلقون حولها ويتناقشـون، ومسـيرات تطلب من الناس الراحلة أن تتريث وتنتظر ومشادات وصياح وجلبة، قالت لي «جيهان» وهي تنظر تجاههم بأسـى: «مش قلتلك يا أحمد المرة دي لعبوها صح واسـتغلوا عاطفة الشـعب المصري»، وقابلنـي «خيري» بتجهم شـديد وأخبرني بأنهم أذاعوا الخطاب من شاشات الميدان، وقد تأثرت به مجموعات كبيرة وتركت الميدان، ومجموعات أخرى كانت شـبه محايدة من قبل انقلبت إلى العكس وصارت مؤيدة للثورة، وقال إنه لم ينم دقيقة واحدة منذ ليلة الأمس وإن اليوم أمامنا معركة لإقناع الناس المتواجدين بالصمود والقتال الشرس في حال أن بعض دعاة الاستقرار الذين تأثروا بالخطاب يهاجمون الموجودين، وأضاف أنه يتوقع ذلك وعلينا أن ننتبه ثم انصرف من أمامنا، وترددت «بسـمة» لبضع ثـوانٍ بينه وبين «جيهان» ثـم قبلت «جيهان» وخبطت بكفيها على سـاعديها وهي تستأذنها للحاق بـ«خيري». وابتسمت «جيهان» لي و«بسمة» تهرول في أثره وتتفادى المعوقات التي بينهما سـواء كانت من البشـر أو الجماد بمهارة شديدة، ودرت مع «جيهان» في أرجاء الميدان أتبعها وهي تصور، ثم نستريح

علـى الأرصفة الحجريـة أو الدكك أو نجيلة صينية الميـدان التي تآكلت من وطء الملايين. وقبيل الظهر بدأ الميدان يستعيد رونقه بوفود أشخاص كثيرة أحبطهـم الخطـاب، وارتفعت مرة أخـرى الرايات واللافتـات والأعلام في كل مكان، وانطلقت ميكروفونات أركان الميدان تدعو للحشـد أو تحذر من هجـوم مباغت أو تصدح بالأناشـيد القومية، وتعثرنا في «خيري» و«بسـمة» واحتضنني «خيري» بشدة وقبلني فرحًا بهذا التحول وهمت «بسمة» باحتضان «جيهان» لكن «جيهان» قالت لها بسـخرية مسـموعة: «إيه يا بسـمة هو انتي كل حاجـة يعملها خيري تقلديها.. خـلاص فقدتي ميزة الابتكار»، تجمدت «بسمة» لحظة ثم تنقلت برأسها بيننا وقالت ضاحكة: «أيوه يا جيجي أنا طول عمري إمعة وبحب كده وراضية بكده فيها حاجة دي؟»، ابتسـمنا ثم افترقت عنهما على أن نلتقي في الخيمة، وظللنا لفترة طويلة نصور الأعداد الجديدة من المتظاهرين خاصة الأسر الصغيرة.. أب وأم وطفل أو طفلة محمولة على الكتف أو تتعثر في المشي، كانت «جيهان» تستوقفهم وتستأذن في تصويرهم وتهتم كثيرًا بعلامة النصر الضئيلة جدًّا الصادرة عن هؤلاء الأطفال، وعادت لها بسمتها والتي جعلت بشرتها تتألق بشكل مثير كأن هناك آلاف الومضات الضوئية رابضة خلف بشـرتها، وكادت تتعثر ومددت يدي أعاونها فتساندت عليها وقالت لي: «أنا فرحانة قوي النهارده يا أحمد»، وقبل أن أفهم خطأ من وجهة نظري أسـرعت بالقول: «عشـان حسـاباتي طلعت غلط.. كنت فاكرة إن الميدان حيفضى النهارده.. لقيته كل شـوية بيتملي»، ثم ذهبنا إلى الخيمة وأكلنا مع «خيري» و«بسـمة» و«مراد» وآخرين ودردشنا وتحمسنا وأخبرت «جيهان» «بسـمة» بما حدث من صديقتهما «رنا» لكن «بسـمة» قالت بعادية شـديدة: «وانتـي كنتـي فاكراها حتعمل إيـه يا جيجـي دي عايزة تبقـى أديبة

الدولـة.. ويكون في علمـك لو كلفوها تركـب مدرعـة وتدخل تخلص على اللي في الميدان حتبتدي بينا الأول»، ابتسـمت لكني بترت البسـمة بسـرعة عندمـا لمحت وجه «جيهـان» ممتقعًا، وحاولـت ونحن فـي إحدى جولات التصوير بجوار البوابة أن أقنع «جيهان» بالخروج للتمشية في الأماكن الآمنة من وسط البلد ثم الجلوس على أحد المقاهي المفتوحة، لكنها رفضت بشدة وعندما أحسـت بضيقي طلبت أن نفعل ذلك في المساء قبيل الحظر بصحبة «خيري» و«بسمة». وفوجئت بعدها بـ«خيري» يهرول ناحيتنا وقال إن هناك أقاويـل بـأن مجموعـات كبيرة مـن البلطجيـة محملين بالأسـلحة الحية في طريقهم إلى الميدان من جهة ميدان عبد المنعم رياض وإنهم كانوا مجتمعين في ميدان مصطفى محمود يتوعدون الموجودين بالميدان وطلب منَّا الحذر والبعد عن فتحات الميدان، ومرت نصف ساعة آمنة ثم سمعنا جلبة وصياحًا وفرقعات وأدخنة سوداء من جهتنا ناتجة عن حرق إطارات الكاوتشوك لمنع المهاجمين من التقدم، وطلبت «جيهان» التقدم للتصوير فرفضت وأطاعتني وأقبل نحونا «مراد» يقول إنه بحث عنَّا طويلًا ثم طلب من «جيهان» أن تصعد إلى منزله لتلحق بـ«بسـمة» التي صعدت بنـاءً على طلب «خيري»، حاولت «جيهان» المراوغة وقالت إنها لو أحست بالخطر ستصعد لكننا ألححنا عليها وأخذناهـا إلى هنـاك وطلب منها «مراد» بحـزم إن أرادت التصوير أن تصور وهـي بعيـدة عن النافذة أو الشـرفة ونبَّه علـى أمه وأختيه بعـدم الخروج إلى الشرفات والنوافذ، وحاولت الأم أن تستبقينا لكننا رفضنا.

وعندمـا عدنا مـرة أخرى إلى الميـدان كانت الأمور قـد تصاعدت أكثر وتحمست وتقدمت أردد الشعارات ثم اشتد الهجوم علينا وجريت وتعثرت ووقعـت.. وفقـدت «مـراد» الـذي اختفى بيـن الجمـوع.. كانـت المعارك

الحقيقية في جهة الفتحة المقابلة لميدان عبد المنعم رياض لكن ربما خوفًا أو من أجل أن أحتفظ بجسدي لـ «جيهان» انسللت إلى الجهة المقابلة الأكثر أمنًا.. جهة مجمع التحرير ومسجد عمر مكرم.. وكانت غالبية الناس قد اختفت منها وذهبوا إلى الأمام ليدافعوا عن الميدان أو يستطلعوا ما يحدث.. لكنني كنت بمفردي أوغل في أماكن بدأت تلفظ الناس منها ثم بدأت أحس بأن الأرض من تحتي تزوم وتهتز وبأن زلزالًا كبيرًا على وشك القدوم بنفس مقدماته التي سمعتها زمان.. وضقت لوهلة عندما انتبهت إلى أن شيئًا دافئًا يسيل على ظهري، ثم اكتست البيوت والأرض التي أجتازها باللون الأخضر وبأعواد مليئة بالثمار والزهور.. وكانت أصوات أجنحة الطيور تصفق وهي تحلق في الهواء أو تحط على الأرض. وفجأة شعرت بالشمس تنخفض بسرعات متوالية وتوقفت فوق رأسي بأمتار قليلة فبدت كل الأصوات والروائح كأنها محتشدة داخل خيمة مسدلة ثم أحسست بنفسي في غرفة باردة جدًا ورغم أني لم أشعر بالبرد على جسدي لكن رأيت قطرات الماء المتناهية الصغر تكسو الدواليب الحديدية التي تغلف جدران الغرفة.. وكانت هناك أنواع كثيرة من الطيور الداجنة منكمشة فوق الرفوف ومناقيرها مدفوسة في ريش صدورها وكانت حواجبها منسدلة إلا من حيز ضيق يظهر جزءًا صغيرًا من عيونها.. وفتح باب دخل منه شخص بدا مألوفًا لي، اقترب مني وسلم عليَّ بيدٍ دافئة ووضع الكوب المليء بالشاي الذي كان يرشف منه عند دخوله بجواره على المحفة الصاج التي أجلس عليها.. وكنت لا أزال أتفرس في وجهه، ثم تذكرت أنه «إمبابي» السمسار الذي يتعامل مع «ريم» فابتسمت وابتسم، ثم فتحت كوة من أعلى دخل منها صقر جميل له عينان بلون الفيروز وانتبهت كل الطيور الساكنة واعتدلت

في وقفتها، وكان «إمبابي» ما زال يضع رباطًا حول ساق جسد بجواري لم أكن قد انتبهت لوجوده إلا في تلك اللحظة، ثم ابتسم مرة أخرى وهمس لي بصوت غريب أقرب إلى صوت فأر يقرض الورق: «اتأخرت شوية يا أحمد.. وأخيرًا جيت.. المهم إنك جيت». واختفى «إمبابي» فجأة مع تغير لون حدقتي الصقر إلى اللون الأرجواني الذي كان يزداد حدة واتساعًا حتى استلبني تمامًا.

ثم رأيت باب مدرسة يدفع بالتلاميذ إلى الشارع.. ومبنى شاهقًا تعلوه لافتة.. ومداخن مصانع يتصاعد دخانها إلى أعلى.. ثم ظلامًا وسمعت نغمات موسيقية لعازف لم يمتلك المهارة بعد.. ثم رأيت كلبًا ينبح على بصيص من الضوء.. وأبي يترنح في شارعٍ خالٍ من الناس.. الغراب وهو يفلت من «ريم».. شيء باهت يخترق الفضاء ثم يبدأ في الوضوح.. وصورة غائمة لـ «جيهان» وهي تضم كفيها بعد أن أغرقتهما بالبارفان كطفلة تبحث عن الدفء. وأمي تحرق ملابسها الملونة عندما سمعت بموت خالي.. وبقع دم ترتعش فوق الأسفلت.. وجملًا جريحًا يئن أنّة طويلة ثم ينكفئ على الأرض.. وطائرة ورقية تتهادى في السماء.. ثم ازداد وجه «جيهان» وضوحا وهي تصوب تجاهي عدسة الكاميرا وتلتقط لقطتها وأسمع التكة مدوية في أذني، بينما شغلتني قدرة «إمبابي» على جمع شمل الأحبة.

انتهت

القاهرة - أول أكتوبر 2014

شكر وتقدير

اكتملت هذه الرواية بالدعم المعنوي الذي لاقيته من بعض قرائي الذين كانت تجمعني بهم المصادفات وكانوا يلحون في قراءة رواية جديدة لي.. وأشكرهم فلولاهم ما خرجت في هذا الموعد..

وأشكر أيضا أصدقائي وأهلي الذين تحملوا التغيرات الحادة المربكة لمزاجي في فترة الإبداع..

وشكر خاص جدًّا للأصدقاء الذين عاونوني في فك رموز بعض المعارف الفنية التي تطرقت إليها في هذه الرواية وفي مقدمتهم الفنان التشكيلي الكبير عادل السيوي والموسيقار الجميل محمد صالح وصديقي النحات شريف عبد البديع وحكيم صالح...

أما القراء السابقون الذين يقيمون الآن في منزلة الصداقة والمحبة والذين لم يكفوا عن متابعتي وتحفيز همتي كي أنجز ما بدأت وعلى رأسهم آلاء سنان ومروة الشعراوي وفاطمة الزهراء أبو دومة.. وغيرهم.. ها أنا قد وفيت بما وعدت وآمل أن يرضيكم..

وشكر خاص لنورهان رشاد على ما تحملته من أجل خروج الرواية بهذا الشكل المشرف الذي يليق بأصالة وعراقة الدار المصرية اللبنانية.

"النسمات الباردة تداعب وجهي والنجوم اللامعات في السماء تخطف بصري.. والشوارع تحتي وقد خلت من الناس إلا فيما ندر تثير في قلبي الشجن.. وهناك على مبعدة تحت ظل تلك الشجرة الوارفة يحكم شخص ملابسه وهو يشير إلى سيارات متعجلة لا تقف، ثم يعتدل ويسند ظهره إلى ساق الشجرة حتى ترضى عنه سيارة وتسمح له بدخولها.. ياه، أحلم كثيرًا بهذا المشهد.. أن يراقب غرفتي رجل يحتمي بظل هذه الشجرة ولا يهدأ ولا تقر عيناه إلا عندما أغلق ضوء غرفتي.. لحظتها يطمئن ثم يغادر.. أين لي بهذا الرجل؟".

***

هذه رواية حكّاءٍ محترف، يطأ بحروفه مفازات البهجة والإحباط، ويحلق في آفاق القبح، باحثًا عن إرهاصات الجمال!

يصنع شخصياته من تفاصيل الحياة، وينثرها على الورق فتبدو كما لو كانت حية.. لها ما للبشر من سمات وتناقضات.. تتقبل مواقفها، أو ترفضها.. تتعاطف معها، أو تتخذ موقفًا ضدها.. لكنك طوال الوقت تعايشها، تراها، بل وأحيانًا تسمعها!

مكاوي سعيد.. كاتب وروائي مصري. بدأ رحلته مع الكتابة بكتابة الشعر في أثناء دراسته الجامعية.. ثم اتجه إلى السرد وأصدر مجموعته القصصية الأولى "الركض وراء الضوء" عام 1982، ثم توالت أعماله الإبداعية في القصة والرواية وأدب الأطفال. ومن أشهر أعماله رواية "تغريدة البجعة" التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية عام 2007، وكذلك كتاب "مقتنيات وسط البلد" و"كراسة التحرير" ومجموعته القصصية "البهجة تحزم حقائبها" الحائزة على جائزة ساويرس في القصة القصيرة للكبار عام 2015. وقد حصل على جوائز وتكريمات أخرى في مصر والبلاد العربية، كما ترجمت مجموعة من أعماله إلى اللغة الإنجليزية والألمانية والفرنسية.

9 789774 279911

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

الدار المصرية اللبنانية